

حقيقة موقف الإسلام

من الأديان والمذاهب الفكرية

دراسة مقارنة

د. محمد أبو حمدان

دار البيروني
بيروت - لبنان

د. محمد أبو حمدان

حقيقة موقف الإسلام من الأديان والمذاهب الفكرية

(دراسة مقارنة)

دار البيروني
بيروت ـ لبنان

الطبعة الثانية
منقّحة
٢٠٠٦م

دار البيروني
تلفون: ٧٥٣٩٥٨ ١ ٩٦١
فاكس: ٣٥٢٩٩٨ ١ ٩٦١
ص.ب.: ٦١٩٩/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني: albiruni@inco.com.lb

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِن الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعيسى، أنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتفرَّقُوا فيه﴾

(سورة الشورى، آية ١٣)

﴿كَذَلكَ زَيَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(سورة الأنعام، آية ١٠٨)

* الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي المؤلف.

مقدمة

انغمـــس الإنســـان في هذه الحضارة المادية التي تبسط سيطرتها على معظـــم بقاع الأرض، وتخلى عن كل ما هو روحي، وحذف الرقابة الإلهية عن كل شؤون الحياة، وتفرعن حتى ألّه ذاته واعتبر نفسه المهيمن على هذا الوجـــود، بما تكشّف لديه من حقائق العلم، ومعطيات التكنولوجيا التي أرقت حـــياته الماديـــة، وزوّدته بمصادر القوة والجبروت. فحرر ذاته من لاءات الـــناموس الإلهي، وأباح لنفسه كل محرمات الدين وملذات الحياة، بعيداً عن أيـــة رقابـــة إلهية أو محرمات شرعية. يقابله، في ما يسمى بالعالم الثالث، شـــعوب مغلوبـــة على أمرها، لم تزل تتعبد لله عبر أديان ترى فيها طريق خلاصها الموصلة إلى رحمته ونيل رضاه حيث النعيم الدائم وجنات الخلد في ملكوتـــه تعـــالى، رغم تخلفها العلمي والتقني والسياسي والاقتصادي، أو قل الدنـــيوي، نشـــأت بينها أجيال جديدة، راحت تتوق إلى حرية الحياة الغربية ومغـــرياتها وبهارجها المبهرة، وتنفصل رويداً رويداً عن تراثها الديني الذي تحـــول محـــرماته بينها وبين متع الحياة التي تتوق إليها نفوس هذه الأجيال. فغـــدت الحضارة الغربية هي المثال، ونمط عيشها هو الهدف. وعزي سبب الـــتخلف الشرقي إلى الدين، وعزي التقدم الغربي إلى التخلص منه. ولم يعد مـــن السهل على الباحث عن الحقيقة إدراكها في خضمّ هذا الاضطراب في الرؤى والأفكار المتضادة.

إن العلمانية، كفلسفة منكرة لوجود أي شيء أو قوة خارج نطاق المادة، استبعدت وجود تلك القدرة الإلهية الخالقة والمدبرة لهذا الوجود، وأحلت الإنسان محل الله، واعتبرت العقل الإنساني القوة القادرة على إيجاد معايير خلقية جديدة لا تحتاج إلى أي برهان يستند إلى الإيمان بالغيب. وفاتها أن عدم الاعتقاد بالله كقوة مدبرة لشؤون هذا الكون يصبح معه كل تصور لدى الناس عن الأخلاق تصوراً يكتنفه الغموض ويخضع بالضرورة لسيطرة المصالح الذاتية والأهواء الشخصية. كما يصبح حكمنا على الأعمال والغايات نتيجة لما تحققه لنا من النفع أو ما تدفعه عنا من الضرر، كمثل مقولة: «كل ما يحدث لذة فهو خير، وكل ما يحدث ألماً فهو شر». أي أن المصلحة حلت كغاية نهائية للإنسان مكان رضى الله. هكذا تصبح مقولتا العدل والظلم ذات معان نسبية تترجم وفق مقتضيات المصلحة الخاصة بالفرد والجماعة. هذه المصلحة التي هي على الدوام عرضة للتغير المستمر بتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية، وأهواء ومطامع البشر. وبما أن مصالح الناس في حالة تناقض دائم، فإن العلاقات الإنسانية تصبح قائمة على الصراع وقانون الغلبة، ويصبح الحق للأقوى. ويصبح إنتاج ما أمكن من وسائل القوة والجبروت الهدف الأهم للدولة. ونتيجة لهذا المفهوم فقد تكدّس في مستودعات الدول ذات النظام العلماني «التقدمي» ما يدمر بضع مرات كرتنا الأرضية وما عليها من حياة. وأصبح بقاء الجنس البشري موقوفاً على اصبع واحد من رؤساء من يملكون الترسانة النووية وزر التفجير.

لذلك ليس في الدولة العلمانية الحديثة معيار ثابت يمكن التمييز به بين الخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل. المقياس الوحيد لدى العلمانيين هو مصلحة الدولة ومصلحة الأفراد.

لكن عدم وجود معيار ثابت للقيم الخلقية يجعل الآراء في تضارب دائم حول ما يخدم هذه المصلحة. وتبقى سياسة الدولة خاضعة لأمزجة الحكام

وميولهم الشخصية ومفاهيمهم العقائدية. وتبقى العلاقات الدولية في اضطراب دائـــم، نظـــراً لتـــباين مصالح الدول. ويستحيل على هيئة الأمم، مهما كانت صلاحياتها، إيجاد رادع للحروب بسبب عدم وجود مبادئ خلقية مطلقة يدين بها الحكام.

إن عـــدم وجود قانون إلهي عام، تلتزم به الدول والشعوب، ويحدد ما هو الحق وما هو الباطل، وما هو الخير وما هو الشر، وما هو العدل وما هو الظلـــم، يلتـــزم فـــيه الـــناس كعقيدة لهم، يجعلونه فوق جميع مصالح الفرد والمجـــتمع، لا يتـــرك علاقات مجتمعية متوائمة، ولا علاقات دولية سليمة. وحده الدين هو القادر على تقديم هذا القانون المطلق الدائم، الذي يميز أعمال الناس بأنها خطأ أو صواب، خلقية أو غير خلقية. لأن كل القوانين الوضعية هي قوانين نسبية وموقتة، تحتاج إلى إعادة نظر وتعديل بين الحين والآخر، ولـــيس لهـــا ديمـــومة القانون الأخلاقي الإلهي الذي لا يتغير عبر العصور والأزمان.

وهنا يطرح السؤال الكبير، هل نجد في الدين ـــ كما هو قائم اليوم ـــ الدواء الناجع لحل مشاكل البشرية في هذا العصر؟

مـــا مـــن شـــك في أن ما أفرزه علم الإنسان عبر العصور من أفكار ومفاهـــيم أضيفت إلى أصول الدين وفروعه قد جانبت الحقيقة في كثير من النواحي، فضاع الأصل بين الفروع، وتماهى ما هو بشري مع ما هو إلهي. وغـــدا الـــدين الواحد أدياناً. ولم يعد يفصل بين التديّن والتمذهب. وقدِّس في النصـــوص ما هو بشري بمستوى ما قدِّس ما هو إلهي. وحصرت الشريعة بفقـــه الفقهـــاء، واجتهاد الكهنة. وكفّر أتباع كل دين أتباع الأديان الأخرى، وحصـــروا بر السماء بأتباع معتقدهم، بل بأتباع مذهبهم، وكل يدعي امتلاك الحقـــيقة ويحجـــبها عن جميع خلق الله الآخرين. وضاع الناس بين تناقض النصـــوص، وكـــلام المتكلمين، ولاهوت اللاهوتيين. وسطر التاريخ ـــ ويا

للأسف ــ صفحات سوداء من الحروب باسم الدين. حتى اتهم الدين بأنه سبب التخلف وسبب التفرقة بين الشعوب.

فكان لا بد لي خلال بحثي عن الحقيقة ــ في كتابي هذا ــ من حصر بحثي في أصول الوحي الإلهي المتمثلة في توراة موسى (الاصحاحات الخمسة الأول) التي تمثل الشريعة. وفي الأناجيل الأربعة التي دونت فيها أقوال وأعمال السيد المسيح. وفي القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة، بعيداً عن شروح الفلاسفة والكهنة وعلماء الدين وعلماء الكلام وعلماء اللاهوت، فرجعت إلى المنابع الصافية بعيداً عن رأي الفرق والمذاهب.

كذلك اعتمدت من البوذية ما سمي بـ«إنجيل بوذا» أي ما حوى كلام وأعمال البوذا (المتنور). واعتمدت من كتب الهندوس ــ بشكل رئيسي ــ كتاب «الجيتا»، أو ما سمي بإنجيل الهندوس. كذلك أخذت من الزرادشتية ما تيسر من «الافستا» كتابها المقدس. كذلك اخترت لدراستي رسالة أول نبي نطق بالتوحيد الإلهي «أخناتون» قبل رسالة موسى بمئات السنين.

هذه الأديان التي يتناولها هذا الكتاب بالمقارنة، بل قل بالمقاربة، ليست هي كل أديان الأرض، لكنها الأهم والأكثر انتشاراً، والأكثر اتباعاً.

في رحلتي بين موضوعات هذه الأديان وما حوته من معان إلهية وإنسانية وجدت كلام الله المتمثل بالوحي الإلهي هو القاسم المشترك فيما بينها جميعاً. وإن هي اختلفت في طرق العبادة وممارسة النسك والطقوس، فإنها لم تختلف في الجوهر والمعنى والغاية. فجميعها مشارف على الحقيقة، ورسالات سماوية تنزّلت عبر حقب زمنية متباعدة كتعاليم إلهية لتتلاءم مع مستوى وعي الناس الذين أنزلت إليهم لكي يسهل فهمها واستيعابها كدواء يداوي نفوسهم، ويجيب على سؤال العقل الأكبر: من أين جئت؟ وإلى أين المصير؟ وما غاية هذا الوجود؟ ويحل ما استعصى من مشاكلهم الفردية والاجتماعية. ويقرب إلى أفهامهم معنى الألوهة المتسامية عن مادية الأرض،

والقـــادرة علـــى كل شيء، والمدبرة لشؤون هذا الكون، جاعلة من الإنسان بعـــدها الإلهـــي فـــي الأرض، مســـتخلفة إياه فيها ومخولته حق التصرف بخيـــراتها، واكتشـــاف قوانيـــنها، والإبداع في صنعته، تمثلاً بخالقه العظيم، والتزاماً بأوامره ونواهيه في رحلة الحياة القصيرة، ليعود بعدها إلى مصدر وجوده، إلى الخالق المتعالي، مبدع السموات والأرض، الذي ميزه عن جميع مخلوقاته بإعطائه حرية تقرير مصيره.

وخلصـــت قناعتي إلى أن مصدر هذه الأديان واحد، وإن هي إلا تعدد في مدرسة الوحي الإلهي الواحدة، التي ابتدأت بآدم واختتمت برسالة محمد، مـــروراً بجميع الأنبياء والمرسلين، كما سوف نبين في صفحات هذا الكتاب. فرســـالة السماء دين واحد مهما تعددت فصوله وتنوعت أحكامه، ومهما تكن المبادئ التي يرتكز عليها فإنها تقوم أولاً على الإيمان بأن كل كينونة في هذا العـــالم إنما هي من خلق قوة مبدعة واعية لذاتها ولما تعمل، إنها إرادة الله. وتقوم ثانياً على الاعتقاد بأن على الإنسان أن يكون في توافق روحي مع هذه الإرادة. وعلـــى أســـاس هـــذا الاعتقاد تقوم الملكة التي نميز بها بين الخير والشر. فالإيمان بوجود قوة عالمة مدبرة، والالتزام بما أنزلت إلينا من تعاليم إلهـــية، هو الميزان الذي يجعلنا نميز بين كل عمل من أعمالنا بأنه خير أو شر، خلقي أو غير خلقي.

فالعلوم، رغم تطورها المذهل في هذا العصر، ظلت عاجزة ـــ وأظن أنها ستظل كذلك ـــ عن اكتناه سر هذا الوجود، ولم تستطع الإجابة عن كثير من تساؤلات العقل البشري من مثل: ما هي الحياة في ذاتها؟ وما هي طبيعة الوجـــود البشـــري؟ ومـــا الغرض من هذا الوجود؟ كيف جاء كل شيء إلى الوجود؟ ماذا يحصل بعد الموت؟ ما غاية الحياة؟...

إن تعريفاً للخير والشر يبقى ناقص المعنى ما لم يرتبط بمعرفة طبيعة الوجود البشري، والغاية النهائية لهذا الوجود! لأن علوم المادة ليس لها علاقة

مباشرة بحياة الإنسان الخلقية والروحية. ولا يمكن أن تصدر حكماً فاصلاً في مسألة الغاية من الحياة البشرية، وبالتالي لا يمكن أن تمدنا بتوجهات مفيدة عن نوع السلوك الاجتماعي الذي يجب أن نسلكه لتحقيق سعادتنا الروحية؟

فالعلم لم يتنطّح لوضع أسس للأخلاق، ولو حاول لن يكون ذلك في استطاعته، لأن هذه المسألة لا تقع مطلقاً في دائرة العلم، بل في نطاق الدين، القادر وحده على إعطاء الحياة البشرية معناها، وأن ينمّي فينا الشعور بالحاجة إلى تكييف أسلوب تفكيرنا وسلوكنا ليتفقا مع القيم الخلقية المستقلة تماماً عن التأثر بكيفية وجودنا الفردي الخاص، وإلى التسامي عن أنانياتنا وغرائزنا.

إن الشعور الديني ليس مرحلة عابرة في تاريخ التطور الروحي للإنسان ــ كما يرى بعض أساطين العلمانية ــ ولكنه المنبع الأول لكل أفكاره الأخلاقية، والمصدر الذي استمد منه كل تصوراته الأدبية، فهو ليس ثمرة من ثمرات السذاجة العقلية التي اتصف بها الإنسان في العصور الهمجية الأولى بحيث يستطيع هذا العصر «المستنير» أن يستأصلها من ضميره، ولكنه الجواب الوحيد لحاجة أساسية وحقيقية من حاجات الإنسان لحل أزمته في كل العصور والبيئات. وهذا الشعور هو غريزة من الغرائز التي أرستها الفطرة في النفس البشرية. جاء في الإنجيل على لسان بولس الرسول: «الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس أنفسهم الذين يظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم» (روميه ٢/١٤ ــ ١٥). وجاء في القرآن أنّ الدين هو: «**فطرة الله التي فطر الناس عليها**» (الروم، ٣٠).

إن هذه الحضارة العلمانية التي بلغت من التقدم العلمي والتكنولوجي ما مكنها من أن تجعل كرتنا الأرضية تغدو بحجم قرية صغيرة ــ كما يقال ــ وذلك بسيطرتها على الزمان والمكان، بما اختصرت من الوقت، وقصرت

مـــن المســـافات. ونحن لا ننكر لهذه الحضارة المغرقة في ماديتها ما قدمت للبشـــرية من وسائل الراحة والرفاه والرقي في شتى نواحي الحياة. لكنها إذ ارتقـــت بـــبعد الإنســـان المادي، وأشبعت حاجاته الجسدية، فقد أنكرت بعده الروحـــي، وأهملت ناحية هامة من حياته وكينونته الإنسانية. فهي لم تستطع أن تقـــدم له السعادة الكاملة التي لا تتحقق إلا بإشباع بعده المادي والروحي معـــاً. فلعل حاجات الروح لها الأولوية على حاجات الجسد في مجال تحقيق سعادة الإنسان، وتحقيق السلام الداخلي في نفسه.

فـــي هذا الكتاب دعوة إلى مفكري هذه الحضارة لمراعاة البعد الديني لـــدى الإنسان، ليس كفرد وحسب، بل كمجتمع ودولة ونظام، ومراعاة تعاليم الســـماء فـــي التشريع وأساليب العيش، وضبط السلوك بما يتلاءم مع لاءات الـــناموس الإلهي المتمثل في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد،وبالقرآن الكـــريم المصدق لهما والمتمم لشرع الله، وبالكتب السماوية الأخرى كي تتم ســـعادة إنسان هذه الأرض، وتسود الأخلاق الصحيحة التي لا وجود لها إلا في تعاليم السماء، من أجل تقويم وتصحيح العلاقات الإنسانية وسيادة العدالة بين الشعوب ووضع حد لرعب الحروب وويلاتها، وبذلك يتحقق حلم البشرية بتحقيق السلام الذي دعت إليه كل الرسالات الإلهية.

وفي الكتاب أيضاً جولة في أعماق أصول نصوص الأديان السبعة التي مـــرّ ذكـــرها، وسبر أغوارها سعياً وراء الوصول إلى الحقيقة الإلهية التي تجمـــع بيـــنها. وإنني أعرضها كما توضحت لي، بهدي من الله تعالى، على القـــارئ، آملاً أن يشاركني القناعة التي توصلت إليها بأن هذه الأديان، على تعـــدد نصوصها، إنما هي دين واحد، مصدرها واحد هو الله، وغايتها واحدة هي خير الإنسان في دنياه ومعاده.

د. محمد أبو حمدان

الفصل الأول

معرفة الله جل جلاله

إن القاسم المشترك بين جميع الأديان هو الإيمان بوجود الله. فلا دين بلا إله يعبد. فالإنسان وما يحيط به من عوالم مخلوقون، والله هو الخالق، في نظر المؤمنين، الذي منه البداية، وإليه المنتهى، وبيده مصير كل شيء. فهو القادر الذي لا حدود لقدرته: «**إن الله على كل شيء قدير**» (الطلاق، ١٢). والعالم الذي لا حدود لعلمه: «**لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض**» (سبأ، ٣). «**ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**» (غافر، ١٩). «إن جميع شعور رؤوسكم محصاة» (متى ١٠/٣١).

فهل عرفنا الله؟ وهل معرفته ممكنة لعقولنا وهو المطلق الذي لا يُحدّ؟ وهل معرفته يقينية أم احتمالية؟ وهل معرفته ذاتية تختلف بين إنسان وآخر، أم هي موضوعية تتفق عليها جميع العقول كالحقائق العلمية؟

المعرفة الموضوعية لله تعالى

للإجابة على الأسئلة أعلاه، لا بد من الخوض في يقينية المعرفة، وما هو الممكن وغير الممكن فيها؟

في علم المعرفة (الابستيمولوجي) يوجد مذهبان: المذهب العقلي والمذهب التجريبي أو الوضعي.

فالمـــذهب الأول: يستند في يقين المعرفة إلى قوانين قبلية موجودة في العقـــل هي بمثابة ركائز له يستمد يقينه من وضوحها. وتعتبر تلك القوانين القبْلية المصباح الذي ينير للإنسان طريقه في عالم التجربة والوقائع، ويفسر على ضوئها كافة ظواهر الوجود، من مثل:

١ ــ مبدأ الهوية أو الذاتية: أ هي أ. شجرة البرتقال هي شجرة.

٢ ــ مـــبدأ عـــدم التناقض: لا يمكن أن تكون أ هي ب ولا ب. لا يمكن أن يكون فلان عالماً وغير عالم في الوقت نفسه.

٣ ــ مـــبدأ الـــثالث المرفوع: إما أن تكون ب أو لا ب، فلان إما أن يكون عالماً أو غير عالم.

هـــذه القوانين عند أرسطو جاءت من العقل، وولد الإنسان مزوداً بها. وهي معيار اليقين في كل عملية عقلية.

والمذهب الثاني: ينطلق في بناء المعرفة من التجربة الحسية، ويعتبرها المصدر الوحيد الذي يمدّ عقولنا بجميع أنواع المعارف. ويعتقد أصحاب هذا المـــذهب أن لـــيس ثمـــة قوانين قبلية في ذهن الإنسان مستقلة عن التجربة والخبـــرة، بما في ذلك القضايا العقلية الصرفة كالرياضيات، فالإنسان يستمد أفكـــاره فقـــط مـــن تجاربه، دون أن يستند إلى أية أفكار قبلية. فالتجريبيون ساووا بين قضايا المنطق والرياضيات وقضايا العلوم، وأعطوها درجة اليقين نفسها، وهي عندهم درجة احتمالية. ذلك لأنهم أرجعوا الرياضيات والمنطق إلـــى التجربة، ولم يعترفوا بها كعلوم عقلية صرفة. فالعلم، عندهم، هو علم بوقائع يتملاها الحس وتقع تحت التجربة المخبرية في عالم المادة. وقد أعطوا لهذه التجارب صفة صحة النتائج كلما تكررت. فكلما ألقينا جسماً في الهواء يســـقط إلـــى الأرض بفعل الجاذبية، وكلما سخنا الحديد يتمدد، وكلما بردّناه يتقلص، ضمن حتمية طبيعية هي من خصائص قوانين هذا الوجود.

إذاً، فالمذهب التجريبي أو الوضعي هو المذهب الذي يسود في عصر العلم، لأنه يبحث عن اكتشاف القوانين التي تحدد العلاقات الثابتة بين الظواهر، بالانتقال من الواقعة الجزئية إلى القانون الكلي الشامل الذي يطبّق من ثم على الجزئيات. وقد نفوا عن طريقتهم العلمية هذه صفتها العقلية القبلية، وأرجعوها إلى الحس الذي هو الأساس الوحيد للمعرفة البشرية كلها، وليس إلى قوانين قبلية موجودة في العقل، كما عند أرسطو.

في هذه الطريقة الاستقرائية العلمية هنالك مسلّمة ميتافيزيقية ينتهجها العلماء أساساً لأبحاثهم العلمية؛ وهي أن الطبيعة محكومة بحتمية تخضع لها جميع الظواهر وتنتظمها في علاقات ثابتة ومضطردة. ومهمة العالم أن يكتشف هذه العلاقات عن طريق الملاحظة ثم الفرض ثم الاختبار. إذ إن القوانين العلمية هي عبارة عن عملية اختصار لعلاقات كثيرة في مبدأ واحد شامل.

أصحاب هذه الطريقة لم يعد يعنيهم مبدأ العليَّة أو السببية شيئاً. ولم يعد للعليَّة مفهومها القديم عند الميتافيزيقيين بكونها سبباً فاعلاً لوجود المعلول؛ أي لم يعد لكل معلول علة، ولكل سبب مسبب، وبالتالي لم يعد لكل موجود موجد، ولكل مخلوق خالق، بل أصبحت طرقهم تبحث عن مجرد علاقة ثابتة بين ظاهرتين، وجردت من مفهوم الأثر الخارج من العلة إلى المعلول. وأصبحت هنالك مصاحبة بين شيئين، فمجرد وجود أحدهما يعني وجود الآخر، واختفاؤه اختفاء له. فزيادة الضغط على الغاز يصغر حجمه، ونقصه يكبِّر هذا الحجم. وارتفاع الحرارة هو علة صعود الزئبق في أنبوب الترمومتر، وانخفاضه يصاحب بانخفاض في الأنبوب. يحدد الضغط بالنسب والأرقام، ويحدد الحجم كذلك[١].

---

(١) راجع كتابنا، طرق الفكر ـ الاستقراء ـ منشورات دار الكتاب اللبناني، ص ١٢.

إن أصـــحاب هذه الطريقة العلمية الذين اعتمدوا الحس كطريقة وحيدة لــلإدراك قـــد أنكـــروا كل معرفة وراء هذا العالم المحسوس؛ فالله والروح مفهومان يقعان خارج عالم المادة، وبالتالي خارج نطاق الحواس. فهما خارج التجربة الحسية، أو قل العلمية، لذلك لا يستطيع العقل البشري ـــ وفق رأيهم ـــ أن يكـــوّن عنهما أية معرفة. وإذا كان الله موجوداً فوجوده لا يقع ضمن نطـــاق معارفـــنا، وهكذا قصروا المعرفة على عالم المادة فقط، وأنكروا كل معرفة ميتافيزيقية، أي ما وراء المادة.

هل قوانين العلم التي نتجت عن التجربة هي قوانين يقينية؟

نحـــن لســـنا مـــع المذهب العقلي الذي يرى أن في العقل قوانين قبلية أودعهـــا الله فيه «كعلاقة صانع بصنعه». والذي يرد اليقين في المعرفة إلى مبادئ الفكر القبلية التي يسلم بها العقل دون مناقشة، والتي هي غير محتاجة بطبيعـــتها ـــ فـــي رأيهم ـــ إلى برهنة لوضوحها. كما يعترفون أن البرهان عليها غير ممكن.

ونحن لسنا مع المذهب التجريبي الذي حصر المعرفة بعالم المادة فقط، وأنكر كل معرفة ما وراء المادة المحسوسة التي تقع تحت التجربة المخبرية، التي تنتج معارف احتمالية، حيث أنكروا على العقل الإنساني إنتاج أية معرفة يقينية، (كما سنبيّن).

نحن نرى أن الفكر هو حكم العقل على واقع، وأن الحقيقة هي مطابقة الفكـــر للواقع. لكن الواقع، لكي يكون واقعاً، فلا بد أن يكون له وجود مادي يقـــع ضـــمن نطاق الحس. نحن نلتقي مع المذهب التجريبي بأن الحس هو وســـيلتنا إلى أية معرفة يقينية. فالعملية العقلية هي إحساس بالواقع، ومن ثمّ إصدار الحكم العقلي عليه. لكن الله والروح لا يقعان ضمن نطاق حسنا لكي نصدر حكماً عقلياً صحيحاً عليهما. لذلك قسمنا المعرفة إلى قسمين: ١ ـــ ما هو واقع. ٢ ـــ ما له واقع يدل عليه.

فعندما أنظر إلى الطبيعة وأشاهد الجبال والشجر والناس أمامي، فهل يرقى إلى نفسي الشك بأن ما أشاهده ربما يكون غير موجود؟ طبعاً لا.

وكذلك عندما أشاهد الشمس مشرقة تضيء بنورها الطبيعة في نهار صافٍ، فلا يستطيع أحد أن يثير الشك في ذهني بوجودها.

من أين جاء هذا اليقين هنا؟ إنه جاء من واقع يقع ضمن نطاق الحس الذي ينقله إلى الدماغ، فيصدر العقل حكمه المباشر القطعي على وجوده.

نرانا هنا نتفق مع المذهب الوضعي الذي يعتمد الواقع المحسوس طريقاً وحيداً للمعرفة. لكن معارفه الناتجة عن التجربة والاختبار المادي هي معارف احتمالية، لأن القوانين العلمية التي هي قمة المعارف عندهم «مُسلّم بصحتها موقتاً حتى تثبت التجربة خطأها». كما يرى أساطين العلم. يقول برتراند راسل: «إن العلم يقرر أحكاماً على سبيل التقريب لا على سبيل اليقين». إذ كم من الحقائق العلمية التي كان عصر ما يؤمن بها ثم سقطت بعد توفر التجارب والأبحاث الداحضة لها. فلا أحد يستطيع أن يجزم ببقاء قانون علمي عبر العصور دون أن يأتي يوم يمكن أن يقال إنه خطأ. ومثالنا عن غاليليو الذي أثبت، بالبرهان العلمي التجريبي، أن الأجسام ذات الأوزان المختلفة تسقط إلى الأرض بالسرعة نفسها، وهذا نقض لنظرية أرسطو التي كانت تقول بأن الأجسام الأثقل هي الأسرع في السقوط، والتي عاشت كقانون علمي حوالى الألفي سنة كحقيقة مسلّم بصحتها بين جميع العلماء.

كذلك كان العلماء يسلمون بأن الذرة هي الجزء الذي لا ينقسم إلى أصغر منه. وإذا بعلماء هذا العصر يجزئون الذرة ويقسمونها إلى عناصر: البروتونات، والنترونات، والإلكترونات.

نستنتج من ذلك أن المعارف العلمية هي معارف احتمالية لأن العالِم عندما يخضع ظاهرة ما للاختبار في معمله يجعل من هذا المعمل أو المختبر طبيعة مصغرة، يجمع فيها كل ما أمكنه من العناصر المؤثِّرة في المادة

المـراد إجـراء الاختبار عليها؛ من حرارة ورطوبة وضغط جوي... الخ. ويعـزل هذه العناصر أو بعضها. وهو، بالتالي، يتحكم بعناصر الطبيعة لكي يشاهد تأثيرها في المواد المراد اختبارها. لكن العوامل الطبيعية المؤثرة في المادة هي من الكثرة بحيث لا يمكن لأي مختبِر أن يدعي أنه استطاع عزلها أو التحكّم بها جميعاً. إذ إن العلم قد اكتشف بعض عناصر الطبيعة، ولا يزال أمامه الكثير منها لمّا يكتشف بعد. ففي اختبار التفاعل الكيميائي بين مادتين، أو مشـاهدة نمـو نبـتة، لا يمكـن حصر العوامل المؤثرة جميعها في هذه الظواهـر، ومعرفة أية أشعّة كونية دخلت في هذا التفاعل وأثّرت في مجرى عملية النمو أو التحوّل.

لكن العلماء يعملون ويختبرون ضمن ما هو معروف لديهم، أي ضمن إمكانـاتهم المخبرية. لذلك فإن الاختبارات العلمية تبقى ضمن الممكن؛ إذ لو أمكـن اكتشـاف عناصر أخرى وعرف لها تأثير على المادة المختبرة لكان لدينا نتائج مغايرة، وبالتالي قوانين أخرى.

فعليه يبقى القانون العلمي ضمن مبدأ الاحتمال؛ أي في حال توفر كذا عناصـر يحـتمل الحصول على كذا نتائج. وفي حال توفر عناصر أخرى يحـتمل الحصـول على نتائج أخرى. وهكذا فإننا لا نستطيع الجزم والتسليم بصـدق القانون العلمي، وإنما فقط باحتمال صدقه في الظروف نفسها وعلى العناصر نفسها.

إن الذين أنكروا وجود الله استندوا إلى أن الطريقة الوحيدة للمعرفة هي الطريقة العلمية التي تعتمد التجربة والاختبار سبيلاً وحيداً للمعرفة الصحيحة. وإن مـا ينـتجه العقل من معارف، من خلال تصوراته ولا يخضع للتجربة المخبـرية، فهو مجرد أفكار تصورية لا يُركن لصحتها، لأنها لا تمثل واقعاً محسوساً، حيث لا معرفة خارج نطاق الحس، وبالتالي لا معرفة خارج نطاق المادة.

وبمـــا أن الله، ذلك الكائن اللامادي، اللامحسوس، لا يقع تحت إدراك الحـــس والتجـــربة الماديـــة، فالقول بوجوده قول غير علمي، وبالتالي غير واقعـــي. وفـــي أحســـن الأحـــوال، عند هؤلاء التجريبيين أصحاب المذهب الوضعي؛ إذا كان الله موجوداً فليس لدينا طريقة لمعرفة وجوده.

مـــن هنا، فنحن نقسم المعرفة إلى قسمين: ١ـــ معرفة بوجود الشيء، وهي معرفة قطعية. ٢ـــ معرفة بماهيته، وهي معرفة احتمالية.

فالذي يرى الشمس يحكم عقله حكماً قطعياً على وجودها ـــ كما أسلفنا ـــ لكـــن عـــندما يروح العقل يسأل عن درجة حرارتها، وسرعة دورانها وسرعة سيرها في المجرة، وعمرها و... فإن الأحكام العقلية هنا تكون كلها احتمالية، لأنها تبحث في ماهية الشمس.

فحكـــم العقـــل علـــى وجود الأشياء يكون حكماً قطعياً، وحكمه على ماهـــياتها يكـــون حكمـــاً احتمالياً، والعلم هو علم بالماهيات، فنتائجه تحتمل الصحة وتحتمل الخطأ.

إذن، فهل لعقولنا أن تحكم على وجود الله تعالى حكماً قطعياً ونحن لا نراه، ولا يقع ضمن نطاق قوانا الحاسة؟

للإجابـــة على هذا التساؤل نقسم الوجود إلى قسمين: ١ ـــ ما له واقع. ٢ ـــ ما له أثر واقع يدل عليه.

إذا جاء أحد بكتاب، وقال لنا بأنه وجد هذا الكتاب عندما كان يحفر في أرضه، وحاول أن يقنع عقولنا بأن الطبيعة قد أنتجت هذا الكتاب، فإن عقولنا سترفض رفضاً قطعياً. لماذا؟ لأنها تدرك من خبرتها القَبْلية بأن الكتاب يلزم لـــه كاتب يحسن فن الكتابة، عاقل، متعلم. ولا بد للكاتب من قلم، ولا بد للقلم من صانع. ولا بد للورق الذي يؤلف صفحات الكتاب أيضاً من صانع عاقل خبير بصنع الورق.

فهـــنا حكم عقلنا حكماً قطعياً على وجود الكاتب، وعلى وجود صانع القلم وصانع القرطاس. لكن، عندما نريد أن نعرف ماهية الكاتب أو الصانع مـــن دراســـة نـــص الكتاب، محاولين معرفة مستوى ثقافة الكاتب، وفي أي عصـــر كـــتب، ونوع هذه الثقافة، ومدى صحة افكاره، وما قيمة المعارف المتضمنة في هذا الكتاب، وما هي جودة الورق المكتوبة عليه... فهنا تكون استنتاجاتنا عبارة عن أحكام احتمالية، لا ترقى إلى مستوى الأحكام القطعية. لأنـــنا هـــنا نحكم على ماهية الكاتب والكتاب. أما حكمنا على وجود الكتاب الذي نراه ونلمسه فهو حكم قطعي لا يرقى إليه شك أو احتمال.

وبالنســـبة للكاتب، أو الصانع، فقد أصدر عقلنا حكماً قطعياً أيضاً على وجودهما من آثارهما (صنع الكتاب) رغم أنهما غائبين عن حسنا. أما عندما حاولنا التعرف عليهما والإحاطة بشخصيهما وعلمهما فقد اصدرنا حكماً عقلياً تقريبياً احتمالياً لا قطع فيه.

نســـتنتج، مـــن هذا المثل، أن العقل يحكم على وجود الشيء من آثاره حكماً قطعياً، ويحكم على ماهيته حكماً احتمالياً.

أما بالنسبة لله عز وجل، فهل لعقولنا أن تحكم على وجوده حكماً قطعياً يقيـــنياً؟ أم تبقى معرفتنا به معرفة احتمالية، تحتمل الصواب وتحتمل الخطأ؟ من شاء فليؤمن ومن شاء فلينكر، وفق قناعته الشخصية، أو إيمانه القلبي، ما دام لـــيس هـــنالك تأكيد جازم على وجوده، يقع ضمن طاقاتنا العقلية وقوانا العارفة؟

فلو طبقنا مثل الكتاب على هذا الوجود الماثل أمام حواسنا، وطبقنا مثل الكاتـــب علـــى الله جل جلاله، فكما حكمت عقولنا على وجود الكاتب حكماً قطعـــياً، رغم أننا لم نره، ــ من وجود الكتاب ــ أي من أثر الكاتب. كذلك تحكم عقولنا على وجود الله كموجد لهذا الوجود، حكماً قطعياً لا شك فيه، من هذا الوجود عينه كأثر يدل عليه.

إن العقل إذ يتبصر في هذا الكون بما فيه من مجرات ونجوم وكواكب وأقمار، منذ أن وجدت منذ مليارات السنين، إلى أن تنتهي وتفنى بعد مليارات السنين، فهي تسير بمسارات ثابتة، وتخضع لقوانين صارمة، لا تستطيع الانحراف عنها ولا الانفكاك منها. وهنا يتساءل عقلنا بطريقة فطرية، هي من طبيعة هذا العقل: من وضع هذه النجوم في مساراتها؟ ومن حدد سرعتها ورسم طرقها؟ وما هي القوى التي تحكمها لتؤمِّن عدم انحرافها؟ وبالتالي من أوقد هذه الأفران الذرية (النجوم) من الهيدروجين والهليوم التي تبلغ حرارتها ملايين الدرجات؟ ومن وضع الكواكب في أفلاكها، تدور حول نجمها بانتظام محتوم لا تحيد عنه خلال مليارات السنين؟

قد يجيبك مجيب: إنها تدور وتسير وتنضبط حركاتها، كما اكتشف العلماء، بحكم قانون الجاذبية الذي ينظِّم مساراتها، ويمنعها من الانفلات أو الانحياز عنها. وهنا يستحضر العقل الإنساني وبشكل آلي، السؤال التالي: ومن وضع لها قانون الجاذبية؟ هل هو وجد بنفسه أم له موجد؟ كما السؤال: هل كُتب الكتاب بنفسه أم له كاتب؟ وكيف استطاع هذا القانون السيطرة على هذا الكون شبه اللامتناهي، والذي اكتشف العلماء منه ملايين المجرات وكل مجرة تحتوي مليارات النجوم، ولكل نجم مجموعة كواكب تدور حوله، ولكل كوكب أقماره، تجري كلها بسرعة هائلة، وبدقة لامتناهية، دون أن يصيب أي منها انحراف أو خطأ أو تغيّر إلا ضمن نطاق السيطرة الكلية. فهل سيطر هذا القانون بقوته الذاتية أم سيطر بقوة غيره؟ ومن هو هذا الغير؟

وإذا انتقلنا من عالم المجرات والنجوم، الأعلى، الذي لم يدرك علماء الفلك الذين يحاولون سبر أغواره بمسابيرهم العملاقة، إلا اليسير منه، إذا انتقلنا إلى العالم الأدنى عالم الذرة، هذا الكائن المتناهي في صغره، الذي يساوي عشرة أجزاء من المليون جزء من المليمتر. وهذه الذرة ليست أصغر كائنات الوجود، بل هي مؤلفة من نواة، والنواة مؤلفة من بروتونات ونترونات يدور في فلكها حول النواة الكترونات، بسرعة ٥٠,٠٠٠ كلم في

الثانــية. وكتلة الإلكترون تقل عن كتلة الذرة، كذرة الهيدروجين مثلاً ١٨٥٠ مرة. وبين النواة والإلكترونات فراغ هائل بحيث إذا أردنا أن نملأ فراغ ذرة بالإلكتــرونات لاحتجنا إلى مليون مليار الكترون. وإذا أردنا أن نعرف وزن الإلكتــرون بالنســبة للغــرام الــواحد لكــان علينــا أن نضـــع هذا الرقم ٩,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠ وهذه النسبة تساوي خمس غرامات بالنسبة لوزن الكرة الأرضية[١].

مما تقدم لا بد من طرح الأسئلة التالية:

١ ــ من وضع هذه الإلكترونات في مسارها حول النواة، ومن حدد لها هذه السرعات الهائلة؟

٢ ــ من وضع الطاقة الهائلة في نواة الذرة لتمسك بالنترونات والبروتونات؟ هــذه الطاقــة التــي تــبلغ ٢٢,٠٠٠ كيلوات ساعة للغرام الواحد من اليورانيوم، فيما لو تم انشطار ذراته.

٣ ــ مــن حدد عدد الإلكترونات والبروتونات في الذرة ليخلق أنواعاً مختلفة من المادة؟

هو نفسه الذي خلق الذرة المتناهية في الصغر، وجعلها مؤلفة من نواة والكترونات تدور في فلكها عكس دوران عقارب الساعة، خلق الشمس كنواة تدور في فلكها الكواكب بسرعات هائلة عكس دوران عقارب الساعة أيضاً، وبنسب تكاد تكون متساوية. هذه ذرة متناهية في الكبر وتلك ذرة متناهية في الصــغر. وكما أن كل عناصر المادة في أرضنا مؤلفة من ذرات، كذلك كل عناصر السموات مؤلفة من شموس بكواكبها وأقمارها، ومجرات مكونة من

---

(١) الــذرة والكــون، تأليف بيار روسو. ترجمة عصام ميّاس ــ دار الكتاب اللبناني ــ ص ١٩.

هــذه «الذرات العملاقة»، تدور في أفلاكها بسرعات هائلة. فسبحان الخلاق العظيم.

وإذا كــان العلمــاء قد أدركوا وجود الذرة قبل أن يتمكنوا من رؤيتها بعشــرات السنين. وهم يدركون اليوم أجزاءها دون أن يتمكنوا من رؤيتها، وذلــك مــن فعلها في تفاعل المادة، أي من آثارها. فكيف لعقول بعضهم لمّا تجمــع بعد على أن تدرك إدراكاً جازماً لوجود الله خالق وموجد ذرات هذا الكون؟ بذلك يقول القرآن: «**إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**» (الرعد، ٣).

والخلية التي تتألف منها كل أجسام الكائنات الحية، والتي تحتوي على ثلاثين ألف مورثة، كل منها محكومة ببرمجة لا تبرح تطبقها دونما اختيار، لتنــتج منها مكونات الكائن الحي بصفات مرسومة ومبرمجة سلفاً، ومكتوبة فــي هــذه الجيــنات أو المورثات بحروف تبلغ الأربعة مليارات في صفحة الجيــنوم، يعكــف علمــاء العصر على حل رموزها كي يتمكنوا من قراءة البرمجة المكتوبة فيها.

وهنا عقلنا يسأل: من وضع هذه البرمجة في كل مورثة من المورثات الثلاثــين ألفــاً التــي تحــتوي عليهم الخلية الواحدة التي يبلغ حجمها الكلي ١/١٠،٠٠٠ من المليمتر المكعب؟ وكيف استطاع أن يكتب الأربعة مليارات حــرف في هذا الكائن المتناهي في صغره؟ وأية سلطة ترغم هذه المورثات على تنفيذ ما وضع فيها من برمجة، بشكل آلي وحتمي؟

لــيس للعقل البشري، الذي هو قبس من نور الله، إلا أن يجيب جازماً: إنها قدرة الله، القادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، هو الذي خلق العوالم الكبــرى والعــوالم الصغرى بدقائقها وعجيب صنعها. هو نفسه الذي خلق القلوب للكائنات الحية تنبض بحركة ذاتية دونما توقف خلال عشرات السنين، تضــخ الــدم في شرايين الإنسان والحيوان ليل نهار، وهو نفسه الذي خلق

الدماغ البشري المؤلف من مليارات الخلايا، الذي يحتقر عنده أكبر الحواسيب الذي اخترعها عصر العلم.

يحضرني هنا قولين متناقضين: أحدها لرجل لا يؤمن بخالق لهذا الكون العظيم، هو نيكيتا خروتشوف رئيس الاتحاد السوفييتي الأسبق، عندما قال قولته الشهيرة بعد رجوع الرواد السوفييت من جولة في الفضاء خارج جاذبية الأرض: «لقد صعد روادنا إلى السماء لكنهم لم يجدوا أثراً لما يسمى الله». قالها بلهجة السخرية والاستهزاء بأولئك الذين يؤمنون بوجود إله لهذا العالم، خاصة منهم أولئك «السذّج» الذين يظنون أن إلههم موجود في السماء، هذه القبة الزرقاء التي تشاهدها عيونهم في العلاء. ويرددون صلاتهم إليه كل يوم: «أبانا الذي في السماء ليتقدس اسمك...».

ظن خروتشوف أنه قدم البرهان الحسي القاطع على صدق النظرية المادية التي لا تعترف بوجود إله، والتي بها يؤمن، لأولئك الذين لا زالت عقولهم من الانغلاق والسذاجة والتخلف بحيث يؤمنون بوجود إله موهوم، ابتدعته مخيلتهم وأسكنته في السماء. ذلك المكان المستعصي على بلوغ بني البشر. فها هم رواده قد بلغوه وطافوا به، واكتشفوا حقيقته ولم يجدوا فيه أثراً لذلك الكائن الأسطوري.

والقول الآخر هو للإمام علي بن أبي طالب الخليفة الراشد، عندما سأله أحدهم: «هل رأيت الله؟». والإمام علي، كما هو معلوم، هو قمة من قمم العرفان الرباني. فلعل السائل أراد أن يتلقى الإجابة القاطعة التي تزيل لديه أي شك في وجود الله سبحانه، إجابة فصل يتلقاها من مصدر كان لا يشك في صدق معرفته. أجابه الإمام علي على سؤاله بقوله: «ومتى غاب عني كي لا أراه؟».

ما كان الإمام علي يقصد بقوله هذا بأنه فعلاً كان يتفرد برؤية الله ومشاهدته متشخصاً أمامه، فيتأكد من وجوده بالحس والنظر. وإلا يكون قد

خـــالف عقــيدة الإسلام الذي نزه الله عن التشخص والتجسد، والوقوع تحت معطيات الحس البشري. وإنما كان يقصد أنه يرى الله بعين بصيرته، مستدلاً علــيه مــن تنوع وإبداع خلقه في هذا الوجود المتشخص الذي يدل بوضوح شمس مشرقة على الخالق المبدع.

ومــن خصـــائص هــذا العقل الذي يشاهد الطبيعة، بما فيها من جماد ونــبات وأحياء، أن يطرح أسئلة كثيرة، عددها بعدد تنوع سنن هذا الوجود وحركة الحياة فيه:

مــن علّــم هذه المليارات من الطيور التي تجتاز في رحلتها السنوية آلاف الأميال باحثة عن غذائها وعن المناخات التي تلائم تزاوجها وتفريخها وحفــظ نوعها؟ من وهب لكل منها البوصلة التي تستهدي بها عبر اجتيازها الــبحار والمحــيطات والجــبال دون أن تضل طريقها في ليل أو نهار لتبلغ مكانها المرسوم لها في برمجة هي فوق منال أرقى عقول البشر؟

ومــن علّم سمك السلمون الذي ولد في نهر، بعد إمضائه زمناً طويلاً يجوب عباب البحار، من علّمه أن يكافح عكس مجرى النهر الذي خرج منه ليعود إلى نبعه حيث ولد ليضع بيضه فيه؟

مــن علّــم مولود الحيوان أن يهرع فور ولادته إلى ضرع أمه يستدر حليبها؟

مــن علّم العنكبوت أن ينسج بيته بهذا الفن الدقيق، ويجعل منه مصيدة يصطاد بها الحشرات من أجل تأمين غذائه؟

مــن علّــم النبــتة الصــغيرة أن تأخذ من ضوء الشمس لتصنع مادة الكلوروفيل لتكسو جسدها باللون الأخضر؟

مــن علّم النباتات أن تمتص ثاني أوكسيد الكربون في النهار، وتمتص الأوكسجين ليلاً من أجل التوازن في الطبيعة، والمحافظة على حياة الكائنات الحية؟

ومــن... ومــن...؟ مليارات من الأسئلة التي يطرحها عقلنا أمام كل مظهر من مظاهر الحياة، فلا يستطيع إلا أن يستدل على وجود الخالق العالم القادر «**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**» (طه، ٥٠) فسبحان الله الخلّاق العليم.

نستخلص، جازمين مما تقدم، أن العقل الإنساني يستطيع أن يحكم حكماً قطعياً على وجود كائن غائب من آثاره التي تدل عليه.

هــذه الطــريقة العقلــية، التي تقوم على الملاحظة (الإدراك الحسي المباشــر) ثم الاستنتاج، هي طريقة القرآن في استثارة عقول الناس لإدراك وجوده، كخالق مدبر لهذا الوجود:

«**إن فــي اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون**» (سورة يونس، ٦).

«**فلينظــر الإنســان إلى طعامه. أنّا صببنا الماء صبّاً، ثم شققنا الأرض شقّاً، فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً**» (سورة عبس، ٢٤-٢٨).

«**فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب**» (الطارق، ٥-٧).

«**أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض**» (الأعراف، ١٨٥).

«**أفلــم ينظــروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج**» (ق، ٦).

«**والأرض مــددناها وألقيــنا فــيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج**» (ق، ٧).

«**تبصرة وذكرى لكل عبد منيب**» (ق، ٨).

«**أفــلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت**» (الغاشية، ١٧-٢٠).

ويصف القرآن الذين اقتنعت عقولهم بوجود الله، وعمرت قلوبهم بالإيمان: «**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض. ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك، فقنا عذاب النار**» (آل عمران، ١٩١).

آراء بعض العلماء الذين أدركوا وجود الله من مخلوقاته

يقول انشتاين، رداً على سؤال الكاتب الأميركي جورج فيرك: «إن العقل البشري، مهما بلغ من عظيم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الإحاطة بالكون. فنحن أشبه الأشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة، ارتفعت كتبها حتى السقف فغطت جدرانها. وهي مكتوبة بلغات كثيرة. فالطفل يعلم أنه لا بد أن يكون هنالك شخص قد كتب تلك الكتب، لكنه لا يعرف من كتبها، ولا كيف كانت كتابته لها، وهو لا يفهم اللغات التي كتبت بها. ثم إن الطفل يلاحظ أن هناك طريقة معينة في ترتيب الكتب، ونظاماً خفياً لا يدركه هو، لكنه يعلم بوجوده علماً مبهماً. وهذا على ما أرى موقف العقل الإنساني من الله، مهما بلغ هذا العقل من السمو والعظمة والتثقيف العالي»[1].

نلاحظ هنا أن العالم أنشتاين يعطي للعقل إمكانية إدراك وجود الخالق، ولكنه يقر بأن إدراك ماهيته يبقى العقل البشري قاصراً عنها ويبقى علمه بها «علماً مبهماً» كما عبر انشتاين.

وجاء في الحديث النبوي: «لا تفكروا في ذات الله فتهلكوا، بل فكروا في آلائه». إن التفكير في ذات الله (أو ماهيته كما قدمنا) لا تريح العقل لاستحالتها عليه، أما التفكر في وجود الله من خلقه فهذا مجاله.

---

(١) الألوهة وفكر العصر ــ تأليف حامد عوض الله ــ نشر المركز الثقافي الجامعي ــ القاهرة ــ ص ٢٢٦.

ويقـــول الدكـــتور «وولتز اسكار لندبرج» عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية الأميركي، والأستاذ بجامعة «مينسوتا» وعميد معهد هورمل منذ عام ١٩٤٩: «نســتطيع القــول، بكـــل دقة، إن هذا الانتظام في ظواهر الكون، والقدرة على التنبؤ بها ــ وهما الأساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلمية ــ هما في الوقت ذاته، أساس الإيمان بوجود الله. إذ كيف يتسنى لنا أن نتنبأ بهذه الظواهر ما لم يكن هناك مبدع ومدبّر وحافظ لهذا النظام العجيب؟».

ويقـــول الدكـــتور «جـــورج ايـــرل دافيـــز» عالم الطبيعة الأميركي والأخصـــائي في الإشعاع الشمسي والبصريات الهندسية والطبيعية، ورئيس قســـم البحوث الذرية في البحرية الأميركية ببروكلن: «المنطق الذي نستطيع أن نأخـــذ به، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه الشك، هو أنه ليس هنالك شيء مادي يستطيع أن يخلق نفسه. وإذا سلمنا بقدرة الكون على خلق نفسه، بذلك نصف الكون بالألوهية، ومعنى ذلك أننا نعترف بوجود إله.

إن الـــتطور الذي تكشف عنه العلوم في هذا الكون هو ذاته شاهد على وجـــود الله. وإن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله، وتدل على وجوده دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها».

أما الدكتور «توماس دافيد باركس» أستاذ الكيمياء ومدير البحوث في شـــركة كلوروكس الكيماوية، والأخصائي في النظريات الكهربائية والأشعة الســـينية، فـــيقول: «إنني أقرأ النظام والتصميم في كل ما يحيط بي في هذا العـــالم غير العضوي، ولا أستطيع أن أسلم بأن يكون كل ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء التي جعلت ذرات هذا الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة. إن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع، ونحن نطلق على هذا المبدع «الله»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٨ و ٢٢٩.

وقد أدرك هذه الحقيقة (معرفة وجود الله من مخلوقاته) بالعقل والتفكر، قدماء الفلاسفة.

يقول طاليس (٦٢٤ ق.م. ــ ٥٥٠ ق.م.)[١]: «إن للعالم مبدعاً لا تدرك صفته العقول من جهة **هويته**. وإنما من جهة **آثاره**. وهو الذي لا يعرف اسمه، فضلاً عن هويته، إلا من نحو فاعليته وإبداعه وتكوينه الأشياء. فلسنا ندرك له اسماً من نحو ذاته بل من نحو ذواتنا».

ويرى فيثاغورس (ولد ٥٨ ق.م.)[٢]: «أن الباري تعالى واحد كالآحاد، ولا يدخل في العدد، ولا يدرك من جهة العقل، ولا من جهة النفس. فلا الفكر العقلي يدركه، ولا المنطق النفسي يصفه. فهو فوق الصفات الروحانية، **غير مدرك من نحو ذاته**، وإنما يدرك **بآثاره وصفاته وأفعاله**. وكل عالم من العوالم يدركه بقدر **الآثار** التي تظهر فيه صنعته».

ويقول سقراط (ولد في أثينا سنة ٤٧٠ ق.م.)[٣]: «إن الباري تعالى لم يزل هوية فقط، وهو جوهر فقط. وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه، وحقيقته، وتسميته، وإدراكه، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره. فهو المدرِك حقاً، والواصف لكل شيء وصفاً، والمسمي لكل موجود اسماً. فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسماً؟ وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفاً؟ فلا يدرك إلا من جهة **آثاره وأفعاله**. وهي أسماء وصفات، ولكنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر، المخبرة عن الحقيقة. وذلك مثل قولنا إله، واضع كل شيء. وخالق، أي مقدر كل شيء، وعزيز، أي ممتنع أن يضام. وحكيم، أي محكم أفعاله. ولا يبلغ العقل أن يصفها، ولو وصفها لكانت متناهية».

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني، ج ٢، ص ٦١ ــ دار المعرفة ــ بيروت.
(٢) المصدر نفسه، ص ٧٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٨٣.

ويقــول محمــد رسول الله (ص): «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره». (كنز العمال، ج ٣، ص ١٠٨).

الإدراك الذاتي لله تعالى

هــل معــرفة المؤمنين بالله والتعبد له منذ فجر التاريخ الديني وحتى يومــنا هــذا معــرفة موضــوعية واحدة تلتقي عليها كل عقول المؤمنين، وتدركــه إدراكــاً مــوحداً؟ أم هل معرفة الله معرفة ذاتية تختلف بين إنسان وآخر؟

إن جميع المؤمنين بدين يدركون وجود الله كخالق ومدير لهذا الوجود إدراكاً موضوعياً واحداً، لا يختلف بين دين ودين، ومتدين وآخر. أما إدراك ماهــية الذات الإلهية (وهي معرفة احتمالية كما بينا سابقاً) فهي تختلف بين ديــن ودين، وبين فرد وآخر من الدين نفسه. ولست أظنني أغاير الحقيقة إذا قلــت إنه لا يلتقي عليها اثنان بالفهم نفسه والتصور نفسه عبر آلاف السنين من التدين والإيمان بالله.

فعقــل الإنسان البدائي لا يستطيع أن يتعبد لإله غائب عن حسه. لذلك فهــو يخلــق لنفسه إلهاً ينحته من حجر أو يتمثله في صخرة أو شجرة، أو يــرفعه إلــى الشمس أو القمر أو أحد الكواكب، ويتعبّد له إلهاً مرئياً يستطيع رؤيته، فيبصر حالته، ويعينه على مشاق حياته.

وإلــه أخناتون الواحد، لم يكن إلهاً مجرداً، بل تمثل بالشمس المشرقة على الناس ليقرب من أفهامهم.

ونجــد الآلــه «كرشنا» عند الهندوس عاد إلى الأرض وتجسد بجسد بشر، وعاش حياته عادية كأي إنسان، حيث كان يمارس مراهقته مع الفتيات حالــبات البقر كأي شاب بشري، وعند نضوجه أعطى تعليماته الإلهية لوليه

«ارجـــونا». ثـــم أصابه سهم خطأً فقتله. عند ذلك ارتفع بروحه إلى السماء الروحانية التي تبلغ ثلاث أضعاف حجم السماء المادية التي نشاهدها فوقنا[١].

وإلـــه بني إسرائيل الواحد الذي كان مرحلة متقدمة عن آلهة التاريخ، كـــان يتمثل لهم بشكل نار أو سحاب (خروج ٢٤: ١٥ و١٨) بعامود سحاب نهـــاراً وبعامود نار ليلاً (عدد ١٤: ١٤) نوراً يسير أمامهم في هجرتهم من مصـــر عبر صحراء سيناء. وينزل عليهم المن والسلوى طعاماً لهم في تلك الصحراء القاحلة. ومع هذا كانوا يضيقون ذرعاً بهذا الإله غير المتجسد لهم تجسداً بشرياً كاملاً، رغم وجود الوسيط الناطق باسمه نبيهم موسى الذي كان يكلمـــه الله «فمـــاً إلـــى فم، وعياناً يتكلم معه لا بالألغاز». لكنه «شبه الرب يعـــاين» (عـــدد ١٢: ٨). ومع هذا، كانوا من حين إلى آخر يتوقون إلى إله متجســـد غيـــر غائب عن حسهم، موجود دائماً أمامهم، يخاطبونه فيسمعهم، ويـــتكلم إلـــيهم فيســـمعونه. وحدث يوماً أن طالت غيبة موسى على الجبل، فـــبادروا إلى صنع إلههم المتجسد الذي يتوقون إليه، عجلاً من ذهب، وبنوا مـــذبحاً أمامـــه وراحوا يتعبدون إليه. (خروج ٣٢: ٤ ــ ٦) فغضب الرب عليهم، وأمرهم بقتل أنفسهم، حتى قُتل منهم «في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف» (خروج ٣٢: ٢٩).

والمسيح، علَّم الناس أن يصلوا «أبانا الذي في السماء» تقريباً لعقولهم أن هـــذا الإلـــه الغائب عن أرضهم، وعن أنظارهم، له وجود في السماء مع ملائكـــته، وهو يراهم ويسمع صلواتهم وأدعيتهم، ويراقب أعمالهم، ويعينهم على مصاعب حياتهم، ويتقبل القديسين والصالحين عنده في ملكوته.

وإلـــه القرآن الذي جاء بعد المسيح بستة قرون، هو المجرد المطلق، فوق الزمان وفوق المكان، لأنه خالق الزمان والمكان. «**ليس كمثله شيء**»

---

(١) راجع كتاب البهاجافاد جيتا ــ أو «أنشودة السماء» ــ ترجمة رعد عبد الجليل جواد ــ دار الحوار ــ سوريا ــ اللاذقية.

فــلا يتمثل بأية صورة مادية أو أية صورة بشرية. لكن، عندما يتحدث عنه القــرآن، لم يكن بد من استعمال اللغة البشرية ليقرب فهمه إلى عقول الناس. واللغــة مؤلفــة من كلمات، والكلمات لها مدلولاتها المادية التي تنطبق على وقــائع فــي الحــياة. فكان للآيات القرآنية، التي تتحدث عن الله، تعابيرها الماديــة، تسهيلاً للأفهام. من مثل قوله: «**وسع كرسيه السموات والأرض**» (سورة البقرة، آية الكرسي). وقوله لنبيه نوح: «**اصنع الفلك بأعيننا**» (هود، ٣٧). ويخاطب نبيه محمداً بقوله: «**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**» (الطور، ٤٨) أو فــي قوله: «**يد الله فوق أيديهم**» (الفتح، ١٠). فنجد أن لله كرسي وأعين ويد. وهذه ألفاظ مستعارة تعبر عن معان مجردة: فالكرسي: سلطانه، واليد: استطاعته ومقدرته، والعين: علمه ورعايته.

من هنا، نجد أن كل دين يعطي صورة تقريبية لماهية إلهه، تتناسب مع الحقــبة التاريخــية التي جاء فيها هذا الدين، وتتناسب مع مفاهيم ناس ذلك العصر، لتقرب من أذهانهم واستيعاب عقولهم، وفقاً لمستوى ثقافاتهم.

وفــي واقعنا المعاش، لا تتفق عقول الناس ومفاهيمهم على فهم واحد للإلـــه. فالإنسان المؤمن، من أي دين كان، يرسم صورة، يتخيلها في ذهنه، لإلهــه الذي أدركه، وفق مستواه العقلي، ومستوى ثقافته، ووفق ما استطاع استنباطه وفهمه من نصوص الكتب الدينية، وشروحات علماء الدين، فيرسم له صورة «شخصية» (تخصه وحده ولا يشاركه فيها أحد) تكون محببة إلى نفسه، يخاطبه في صلاته، ويناجيه في حله وترحاله، ويستعين به عند المحن والشدائد. ويستغفره عن ذنوبه، ويقيم معه علاقة حميمة من المحبة والإجلال والرجاء.

وخلاصة القول: إن الإنسان يصيغ إلهه في مخيلته صياغة ذاتيه وفق مفاهيمه الدينية الخاصة به. ويضع له الصفات التي تتناسب مع مستوى فهمه الشخصــي. وكثيراً ما يكون لإرادته وميوله تدخل كبير في رسم صورة هذا الإله.

لكن الإسلام قد أدرك هذه الحالة من ضعف العقل البشري وقصوره عن إدراك الذات الإلهية، فما يكاد المصلي المسلم يبدأ صلاته بوقوفه بين يدي الله مستفتحاً بقوله: وجهت وجهي إلى فاطر السموات والأرض... حتى يتوجب عليه أن يتلفظ بكلمة «الله أكبر». وعليه أن يردد هذه العبارة من التكبير مع كل حركة من حركات صلاته، وقوفاً وركوعاً وسجوداً، من بدايتها حتى نهايتها. كأنما هي تنبيه للمؤمن المصلي كي لا يرسم في مخيلته، عن غير قصد منه، صورة تجسدية محدودة للذات الإلهية المطلقة غير المحدودة، فيقع في خطأ التجسد الذي نزّه الإسلام الله عنه، كأن يتصور وفق محدودية عقله البشري، ومحدودية خياله، أن من يتوجه إليه بدعائه وركوعه وسجوده يجلس، تعالى، في عليائه على كرسي عرشه، تحيط به عظام ملائكته! وكأني بعبارة «الله أكبر» التي يرددها المصلي في كل حركات صلاته، ترمي إلى تنبيهه، وبصورة متواصلة: أن الله أكبر مما تصورت ومما تخيلت، ومما يمكن لعقلك أن يدرك. فكرسيه وسعت السموات والأرض، فلا مكان يحدها ولا عقل يحيط بها. امحُ ما توهم فكرك وغلب ظنك، فالله أكبر.

من واقعنا المعاش نشاهد نماذج من الناس، غير ملتزمين بدين، عرفوا الله بطريقتهم الخاصة، واستخدموه لتحقيق مآربهم؛ فربما يستعين لص بإلهه (وليس بالله تعالى) ليوفقه في مهمة سرقة صمم القيام بها، وليستر عليه ويجنبه الوقوع في يد القضاء! ورب مقامر يدعو إلهه كي يوفقه في ليلته التي سيمضيها على طاولة القمار بين المقامرين. فهؤلاء فهموا الله فهماً ذاتياً عابراً لم يدخل إلى عمق تفكيرهم، ولكنه ربما يكون قد لامس شغاف قلوبهم، فصاغوه على هواهم، قوة يستعينون بها على تحقيق غاياتهم. بذلك يقول القرآن الكريم محقراً هذه الفئة التي تتخذ إلهها هواها: «**أرأيت من اتخذ إلهه هواه**» (الفرقان، ٤٣).

وكم شهد التاريخ من متنطِّح باسم الدين، والدين منه براء، فأحل لمحاربين سفك الدماء واجتياح الأوطان، وقتل أبرياء، ظناً منه أنه ينصر دين إلهه، فطوَّع إلهه وفق رغبات نفسه وباع دينه بدنياه.

أما الذين أيقنت عقولهم بوجوده تعالى، إلى أي دين انتموا، وعمرت قلوبهم بالإيمان وقدروا الله حق قدره، فهم في صلاتهم خاشعون، وعن الباطل معرضون، وبأوامر الله ملتزمون، أولئك هم لربهم عارفون، فلا يرتكبون محرماً، ولا يتعدّون حدود الله، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخشون في الله لومة لائم، أولئك هم المؤمنون الصادقون.

نستطيع أن نوجز هذا البحث بالقول: إن عقول البشر المحدودة مفطورة على إدراك وجود الله اللامحدود إدراكاً قطعياً موضوعياً، وهي غير قادرة على إدراك ماهيته وجوهره إلا إدراكاً احتمالياً تقريبياً ذاتياً.

على الإيمان بوجود الله تلقي جميع الأديان، والخلاف الذي بينها يقوم على البحث في صفاته وماهيته: هل هو واحد أحد فرد صمد، كما في الإسلام؟ أم هو واحد في ثلاثة أقانيم، كما في المسيحية؟ هل هو إله لا يميز بين إنسان وإنسان، ويتساوى عنده جميع خلقه، ولا يتمايزون عنده إلا بأعمالهم الصالحة؟ أم هو إله خاص بشعب، يرعاه ويميزه عن سائر البشر؟ كما في اليهودية. هل تشمل عنايته ورحمته ومحبته كل أتباع الأديان في الأرض؟ أم له دين خاص وجماعة خاصة تنعم برعايته وتنحصر عنايته ومحبته بها وحدها؟

الفصل الثاني

رأي الإسلام في اليهودية والمسيحية

الدين، كما يعرفه الناس، هو الانقياد والطاعة والالتزام بعقيدة، يدين بها الإنسان ويخلص لها.

والدين، لغة، من دان، أي حاسب. فالدين المحاسبة. والديّان هو الله. ويوم الدينونة هو يوم الحساب والجزاء. «**مالك يوم الدين**» أي مالك يوم الحساب. وفي الحديث: «الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت». أي حاسبها على عملها.

والدَّيِّن هو الذي يلتزم بدين؛ يأتمر بأمره، وينتهي عما نهى، ويحل ما أحلّ، ويحرِّم ما حرَّم.

وتطلق كلمة دين على العقيدة التي تدعو إلى الإيمان بوجود إله لهذا الوجود، والالتزام بأوامره ونواهيه؛ أي بشريعته التي شرع على لسان الأنبياء والرسل.

والتديّن فطرة فطر الله الناس عليها. إذ العقل البشري مفطور على طرح الأسئلة التي تتعلق بمصيره: من أين جئت؟ كيف وجد هذا الوجود؟ ما هدف الحياة؟ هل هنالك بقاء بعد الموت؟ هل هنالك موجد لهذا الكون؟ هل هنالك ثواب أو عقاب بعد الموت؟

هذه الأسئلة يطرحها الناس بالفطرة، محاولين الإجابة عليها، سواء أكانوا مُلتزمين بدين أم لا، وسواء أكانوا مؤمنين بوجود إله أم منكرين لوجوده. فلكل إنسان دينه الطبيعي أو الفطري ، الذين ينبع من تكوين العقل

الإنسـاني. والأديـان تعترف بهذا الدين الفطري، كما جاء على لسان بولس الرسول، في المسيحية: «لأنه الأمم الذين ليس عندهم الناموس، هم ناموس أنفسهم. الذين يظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم» (روميه ٢/١٥).

ويـذهب الإسلام إلى أن الله فطر الناس على الدين: «**فطـرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيِّم**» (الروم، ٣٠). وجاء في الحديث النبوي: «كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يمجّسانه أو يهوِّدانه أو ينصِّرانه» (الترمذي، باب القدر ٥).

إحـدى وظائف الدين هي إراحة العقل البشري بالإجابة على تساؤلاته حـول مصـيره الفردي الذي يبقى مقلقاً ومحيراً أمام واقع الحياة وغموض المـوت. ومهما حاول الإنسان اكتناه الحقيقة، وتوغل في ماهية الوجود، فلن يصل إلى بر الأمان واستقرار العقل، وراحة النفس، إلا بالإيمان بدين يوضح لـه مسيرة عمره في هذه الحياة الدنيا، وعاقبة أمره بعد الموت. وغاية الدين هي تعريف الإنسان بخالقه، أولاً، ورسم سلوكه في الحياة، ثانياً. أي ما يسمى بالإيمـان والأخلاق. فالإيمان بالله هو الطريق لاطمئنان النفس بأن لها خالقاً وراعـياً ومدبـراً، ومعيـناً في غمرة هموم الحياة ومشاقها، تلجأ إليه عند الصـعاب، وتسـتغيث بـه في الملمات، وتطمئن إلى مصير رحلتها، الأشد غموضـاً، بعـد الموت، فتسعى إلى نيل رضاه، أملاً بحياة مطمئنة، وسعادة غامـرة فـي الحياة الأخرى. وطريقها إلى ذلك، المسلك الحسن، والأخلاق الحمـيدة، التي رسمها الدين أو الشرع الإلهي، على لسان الرسل في الكتب السـماوية. ومـن مهمات الدين ترتيب العلاقة الإنسانية، من حيث المعاملة والروابط الاجتماعية، بحيث تنتقل البشرية من عهد البدائية، والغرائزية، إلى عهد القوانين الاجتماعية، وأنسنة الإنسان، ومن عهد شريعة الغاب، التي تقوم علـى غلـبة القـوة، والالتصـاق الكلي بالمادة، إلى عهد التسامي إلى الله والانتصـار للحق والفضيلة. من عهد اعتبار الإنسان الآخر هو العدو الذي يجـب قهـره والـتغلب عليه، بموجب قوانين الصراع من أجل البقاء، إلى

اعتباره أخاً في الإنسانية، ينبغي محبته والتسامح معه، واعتباره البعد الإلهي في الأرض. فعمل الخير له يكون قربة إلى الله خالقه وخالقنا من نفس واحدة، وصورة واحدة، تجلت فيها قدرة الله ورحمته. ويأتي أمر السماء بوجوب التراحم: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (ترمذي، بر ١٦).

كان انتقال الإنسانية من مرحلة اللادين إلى مرحلة الدين قفزة نوعية كبرى في تاريخ الإنسانية؛ انتقال من الهمجية إلى الحضارة، ومن شبه الحيوانية إلى الأنسنة، ومن الفوضى المطلقة إلى النظام الاجتماعي المقونن والمشرع بالوحي الإلهي وتعاليم الكتب السماوية. وقد وضع الدين روادع ومحرمات من أجل تنظيم حياة الناس؛ فحرّم مثلاً القتل حفاظاً على حياتهم، وحرّم الزنى حفاظاً على الزواج الذي جعل له قدسية خاصة من أجل الحفاظ على الأسرة، الخلية الأولى في بنية المجتمع، وحرّم السرقة حفاظاً على الأموال، وحرّم الربا ليرفع عن المحتاجين ظلم المرابين. وحرّم السكر حفاظاً على العقول، وحرّم شهادة الزور من أجل استقامة العدالة في المجتمعات البشرية، وحرّم الظلم والبغي والفواحش والتكبر والنميمة والغيبة والبخل والكذب والخديعة، وكل عمل يضر بمصلحة الفرد والجماعة، وسماه شراً... وحضّهم على كل عمل فيه مصلحة للناس، وسماه خيراً؛ كالصدق، ومساعدة المحتاج، والتصدق على الفقراء، وإنصاف المظلوم، وبرّ الوالدين، والتواضع، والتعفف، وإغاثة الملهوف، وحسن الجوار...

والمتبصر في حياة المجتمعات الإنسانية، منذ بداية وجود الإنسان على هذه الأرض، يرى الفارق الكبير بين مرحلة ما قبل الدين، ومرحلة ما بعد نزول الرسالات السماوية. فالمرحلة الأولى هي أشبه بالحياة الحيوانية، تنطلق فيها الغرائز على هواها، حيث لا تحريم لأي عمل مهما كانت إساءته للمجتمع، بينما الأخرى، أخذت تعمل على ضبط غرائز الإنسان وتنظيم سلوكه، وتكوين المجتمعات الإنسانية التي تحكمها الشرائع وتنظمها المعتقدات

الدينـية التـي تنمـي الروابط بين الإنسان وخالقه، وتلزمه بالأخذ بما أمر، وتجنّـبه مـا نهى. وما نهى الدين عنه هو كل ما يجنّب الإساءة إلى الآخر، فـرداً أو مجتمعاً. فالعمل أصبح قربى إلى الله وابتغاء مرضاته. هذا الرضى الذي يمني الإنسان بحياة سعيدة وتوفيق في هذه الحياة الدنيا، وكذلك ـ وهو الأهم ـ يمنّيه بحياة سعيدة بعد الموت، حيث ينعم بدخول الجنة التي عرضها السموات والأرض، وفيها كل ما تشتهي الأنفس، كما يقول القرآن، أو يدخل فـي ملكـوت الله، حـيث يحظى بالسعادة والنعيم الدائم، كما يقول الإنجيل. فالـدين جعـل لله رقابة دائمة على سلوك البشر، ونمى ضمائرهم على حب الخير ونبذ الشر، والتطلّع إلى حياة أخرى خالدة، أسمى من هذه الحياة الدنيا الفانية.

لكن الله القادر على كل شيء، لم يرفق أوامره بإجبار الناس على اتباع التعالـيم الإلهـية، بـل أعطاهم الحرية الكاملة في أن يسلكوا بمقتضاها أو يهملوها. إذ «**لا إكراه في الدين**» (البقرة، ٢٥٦). ويقول الإمام علي في نهج البلاغة: «إن الله أمركم تخييراً، ونهاكم تحذيراً».

لكـن الله الذي كما جاء في القرآن: «**لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء**» (آل عمران، ٥) و«**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**» (غافـر، ١٩). «ويحصي حتى شعور رؤوسكم جميعها» كما يقول الإنجيل (متـى ١٠/٣٠). جعـل على الناس رقابة دائمة، لا تنفك تسجل كل صغيرة وكبيـرة من عمل الإنسان. وقد ورد في آي القرآن: «**وإنّ عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون**» (الانفطار، ١٠ ـ ١٢) فملائكة الله تسجل كـل عمل، مهما قلّ أو كثر، خيراً كان أم شراً. ومصائر الناس في آخرتهم تتقرر في هذه الدنيا وفق أعمالهم: «**من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**» (الزلزلة، ٧). ففي يوم القيامة، أو يوم الدينونة، تعرض

أعمال الناس على الله، فيثيب المحسن حسب حسناته، ويجازى المسيء وفق سيئاته. «**ولا يظلم ربك أحداً**» (الكهف، ٤٩).

فطريق الخلاص إذاً هي أولاً: الإيمان بالله خالق هذا الوجود ومالكه، لا يشاركه فيه أحد. وثانياً: الإيمان بحياة أخرى بعد الموت، يخضع فيها الإنسان للمحاسبة على أعماله التي عملها في هذه الحياة الدنيا. وثالثاً: الإيمان بأن العمل الصالح هو سبيل النجاة، وأن سلوكه يؤدي إلى رضى الله وحياة النعيم. وأن العمل السيّئ يؤدي إلى غضب الله ودخول نار جهنم.

تعدّد الأديان

بما أن الإله واحد، والمرسِل واحد، والغاية واحدة، فلماذا تعددت الأديان والرسالات السماوية؟ لماذا لم يكن ثمة دين واحد، تدين به البشرية جمعاء، وتتجنب ما حدث عبر التاريخ من صراعات بين أتباع هذه الديانات؟ وهل من الممكن، بعد مرور آلاف السنين على التجربة الدينية، وبعد أن وصل الإنسان في هذا العصر إلى ما وصل إليه من علوم ومعارف إنسانية، أن تتوحد هذه الأديان في دين واحد، كما توحدت في المعرفة العلمية؟ أو على الأقل، هل من الممكن أن تعترف هذه الأديان بعضها بالبعض الآخر وينتهي الصراع فيما بينها إلى الأبد؟ وهل هذه الأديان هي، فعلاً، تنزيل من الله بواسطة رسل وأنبياء، أم وضعها رجال عباقرة مصلحون اجتماعيون من أمثال موسى وعيسى ومحمد وبوذا وزرادشت و...؟ وهل هنالك أديان سماوية جاءت من عند الله عبر رسل، وأديان أخرى وضعية من صنع الإنسان؟

سوف أحاول الإجابة على جميع هذه الأسئلة، مقسماً الأديان إلى فئتين:

أولاهما: الأديان الإبراهيمية، وأعني بها اليهودية والمسيحية والإسلام. أو ما اصطلح المسلمون على تسميتها بالأديان السماوية.

ثانيهما: ما اصطلح أتباع الأديان الإبراهيمية على تسميتها بالأديان الوضعية؛ كالبوذية والزرادشتية والهندوسية وديانة أخناتون المصرية.

وحدة الدين

الإسلام ينفي تعدد الأديان، ويعتبرها رسائل من الله إلى بني البشر، أنزلت على مراحل بواسطة الأنبياء والرسل، الذين كان أولهم آدم وخاتمهم محمد. مروراً بكافة المرسلين. وهذه الرسائل واحدة في مضمونها وإن تعددت نسخها.

ويبين القرآن أن مصدر الكتب السماوية واحد، وهو «أم الكتاب»، الأصل الموجود في «اللوح المحفوظ» الذي ينزّل الله الآيات منه على عباده، وفق مستوى إدراكهم وتطورهم الزمني، ومدى قدرة استيعابهم للتنزيل الإلهي. «**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**» (سورة الرعد، ٣٩).

ويقول القرآن الكريم: «**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**» (سورة البقرة، ٢١٣). فالكتاب هنا، اسم جنس. يقصد به التنزيل الإلهي، أي الكتب السماوية.

ويقول القرآن: «**نزّل عليك الكتاب** (القرآن) **بالحق مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان**» (آل عمران ، ٢-٤).

فالله يخاطب نبيه محمداً بأن الكتاب الذي أنزل عليه، أي القرآن، هو مصدّق لما جاء قبله من الكتب السماوية، أي التوراة والإنجيل اللذين فيهما هدىً للناس وفيهما تفريق بين الحق والباطل كالقرآن. وهذا اعتراف بنبوة موسى صاحب التوراة وبنبوة عيسى المسيح صاحب الإنجيل، وبالتالي، اعتراف باليهودية والمسيحية دينين سماويين.

فالقــرآن يأمــر المسلمين أن يؤمنوا بالكتب المنزلة جميعها، وبالرسل الــذين أنــزلت عليهم هذه الكتب: «**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً**» (سورة النساء، ١٣٦).

فالإســلام يــرى فــي اليهودية والمسيحية دينين سماويين، يؤلفان مع الإسلام رسالة إلهية واحدة، أرسلت إلى بني البشر في حقب تاريخية مختلفة، لتتلاءم مع وعي الناس في تلك الحقب، واستعداداتهم الفكرية لفهم واستيعاب التعالــيم الإلهــية، ولــتعالج مشــاكلهم الاجتماعية، وتضع حلولاً لها، وفق الظــروف السائدة في تلك الفترة الزمنية التي بُعث فيها النبي، وأنزلت فيها التعالــيم الإلهية، على أن تكون مضامينها التعليمية والتوجيهية صالحة لكل زمان.

فشريعة موسى المتمثلة بالوصايا العشر التي تلقاها من الله ليعلمها لبني إســرائيل كتعاليم إلهية، تضبط المجتمع الإسرائيلي وتحدد سلوك أفراده، قد جاء المسيح ليقرَّها، ويصحح بعض الانحرافات في تطبيقها، وجاء بعده محمد بالقــرآن، ليس ليقرَّها وحسب، بل ليتوسع في تشريعها، وليجعل منها شريعة الإسلام الحنيف التي طبقت في الدولة والمجتمع الإسلاميين اللذين أقامهما.

ويقــول القرآن: «**الذين كذَّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا، فسوف يعلمــون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون**» (سورة غافر، ٧٠-٧٢).

فالله يحذر المؤمنين بالقرآن (المسلمين) من الكفر بالكتب السماوية التي أنــزلت من قبله على رسل الله (التوراة والإنجيل) بأن كفرهم بها سيعرضهم لعقــاب شــديد في الآخرة، إذ تكون الأغلال في أعناقهم وهم يسجرون في جهــنم، ويحترقون في حميم نارها. إن هذه الآية هي من أكثر آيات القرآن

تخـــويفاً وتهـــويلاً لعذاب الله. وإنني لأرى فيها تحذيراً للذين يتعصبون ضد الأديان السماوية الأخرى، وينكرون ما فيها من وحي إلهي، ويحصرون كل الحقيقة بطائفتهم.

ويعلِّم القرآن المسلمين بأن كمال إيمانهم يكون بشموله جميع الرسالات الســـابقة منذ نبي الله إبراهيم حتى نبي الله محمد: «**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرِّق بين أحد منهم ونحن له مســلمون**» (البقــرة، ١٣٦). وعلى المسلمين، أتباع دين محمد، أن يعلنوا لأتــباع الديانات الأخرى أن الإسلام هو الإيمان بالأنبياء وبالكتب السماوية جمــيعها، دونما تفريق بين رسول ورسول وكتاب وكتاب، رداً على قولهم: «**كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا**» قولوا لهم: «**بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**» (سورة البقرة، ١٣٤). فليس بالنصرانية أو اليهودية وحدهما يصـــير الهدى والخلاص، بل بطريق التوحيد، والبعد عن الشرك، على نهج نبـــي الله إبـــراهيم أبي الأنبياء، صاحب الرسالة الحنيفية الموحدة، بل: «**ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل**» (سورة الحج، ٧٨).

فـــدين الله واحد، وهو يقوم على التوحيد أي الإقرار بوحدانية الله الذي لا شـــريك له، والاستسلام لأمره، وهذا هو الإسلام. «**أفغير دين الله يبغون ولـــــه أســلم من في السموات والأرض طوعاً وكَرْهاً وإليه يُرجعون**» (آل عمـــران، ٨٣). في هذا حضّ للمؤمنين على معرفة قدرة الله، حيث أسلم له مـــن فـــي السموات من الملائكة، وخضعت له الأكوان بأجرامها ومجراتها مكرهة ضمن القانون الطبيعي الذي فرضه الله عليها، فلا تستطيع منه فكاكاً. وحـــيث أسلم له المؤمنون من الناس طوعاً واختياراً، مستسلمين لأمره تعالى بمحض إرادتهم إذ «**لا إكراه في الدين**» (سورة البقرة، ٢٥٦). وذلك تكريماً لبني آدم الذين ميَّزهم الله عن جميع خلقه بإعطائهم حرية التصرف، وحرية

المعـــتقد، بعـــد أن بيّن لهم عن طريق رسل الله: «**قد تبيّن الرشد من الغيّ**» (البقـــرة، ٢٥٦) طريق الخير وطريق الشر؛ الطريق الموصل إلى رحمة الله ورضـــوانه، ودخول جنته، والطريق المؤدي إلى غضبه والولوج إلى جهنم وســـوء المصير. فهم مخيَّرون بين الإيمان والكفر: «**فمن شاء فليؤمن ومن شـــاء فليكفـــر**» (الكهـــف، ٢٩). فالإنسان، وفق القرآن، يرسم بملء حريته واختياره طريق آخرته؛ إن خيراً فخير أو شراً فشر: «**فمن يعمل مثقال ذرة خيـــراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**» (الزلزلة، ٧ و٨). «**ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً**» (الكهف، ٤٩).

كذلك يعلم الله نبيه محمداً أن الإيمان بالإسلام إنما يشمل الإيمان بجميع الكـــتب السماوية، وجميع من سبقه من النبيين، دونما تفرقة بين نبي ونبي، وكـــتاب وكتاب. من هنا جاء قول النبي في الحديث الشريف: «الأنبياء أخوة من عَلاَّت[١] أمهاتهم شتى» (مسلم، فضائل ١٤٥. البخاري، أنبياء، ٤٨).

هذه الوحدة بين الأديان، وفق دين الإسلام، إنما تأتي من وحدة الوحي، ووحـــدة الرســـالة الإلهـــية ووحدة المرسِل، الذي هو الله الواحد الأحد الفرد الصـــمد. جـــاء فـــي القـــرآن الكريم: «**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيـــين مـــن بعـــده، وأوحيـــنا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأســـباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً، ورســـلاً قـــد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلّم الله موســـى تكليماً**» (النساء ١٦٣ و١٦٤). فالله تعالى يخاطب نبيه محمداً، إنك واحـــد ممـــن أوحينا إليهم من الأنبياء، منهم من ذكرناهم لك، ومنهم من لم نذكـــرهم. والوحـــي إليكم جميعاً واحد، وهو سلسلة واحدة متصلة الحلقات، توالـــى أنبـــياؤها، وتـــتابعت تعاليمها هدىً من الله لجميع البشر عبر تاريخ الإنسانية، في مختلف عصوره. ولست أول الرسل، ولا الرسول الوحيد الذي

---

(١) علاّت: أمهاتهم مختلفة ودينهم واحد (في التهذيب وفي النهاية لابن الأثير).

أرسله الله إلى الناس: «**قل ما كنت بَدْعاً من الرسل**» (الأحقاف، ٩). ويصرح القرآن بحقيقة نبي الله محمد بالنسبة لتاريخ الرسالات السماوية والأنبياء، بقوله: «**وما محمد إلا رسول قد خلت من قَبْله الرسل**» (آل عمران، ١٤٤).

فأولى مهمات الرسل هي دعوة الناس للإيمان بالله والحضّ على عبادته وحده والبعد عن عبادة الطواغيت: «**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**» (النحل، ٣٦).

ويخاطب الله رسوله بقوله، إنّ كل الرسالات التي جاءت من قبل رسالتك هي دعوة لعبادة الله، والإقرار له بالوحدانية: «**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**» (الأنبياء، ٢٥). وللذين يجحدون الحق ويصرون على اتخاذ آلهة من دون الله، يذكِّرهم برسالات الأنبياء الذين جاءوا قبل رسول الله محمد، وكلها تدعو إلى وحدانية الله: «**أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي** (التوراة والإنجيل) **بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون**» (الأنبياء، ٢٤).

فدعوة الأنبياء جميعاً هي دين التوحيد، أي الإسلام. «**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**» (آل عمران، ٨٥).

فدين الإسلام ــ وفق القرآن ــ هو دين التوحيد الذي بدأ بآدم واختتم بمحمد، مروراً بكافة الأنبياء والمرسلين. وليس مقتصراً على رسالة محمد التي حمل أتباعها اسم الإسلام. بهذا شهد الأنبياء جميعهم، وأولو العلم، والملائكة، والله جلّ جلاله شهد بذلك: «**شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم، قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام**» (آل عمران، ١٨ و١٩).

ويعـرّف القـرآن الكـريم المسلم بأنه: «**من يسلم أمره إلى الله وهو محسـن فقـد استمسك بالعروة الوثقى**» (لقمان، ٢٢). فجميع الأنبياء كانوا مسـلمين. فإبـراهيم وابنه إسماعيل مسلمان، إذ كانا يدعوان: «**ربنا واجعلنا مسلمَين لك**» (البقرة، ١٢٩). ووصى إبراهيم ذريته بالإسلام: «**إذ قال لـه ربـه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ، يا بَنِيَّ إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون**» (البقرة، ١٣١ و١٣٢). فيجـيب الأسـباط لـيعقوب: «**نعـبد إلهـك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون**» (البقرة، ١٣٣).

وأنبياء بني إسرائيل هم مسلمون: «**إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا**» (المائدة، ٤٤).

وكـذلك المسـيح وحواريوه (تلامذته) هم مسلمون: «**وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي (المسيح) قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون)** (المائدة، ١١١). وكذلك في قول القرآن على لسان المسيح إذ يسأل تلاميذه: «**مـن أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون**» (آل عمران، ٥٢).

كـذلك الـذين أوتـوا الكتاب من اليهود والنصارى، يعتبرون أنفسهم مسلمين قبل نزول القرآن: «**الذين آتيناهم الكتاب من قبله** (من قبل القرآن) **هـم به مؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به، إنه الحق من ربنا إنّا كنا مـن قـبله مسـلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، ويدرئون بالحسـنة السـيئة وممـا رزقناهم ينفقون**» (القصص، ٥٢ ــ ٥٤) يؤتون أجرهم مرتين لأنهم آمنوا بالتوراة وبالإنجيل اللذين أنزلا قبل القرآن وآمنوا كذلك بالقرآن بعد نزوله. وهكذا نجد القرآن يعتبر، صراحة، أن أهل التوراة وأهـل الإنجيل وأهل القرآن، كلهم مسلمون موحدون، يؤمنون بالله الواحد: «**ملّـة أبـيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا** (أي القرآن) **ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس**» (الحج، ٧٨).

يعتـــبر القـــرآن الكـــريم أن العقيدة في الأديان الإبراهيمية الثلاثة هي واحدة. تستند:

أولاً: إلـــى الإيمان بالإله الواحد؛ لا شريك له: «**إن إلهكم لواحد، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق**» (الصافات، ٤ و٥).

ثانـــياً: الإيمـــان باليوم الآخر، أي خلود الروح بعد الموت وخضوعها للحساب يوم القيامة. «**يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه**» (آل عمران، ١٠٦).

ثالـــثاً: العمل الصالح: «**وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جـــنات تجـــري من تحتها الأنهار**» (البقرة، ٢٥). «**إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون**» (الانشقاق، ٢٥).

لـــيس هذا بالنسبة للذين يؤمنون بدين محمد وحده، بل يشمل كل الذين يعملـــون الصالحات من المؤمنين بالأديان الإبراهيمية الأخرى، فينال أتباعها رحمة الله ودخول جنات النعيم، كما جاء في آيات القرآن الكريم: «**إن الذين آمـــنوا** (برســـالة محمد) **والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**» (البقرة، ٦٢) (وتتكرر هذه الآية في سورة المائدة، ٦٩).

نرى الإسلام، وفق هاتين الآيتين، لا يفرق بين المؤمنين برسالة محمد وبين المؤمنين بالرسالات الأخرى من يهود ونصارى وصابئة، من حيث نيل نعمة الله ورضوانه، إذا هم آمنوا بالله وبالقيامة، وقاموا بالعمل الصالح.

ويـــنوّه القـــرآن بالمؤمنين بالله من أهل الكتاب (اليهود والمسيحيين)، الذين يتعبدون لله، ويؤمنون باليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، بأنهم من الصالحين، وبأن صلاتهم وسجودهم مقبولان عند الله، وإن الله لا يضـــيع أجرهم: «**من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله** (التوراة والإنجـــيل) **آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون**

بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه، والله عليم بالمتقين» (آل عمران ١١٣-١١٥). فالمؤمنون بالله من اليهود والمسيحيين، والذين يؤمنون بيوم الحساب، ويأمرون بعمل المعروف وينهون عن عمل المنكر، ويسارعون إلى عمل الخير، فالإسلام يعترف لهم بالصلاح الذي يؤدي إلى نيل رحمة الله ورضوانه ودخول جنته. فعملهم الصالح يتقبل منهم ولن ينكر عليهم. وسينالون أجرهم من ربهم في أخراهم ومعادهم. فرحمة الله لا تقتصر، وفق القرآن، على المسلمين من أتباع رسول الله محمد وحدهم، بل تشمل كل إنسان صالح يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعمل الخير للناس يهودياً كان أم مسيحياً.

كذلك نجد في القرآن، أن المؤمنين برسالة النبي محمد، عليهم ألا يقصروا إيمانهم على القرآن، الرسالة التي أنزلت على محمد وحدها، بل عليهم أن يؤمنوا بالرسل الذين جاءوا قبله، وبالكتب المنزّلة عليهم، لا يفرقون بين نبي ونبي، ولا بين كتاب وكتاب. بذلك يقول القرآن الكريم: **«آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نُفرِّق بين أحد من رسله»** (البقرة، ٢٨٥). فإيمان المسلم لا يكون صحيحاً ومكتملاً، وفق عقيدة الإسلام، إذا لم يؤمن بالأديان والرسالات السابقة على دين ورسالة محمد سواء بسواء. والذي يشك بالتوراة والإنجيل كالذي يشك بالقرآن، والقرآن يكفّره، يقول القرآن محذراً المؤمنين من التفرقة بين رسل الله وعدم الإيمان بهم جميعاً: **«إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمنُ ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفوراً رحيماً»** (النساء ١٥٠- ١٥٢).

وتأكيداً على صحة الرسالات السابقة على الإسلام يحض القرآن اليهود والمسيحيين على إقامة شريعة التوراة والإنجيل، والتمسك بهما كتابين سماويين. والعمل على تطبيق ما ورد فيهما من تعاليم إلهية، كي يكتمل بذلك إيمانهم وتدينهم لله تعالى، وإلا لن يكونوا يهوداً حقيقيين ولا مسيحيين حقيقيين (أي مسلمين) ولن ينالوا نعمة الله ورضوانه: «**قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل**» (المائدة، ٦٨). فكلمة «قل» هي أمر إلهي إلى النبي محمد ليثبت صحة التوراة والإنجيل، وأنها كتب سماوية، موحى بها من الله. فمن يحيد عنها من أتباع الديانتين، لا يكون يهودياً على دين موسى ولا نصرانياً على دين المسيح.

وينوّه الله في التوراة بقوله: «**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا** (أي أنبياء بني إسرائيل) **للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله** (التوراة) **وكانوا عليه شهداء**» (المائدة، ٤٤). ويتابع القرآن: «**وقفّينا على آثارهم** (أنبياء بني إسرائيل) **بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل، فيه هدى ونور مصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**» (المائدة، ٤٦). فالتوراة، وفق نص القرآن، فيها هدىً ونور وكذلك الإنجيل، فيهما هداية للناس إلى طريق الله المستقيم، وفيهما ما ينوّر عقولهم وقلوبهم، بما يعطيهم من التوجه الإلهي ما يؤدي إلى خلاصهم بنيل رضوان الله.

وليطمئن قلب نبيه محمد بأن ما ينزّل عليه من آيات القرآن هو من عند الله يقول الله له: «**فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك**» (يونس، ٩٤). أي اسأل اليهود والمسيحيين أصحاب التوراة والإنجيل الكتابين السماويين ليزول الشك من فكرك، وتطمئن نفسك إلى أن ما يوحى إليك هو من عند الله، قد أنزل مثله على أنبياء من قبلك. وكان لورقة بن نوفل ابن عم زوجته خديجة المسيحي دور في تطمين محمد (ص) أن ما أوحي إليه هو من عند الله حقاً.

وحدة العقيدة ووحدة الشريعة (الطريق الموصل إلى الله)

نــرى القــرآن فــي ما تقدم يوحّد في العقيدة بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة. ويعتبرها جميعاً إسلاماً. أما الشريعة (الطريق الموصل إلى رضوان الله) فــيقول القــرآن: «**ولكــل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**» (المائدة، ٤٨). فشــريعة موسى هي شريعة المسيح وشريعة المسيح هي شريعة محمد، من حيــث الجوهر والكليات والغايات، وأن اختلفت في التفاصيل. فالشريعة هي الطــريق الأخلاقــية الخلاصــية الشــاملة، غير خاضعة لزمن أو لظرف. والمنهاج هو تاريخي ظرفي، يتغير مع تغير الظروف والأزمان. بهذا تكون الشريعة هي الغاية التي رسمتها أديان السماء، أما المنهاج فهو الوسيلة لبلوغ هــذه الغايــة. فالعبادة هي شريعة، أما طرق تأدية المناسك، وأشكال الصلاة فهي المنهاج. تلتقي على عبادة الله جميع الأديان، لكنها تختلف في شكل هذه العــبادة وطقوســها. بهــذا يقول الله في القرآن: «**لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه**» (الحج، ٣٤). فمناسك الحج الذي يؤديها المسلم في مكة تختلف في شــكلها عما يؤديه المسيحي أو اليهودي من نسك في حجه إلى الأماكن التي يقدســها دينه. ولكنها هنا وهناك، مهما كان شكلها، وبأية طريقة أديت، فهي مــنهاج عبادة يقوم به المؤمنون، كل بطريقته، تقرّباً من الله. بهذا يقول الله للمســلم: لــيس منهاج عبادتك ونسكك هو الوحيد المتقبّل عند الله، بل نحن جعلــنا للآخريــن نسكاً ومناهج للعبادة مقبول لدينا التعبد بها كما هو مقبول مــنهاج تعــبدك. فالله في القرآن يقرّ أمة موسى على شريعتهم، بقوله لنبيه: «**وكــيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله**» (المائدة، ٤٣). ويقرّ أمة المسيح على شريعتهم: «**وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**» (المائدة، ٤٧).

كذلك شرّع الله لأمة محمد شريعة جديدة: «**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب** (التوراة والإنجيل) **ومهيمناً**[1] **عليه. فاحكم بينهم بما أنزل الله** (بالقرآن) **ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم، فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**» (المائدة، ٤٨).

فحكمة الله أن تكونوا موحدين في جوهر العقيدة، ومختلفين في جزئيات الشرائع وطرق العبادة والمناسك، أي المنهاج، ليبلوكم (يختبركم) في ما آتاكم من تعاليم إلهية. فتسابقوا إلى عمل الخير، ونيل رضوان الله، والفوز بجنته، كل حسب شريعته التي خصه الله بها في كتابه، ووفق منهاج العبادة التي علمه إياها رسل الله. فمرجعكم النهائي إلى الله، في أي دين دنتم، وهو الذي ينظر أعمالكم، وله وحده الكلمة الفصل في ما أنتم فيه مختلفون.

والقرآن يحضّ على وحدة الدين، ووحدة الرسالة الإلهية، وعدم التفرقة في الدين: «**شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**» (الشورى، ١٣).

وخلاصة القول، إن الدين واحد في جوهره، واحد في مصدره، واحد في غاياته، والخلاف بين الأديان السماوية، كما بيّن القرآن، هو في شكل العبادة والنسك، وبعض تفاصيل الشريعة. وما القرآن إلا تصديق الكتب السماوية السابقة، وتفصيلاً لما أوجز من أحكامها، وتوضيحاً لما التبس فهمه منها، وتكملة خاتمة لشرع الله الذي بدأ بآدم واختتم بمحمد مروراً برسل الله كافة: «**ما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين**

---

(١) تفسير الرازي: رقيباً وشاهداً وحافظاً وأميناً. تفسير الميزان: حفيظاً ومراقباً. تفسير الطبرسي: أميناً وشاهداً وحافظاً ورقيباً.

يديـــه (الـــتوراة والإنجـــيل) **وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين»** (يونس ٣٧).

فالشـــريعة هـــي أخلاقـــية شاملة، والمنهاج هو تاريخي يتغير بتغير الظروف والأزمان. فالشريعة هي الغاية، والمنهاج هو الوسيلة لبلوغها.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه «التسامح والتعصب بين المسيحية والإسلام» ص ٥٧: أما المسلمون ففي دينهم قسم مشترك بين الديانات كلها؛ فهم يؤمنون بموسى ويوقِّرونه، ويعتبرون التهجم على مكانته كفراً بالإسلام. وهم يؤمنون كذلك بعيسى ويكرّمون مولده وينزّهون نسبته ويرون الطعن في عفـــاف أمه أو شرف ابنها كفراً بالإسلام. وهم يضمُّون إلى إيمانهم بموسى وتـــوراته، وعيسى وإنجيله إيماناً جديداً بمحمد وقرآنه، على أساس أن النبوة الخيِّرة جاءت تصديقاً لما قبلها، ومحواً للفوارق والخلافات التي مزَّقت شمل العـــالم. فالإســـلام هو يهودية موسى، ونصرانية عيسى معاً، وهدايات من قبلهما من رسل الله الأكرمين جميعاً».

لـــم تـــأت رسالة محمد من أجل إلغاء الرسالات السابقة عليه، بل جاء الإســـلام ليقرّ اليهودية والمسيحية على دينيهما، ولم يلزم أتباعهما على ترك ديـــنهم والالتحاق برسالة محمد. بل جعل أسلوب مخاطبتهما ودعوتهما إلى الدخـــول في الدين الجديد الذي هو تكملة لدينهم «بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتـــي هـــي أحسن». وجعل القاعدة الجامعة للمؤمنين بالله إلى أي دين من الأديان الإبراهيمية انتموا: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

فالاخـــتلاف بـــين المســـيحية والإسلام، مثلاً، هو اختلاف على صفة المســـيح وصفة محمد، لكنهما لا يختلفان اختلافاً جوهرياً في أغراض الدين وغاياتـــه. وإذ يصـــرّ أبـــناء كـــل دين على أن دينهم هو الدين الخلاصي، وينكـــرون علـــى غيرهم نيل نعمة الله ورضوانه، يقول لهم القرآن: **«ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون**

الله ولياً ولا نصيراً. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولـئك يدخلـون الجـنة ولا يظلمون نقيراً» (النساء ١٢٣ و١٢٤). فالله يحاسب الإنسان على عمله وليس على انتمائه الديني لأن الأديان كلها طرق إلى الله.

وإذا كانـت المجـتمعات البشرية قد شهدت صراعاً دموياً في بعض فتـرات التاريخ، بين أتباع هذه الديانات، فلم يكن صراعاً بين الأديان عينها، بل كان صراعاً بين الناس المتدينين، بسبب قصور في الفهم لأديانهم، وغلبة المصـالح والعصبيات التي يمقتها الدين نفسه. فالدين شأن إلهي يتسامى عن مـآرب البشـر. والبشر يحاولون دائماً وأبداً تطويع النصوص الدينية لتخدم مآربهم ومصالحهم الدنيوية. فالفارق شاسع بين النص والتطبيق، بين المثال والواقـع. علـى الـباحث عن الحقيقة ألا ينظر إلى الدين من خلال أعمال الإنسان وتطبيقه لتعاليم دينه، بل عليه أن يتجاوز أعمال الناس وعصبياتهم، وقصور عقولهم عن فهم كلام الله المتعالي الذي يسمو على كل نزعات البشر ومحدودية أفكارهم. وإذا كان الدين حقيقة إلهية تتصف بالكمال المطلق، فإن فهمـنا البشري المحدود يقصر عن الإحاطة الكاملة بها. من أجل ذلك ينبغي أن يبقـى فهم الناس في تطور دائم وبحث جاد عن حقيقة جوهرها ومعرفة مقاصدها. فالمثال لم يتجسد واقعاً بشرياً على الأرض إلا في قلة نادرة قاربت فـي سلوكها قدسية المثال، وهؤلاء من تواضع الناس على تسميتهم بالأولياء أو القديسين.

الفصل الثالث

مقارنة عاجلة بين بعض نصوص الكتب السماوية الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن)

في كل شريعة من الشرائع محللات ومحرمات. بالنسبة للمأكل والمشرب، حددها القرآن بما يلي: «**ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث**» (الأعراف، ١٥٧). أما بالنسبة للأعمال فقد حددها بقوله تعالى: «**قل إنما حرم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**» (الأعراف، ٣٣).

تحريم الخمر

الناموس الإلهي واحد، وروح الشرائع واحدة، لكن تطبيقها كقوانين، يختلف وفق الظروف التاريخية، والواقعية لكل شعب.

فموسى لم يحرم الخمر على جميع الناس، وإنما حرمه على الكهنة عندما يؤدون الصلاة والعبادة للرب وهم داخل مكان العبادة. جاء في التوراة: «وكلم الرب هارون (الكاهن) قائلاً: خمراً ومسكراً لا تشرب أنت وبنوك (الكهنة) عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا، فرضاً دهرياً في أجيالكم، وللتمييز بين المقدس والمحلل، وبين النجس والطاهر، ولتعليم بني إسرائيل جميع الفرائض التي كلّمهم الرب بها بيد موسى» (لاويين ١٠: ٨-١١) نرى أنّ شرب الخمر في شريعة موسى حُرّم على الكهنة، فقط، عند دخولهم خيمة الاجتماع التي كانت مكان عبادة للرب، ولم يحرّم شرب الخمر على الناس تحريماً قطعياً. لكن الأنبياء الذين جاءوا بعده، راحوا يرذلون شرب الخمر والسكر. جاء في سفر هوشع (٤: ١١): «الزنى والخمر

والسلافة تخلب القلب». لقد ساوى بين الخمر والزنى المحرّم الذي يستحق مرتكبه الموت في الشريعة الموسوية.

ويقول الرب على لسان عاموس تأنيباً لبني إسرائيل: «وأقمت من بينكم أنبياء، ومن فتيانكم نذيرين... لكنكم سقيتم النذيرين خمراً وأوصيتم الأنبياء قائلين لا تتنبأوا» (عاموس ٢/١٢).

ويقول أشعيا: «ويلٌ للمبكرين صباحاً يتبعون المسكر... وإلى فعل الرب لا ينظرون وعمل يديه لا يرون» (أشعيا ٥/١١) ويشبّه من أصابه الله بالضلال «كترنح السكران في قيئه» (أشعيا ١٩/١٤).

وجاء في الأمثال: «ليس للملوك أن يشربوا خمراً، ولا للعظماء المسكر، لئلا يشربوا وينسوا المفروض» (أمثال ٣١/٤-٧).

نجد في هذه الأقوال رذل للسكر وشرب الخمر، وليس فيها تحريم.

كذلك المسيح لم يحرّم شرب الخمر. وظل المسيحيون على نهج العهد القديم يشربون الخمر، ويستأنسون بقول داود النبي في المزمور (١٠٤/١٥) «وخمرٍ تفرح قلب الإنسان لإلماع وجهه». ويسقي الكاهن، بعد الاعتراف، قليلاً من الخمر للمؤمنين، رمزاً لدم المسيح، لكي يشعر المؤمن، من تناول دم المسيح وجسده المتمثل في القربان المقدس، أن الدم الذي في عروقه أصبح فيه شيء من القداسة وسمو الألوهة.

لكن بولس الرسول حرّم السكر، بقوله: «لا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة، بل امتلئوا بالروح» (رسالة بولس إلى أهلِ افسس ٥/١٨).

وفي رسالته إلى أهل كورنتس يقرن السكير بالزاني والطمّاع وعابد الوثن، ويمنعهم من مخالطته. «وأما الآن، فكتبت إليكم، إن كان أحد مدعواً أخاً زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتّاماً أو سكيراً أن لا تخالطوا مثل هذا» (كورنتس ٥/١١).

ويقـول فـي الرسـالة نفسها (٦-٩): «لا تضلوا، لا زناة، ولا عبدة أوثـان، ولا فاسقون، ولا مأبونون، ولا مضاجعو ذكور، ولا سارقون، ولا طمَّاعـون، ولا سكِّيرون، ولا شتّامون، ولا خاطفون، يرثون ملكوت الله». فالسكِّيرون، وفق كلام بولس الرسول، لا يرثون ملكوت الله.

ويقـول في رسالته لأهل رومية (١٣/١٣): «إن خلاصنا الآن أقرب ممـا كـان حـين آمنا. لنسلك بلياقة كما في النهار، لا بالبطر والسكر، لا بالمضاجعة والعهر».

وفي رسالته إلى أهل تيموثاوس، يشترط على الأسقف أن يكون عاقلاً محتشـماً.. غير مدمن للخمر، وكذلك يوجب على الشمامسة أن يكونوا غير مولعين بالخمر» (٣/٣ و٨).

أمـا النبي محمد الذي جاء برسالته بعد المسيح بستة قرون، فلم يحرِّم الخمر في بداية دعوته، مراعاة لظروف المجتمع، وعادات الناس في شرب الخمر، بل حرّم عليهم أولاً، السكر أثناء تأدية الصلاة تطبيقاً لقوله تعالى: «**لا تقـربوا الصـلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**» (النساء، ٤٣). ثم وبعـد فتـرة مـن ممارسة الناس للدين قرنها بالميسر (القمار) فقال متلطفاً بالـناس، مخاطباً رسوله: «**يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**» (البقرة، ٢١٩).

وبعـد أن مـرّ زمـن أصـبح فيه الدين مترسخاً في عقول المؤمنين وقلـوبهم، نزلت الآية الفصل في التحريم: «**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجـس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**» (المائدة، ٩٠). فكان التحريم جازماً، ووضع لمرتكبيه حدّ وقصاص.

نرى هذا التدرج في تحريم الخمر، في الشرع الإلهي، مجاراة لطبائع الـناس، ولكي لا يكون في الدين من حرج في فرض الشرائع الإلهية: «**وما**

جعل عليكم في الدين من حرج» (الحج، ٧٨). فمن تحريمه على الكهنة أثناء الصلاة في شريعة موسى، إلى رذل السكر على لسان أنبياء بني إسرائيل، إلى تحريم السكر على يد بولس الرسول في المسيحية، إلى تحريمه أولاً إبان الصلاة في الإسلام وصولاً للتحريم المطلق، لما فيه من ضرر على عقول الناس وصحتهم. لقد حرّم الله الخبائث، والخمرة أم الخبائث، كما عرّفها رسول الله.

وبعدما وصلت الحضارة الحديثة، إلى ما وصلت إليه من المعارف العلمية الدقيقة، وبعد مرور أربعة عشر قرناً على تحريم آخر رسالات السماء للخمرة، نكتشف ما في الخمر من أضرار على صحة الناس وعقولهم، ومدى ارتباط ارتكاب الجرائم وحوادث السير بشرب الخمر، فنقوم بتوجيه النصائح الطبية للناس للامتناع عن شرب الخمر عبر وسائل الإعلام، والنشرات الصحية. كل ذلك يأتي تصديقاً لرسالات السماء التي جاءت من أجل خير الإنسانية وصلاح أمرها. وقد جاء في قوله تعالى: «**إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة**» (المائدة، ٩١). والله «**يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم**» (المائدة، ٦).

تحريم الزنى

حرّمت شريعة موسى الزنى، وفرضت عقوبة الرجم على الزاني والزانية: «وإذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان؛ الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة» (تثنية ٢٢/٢٢). «وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا» (تثنية ٢٢/٢٣).

أقرّ المسيح ناموس (شريعة) موسى المتمثل بالوصايا العشر التي تلقاها موســى مــن ربـــه. وهو القائل: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبـياء، مــا جئت لأنقض بل لأكمل» (متى ٥/١٧). لكن عندما نصب له جماعة من اليهود مكيدة لإحراجه وجاءوا إليه بامرأة زانية ليحكم عليها، فإن حكــم عيها بغير عقوبة الرجم يتهموه بمخالفة الشريعة، ويحرضوا جمهور الــيهود عليه. وإن قام بتنفيذ الشريعة، وأقام عليها حد الزنى ورجمها، يكون قــد خالــف القانون وتجاوز الحاكم الروماني، ونصّب نفسه حاكماً بدلاً منه. وبذلك، يتهم بالخروج على حكم الدولة الرومانية، وينال عقوبة تخلص كهنة الــيهود منه ومن دعوته التي ضاقوا بها ذرعاً. لكنه أجابهم الإجابة التي لم يكونوا يتوقعونها: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر» (يوحنا ٨/٨). لم يكن المسيح بقوله هذا، يريد أن ينقض شريعة موسى، ويبيح الزنى، وإنما أراد أن يحــرج الذين أرادوا إحراجه، ويرد كيدهم بكلام هو شريعة في حد ذاتـــه، وهو أنه لا يحق للزناة، الذين يستحقون الرجم، أن يطبقوا شرع الله، ويقــيموا الحـــد على زانية فيرجمونها. فالخاطئ لا يحق له محاسبة الخطاة، والمــدان لا يحــق له أن يدين. وهنا نجد أن المسيح لم يرم من وراء كلامه نقــض الشريعة، وإنما وضع تطبيق الحكم الشرعي في ظروفه الموضوعية والعادلـــة. لكـــنه، في تعاليمه، شدد على تحريم الزنى بقوله: «من نظر إلى امرأة يشتهيها فقد زنى في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عــنك، لأنه خير لك يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في نار جهنم» (متى ٥/٧). وتلميذه بولس الرسول دعا إلى عدم مخالطة أو مواكلة الزاني: «إن كـــان أحد مدعو أخاً زانياً أو طماعاً أو سكّيراً أو... أن لا تخالطوا ولا تواكلوا مثل هذا» (رسالة إلى أهل كورنتس ١/٥-١١).

ظلــت عقــوبة رجم الزاني في الإسلام، لكنها اقتصرت على الزاني الثــيِّب (المتــزوج). أمـــا العـــازب فعقوبـــته الجلد فقط: «**الزاني والزانية فاجلــدوا كــل واحــد مــنهما مائـــة جلدة**» (النور، ٢). لكن الإسلام شدّد

كثيـراً علـــى إثبات البيِّنة في جرم الزنى، إذ يلزمها أربعة شهود، يشهد كل على انفراد، أنه رأى في عينيه دخول الميل في المكحلة، وليس التقبيل، ولا المداعـــبة، ولا المفاخـــذة، تستوجب إقامة حد الزنا، وهذه لها عقوبة تأديب وتعزير.

وجعل الإسلام لمن يوجه تهمة الزنى إلى أحد الناس، ولم يأتِ بأربعة شـــهداء، أن يقام عليه حد القذف (الاتهام بالزنى) وهو جلده ثمانين جلدة كما حـــدد ذلـــك القـــرآن الكريم: «**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شـــهداء، فاجلـــدوهم ثمانـــين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاســـقون**» (النور، ٤). فإلى جانب العقوبة المشددة بالجلد، يسقطهم الله من الحقـــوق المدنـــية؛ فلا تقبل لهم شهادة بعد ذلك أبداً. ويَسِمهم القرآن بالفسق. والفســـق مـــن أعظـــم الآثام التي تؤدي إلى الهلاك: «**وهل يهلك إلا القوم الفاسقون**» (الأحقاف، ٣٥). ويخاطب الله نبيه محمداً: «**فلا تأس على القوم الفاســـقين**» (المائدة، ٢٦). ويقول بالفاسقين أيضاً: «**إن الله لا يهدي القوم الفاسقين**» (المنافقون، ٦). وللذين يستسهلون التلفظ بتهمة الزنى يرمون بها أعراض الناس، يقول القرآن: «**وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم**» (النور، ١٥). فقـــذف المحصنات، هذه التهمة الخطيرة، تستسهلون لفظها، فهي أمر عظيم عند الله، لما يترتب عليها من أذى لمن يُرمى بهذه التهمة، وخصوصاً منهم النساء المحصنات، أي المتزوجات، مما يؤدي إلى أمور خطيرة تؤدي إلـــى خراب الأسرة وتشتيت الأولاد: «**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمـــنات، لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم**» (النور، ٢٣). تقع علـــيهم فـــي الدنيا عقوبة الجلد واللعنة من الله والناس ولهم في الآخرة، يوم الحساب، العذاب العظيم.

حـــرّمت التوراة الزواج من المرأة الزانية: «امرأة زانية أو مدنسة لا تأخذوا» (لاويين ٢١/٧).

كذلك حرم الإنجيل طلاق المرأة إلا بعلّة الزنى، وحرم الزواج من تلك المطلقة: «إنَّ من طلق امرأة إلا لعلة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني» (متى ٣٢).

وحــرم القرآن الزواج من الزانية أو من الزاني: «**الزاني لا ينكح إلا زانــية أو مشــركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك، وحُرِّم ذلك على المؤمنين**» (النور، ٣).

جـــاء موسى ومحمد بنصوص الشريعة، وجاء المسيح يشرح ويوضح روح الشــرع الإلهــي. موســى ومحمــد مكّنهم الله من تطبيق الشريعة في الأرض، لكن المسيح رغم تأكيده على نصوص شريعة موسى: «لا تقتل، لا تــزنِ، لا تســرق، لا تشــهد بالزور» (متى ١٨) كان دوره مقتصراً على توضــيح الشريعة وتعليمها. لكنه لم يكن لديه سلطان دنيوي؛ فلا جنود عنده ولا محــاكم يقيمها لتطبيق الشريعة. بالكلمة كان دوره لتصحيح الانحرافات التي تراكمت، وكانت عائقاً في سبيل تطبيق الناموس، الذي جاء به موسى، التطبيق الصحيح.

فموسى كلم الله وكلمه الله، ومحمد أوحِي إليه كلام الله بواسطة الروح القــدس، ملك الوحي جبرائيل، أما المسيح فكان ينطق بكلام الله، إذ كان هو كلمــته. مصداقاً لقول القرآن الكريم: «**إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه**» (النساء، ١٧١).

فكــلام المسيح هو كلام الله ــ كما كلام موسى ومحمد ــ سواء كان رســول الله وكلمــته، كمــا جاء في القرآن، أو كان ابن العلي، كما جاء في الإنجــيل. حــيث يقول: «لأني خرجت من قبل الله وأتيت. لأني لم آتي من نفســي بــل ذاك أرسلني» (يوحنا ٤٢/٨). «فكما قال لي الآب هكذا أتكلم» (يوحنا ٥٠/١٢).

اللِّعان في التوراة والقرآن

ورد في التوراة: «وكلم الرب موسى قائلاً: كلِّم بني إسرائيل، وقل لهم، إذا زاغت امرأة رجل، وخانته خيانة، واضطجع معها رجل اضطجاع زرع وأخفي ذلك عن عيني رجلها، واستترت وهي نجسة، وليس شاهد عليها، وهي لم تؤخذ. فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته إلى الكاهن ويأتي بقربانها معها، عشرة أرغفة من طحين شعير، لا يصب عليه زيتاً، ولا يجعل عليه لباناً، لأنه تقدمة غيرة، تقدمه تَذْكار تذكِّر ذنباً. فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب، ويأخذ الكاهن ماءً مقدساً في إناء خزف، ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعله في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأس المرأة، ويجعل في يدها تقدمة التذكار التي هي تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر. ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها: «إن كان لم يضطِّجع معكِ رجل، وإن كنت لم تزيغي إلى نجاسة من تحت رجلك، فكوني بريئة من ماء اللعنة هذا المر. ولكن إن كنت قد زُغت من تحت رجلك وتنجست وجعل معك رَجل غير رجلك مضجعه. يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة، ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحَلْفاً بين شعبك، بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارماً. ويدخل ماء اللعنة هذا في أحشائك لورم البطن ولإسقاط الفخذ. فتقول المرأة: آمين آمين. ويكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ثم يمحوها في الماء المر ويسقي المرأة ماءَ اللعنة المر، فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة ويردد التقدمة أمام الرب، ويقدمها إلى المذبح. ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء. ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها، يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيَرِم بطنها، وتسقط فخذها، فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة تتبرأ وتحبل بزرع.

هذه شريعة الغيرة. إذا زاغت امرأة من تحت رجلها وتنجست. أو إذا اعترى رجلاً روح غيرة فغار على امرأته، يوقف المرأة أمام الرب ويعمل لها الكاهن كل هذه الشريعة. فيتبرأ الرجل من الذنب، وتلك المرأة تحمل ذنبها» (عدد ٥: ١١-٢١).

أما في القرآن فقد جاء النص التالي: «**والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين**» (النور، ٦-٩).

نجد هذا التشدد في التوراة والقرآن على منع جريمة الزنا، وإشاعة الفاحشة في المجتمع المتدين وذلك من أجل المحافظة على الأسرة، الخليَّة الأولى في بناء المجتمع الإنساني.

الطهارة

شددت شريعة موسى على الطهارة، وأوجبت على اليهود غسل أيديهم قبل تناول الطعام. وجاء محمد بالتعاليم نفسها، واشترط على المسلمين طهارة البدن والثوب من أجل صحة الصلاة، الواجبة على المسلم خمس مرات في اليوم. فالطهارة، بمعنى النظافة، واجب ديني على المسلم. فلا يحق له أن يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته وتعبده لله إلا أن يكون طاهر الجسد والثوب والمكان. وقد أوجب القرآن على المسلم الوضوء قبل كل صلاة: «**يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جُنُباً** (أي جامعتم أزواجكم) **فاطّهروا**» (المائدة، ٦). وسنّ لهم غسل الأيدي قبل الطعام، منعاً لدخول الأوبئة إلى أفواههم من أيديهم الملوثة. وهذا الذي جاء في شريعة

موســى ومحمــد ينطــبق على معطيات علم الصحة الحديث، بعد اكتشاف الميكــروبات والجراثيم. لكن المسيح يقول في الإنجيل: «ليس ما يدخل الفم يــنجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان» (متى ١٥/١١). ويضــيف الإنجيل: «وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر وذاك ينجس، لأن مــن القلب تخرج أفكار شريرة؛ قتل، زنى، فسق، سرقة، شهادة زور، تجديــف» (متــى ١٥/١٩). طبعاً، لم يقصد المسيح تحريم غسل الأيدي قبل الطعــام، تلافياً للأمراض، وهو من هو في معرفة روح الناموس، لكنه أراد تصــحيح مــا كان اليهود، في تلك الحقبة، متزمتين به من مظاهر الشريعة، متناســين الجوهر. فالجوهر هو الأهم في الطهارة، وهو طهارة النفوس من أدناســها. فــأراد أن يحــولهم عن سطحية الشريعة ومظاهرها إلى حقيقتها وجوهرها، دونما التخلي، إلى جانب طهارة الروح، عن طهارة البدن.

جــاء في شريعة موسى: «المرأة التي يضطجع معها رجل (زوجها) اضــطجاع زرعٍ يستحمان بماء، ويكونان نجسين إلى المساء» (لاويين ١٥/ ١٨). هــذا ما سماه الإسلام غسل الجنابة. وفرضه على كل زوج وزوجة. لكــن نجاسة الجنابة، في الإسلام، تزول فور إتمام الغسل بالماء الطاهر ولا تبقــى وجوباً إلى المساء. ولا يحق للمسلم أن يؤدي الصلاة بين يدي ربه إلا بعد الغسل من الجنابة.

وتشدد التوراة على نجاسة المرأة إبان طمسها: «وكل من مسها يكون نجســاً، وكل ما تضطجع عليه في طمسها يكون نجساً، وكل ما تجلس عليه يكون نجساً، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء... وإن اضطجع معها رجل فكان طمسها عليه يكون نجساً سبعة ايام، وكــل فراش يضطجع عليه يكون نجساً» (لاويين ١٥/١٩-٢٤). وهذا يعني عزل المرأة إبان حيضها عزلاً كاملاً حتى عن زوجها وأولادها وأثاث بيتها كي لا تنجّسهم.

الإســلام لا يعتبر المرأة في أثناء حيضها نجسة، بل يعفيها من تأدية فــرائض الصــلاة في تلك الفترة. لكن جسدها، عدا دماء الحيض، لا ينجِّس بملامسته الفراش ولا الثوب، ولا الناس ولا يوجب الغسل على من لمسها أو لمــس ثـوبها أو فراشها. لكن القرآن حرّم مضاجعة النساء أثناء حيضهن: «**ويســألونك عــن المحيض قل هو أذىً، فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن**» (البقرة، ٢٢٢).

بيّن القرآن سبب حرمة الجماع إبان المحيض بأنه أذىً، لما ينتج عنه مــن أمــراض قــد تصــيب المرأة والرجل: «**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهــرين**» (البقــرة، ٢٢٢). لكــن التوراة لم تكتف بالأمر والتحذير، بل فرضــت علــى الــذين يأتيان الجمــاع في فــترة الطمث أن يقطعــا من شــعبهما: «وإذا اضــطجع رجــل مع امرأة طامث وكشف عورتها وعرى ينبوعها، وكشفت هي عن ينبــوع دمها يقطعان كلاهما من شعبهما» (لاويين ٢٠/٦٨).

وإذ يشدّد الإسلام واليهودية على الطهارة ويجعلان لها مسببات عديدة، ويــربطان هــذه المسببات بأوامر إلهية، فذلك من أجل أن يلزما الناس على ممارســتها والعمل بها في تلك العصور المتقدمة، يوم لم يكن الناس يعرفون علــم الجراثيم ومسببات الأمراض. ففرضا على الناس طهارة البدن والثوب والطعــام. فالتوراة تحرم على أتباع دينها أكل لحم الذبيحة بعد مرور يومين علــى ذبحهــا: «يــوم تذبحونها تؤكل، وفي الغد. والفاضل إلى اليوم الثالث يحرق بالنار. وإذا أكلت في اليوم الثالث فذلك نجاسة لا يُرضى به. ومن أكل مــنها يحمــل ذنــبه لأنه قد دنّس قُدس الرب فتقطع تلك النفس من شعبها» (لاويــين ١٩/٦-٨). هــذا التحــريم الإلهــي جاء في ذلك الزمن من أجل المحافظة على صحة الناس الذين لم يكن لديهم وسيلة لحفظ اللحم، الذي لا بد أن يفسد بعد مرور يومين على ذبحه. كذلك «نهى رسول الله أن تؤكل لحوم

الأضـــاحي بعد ثلاث» (مسند أحمد ٢/٣٤). وللأسباب نفسها حرمت الكتب الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن) أكل الدم والميتة، كما سيأتي معنا.

فرضت التوراة، كما فرض القرآن على الرجل والمرأة أن يغتسلا بعد الجمـــاع، وعلى المرأة أن تغتسل بعد طمثها، وعلى الناس غسل أيديهم قبل الطعـــام، كـــل ذلك نعمة إلهية من أجل المحافظة على صحتهم، يوم لم يكن هنالك علم صحة بعد.

وإذ تـــرى، في الإنجيل، أن المسيح يشدد على طهارة النفوس، فهذا لا يعنـــي أنـــه نقض شريعة موسى، وأهمل العمل على طهارة الأجساد، وهو القـــائل أنه ما جاء لينقض الشريعة بل ليكملها. فرسالته هي إكمال ما نقص مـــن الشـــريعة، وتوضيح ما ساء فهمه أو حُوِّر معناه، وتقويم أي انحراف عنها، وإضافة البعد الروحي الماورائي للدين، وتبشير الناس بالحياة الأخرى، حيـــث يـــنعم المؤمنون الصالحون بملكوت الله. والطهارة في ناموس موسى ليست مما يقتضي نفيه من حياة الناس ليتعرض له المسيح بنفي أو تقبيح. مما يعني إقرار الشريعة عليها.

محرمات الزواج

بيّنـــت الـــتوراة ما يحرم زواجه؛ فحرمت زواج الأم، وزوجة الأب، والأخـــت من الأب، والأخت من الأم، وابنة الابن، وابنة البنت، وابنة امرأة الأب، والعمة، والخالة، وامرأة العم، والكنة، وزوجة الأخ، والجمع بين الأم وابنتها، وابنة ابنها، أو ابنة بنتها، والجمع بين الأختين» (لاويـــين ١٨/٦ – ١٨).

وبيّـــن القـــرآن مـــا يحـــرم زواجه: «**حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكـــم وعمـــاتكم وخـــالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضـــعنكم وأخواتكـــم مـــن الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في**

جحوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن، فلا جناح عليكم، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، وأن تجمعوا بين الأختين، إلا ما قد سلف. إن الله كان غفوراً رحيماً» (النساء، ٢٣).

الطلاق

أباحت اليهودية الطلاق: إذا طلق الرجل زوجته، فتزوجت بعد طلاقها من رجل آخر فلا يحق لزوجها الأول إرجاعها كزوجة له إذا طلقها الرجل الآخر «لأن ذلك رجس» (تثنية ٢٤/١-٤).

وأباح الإسلام الطلاق مرتين، يحق للزوج فيها إعادة زوجته بعد طلاقها. أما إذا طلقها الثالثة فيحرم عليه إرجاعها حتى تتزوج من رجل آخر، ثم تطلّق منه: **«الطلاق مرتان، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان... فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره»** (البقرة، ٢٢٧).

نجد أن التوراة حرمت على المطلِّق إرجاع زوجته فيما لو تزوجت رجلاً غيره، وإن طلقها الأخير. والقرآن يصعّب على المطلِّق بعد اثنتين أن يرجع زوجته، إلا بعد أن تقترن برجل آخر، وهذا منتهى الصعوبة. وورد في الحديث النبوي: «أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق» (رواه أبو داود وابن ماجه). كذلك صعّبت المسيحية الطلاق، حتى كادت تلغيه. استناداً إلى قول المسيح في الإنجيل: «إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بامرأة أخرى يزني» (متى ٩/١٩) والقرآن يشدد على عدم إخراج المرأة من بيتها الزوجي إلا بعد إتيانها فاحشة مبينة: **«لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة، وتلك حدود الله، ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه»** (الطلاق ١).

الصدقات

يقـــول المســـيح: «بيعوا ما لكم وأعطوا صدقة. اعملوا لكم أكياساً لا تفنى، وكنزاً لا ينفد في السموات» (لوقا ١٢/٣٢). ويقول: «وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون أجركم عظيماً» (لوقا ٦/٣٥). والمسيح يعد المتصدقين بأن ما يتصدقون به في هذه الدنيا، سوف يُوَفّونه في الآخرة؛ حيث يبقى لهم كـــنزاً مكـــنوزاً يوم القيامة: «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في الســـماء، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ويسرقون» (مـــتى ٦/١٩-٢٠). ويقول: «إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدع أصدقاءك ولا أخوتـــك ولا أقـــرباءك ولا الجيران الأغنياء، لئلا يدعوك هم فتكون لك مكافأة. بل إذا صنعت ضيافة فادع المساكين الجدع العرج العمي. فيكون لك الطّوبى، إذ ليس لهم حتى يكافئوك. لأنك تكافأ في قيامة الأبرار» (لوقا ١٤/ ١٢-١٤). ويقول: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية» (يوحنا ٦/٢٧).

ويقـــول القرآن: «**وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحســـنوا إن الله يحـــب المحسنين**» (البقرة ١٩٥). فالتهلكة هي البخل في الإنفـــاق لمن قدر عليه: «**ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم مـــن يـــبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه. والله الغني وأنتم الفقراء**» (محمـــد، ٣٨). «**فالذيـــن آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**» (الحديد، ٧). «**ومـــا تـــنفقوا من خير يوفّى إليكم وأنتم لا تظلمون**» (البقرة، ٢٧٢). فما تـــنفقونه في هذه الدنيا يبقى رصيداً لكم عند الله يوفّى إليكم يوم القيامة، ولا يـــنقص مـــنه شيئاً. والإنفاق يجب أن يكون مما تحبون من ممتلكاتكم لتنالوا الأجر عليه، وليس من فضلات طعامكم، ولا مما رث من ثيابكم: «**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**» (آل عمران، ٩٢).

والإنفاق في سبيل الله يكون في السر والعلن: «**وأنفقوا مما رزقناكم سراً وعلانية**» (الرعد، ٢٢). سراً للفقراء والمساكين والمحتاجين، كي لا تجرح كراماتهم، وعلناً للمشاريع الخيرية، تشجيعاً للناس على التصدق في سبيل الله: «**إن تبدو الصدقات فنعمّا هي. وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**» (البقرة، ٢٧١).

ولكي يقبل تصدّق المؤمن ينبغي أن يكون خالصاً لوجه الله، لا رياءً ولا تبجحاً ولا مباهاة بكرمه وعطائه. وأن لا يجرح كرامات الفقراء بالإعلان عن تصدقه عليهم، وتمنينهم، وكشف عوزهم أمام الناس، لأن في ذلك أذىً لهم: «**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس**» (البقرة، ٢٦٤). وقال رسول الله: «شرّ الطعام طعام الوليمة، يدعى إليه الأغنياء ويترك الفقراء» (مسند أبي داود ٢٣٠٣) البخاري ومسلم ـ عن رياض الصالحين، ص ١٣٥).

وجاء في الحديث النبوي: «إتقوا النار ولو بشق تمرة» (البخاري ومسلم).

سأل رجل رسول الله (ص): أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» (البخاري ومسلم). وعن رسول الله (ص) قوله: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل[١] خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف[٢] وابدأ بمن تعول. واليد العليا خير من اليد السفلى» (رواه مسلم).

وقال (ص): «ما نقصت صدقة من مال» (مسلم).

---

(١) الفضل: ما زاد على ما تدعو إليه حاجة الإنسان لنفسه ولمن يعول.

(٢) على كفاف: أي إمساك ما تكف به الحاجة.

وقال: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحِمه، ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل...» (رواه الترمذي).

وقال: «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم» (مسلم).

وقال: «أنفق يا ابن آدم ينفق عليك» (بخاري ومسلم. هذه الأحاديث أخذت من كتاب رياض الصالحين، ص ٢٤٥).

الرياء

دعا المسيح لتكون العبادة خالصة لوجه الله، لا مراءات أمام الناس: «ومتى صليت فلا تكن كالمرائين. فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع، وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. الحق أقول لكم، إنهم قد استوفوا أجرهم. أما أنت فمتى صليت، فادخل إلى مخدعك، وأغلق بابك، وصل إلى أبيك الذي في السماء» (متى ٦/٥-٦). ويقول: «متى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين. فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم، إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك، واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية» (متى ٦/١٦-١٨).

والقرآن يندّد بالمرائين بقوله: «**الذين هم يراءون، ويمنعون الماعون**» (الماعون ٦-٧) ويقرنهم بالكافرين: «**والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً**» (النساء، ٣٨). فالمرائي هو قرين الشيطان.

وجاء في الحديث النبوي: «إن الله لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء» (البحار ٧٢، ص ٣٠٤). وقول النبي أيضاً: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس فيه خيراً، ولا خير فيه» (كنز العمال ٧٤٨٥).

وقد جاء في الحديث القدسي: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن. فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله. فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها. قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت. ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار. (أخرجه مسلم: ١٩٠٥ وابن ماجه ٣١٣٧).

ويقول المسيح: «احترزوا أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات» (متى ٦/١): «وأما متى صنعت يمينك صدقة فلا تعرف شمالك ما صنعت يمينك» (لوقا ٦/٣٥).

السحر

تقول التوراة: «لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار، ولا يعرف عرافة، ولا عائف، ولا متفائل، ولا ساحر، ولا من يرقي رقيه، ولا من يسأل جانّاً أو تابعة، ولا من يستشير الموتى» (تثنية ١٨/١٠). «لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم» (لاويين ١٩/٢١).

ويندّد القرآن بالسحرة: «**ولا يفلح الساحر حيث أتى**» (طه ٦٩). ويندد القرآن بالذين يتعلمون السحر: «**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء**

وزوجه. وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله. ويتعلموا ما يضرهم ولا ينفعهم» (البقرة، ١٠٢).

ويقــول الرسول (ص): «من أتى كاهناً بالنجوم، أو عرّافاً، أو منجّماً، فصــدّقه، كفر بما أنزل على محمد (بالقرآن) (معجم المصنفين للتــنوكي — مطبعة طبارة ــ بيروت ١٥٢/١).

ويقــول أيضاً: «المنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر في النار» (البحار ٥٨، ص ٢٢٦).

ويروي الإمام علي عن النبي: «أقبلت امرأة إلى رسول الله، فقالت: يا رسول الله، إن لي زوجاً وله علي غلظة، وإني صنعت له شيئاً لأعطفه علي. فقــال رسول الله: أفٍّ لك، كدّرت دينك، لعنتك ملائكة السماء، لعنتك ملائكة الأرض» (البحار، ج ٧٩، ص ٢١٤).

ويصــفّه القــرآن الذين يستعينون بالجن: «**وإنه كان رجال من الإنس يعــوذون بــرجال من الجن فزادوهم رهقاً**» (الجن، ٦). فلم تكن الاستعانة بــالجن إلا وبالاً عليهم فزادوهم تعباً وإعياءً من حيث ظنوا أنهم سيفرجون كربهم.

ويجعل الرسول السحر من الموبقات بقوله: «اجتنبوا السبع الموبقات. قــال: يــا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله قتلها إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقــذف المحصــنات المؤمــنات الغــافلات» (البخاري ومسلم، عن رياض الصالحين، ص ٦٢٧).

الزواج من غير دين

أبــاح الإســلام للمســلم أن يتــزوج مــن المــرأة الكتابية (اليهودية والمسيحية). دون إلزامها على ترك دينها، واعتناق الدين الإسلامي. ولم يبح

للمـــرأة المسلمة الزواج من يهودي أو مسيحي. وعلة ذلك أن المسلم يعترف بالديانتين اليهودية والمسيحية، ديانتين سماويتين. ويعترف بصحة عقيدتهما. ويعترف بالتوراة والإنجيل، كالقرآن كتابين سماويين فيهما كلام الله. ففي هذه الحالـــة، لا يحـــدث تناقض وتضاد بين الزوج وزوجته، في الدين والعقيدة. وتستطيع المرأة المسيحية التي تعيش في كنف زوجها المسلم ممارسة عبادتها وفـــق تعاليم دينها، بما في ذلك الذهاب إلى الكنائس لتأدية صلواتها. ويحض الإســـلام الزوج المسلم على مرافقة زوجته المسيحية إلى مكان عبادتها دون أن يجد حرجاً في ذلك، بناء لوصية الرسول في العهد الذي قطعه لأبناء دين النصرانية: «وإن صارت النصرانية (زوجة) عند المسلمين، فعليه برضاها، وتمكينها من الصلوات في بيعها (كنائسها) ولا يحيل بينها وبين هوى دينها. ومن خالف عهد الله واعتمد الضد من ذلك، فقد عصى ميثاقه ورسوله»[1].

فالإسلام يعتبر أمكنة العبادة اليهودية والمسيحية، كالمساجد الإسلامية، بـــيوت الله، لهـــا عند المسلم حرمتها وقدسيتها. والمحاكم الشرعية الإسلامية تجري عقد الزواج بين المسلم والكتابية دونما اعتراض.

أمـــا اليهودي أو المسيحي فلا يعترف بالدين الإسلامي، كدين سماوي، وبالقـــرآن كتاباً موحى به من الله، وبالتالي لا يحترم لزوجته المسلمة دينها. مـــن هـــنا لا يمكـــن لهذا الزواج أن ينجح، ولا يتم الانسجام بين الزوجين ويعيشـــان حياة زوجية سليمة. بسبب ما بين الزوج وزوجته من تناقض في العقيدة والمفاهيم.

كذلك يمتنع الكهنة اليهود والمسيحيون عن إجراء العقد الشرعي لهكذا زواج. ويشـــترطون علـــى الزوجة تغيير دينها، واعتناق دين زوجها ليصح زواج اليهودي أو المسيحي منها.

---

(١) من العهد الذي قطعه رسول الله إلى ملة النصارى ـــ مخطوطة دار الكتب المصرية، رقم ٨١٤. (سيأتي نصّه).

لذلك لم يبح الإسلام للمرأة المسلمة الزواج من غير المسلم، لأنه بذلك يدفع بها لترتد عن دينها واعتناق دين غيره. إذ يستحيل عليها الجمع بين إسلامها وزواج كهذا.

والقرآن حلّل الزواج من الكتابية: «**اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**» (المائدة، ٥).

القربان

حرّمت اليهودية تقديم القرابين البشرية محارق للآلهة، بذلك تقول التوراة: «لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار» (تثنية ١٨/١٠) وشرعت عوضاً عن ذلك تقدمة الذبائح من الحيوانات (بقر وغنم وماعز) على مذبح الرب لتحرق قرباناً للرب، إما تكفيراً عن خطيئة، وإما تقرباً منه «ذبيحة شكر»، «رائحة سرور. وقود هو للرب» (خروج ٢٩/١٤-١٨). أو تطهير من النجاسة. يقول الرب لنبيه موسى: «وتقدم الثور إلى قدام خيمة الاجتماع. فيضع هارون وأبناؤه أيديهم على رأس الثور. فتذبح الثور أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع. وتأخذ من دم الثور وتجعله على قرون المذبح بإصبعك. وسائر الدم تصبه إلى أسفل المذبح. وتأخذ كل الشحم الذي يغشّي الجوف، وزيادة الكبد والكليتين والشحم الذي عليهما، وتوقدهما على المذبح. وأما لحم الثور وجلده وفرثه فتحرقها بنار خارج المحلة. هو ذبيحة خطيئة» (خروج ٢٩/١٠-١٤).

ويقول الرب لموسى: «تأخذ الكبش الواحد، فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش، فتذبح الكبش وتأخذ دمه وترشه على المذبح من كل ناحية. وتقطع الكبش إلى قِطع... وتوقد كل الكبش على المذبح، هو محرقة للرب، رائحة سرور، وقود هو للرب». (خروج ٢٩/١٥-١٨). ويقول الرب: «هذا

ما تقدمه على المذبح: خروفان حوليان كل يوم دائماً. الخروف الواحد تقدمه صباحاً، والخروف الثاني تقدمه في العشية» (خروج ٢٩/٣٨).

أمـــا فـــي المســـيحية فقد حل دم المسيح، نهائياً، محل دم ذبائح العهد القديـــم، الذي، في رأي المسيحية لا يجدي. «وليس بدم تيوس وعجول، بل بـــدم نفســـه (المســـيح) دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً، لأنه إن كـــان دم ثـــيران وتـــيوس، ورمـــاد عجلة مرشوش على النجسين يقدس الله طهـــارة الجســـد، فكـــم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدم نفســـه لله بـــلا عيـــب، يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي» (عبرانيين ٩/١٢-١٤).

بقيـــت فـــي الإسلام فكرة الذبيحة أو الأضحية، تقدم في عيد الأضحى تيمـــناً بالكبش الذبيحة الذي فدى الله به إسماعيل بن إبراهيم. ويقدم كل حاج إلى بيت الله الحرام، وجوباً، ذبيحة يتم بها مناسك حجه. لكنها لا تحرق ولا ترش دماؤها. يقول القرآن: «**كلوا منها وأطعموا البائس الفقير**» (الحج، ٢٨). ويقـــول القـــرآن: «**والـــبدن جعلناها لكم من شعائر الله، لكم فيها خير. فاذكـــروا اسم الله عليها صواف. فإذا وجبت جنوبها** (تم ذبحها) **فكلوا منها وأطعمـــوا القـــانع والمعتر. كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومهـــا ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم**» (الحج، ٣٦-٣٧). اذكروا اسم الله عليها عند ذبحها، وكلوا من لحمها، وأطعموا منه الفقراء المحتاجين، سواء منهم من سألكم أم من تعفّ نفسه عن السؤال. فالله سخرها لكم لتأكلوا لحومهـــا، وتـــتغذوا به، والله غني عن دمائها ولحومها، فلا يصعد إليه شيء منها، ولكن الذي يصعد إليه التقوى منكم.

فلـــم يعد الدم في الإسلام يطهِّر، بل هو نجس، ولا الذبائح التي تحرق في النار تقرِّب من الله.

الحلف

تقول التوراة: «لا تحلفوا باسمي للكذب فتدنس اسم إلهك» (لاويين ١٩ /١٢). أمـــا المسيح فيحرم الحلف تحريماً كاملاً: «سمعتم أنه قيل للقدماء، لا تحنث بل أوف للرب إقسامك، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة، لا بالسماء لأنها كرسي الله، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه. ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو ســوداء، بـــل لــيكن كلامـــك نعم نعم لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير» (متى ٥/٢٣-٢٧).

ويقـــول القـــرآن: «**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصـــلحوا بين الناس، والله سميع عليم. لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم. والله غفور حليم**» (البقرة، ٢٢٤ و٢٢٥). ويقول في آية أخرى: «**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، أو كســـوتهم، أو تحرير رقبة** (تحرير عبد مملوك) **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيـــام. ذلـــك كفّارة ايمانكم إذا حلفتم. واحفظوا أيمانكم. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون**» (المائدة ٨٩).

ويهدّد القرآن أولئك الذين يحلفون للكذب، ليخدعوا الناس ويغشوهم في تجـــارتهم ليزيدوا في ثمن السلعة، بأشد العقوبات، حيث لا يكون لهم نصيب فـــي النعيم، وسيحرمون من أن ينظر الله إليهم يوم القيامة، وينالون العذاب الألـــيم: «**إن الـــذين يشـــترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق** (نصـــيب) **لهـــم في الآخرة، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**» (آل عمران، ٧٧).

وقـــال رســـول الله: «من حلف بغير الله فقد أشرك» (مسند أبي داود ١٨٩٦) فمـــن حنث بيمينه فقد ارتكب إثماً، ووجبت عليه الكفارة عن حنثه،

كما تقدم. ويقول الرسول (ص): «إياكم وكثرة الحلف في البيع: فإنه ينفِّق ثم يمحــق» (رواه مسـلم ــ رياض الصالحين ٦٠٤). ويقول: «الحلف منفقة للسـلعة ممحقة للكسب» (البخاري ومسلم، رياض الصالحين ٦٠٤). وقال: «يـا علــي لا تحلــف بالله كاذباً أو صادقاً من غير ضرورة. ولا تجعل الله عرضــة ليمينك فإن الله لا يرحم ولا يرعى من حلف باسمه كاذباً» (البحار ٧٧، ص ٦٧).

شهادة الزور

الوصايا العشر التي نزلت على موسى، بنصها وروحيتها، متضمنة في الإنجـيل والقرآن. «لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور» (خــروج ٢/١٦). فالمســيح أوصى أيضاً في الإنجيل: «لا تقتل، لا تــزنِ، لا تسرق، لا تشهد بالزور» (متى ١٩/١٨). لكن شهادة الزور لم تعد فــي المسيحية محرمة فقط ضد القريب، بل أصبح تحريمها مطلقاً ضد جميع الناس.

أمــا الإسلام فقد حرم أيضاً شهادة الزور ضد جميع الخلق. فالشهادة، وفــق القرآن، هي لله: «**وأقيموا الشهادة لله**» (الطلاق، ٢). فعلى الشاهد أن يشــهد بالحق، والله، في القرآن، هو الحق: «**إن الله هو الحق**» (لقمان، ٣٠) وشــهادة الزور هي إنكار للحق، وبالتالي إنكار لله تعالى. كذلك حرّم القرآن أيضاً كتم الشهادة. فلا يحق للشاهد كتم شهادته، وإلاّ يبوء بغضب الله: «**ولا تكــتموا الشــهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**» (البقرة، ٢٨٣). والذي يكتم شــهادته هــو الأظلم عند الله: «**ومــن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله**» (البقــرة، ١٤٠). ويقول القرآن: «**واجتنبوا قول الزور**» (الحج، ٣٠). وينوّه بالمؤمنين «**الذين لا يشهدون الزور**» (الفرقان، ٧٢). ويقول الرسول محمد: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق

الـــوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: الا وقول الزور! فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» (البخاري ومسلم، رياض الصالحين ٥٥٢).

وجـــاء في الحديث أيضاً بوجوب إكرام الشهود: «أكرموا الشهود فإن الله تعالى سيخرج بهم الحقوق ويدفع بهم الظلم» (كنز العمال ١٧٧٣٣).

ويقـــول الرسول: «خير الشهادة ما يشهد بها صاحبها قبل أن يسألها» (كنـــز العمـــال ١٧٧٣١) ويقـــول: «من كتم شهادة إذا دعي إليها كمن شهد بالزور» (كنز العمال ١٧٧٤٣). ويقول: «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني ومن الله مجلساً شاهد الزور» (البحار ١٠٤ ص ٣١).

الربـا

حرمت التوراة على اليهود أكل الربا: «إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الــذي عندك فلا تكن له كالمرابي. لا تضعوا عليه رباً» (خروج ٢٢/٢٥). وجاء في سفر التثنية: «لا تقرض أخاك برباً، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا، لكي يباركك الرب إلهك» (تثنية ٢٣/١٩).

جـــاء الإســـلام فأقرّ تحريم الربا، وقد جاء في القرآن: «**الذين يأكلون الـــربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرّم الربا**» (البقرة، ٢٧٥). وقد جـــاء فـــي الحـــديث النـــبوي: «لعن رسول الله آكل الربا وموكله» (مسلم، مساقات، ١٠٦).

لكن الإسلام لم يقصر تحريم أخذه من المسلمين دون غيرهم. بل شمل تحريم أخذ الربا من جميع الناس، مسلمين وغير مسلمين. «فالخلق كلهم عيال الله» (مسلم، عتق، ١٦).

الرشوة

جاء في تعاليم التوراة: «ولا تأخذ رشوة» (خروج ٢٣/٨). وجاء في الحديث النبوي: «لعن الله الراشي والمرتشي» (مسند أحمد، ١٦٤٢). وتقول التوراة: «ملعون من يأخذ الرشوة لكي يقتل نفس دم بريء» (تثنية ٢٧/٢٥). ويقول القرآن: «**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون**» (البقرة، ١٨٨).

حرمة القتل

جاء في التوراة: «لا تقتل البريء» (خروج ٢٣/٦). وجاء في القرآن: «**من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**» (المائدة ٣٢). «**ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق**» (الأنعام، ١٥١). والقتل بالحق هو أن يرتكب المذنب جناية القتل العمد، فيصدر القضاء عليه الحكم بالمثل. وحرّم على أهل القتيل أن يأخذوا ثأرهم بأيديهم ويقتلوا القاتل.

وجاء في الإنجيل تحريم القتل بقول المسيح: «لا تقتل».

وجاء في التوراة: «وإذا أحدث إنسان في قريبه عيباً، فكما فعل ذلك يفعل به. كسر بكسر وعين بعين وسن بسن» (لاويين ٢٤/٢٠).

وجاء في القرآن إقرار لهذه الشريعة: «**إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله... وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص. فمن تصدّق به فهو كفّارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**» (المائدة ٤٤ و٤٥).

نجد أن القرآن، إذ أقر بما جاء في أحكام التوراة، فقد فتح باب العفو عن الجاني ومسامحته، صدقة يتصدق بها صاحب الحق، فيكون ذلك كفارة له عند الله عــن ذنوب اقترفها في حياته. «**والله يجزي المتصدقين**» (يوسف، ٨٨). بقوله: «**إن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم**» (التغابن، ١٤).

كــذلك فــتح الإسلام أمام القاتل باب النجاة من الموت بمسامحة أهل القتيل له، والعفو عنه بأخذ دية القتيل منه لقاء هذا العفو، إن شاؤوا.

ميَّــزت التوراة بين القاتل عمداً الذي يستحق القتل، وبين القاتل خطأً. وكذلك القرآن. وقد حدد موسى للقاتل خطأً مدينة يلجأ إليها لينجو من العقاب مــا دام لم يخرج منها. أما الإسلام فقد ألزم القاتل خطأً دفع دية لأهل القتيل تعويضاً لهم عن فقده.

الختان

فرضت شريعة موسى الختان على كل مولود أن يختن في اليوم الثامن من ولادته، علامة انتمائه إلى الدين وإلى الجماعة. ولم يعد بين بني إسرائيل مكــان لأغلف. ويسوع المسيح جرى عليه الختان عندما بلغ اليوم الثامن من ولادتـــه (لوقا ٢١/٢). لكن رسل المسيح، الذين كانوا جميعهم مختونين، لم يعودوا يرون لزوم الختان على المؤمنين الجدد بالمسيحية. حيث غدا الختان يشــكل عقبة أمام دخول الناس في الدين الجديد، فتخلوا عنه مكتفين بتحريم «نجاسات الأصنام والربا والمخنوق والدم» (أعمال ٢٠/١٥). وهذه كانت من المحرمات في شريعة موسى، فجاء الإسلام معتبراً أنها من المحرمات أيضاً، وطبق سنة الختان التي كانت في شريعة موسى.

الأوثان والتماثيل

حــرّمت الــتوراة إقامة التماثيل والأوثان من أجل عبادة الإله الواحد والــبعد عن الوثنية: «لا تصنعوا لكم أوثاناً، ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو

نُصــباً. ولا تجعلــوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له. لأني أنا الرب إلهكــم» (لاويين ١/٢٦). كذلك حرّم القرآن الأنصاب والأوثان: «**فاجتنبوا الرجس من الأوثان**» (الحج، ٣٠). «**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجــس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**» (المائدة ٩٠). وجاء في الحديث النبوي: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه تماثيل» (البخاري، بدء الخلق، ٧).

أمــا المســيحية، ففيها رأيان؛ رأي يحرم التماثيل في الكنائس، وحتى الصــور والــنقوش، كالكنيسة البروتستنتية، ورأي يحل إقامة تماثيل وصور القديســين، تزييناً وتفخيماً للمعابد، كالكنيسة الكاثوليكية. فالبابوية أحلتها على اعتــبارها لأشــخاص قديسين، تقام لهم التماثيل والصور تكريماً لهم وإحياءً لذكــراهم الطيــبة، وليكونوا قدوة للناس، وإراحة لنفوس المؤمنين من النظر إلــيها والتبرك بها، وليس أوثاناً لآلهة تعبد من دون الله، كما قصدت التوراة من وراء تحريمها. وكما حرمها القرآن.

الإســلام حرّمها لقطع الصلة بين المؤمنين بالإله الواحد: «**الذي ليس كمــثله شيء**» (الشورى، ١١). والذي لا يمكن تمثيله بأي مثال، وبين آلهة المشــركين التي كانوا يعبدونها بأشكالها الوثنية والصنمية. فمساجد المسلمين تخلــوا تمامــاً مــن التماثيل والصور. ولكنها نحت نحو الكنيسة الكاثوليكية بالزخرفة والنقوش، والكتابة التزيينية، والقباب الفخمة، والمآذن ذات الهندسة الــرائعة. كمــا خــرجت على هذه القاعدة بعض المذاهب الإسلامية، وأبقى أتــباعها مساجدهم على بساطتها؛ على غرار أول مسجد بناه رسول الله في المدينة المنورة.

ما يحل أكله وما يحرم

حــدّدت الــتوراة لبني إسرائيل ما أحل لهم أكله وما حرّم عليهم: «لا تأكــل رجساً ما، هذه هي البهائم التي تأكلونها. البقر والضأن والمعز والأُيّل والظبي واليحمور والوعل والرئم والثيتل والمهاة. وكل بهيمة من البهائم تشق

ظلفاً وتقسمه ظلفين وتجتر فإياها تأكلون. إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر ومما يشق الظلف المنقسم. الجمل والأرنب والوبَر، لأنها تجتر لكنا لا تشق ظلفاً، فهي نجسة لكم. والخنزير لأنه يشق الظلف لكنه لا يجترّ، فهو نجس لكم. فمن لحمها لا تأكلوا، وجثثها لا تلمسوا.

وهذا تأكلونه من كل ما في الماء. كل ما له زعانف وحرشف تأكلونه. لكن كل ما ليس له زعانف وحرشف لا تأكلوه. إنه نجس لكم.

كل طير طاهر تأكلون. وهذا ما لا تأكلون منه. النسر والأنُوق والعُقاب والحدأة والباشق والشاهين على أجناسهم، وكل غراب على أجناسه، والنعامة والظَّليم والسَّأفُ والباز على أجناسه، والبوم والكُركيّ والبجع والقُوق والرَّخم والغوَّاص واللَّقْلق والبَبْغا على أجناسه، والهدهد والخفّاش. وكل دبيب الطير نجس لكم. لا يؤكل. كل طير طاهر تأكلون». (تثنية ١٤/٣-٢٠).

كذلك أحلّ الإسلام ما أحلته التوراة، وحرّم ما حرمته، إلا في بعضه، كالجمل فلحمه حلال. وجاء في القرآن: «**حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به**[١]، **والمنخنقة، والموقوذة**[٢]، **والمتردية**[٣]، **والنطيحة**[٤]، **وما أكل السبع إلا ما ذكيتم**[٥]، **وما ذبح على النصب**[٦]». (المائدة، ٣). وحرّم نبي الإسلام أكل سباع الوحش والطير، أي أكلة اللحوم من الوحوش والطيور. جاء في الحديث النبوي: «كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير حرام». (الوسائل كتاب الأطعمة، ج ١٩، ص ٣٢٠).

---

(١) أي ما ذكر عند ذبحه غير اسم الله.

(٢) التي تضرب حتى الموت.

(٣) التي تقع من مكان عالٍ فتموت.

(٤) التي تموت من نطح غيرها.

(٥) أدركتم ذبحه قبل أن يموت.

(٦) الأوثان.

وقوله: «أكل كل ذي ناب من السباع حرام» (البخاري، كتاب الصيد، ١٢٤) و(ابن ماجه، السيوطي، ١٨٢).

كذلك تقول التوراة لحم فريسة في الصحراء لا تأكلوا، للكلاب تطرحونه» (خروج ٣٦/٢٢). كما حرمت التوراة الذبح لغير الرب: «من ذبح لغير الرب وحده يهلك» (خروج ٢٠/٢٢) كذلك حرم الإسلام ما ذبح علسى النُصب «**وما أهلّ لغير الله به**».

وحرّمت التوراة أكل الدم: «وأما الدم فلا تأكله على الأرض تسفكه كالماء» (تثنية ١٦/١٢).

كذلك حرّمت المسيحية أكل «المخنوق والدم» (أعمال ٢٠/١٥).

فرضت تحريم أكل الميتة والدم في التوراة والإنجيل والقرآن لأنهما ضاران بصحة الناس، فالله، في الكتب السماوية، حرّم ما هو مضر بصحة الناس وأحلّ ما هو نافع لهم، بذلك يقول القرآن: «**ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**» (الأعراف، ١٥٧) ويخاطب الله نبيه في القرآن: «**ويسألونك ماذا أحِلّ لهم، قل أحِلّ لكم الطيبات**» (المائدة، ٤).

الكذب

تقول التوراة: «لا تكذبوا» (لاويين ١١/١٩). و«الكذب المعزز بحلف اليمين يمثل تدنيساً لاسم الرب» (لاويين ١٢/١٩) و«لا تحلفوا باسمي للكذب فتدنس اسم إلهك» (لاويين ١٢/١٩). وفي العهد الجديد من الكتاب المقدس يقول المسيح عليه السلام: «ليكن كلامكم نعم، نعم، لا، لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير» (متى ٣٧/٥).

يقول القرآن: «**إنما يفتري الكذب من لا يؤمنون بآيات الله**» (النحل ١٠٥). ويقول: «**إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب**» (غافر ٢٨). ويقول محمد رسول الله (ص): «إن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى

النار» (بخاري ١٣٣٩). ويقول: «لا يكذب الكاذب إلا من مهانة نفسه عليه» (كنز العمال ٨٢٣١٢). ويقول: «الكذب باب من أبواب النفاق» (تنبيه الخواطر، ص ٩٢). ويقول: «ويل للذي يحدّث فيكذب فيضحك به القوم، ويل له» (كنز العمال ٨٢١٥). ويقول: «أقل الناس مروءةً من كان كاذباً» (البحار ٧٢، ص ٢٥٩).

الخطيئة والغفران وحساب ما بعد الموت

إن أهم ما تميزت به رسالة المسيح عن رسالة موسى هو قولها بحياة أخرى بعد الموت يسعد بها الصالحون في ملكوت الله، ويشقى بها الطالحون في نار جهنم. فالنفس الإنسانية خالدة لا تموت، وإنما الذي يموت ويفنى هو هذا الجسد الترابي. وقالت المسيحية بقيامة الأموات، وخضوعهم للحساب على إيمانهم وأعمالهم يوم الدينونة. فحسب عمل الإنسان ودرجة إيمانه يكون مقامه في الآخرة.

كذلك جاء القرآن مصدقاً لما ورد في الإنجيل عن قيامة الأموات، وخضوع النفس الإنسانية للحساب على أعمالها التي عملتها في الحياة الدنيا: «**من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**» (الزلزلة، ٧ و٨).

لم يأت في توراة موسى ذكر لحياة بعد الموت. لذلك فالعقاب والثواب يكونان في هذه الدنيا. فالذي يرتكب خطيئة أو يعمل عملاً يثير غضب الرب، فالرب يعاقبه في هذه الحياة، في صحته أو ماله أو ولده... كما سيأتي معنا. ولتلافي غضب الرب، فكل من يقترف خطيئة، أو يعمل عملاً من مناهي الرب، عليه أن يقدم ذبيحة للرب، ذبيحة خطيئة، فيكفر الكاهن عنه خطيئته، ويصفح عنه (لاويين ٤ و٥). «فالرب إله رحيم ورؤوف وبطيئ الغضب وكثير الإحسان والوفاء، حافظ الإحسان إلى الوف، غافر الإثم والمعصية

والخطيئة، ولكنه لن يبرئ إبراءً، مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء من الجيل الثالث والرابع» (خروج ٣٤/٦-٧).

كذلك شجّعت المسيحية على التوبة. جاء في الإنجيل: «هكذا أقول لكم: يكون فرح قدّام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب» (لوقا ١٥/١٠). وفتحت باب المغفـرة، يمنحه الكاهن للمؤمن بعد اعترافه بخطيئته أمامه. وهذا ما يسمى بسـرِّ الاعتـراف. لكـن المسيحية استغنت عن الذبيحة القربان بعد مجيء المسـيح، حيث كان هو الذبيحة الإلهية التي كفرت الخطيئة التي ارتكبها آدم واستمرت في عقبه حتى موت المسيح المخلّص فداء على الصليب.

أمـا القرآن فقد أفسح لكل فرد أن يناجي الله ويستغفره وينال المغفرة منه دونما وساطة من أحد، إذ لا كهنوت في الإسلام، ولا وصاية لأحد على الناس. فالله قريب مجيب. يخاطب الله في القرآن رسوله بقوله: «**وإذا سألك عـبادي عنـي فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان**» (البقرة، ١٨٦). ويقول للناس: «**ادعوني أستجب لكم**» (غافر، ٦٠). ويقول: «**فاستغفروه ثم توبـوا إلـيه إن ربي قريب مجيب**» (هود، ٦١) لكن للتوبة شروطها لينال الـتائب غفران ربه: «**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليماً حكيماً. وليست الـتوبة للـذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن، ولا الـذين يموتون وهم كفار، أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً**» (النساء، ١٧-١٨). فالله: «**عليم بذات الصدور**» (المائدة، ٧). «**إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء**» (آل عمران، ٥). فشرط الاستغفار، التوبة الصـادقة وعـدم الإصرار على الإثم: «**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسـهم ذكـروا الله فاسـتغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون**» (آل عمران، ١٣٥). وأخيراً يخاطب الله المذنبـين والخطـاة جميعاً، مهما أسرفوا في الخطايا والآثام: «**قل يا عبادي**

الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم» (الزمر، ٥٣).

والله في الإسلام يحاسب كل إنسان على ذنبه الذي اقترفه بنفسه. «**ولا تزر وازرة وزر أخرى**» (الأنعام، ١٦٤). فلا تحمل نفس إثم غيرها، ولا يتحمل الأبناء خطايا الآباء. إذ «**كل نفس بما كسبت رهينة**» (المدثر، ٣٨).

يعطي المسيح في الإنجيل صورة عن الحساب في الآخرة: «فكما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء العالم. يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم، ويطرحونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (متى ١٣/٤١-٤٣).

كذلك فقد حذّر القرآن من نار جهنم وأهوالها، وقد ذكرت جهنم في سبع وسبعين آية. لكنه رغّب المؤمنين بالجنة ونعيمها، وضاعف من ذكرها، فذكرت في مائة وثمان وأربعين آية: «**إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، إن الله كان عزيزاً حكيماً. والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. لهم فيها أزواج مطهرة، وندخلهم ظلاً ظليلاً**» (النساء، ٥٦-٥٧).

وإذ تشدّد التوراة على عذاب الدنيا، وإذ يشدد الإنجيل على عذاب الآخرة، فالقرآن يحذر المذنبين من عذاب الدنيا والآخرة: «**لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم**» (البقرة، ١١٤). «**أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة**» (آل عمران، ٢٢). ويكافئ المؤمنين: «**فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة**» (آل عمران، ١٤٨).

الخطيئة وعقوبتها في التوراة

وتشدّد التوراة على عقوبة الخطاة في هذه الدنيا، فتثير في نفوس الناس الرعب من انتقام الرب:

تقوم التوراة في صفحات ثلاث في سفر التثنية ٢٨ كلاماً مرعباً لأولئك الذين لم يسمعوا لصوت الرب ويعملوا بجميع وصاياه وفرائضه: «ملعوناً تكون في المدينة وملعوناً تكون في الحقل. ملعونة تكون سلتك ومعجنك. ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك نتاج بقرك وإناث غنمك. ملعوناً تكون في دخولك وملعوناً تكون في خروجك. يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمل حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتني. يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك... ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزّل عليك من السماء حتى تهلك. يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك... وتكون جثتك طعاماً لجميع طيور السماء ووحوش الأرض وليس من يزعجها. يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحِكّة حتى لا تستطيع الشفاء. يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب. فتتلمس في الظُهر كما يتلمس الأعمى في الظلام... تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها. تبني بيتاً ولا تسكن فيه. تغرس كرماً ولا تستغله. يذبح ثورك أمام عينيك ولا تأكل منه... يسلّم بنوك وبناتك إلى شعب آخر وعيناك تنظران إليهم. ثمر أرضك يأكله شعب لا تعرفه فلا تكون إلا مظلوماً ومسحوقاً كل الأيام... يضربك الرب بقرع خبيث على الركبتين وعلى الساقين حتى لا تستطيع الشفاء من أسفل قدمك إلى قمة رأسك... بذاراً كثيراً تخرج إلى الحقل وقليلاً تجمع لأن الجراد يأكله. كروماً تغرس وخمراً لا تشرب لأن الدود يأكلها... بنين وبنات تلد ولا يكونون لك لأنهم إلى السبي يذهبون. الغريب الذي في وسطك يستعلي عليك متصاعداً وأنت تنحط

متـــنازلاً... هو يكون رأساً وأنت تكون ذنباً. وتأتي عليك جميع هذه اللعنات وتتبعك وتدركك حتى تهلك لأنك لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحفظ وصاياه وفرائضه التي أوصاك بها... تُستعبد لأعدائك الذين يرسلهم الرب عليك في جوع وعطش وعري وعوز كل شيء. فيجعل نيران حديد على عنقك حتى تهلـــك. يجلب الرب عليك أمة من بعيد... فتأكل ثمرة بهائمك وثمرة أرضك حـــتى تهلـــك... تحاصرك في جميع أبوابك... فتأكل ثمرة بطنك لحم بنيك وبـــناتك الذيـــن أعطاك الرب إلهك في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك. الرجل المتنعم فيك والمترفه جداً تبخل عينه على أخيه وامرأة حضنه وبقـــية أولاده الذين يبقيهم بأن يعطي أحدهم من لحم بنيه الذي يأكله لأنه لم يبق له شيء في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك في جميع أبوابك. والمـــرأة المتـــنعِّمة فيك والمترفِّهة التي لم تجرب أن تضع أسفل قدمها على الأرض للتـــنعّم والـــترفّه تبخل عينيها على رجل حضنها وعلى ابنها وبنتها بمشيمتها الخارجة من بين رجليها وبأولادها الذين تلدهم لأنها تأكلهم سراً في عوز كل شيء في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك. إن لم تحرص لـــتعمل بجمـــيع كلمـــات هذا الناموس... وكما خرج الرب لكم ليحسن إليكم ويكـــثركم كذلـــك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فتستأصلون من الأرض. ويـــبددك الـــرب في جميع الشعوب من إقصاء الأرض إلى إقصائها... ولا يكـــون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلباً مرتجفاً وكلال العينين وذبول النفس... وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك... من ارتعاب قلبك الذي ترتعب ومن منظر عينيك الذي تنظر...».

دور العمل في الخلاص

الإســـلام جعـــل خلاص الإنسان مرتبط بعمله، بعد الإيمان بالله. بذلك يقـــول القرآن الكريم: «**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلـــون الجنة يرزقون فيها بغير حساب**» (غافر، ٤٠) وقوله: «**من عمل**

صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها» (فصّلت، ٤٦). وجاء في الحديث النبوي: «الإيمـــان والعمل إخوان لا يقبل أحدهما إلا بصاحبه». (كنز العمال، ج ١، ص ٩٥). «لا يقـــبل الإيمـــان بلا عمل ولا العمل بلا إيمان». (كنز العمال، ج ١، ص ٦٨). وجـــاء في الحديث أيضاً: «إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امـــرئ ما نوى». (بخاري، عتق، ٦). فالله يجزي الإنسان إذا نوى أن يعمل عمـــلاً صـــالحاً وإن لم يستطع تنفيذه. جاء في الحديث القُدسيّ: «إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يفعل، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشرة أمثالها» (مسند أحمد ٢/٣١٥).

كذلـــك المســـيحية قرنـــت العمل بالإيمان. فالعمل الصالح مع الإيمان يوصـــل إلـــى ملكـــوت الله. أما الإيمان وحده دون عمل فلا يكفي لنيل هذه النعمة. يقول الرسول يعقوب: «ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد إنَّ له إيماناً، ولكن ليس له عمل. هل يقدر الإيمان أن يخلّصه... إن الإيمان إن لم يكن له أعمال، ميت في ذاته... ألم يتبرر إبراهيم أبونا بالأعمال، إذ قدم إسحاق ابنه على المذبح... لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت، هكذا الإيمان أيضاً بدون عمل ميت». (رسالة يعقوب ٢/١٤-٢٦).

إلاّ أنّ بعـــض مفكري المسيحية المتأخرين، أمثال لوثر الذي رأى أن الخلاص يكون بالإيمان وحده، وليس للعمل شأن في خلاص الإنسان. فيقول: «ولهذا فإن أول ما يجب أن يهتم له كلّ مسيحي هو أن يطرح جانباً كل يقين فـــي الأعمال، وأن يقوى إيمانه وحده... حسبك أن تعرف الحمل الذي يحمل خطايـــا العالم، والخطيئة لا يمكنها أن تفرق بيننا وبينه، حتى لو ارتكبنا ألف جـــريمة زنى كل يوم، أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل» (قصة الحضارة ــ ول ديورانت، ج ٢٤، ص ٦٢).

وكذلك كان من بعده كالفن الذي يرى: «أن ليس في استطاعة واحد منا أن يحصل عليه (النعيم الأبدي) مهما قدم من أعمال صالحات... ولكن موت

الـــرب الـــذي ضـــحّى بنفسه في سبيل البشرية، هو الذي يستطيع أن يحقق للبشـــرية الخـــلاص، وليس للناس أجمعين، لأن عدالة الرب تقتضي عذاب معظم البشر» (قصة الحضارة ــ ول ديورانت، ج ٢٤، ص ٢١٢).

فالإســـلام لـــيس ديـــن عبادة وحسب، بل هو دين عبادة وعمل. يقول القـــرآن: «**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم**» (التوبة، ١٠٥). فالعمل هو الذي يتمايـــز به الناس يوم القيامة. وقد ذكر فعل عمل ومشتقاته في القرآن ثلاث مائـــة وإحـــدى وســـبعين مرة، وما ذلك إلا تأكيداً على أهمية العمل بالنسبة لمصير الإنسان وبناء المجتمعات.

أمـــا مقـــياس العمل الصالح المجزي، فهو كل عمل يعود على الناس بنفع. وأما العمل السيئ فهو كل ما يعود على الناس بضرر. والإنسان مأمور فـــي كـــل الأديان، بعمل الخير، منهي عن عمل الشر. فمن أطاع الله وعمل الصالحات فاز بنعمة الله ورضوانه. ودخل جنته التي وعد. ومن خالف أمر الله وعمل شراً فله جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً.

القضاء

جـــاء فـــي الـــتوراة: «لا تـــرتكبوا جوراً في القضاء... بالعدل تحكم لقريبك» (لاويين ١٩/١٥). وتقول أيضاً: «لا تحرف القضاء ولا تنظر إلى الوجـــوه ولا تأخـــذ رشـــوة لأن الرشـــوة تعمي أعين الحكماء وتعوج كلام الصديقين. العدل العدل تتبع» (تثنية ١٦/١٩). «حكم واحد يكون لكم القريب يكون كالوطني» (لاويين ٢٤/٢٢).

وجـــاء فـــي القـــرآن: «**وإذا حكمـــتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**» (النســـاء، ٥٨). ويقـــول: «**فـــلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا**» (النساء، ١٣٥). ويقول: «**ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**» (المائـــدة، ٨). «**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى**» (الأنعام ١٥٢). وعن

رشــوة القضاة، يقول القرآن: «**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس وأنتم تعلمون**» (البقرة، ١٨٨).

إكرام الوالدين

جاء في التوراة: «كل إنسان سبّ أباه أو أمه فإنه يقتل» (لاويين ٢٠/٩). وجــاء في الوصايا العشر: «أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك» (خروج ٢٠/١٢).

وجاء في الإنجيل على لسان المسيح مخاطباً الكتبة والفريسيين: «فإن الله أوصــــى قـــائلاً: أكرم أباك وأمك. ومن يشتم أماً أو أباً فليمت موتاً. وأما أنتم فتقولون من قال لأبيه أو أمه قربان هو الذي تنتفع به مني. فلا يكرم أباه وأمـــه. فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم» (متى ١٥/٤-٦). كلام المسيح هنا هو لتصحيح الانحراف عن الناموس الإلهي.

وجاء في القرآن قولاً يجعل فيه إكرام الوالدين يأتي بالمرتبة الثانية بعد عـــبادة الله، وفوق كل عمل خير أو طاعة: «**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالــوالدين إحســاناً، إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهــرهما، وقــل لهمـــا قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الـــرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً**» (الإسراء ٢٣-٢٤). وجاء فـــي القرآن: «**ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بـــي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً**» (لقمان، ١٥). فلو كان الأبوان مشركين بالله، ويدعوان ولدهما لأن يشرك به ليرتكب ذلك الإثم العظيم، فعليه أن لا يطيعهما في هذا الأمر، لكنّ عليه أن يصاحبهما بالمعـــروف ويعاملهمـــا المعاملة الحسنة التي تليق بالوالدين رغم شركهما. ويبقى شاكراً لهما تربيتهما له في صغره، داعياً لهما بالرحمة. وخص رسول

الله الأم، التـــي تـــتحمل العبء الكبير في تنشئة الولد، بالإكرام فجعل طريق الوصول إلى رضى الله ودخول الجنة، رهن برضى الأم، بقوله «الجنة تحت أقدام الأمهات».

جـــاء رجل إلى رسول الله فقال: من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: «أمـــك، قـــال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك» (البخاري ومسلم).

وعـــن رسول الله أنه قال: «رغِم أنف، ثم رغِم أنف، ثم رغِم أنف من أدرك أبويه عند الكبر: أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة» (رواه مسلم). أي لـــم ينل رضاهما الذي يؤدى به إلى نيل رضوان الله ودخول الجنة، لأن الله تعالى قرن رضاه على الإنسان برضى والديه عنه.

وعـــن أنس رضي الله عنه أن رسول الله قال: «من أحب أن يبسط له فـــي رزقه، وينسأ لـــه في أثره، فليصل رحمه» (البخاري ومسلم). ومعنى ينسأله في أثره: أي يؤخر له في أجله وعمره.

جـــاء رجل فاستأذن رسول الله في الجهاد، فقال له: أحيٌ والداك؟ قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد» (البخاري ومسلم).

وعـــن رسول الله أنه قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالها ثلاثاً. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين» (البخاري ومسلم عن رياض الصالحين ص ١٦٠).

ولـــم يكـــتف الإسلام ببرّ الوالدين أحياء، بل أمر ببرهما بعد موتهما. فرسول الله يقول: «نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» (أبو داود).

• تقـــول الـــتوراة: «لا تظلم أجيراً مسكيناً أو فقيراً من أخوتك أو من الغرباء الذين في أرضك في أبوابك. في يومه تعطيه أجرته ولا تغرب عليها

الشـــمس، لأنه فقير وإليها حامل نفسه، لئلا يصرخ عليك إلى الرب، فتكون عليك خطيّة». (تثنية ٢٤/١٤-١٥).

بذلك يقول رسول الله محمد (ص): «أعطوا الفقير أجره قبل أن يجفّ عــرقه» (ابــن ماجه ٢٤٤٣). ويقول: «ألا من ظلم أجيراً فلعنة الله عليه» (مســتدرك الوســائل، ج ٢، ص ٥٠٨). ويقول: «إن الله غافر كل ذنب إلا رجلاً اغتصب أجيراً أو مهر امرأة». (المرجع نفسه).

• تقول التوراة: «لا يكن لك في كيسك أوزان مختلفة كبيرة وصغيرة. لا يكن لك في بيتك مكاييل مختلفة كبيرة وصغيرة. وزن صحيح وحق يكون لك ومكيال صحيح وحق يكون لك. لأن كل من عمل غشاً مكروه لدى الرب إلهك» (تثنية ٢٥/١٣-١٦).

ويقــول القــرآن: «**ويــل للمطففــين الــذين إذا اكتالوا على الناس يســتوفون، وإذا كالــوهم أو وزنــوهم يخسرون**» (المطففون، ٣). ويقول: «**وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس** (الميزان) **المستقيم**» (الإسراء، ٣٥). ويقول: «**ولا تنقصوا المكيال والميزان**» (هود، ٨٤).

• تقول التوراة: «لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل» (تثنية ٢٤/١٦).

ويقــول القــرآن: «**ولا تكســب كــل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخــرى**» (الأنعــام، ١٦٤). ويقــول: «**كــل نفس بما كسبت رهينة**» (المدثر، ٣٨).

• تقول التوراة: «لا يكن متاع رجل على امرأة، ولا يلبس رجل ثوب امرأة، لأن كل من يعمل ذلك مكروه لدى الرب إلهك» (تثنية ٢٢/٥).

وجــاء فــي الحديث النبوي: «لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنســاء والمتشبهات من النساء بالرجال» (البخاري، لباس، باب المتشبهون،

ج ٧). وجاء أيضاً: «لعن النبي المتخنثين من الرجال والمترجلات من النساء» (المصدر نفسه).

● تقول التوراة: «إذا نذرت نذراً للرب إلهك فلا تؤخر وفاءه. لأن الرب إلهك يطلبه منك فتكون عليك خطية. ولكن إذا امتنعت أن تنذر لا تكون عليك خطية» (تثنية ٢٣/٢١).

ويقول القرآن عن المؤمنين: «**يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً** (يوم الحساب)» (الإنسان، ٧). ويقول: «**وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله به عليم**» (البقرة، ٢٧٠). فالنذر في اليهودية والإسلام ملزم لصاحبه، يحمل إثماً إن لم يفِ به. وهو اختيار يختاره المرء. فمن نذر لزمه الوفاء.

● تقول التوراة: «لا تقبل خبراً كاذباً. ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم» (خروج ٢٣/١).

ويقول القرآن: «**إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**» (الحجرات، ٦).

● تقول التوراة: «إذا حصدت حصيدك في حقلك ونسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها، للغريب واليتيم والأرملة تكون. وإذا خبطت زيتونك فلا تراجع الأغصان وراءك، للغريب واليتيم والأرملة تكون» (تثنية ٢٤/١٩). «إذا قطفت كرمك فلا تعلله وراءك، للغريب واليتيم والأرملة يكون» (تثنية ٢٤/٢١).

والقرآن يشرح واقعة كاملة في سورة القلم يصور فيها غضب الله على الذين قرروا أن يقطفوا ثمار جنتهم ويحرموا منها الفقراء والمساكين: «**إذ أقسموا ليصرمنَّها مصبحين، ولا يستثنون** (أي لا يتركوا شيئاً). **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم** (سوداء) **فتنادوا**

مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حردٍ قادرين. فلما رأوها قالوا إنّا لضالون بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين... كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» (القلم، ١٧-٢٣).

لقد غضب الله عليهم فأتلف ثمار جنتهم بسبب نيتهم الاستئثار بها جميعها دون أن يجعلوا في أموالهم «**حق معلوم للسائل والمحروم**» (المعارج، ٢٥) كما أمر الله. ودون أن يؤدوا زكاة أموالهم المفروضة عليهم. ويتوعدهم الله بعذاب الآخرة الذي هو أشد مما أصابهم في إتلاف ثمار جنتهم. فالله في الإسلام هو الرزّاق. والمال الذي نملك هو ماله، وما الإنسان إلا وصيّ على هذا المال. والفقراء عياله. فمن بخل بمال الله على عياله فقد باء بغضبه. وجاء في الحديث النبوي: «إن الله يحجب حمايته عن كل جماعة يوجد فيها إنسان جائع».

تحريم السرقة

تقول التوراة: «لا تسرقوا» (لاويين ١٩/١١).

والمسيح يقول في الإنجيل: «لا تسرق» (متى ١٩/١٨).

والقرآن يقول: «**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**» (النساء، ٢٩). ووضع الشرع الإسلامي عقوبة قطع يد السارق: «**السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا**» (المائدة، ٤١). وللقطع شروط، وهي أن يكون المال المسروق مخبأ في مكان حريز؛ في غرفة مقفلة، أو خزانة مقفلة، وقام السارق بالتسلل خفية، وكسر الباب المقفل، أو كسر باب الخزانة المقفلة، وسرق المال المخبأ. وهذا يكون سارقاً محترفاً، قام بسرقة عن تصور وتصميم.

ولا تطبق عقوبة قطع اليد على:

١ ــ من سرق ليسد جوعته. وقد أحلت التوراة هذا النوع: «إذا دخلت كرم صاحبك فكل عنباً حسب شهوة نفسك، شبعتك، ولكن في وعائك لا تجعل. وإذا دخلت زرع صاحبك فاقطف سنابل بيدك، ولكن منجلاً لا ترفع على زرع صاحبك» (تثنية ٢٣/٢٤-٢٥). كذلك، سمح المسيح لتلامذته أن يدخلوا حقل قمح ويقطفوا من سنابله ويسدوا جوعهم من فريك تلك السنابل. كذلك سامح محمد رسول الله رجلاً دخل إلى حقل قمح واقتلع عدة سنابل واستخرج منها حبها وأكله مع زوجته، وقد لام رسول الله صاحب الحقل الذي أنّبه على فعلته. ثم أعطاه رسول الله مكيالاً من الحنطة عوناً له على سد جوعته. (حديث عبّاد بن شرحبيل، رواه أبو داود). (سيأتي نصّه).

٢ ــ من سرق من زوجه أو من سرقت من زوجها.

٣ ــ من سرق من مال ولده.

٤ ــ من سرق من مال أبيه.

٥ ــ من سرق مالاً غير مخبأ، أي معرضاً للسرقة.

٦ ــ من سرق من مال شريكه.

٧ ــ أن لا يكون السارق بالغاً سن الرشد (قاصراً).

٨ ــ أن لا يكون السارق بتمام عقله (مجنوناً).

٩ ــ أن يكون ما سرقه لا يتجاوز النصاب القانوني الذي حدده الشرع.

هذه الأصناف التسعة تطبق عليهم عقوبة التعزير، يقدرها القاضي، ولا تبلغ بحال عقوبة قطع اليد. ولا تطبق عقوبة قطع اليد إلا على السارق المحترف الذي لا يمكن إصلاحه.

الزهد

جاء المسيح بتعاليم الزهد في هذه الحياة الدنيا، في سبيل كسب رضى الله في الآخرة. وأهم متاع هذه الدنيا هو المال، فرزل محبي المال، واعتبرهم مشـــركين عبادة الله بعبادة المال. فحذّرهم بقوله: «لا تقدروا أن تخدموا الله والمـــال. لـــذلك أقول لكم، لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون. ولا لأجســـادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللـــباس، انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخـــازن، وأبـــوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟ ولماذا تهـــتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقـــول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها... لا تهتموا قائلـــين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس... لكن أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم. فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم لنفسه» (متى ٦/٢٤-٣٤).

ودعـــى المسيح إلى عدم كنز المال بقوله: «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض، حـــيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بل اكنـــزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ويسرقون» (متى ٦/١٩-٢٠). «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم» (متى ١٠/٩). «لأنه حيث يكون كنزك يكون هناك قلبك» (متى ٦/٢١).

فالمســـيح يريد لأتباع دعوته ألا تكون قلوبهم معلقة في هذه الدنيا، بل يريد توجيههم إلى الحياة الأخرى، حيث يكون للمؤمنين كنز في ملكوت الله، ويقـــول لمن طلب منه أن يعلمه كيف تكون له الحياة الأبدية. «إن أردت أن تكـــون كـــاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء» (متـــى ١٩/٢١). وإلـــى الذين يتهالكون على جمع المال وامتلاك الثروات

ليصبحوا في عداد الأغنياء، يقول: «إنه ليعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات». وأقول لكم أيضاً: «إن مرور الجمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (متى ١٩/٢٣-٢٤).

هذه التعاليم الزهدية هي التي استمد منها بعض آباء الكنيسة الأول مفهوم الرهبانية، ونذْر العفّة والبتولية، والابتعاد عن مغريات الحياة الدنيا ولذاتها. واعتزلوا في أديرتهم، منصرفين إلى العبادة والتنسك.

هذا الزهد الكلي في هذه الحياة المادية الفانية وتوجيه الناس للتطلع إلى الحياة الأخرى الخالدة، حيث ملكوت الله، لم تجد له أثراً في توراة موسى، حيث انحصرت تعالمها في تنظيم سلوك الناس في هذه الحياة، بما قدّمت من توجيه من أجل انتظام المجتمع، بموجب الناموس (الشريعة) الإلهي. فالالتزام بالناموس يعتبر طاعة لله ونيل رضوانه، والثواب والعقاب كلاهما في هذه الحياة.

أما الإسلام فاعتبر أن هذه الحياة الدنيا هي دار ابتلاء. أما الآخرة فهي دار الجزاء، ثواباً أو عقاباً. فيدعو المؤمنين إلى سلوك طريق الخير والصلاح في دار الدنيا الزائلة لينالوا أجرهم في الحياة الأخرى الخالدة، دار القرار، حيث النعيم الدائم «**وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين**» (آل عمران، ١٣٣). «**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**» (آل عمران، ١٨٥).

لكن الإسلام لم يدع إلى الزهد المطلق بهذه الحياة، بل أمر بالاعتدال وعدم الإسراف. لأن «**متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى**» (النساء، ٧٧). ويحدد القرآن للمؤمن كيفية تصرفه ونمط سلوكه في هذه الدنيا: «**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**» (الأعراف، ٣١). ويقول: «**كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه**» (طه، ٨١). ويؤنب القرآن الذين يبذّرون المال بقوله: «**إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين**»

(الإســـراء، ٢٧). وجــاء في الحديث النبوي: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه» (مسند أحمد ١٨٨٥). ويعطـــي القرآن الطريقة المثلى في إنفاق المال بقوله: «**ولا تجعل يـــدك مغلـــولة إلـــى عـــنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**» (الإسراء، ٢٩). أي أن يكون إنفاقك المال لا بخلاً ولا تبذيراً فلا تبخل على نفســك فتحرمها من ضرورات الحياة، ولا تسرف في صرف المال ليصيبك الإملاق الذي لا تجني منه إلا الحسرة.

ويقـــول القـــرآن لأولئك الذين يقتّرون على أنفسهم ويغالون في الزهد والامتـــناع عـــن اللـــباس اللائق والطعام الطيب مما رزقهم الله من فضله، ويحـــرمون أنفسهم مما أغدق عليهم من نَعمائه: «**قل من حرّم زينة الله التي أخـــرج لعـــباده والطيـــبات من الرزق**» (الأعراف، ٣٢). ويقول رسول الله محمـــد: «إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى آثار نعمته على عبده، ويكره البخل والتباخل».

فالإســـلام يحضّ الإنسان على الزهد في الدنيا، دون المغالاة في زهده لدرجـــة حرمان نفسه مما رزقه الله، وكبت غرائزه البشرية، كأن يمتنع عن الـــزواج تبـــتلاً وقربى من الله. بل يحض الناس على الزواج، منعاً للزنى، وجـــرياً مع الطبيعة الإنسانية. يقول الرسول: «الزواج سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني» (بخاري، نكاح، ١). ويقول: «إن الرهبانية لم تكتب علينا» (مسند أحمد ٦/٢٢٦).

فالإســـلام يدعو إلى إشباع الغرائز البشرية، وحاجات النفس الإنسانية، وحاجات الجسد، بالزواج الحلال والطعام الحلال واللباس الحلال، والاعتدال فـــي كل أمر من أمور الحياة؛ فلا تقتير ولا إسراف، من أجل بناء الشخصية الإنسانية المتوازنة نفسياً وجسدياً.

وحرّم الإسلام تجميع المال وكنزه. بل أمر بتشغيله في مشاريع إنتاجية يستفيد منه العامل والتاجر والمستهلك. «**كي لا يكون دُوْلة بين الأغنياء منكم**» (الحشر، ٧). كي لا يحتكر التداول به الأغنياء وحدهم، ويحرم منه الفقراء. وقد حذّر القرآن كانزي المال من عاقبة أمرهم، فلهم نار جهنم يعذبون فيها بسبب عملهم هذا: «**الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**» (التوبة، ٣٤) فالله مالك الملك، والمال ماله، والناس عياله. والإنسان موكّل على هذا المال. فالذي يكنز المال، ولا ينفقه في سبيل الله، كما أمر الله فقد نال غضب الله: «**يسألونك ماذا ينفقون، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل**» (**البقرة، ٢١٥**). «**ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه**» (محمد، ٣٨) ويحذر الله الذين يبخلون بالإنفاق على المحتاجين من خلق الله بأنهم يوقعون أنفسهم في التهلكة: «**وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**» (البقرة، ١٩٥).

ولم يترك الإسلام سبل الإنفاق لمشيئة الناس، بل فرض عليهم دفع زكاة أموالهم كل عام. وجعلها فريضة دينية كالصوم والصلاة والحج.

فالإسلام دين وسط، فلا إسراف ولا تقتير، لا بخل ولا تبذير. فلا زهد يؤدي إلى اعتزال الحياة وإماتة النفس قبل موتها، ولا استغراق في لذاتها ومجونها، بل حالة اعتدال بين هذه وتلك. فالمؤمن يأخذ من متاع الدنيا ما يقيم أوده ويصلح حاله، ويعيش العيش الكريم بتقوى الله وطاعته، غير متجاوز حدوده وحرماته، مجيّراً كل عمل في دنياه الفانية لصالح أخراه الباقية، فالدين لا يمنعه من أخذ نصيبه من الدنيا والتنعم بما رزقه الله من خيراتها، شرط أن لا يستحوذ عليه متاعها وينسيه الطريق إلى رضى ربه، بذلك يقول الإمام علي: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً بل الزهد أن لا يملكك شيء». ويقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت

غـداً» (نهـج البلاغة). ويقول الرسول: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» (رواه مسلم). ويقول: «ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها» (الترمذي).

جـاء رجـل إلى النبي فقال: يا رسول الله دلّني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس. فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد في ما عند الـناس يحـبك الناس» (ابن ماجه عن رياض الصالحين، ص ٢١٧). وقال صـلى الله علـيه وآلـه وسلم: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (البخاري، رياض الصالحين ٢١٧). وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعـل أحـدكم اصبعه في اليم فلينظر بما يرجع» (مسلم، رياض الصالحين ٢١٤).

* * *

نـرى مـن هـذه المقارنة السريعة بين الأديان السماوية الثلاثة كيف تطـورت المفاهيم الدينية، وكيف تطورت الشريعة الإلهية والتعاليم الدينية. فوصـايا الرب في التوراة للإسرائيلي، أن يعمل الخير لقريبه: لا تشهد على قـريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا شيئاً مما لقريبك» (جروج ٢٠/١٦-١٧). وحرمت التوراة أكـل الـربا من القريب وأحلته من الأجنبي، ودعت اليهودي أن يحب قريبه كنفسه، والذي يزني بامرأة القريب يقتل. (لاويين ٢٠/١١).

وجـاء المسـيح، بعد حوالى الثلاثة عشر قرناً، ليصحح هذه الأوامر الإلهـية بإجابـته لمن سأله: «ومن هو قريبي؟ فردّ عليه يسوع قائلاً: «كان إنسـان نـازلاً من أورشليم إلى أريحا، فوقع بأيدي لصوص. فانتزعوا ثيابه وماله وجرّحوه، ثم مضوا، وقد تركوه بين حي وميت. وحدث أن كاهناً كان نـازلاً فـي تلك الطريق، فرآه، ولكنه جاوزه إلى الجانب الآخر. وكذلك مرّ

واحد من اللاويين (كهنة الهيكل) فلما وصل إلى ذلك المكان، نظر إليه، لكنه جاوزه إلى الجانب الآخر. إلا أن سامرياً جاء إليه، ولما رآه، أخذته الشفقة عليه، فتقدم إليه وربط جراحه بعدما صب عليها زيتاً وخمراً. ثم أركبه على دابته وأوصله إلى الخان، واعتنى به. وعند مغادرته الخان في اليوم التالي، أخرج دينارين ودفعهما إلى صاحب الخان وقال له: اعتنِ به. ومهما تنفق أكثر فإني أفيك ذلك عند رجوعي. فأي هؤلاء الثلاثة يبدو لك قريباً للذي وقع بأيدي اللصوص؟» فأجاب: «إنه الذي عامله بالرحمة». فقال يسوع: «اذهب واعمل أنت هكذا» (لوقا ١٠/٢٩-٣٧).

المقصود من هذا المثل الذي ضربه المسيح توسعة أفق العقيدة الدينية والناموس الإلهي؛ فبدل أن يكون عمل الإنسان وبره محصوراً ببني إسرائيل وحدهم «كشعب خاص لله» أصبح في المسيحية، يشمل كل الناس. والله الذي عبّرت عنه التوراة بأنه رب إسرائيل وحصرت عنايته بهم وحدهم دون سائر البشر، وسّعت رسالة المسيح عنايته وبره ليشمل الناس جميعاً.

فالمسيح جاء برسالته أولاً «إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة» (متى ١٥/٢٤)، كما عبر عن نفسه. إرضاء لبني إسرائيل الذين لم يكونوا يستطيعون أن يتصوروا أن يأتي أحد من قبل الرب مؤيداً بالنعمة لغير شعبه المختار، فيهوه إله خاص بإسرائيل، وللشعوب الأخرى آلهتها. ولما كان يسوع في طريقه إلى صور وصيدا، تقدمت منه امرأة كنعانية متوسلة إليه أن يشفي ابنتها المجنونة. وعندما تريث في إجابتها، صاح تلاميذه الذين كانوا يسيرون معه قائلين: إصرفها. طلبوا إليه ذلك لأنها ليست من بني إسرائيل. وكانوا لمّا يستوعبوا بعدُ غاية رسالته الإلهية. ولما سجدت أمامه متوسلة إليه، طالبة العون منه بقلب مليء بالإيمان، قال لها: «يا امرأة عظيم إيمانك. ليكن لك كما تريدين. فشفيت ابنتها في تلك الساعة» (متى ١٥/٢٨). فعلّم تلاميذه مفهوماً جديداً أن الإيمان بالله يمكن أن يدخل في

قلـــب أي إنســـان، وأن برّ الله لا يقتصر على شعب واحد من الشعوب، بل يشمل الناس جميعاً.

لكنه، قبل أن يغادر عالمنا الأرضي ويرتفع إلى السماء، أوصى تلاميذه قـــائلاً: «اذهـــبوا وتلمذوا جميع الأمم» (متى ٢٨/٩). وهكذا غدت المسيحية دعوة إلهية لجميع بني البشر.

فالتشـــدد الـــذي رأيـــناه في رسالة موسى على أن يكون بر الإنسان لأقـــربائه، كان من ضرورات تلك المرحلة التي كان فيها حملة دين التوحيد عـــبارة عـــن قبيلة واحدة، فلا بد من شد أواصر القربى بينها، كي تستطيع المحافظـــة علـــى كينونتها والقيام بالمهمة الإلهية الموكولة إليها. لذلك كانت شريعة التوراة هي شريعة بني إسرائيل خاصة.

أما الإسلام، الذي جاء بعد حوالى الستة قرون على صعـــود المسيح، فقـــد ســـاوى بين جميع الناس؛ لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالعمل الصالح وتقـــوى الله. وبذلك يقول القرآن الكريم: «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثـــى وجعلـــناكم شـــعوباً وقـــبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم**» (الحجـــرات، ١٣). وحدد نبي الإسلام العلاقة بين الناس بالأخوّة: «إن العباد كلهـــم أخوة» (أبو داوود والترمذي ٢٥). و«الناس كلهم عيـــال الله وأحبهم إلـــى الله أنفعهم لعياله» (مسلم، عتق ١٦). وخطب الرسول في حجة الوداع قـــائلاً: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي علـــى أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود علـــى أحمر إلا بالتقوى» (مسند أحمد ٤١١). فالإســـلام ساوى بين الناس، فـــلا عنصـــرية ولا طبقية ولا لون أو عرق، بل أخـــوة إنسانية. بذلك يقول الإمـــام علـــي: «الناس اثنان، إما أخ لك في الديـــن أو نظير لك في الخلق» (نهج البلاغة).

خلق آدم بين التوراة والقرآن

ورد فـــي الاصحاح الأول من سفر التكوين في التوراة: بعد أن أتم الله خلق السماء والأرض والنور والظلمة، واليابسة والبحار، وأنبت في الأرض الشـــجر والعشـــب، وخلـــق اللـــيل ولنهار والشمس والقمر والنجوم. وخلق الزّحافات والطيور، من اليوم الأول من الخلق وحتى اليوم الخامس. وبعد أن خلق في اليوم السادس البهائم والدبابات والوحوش، ورأى ذلك أنه حسن، قال الله: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طـــير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تـــدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه. ذكـــراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (تكوين ١/٢٦-٢٨).

وبعد أن خلق الله البشر وباركهم، وقال لهم أثمروا وأكثروا و... إذا بنا نقرأ في الاصحاح الثاني تفسيراً لخلق آدم: «وجعل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الآله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله» (تكوين ٢/٧-٨).

وفـــي الاصحاح الرابع نقرأ: وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قاييـــن. وقالـــت: اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الأرض. وحدث بعد أيام أن قـــدّم من ثمار الأرض قرباناً للرب. وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن ســـمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغـــتاظ قايين جداً، وسقط على وجهه... وكلم قايين هابيل أخاه، وحدث إذ كانـــا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين: أين هابيل أخوك. فقال: لا أعلم. أحارس أنا لأخي. قال: ماذا فعلت؟ صوت أخيك

صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخـيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوّتها. تائهاً وهارباً تكـون فـي الأرض. فقـال قايين للرب: ذنبي أعظم من أن يحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض، ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب: لذلك كل من قتل قايين فسـبعة أضـعاف ينتقم منه، وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده» (تكوين ٤/١-١٥).

فقاييـن، بعـد أن شعر بغضب الرب عليه، وأصبح تائهاً وهارباً في الأرض، يتوقع، أو يتمنى، أن كل من وجده يقتله. لكن الرب جعل له علامة لكـي لا يقـتله أحد، فإما يريده الرب أن يبقى حياً ليتعذب بجريمته، وإما لا يريد له الله أن يموت، وهو الولد الوحيد الباقي لآدم.

والسؤال الذي يطرحه إنسان هذا العصر، من يمكن أن يقتل قايين، بعد أن قـتل أخـاه الوحيد، ولم يكن بعد بشر في الأرض فيقتله أحدهم. وهو لم يعبِّر، بكلامه للرب عن خوفه من أبيه آدم أن يعاقبه بالموت جزاء على قتل أخـيه، بل قال (كل من وجدني يقتلني). ووضع له الرب علامة لكي لا يقتله كـل مـن وجده. وهذه الكل، تعني وجود بشر يمكن أن يقتلوه. لا سيما وأن حـواء، كما جاء في النص، ولدت ابنها الثالث شيثا بعد مقتل هابيل: «قائلة لأن الله قـد وضع لي نسلاً آخر عوضاً عن هابيل، لأن قايين كان قد قتله» (تكوين ٤/٢٥).

للإجابة على هذا السؤال، يمكننا أن نعتمد النص الوارد في الاصحاح الأول مـن سـفر التكويـن، حيث خلق الله الإنسان على صورته، في اليوم السادس من الخلق، كما هو وارد أعلاه، بصيغة الجمع: «ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم، وقال لهم أثمروا وأكثروا، واملأوا الأرض...» فكان هؤلاء الخلق، حسـب نص التوراة، موجودين قبل خلق آدم. وعندما قتل قايين أخاه هابيل،

كــان مــن المحــتمل أن يقتلوه بسبب جرمه الذي ارتكبه بقتل أخيه. وبذلك يتصالح الكتاب المقدس مع العلم بالنسبة لتاريخ وجود الإنسان على الأرض. حيث أثبت العلماء، من خلال الكشوفات الأثرية وعلم الآثار، وجود الإنسان من عشرات آلاف السنين قبل آدم الذي حددت التوراة المدة الزمنية بينه وبين نوح بـــ ١٠٥٦ سنة ألف وست وخمسين (تكوين ٥). وحددت الفترة الزمنية بـــين نوح وإبراهيم بـــ ٨٩٢ سنة مئتين واثنتين وتسعين. (تكوين ١١). وإذا عرفنا أن المسافة الزمنية بين إبراهيم والمسيح ١٨٠٠ سنة ألف وثمانمئة سنة تقـــريباً، كما يحدد المؤرخون[1]، فتكون المدة الزمنية التي تفصلنا عن آدم، هـــي علـــى وجـــه التقـــريب خمسة آلاف وثمانمائة سنة. وهذا يتناقض مع معطيات العلم الحديث، ومع ما اكتشف من آثار وهياكل عظمية بشرية تعود إلى زمن يبعد كثيراً، وكثيراً جداً، عن هذا التاريخ.

أما القرآن، فإنه يروي لنا خلق الإنسان بآيات متفرقة في سور عديدة. يقول في (سورة السجدة، آية ٩) «**بدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله مـــن ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**».

يبـــيّن القـــرآن أن بداية خلق الإنسان من الطين، أي التراب المجبول بالمـــاء. وكلمة إنسان هنا تعني الجنس أي جنس الإنسان. ثم جعل نسله من سلالة ماء مهين. إن حرف ثم يفيد التراخي. ومرور حقبة زمنية غير محددة، بـــين بدء الخلق من طين وبين جعل نسله عن سلالة من ماء مهين، أي من نطفتي الرجل والمرأة. «ثم سواه». أي بعد فترة من الزمن، لا يعلمها إلا الله، ســـواه، أي أتم خلقه؛ بحيث استوى منتصباً على رجليه واكتمل عقله بحيث أصـــبح يســـتوعب معـــرفة الله وإدراك رســـالة السماء وتحمّل مسؤوليتها.

---

(١) مـــوريس بـــوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، دار الكندي، بيروت، ص ٤١ و٤٢.

«والتسوية جعل الشيء مستوياً قيّماً على أمره بحيث يكون كل جزء منه على ما ينبغي أن يكون عليه. فتسوية الإنسان، أن يكون كل عضو من أعضائه في الموضع الذي ينبغي أن يكون فيه، وفي الحال التي ينبغي أن يكون عليها» (تفسير الميزان، المجلد الثاني عشر، ص ٦٥٤).

وبعد أن أتم الله تسويته وأكمل سمعه وبصره وعقله، نفخ فيه من روحه. والروح، وفق آيات القرآن، تحتمل معنيين: الأول: مبدأ الحياة الذي يتميز به سائر الأحياء. والثاني: الوحي الإلهي. كما تبين لنا الآيات القرآنية التالية: «**يُنَزِّلُ الملائكة بالروح من أمره على من يشاء**» (النحل، ٢). أي ينزِّلهم بالوحي. وكذلك في قوله: «**يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق**» (غافر، ١٥) يعني بالروح هنا الوحي الإلهي الذي ينذر به الناس من عذاب يوم القيامة. وفي قوله مخاطباً رسول الله: «**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**» (الشورى، ٥٢). والروح الذي جعله الله نوراً هو القرآن الكريم الذي يهدي إلى الصراط المستقيم، وهو الوحي الإلهي الذي سماه الله روحاً، لأن فيه حياة النفوس الميتة، كما أن الروح الذي فيه مبدأ الحياة فيه حياة الأجساد الميتة. وسمي ملك الوحي جبرائيل بالروح الأمين، وبروح القدس.

وإذ يعزف بعض علماء المسلمين عن الخوض في موضوع تفسير الروح، لقوله تعالى: «**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**» (الإسراء، ٨٥). فالروح، من حيث هي مبدأ الحياة، لم تزل سراً من الأسرار الإلهية. وحتى في هذا العصر الذي خاض الإنسان فيه في أعماق الخلية الحية، وعرف أجزاءها، وسبر أغوارها، وهو دائب على حل رموز الخريطة الجينية، فإنه قد يصل إلى معرفة البرمجة

الإلهية التي برمجها الخالق، جل شأنه فيها، ولكنه سيبقى عاجزاً عن الوصول إلى معرفة سر الروح التي تعطي الحياة للخلية الحية في أدق أجزائها.

أما بالنسبة إلى الروح كوحي إلهي، فهي، دونما شك أو التباس، من أمر الله تعالى، وما الوحي إلا وحيه، وما هو إلا من أمره. ينزّله على من يشاء من عباده، مبشرين ومنذرين، وداعين إلى صراط الله المستقيم.

فمعنى «ثم سواه ونفخ فيه من روحه» أي بعد أن اكتمل خلقه وأصبح قادراً على حمل رسالة السماء أنزل عليه الوحي، فكان آدم أول الأنبياء. يقول تعالى: «**وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**» (البقرة ٣١-٣٣). وهنا، إجلالاً لهذا الكائن البشري الذي كان أول من أكرمه الله بتلقي الوحي الإلهي، وخصّه بالنبوة، يقول الله للملائكة: «**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**» (البقرة، ٣٤).

هل آدم الذي سجدت له الملائكة هو أول خلق الله. وهل هو الذي ذكر في قوله تعالى: «بدأ خلق الإنسان من طين...»؟

في القرآن آيات أخرى توضح نبوة آدم. من مثل قوله تعالى: «**إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم**» (آل عمران، ٣٣). في فهمنا لهذه الآية، نلحظ أن آدم ليس أول البشر. بل كان قبله وفي زمانه ناس اصطفاه الله من بينهم، وخصّه بالنبوة، كما اصطفى سائر الأنبياء؛ أي اختارهم وانتخبهم من شعوبهم، لأنهم صفوة هذه الشعوب وخيْرتها.

فالنبـــي يحمل دعوة إلهية للناس. فلا بد وأن يكون في زمن آدم وجود لشـــعب كـــي يرسل الله له نبياً ينقل إليه الرسالة الإلهية التي حملها كل نبي لشعبه. ويختاره ويصطفيه منهم، فالمصطفى هو المفضّل على غيره. ومحمد رسول الله دعي بالمصطفى والمختار، لأن الله اختاره واصطفاه على قومه. فاصطفاء النبي هو تفضيل له على سائر الناس. فكما اصطفى الله نوحاً وآل إبـــراهيم وآل عمـــران على قومهم الذين أثبتت لنا وقائع التاريخ وجودهم، كـــذلك، فـــلا بدّ أن يكون الله جل وعلا قد اصطفى آدم على قومه، واختاره منهم، وبعثه إليهم ليهديهم سواء السبيل.

فـــالله فـــي القـــرآن يخـــتص بني آدم، سلالة النبوة، بالتكريم، بقوله: «**وكـــرمنا بنـــي آدم وحملـــناهم فـــي البحر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضـــلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**» (الإسراء، ٧٠). ويقول: «**أولئك الـــذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم**» (مريم، ٥٨). وهذا الكلام يأتـــي تعقيـــباً علـــى ذكر مريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، من أبناء آدم سلالة النبوة.

أما، عندما يذكر القرآن الإنسان الذي خلقه الله من طين، فتتغير لهجة الآيـــات القـــرآنية، من مثل قولـــه: «**إن الإنسان لكفور**» (الزخرف، ١٥). وقولـــه: «**إن الإنسان لظلوم كفّار**» (إبراهيم، ٣٤). وقوله: «**وكان الإنسان كفـــوراً**» (الإسراء، ٦٧). وقوله: «**أولم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هـــو خصـــيم مبين**» (يس، ٧٧). وقولـــه: «**قتل الإنسان ما أكفره**» (عبس، ١٧). وقوله: «**إن الإنسان لربه لكنود**» (العاديات، ٦).

نكتشـــف مـــن هذه الآيات أن الناس غير بني آدم سلالة النبوة، الذين كرمهم الله: «**وكرمنا بني آدم**». وأن آدم أول الأنبياء وليس أول البشر.

ففي قوله تعالى: «**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لـــك، قال إني أعلم ما لا تعلمون**» (البقرة، ٣٨). نلاحظ، أولاً، أن الله تعالى

يقــول: إني جاعل في الأرض خليفة، ولم يقل إني خالق في الأرض خليفة، نستنتج من ذلك أن الخلق كان موجوداً، وجعل الله منه خليفة، ونستنتج، ثانياً، مــن كــلام الملائكة أن لهم معرفة سابقة بسلوك البشر، بأن منهم من يفسد ويســفك الدماء. وهذا ما عرفوه بالمشاهدة من سلوك من كان من الخلق قبل آدم. علماً أن الملائكة لا يعلمون الغيب، وهم يتحدثون عن معرفة سابقة ولم يكونــوا يتنــبأون بمستقبل آدم. فالغيب ومعرفة المستقبل، لا يعلمهما إلا الله الذي عنده مفاتح الغيب كما جاء في النص القرآني: «**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو**» (الأنعام، ٥٩).

وإثــباتاً لــرأينا بــأن آدم هو أول الأنبياء وليس أول البشر، نستنطق التاريخ والعلم والكتب المقدسة.

العهــد القديم يقدم لنا تسعة عشر جداً بين إبراهيم وآدم (تكوين ٥ و ١١). وفــي العهــد الجديــد يحددهم لوقا بعشرين، ويحدد بين آدم والمسيح سبعاً وسبعين جداً. وكتب السيرة النبوة، تحدد بين إبراهيم وآدم عشرين جداً، وبين إبــراهيم ومحمد أربعين جداً (سيرة ابن هشام). فيكون عدد الأجداد بين آدم ومحمد ستين جداً.

هــذه الــروايات، وما بينها من اختلاف، فهي، في أقصى تقديرها، لا تجعــل بينــنا وبــين آدم سوى بضعة آلاف من السنين. وهذا يتناقض مع معطيات العلم الحديث، الذي يحدد وجود الإنسان على هذه الأرض بعشرات آلاف السنين، إن لم نقل مئاتها.

فــإذا أخــذنا بفكرة أن آدم هو أول الأنبياء، وأن الإنسان وجد قبل آدم بعشــرات آلاف الســنين، لــم يعد هنالك تناقض بين روايات الكتب الدينية والحقائق العلمية. أما إذا أخذنا بمقولة أن آدم هو أول البشر، أصبحت رواية الأديان بالنسبة للمكتشفات الأثرية وعلم الأحافير والإثبات العلمي على وجود الإنسان على هذه الأرض مجرد تخريف أسطوري لا ينطبق على الواقع بحال.

خلق العالم

التوراة تحدد أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام. وكذلك يقول القرآن. لكن اليوم في التوراة ــ كما فهم حتى اليوم ــ يعدل دوران الأرض حول نفسها مرة واحدة؛ أي نهاراً وليلاً. بينما يحتسب اليوم في القرآن بحقبة زمنية غير محددة، قد تمتد إلى آلاف السنين بل إلى ملايينها ومليارتها. وقد ورد في آيات القرآن لفظ كلمة يوم هكذا: «**في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون**» (السجدة ٥٥). وفي موضع آخر: «**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**». (المعارج، ٤). إذن، فالأيام الستة التي خلق الله فيها الأرض والسموات، وفق القرآن، هي عبارة عن دورات زمنية، وعصور جيولوجية وفلكية غير محددة. وهنا نجد أن القرآن لا يختلف مع معطيات علم الفلك ولا علم الجيولوجيا اللذين يقدران عمر الأرض والنجوم بمليارات السنين.

جاء الإسلام بالرسالة الوسط بين اليهودية والمسيحية

فالتعاليم الإلهية التي وردت في توراة موسى (الأسفار الخمسة) لبني إسرائيل التي تحض على الإسراف في قتل الأعداء: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. ... وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منهم نسمة ما بل تحرمها تحريماً الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويِّين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك» (تثنية ٢٠/١٠-١٧).

هــذه التعاليم وما تلاها من تعاليم مماثلة على يد يشوع، وما تبعها من سفك دماء، وتطهير للشعوب بحد السيف، وإبادة مدن، كما سيأتي معنا لم تعد فـي العصور الحديثة، بعد التجارب الإنسانية عبر آلاف السنين، تستساغ أو يقبلها الضمير الإنساني.

جـاءت تعالـيم المسـيح (ع) عكسـها تماماً، فكما غالت تلك بسفك الـدماء وإبـادة الأعداء، جاءت هذه بأقصى درجات التسامح والتغلب على غرائـزية الطبيعة البشرية، تدعو الناس إلى أقصى درجات التسامح، وتدعو إلـى محـبة جمـيع الناس حتى الأعداء: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسـنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (إنجيل متى ٦/٤٤). ويقول: «وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خـدك الأيمـن فحـوّل لـه الآخـر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثـوبك فاتـرك له الرداء أيضاً. ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين» (متى ٥/٣٨-٤١).

هذه التعاليم المثالية هي النقيض لتعاليم التوراة، فحيث تدعو هذه لذبح الأعداء تدعو تلك إلى محبتهم ومسامحتهم إلى أقصى درجات التسامح. لكنها تـتجاوز طاقة طبيعة الإنسان، ويستحيل تطبيقها في عالم الواقع المعاش، بل بقيت حلماً إنسانياً سامياً بعيد المنال. ولم يشهد التاريخ مثالاً حياً لهذا الإنسان المسـيحي. ولـم يشهد الزمن، بعد، تطبيقاً بشرياً كاملاً لهذه التعاليم الإلهية، اللهـم إلا قلة من البشر بلغت درجة القداسة، بل ظل مثالاً طوباوياً غير قابل للتطبـيق علـى محك الواقع الإنساني. ولم تستطع المجتمعات الإنسانية أن تبلغه، حتى بعدما مضى على صعود قائله إلى السماء ألفا سنة. بل ظل رمزاً ومثالاً للمؤمنين يسعون توقاً للوصول إليه، متجاوزين مادية الأرض ودنوها إلـى روحانـية السماء وسموها. وأنّى للإنسان ذي الطبيعة البشرية المغلّفة بغلاف مادية الجسد أن تبلغ مثال الألوهة المتسامية عن كل ضعف وعَرَض بشري!

فجاء الإسلام ليعطي التعاليم الوسط. بذلك يقول القرآن: «**كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس**» (البقرة، ١٤٣). فلا مغالاة في سفك الدماء، ولا إبادة، بل: «**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**» (سورة فصلت، ٣٤). لأن: «الناس كلهم أخوة» (أبو داوود). كما جاء في الحديث النبوي. ويقول القرآن: «**وإن تعفوا أقرب للتقوى**» (سورة البقرة، ٢٣٧). وقوله: «**وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم**» (سورة النور، ٢٢). ويقول في المتقين: «**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**» (سورة آل عمران، ١٣٤). ويخاطب الله نبيه بقوله: «**فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين**» (المائدة، ١٣). فالعفو عند المقدرة عمن أساء يعتبر إحساناً يحبه الله تعالى «الغفور الرحيم» ــ كما يسمي نفسه ــ فالله عز وجل يحب الإنسان المؤمن الذي يكظم غيظه ويعفو عمن أساء إليه. لكن، ليس في الإسلام مسامحة طوباوية لمن يضربك على خدك معتدياً عليك فتدير له الخد الآخر ليضربه أيضاً. وليس لمن يسخرك، طاغياً ظالماً، ميلاً تسير معه ميلين. بل: «**من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**» (سورة البقرة، ١٩٤). وتقوى الله هنا هي ألا تتجاوزوا أخذ حقكم من المعتدي إلا بمقدار ما اعتدى عليكم، ردعاً له عن اعتدائه عليكم، وتأديباً له من الاعتداء على الناس، فلا يجوز للمسلم أن يعتدي، بل له ردّ الاعتداء والدفاع عن نفسه. بهذا يأتي أمر الله تعالى: «**ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**» (سورة المائدة، ٨٧).

وجاء في الحديث النبوي: «إذا عنَّت لكم غضبية فأدوها بالعفو، إنه ينادي مناد يوم القيامة: من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون، ألم تسمعوا قوله تعالى: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» (البحار ٧٧، ص ١٨٠). وفي حديث آخر: «إذا وقف العباد (يوم القيامة) نادى منادٍ: ليقم من أجره على الله وليدخل الجنة. قيل: من ذا الذي أجره على الله؟ قالَ: العافون

عـن الـناس». وفـي حديث أيضاً: «إن الله عفوّ يحب العفو» (كنز العمال ٧٠٠٧).

وهذا يتوافق مع قول السيد المسيح (ع): «فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفـر لكم أيضاً أبوكم السماوي» (متى ٦/١٤). وهذا التسامح والعفو علّمه المسـيح للمؤمنين بدينه يرددونه في صلاتهم اليومية: «واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» (متى ٦/١٢).

يشـدّد القـرآن على أن المحبة فوق الحقوق، والأخلاق فوق القانون. فأمـر الإسلام بالعفو والمسامحة لينال المؤمن أجره من الله: «**وجزاء سيئة سـيئة مـثلها، فمـن عفا وأصلح فأجره على الله، إنه لا يحب الظالمين**» (الشـورى، ٤٠). نجد أن القرآن يرى أن القصاص بموجب الحق والقانون هـو ضـرورة اجتماعية، لكن العفو واجب أخلاقي في العلاقات الشخصية يتجاوز صرامة وجفاف القانون ويرتقي بالنفس الإنسانية للتسامي إلى رحاب المحـبة والتسامح اللذين لا يبلغهما إلا من عمر قلبه بالإيمان، وسمت نفسه عـن الأحقـاد، ورغـب في نيل رضوان الله الذي يحب «**الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**» (آل عمران، ١٣٤).

وربط الإسلام بين الإيمان والمحبة، فكما اشترط الإيمان لدخول الجنة، اشترط المحبة طريقاً للإيمان، فلا إيمان لمن سوّد البغض قلبه، فقلب المؤمن تصـقله المحـبة فلا يجتمع في قلب الإنسان معاً الحقد والإيمان. وبذلك قال رسـول الله (ص): «والله لا تدخلـون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم» (صحيح مسـلم، بـاب الإيمان، ٩٣). ويقول في حديث آخر: «لا يؤمن أحدكم حتى يحـب لأخيه ما يحب لنفسه» (صحيح مسلم، باب الإيمان، ٩٧). وأخوه هو الإنسـان أيـاً مـن كـان هذا الإنسان، «لأن العباد كلهم أخوة» (أبو داوود والترمذي ٢٥).

وجاء في الحديث النبوي: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك» (مسند أحمد ٤، ص ١٨٥). وجاء في وصية الرسول إلى جند المسلمين: «لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا مكفوفاً ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً في صومعة ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء»[1].

نجد أن هذا النموذج للإنسان المسلم الذي قدمه القرآن يختلف عن إنسان التوراة المغالي في القتل وسفك الدماء، ويختلف عن إنسان الإنجيل المغالي في مثاليته وتعاليه وبعده عن واقع الحياة. إنسان القرآن ينسجم مع الواقع المعاش في عصرنا وفي كل عصر. فلا يجوز له أن يقاتل إلا دفاعاً عن النفس ورد الاعتداء. لقوله تعالى في القرآن الكريم: «**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**» (سورة البقرة، ١٩٠). فالقتال في سبيل الله هو قتال من يعتدون على المسلمين بغية القضاء على الإسلام، كما حدث مع الفرس والروم الذين راحوا يقتلون كل من يدخل في دين الإسلام من رعايا دولتيهما. فالقتال المأمور به هو للدفاع عن الدين والدولة وعن الحق ودفع الظلم وهو ما يسمى في الإسلام بالجهاد.

فالقرآن رسم الخطوط العريضة للمجتمع الإنساني المثالي القابل للتطبيق في كل زمان وفوق كل أرض، شرط مراعاة تغير الظروف الثقافية والحضارية والعلمية، ومستوى وعي الناس في المجتمع الذي يطبق فيه النظام الإسلامي.

المرأة في الأديان الثلاثة

«كانت المرأة في المجتمع الإغريقي والروماني هملاً لا قيمة اجتماعية لها. كان الفلاسفة يتجادلون في أمرها، هل لها روح أم ليس لها روح؟ وإذا

---

(١) سميح عاطف الزين ـ خاتم النبيين ـ دار الكتاب اللبناني ـ غزوة مؤتة ـ ص ٦٣١.

كـــان لهـــا روح فهل هي روح إنسانية أم حيوانية. وعلى فرض أنها روح إنسانية فهل وضعها الاجتماعي، بالنسبة للرجل، وضع الرقيق أم شيء أرفع قلـــيلاً». يصورها كاتب إغريقي كما يلي: «يلزمنا زوجات لإعطائنا أولاداً، وعشيقات لمداعبتنا، وعاهرات لتسليتنا».

وفـــي بلاد العرب، قبل الإسلام، كانت المرأة سلعة يحتكرها الأغنياء، فكلمـــا كبـــرت ثـــروة الرجل كثر عدد نسائه بقدر قدرته على دفع مهورهن وإطعامهن وكسوتهن. فلا حدود لامتلاك تلك السلعة الحية. وكان الكثير من العرب يئدون بناتهم (يدفنونها حية) عند ولادتهن، تخلصاً من عارهن خشية وقـــوعهن في أيدي الأعداء، وتملصاً من تحمل عبء مؤونتهن خشية الفقر والإمـــلاق. فجـــاء الإســـلام يستنكر على عرب الجاهلية فظاعة هذا العمل المـــريع. فيقول القرآن منددا بهذه الجريمة، ومهدداً ومتوعداً مرتكبيها بأشد العـــذاب يوم القيامة بقوله: «**وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت**» (التكوير، ٨). ويقول: «**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقكم وإياهم**» (الأنعام ١٥١ والإسراء، ٣١).

جـــاء الإســـلام ليعرف المرأة بأنها كائن إنساني، لها روح إنسانية من نفس النوع الذي منه روح الرجل، بذلك يقول القرآن الكريم: «**يا أيها الناس اتقـــوا ربكـــم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً**» (سورة النساء، ١). فالمرأة والرجل متساويان. فهما من نفس وجوهر واحد. لا يتميز أحدهما عن الآخر في الكيان الإنساني ــ بذلك يقول النبي محمد (ص): «إنما النساء شقائق الرجال» (مسند أحمد ٢٥٦/٦) و(التـــرمذي، طهارة ١٨٢، وأبو داوود، طهارة ٩٤). والشقيق يتساوى مع شـــقيقه. فالأوامـــر والتشريعات هي للجميع من ذكر وأنثى: «**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب**» (سورة

الحجـرات، ١١). والجزاء في الآخرة واحد للجنسين: «**فاستجاب لهم ربهم أنـــي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض**» (سورة آل عمــران، ١٩٥). فللمـــرأة حـــق الـــتملك والتصـــرف فيه بجميع أنواع التصـــرف، مـــن رهن وإجارة وبيع وشراء واستغلال ووهب و... «**للرجال نصـــيب ممـــا اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن**» (سورة النساء، ٣٢). فللمرأة الحرية الاقتصادية وممارسة كافة الأعمال التي أبيحت للرجل. وكما فرض الإسلام على الرجل، من أجل استكمال كيانه البشري، أن يتعلم، كذلك فرض طلب العلم على المرأة بقول الرسول محمد: «طلب العلم فريضة على كـــل مسـلم» (ابن ماجه، مقدمة، ١٧). وأعطى الإسلام للمرأة حق اختيار زوجهـــا. فلا تزوج بغير إذنها ورضاها: «لا تزوج البنت حتى تستأمر، ولا تزوج البكر حتى تستأذن» (البخاري ومسلم).

ويـــنوّه الإســـلام بفضل المرأة الأم، ويعظم من شأنها في نظر أبنائها بقـــول الرسول: «الجنة تحت أقدام الأمهات». وعندما يسأله أحد الناس: من أولى الناس بحسن صحبتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثـــم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك» (البخاري ومسلم). ويأمـــر الله الأزواج المسلمين بقوله: «**وعاشروهن بالمعروف**» (النساء، ١٢٩). وفـــي خطبة الوداع، آخر خطبة لرسول الله في المسلمين، وآخر وصاياه لهم يقول: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً... فما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم». ويقول: «خياركم خياركم لنسائهم» (الترمذي).

فاليهودية ــ كما في العهد القديم ــ حمّلت المرأة مسؤولية وقوعها في غـــواية الشيطان وإغواء زوجها، فوقعا كلاهما في حبائل الشيطان، وعصيا الـــرب، فاستحقا الطرد من جنة عدن. لذلك يقول لها الرب: «لرجلك يكون اشـــتياقك، وهو يسود عليك» (تكوين ٣/١٦). فجعلتها الديانة الموسوية تابعة للرجل، لأنها المسببة لارتكاب الخطية الأولى ومعصية الرب.

كذلك، جاءت المسيحية بنفس المفهوم، واعتبرت المرأة تابعة وخاضعة للرجل بسبب غوايتها من الشيطان وارتكاب «الخطيئة الأصلية». بذلك يقول بولس الرسول: «لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. ولكن لست آذن للمرأة أن تُعلِّم ولا تتسلّط على الرجل، بل تكون في سكوت، لأن آدم جبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يُغوَ لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدّي. (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ٢/١١-١٤). كذلك يقول الرسول بولس في رسالته لأهل افسس ٥/٢٤: «كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن في كل شيء».

ويقول في الرسالة نفسها: «أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب، لأن الرجل هو رأس المرأة» (٥/٢٢).

ويقول بطرس الرسول: «فإنه كانت قديماً النساء القديسات أيضاً المتوكلات على الله يزيِّن أنفسهن خاضعات لرجالهن كما كانت سارة تطيع إبراهيم داعية إياه سيدها» (رسالة بطرس الأولى ٣/٥ و٦).

والإسلام جعل للرجل القيمومة على زوجته. يقول القرآن الكريم: «**الرجال قوامون على النساء**» (النساء، ٣٤). لكنه لم ينطلق من تحميل المرأة مسؤولية الخطيئة الأولى، بل حمّلها للرجل والمرأة معاً، كما سنبين.

أمرت المسيحية بالحجاب (غطاء الرأس) ولباس الحشمة للمرأة في رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنتس: «وأما كل امرأة تصلي أو تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها لأنه والمحلوقة شيء واحد بعينه. إذ المرأة إذا كانت لا تتغطى فليقص شعرها. وإن كان قبيحاً بالمرأة أن تُقص أو تُحلق فلتتغط. فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده. وأما المرأة فهي مجد الرجل» (رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنتس ١١/٥- ٧). نجد في هذا النص أمراً للمرأة أن تغطي رأسها عند الصلاة وإلا وجب عليها العقاب بقص شعرها.

ويقـول بـولس الرسول بالنسبة للباس النساء: «كذلك إن النساء يزين ذواتهـن بلباس الحشمة مع ورع وتعقّل لا بضفائر أو ذهب أو ملابس كثيرة الثمن». (رسالة بولس الرسول إلى تيموثاوس ٢/٩).

ويقـول بطرس الرسول: «ولا تكن زينتكن الخارجية من ظفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب» (رسالة بطرس الرسول الأولى ٣/٣).

بـذلك يقول القرآن: «**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فـروجهن ولا يـبدين زينـتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جـيوبهن، ولا يـبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسـائهن أو مـا ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء. ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن**» (سورة النور، ٣٠).

دعت المسيحية إلى لباس الحشمة والابتعاد عن زينة النساء الخارجية مـن ضـفر الشعر، والتحلي بالذهب، وارتداء الملابس الغالية الثمن. وعلى لبس الحجاب وأثواب الحشمة درجت الراهبات المسيحيات اللواتي نذرن العفة والبتولية والانقطاع للعبادة.

ودعى الإسلام المرأة إذا تزينت ألا تبدي زينتها لكل الناس، بل تبديها لـزوجها ولا مانع أن تبديها لمحارمها المذكورين في الآية أعلاه، أي الذين يحرم عليهم الزواج منها. ودعاها إلى أن تضرب خمارها (أي غطاء رأسها) علـى جيبها أي على فتحة ثوبها عند الصدر، كي لا يبين شيء من مغريات جسدها يثير الغرائز. كما دعاها إلى الاحتشام في لباسها بحيث لا تبدي شيئاً مـن تفاصـيل جسـدها، كي لا يطمع بها أصحاب النفوس الضعيفة. يقول القـرآن: «**يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن**

مـــن جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين» (الأحزاب، ٥٩) أي يعرفن بوقارهن وتعففهن فيتميزن عن النساء غير المتعففات فلا يُطمع بهن.

فلباس الحشمة للنساء هو دعوة إلهية في المسيحية كما في الإسلام، من أجـــل صيانة عفافهن، ومنعاً للإثارة الجنسية التي تؤدي إلى تعرضهن للأذى والاعتداء من ذوي النفوس المريضة، ورغبة في مكافحة جريمة الزنى التي حرمتها جميع الأديان.

قصة تزوير الكتاب

تـــروج شـــائعة بين بعض المسلمين بأن الإنجيل الحقيقي الذي نوّه به القرآن بأن: «فيه هدى ونور» هو غير الإنجيل المتداول بين أيدي الناس في عصـــرنا. فإنجـــيل المسيح (ع) ـــ في رأيهم ـــ قد أدخل عليه بعض الأمور وحذفت منه أخرى، قصداً بأيدي بعض المغرضين، وجهلاً بأيدي الجاهلين، وضـــاع مـــن صـــفحاته شـــيء بسبب تقادم الزمن، وتداول النسخ، وتعدد الترجمات، وإلا لما حدث أي اختلاف بينه وبين القرآن الذي اعترف به كتاباً سـماوياً. فعيسى المسيح رسول من عند الله، ومحمد رسول من عنده أيضاً. فكيف يُبعث أحدهما برسالة إلى الناس تختلف عن رسالة الآخر؟ والرسول لا ينطق عن هوى نفسه، بل بوحي من الله. وهذا ما ينطبق على توراة موسى.

يقودنا هذا السؤال إلى السؤال التالي: ما دامت الرسالات السماوية كلها مـــن عـــند الله، فلماذا لم يرسل الله كتاباً واحداً يتوارثه نبي عن نبي، بنصه وحـــرفيته لكي لا يقع هذا الالتباس والانشقاق في الدين بين الناس، ويكونوا أمـــة واحـــدة، ودينا واحداً، وفهماً واحداً. وتتلافى البشرية ما يفرّق بينها في الدين، ويقرأ الناس في كتاب واحد ونص واحد؟

للإجابـــة علـــى الســـؤال الثاني بغية توضيح السؤال الأول نقول: إن البشـــرية، في رحلتها التاريخية عبر آلاف السنين، مرت بمراحل شتى، من

طفولة العقل وبدائية التفكير، وتقديس الطوطم، إلى عبادة الإله الوثن، إلى تعدد الآلهة، إلى عبادة الإله الواحد. فكل نبي كان يأتي متحدثاً بلسان قومه. ومعلماً وفق المرحلة التاريخية ومستوى وعي الناس الذين أرسل إليهم. لذلك كان لا بد لكل مرسل من رسالة تعبر عن الفترة الزمنية التي جاء فيها. وكان على الناس أن يفهموا هذه الرسالة وفق مستواهم الفكري. يقول محمد رسول الله معبراً عن هذا الأمر: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم».

فغدت المسيحية هي ما فهمه الناس من رسالة المسيح (الإنجيل) والإسلام هو ما فهمه الناس من رسالة محمد (القرآن)...

لكن فهم بني البشر يبقى قاصراً عن إدراك الحقيقة المطلقة للدين. ومن هنا تعددت المذاهب في كل دين، نتيجة لفهمهم وتفسيرهم وقوة استيعابهم لرسالة السماء. فلا عجب إذا فهم أبناء دين فهماً خاطئاً لمعاني دين آخر.

أما ما يهمني فهو أن استجلي رأي القرآن في هذا الموضوع، تبياناً للحقيقة وانسجاماً مع موضوع كتابي هذا.

لم نجد في الوحي القرآني آية تقول بتزوير الكتاب المقدس. بل نجد الآيات العديدة التي تبين أن القرآن جاء مصدقاً للتوراة والإنجيل: «**وهذا كتاب** (القرآن) **أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه**» (التوراة والإنجيل) (سورة الأنعام، ٩٢). ويخاطب الله في القرآن بني إسرائيل بقوله: «**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإيايَ فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم** (التوراة) **ولا تكونوا أول كافر به**» (البقرة، ٤٠-٤١). ويقول: «**فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه**» (البقرة، ٩٧). ويقول: «**يا أيها الذين أوتوا الكتاب** (اليهود والمسيحيين) **آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم**» (النساء، ٤٧). ويقول: «**والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه**» (فاطر، ٣١).

فالقرآن إذ يصدِّق الكتاب، لا يعقل أن يصدِّق كتاباً مزوراً، بل يقر بما فيه من وحي السماء. ويحضّ اليهود والنصارى على إقامة التوراة والإنجيل، وإلا فليسوا على شيء من دين الله: «**قل (يا محمد) يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل**» (المائدة، ٦٨). أي تدينوا بدين التوراة والإنجيل، وتحكموا بأحكامهما.

ويـنوّه القـرآن بأهـل الكتاب بأنهم يعرفون الكتاب معرفة قوية كما يعـرفون أبـناءهم: «**الـذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**» (البقـرة، ١٤٦ والأنعام، ٢٠). وكذلك فهم يتلونه حق تلاوته: «أي يقرأونه كمـا أنـزل» (الجلالين): «**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمـنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**» (البقرة، ١٢١). فالتوراة والإنجـيل فيهما «**هدى ونور**» (المائدة، ٤٤ و٤٦). فليحكم أهل التوراة بما أنـزل الله فيها: «**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**» (المائدة، ٤٤). «**ولـيحكم أهـل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**» (المائدة، ٤٧).

وإذا كـان الذين لا يحكمون بالتوراة هم الكافرون، وإذا كان الذين لا يحكمـون بالإنجـيل هم الفاسقون. فلست أدري ما يكون نصيب من يكذبون بآيـات القـرآن هذه، من أهل ملة الإسلام؟ وهي واضحة بينة لا تحتمل أي اجـتهاد أو تأويـل. أولـئك الذين ذكرهم القرآن بقوله: «**أفتؤمنون ببعض الكـتاب وتكفرون ببعض. فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنـيا ويـوم القيامة يردُّون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون**» (البقرة، ٨٥).

فدعـوة الله للناس في القرآن واضحة بيِّنة: «**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بـالله ورسـوله** (محمد) **والكتاب الذي أنزل على رسوله** (القرآن) **والكتاب الـذي أنـزل مـن قبل** (التوراة والإنجيل) **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه**

ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً» (النساء، ١٣٦). فالقرآن يدعو المسلمين، المؤمنين بدين محمد إلى الإيمان بالتوراة والإنجيل اللذين كانا موجودين إبان نزوله على النبي محمد؛ أي بعد ألف وتسعمائة سنة على نزول التوراة على موسى، وبعد ما ينيف على الست مائة سنة على نزول الإنجيل. كان هذان الكتابان المقدسان قد نسخا إلى نسخ عديدة، وترجما إلى عدة لغات، وكان أتباع هاتين الديانتين قد انقسموا إلى مذاهب وفرق متعددة، كل من هذه الفرق يملك نسخاً من هذه الكتب المقدسة. أصبح من المستحيل على أي منها تزوير نسخته بإضافة شيء أو إنقاص شيء دون معرفة الفرق الأخرى وموافقتها. وهذا ينطبق بوجه أخص على المسيحية التي كانت يومذاك منتشرة في أكثر بقاع الأرض. فلو أن أية فئة مسيحية غيرت شيئاً من نص نسخة الإنجيل التي لديها لكان على الفرق الأخرى فضحها ومنازعتها. وهذا ما لم يسجله قط تاريخ المسيحية. لكن الواقع يثبت أن جميع نسخ الإنجيل التي كانت موجودة في زمن نزول القرآن لا زالت واحدة مع الجميع بنصها.

كما أن هناك نص كامل للتوراة والإنجيل باللغة اللاتينية، يرجع إلى عام ٣٣٠م محفوظ في متحف الفاتيكان، أي قبل رسالة محمد بثلاثة قرون تقريباً. وهو معروف بنص الفاتيكانوس (Vaticanus).

كذلك يوجد في المتحف البريطاني نص كامل للتوراة والإنجيل باللغة اليونانية القديمة، يرجع أيضاً إلى القرن الرابع الميلادي. اكتشف في دير القديسة كاترينا بصحراء سيناء، وهو معروف بنص «السينايتيكوس» (Sinaiticus)[١].

---

(١) الدكتور مرسال حداد، نظرة إيمان بالقرآن الكريم، ص ٨٩.

وهذه النصوص تنطبق تماماً على النسخ المتداولة اليوم بين أيدي الناس.

هذا ردّ كاف على الذي يشكّون بأن الكتاب الذي جاء ذكره في القرآن (الكتاب المقدس) قد زوِّر بعد عصر نزول القرآن، ولم يعد ينطبق عليه ما ورد في الآيات التي ورد ذكرها.

فالكتاب الذي ذكر مراراً وتكراراً في القرآن تنويهاً وتصديقاً هو نفسه الموجود بين أيدي الناس في عصرنا بحرفيته ونصوصه التي لا تختلف في جوهرها عما جاء في القرآن، عدا ألوهية المسيح وتثليث الإله التي أنكرتها آيات القرآن بصورة بيّنة.

أما ما يثير شك بعض الناس في تزوير التوراة، فهو ما ورد في آية في القرآن تقول في بعض اليهود إنهم: «**يحرِّفون الكلم عن مواضعه**» (المائدة، ١٣). وفي آية أخرى: «**وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**» (البقرة، ٧٥). أي يفسرونه على غير ما أنزل (تفسير الطبرسي). أو يفسرونه على غير ما يرضي الله (تفسير الميزان). وجاء في تفسير الرازي:

أولاً: أي يبدّلونه بلفظ آخر، مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الحدّ بدلاً عنه.

ثانياً: إنهم كانوا يدخلون على النبي ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به، فإذا خرجوا من عنده حرّفوا الكلام.

ثالثاً: إنهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص. وليس فيه بيان أنهم يخرجون ذلك اللفظ من الكتاب.

وهذا يعني تحريفه عن معناه، وليس تبديل الكلمات بغير نصها. انتهى كلام الرازي.

إنجيل برنابا

تسري إشاعة في أوساط بعض المسلمين بأن الإنجيل الحقيقي هو إنجيل برنابا. وبرنابا هو تلميذ يسوع وكاتب كلامه الذي سمعه مباشرة (كما يعترف برنابا المنسوب الإنجيل إليه) وهذا الإنجيل يساوي بحجمه الأناجيل الأربعة المعتمدة من الكنائس المسيحية. ميزة هذا الإنجيل بالنسبة لمن يرغب به من المسلمين أنه يبشر بنبوة محمد، وأنه خاتم النبيين، وأنه سيأتي بكمال الرسالة الإلهية. ويتنصل فيه يسوع من كونه إله أو ابن الله. ويؤنِّب كل من يقول ذلك ويتبرأ منه مستغفراً ربه من هذه التهمة الباطلة، معلناً أنه عبد حقير لله.

لكن يسوع لا يرضى أن يكون هو المسيح، فالمسيح الحقيقي هو النبي محمد الذي سيأتي بعده، وهو لا يستحق شرف ربط شريط حذائه ـ كما نص هذا الإنجيل ـ وما مجيء يسوع إلا ليمهد له الطريق.

ورد في نص هذا الإنجيل: (٣٩: ١٤-٢٢) «فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس، نصها «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله». ففتح حينئذ فاه وقال: أشكرك أيها الرب إلهي لأنك تفضلت فخلقتني. ولكن أضرع إليك أن تنبئني ما معنى هذه الكلمات «محمد رسول الله».

فأجاب الله: «مرحباً بك يا عبدي آدم، وإني أقول لك إنك أول إنسان خلقت. وهذا الذي رأيته إنما هو ابنك الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة، وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كل الأشياء، الذي متى جاء سيعطي نوراً للعالم، الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماوي ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئاً».

فتضـــرَّع آدم إلـــى الله قائلاً: «يا رب هبني هذه الكتابة على أظفار أصابع يـــدي. فمنح الله الإنسان الأول تلك الكتابة على إبهامه، على ظفر يده اليمنى ما نصه «لا إله إلا الله»، وعلى ظفر إبهام يده اليسرى «محمد رسول الله».

وعـــندما جـــاء بعض اللاويين والكتبة إلى يسوع يسألونه إذا كان هو المسيح، فاعترف يسوع وقال: «الحق أني لست مسيًّا» فقالوا: «أأنت إيليا أو ارميا أو أحد الأنبياء القدماء؟» أجاب يسوع: «كلا».

قالوا: «إذا لم تكن المسيح ولا إيليا أو نبياً ما فلماذا تبشر بتعليم جديد» أجاب يسوع: «إن الآيات التي يفصلّها الله على يدي تظهر أني أتكلم بما يريد الله. ولســـت أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه، لأني لست أهلاً أن أحل ربطـــات سير حذاء رسول الله. الذي تسمونه مسيًّا، الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي، وسيأتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية» (٤٢: ٥-١٠).

ويقول في فصل آخر: «لذلك أقول لكم: إن رسول الله بهاء... مزدان بروح المحبة والرحمة، روح العدل والتقوى، روح اللطف والصبر التي أخذ مـــنها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطي لسائر خلقه. ما أسعد الزمن الذي يأتي فـــيه للعالم. صدقوني إني رأيته وقدمت له الاحترام، كما رآه كل نبي. ولما رأيته امتلأت عزاء قائلاً: يا محمد ليكن الله معك وليجعلني أهلاً أن أحل سير حذائك، لأني إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً وقدوس الله» (٤٤: ١٩-٣١).

وعـــندما ســـأله الناس أن يحيي ولداً ميتاً شفقة على أمه. خاف يسوع كثيـــراً. ووجـــه نفسه لله قائلاً: «خذني من العالم يا رب، لأن العالم مجنون، وكادوا يدعونني إلهاً» ولما قال ذلك بكى.

حينـــئذ جاء الملاك جبرائيل وقال: «لا تخف يا يسوع لأن الله أعطاك قوة على كل مرض» (٤٧: ٩-١٣). ومنذ ذلك الحين أصبح يشفي المريض ويطرد الأرواح الشريرة ويحيي الموتى بقدرة الله.

إن الـــذين أغواهم هذا الكلام الذي يشيد بمحمد رسول الله نسوا أن هذا الكلام مخالف لقول الله في القرآن. فيسوع (أو عيسى كما يسميه القرآن) هو المســيح. ولــيس محمــداً. فالقرآن يقول: «**إنما المسيح عيسى ابن مريم**» (النســاء، ١٧١) ويكرر القرآن صفة المسيح بلفظها لعيسى ابن مريم إحدى عشرة مرة. في سور: آل عمران، والنساء والمائدة والتوبة.

فالقــول بــأن محمد هو المسيح هو كفر بالقرآن أولاً وبالإنجيل الذي اعترف به القرآن كتاباً سماوياً ثانياً.

علمــاً أن هذا الإنجيل الذي ترجم إلى العربية بيد الدكتور خليل سعاده من اللغة الانكليزية لم يكن موجوداً في زمن النبي محمد، وإلا لكان القرآن قد أتــى على ذكره كما أتى على ذكر التوراة والإنجيل، المعتمدين لدى اليهود والمسيحيين، سلباً أو إيجاباً.

إنما أتيت على ذكر هذا الإنجيل المفترى توضيحاً لأي لبس، وإظهاراً للحق، وتفشيلاً لواضعيه من أجل الفتنة بين المسيحيين والمسلمين. والتلاعب بأفكار السذج من الناس. ومحمد الذي ضرب المثل بالتواضع وحسن الخلق، لا يرضى أن يقال عن المسيح الذي هو «كلمة الله» كما جاء في القرآن، إنه ليس أهلاً لربط حذائه. وهو القائل: «ما من مولود يولد إلا ويطعن الشيطان فــي جنبه، إلا عيسى بن مريم وأمه، فقد جعل بينهما حجاب فلا يصل إليهما منه شيئاً» (صحيح مسلم، كتاب الفضائل ١٤٧، ومسند أحمد ٢/٥٢٣).

قصة صلب وموت المسيح

هــناك خــلاف بين المسلمين والمسيحيين، لعله أكثر وضوحاً من أي خلاف آخر. وهو واقعة صلب المسيح عليه السلام وموته على الصليب. جاء فــي نــص القــرآن، رداً على اليهود: «**وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما**

صلبوه ولكن شُبِّه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علـم إلا اتـباع الظـن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً» (سورة النساء، آية ١٥٦-١٥٨).

نجـد في ظاهر نص هذه الآيات تأكيداً على عدم صلب وقتل المسيح عليه السلام.

لكـن واقعة الصلب قصة متواترة. رواها التاريخ المسيحي واليهودي والرومانـي. فكـيف ينكر القرآن واقعة بيِّنة كتلك الواقعة التاريخية، وينفي صـلب وقتل المسيح على يد اليهود؟! فهل قصة صلب وموت المسيح قصة مخـتلقة وضعها القصاصون؟ مع أن المسيحية جعلت من الصليب شعارها، ومن موت المسيح وقيامته صلب عقيدتها. وجعلت من هذا الموت حياة لبني البشـر، حيث خلّصهم المسيح (ع) بموته من الخطيئة الأصلية، خطيئة أبيهم آدم بعصيانه أمر الله تعالى.

أم هـل وقـع القـرآن في خطأ؟! ولو كان ذلك لانتفى كونه كلام الله المعصوم عن كل خطأ.

الواقـع أن القـرآن الكريم ـ كما نرى ـ لم ينفِ واقعة صلب وقتل المسـيح، وإنما أنكر على اليهود اعتقادهم أنهم صلبوا المسيح وقتلوه، وأنهوا وجوده المادي والمعنوي. مع أن القتل المؤدي إلى موت الجسد هو بداية حياة جديـدة للإنسان، وفق معتقد المسيحية والإسلام. فلعل الله في القرآن يريد أن يبـيِّن لهم فشل عملهم، إذ إنهم لم يقتلوا المسيح كرسالة سماوية جاء بها إلى البشر، بل ظلت رسالته خالدة في الأرض، ورفعه الله بشخصه إليه. وهو لا يزال حياً عند الله «وما قتلوه يقيناً».

والقـرآن اسـتعمل هـذا الـنوع من التعبير، في آيات أخر، في قتل الشـهداء بقوله: **«ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً»** (سورة البقرة،

١٥٤). مع أن الشهداء قد قُتلوا، والقتيل هو ميت واقعاً. فيرفض الله اعتباره ميتاً لأن موت الجسد هو بداية لحياة جديدة لنفوس الشهداء في جنات النعيم عند ربهم.

وفي آية أخرى يقول القرآن: «**ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون**» (آل عمران، ١٦٩-١٧٠). ويقول القرآن في آية أخرى: «**والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا و ماتوا ليرزقهم الله**» (سورة الحج، ٥٨). فالله يرزق الشهداء القتلى بعد موتهم، ويكونون فرحين بما آتاهم الله من فضله. فالقتل يكون للجسد، ولكن كيان المسيح الإنسان، وأي إنسان، لا يموت بموت الجسد، بل هو كيان باقٍ بعد موت الجسد.

والمسيح عليه السلام الذي هو كلمة الله وروح منه، فهو أسمى الشهداء، وهو، حيث رفعه الله إليه، حي يرزق عند الله فرحاً بما آتاه الله من فضله. وهو «يقيناً» لم يقتل كمعلم للبشر، بل ظلت رسالته حية، وظل كلامه الذي نطق به بكلمة الله باقياً حياً بقاء رسالات السماء.

والقرآن يعترف بموته وبعثه بعد الموت حيث يقول على لسان المسيح: «**والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً**» (سورة مريم، ٣٣).

الطوفان

ورد ذكر الطوفان في التوراة وفي القرآن. تروي التوراة طوفاناً عاماً يعم الأرض ويقضي على معالم الحياة فيها، «خمس عشرة ذراعاً في

الارتفــاع تعاظمــت المــياه. فغطت الجبال. فمات كل ذي جسد يدب على الأرض. مــن الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف علــى الأرض وجميع الناس. كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة قد مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض» (تكوين ٧: ٢٠-٢٤) ولم ينج من هذا الإفناء إلا نوح وأولاده الثلاثة وزوجاتهم. ومنهم ومن نسلهم أعيد تشكيل الجنس البشري على الأرض. وكان عمر نوح عند حدوث الطوفان ست مائة سنة، وعاش بعد الطوفان ثلاث مائة وخمسين سنة ليكتمل عمره على التسع مائة وخمسين سنة. هذا العمر يؤكده القرآن. لكن القرآن لا يذكــر طوفاناً على جميع أصقاع الكرة الأرضية وإفناء خلق الله جميعاً، بل يعتبره طوفاناً محلياً أصاب قوم نوح الذين رفضوا دعوة نبيهم نوح وأصروا على كفرهم «واستكبروا استكباراً». فالرواية تكاد تكون في مدلولها وسياقها وأســبابها واحــدة في الكتابين؟ تقول التوراة: «في ذلك اليوم انفتحت ينابيع الوديان وسحب السماء» (التكوين ٧/ ١١) ويؤكد القرآن ذلك «**ففتحنا أبواب الســماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر**» (سورة القمر، ١١ و١٢). ورواية السفينة ومن حمل فيها تكاد تكون واحدة، بل تختلف في بعض تفاصيلها، لكنها في التوراة استقرت على جبل أرارات، وفــي القــرآن اســتقرت على جبل الجودي، علماً أن الجودي هو قمة جبل أرارات في أرمينيا.

القــرآن لم يذكر تواريخ للحدث، لكن التوراة تذكر أجداد إبراهيم الذين انحدروا من نسل سام ابن نوح الذي ركب مع أبيه في الفلك ونجا من الموت.

وتحــدد المدة الزمنية بين طوفان نوح وبين ابراهيم بـــ ٢٩٢ سنة[1]. لكــن إبــراهيم كان يعيش حوالى سنة ١٨٥٠ ألف وثمان مائة وخمسين قبل مــيلاد المســيح. فالطــوفان إذاً كان في القرن الواحد والعشرين أو الثاني

---

(١) سفر التكوين ١١/ ١٠-٢٦).

والعشـــرين قبل المسيح. لكن في تلك الحقبة من التاريخ كان هنالك مدنيات مزدهـــرة انـــتقلت آثارها إلى الأجيال اللاحقة. ففي مصر، مثلاً، كانت تلك الفتـــرة المتوســطة التـــي جـــاءت بعـــد نهاية الامبراطورية القديمة وبداية الامبـــراطورية المتوســطة (٢١٠٠ ق.م.) وهـــي تـــاريخ المرحلة الأولى المتوســطة قـــبل الأسرة الحادية عشرة. وكان في بابل أيضاً الأسرة الثالثة الحاكمـــة لأور[١]. والتاريخ لم يتحدث عن فترات انقطاع لتلك المدنيات. مما يـــرجح روايـــة القـــرآن بأنه لم يكن هنالك فناء عام للبشرية كلها من جراء الطوفان، وإنما كان طوفاناً محدوداً في منطقة معينة حل فيها غضب الله على قـــوم نـــوح فأرسل عليهم الطوفان وأبادهم. وهذا يدعم رأينا بأن القرآن جاء شـــارحاً وموضحاً ومصدقاً ومكملاً للناموس الإلهي ولرسالات السماء التي سبقته.

مجيء المسيح الثاني

بشـــر المســـيح تلامذته بعودته إلى الأرض ثانية من أجل إقامة دولة الحـــق والعـــدل. لكن ذلك اليوم سوف يكون يوماً رهيباً: «لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون... لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب هكذا يكون أيضاً مجيء ابن الإنســـان. لأنه حيث تكون الجثة فهناك تجتمع النسور» (متى ٢٤/٢١ و٢٧ و٢٨).

«وللـــوقت بعد ضيق تلك الأيام تُظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه والنجوم تسقط من السماء وقوات السماء تتزعزع، وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان

---

(١) الـــتوراة والإنجيل والقرآن والعلم، تأليف موريس بيكاي ـــ دار الكندي ـــ بيروت ـــ ص ١٨٧.

آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير. فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فـيجمعون مخـتاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصائها... وأمـا ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة السموات إلا أبي وحـده... حينـئذ يكون اثنان في الحقل. يؤخذ الواحد ويترك الآخر. اثنتان تطحنان على الرحى. تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى» (متى ٢٤: ٢٩-٤١).

لعل المسيح، في الآيات الأخيرة، يصور مجيئه في عصر آلة الحرب الموجودة في زماننا. حيث نرى، في المناطق التي تقع فيها الحروب، نماذج عما وصف. حيث تصيب رصاصة قناص أو شظية قنبلة أو رصاصة طائشة أحد شخصين متجاورين فيُقتل، وتخطئ رفيقه فينجو. ولعل كلمة الأخذ تعني أخذ الروح، أي الموت.

ويقـول الإنجـيل: «متى جاء ابن الإنسان في مجده، وجميع القديسين معـه، فحينـئذ يجلـس علـى كرسي مجده، ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميـز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء» (متى ٢٥: ٣١-٣٢).

ويقـول في إنجيل يوحنا: «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة وهي الآن، حـين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون... لا تتعجبوا مـن هذا، فإنه تأتي ساعة فيها يسمع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوحنا ٥: ٢٥-٣٠).

والقرآن يؤكد مجيء المسيح ثانية إلى هذا العالم من أجل إقامة مجتمع العدل والحق والسلام الذي يحلم به كل الخيرين في الأرض حيث يقول بلسان المسيح: «**سلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً**» (مريم/ ٣٣).

وقـد ورد في الأحاديث النبوية تأكيد على وجود المسيح المخلِّص من أجل إقامة دولة الحق والعدل: «يكون عيسى بن مريم في أمتي حكماً مقسطاً،

يـــرفع الشحناء والتباغض (بين الملل والأديان طبعاً) ويفيض المال حتى لا يقبله أحد. وتنزع حُمَّة كل دابة، وتكون الأرض كفاتورة الفضّة[1].

وجاء في الحديث أيضاً: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مـــريم حكمـــاً مقســـطاً، وإماماً للناس، يومئذ، رجل صالح. فإذا كبَّر لصلاة الصــبح، وتهيأ للصلاة، نزل عيسى بن مريم، فإذا رآه عرفه، فيرجع يمشي القهقـــرى ليقدم عيسى بن مريم، فيضع عيسى يده بين كتفيه فيقول له: صل، فإنما أقيمت الصلاة لك. فيصلي عيسى وراءه[2].

وفـــي حـــديث آخر: «ينزل عيسى بن مريم عند طلوع الفجر في بيت المقدس». وفي رواية: «ينزل عيسى عند المنارة البيضاء في القدس، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين»[3].

وفـــي الحديث أيضاً: «لا تزال عصابة من أمتي على الحق ظاهرين على الناس، لا يبالون من خالفهم، حتى ينزل عيسى ابن مريم» (كنز العمّال، ٣٩٧٢٤).

وعن ابن عباس: في حديثه عن رسول الله في موضع الدجّال: «تكون آيـــة خروجه: تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتهاون بالدماء، وضـــيعوا الحكـــم، وأكلـــوا الربا، وشيدوا البناء، وشربوا الخمور، واتخذوا القـــيان، ولبســـوا الحرير، وأظهروا بزَّة (هيئة) آل فرعون، ونقضوا العهد، وتفقهـــوا لغيـــر الـــدين، وزينوا المساجد، وخرّبوا القلوب، وقطعوا الأرحام وكثـــرت القـــراءة، وقلت الفقهاء، وعطِّلت الحدود، وتشبه الرجال بالنساء، والنســـاء بالرجال، فتكافأ الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، بعث الله عليهم

---

(١) كامل سليمان، يوم الخلاص، ص ٢٤٨، دار الكتاب اللبناني ــ بيروت.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

الدجـــال، فسلِّط عليهم حتى ينتقم منهم. قال ابن عباس: قال رسول الله: فعند ذلك ينزل أخي عيسى بن مريم من السماء على جبل أفيق إماماً هادياً وحَكَماً عـدلاً... يقـتل الدجّال. فإذا قتل الدجال تضع الحرب أوزارها، فكان السلم، فيلتقـي الـرجل الأسـد فلا يهيجه، ويأخذ الحية فلا تضره، وتنبت الأرض كنـباتها على عهد آدم، ويؤمن أهل الأرض، ويكون الناس أهل ملة واحدة» (كنز العمال، ٣٩٧٢٦).

عـن ابن مسعود، عن النبي أنه قال: «إن المسيح بن مريم خارج قبل يوم القيامة. وليستغن به الناس عن سواه» (كنز العمال، ٣٩٧٢٥).

وجاء في العهد القديم وصفاً لفترة عودة المسيح، في أشعيا النبي:

«فيقضي بين الأمم، وينصف لشعوب كثيرين، فيطبعون سيوفهم سككاً، ورمـاحهم مـناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب في ما بعد» (اشعيا ٢/٤).

«فيسـكن الذئـب مـع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمّن معاً، وصبي صغير يسوقهما. البقرة والدابة ترعيان، تربض أولادهمـا معاً، والأسد كالبقرة يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سَرَب الطلِّ، ويمـد الطفل يده على جُحْر الأفعوان. لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسـي، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر» (أشعيا ١١/٦-٩).

«فيسكن في البرية، الحق والعدل في البستان يقيم. ويكون صنع العدل سلاماً، وعمل العدل سكوناً وطمأنينة إلى الأبد» (أشعيا ٣٢/١٦-١٨).

هـذا المسـيح المخلص الذي كان الكتاب المقدس قد بشر بمجيئه إلى الأرض قبل ولادته من مريم العذراء القديسة بقوله: «العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعـو اسـمه عمانوئيل (أي إلهنا معنا) (أشعيا ٧/١٤). قد جاء فعلاً إلى

الأرض، وعاش فيها فترة من الزمن وأعطى تعاليمه إلى البشر، ثم رفعه الله إليه. هذا المسيح المخلص عينه، ينتظر المسيحيون والمسلمون رجوعه إلى الأرض ليقيم دولة السلام والعدل والمحبة، ابن مريم البتول، ليس هو المسيح الذي ينتظره اليهود، بل هم ينتظرون مسيحاً لم يأت بعد إلى الأرض، مسيحاً من نسل داود يتوج ملكاً على بني إسرائيل ويقيم دولة السلام والفرح والسرور. يقرأون عنه في الكتاب المقدس:

«لأني خالق سموات جديدة وأرضاً جديدة، فلا تذكر الأولى ولا تخطر على بال. افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في ما أنا خالق لأني هأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً. فابتهج بأورشليم وأفرح بشعبي. ولا يسمع بعد فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ. لا يكون هناك بعد طفل أيام ولا شيخ لم يكمل أيامه. (أي لا يكون هنالك فتن وحروب يموت فيها الصغير والكبير) لأن الصبي يموت ابن مئة سنة، والخاطئ يلعن ابن مئة سنة. ويبنون بيوتاً ويسكنون فيها، ويغرسون كروماً ويأكلون ثمارها. لا يبنون وآخر يسكن ولا يغرسون وآخر يأكل. لأنه كأيام شجرةٍ أيامُ شعبي، ويستعمل مختاريَّ عملَ أيديهم. لا يتعبون باطلاً ولا يلدون للرعب لأنهم نسلُ مباركيْ الرب وذريتهم معهم. ويكون إني قبلما يدعون أنا أجيب، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع. الذئب والحمل يرعيان معاً والأسد يأكل التبن كالبقر. أما الحية فالتراب طعامها. لا يُهلِكون ولا يُؤذون في كلِّ جبلِ قُدسي، قال الرب» (أشعيا ٦٥: ١٧-٢٥).

قصة آدم وحواء وطردهما من الجنة والخطيئة الأصلية

تقول التوراة: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عَدْن شرقاً. ووضع آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عَدْن ليسقي الجنة» (تكوين ٢: ٧-٩).

«وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عَدْن ليعملها ويحفظها. أوصى الــرب الإلــه لآدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخيــر والشــر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده. فاصنع له معيناً نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء.، فاحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانهــا لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم... وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان» (تكوين ٢/ ١٥-٢٥).

«وكانــت الحــية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالــت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تــأكلا منها ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا. بل الله عالم إنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المــرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين لأنفسهما مآزِرَ» (٣: ١-٧).

وســمعا صــوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختــبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإلــه آدم وقــال له: اين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عــريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصــيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشــجرة فأكلــت. فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة:

الحية غرتني فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيـــام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأســـك وأنـــت تسحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيراً أكثر اتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. وقال لآدم: لأنك ســـمعت لقـــول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها ملعـــونة الأرض بســـببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التـــي أخذت منها. لأنك تراب وإلى التراب تعود... فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها» (تكوين ٣: ٨-٢٣).

أمـــا القرآن فيروي القصة نفسها بأسلوبه الخاص فبعد أن أتمَّ الله خلق آدم. يقـــول القرآن: «**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حـــيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلَّهما الشيطان عـــنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مســـتقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**» (سورة البقرة، ٣٥-٣٩).

ونجـــد ذكـــراً لهذه الرواية في سورة الأعراف: «**ويا آدم اسكن أنت وزوجـــك الجـــنة فكـــلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاســـمهما إني لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين... قالا ربنا**

ظلمـــنا أنفســـنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضــكم لــبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون» (الأعراف، ١٩-٢٥).

ونقــرأ فـــي ســـورة طـــه: **«فقلنا يا آدم إنَّ هذا** (الشيطان) **عدو لك ولــزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنــك لا تظمأ فيها ولا تضحى. فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك علـــى شـــجرة الخلـــد وملك لا يبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصـــفان علــيهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى»** (طه، ١١٧-١٢٤).

مقارنة بين رواية التوراة ورواية القرآن

فحـــوى الـــروايتين واحدة، وهو أن الله عندما خلق آدم أباح له أشياء وحـــرَّم عليه أشياء، فكان على آدم أن يلتزم بأمر الله ولا يرتكب المحرّم ولا يعصـــي الله خالقـــه. لكـــن الإنسان، هذا المخلوق الضعيف **«وخلق الإنسان ضعيفاً»** (النساء، ٢٨) وسوس له الشيطان وأغراه فعصى أمر ربه، وانساق مع إغواء الشيطان.

يرى العهد القديم من الكتاب المقدس أن الحيّة (التي هي أحيل حيوانات البـــرية) هي التي أقنعت حواء أن تأكل من الشجرة المحرّمة، وتعصي أمر الله، وبالتالـــي تغري زوجها آدم بارتكاب المحرّم. لكن القرآن يذكر أن الذي وسوس لهما هو الشيطان، وليست الحية، ففي تلك المرحلة من التاريخ، زمن موســـى، لم يكن الشيطان مذكوراً، بعد، في الوحي الإلهي. ولم نجد له ذكراً في العهد القديم إلا بعد مئات السنين، حيث ذكر أولاً باسم الروح الشرير، في أقوال بعض الأنبياء المتأخرين. ولم يذكر بلفظ الشيطان إلا على لسان النبي

زكريا، المعاصر لميلاد المسيح. (زكريا ٣/٢). فذكر الوحي الإلهي الحية بدلاً من الشيطان، تمشياً مع مفاهيم الناس في تلك الحقبة المتقدمة من التاريخ. فكان الموسوس، ليس كائناً خفياً عن الحس، بل كان كياناً ملموساً لأن نظرية عالم الغيب لم تتبلور في الذهن الإنساني إلا بعد مجيء المسيح الذي بشر بحياة أخرى بعد الموت، والذي كان له مع الشيطان جولات، فيواجه يسوع الشيطان شخصياً وينتصر عليه (متى ٤: ١١) و(يوحنا ١٢: ٣١). ويواجه الشياطين، المتسلطين على بعض الناس، ويهزمهم في عقر دارهم. حيث كان يطردهم من أجساد الممسوسين والمستحوذ عليهم من الناس. كما شفى ممسوس كفرناحوم (مرقس: ١: ٢٣-٢٧). والمرأة الكنعانية (مرقس: ٥: ١-٢٠) حتى قيل فيه إنه يطرد الشياطين (مرقس ١: ٣٤-٣٩).

فالشيطان يمثل الشر، والمسيح يمثل الخير. ورسالته وبعثه لغاية إلهية سامية هي أن ينتصر على الشر وينصر الخير، وقد كان. فانتصاره على الشياطين حيَّر أعداءه فاتهموه ببعل زبول سيد الشياطين (مرقس ٣: ٢٢) و(يوحنا ٧: ٢١، ٨: ٤٨-٤٩ و٥٢) لكنّ يسوع يقدم التعليل الحقيقي: إنه بروح الله يطرد الشياطين (متى ١٢: ٢٥-٢٨).

وعندما نزل القرآن الكريم بعد التوراة بحوالى ١٩٠٠ سنة ألف وتسع مائة، وبعد الإنجيل بـ٦٠٠ سنة ست مائة سنة. كان مفهوم الشيطان قد تبلور لدى أفهام الناس. فكان الموسوس لآدم هو الشيطان إبليس، وليس حيواناً أعجماً يزحف على بطنه.

التوراة تحمل المرأة مسؤولية الوقوع في حبائل الحية (الشيطان) وارتكاب المعصية كما تحمّلها مسؤولية إغواء زوجها آدم وإشراكه في المعصية. لكن القرآن يحمل الاثنين معاً مسؤولية المعصية. حيث يقول: «فوسوس لهما الشيطان» وفي آية أخرى يحمّل آدم وحده المسؤولية بقوله: «فوسوس إليه الشيطان». فالمسؤول الأول وفق القرآن هو آدم، الذي جعله

الله خليفـــته وأول أنبـــيائه، وجعل الملائكة تسجد له. والقرآن لم يذكر حواء بالاسم، واكتفى بتسمية العهد القديم لها، وهو الذي جاء مصدقاً له. بل ذكرها باسم زوجة آدم «اسكن أنت وزوجك الجنة».

تقـــول التوراة أن الله وضع آدم وحواء في جنة عَدْن شرقاً، أنبت فيها كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وجعل فيها نهراً ليسقي الجنة. هذه الجنة جـــنة أرضـــية. إذ تحددها التوراة «شرقاً» لتأكيد موقعها على الأرض. لكن القرآن لم يحدد مكان هذه الجنة. لكنها لم تكن جنة الخلد التي أعدها الله لعباده الصالحين في الحياة الأخرى، لأن الشيطان كان يسكن فيها مع آدم وزوجه، أمـــا جـــنة الخلـــد فقد «**أزلفت للمتقين**» (ق، ٣١). وليس للشياطين. وكلمة اهـــبطوا مـــنها لا تعني أنها كانت في السماء ثم أهبطهم الله منها نزولاً إلى الأرض. فالقرآن استعمل هذه اللفظة لبني إسرائيل: «**اهبطوا مصراً فإن لكم مـــا سألتم**» (البقرة، ٦١). فالهبوط هنا ليس من مكان فوق الأرض، إذ كان بـــنو إسـرائيل علـــى الأرض وطلب منهم أن يدخلوا مصراً موجوداً على الأرض. ورد فـــي قاموس لسان العرب: «هبط فلان أرض كذا إذا أتاها». وورد في الحديث: «اللهم غَبْطاً لا هَبْطاً» أي نسألك الغبطة ونعوذ بك من أن نهـــبط عن حالنا. ونعوذ بك من أن تهبطنا إلى حال سفال» (لسان العرب). فالهـــبوط هو النزول من مكان أرفع إلى مكان أدنى، أو «الهبوط من المنزلة والكرامة» (تفسير الميزان).

فالقـــرآن يحـــذر آدم من وسوسة الشيطان الذي هو عدو للإنسان، ولا يـــريد لــــه إلا الشر. وهذه التجربة الأولى للإنسان مع الله ومع الشيطان هي الـــنموذج الذي على بني آدم أخذ العبرة منه في سلوك حياتهم. فالله الرحمن الرحيم يريد للإنسان الخير والصلاح، ودخول جنات النعيم بالإيمان الصادق والعمـــل الصالح. والشيطان يريد له، دائماً وأبداً، الكفر بالله ومعصية أوامره والابتعاد عنه ليبوء بغضبه ويتهاوى إلى نار جهنم وسوء المصير.

تلــك هــي فلسفة الدين. صراع بين الحق والباطل، صراع بين الخير والشر. والإنسان هو المصارع. فإما أن ينتصر فيه الخير ويلتزم بطاعة الله فيــنال رضوانه. وإما أن ينتصر فيه الشر ويقع في حبائل الشيطان ويخضع لوسوسته فينال غضب الله ويطرد من رحمته.

فقصـــة آدم وحواء والجنة تمثل هذا المفهوم الإلهي؛ على الإنسان أن يطــيع أوامــر الله ويبتعد عن نواهيه. فالله أباح لهذين الزوجين جميع ثمار أشــجار الجــنة إلا واحدة منها. ابتلاء لهما لمعرفة مدى التزامهما بأوامره. وكــان الشــيطان، عدو الإنسان، لهما بالمرصاد، فخضعا لغوايته ووقعا في حبائله. فنالا غضب الله والطرد من الجنة التي أعدها الله لهما. وهذه القصة كانت الدرس الأول لبني البشر لتبقى عبرة للأجيال القادمة لمعرفة فداحة أمر مــن يخرج عن طاعة الله ويعصي أوامره. بهذا يخاطب القرآن بني آدم في جمــيع أجــيالهم وحقب تاريخهم بقوله: «**يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة فنزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إناجعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**» (الأعــراف،/ ٢٧). فعلى الناس أخذ العبرة من قصة الأبوين الأولين وعدم الوقــوع فــي خطيئة مخالفة أوامر الله عز وجل. ثم يذكّر الله الأجيال التي ســتنحدر من آدم بأنه سوف يرسل إليهم من قِبَله أنبياء ورسل يهدونهم إلى ســواء السبيل: «**فإمّا يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومــن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قــال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى**» (طه، ١٢٣-١٢٧).

يتفــرد القرآن عن التوراة بذكر التوبة والمغفرة في هذه القصة. فيذكر تــوبة آدم، وغفــران الله له هذه الخطيئة: «**فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب**

عليه إنه هو **التواب الرحيم**» (البقرة، ٣٧). فالله، في القرآن، اكتفى لآدم وزوجه الهبوط من الجنة جزاء ذنبهما، ولكنه تاب عليهما، وغفر لهما، فهو التواب الرحيم. وبهذا فتح القرآن أمام الناس باب التوبة والاستغفار للمذنبين والخطاة. ولم يحمّل القرآن لأبناء آدم شيئاً من ذنب أبويهم، ولا للأجيال اللاحقة من نسلهم. بل «**كل نفس بما كسبت رهينة**» (المدثر، ٣٨). والذنب، في القرآن، لا يطال إلا مرتكبه «**فلا تزر وازرة وزر أخرى**» (فاطر، ١٨).

لكن الله في التوراة «مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء، في الجيل الثالث والرابع» (خروج ٣٤/٧). وقد اعتبرت الكنيسة المسيحية أن خطيئة آدم وحواء تسري جريرتها على بني آدم في جميع أجيالهم اللاحقة. وقد جاء يسوع المسيح ليخلص، بموته على الصليب، جميع بني البشر من تلك «الخطيئة الأصلية». فكان الفادي وكان المخلص لمن آمن به، وعمل بتعاليم الله الذي أرسله: «الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني» (يوحنا ١٢/٤٤) فكان هو نفسه الذبيحة الإلهية، وكان دمه القربان الذي قدّم على مذبح الرب فداء لبني البشر.

هل المسيحي - في نظر الإسلام - كافر أم مؤمن

يلتبس على بعض المسلمين فهم كلمة كفر في الآيات التالية الواردة في القرآن، من مثل قوله: «**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم**» (المائدة، ٧٢) وقوله: «**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة**» (المائدة، ٧٣).

فعل كفر له معان ثلاثة: جحد وأنكر وغطّى. ففعل كفر في هاتين الآيتين ينطبق عليه فعل أنكر أو غطى. ولا ينطبق عليه فعل جحد، لأن الجحود وهو إنكار الفضل والمعروف. فهم قد أنكروا الحقيقة بقولهم إن الله ثالث ثلاثة، والحقيقة هنا هي وحدانية الله «**قل هو الله أحد**» (سورة الإخلاص).

وكذلك أنكروا الحقيقة أو غطوها بقولهم إن المسيح هو الله أو ابن الله، المولود غير المخلوق. القرآن يقول إن الله تعالى: «**لم يلد ولم يولد**» (سورة الإخلاص).

لكن القرآن لم يكفِّر المسيحيين بوجود الله والإيمان به، لأن المسيحيين لـم ينكروا ـ وفق القرآن ـ وجود الله تعالى كخالق ومدبر لهذا الكون. بل جاء في قانون الإيمان الذي تتفق عليه جميع الكنائس المسيحية: «نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض». لكن كفرهم ـ وفق هاتين الآيتين ـ إنما كان بفهمهم لماهية الله عز وجل، وبإعطائهم صفة الألوهة لعيسى المسيح عليه السلام الذي يعتبره القرآن رسول الله وكلمته إلى الناس، وروح منه. فالقرآن يصحح للمسيحيين فهمهم لله تعالى، ولم ينعتهم بالكفر المطلق به عز وجل.

فالمسيحي يصلي ويتعبد لله، وخطأه هو بتصوره لشكل الإله، وليس المقصود من كفره، في هاتين الآيتين، إنكار الله وعدم الإيمان به.

ويرى بعض الناس من المسلمين بأن الكافر من اتخذ مع الله إلهاً آخر. والمسيحي ـ في رأيهم ـ اتخذ المسيح عليه السلام إلهاً آخر» إذن فهو كافر.

المسيحي لم يتخذ إلهاً آخر يتعبّد له غير الله، وإنما اعتبر المسيح أنه أقنوم إلهي متّحد بالإله الواحد ومساوٍ له في الجوهر، وإن لم يتم الاتفاق على ذلك بين الكنائس المسيحية، حيث تعتبره الكنيسة الأرثوذكسية غير مساوٍ للآب في الجوهر. فالله، عندهم، أو الآب يتميز عن المسيح أو الابن «في الموقع والكرامة والمجد». والمسيحية ولئن قالت بالتثليث فهي لم تؤمن بثلاثة آلهة بل بإله واحد في ثلاثة أقانيم. فالمسيحي يبدأ صلاته: «باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد».

وهنا أستطيع القول: إن خلاف المسلمين مع المسيحيين هو خلاف في الفهم الذاتي لله تعالى، وهم يلتقون معهم في الفهم الموضوعي له عز وجل (راجع فصل معرفة الله ص ١١).

وخلاصة القول، فالقرآن يكفّر المسيحيين (يعتبرهم منكري أو مغطي الحقيقة) بقولهم إن الله ثلاثة وإن المسيح هو إله وإنه ابن الله، ولكنه لا يكفرهم بالله الكفر المطلق، بل يعتبرهم مؤمنين به، كما ورد في قوله تعالى فيهم: «**يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين**» (آل عمران، ١١٤ و١١٥).

لذلك فلا يصنِّف القرآن المسيحيين في عداد الكافرين بل يعتبرهم في عداد المؤمنين بالله. الذين يتقبل منهم تعبدهم لله، وينالون رحمته، ويدخلون جنته. جاء في القرآن: «**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**» (المائدة، ٦٩). فالمؤمنون برسالة الإسلام واليهود والصابئون والنصارى ينالون نعمة الله ودخول جنته إذا هم آمنوا بالله، وآمنوا بحياة ما بعد الموت، والتزموا بالعمل الصالح كطريق لنيل رضى الله. والمسيحية تؤمن بهذه الأمور الثلاثة، وهي من أصول عقيدتهم الدينية.

القرآن اعترف للمسيحية بأنها دين خلاصي منذ القرن السابع الميلادي. والكنيسة الكاثوليكية اعترفت للإسلام بأنه دين خلاصي في القرن العشرين في الرسالة البابوية المعنونة (Lumen Gentium) كما سيأتي معنا.

المسيح وأمه عليهما السلام في القرآن

ينظر القرآن إلى مريم أم المسيح نظرة إجلال واحترام وتقديس لم تنلها امرأة من قبلها ولا نالتها امرأة من بعدها. فهي آية في ميلادها، آية في تعبدها، آية في طهارتها وقداستها، آية في حملها وولادتها.

فهـــي مـــن ســـلالة مصطفاة للنبوة: «**إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين**» (آل عمران، ٣٣). وعمران هو أبوها. وهذا يدلل على شرف حسبها وقداسة محتدها. وبالتالي يبين الأصول المقدسة التي سوف ينحدر منها روح من الله وكلمته إلى الناس وهو المسيح بن مريم. فأمهـــا، امـــرأة عمران، تنذر ما في بطنها لله ليكون متفرغاً للعبادة وخدمة الهـــيكل، وفق العرف اليهودي، فأمها أرادتها لهذه المهمة ولكن الله اختارها لولادة الذي سوف يأتي ليكمل الناموس ويطهر الهيكل وينظف المفاهيم الدينية التـــي مر عليها مئات السنين، مما علق بها من أدران المادة. يقول القرآن: «**إذ قالـــت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بمـــا وضـــعت ولـــيس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم** (أي العابدة) **وإني أعـــيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفَّلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله. إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**» (آل عمران، ٣٥-٣٧).

وجاء في الحديث النبوي: «كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه، إلا مريم وابنها» (صحيح مسلم، كتاب الفضائل، ١٤٧).

وجاء أيضاً: «كل بني آدم يطعن الشيطان بإصبعه في جنبه حين يولد إلا عيسى بن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب» (مسند أحمد ٢/٥٢٣).

فهـــيأ الله لها منبتاً حسناً بأن جعل نبي الله زكريا يتكفَّل تنشئتها التنشئة الحســـنة في كنف الهيكل، لها محرابها التي تتفرغ فيه للتعبد والتنسك وتعلُّم الـــناموس الإلهـــي والسلوك المقدس على يد نبي قديس. فهي لم تكن تكلف مـــتكفلها ومعلمهـــا مسؤولية مؤونتها، بل كان الله يتكفلها في ذلك فيبعث لها طعامها إلى المحراب حيث كانت تعيش عزلتها مع الله.

هذه «القديسة» كما يسميها القرآن، ما إن بلغت سن النضج حتى بعث الله لها ملائكته ليبلغوها مكانتها عند الله الذي رعى تنشئتها وطهرها، بقولهم: **«وإذ قالــت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين»** (آل عمران، ٤٢ و٤٣).

هــذا الاصــطفاء على نساء العالمين ظهرت غايته السامية في الحمل المعجزة التي بشرتها به الملائكة: **«إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمــة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين»** (آل عمران، ٤٥). فالله اصطفاها بعد الطهر والقداسة لتحمل في بطنها جنيناً ليس كالأجنة بل هو وجيه في هذه الدنيا وكذلك وجيه في الآخرة ومن المقربين إلى الله، وهو كلمة الله المسيح المعجزة الذي: **«يكلم الناس في المهـد وكهــلاً ومــن الصــالحين»** (آل عمران، ٤٦). تفاجأ القديسة بقول الملائكة، فتخاطب ربها الذي تثق بعطفه عليها، وقد اعتادت على رعايته لها ولطفــه بها بعد أن أمضت سني حياتها عابدة له شاكرة فضله ونعمته عليها، بما حباها من العطف والرعاية وصان حياتها بالطهارة والعفاف. **«قالت رب أنّــى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر»** فجاءها جواب ربها: **«قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون»** (آل عمران، ٤٧). فهذا الحبل البتولي سيكون آية للناس وسيكون المولود من هذا الحبل المعجزة هو أيضاً آية للناس فيعرفون قدره ويؤمنون برسالته، وهو رحمة من الله لهم: **«ولنجعله آية للناس ورحمة منا. وكان أمراً مقضياً»** (مريم، ٢١).

وعندما حان موعد الولادة ابتعدت عن الناس إلى مكان قصي لا يراها فيه أحد خشية العار. إذ كيف يصدقها الناس بأن حبلها بقدرة الله وليس بفعل فاحشــة ارتكبــتها؟! فيروي القرآن لنا قصة هذه الولادة المباركة: **«فحملته فانتــبذت بــه مكاناً قصياً. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مــت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربك**

تحـــتك ســـرياً. وهـــزّي إلـــيك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً. فكلي واشـــربي وقـــرّي عيناً فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صـــوماً فلن أكلم اليوم إنسياً. فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئتِ شـــيئاً فـــرياً. يـــا أخت هارون (أي مثيلته في الطهر والعبادة) ما كان أبوك (عمـــران) امرأ سَوءٍ وما كانت أمك بغيّاً. فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كـــان في المهد صبياً. قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً. وبرّاً بوالدتي ولم يجعلنـــي جباراً شقياً. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً. ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون» (مريم ٢٣-٣٤).

نرى كيف تدخلت القدرة الإلهية مع هذه البتول القديسة، التي كانت في أحرج ساعات عمرها. إذ كيف ستقابل الناس، الذين يعرفون أنها لم تتزوج، وعلى يدها مولودها. فتتمنى الموت وتتمنى أنها لم تكن وجدت على وجه هذه الدنيا بسبب هذه الفضيحة المتوقعة. فيناديها المولود المعجزة من تحتها مهوناً عليها أمرها بقوله: لا تحزني. فالله قد أجرى أسفل المكان الذي تجلسين عليه ساقية ماء جارٍ فاشربي منها واروي ظمأك. وهزي بجذع النخلة تساقط عليك منها الرطب لتأكلي وتسدي جوعكِ. فالله قد أعطاها، تكريماً لها وتطميناً على رعايته الدائمة لها ولحملها، معجزتان في آن: معجزة مجرى الماء ومعجزة هـــز الـــنخلة التي تحتاج لهزها إلى بضعة رجال أقوياء فتهزها مريم بيدها لتسقط عليها رطباً جنياً. أما المعجزة الكبرى التي تبرئ شرفها وتظهر للناس طهـــرها فهـــي هذا الطفل الوليد ابن يومه الذي تشير إليه وهي تحمله فيتكلم عـــنها ويخاطـــب الناس بلسان بيّن فصيح إنه رسول الله وحامل رسالته إلى الناس، ذلك هو المسيح عيسى ابن مريم.

ويـــروي القرآن بعد هذه الولادة المعجزة كيف كرّم الله مريم المقدسة «الصـــديقة» وابـــنها المسيح المولود المعجزة وكلمته التي ألقاها إلى مريم: **«وجعلـــنا ابـــن مـــريم وأمـــه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين»**

(المؤمـــنون، ٥٠). إكراماً لها لأنها «**صدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتـــين**» (التحريم، ١٣) ويؤكد القرآن على إعجاز هذه الولادة وما ولدت آيـــة دائمة للناس: «**وجعلنا ابن مريم وأمه آية للعالمين**» (المؤمنون، ٥١) وكـــل من ينكر هذه الولادة المعجزة ويشك بطهر مريم البتول يكفر ويكون قـــولـــه بهتاناً وزوراً: «**وبكفرهم وقولهم على مريم زوراً وبهتاناً عظيماً**» (النساء، ١٥٦).

وهكذا يكرم القرآن أم المسيح مريم البتول ويجعل منها آية للعالمين في مـــيلادها وحداثتها وبشارة الملاك لها وولادتها وفي اصطفائها من بين نساء العالمين، وطهرها وتقواها وقداستها «**والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين**» (الأنبياء، ٩١).

المسيح في القرآن هو كلمة الله ألقاها إلى مريم العذراء: «**إنما المسيح عيســـى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه**» (النساء، ١٧١). فالأم الطاهرة البتول الزكية، تبشرها الملائكة بغلام زكي طاهر: «**إذ قالـــت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مـــريم، وجـــيهاً فـــي الدنيا والآخرة ومن المقرّبين. ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين**» (آل عمران، ٤٥ و٤٦).

لـــم يفصّل القرآن كيف عاش المسيح في طفولته وصباه، إلا في قوله: «**وآويـــناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**» (المؤمنون، ٥١). دليلاً على حياة الاســـتقرار التـــي وضعه الله فيها مع أمه. فينتقل بنا القرآن من سرد إعجاز مولده، وإعجاز نطقه ومخاطبته الناس في المهد، إلى مرحلة إعلان رسالته. فيرسله الله أولاً إلى بني إسرائيل، بعد أن علمه: «**الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**» (آل عمران، ٤٨)، ليعلن لهم رسالته، ويجري لهم المعجزات التي أمـــدّه الله بها تأييداً لصحة مبعثه، وصدق نبوته: «**ورسولاً إلى بني إسرائيل إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه**

فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم» (آل عمران، ٤٩-٥١).

والقرآن يكرر اسم المسيح بأنه عيسى ابن مريم، إظهاراً لمعجزة ولادته من غير أب.

وقد تميز المسيح عن باقي الأنبياء بأنه نطق نبوته وأعلنها منذ ولادته بينما موسى ومحمد لم يُبلغا نبوَّتهما إلا في سن الرجولة والنضج. إلا يحيى بن زكريا (يوحنا) فقد آتاه الله النبوة وهو لم يزل صبياً. «**يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً**» (مريم، ١١). كما تميز المسيح بما أمده الله من إعجاز شفاء الأمراض المستعصية التي لا شفاء لها كالعمى والبرص. كما قدَّره على إحياء الموتى وعلى صنع الحياة بأن يصنع من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طائراً يطير بجناحيه على مرأى من الناس. وهذه المعجزات لم تعط لأحد قبله ولا بعده. فالله أكرمه بالبينات وأمده بروح القدس الذي أعانه على الكلام في المهد واستمر يعينه في كهولته على تبليغ رسالة الله إلى البشر. وروح القدس في القرآن هو الملاك جبرائيل ملك الوحي الذي ينقل كلام الله إلى الأنبياء ليبلغوه إلى الناس. ويذكّره الله بنعمته عليه وبأن ما يقوم به من معجزات إنما هو بإذن الله وعونه: «**إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين»** (المائدة، ١١٠).

ويقــول الله للمســيح أنا من أوحى إلى تلامذتك أن يؤمنوا بك فآمنوا: «**وإذ أوحــيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون**» (المائدة، ١١١).

ويذكر لنا القرآن إحدى معجزات المسيح عندما طلب من ربه أن ينزّل عليه مائدة من السماء بناء لطلب حوارييه لتكون آية لهم، فأنزلها عليه محذراً إياهم من الكفر بعدها، لأن من يكفر عندئذ فله من الله عذاب شديد: «**إذ قــال الحواريــون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من الســماء، قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبــنا ونعلــم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مــريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزّلها عليكم فمن يكفر بعــد مــنكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين**» (المائدة، ١١٢-١١٥).

فخلاصة رسالة المسيح، كما بينها القرآن، هي رسالة التوحيد والابتعاد عــن الشــرك «**إن الشرك لإثم عظيم**» (لقمان، ١٣). «**وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار**» (المائدة، ٧٢).

ويصــور لــنا القرآن صورة عن استجواب رب العالمين للمسيح يوم الــدين، يوم يجمع الله الرسل، فينكر المسيح أي إشراك بالله في دعوته التي كلفه الله بها إلى الناس.

«**وإذ قــال الله يــا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله[1]، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق،**

---

(١) لم ترد في الأناجيل الأربعة.

إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. إنك أنت علاّم الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم. وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» (المائدة، ١١٦-١١٨) فالمسيح في هذه الآيات ينكر أي ادعاء للألوهية، ويعترف بصغر علمه وقدرته أمام قدرة الله وعلمه. ويعلن إنما هو رسول لم يقل للناس إلا ما أمره الله به.

اعترف القرآن بالمسيح رسولاً مرسلاً من الله مثله كمثل موسى ومحمد. واعترف بالإنجيل الذي نطق به المسيح أنه كلام الله كالقرآن، فالمسيح هو نفسه كلمة الله. وأنكر على المسيحيين قولهم بأن المسيح هو الله أو أنه ابن الله أو أن الله ثلاثة.

أنبياء بني إسرائيل في القرآن

القرآن يعتبر أن رسالة السماء واحدة، كما مرّ معنا في الفصول السابقة، ابتدأت بآدم واختتمت بمحمد، مروراً بكافة الأنبياء والرسل. وهذه الرسالة الربانية هي رسالة التوحيد. ويعلم القرآن أتباع رسالته بأن يعلنوا إيمانهم بما أنزل إليهم في هذا القرآن، الكتاب المنزل على النبي محمد، وبما أنزل على أنبياء الله من قبله بقوله: **«قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»** (البقرة، ١٣٦). فكل أنبياء بني إسرائيل هم أنبياء الله والحاملين لكلمة التوحيد إلى شعبهم. وقد أورد القرآن لكل من هؤلاء الأنبياء ذكراً فيه تنويه بقداستهم وصدقية الدعوة التي حملوا إلى الناس.

إبراهيم

وأول هـؤلاء وأبـوهم جميعاً هو نبي الله إبراهيم حيث يقول القرآن للمسـلمين: «**ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل**» (الحج، ٧٨) فإبراهيم هو أبو إسماعيل نبي العرب، وأبو إسحاق نبي اليهود. فالله اصطفاه لحمل رسالة التوحيد للناس كما يذكر القرآن «**ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين**» (البقرة، ١٣٠) وهذا الاصطفاء هو لسلالة نبوية طاهرة، منها ينحدر نسبه من آدم ونوح حتى مريم وابنها عيسى المسيح «**إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها مـن بعض**» (آل عمران، ٣٣-٣٤). فالله قد هداه إلى الإيمان به وإنكار ما يعبد بنو قومه من الأوثان التي يصنعونها بأيديهم. فيبدأ دعوته، التي كلفه الله بهـا، لأبـيه. يورد لنا القرآن آيات ينطق بها النبي مخاطباً أباه: «**يا أبتِ لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر،ولا يغني عنك شيئاً**» (مريم، ٤٢) بعد أن يحرك عقـل أبـيه بالإقـناع العقلي، يضيف مفصحاً عن نبوته التي اختاره الله لها بقوله: «**يا أبتِ. إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك، فاتبعني، أهدك صراطاً سـوياً**» (مريم، ٤٣). «**يا أبت لا تعبد الشيطان، إن الشيطان كان للرحمان عصـياً**» (مـريم، ٤٤) «**يا أبتِ، إني أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن، فتكون للشيطان ولياً**» (مريم، ٤٥) ويكون جواب أبيه قاسياً. ويهدده بطرده أو مـوته: «**أراغـب أنـت عـن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنتهِ لأرجمنك، واهجرني ملياً**» (مريم، ٤٦) لكن إبراهيم الذي تجلّت فيه روح النبوة لم يكن منه إلا أن يبقى باراً بوالده، فيجيب والده بأدب النبوة وخلق الأبرار: «**سلام عليك، سأستغفر لك ربّي، إنه كان بي حفياً**» (مريم، ٤٧).

إذا كـان هـذا تصـرف أبيه الذي يفترض أن يكنَّ له العطف والحنو الأبـوي، فكـيف كان تصرف بني قومه الآخرين؟ لم يكتف نبي الله إبراهيم بتقديم البراهين العقلية والحجج المقنعة لتحويل الناس عن عبادة الأوثان إلى

عبادة الله الواحد. بل أعطاهم مثلاً عملياً ليصدم عقولهم علهم يفيقون من غفلتهم ويرجعون عن غيهم. فأخذ فأسه ودخل إلى المعبد، حيث تحتشد الأصنام، وراح يحطمها جميعاً، إلا كبيرها، أبقى عليه وعلق الفأس في رقبته. وعندما دخل الكهنة إلى المعبد ورأوا هذا المشهد المريع، ثارت ثائرتهم واستهولوا ذلك الحدث. واحتشد البابليون مرعوبين ينظرون إلى آلهتهم، التي ورثوا عبادتها عن آبائهم وأجدادهم، محطمة أمام أنظارهم. من يجرؤ على فعل ذلك؟! لكن الجواب لم يكن عسيراً عليهم. إنه إبراهيم الذي كان يسفه هذه الآلهة المصنوعة بيد البشر ويدعو لعبادة الإله الواحد الذي صعب عليهم فهمه؛ فكيف لعقولهم أن تتخلى عن آلهة توارثوا عبادتها جيلاً بعد جيل ليتحولوا إلى عبادة إله إبراهيم الذي لا تراه أعينهم ولا تلمسه أيديهم.

جاؤوا بإبراهيم يسألونه: «**أأنت صنعت هذا بآلهتنا يا إبراهيم**» (الأنبياء، ٦٢) فيجيبهم إبراهيم إجابة يرمي من ورائها تحريك عقولهم لإدراك حقيقة هذه الآلهة التي لا تنفع ولا تضر: «**قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**» (الأنبياء، ٦٣).

ساد القوم وجوم مطبق. حقاً إنهم لا ينطقون. لقد صفع جهلهم بكلامه. لكن وجومهم لم يطل، وارتفع صوت من المحتشدين قائلاً: «**لقد علمت ما هؤلاء ينطقون**» (الأنبياء، ٦٥).

هذا ما شاءه إبراهيم. لقد أراد أن يسمع منهم عجز هذه الآلهة عن نصرة ذاتها فكيف لها وهي الصماء البكماء أن تفيد الناس وتقضي حوائجهم وتمنع عنهم مصائب الأيام! فبادرهم بالقول: «**أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم. أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون!**» (الأنبياء، ٦٦-٦٧). عند ذلك أصدروا عليه الحكم الجائر انتصاراً لآلهتهم: «**قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**» (الأنبياء، ٦٨).

فتنادوا لجمع الحطب التي جعلوا منه كومة كبيرة وأضرموا فيها النار وقذفـوا بإبـراهيم إلـى وسط لهبها ليحترق وينال جزاء فعلته بآلهتهم. لكن العـناية الإلهـية حمـته من الاحتراق. وقال الله للنار: «**يا نار كوني برداً وسـلاماً على إبراهيم**» (الأنبياء، ٦٩). وظل نبي الله في وسط النار سالماً معافـى لم يمسه حرها ولا لهيبها. كانت هذه المعجزة الإلهية صدمة أذهلت عقـول الناس. فراحوا يتساءلون عن قدرة إله إبراهيم وكيف حماه من النار. فلعلـه الإلـه الحـق الأجدر بالعبادة من آلهتنا. وأحجموا عن محاولة إيذاء إبراهيم خوفاً من إلهه.

لكن المتضرر الأكبر «الملك الإله»، النمرود، هو الذي خشي أن يتبع الـناس دين إبراهيم ويتحولوا عن عبادته كإله حي وعبادة الأوثان الصماء. فاسـتدعى إبـراهيم إليه وأراد، أن يحاوره ويفحمه أمام الناس ليبعدهم عنه. ويذكـر لنا القرآن الكريم بعض الآيات التي تصور هذا الحوار: «**ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويمـيت، قـال أنـا أحيـي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين**» (البقرة، ٢٥٨).

لكـن تغلّـب حجة إبراهيم على حجة ملك بابل لم تثن هذا عن متابعة عدائه له. فأمر الناس بمقاطعته وعدم الاستماع إلى حديثه تحت طائلة العقوبة القاسية، خشية تحويلهم إلى دينه وترك دين الملك.

لم يكن أمام إبراهيم إلا أن يترك بلاد البابليين ويذهب، بناء لأمر ربه، إلـى فلسطين. ويقول القرآن على لسان إبراهيم: «**إني مهاجر إلى ربي، إنه هـو العزيـز الحكيم**» (العنكبوت، ٢٦). لكن شعب فلسطين لم يكن بأحسن تجاوبـاً لدعوة التوحيد من شعب العراق. فلم يكن بد للنبي من أن يفتش عن أرض أخـرى ينشر فيها دعوته. فقصد مصر بصحبة زوجته سارة. لكن الله

الــذي يمــتحن عباده المؤمنين، وخاصة منهم الأنبياء، أوقعه ببلاء شديد؛ إذ أعجــب ملك مصر بسارة وبعث جنده فاقتادوها إلى قصره لتكون زوجة له. ولــم يجــرؤ إبــراهيم على البوح بأنها زوجته. لكن الله لم يتخل عن عبده المــؤمن الصادق، فأعاد إليه زوجه سالمة طاهرة مكرمة، بعد أن حال بينها وبــين ملــك مصر وأظهر له حقيقة أمرها وقدسيتها وقدسية زوجها. ومعها جارية وهبها إليها الملك زيادة في إكرامها.

عــاش إبراهيم في مصر ردحاً من الزمن يدعو إلى دين التوحيد. لكن دعــوته لاقت من الصدود واللامبالاة من شعب مصر وحكامها ما لاقته في بابــل وفلسطين. فعاد بأهله إلى أرض الكنعانيين، عله يستطيع أن ينجح هذه المرة في نشر دين التوحيد الذي أمره الله بنشره.

فــلا بد لهذه الدعوة الإلهية من سلالة تنحدر من نسل هذا النبي، يتلقن أبــناؤها الــدين الحق من منبع صالح، جيلاً بعد جيل، فألهم الله سارة زوجة إبراهيم التي كانت عاقراً، أن تزوج أمتها هاجر لزوجها عله ينجب منها ولداً ويعــوض زوجه عن عقمها. فأنجبت هاجر إسماعيل. وشاءت إرادة الله أن يكــون هذا الوليد نبي العرب. فجاء أمر الله إلى إبراهيم أن يأخذ الولد وأمه إلــى شبه الجزيرة العربية ويضعه وأمه في وادٍ قاحل غير ذي زرع لا ماء فيه ولا طعام (في مكة التي أصبحت محجة الإسلام).

نفــذ إبراهيم أمر ربه، وأوصل الطفل وأمه وتركهما وحيدين في تلك الأرض المقفرة. وقفل راجعاً إلى فلسطين. ولم يثنه رجاء زوجته التي تشبثت بــه متوسلة إليه أن لا يتركها وحيدة وطفلها في ذلك القفر، معرضة لوحوش البــراري تــنهش لحمهما، أو للموت جوعاً وعطشاً تحت حرّ شمس الحجاز اللاهــبة. فيجيبها بلغة المؤمن الواثق: إنه أمر الله، فلا تخافي، لن يتخلى الله عنكما.

يـــا لهـــذا الإيمـــان الكبير! أب على عتبة الشيخوخة، ينجب طفلاً بعد عشـــرات الســـنين من الحرمان والتمني، ثم يتركه في تلك البقعة الخالية من البشر والشجر، ويتحمل فراقه وفراق زوجته التي تذرف الدموع مهراقة على وجنتيها علها تثنيه عن تركهما وحيدين أمام قدر مجهول وموت محتوم.

لا شـــك أنـــه كان يحبس العبرات أليمة في مآقيه، ونفسه كانت تذوب أســـىً وقلـــبه كان يقطر دماً. ولكن ماذا عليه أن يفعل؟ وهذا ابتلاء من الله، سبحانه. إنه أمر الله الذي اصطفاه لحمل دعوة التوحيد، والذي رعاه برعايته منذ نعومة أظفاره، وأنقذه مما أصابه من شرور ومهالك كثيرة ألمت بمسيرة حـــياته. فعلـــيه الطاعـــة وتنفيذ أمر ربه ولو كان ذلك على حساب مشاعره والمخاطرة بفلذة كبده ومولوده الوحيد. إنه إيمان الأنبياء الصادقين.

وبعد أن ابتعد عنهما رفع يديه إلى السماء قائلاً: «**ربنا إني أسكنت من ذريتي عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**» (إبراهيم، ٣٧).

فاســـتجاب الله لإبراهـــيم، وأخرج نبعاً من الماء ليشرب الطفل وأمه، وجعل الطيور تحوم حول الماء لتشرب، وتدل قبيلة جرهم العربية على موقع الماء لتأتي وتسكن بجوار خيمة الأم وولدها وتتكفل إطعامهما وحمايتهما. ثم يأتي إبراهيم بعد أن بلغ الطفل سن الصبا، ليبني وإياه الكعبة التي جعلها الله محـــج ملاييـــن الـــناس منذ إبراهيم وحتى يومنا هذا. يتبركون بها ويؤدون المناسك بالطواف حولها وبالسعي بين الصفا والمروة على خطى أم إسماعيل عـــندما نفذ لديها ما تركه لها زوجها من الماء، وراحت تفتش عنه بين هذين الموقعيـــن. وإلى جانب الكعبة في البيت الحرام، في مكة، يوجد مقام مصلى إبراهـــيم ومقـــام مصلى إسماعيل يتبرك المسلمون بالصلاة عندهما. ويقول القـــرآن: «**إن أول بيـــت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً**» (آل عمران، ٩٦-٩٧).

غَـرس إبراهـيم وابنه إسماعيل بذرة دين التوحيد في مكة التي غدت محج العرب، يطوفون حول كعبتها رافعين أصواتهم بنداء التلبية كما علمهم نبيهم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك».

لكـن بعـد مرور مئات السنين على وفاة نبي الله إسماعيل، انحرفت الأجـيال اللاحقـة عـن دين التوحيد وأشركوا مع عبادة الله عبادة الأوثان. وعدلـوا نداء التلبية عند الطواف: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شـريكاً واحـداً ملّكـته وما ملك». ووضعت كل قبيلة وعشيرة وثناً لها في الكعبة، إلى جانب هُبَل كبير هذه الآلهة، تتعبد له وتقدم القرابين «ليقربها إلى الله زلفى».

وهكذا نجد أن العرب ظلوا على عبادة الله كما علمهم نبيهم إسماعيل، إلا أنهم أشركوا مع عبادة الله عبادة الأوثان.

فكانـت رسـالة محمـد، حفيد إبراهيم وإسماعيل، تحويل العرب عن الشرك بالله إلى العودة إلى الدين الإبراهيمي الحنيف، دين التوحيد الذي رفع شعار «لا إله إلا الله» وحطم أوثانهم وهداهم إلى سبيل الرشاد منظفاً عقولهم ممـا علـق بها من المفاهيم الوثنية والانحراف عن دين الإسلام الحق، دين إبراهـيم: «**ملة أبيكم إبراهيم، هو الذي سماكم المسلمين من قبل**» (الحج، ٧٨).

ثـم يبتلـي الله نبيه إبراهيم بلاء كان أعظم من بلاء ترك ولده وأمه وحيديـن في أرض مقفرة، لا طعام فيها ولا ماء. لقد أراه في منامه أن يذبح ابنه قرباناً للرب. امتثل إبراهيم لأمر ربه طائعاً. ويقص علينا القرآن الحوار الـذي دار بيـن النبي الأب وابنه الذي سوف يكون النبي المصطفى من بعد والـده: «**فلمـا بلـغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظـر مـاذا تـرى. قال يا أبتِ افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصـابرين. فلمـا أسـلما وتلّه للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت**

الرؤيا. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بِذِبحٍ عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين» (الصافات، ١٠٢-١١١).

يبين لنا القرآن في هذه الآيات عظمة إيمان إبراهيم وكبر إيمان ابنه إسماعيل الذي مدّ عنقه للذبح امتثالاً لأمر الله. ولما أسلما أمرهما إلى الله ورضخا لإرادته، وقدم الغلام إسماعيل رقبته للذبح، وهمَّ الوالد بسكينه يحز بها عنق أعز ما في الوجود إليه، جاءه نداء ربه بوقف الذبح، مقدماً له البديل عن ابنه كبشاً يذبحه فداء للصبي الذي سوف يكون نبي الله إلى العرب.

وإكراماً لإيمان إبراهيم وتسليمه المطلق لأمر الله، أرسل الله له ملائكته يبشرونه بمولود جديد إسمه إسحاق، الذي سيكون نبياً لبني إسرائيل. يولد من امرأته سارة العجوز العقيم. فلما رآهم توجس منهم خوفاً. عند ذلك بادره الملائكة بقولهم: «**لا تخف، وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته** (سارة) **في صرَّةٍ فصكَّت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك، إنه هو الحكيم العليم**» (الذاريات، ٢٨-٣٠) قالت: «**يا ويلتي ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً، إنَّ هذا لشيء عجيب**» فتجيبها الملائكة على تعجبها: «**قالوا أتعجبين من أمر الله وبركاته عليكم أهل البيت. إنه حميد مجيد**» (هود، ٧٢-٧٣).

لكن إبراهيم استهجن هذه البشرى وبادر الملائكة قائلاً: «**أبشرتموني على أن مسني الكبر فبمَ تبشرون. قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون؟**» (الحجر، ٥٣-٥٦).

فرح إبراهيم وزوجه سارة بهذه البشرى الربانية وغمر قلبيهما السرور فشكرا ربهما على هذه النعمة الكبيرة التي أنعم بها عليهما.

عاش إبراهيم عمراً مديداً أمضاه داعياً إلى الله ومبشراً بدين التوحيد متنقلاً بين العراق وبلاد الشام ومصر. لكن دعوته لم تلق الأرض الخصبة والنفوس المهيئة لقبولها. وقد خصَّ الله إبراهيم في القرآن، تكريماً لشخصه

وتـنويهاً بإيمانــه، بما يزيد على المائة والستين آية: «**إن إبراهيم كان أمة**» (النحل، ١٢٠). فلعل الزمن كان مبكراً على نشر هذه الدعوة. فبعث الله من نسل إبراهيم نبيين لحمل رسالة التوحيد من بعده. أولهم إسماعيل نبي العرب الــذي انحــدر من نسله محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وثانيهما إسحاق أبو يعقــوب الــذي انحــدر من نسله أسباط بني إسرائيل وأنبياؤهم. من هاتين الســلالتين ســوف تنبــثق بعد مئات السنين أديان التوحيد الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام.

إسحاق ويعقوب

يسرد لنا القرآن أن سارة زوجة إبراهيم ولدت المولود الذي بشّرتها به الملائكــة وسمته إسحاق. وأمدّ الله بعمر إبراهيم حتى ترعرع الولد في كنف أبيه، وتربّى في أحضان النبوة. وتعلّم من أبيه ما حباه الله به من تعاليم الدين الصحيح والسلوك النبوي القويم. فكان كأبيه نبياً من الصالحين المؤمنين بالله وبدعوة التوحيد.

تابــع إسحاق، طريق أبيه في حمل الرسالة الإلهية ودعوة الناس إلى عــبادة الإلــه الواحد، وترك ما درج الناس عليه من عبادة الأوثان، والتزم بالسلوك القويم الذي أراده الله لعباده الصالحين.

ولما بلغ إسحاق سن الرجولة، تزوج وأنجب ولده يعقوب الذي خصه الله بالنــبوة من بعد أبيه وجده. وأنجب اثني عشر ولداً هم الذين سموا باسم أسباط بني إسرائيل.

ويبتلي الله نبيه يعقوب بفقد ولده يوسف بسبب غيرة أخوته منه، حيث تآمروا عليه ورموه في جب «ليخلو لهم وجه أبيهم؟ فيحزن يعقوب على ولده حزناً شديداً، ويذرف الدموع الغزيرة حتى يفقد بصره. ويشاء الله ليوسف أن يتــبوأ في مصر منصباً رفيعاً، فيستدعي إليه أبويه وأخوته. ويذهب يعقوب

إلـــى مصر، ويعيد الله إليه بصره، ويعوضه عما عانى من فراق ولده بحياة هانئة إلى جانبه وجانب بقية أولاده حتى يتوفاه الله عن عمر مديد، وشيخوخة مليئة بالإيمان والوقار. وكانت وصيته لأولاده عندما وافته المنية، كما ذكرها القرآن: «**أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعـدي قالـــوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون**» (البقرة، ١٣٣).

يوسف في القرآن

لـــن أعـــيد سرد قصة يوسف، التي فصلتها التوراة، وصاغها القرآن بأســـلوب بلاغي معجز. بل سأكتفي منها بتبيان بعض العبر، التي قدمها الله للناس، من قصة حياة هذا النبي.

خصص القرآن لقصة يوسف سورة كاملة في القرآن سميت باسمه ولم يحظ أي نبي قبله ولا بعده بهذا التخصيص.

فـــالله الـــذي اختاره للنبوة، اختار له نطفة طاهرة وأباً نبياً يتربى على يديـــه في كنف بيت نبوة متلقناً تعاليم الرسالة الإلهية يحملها أب عن جد في سلسلة نبوية طاهرة. لم تكن عناية الأب النبي بولده يوسف دون سائر أخوته إلا بأمـــر من الله، ليهيئه لحمل رسالة النبوة التي شرَّف الله لحملها آباءه من قـــبل. وعـــندما تآمـــر عليه إخوته، حسداً من عند أنفسهم، وألقوه في غَيَابَة الجـــب، كـــان يوسف قد تعلم، من أبيه، مبادئ دين التوحيد. فلم يكن الصبي الذي بيع في مصر «بثمن بخس» إلا مشروع نبي، تحصنت نفسه عن الإثم والفحشـــاء، فيـــرفض الوقـــوع في الخطيئة مع زوجة مالكه رئيس شرطة الفرعون، لأن الله يعصم أنبياءه عن الخطأ والخطيئة. وعندما تنبأ في السجن، لم يكن فطنة شخصية من ذاته، بل علمه الله «تأويل الأحاديث». وعندما قال لـــزميله السجين بأن يستشفع له عند الملك عندما يصبح ساقياً له، ونسي ذكر ربـــه، وأن لا يطلـــب العون إلا منه وحده، كان قصاصه أن يلبث في سجنه

منسياً بضع سنين أخرى. تعليماً له أن الذي وهبه مقدرة تفسير الرؤى هو القادر على أن يخرجه من سجنه ومن كل محنة تلم به.

وعندما أراد الله إخراجه من سجنه أرى فرعون رؤىً لم يستطع تفسيرها إلا ذاك النبي الذي رفض أن يخرج إلا بعد ظهور براءته. فألزم الله امرأة العزيز أن تعترف بالحقيقة بقولها: «**الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين**» (يوسف، ٥١).

ويقيّض الله ليوسف أن يكون أميناً على خزائن غلال الملك، ويمكّن له في الأرض فيكون له ما يشاء، ويتبوأ منها حيث يشاء. وينقذ الناس من أيام الجدب والجوع بما اختزنه من الغلال في أيام الخير. ويمن على إخوته ويخلصهم من ضائقة الجوع غافراً لهم خطيئتهم نحوه، وجالباً أبويه مع إخوته جميعاً من البدو ليعيشوا معه في عز ورفاه وهبه الله إياهما بما حباه من الرعاية، وليكون النبي الذي حمل رسالة النبوة عن آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

ويختم القرآن قصة يوسف بهذا الدعاء الذي يدعو فيه ربه: «**ربِّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث. فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين**» (يوسف، ١٠١).

موسى وهارون في القرآن

أورد القرآن قصة موسى في حوالى الثلاثين موضعاً، فكانت أكثر القصص القرآنية تكراراً. وهذا يدل على أهمية الدور الذي أعطاه الله لنبيه موسى عليه السلام. فهو نبي رسول، أنزل الله عليه التوراة التي تضمنت الناموس (الشريعة) الإلهي الذي طلب منه تطبيقه في بني إسرائيل وفي دولة التوحيد التي أمره أن يقيمها في فلسطين.

تعهد الله نبيه موسى منذ ولادته، إذ كان فرعون مصر يقتل كل مولود ذكــر من بني إسرائيل بعد حلم رآه وفسره له عرّافوه وكهّانه بأن غلاماً من بنـــي إسرائيل يولد في مصر، ويكون هلاكه وزوال ملكه على يديه. فأوحى الله إلــى أمه أن تلقيه في اليم كي لا يكتشف أمره جواسيس فرعون فيقتلوه. نفــذت الأم المؤمــنة أمر ربها، ووضعت وليدها في صندوق وألقت به في المــاء. وطلــبت إلى أخته أن تتقصى أثره. وتشاء إرادة الله أن تلتقطه ابنة الفرعون التي كانت تسير على جانب النهر. ويحنن الله قلبها عليه، وتفتش له عــن مرضعة، فتهديها أخت موسى إلى أمها. وهكذا عاد الولد إلى أحضان أمــه، يرضع من ثديها ويعيش بحنانها محمياً من جنود فرعون الذين كانوا يلقون كل مولود عبراني في نهر النيل. يقول القرآن: «**فرددناه إلى أمه كي تقرَّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق**» (القصص، ١٣).

وحدث أن موسى بعد أن كبر في كنف فرعون، كان يتجول في المدينة فــرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من بني قومه، فانتصر للعبراني وقــتل المصري. ولما علم بانكشاف أمره غادر المدينة، خائفاً، يترقب، وهو يدعــو الله: «**رب نجنــي من القوم الظالمين**» قاصداً بلاد مدين، نادماً على فعلــته، مستغفراً ربه قائلاً: «**رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم**» (القصص، ١٦). فغفر الله لموسى وهيأ له إقامة في كنف رجل صالح، فزوجه إحدى بناته وأقام عنده ثماني سنوات آمناً مع عياله.

لكــن تلــك الأعوام التي قضاها في مدين لم تنسه بني قومه. فاستأذن حماه ورجع بأهله قاصداً أرض مصر ليستطلع أحوالهم ويطمئن عليهم. وفي طريقه شاهد عن بعد ناراً. فاستأذن زوجته ليذهب ويأتي بجذوة منها ليشعل نــاراً يــتدفأ بهــا في ذلك الليل القارس. «**فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمــن فــي الــبقعة المــباركة من الشجرة، أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين. وأن ألق عصاك، فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبراً ولم يعقِّب**»

فجـاءه نداء ربه: «**يا موسى أقبل ولا تخـف إنك من الآمنين. اسـلك يدك فـي جيـبك تخرج بيضاء من غير سـوء واضمم إليك جناحك من الرهب فـذانك بـرهانان مـن ربـك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين**» (القصص، ٣١-٣٢).

هنا بدأت نبوة موسى، إذ كلفه الله الذهاب إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة آلهتهم المزيفة. وزوَّده بهاتين المعجزتين، تصديقاً لنبوته وتكليفه من الله.

لكن موسى الذي قتل منهم رجلاً كان لا بد له أن يدخل متخفياً في بني قـومه، مبتعداً عن أعين المصريين علهم لا يكتشفون أمره بعد غيابه عنهم هذه السنين. أما أن يكلف بالذهاب إلى قصر فرعون ويكشف نفسه، فهذا أمر فـي منتهى الخطورة على حياته. «**قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون. وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رِدْءاً يصدِّقني إني أخـاف أن يكذبـون**» (القصص، ٣٣-٣٤) فيأتيه جواب ربه: «**قال سنشد عضُـدك بأخـيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما، بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون**» (القصص، ٣٥) «**لا تخافا إني معكما أسمع وأرى، فأتياه فقـولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، قد جئناك بآية من ربك**» (طه، ٤٧) وأراه موسى معجزتيه التي أيده الله بها. فقال فرعون: «**من ربكما يا موسى. قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**» (طه، ٤٩-٥٠). فقـال فـرعون لموسـى ما أنت إلا ساحر تريد أن تخرجنا من أرضـنا. «**فلنأتينَّك بسحر مثله**» فعين لنا موعداً نلتقي فيه بك حيث سنحشد لـك سـحرتنا ليتغلبوا بسحرهم على سحرك، ونريك من هو الأقوى. «**قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى**» (طه، ٥٩).

جمـع فـرعون سـحرته فـي اليوم والمكان الموعود، واعداً إياهم بالعطاءات الوافرة إن هم تغلبوا على «سحر» موسى. فأقبل السحرة مطمئنين إلـى قـدراتهم، طامعين برضى فرعون الذي قال لهم ليس لكم إله غيري.

وهـؤلاء جـاءوا ليخرجوكم من أرضكم بسحرهما «**فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صـفاً، وقد أفلح اليوم من استعلى**». فقال السحرة: «**يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا، فإذا حبا لهم وعصيّهم يخيل إليه مـن سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى**» فيأتيه نداء ربه مشـجعاً: «**قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما بيمينك تلقف ما صنعوا، إنمـا صـنعوا كـيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى**» (طه، ٦٤-٦٩). «**فألقـى موسـى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون. فألقِي السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون**» (الشعراء، ٤٥-٤٨).

عندما رأى السحرة أن تحول عصا موسى إلى أفعى ليس سحراً، وهم الأدرى بفـن السـحر. وتيقنوا أنها معجزة إلهية، وتأكد لهم أن موسى نبي مرسـل مـن الله، سجدوا لإله موسى إيماناً به. فغضب فرعون من سحرته ورفع صوته مهدداً: «**قال آمنتم به قبل أن آذن لكم، لأقطِّعنَّ أيديكم وأرجلكم مـن خـلاف ولأصـلبنّكم أجمعـين. قالوا لا ضير، إنّا إلى ربنا منقلبون**» (الشعراء، ٤٩-٥٠).

وألـحّ موسـى على فرعون ليسمح لبني إسرائيل بالخروج معه من مصـر. لكـنه كان يصر على رفضه وتعنته. فيدعو موسى ربه مستغيثاً به ليعينه على فرعون وملئه، فينتقم الله منهم، كما يقول القرآن: «**ولقد أخذنا آل فـرعون بالسـنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون**» (الأعراف، ١٣٠) لكنهم يصرون على غيهم ويقولون لموسى: «**مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بهـا فمـا نحـن لـك بمؤمنـين. فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضـفادع والـدم آيات مفصَّلات وكانوا قوماً مجرمين. ولما وقع عليهم الرِّجـز قالـوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرِّجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون**» (الأعراف، ١٣٢-١٣٥).

فيغضب الله عليهم، بعد أن أراهم كل تلك الآيات وأصروا على كفرهم، فيأمر موسى أن يرحل ببني إسرائيل ليلاً. وما إن دري فرعون برحيلهم حتى أتبعهم بجنوده بغية الانتقام منهم. «**فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فِرقٍ كالطود العظيم. وأزلفنا ثَمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين**» (الشعراء، ٦٣-٦٥) وهكذا أنجى الله بني إسرائيل وأغرق فرعون وجنوده بسبب بغيهم وتجبرهم.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من نبوة موسى في قومه. فبينما هم يسيرون في الصحراء بعد نجاتهم من فرعون وجنوده. احتاجوا إلى الماء ليشربوا وهم يسيرون في صحراء سيناء متجهين إلى فلسطين، فطلبوا من موسى أن يحضر لهم الماء قبل أن يموتوا ظمأى في قيظ البيداء. فدعا موسى ربه الذي لا معين له سواه. فجاءه أمر ربه «**أنِ اضرب بعصاك الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً** (على قدر أسباط بني إسرائيل) **قد علم كل أناس مشربهم**» وطلبوا من نبيِّهم أن يخفف عنهم حر الشمس، فأظلّهم الله بالغمام يسير فوق رؤوسهم يخفف عنهم حرها. وأخيراً نفد زادهم، فأنزل الله لهم المن والسلوى طعاماً لهم. «**وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم**» (الأعراف، ١٦٠) لكنهم لم يكتفوا بهذا الطعام الذي أنزل الله إليهم. بل طلبوا من نبيهم أن يحضر لهم ما كانوا يأكلون في مصر: «**وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم**» (البقرة، ٦١). يجيبهم موسى: إذا كنتم تريدون أن تأكلوا هذه الأصناف التي طلبتم فعليكم أن تدخلوا بلداً أمامكم ينبت لكم هذه الغلال. ويحرضهم على دخول أرض فلسطين. لكنهم يجيبوه: «**يا موسى إنَّ فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. إنا لن ندخلها ما داموا فيها،**

فاذهـــب أنـــت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» (المائدة، ٢٢-٢٤). عند ذلك يســـقط في يد موسى ويناجي ربه بانكسار وحزن: «**قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»** (المائدة، ٢٥).

ويطلب الله من موسى أن يصعد إلى الجبل لتلقّي الشريعة. فيستجيب لأمـــر ربه ويستخلف أخاه هارون في قومه. فيبقى موسى في الجبل أربعين لـــيلة. فاستطال بنو إسرائيل غيابه. فصنعوا لهم من حليهم عجلاً صنماً من ذهـــب وراحـــوا يعبدونه بدلاً من إله موسى. «**ولما رجع موسى إلى قومه غضـــبان أســـفاً قـــال بئسما خلفتموني من بعدي. أعجلتم أمر ربكم، وألقى الألـــواح وأخـــذ بـــرأس أخـــيه يجره إليه، قال** (هارون) **ابن أمَّ إن القوم استضـــعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشْمِت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمـــين. قـــال رب اغفـــر لـــي ولأخي وأدخلنا في رحمتك، وأنت أرحم الراحمين»** (الأعراف، ١٥٠-١٥١).

لـــم يســـتطع موســـى إقناع قومه بدخول فلسطين لإقامة دولة التوحيد والقضاء على عبادة الأوثان، بل غضب الله عليهم وأبقاهم في سيناء يتيهون فـــيها أربعين سنة حتى مات الجيل الذي تربى على العبودية في مصر وأتى جيل جديد نشأ على الحرية في الصحراء.

توفـــي نبي الله موسى، وتوفي من قبله أخوه هارون ولم يشهد عبور بني إسرائيل نهر الأردن ودخول فلسطين.

كان موسى نبياً مرسلاً، أنزل الله معه التوراة (كتاب الشريعة) فأمضى عمـــره يعلِّم بني قومه السلوك القويم، وفق تعاليم ربه، ويعودهم على تطبيق شـــرع الله فـــي مجتمعهم. فكانت حياته مليئة بالنضال من أجل تخليص بني إسرائيل من حكم فرعون الطاغية، وينقلهم من حياة العبودية إلى حياة الحرية وحمل رسالة التوحيد إلى باقي الأمم.

داوود في القرآن

يعطي القرآن لداوود وسليمان مكانة عالية بين الأنبياء. إذ ميزهما الله بـأن أعطاهما المال إلى جانب النبوة. فتعاليم السماء تأتي مباشرة إلى الملك الذي بيده الحكم والسلطان، وبيده تنفيذ أمر الله. فأقاما العدل في الأرض في الدولـة التـي حملت راية التوحيد، وطبقا الشريعة التي نزلت على نبي الله موسى. وخص الله نبيه داوود بالزبور «**وآتينا داوود زبوراً**» (الإسراء، ٥٥) وثـبت لـه ملكه وآتاه الحكمة وسداد الحكم: «**وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصـل الخطـاب**» (ص، ٢٠). ويروي لنا القرآن قصة داوود مع جالوت (جوليـيت) وكيف قتل داوود جالوت. ويسرد لنا القرآن هذه القصة بأسلوب بلاغـي موجز، عندما التقى الجيشان، جيش عرمرم يقوده جالوت، وقلة من الجـند بقيادة طالوت (شاؤول). فقالوا: «**لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء**» (البقرة، ٢٤٩-٢٥١).

ويـورد لنا القرآن أمثلة على اهتمام الله بنبيه داوود بإرساله الملائكة يتقاضون عنده ليعلموه كيف يحكم بين الناس بالعدل: «**وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسـوروا المحـراب. إذ دخلـوا على داوود ففزع منهم، قالوا لا تخف خصـمان بغـى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطِطْ واهدنا إلى سواء الصراط. إنَّ هذا أخي لـه تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنـيها وعزني في الخطاب**» (ص، ٢١-٢٣) أصدر داوود حكمه دون أن يسـتمع إلـى الشخص الآخر بقوله: «**لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه**» (ص، ٢٤). وبعـد أن تلفظ بالحكم شعر أنه تسرع في حكمه، فاستغفر ربه عن هذا الخطأ، وظن أن الله إنما أراد أن يفتنه بهذين الملكين: «**وظن داوود**

أنمـــا فتـــناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب. فغفرنا له ذلك، وإن له عندنا لزلفا وحسن مآب» (ص، ٢٤-٢٥).

نتـــيجة لهـــذه الدروس الربانية التي خص الله داوود بها، وطاعته لله والالتزام بتعاليمه شدد الله ملكه وآتاه الحكمة والقضاء العادل: «**وشددنا ملكه وآتيـــناه الحكمة وفصل الخطاب**» ويبشره الله بسبب طاعته والتزامه طريق الحـــق بـــأن يكـــون خلـــيفة في الأرض: «**يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فـــاحكم بـــين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**» (ص، ٢٠-٢٦).

وعلّـــم الله داوود الملك الذي يقود الجيوش ويخوض الحروب، صناعة الـــدروع: «**وعلمـــناه صـــنعة لـــبوس لكـــم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شـــاكرون**» (الأنبـــياء، ٨٠). «**وألنّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدّر في الســـرد**» (سبأ، ١٠-١١) ووهبه الله ملكة شعرية يردد بها التسابيح لله فتردد الجـــبال والطيـــر صدى تسبيحه: «**وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين**» (الأنبياء، ٧٩).

سليمان في القرآن

ورث سليمان الملك عن أبيه، حيث فضله على جميع أبنائه لما بدر منه مـــن نباهة مبكرة، وآتاه الله النبوة كأبيه داوود. وميزه وفق آي القرآن، بما وهـــبه من الخوارق التي لم يهبها لأحد قبله ولا وهبها لأحد بعده. فقد علمه مـــنطق الطيـــر، وسخر له الريح تجري بأمره. وسخر له الشياطين يعملون تحـــت أمره ويغوصون في البحار خدماً له ويعملون ما يطلبه منهم طائعين. «**ولســـليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكـــل شـــيء عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك، وكنا لهم حافظين**» (الأنبياء، ٨١-٨٢).

فـــالله قد أعطاه الإمرة على الناس كملك. ووسع له ملكه ليشمل الجان فجعلهم له خدماً وعبيداً، يأتمرون بأمره، ويعملون له أعمالاً يعجز البشر عن عملهـــا، فيســتخرجون له اللآلئ من أعماق البحار، ويصنعون له المحاريب والتماثيل والقدور. وفوق ذلك وهبه نعمة فهم لغة الطيور، فيخاطبها، وينتفع بمواهــبها، ويسخرها في بعض شؤون الملك، فيرسل الهدهد إلى ملكة سبأ، يــنقل إليها رسالة منه. ويسمع كلام نملة تنادي على جماعتها أن يحيدوا عن درب ســليمان لــئلا تدوسهم حوافر خيله وأقدام جنوده. «**حتى إذا أتوا على وادي الــنمل قالــت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجــنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكاً من قولها وقال: رب أوزعني أن اشــكر نعمــتك التــي أنعمــت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين**» (النمل، ١٨-١٩).

وقد أشاد سليمان هيكلاً لعبادة الله وتوحيده. وجعل منه محجة للمؤمنين ورمــزاً للقــيم. فكان هيكل بيت المقدس آية رائعة في البناء والزخرفة. بذل فيها من الجهد والمال ما قدّره الله من السعة والغنى. فجلب له خيرة البنائين والصانعين، حتى غدا أروع معبد، شيّد في زمنه، لعبادة الله الواحد.

ظل سليمان طوال حياته النبي المطيع لربه، المعترف بفضله ونعمائه، شــاكراً له ما حباه به من قوة وغنىً. فكان مثال المؤمن الصادق، المتواضع لله. ولــم يحــرفه ســلطان الملك عن استقامة مسلك النبوة، وخضوع العابد المتنسك لله، جل وعلا.

الفصل الرابع

الإسلام تكملة لما سبقه

هـذا الناموس الإلهي (الشريعة) الذي بدأ بموسى عليه السلام، وجاء المسيح عليه السلام ليكمله، وهو القائل: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمّل. فإني الحق أقول لكم، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون **الكل**» (متى ١٨/٥).

والذي يقول فيه القرآن: «**نَزّل عليك الكتاب** (القرآن) **بالحق مصدِّقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس**» (آل عمران، ٢).

ويقول القرآن أيضاً: «**والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه**» (التوراة والإنجيل) (فاطر، ٣١).

ويقول: «**تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب**» (يونس، ٣٧) أي تفصيل الرسالة الإلهية المتمثلة بالكتاب الذي هو أصل الوحي الإلهي.

ويقول: «**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب** (التوراة والإنجيل) **ومهيمناً عليه**» (المائدة، ٤٨)[١].

---

(١) تفسير الرازي: رقيباً وشاهداً وحافظاً وأميناً. تفسير الميزان: حفيظاً ومراقباً. تفسير الطبرسي: أميناً وشاهداً وحافظاً ورقيباً.

فالقــرآن جــاء مصدقاً لما جاء في توراة موسى وإنجيل المسيح، كما تبيِّن هذه الآيات وشاهداً على صدقهما، ومكملاً للشرع الإلهي الذي جاء فيهما ليشمل الكل الذي ذكره عيسى (يسوع) المسيح في الإنجيل.

والقــرآن يـنوِّه بأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو «**خاتم النبيين**» (الأحزاب، ٤٠). أي أن رسالته هي آخر الرسالات السماوية. وأنه لا رسول ولا نبي بعده. لذلك فرسالته هي كمال الرسالات التي سبقته. فكما أن المسيح جــاء مكملاً لشريعة موسى، كذلك جاء محمد مصدقاً ومكملاً لتوراة موسى وإنجيل المسيح، أي الناموس الإلهي أو الشريعة المنزلة من السماء.

بذلــك يقول رسول الله محمد: «إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وحسّنها إلا موضع لبنه، فكان من دخل فيها فنظر إليها قال: ما أحســنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة، خُتم بي الأنبياء» (صحيح مسلم ١٧٨٨).

فمــا هــي التعاليم الإلهية التي جاء بها الإسلام ولم يرد لها نص في توراة موسى (الاصحاح الخمسة الأولى من الكتاب المقدس ــــ العهد القديم) وفي أناجيل المسيح الأربعة، إضافة إلى ما تقدم معنا في المقارنة بين الأديان الثلاثة، غير تحريم القتل والسرقة والزنا وأكل الربا والرشوة والقذف وشهادة الــزور، وبيان ما يحل لهم أكله وما يحرم عليهم، وما يحل لهم الزواج منه ومــا لا يحل، وإقامة العدل وبرّ الوالدين والطلاق والتصدق وتحريم الرياء، وتحريم السحر، والأوثان، ومعاقبة الخطاة، والدعوة إلى الزهد؟

فبعد الإيمان بالله، الواحد الأحد الفرد الصمد الذي «ليس كمثله شيء» الخــالق لهذا الوجود، بيده كل شيء، وإليه مرجع كل شيء، العالم بكل شيء والقــادر علــى كل شيء. الذي ذكر له القرآن تسعة وتسعين اسماً أو صفة. فصفاته تعالى لا تحد بوصف لغوي، ولا توصف بعلم بشري، ولا تشبَّه بمثْل موجــود، ولا بوجود محدود. لا يحده عقل، ولا يدرك ماهيته فكر. الصفات

لموصوف والموصوف محدود، وليس لذات الله حدود، وهو فوق كل موجود موجود. وهو الموجود بذاته وسواه به موجود. لا يحده زمان، ولا يحيط به مكان، فهو فوق الزمان والمكان، وهو خالق الزمان والمكان. لقد كان قبل الكون، وتسامى عن الأين، وتعالى عن الآن «**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**» (الحديد، ٣). «**وما قدروا الله حق قدره والأرض يومئذ قبضته والسموات مطويات بيمينه**» (الزمر، ٦٧).

فبعد الإيمان بوحدانية الله ووحدة الدين أي الإيمان برسالة جميع الأنبياء والرسل والكتب السماوية:

أقام الإسلام الوحدة الإنسانية على أساس الأخوة والمساواة بين الناس:

يقول القرآن الكريم: «**يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**» (سورة الحجرات، آية ١٣). فالله خلق الناس شعوباً وقبائل من أجل أن يتعارفوا ويتعاونوا على عمل الخير من أجل إعمار الأرض وإرقاء المجتمع الإنساني. وليس ليتباغضوا ولا ليتقاتلوا ويتحاربوا ويتخاصموا. بل ليتعاونوا على البر وتقوى الله ولا يتعاونوا على عمل الشر والاعتداء على الغير. بذلك يقول القرآن: «**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**» (سورة المائدة، ٢). فالتعاون بين الناس الذي أراده الله لهم هو التلاقي على عمل الخير فيما بينهم والبعد عما نهى الله، والعمل بما أمر.

فالله لا يفرق بين إنسان وإنسان، فالكل خلقه وعياله. قال رسول الله (ص): «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» (مسلم، عتق، ١٦). فأقرب الناس إلى الله هو الذي يقدم النفع للناس. وأقام الإسلام الأخوة الإنسانية بين جميع البشر، فلا عنصرية تقوم على الدم أو العرق أو اللون أو

الطبقة أو النسب أو القومية. ومنع التفاضل بين الناس إلا بصالح الأعمال وتقوى الله. وجاء في الحديث النبوي: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى» (مسند أحمد ٥/٤١١). وحدد الرسول العلاقة الإنسانية بالأخوة: «إن العباد كلهم أخوة» (أبو داوود والترمذي). وأمر المؤمنين بدعوته، وحدد لهم علاقتهم بالناس الآخرين بقوله: «كونوا عباد الله إخواناً» (مسلم ٢٥٥٩).

أمر الإسلام بحمل الدعوة إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة:

أمر الله نبيه وحملة الدعوة الإسلامية أن يحملوا هذه الدعوة إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول القرآن: «**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**» (سورة النحل، ١٢٥). وخاصة منهم أهل الكتاب (اليهود والنصارى): «**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون**» (سورة العنكبوت، ٤٦).

فالجدال (الحوار) لا يجوز إلا بالموعظة الحسنة، ويقطع الله بتحريم مجادلة اليهود والمسيحيين إلا بالتي هي أحسن، والاعتراف بكتبهم السماوية، واعتبارهم كالمسلمين، يؤمنون ويعبدون إلهاً واحداً. وهم مسلمون لله. فالإسلام يعني التسليم والطاعة التامة لله تعالى.

من هنا، لا ينطبق على الإسلام أنه الرسالة «المحمدية» لأن محمداً ليس هو مؤسس الإسلام، ولكنه متممه. فرسالته كانت تصديق الرسالات السابقة. ولم يكن هو إلا خاتم الأنبياء والرسل. والإسلام الذي نادى به هو رسالة الله تعالى إلى البشر، بدأ بآدم واختتم بمحمد، مروراً بالأنبياء والرسل كافة.

ويعلّم القرآن أسلوب الدعوة للمسلمين بقوله: «**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**» (سورة فصلت، ٣٣-٣٤).

أمر الإسلام بطلب العلم

ينوّه القرآن بمكانة العلم والعلماء بقوله: «**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**» (سورة المجادلة، ١١). ويميز الله بين العالمين وغير العالمين بقوله: «**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**» (الزمر، ٩). فلا يفهم آيات القرآن إلا العالمون: «**كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون**» (فصّلت، ٣). ولا يفهم آيات الله ومعجزات خلقه إلا العالمون: «**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك آيات للعالِمين**» (سورة الروم، ٢٢). في هذه الآيات القرآنية حضّ للناس على طلب العلم، وتعظيم لمكانة العلماء الذين اختصهم الله في فهم آياته. ويضرب الله، في القرآن، الأمثال تقريباً لمفاهيم الناس وعقولهم. لكن تلك الأمثال لا يفهمها إلا العلماء: «**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالِمون**» (سورة العنكبوت، ٤٨).

ويفرض النبي محمد (ص) طلب العلم على كل مسلم بقوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (ابن ماجه، مقدمة، ١٧). فكما العبادة من صوم وصلاة وحج وزكاة فريضة واجبة على المسلمين، كذلك طلب العلم. فمن أهمله فقد أهمل فريضة دينية واجبة عليه. وطلب العلم لا يختص بعمر معين، بل هو واجب على الإنسان في جميع مراحل عمره: «أطلب العلم من المهد إلى اللحد» كما جاء في الحديث النبوي. ويقول الرسول تشجيعاً على طلب العلم ورفع مكانة العلماء: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما صنع،

وإن العـــالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الآرض، حتى الحيتّان في المـــاء. وفضـــل العـــالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. وإن العلمـــاء ورثة الأنبياء، وإن العلماء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلـــم. فمـــن أخـــذ بـــه أخذ بحظ وافر» (مسند أحمد ١٩٦/٥ وأبو داوود والترمذي).

وجـــاء فـــي الحـــديث الشريف أيضاً: «مثل العلماء في الأرض كمثل الـــنجوم فـــي السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة» (مسند أحمد ١٥٧/٣).

وجاء أيضاً: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» (الترمذي ــ عن رياض الصالحين، ص ٤٨٧).

وجـــاء أيضاً: «طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات» (البحار، ص ١٨١).

وجـــاء أيضـــاً: «مـــن طلـــب العلم تكفل الله له برزقه» (كنز العمال ٢٨٧٠١).

وجاء أيضاً: «طالب العلم تبسط له الملائكة أجنحتها وتستغفر له» (كنز العمال ٢٨٧٤٥).

أمر الإسلام بالتفكّر

يقـــول القـــرآن الكريم: «**هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون**» (سورة الأنعام، ٥٠). فالأعمى هو الذي لا يرى خلق الله ويعمل فكره ليدرك وجـــوده تعالى، أما المتفكّر فهو البصير الذي يدرك آلاء الله وعظمة صنعه وإعجـــاز خلقـــه. «**إنّ فـــي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنـهار لآيـــات لأولـــي الألـــباب الـــذين يذكـــرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكـــرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك**

فقـــنا عذاب النار» (سورة آل عمران، ١٩٠-١٩١). فالله عز وجل يحث الناس علـــى التفكر في خلق الله ليدركوا وجوده وقدرته التي لا تحد، ليكوّنوا عقيدتهم. فإيمان المؤمن لا بد أن يبنى على قناعة راسخة في عقله، وليس على إيمان تصـــديقي تقلـــيدي يـــتوارثه الناس عن آبائهم ومجتمعاتهم دونما تفكر ولا تمحـــيص. ويرذل الإسلام هذا النوع من الإيمان التقليدي. يقول القرآن منددا بهذا النوع من الإيمان: «**بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مهتدون**» (سورة الزخرف، ٢٢). فالإيمان الحق الراسخ في القلب هو نتيجة إعمال الفكر ثم اقتناع العقل. ولا يجوز في الإسلام التقليد في العقيدة كالتقليد في العبادات والمعاملات (الأمور الفقهية) بل يجب على كل مؤمن أن يكوِّن إيمانـــه بنفســـه بتفكّر وقناعة ذاتية. نقيضاً لما كانت ترتئيه مسيحية القرون الوســـطى التـــي كانـــت تعتبر أن «الإيمان ينشأ عن نور علوي ولا يخضع للعقل، بل على العقل أن يذعن له ويجعل نتاج خبرته في خدمته»[1].

وتتكـــرر فـــي القرآن الآيات الكثيرة التي تحض على التفكر من مثل: «**كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**» (يونس، ٢٤). و«**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**» (الحشر، ٢١). و«**إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**» (سورة الرعد، ٣).

دعا الإسلام إلى التحري عن الحق والحقيقة

كمـــا دعا الإسلام الناس إلى طلب العلم والمعرفة، دعاهم إلى السعي للوصـــول إلى إدراك الحقيقة. فعلى المسلم ألا يأنف من أخذ الحقيقة أياً كان مصـــدرها، ولا يأنف أن يغير رأيه إذا ظهر له وجه الصواب، وليس له أن يتعصب لرأي أو مذهب يعميه عن رؤية ما قد أن يكون عليه من خطأ. يقول

---

(١) موســـوعة تـــاريخ أوروبا العام، تأليف بيار غريمال ورفقائه ـــ منشورات عويدات، بيروت ـــ باريس، ج ١، ص ٥٠٣.

الرســول: «فالحكمــة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها» (رواه التــرمذي فــي العلم، وابن ماجه في الزهد). وينبّه القرآن ويحذر من الخبر الكــاذب ويدعو المؤمنين إلى التحقق والسعي إلى تبيان الحقيقة لئلا يحكموا علــى الناس بجهالة، بل عليهم أن يترووا ويتريثوا في إصدار أحكامهم: **«يا أيهــا الــذين آمــنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»** (الحجرات، ٦).

يدعو الإسلام إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقــول القــرآن الكريم: **«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»** (سورة آل عمران، ١٠٤). ويقول: **«إن الله يأمــر بالعــدل والإحســان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغــي»** (ســورة النحل، ٩٠). ويقول: **«وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور»** (سورة لقمان، ١٧).

ويقول النبي محمد: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان» (صحيح مسلم، إيمان، ٧٨، ومسند أحمد ٣/٢٠).

ويقــول أيضــاً: «والــذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» (الترمذي عن رياض الصالحين، ص ١٠٣).

ويقــول الإمام علي بن أبي طالب: «وما أعمال البر كلها، والجهاد في ســبيل الله عند الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي» (شرح النهج، ج ١٩، ص ٣٠٦).

وتحــت عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تندرج كل أوامر الله ونواهــيه. فالمعــروف هو كل عمل يعود بالخير على الفرد والمجتمع.

فمن عمله نال رضى الله وثواب الآخرة. والمنكر هو كل عمل يسيء إلى حياة الفرد والمجتمع. فمن عمله أساء إلى نفسه ومجتمعه، ونال غضب الله وسوء المصير في آخرته. فالإسلام، كما كل الأديان، دعا إلى عمل الخير وحض عليه، وجعل له ثواباً. وحرّم عمل الشر وجعل عليه عقاباً: «**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**» (سورة الزلزلة، ٧ و٨). «**ولا يظلم ربك أحداً**» (سورة الكهف، ٤٩).

أمر الإسلام بحرية الفكر والمعتقد وضبط سلوك الإنسان بالتوحيد بين العقيدة والشريعة والأخلاق

فالعقيدة يحددها الفكر والقناعة الذاتية. ولا بد للفكر من الحرية كي يستطيع ممارسة قواه التي فطره الله عليها، ويكوّن القناعة الراسخة التي تؤدي إلى الاعتقاد واعتناق المبدأ. فكانت قاعدة حرية الفكر في القرآن: «**لا إكراه في الدين**» (سورة البقرة، ٢٥٦) و«**وما جعل عليكم في الدين من حرج**» (سورة الحج، ٧٨). وقوله تعالى: «**وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**» (سورة الكهف، ٢٩). هذه الآيات هي الأساس في دعوة الإسلام. فالإنسان مخيّر بين الكفر والإيمان. فمن اختار الإيمان والسلوك الحسن فله النعيم، ومن اختار الكفر بالله وسلك مسلك السوء فله الجحيم. هذا بالنسبة لجزاء الآخرة. أما بالنسبة لحياتنا الدنيا فقد وضع الإسلام الأسس الضابطة لبناء المجتمع الصالح والإنسان الصالح بالربط بين العقيدة والأخلاق، ووضع الشريعة كسياج لهما من أجل ضبط سلوك الأفراد ومنع أي شذوذ أو انحراف عن جادة الحق. وركز على جعل الرقابة الإلهية على الفرد هي المنظِّم الأكبر للضمير، والرابط الأهم لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

أمر الإسلام بصلة الأرحام

أمر الإسلام بتوثيق العلاقة بين المسلم وذوي قرباه، كالأب والأم والجد والجـدة والأولاد والأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وما يتفرع منهم. فهؤلاء هم الأرحام. فلا يجوز للمسلم مقاطعة ذوي رحمه، وذلـك من أجل شدّ أواصر الأسر التي هي اللّبنات الأولى في بناء المجتمع الإنسـاني المتماسك. فصلة الأرحام صلة مقدسة في الإسلام، وقطعها يعتبر إثمـاً من أكبر الآثام. يقول الرسول: «لا يدخل الجنة قاطع رحم» (البخاري ١٣٢١). فالحرمان من دخول الجنة عقوبة من أشد العقوبات بالنسبة للمؤمن. وجاء في القرآن الكريم: «**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون مـا أمـر الله بـه أن يوصل** (صلة الرحم) **ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسـرون**» (البقرة، ٢٧). جعل الله قاطعي الرحم مع الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ومع المفسدين في الأرض. وهؤلاء وأولئك هم الخاسرون في الآخرة، حيث سينالون غضب الله ونار جهنم. أما الذين يصلون ارحامهم فيقول فيهم القرآن: «**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافـون سـوء الحساب... أولئك لهم عقبى الدار. جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. والذين ينقضون عهد الله من بعـد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدار**» (سورة الرعد، ٢١-٢٥).

وجـاء في الحديث النبوي: «الرحم معلّقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» (مسلم ٢٥٥٦).

وجاء في الحديث القدسي: «أنا الرحمن خلقت الرحم واشتققت لها من اسـمي اسماً، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» (بخاري، أدب، ١٣، ومسند أحمد ١/١٩٤).

جاء رجل إلى رسول الله وقال له: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويبعدني عن النار. فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصل الرحم» (البخاري ومسلم، عن رياض الصالحين، ص ١٥٨).

وعن رسول الله أنه قال: «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة» (الترمذي، رياض الصالحين، ص ١٥٨).

وعنه أيضاً: «إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم» (كنز العمال ٦٩٧٩).

وعنه أيضاً: «من أحب أن يُبسط له في رزقه فليصل رحمه» (بخاري، أدب، ٦).

أمر الإسلام بكفالة اليتيم

فالولد اليتيم الذي فقد والديه، وليس له قريب يكفله، أوجب على الناس، أبناء مجتمعه رعايته وتأمين المأكل والملبس والمأوى له، وتربيته التربية الحسنة، وشموله بالعطف والود وحسن الرعاية حتى يبلغ أشُدّه. ذلك واجب ديني على كل مسلم ومسلمة، كي لا يكون في المجتمع ناس مُهملون مشرّدون، يتربون على سوء الخلق والمسلك الشاذ، فيكونون عبئاً على مجتمعهم، فيحدثون فيه الفوضى والاضطراب، بسبب ما لاقوه في طفولتهم من الإهمال والحرمان وسوء التربية حتى نشأوا أعضاء فاسدين في المجتمع. فلا يجوز قهرهم والاستخفاف بأمرهم، أو عدم المبالاة بتربيتهم التربية الأخلاقية الصحيحة، كي لا ينعكس ذلك على مسلكهم. وجاء في القرآن: «**ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير**» (البقرة، ٢٢). «**وأما اليتيم فلا تقهر**» (الضحى، ٩).

ويحضّ الله الناس على إكرام اليتيم كما يحضّهم على إطعام المسكين: «**كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين**» (الفجر، ١٧-١٨). فالذين يدفعون اليتيم عن حقه فهم مكذبون بالدين، يعدهم الله بما يعد به المكذبين بحساب الآخرة من العذاب: «**أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدُعّ اليتيم**» (سورة الماعون، ١-٢). أما المؤمنون الصادقون الذين ينوّه القرآن بصدق مسلكهم وحسن دينهم فهم من ينفقون أموالهم، على حب الله، لليتامى والأقرباء والمساكين. أما الذين يأكلون أموال اليتيم الذي ورثه عن أبويه، فجزاؤهم نار جهنم وسوء المصير: «**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم ناراً**» (سورة النساء، ١٠). وهناك في القرآن ثلاث وعشرون آية تحضّ على رعاية اليتيم ومعاملته المعاملة الحسنة التي تكسب الأجر من الله، ومخالفتها تدخل نار جهنم.

بذلك يقول محمد رسول الله (ص): «أنا وكافل اليتيم في الجنة» (البخاري).

ويقول: «من عال يتيماً حتى يستغني عنه أوجب الله عز وجل له بذلك الجنة، كما أوجب لآكل مال اليتيم النار» (البحار ٧، ص ٤).

أمر الإسلام بإكرام الجار

يقول القرآن: «**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنب**» (سورة النساء، ٣٦). نرى أن القرآن يأمر بالإحسان إلى الجار كالإحسان إلى الوالدين الذي أمر الله بالإحسان إليهم وكذلك الأقرباء واليتامى والمساكين.

ويقول محمد رسول الله: «ما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه» (البخاري ١٣٣٣، والبحار، ج ٧٤، ص ٩٤). هذا الحديث النبوي يظهر القدر الكبير الذي أمر الله به لإكرام الجار. وذلك من أجل

تلاحم المجتمع الإنساني وتطبيق مبدأ التكافل الاجتماعي بأن يساعد الإنسان أخاه الإنسان.

وَجـــاء في الحديث النبوي: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره» (مسلم والبخاري، عن رياض الصالحين، ص ١٥٠).

وقـــال رسول الله أيضاً: «أحسن جوار من جاورك تكن مسلماً» (ابن ماجه، زهد، ٣٤).

وقـــال: «خير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره» (الترمذي، بر، ٢٨) (ومسند أحمد ١٨٢/٦).

وقـــال: «لا يــؤمن الذي لا يأمن جاره بوائقه» (بخاري، أدب، ٢٩، مسلم، إيمان، ٧٣).

وقـــال: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع» (البحار ٧٤، ص ١٥٢).

وقـــال مخاطـــباً النساء: «يا نساء المسلمات لا تحقرنّ جارة لجارتها» (بخاري ومسلم، رياض الصالحين) (ص ١٤٩).

وقـــال: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى» (مسند أحمد ٣٣/٢).

أمر الإسلام بالوفاء بالعهود

بـــذلك يقـــول القرآن الكريم: «**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً**» (سورة الإسراء، ٣٤). ويقول: «**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم**» (سورة النحل، ٩١). ويصـــف الله في القرآن المؤمنين بأنهم «**الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعـــون**» (المؤمـــنون، ٨). ويصف المؤمنين الصادقين بأنهم: «**والموفون بعهدهم إذا عاهدوا**» (البقرة، ٧٧).

وبــذلك يقول الحديث النبوي: «لا دين لمن لا عهد له» (البحار ٧٢، ص ١٩٨). ويقــول: «ثلاثــة لا عذر لأحد فيها: أداء الأمانة للبر والفاجر، والــوفاء للبــر والفاجــر، وبر الوالدين بَرين كانا أم فاجرين» (البحار ٥٧، ص ٩٣).

أمر الإسلام بالوفاء بالعقود والشروط

أمــر الله المسلمين في القرآن بالوفاء بالعقود التي عقدوها مع الناس: «**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**» (سورة المائدة، ١). والالتزامات اللفظية التــي تدخل ضمن العقود تصبح واجبة الوفاء، ويعبر عنها بالشروط. بذلك يقول رسول الله: «من شرط على نفسه شرطاً فهو عليه» (بخاري، شروط، ١٨). ويقــول: «المســلمون عــند شروطهم إلا شرطاً حرّم حلالاً أو أحل حراماً» (كنز العمال ١٠٩٤٨).

أمر الإسلام بالإصلاح بين الناس

يقول الله في القرآن: «**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**» (سورة الأنفال، ١). ويقــول: «**وإن طائفــتان مــن المؤمنــين اقتــتلوا فأصلحوا بينهما**» (الحجــرات، ٩). «**والصــلح خيــر**» (النساء، ١٢٨). ويقول: «**لا خير في كثيــر مــن نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس**» (النســاء، ٢٨). ويقــول: «**إنمــا المؤمــنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم**» (الحجرات، ١٠).

ويقول رسول الله: «كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة» (الــبخاري ومسلم، رياض الصالحين، ص ١٢٧). فالإصلاح بين الناس هو من أهم عناصر إصلاح المجتمع والتكافل بين أفراده. ففصل الخصومات عن طــريق القضاء فيه رابح وخاسر غالب ومغلوب. أما عن طريق المصالحة ففيه غسل للأحقاد، وتخفيف العداوات، وتحقيق المجتمع السليم.

وأمر الإسلام بتأدية الأمانة

يأمر القرآن بتأدية الأمانة إلى أصحابها في آيات تتكرر في سور القرآن الكريم: «**فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِ الذي ائتمن أمانته**» (البقرة، ٢٨٣). وهنا يستعمل القرآن لغة الأمر الجازم في وجوب رد الأمانة إلى أصحابها. وكذلك في قوله: «**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**» (النساء، ٥٨). فالذي يخون الأمانة إنما يخون الله ورسوله، والذي يخون الله ورسوله فقد خرج من دين الإسلام. بذلك يقول القرآن: «**لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم**» (الأنفال، ٢٧). ويمتدح الله المؤمنين الصادقين بأنهم أولئك الذين يؤدون الأمانات ويحفظون العهد: «**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**» (المؤمنون، ٨).

وجاء في الحديث النبوي: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» (البخاري ومسلم). وجاء أيضاً: لا إيمان لمن لا أمانة له» (البحار ٧٢، ص ١٩٨). وجاء أيضاً: «الأمانة تجلب الغنى والخيانة تجلب الفقر» (البحار ٧٥، ص ١١٤).

أمر الإسلام بالصدق

يحث الإسلام في القرآن المؤمنين، لتحقيق إيمانهم، أن يكونوا في عداد الصادقين ليتلافوا غضب الله: «**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**» (التوبة، ١١٩). فالمؤمن الصالح هو المؤمن الصادق، وفي الآخرة، يوم الحساب، بشر الله الصادقين بنيل أجرهم الكبير جزاء صدقهم: «**قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم**» (المائدة، ١١٩). وقوله: «**ليجزي الصادقين بصدقهم**» (الأحزاب، ٢٤). ويضع القرآن الصادقين مع الصابرين على البلاء والقانتين المطيعين لربهم، والمنفقين أموالهم في سبيل الله، والمستغفرين الله من ذنوبهم، أولئك المؤمنون الذين لهم «**جنات تجري من**

تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله» (آل عمران، ١٥). هؤلاء هم: «**الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار**» (آل عمران، ١٧).

ويقول محمد رسول الله (ص): «إن الصدق يهدي إلى البرّ (العمل الصالح) وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» (البخاري ومسلم عن رياض الصالحين، ص ٣٩). ويقول: «ادفع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» (الترمذي، رياض الصالحين، ص ٣٩).

وأمر الإسلام بالإحسان

الإحسان هو عمل الخير للناس. ووجوه الإحسان عديدة كتعدد علاقات البشر: بالكلمة الطيبة، بالصدقة، بحسن الجوار، بالتجاوز عن الحقوق والمسامحة، بالعفو، بالمعاملة الحسنة، بالبر، بعيادة المريض، بصلة الأرحام... حتى بالابتسامة تتبسمها في وجه أخيك الإنسان. بذلك يقول رسول الله (ص): «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة» (الترمذي، بر، ٣٦).

فالقرآن يحض المؤمنين على أن يحسنوا للآخرين فيكون أجرهم عند الله الإحسان منه إليهم، لأنه يحب المحسنين: «**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**» (البقرة، ١٩٥). فكما أن الله قد أحسن للإنسان بما وهبه من خلقة حسنة، وما حباه من رزق وعافية وعقل و... فعلى الإنسان أن يحسن للآخرين وفاء لبعض إحسان الله عليه، يقول القرآن: «**وأحسن كما أحسن الله إليك**» (القصص، ٧٧). فالله يجزي المحسنين على إحسانهم ويزيدهم من فضله: «**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**» (يونس، ٢٦). كذلك يجزي الله المحسنين في هذه الدنيا حسنة ولهم في الآخرة أجرهم عند ربهم خير من

أجـــرهم فـــي هذه الدنيا. بذلك يقول القرآن الكريم: «**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير**» (النحل، ٣٠). ويقول: «**للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم**» (آل عمران، ٧٢).

وأمر الإسلام بالرفق بالحيوان

فـــالذي يرأف بالحيوان ينال أجره من الله. أما الذين يؤذون الحيوانات فســـينالون جـــزاء عملهـــم الدخول في نار جهنم. جاء في الحديث النبوي: «اركـــبوا هـــذه الدواب وادّعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطـــرق والأســـواق، فـــرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكر لله تبارك وتعالى منه» (كنز العمال ٢٤٩٥٧). وجاء أيضاً: «للدابة على صاحبها ست خصـــال: يعلفهـــا إذا نزل، ويعرض عليها الماء إذا مر به، ولا يضربها إلا على حق، ولا يحمّلها ما لا تطيق، ولا يكلفها من السير إلا طاقتها، ولا يقف عليها أفواقاً» (مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٥٠). وجاء في الحديث النبوي أيضـــاً: «مـــا من دابة ولا غيره يقتل بغير الحق إلا ستخاصمه يوم القيامة» (كـــنز العمال ٣٩٩٦٨). وجاء أيضاً: «إياي أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فـــإن الله تعـــالى إنمـــا سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس» (كنز العمال ٢٩٣٥).

وجـــاء في الحديث النبوي: «دخلت امرأة النار في هرة، حبستها، فلم تطعمهـــا ولـــم تسقها ولم ترسلها فتأكل من خشاش الأرض» (بخاري، باب رحمة الناس والبهائم).

وجاء أيضاً: «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش فوجد بئراً فـــنزل فيها فشرب، ثم خرج. فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش. فقال الـــرجل: لقـــد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي. فسقى الكلب فشكر الله له. فغُفر لـــه.

قالــوا يا رسول الله: وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر» (رواه مسلم ٢٢٤٤) (بخاري، باب رحمة الله بالبهائم).

وجــاء أيضــاً: «أن امرأة بغيّاً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر. قد ادلــع لسانه من العطش، فنزعت له (انتشلت له الماء) بموقها (بخفها) فغُفر لها» (مسلم ٢٢٤٥).

أمر الإسلام بإجارة المستجير

المســتجير هو من يطلب الحماية من خطر يلم به أو من عدو يتهدده. فــيحث القــرآن علــى إجــارة المستجير حتى لو كان من المشركين أعداء الإسلام: «**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره**» (التوبة، ٦).

حرّم الإسلام النميمة والغيبة والتجسس

فالــنمّام هو من ينقل الحديث قاصداً الوشاية بين شخص وآخر. فيوقع بيــنهما العداوة والبغضاء اللتين تؤديان إلى الخصومة والشقاق. بذلك جاءت وصــية محمد رسول الله: «إياكم والنميمة ونقل الحديث» (كنز العمّال ٨٣٥٤). وقــوله: «إن النميمة والحقد في النار لا يجتمعان في قلب مسلم» (الترغيب والترهيب، ص ٤٩٨). وقوله: «من سعى بأخيه إلى سلطان أحبط الله عمله كله، وإن وصل إليه مكروه أو أذى جعله الله مع هامان في درجة من النار» (كنــز العمــال ٧٥٤٥). وقــوله: «لا يدخل الجنة نمّام» (البخاري ومسلم، ريــاض الصــالحين ٥٤٢). بذلك يقول القرآن: «**ولا تطع كل حلاّف مهين، همّاز** (مغتاب) **مشّاء بنميم**» (القلم، ١٠-١١).

والغيبة هي أن تتحدث عن الناس في غيابهم بما لا يرضيهم. فتكشف مكامن النقص فيهم، وتطلع الناس على ذلاتهم.

والتجســس هو أن تسعى لتطّلع على عورات الناس وما يسترونه من أمورهم الخاصة، وتكشف سترهم.

بـذلك يقـول القـرآن: «**ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحـدكم أن يأكـل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه. واتقوا الله إن الله تواب رحيم**» (الحجرات، ١٢). فصوّر القرآن المتجسس والمغتاب بأبشع الصور المقززة للنفوس، صورة إنسان يأكل لحم أخيه الإنسان وهو ميت.

ويقـول رسـول الله: «إنا قد نهينا عن التجسس. من رأى عورة أخيه فسـترها كان كمن أحيا موؤودة» (أبو داوود ٤٨٩٠). وقال أيضاً: «إن في تتبع عورات الناس إفساداً لهم» (أبو داوود ٤٨٨٨).

ولمـن سأل الرسول، إذا قلت بما في الرجل فهل أكون اغتبته؟ يجيبه بقـوله: «إذا قلت بما فيه فقد اغتبته، وإذا قلت بما ليس فيه فقد بهتّه» (مسند أحمد ٣/٢٣٠ ومسلم، بر، ٧٠).

ولمـن سـأله: «يـا رسـول الله أي المسلمين أفضل؟ قال: من سلم المسـلمون من لسانه ويده» (بخاري ومسلم، رياض الصالحين، ص ٥٣٣). ولمـن سـأله، مـا أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا» (الترمذي، رياض الصالحين، ٥٣٤).

وعـن النبـي أنـه قال: «يا أبا ذر، إياك والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنـى... قلـت: يـا رسول الله، وما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره» (البحار ٧٧، ص ٨٩). وفي تعريف للغيبة قال: «أن تذكر الرجل بما فيه من خلفـه» (كنز العمال ٨٠١٤). وقال: «من اغتيب عنده أخوه المسلم فاستطاع نصـره ولـم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة. وقال: كفارة الاغتياب أن تستغفر لمن اغتبته» (البحار ٧٥، ص ٢٥٣).

حرّم الإسلام الظلم

يقـول القرآن: «**ويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم**» (الزخرف، ٦٥). ويقـول: «**إنـه لا يفلح الظالمون**» (الأنعام، ٢١). ويقول: «**ولا تحسبنّ الله**

غافلاً عما يعمل الظالمون» (إبراهيم، ٤٢). ويقول: «**والظالمون ما لهم من ولـــي ولا نصـــير»** (الشورى، ٨). ويقول: «**فقطع دابر القوم الذين ظلموا»** (الأنعام، ٤٥). ويقول: «**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»** (الشعراء، ٢٢٧).

نرى في هذه الآيات تهديداً شديداً للظالمين، وتخويفاً لهم من نار جهنم وســـوء المصير. فالله ليس بغافل عما يعمل الظالمون، وهو سوف يحاسبهم على ظلمهم، ويقطع دابرهم وسوف لا يكون لهم في الآخرة ولي ولا نصير يمنعهم من عقاب يوم الحساب.

وجاء في الحديث النبوي: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» (رواه مســـلم). وجاء في الحديث أيضاً محذراً للظالمين: «اتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» (البخاري ومسلم). ويحذرهم الرسول بقوله: «إن الله يعـــذّب الـــذين يعذبـــون الناس في الدنيا» (مسلم ٢٦١٣). ويصور القـــرآن الموقف يوم الدينونة: «**وعنت الوجوه للحي القيوم وخاب من حمل ظلماً»** (طه، ١١١). ويقول: «**هل يهلك إلا القوم الظالمون»** (الأنعام، ٤٧).

دعا الإسلام إلى عدم الرضوخ للظلم

كمـــا حـــرّم الإســـلام الظلـــم دعـــا الناس إلى عدم الركون للظالمين والاستســـلام لظلمهم. جاء في القرآن: «**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار»** (هود، ١١٣). فالركون إلى الظلم والرضوخ للظالمين، وعدم مقاومتهم يعتبر خطيئة تكسب الإنسان الذل في الدنيا وعذاب النار في الآخرة. فالظالم فـــي نـــار جهـــنم، والراكن لظلمه يلقى عذابها أيضاً. فالله عز وجل يحاسب المستضعفين المستسلمين لجور الظالمين، إذ على المؤمن أن يدفع الظلم عن نفسه وعن مجتمعه. يقول القرآن الكريم: «**إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفســـهم، قالـــوا فيمَ كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن**

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً» (النساء، ٩٧). فملائكة الله التي تتوفى أنفس الناس عند الموت، وتأخذ كل إنسان إلى مصيره، تسأل هؤلاء الذين كان مصيرهم إلى النار وفق الحكم الإلهي: ماذا ارتكبتم من المعاصي، وماذا فعلتم من السيئات حتى استحقيتم عذاب النار، وظلمتم أنفسكم بأعمالكم التي عملتم في حياتكم الدنيا؟ فيجيب هؤلاء للملائكة أن جريمتهم أنهم كانوا مستضعفين في الأرض، ورضوا بهذا الاستضعاف، ولم يثوروا على ظالميهم لعدم استطاعتهم مقارعة ظالميهم الأقوياء. فيسألهم الملائكة: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها إلى أرض غير أرض الظالمين، تعيشون فيها عيشة الحرية والكرامة؟ هؤلاء الذين ركنوا للظلم ورضوا بالاستضعاف مأواهم جهنم وساءت مصيراً. يستثني الله فئة من هؤلاء بقوله: «**إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً**» (النساء، ٩٨). فهؤلاء لم يتأكد العفو عنهم بل عسى أن يكون ذلك: «**فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم. وكان الله عفواً غفوراً**» (النساء، ٩٩).

ويشجع الله الذين يقاومون الظلم بما استطاعوا، بقوله: «**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق. أولئك لهم عذاب أليم**» (الشورى، ٤١ و٤٢).

وجاء في الحديث النبوي: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» (البخاري ومسلم). ويقول الحديث النبوي أيضاً: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يصيبهم الله بعقاب منه» (أبو داوود والترمذي والنسائي، عن رياض الصالحين، ص ١٠٥). ويشجع رسول الله محمد على التجرؤ بقول الحق أمام الحاكم الظالم بقوله: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (مسند أحمد ٣، ص ١٩ و٦١. والنسائي بيعة، والترمذي، فتن ١٣).

وجـــاء في الحديث القدسي عن رب العالمين: «إنه ليس من عبد يعين مظلومـــاً أو يمشـــي معه في مظلمته إلا أثبت قدمه يوم تزل الأقدام» (الدر المنثور، ج ٢، ص ٢٥٥).

حرّم الإسلام البَغْي

البَغْـــي هو التعدي، والعدول عن الحق، والاستطالة على الناس. يقول القـــرآن: «**وإن طائفـــتان مـــن المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. ولا تعتدوا إن الله لا يحـــب المعتديـــن**» (المـــائدة، ٨٧). فالله تعالى يأمر بالإصلاح بين الناس المتخاصـــمين. لكنه لا يحب المعتدين الباغين، فيأمر بقتالهم حتى يفيئوا إلى الحـــق ويـــرجعوا عـــن بغيهم. ويقول: «**يا أيها الناس بَغْيكم على أنفسكم**» (يونس، ٢٣). أي أن الذي يبغي على الناس سوف ينال عقاب بغيه من الله: «**إن الله يأمـــر بـــالعدل والإحســـان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**» (النحل، ٩٠).

ويقـــول رســـول الله: «لو بغى جبل على جبل لجعله الله دكاء، أعجل الشر عقوبة البغي» (الوسائل، ج ١١، ص ٣٣٤). ويقول: «إن أسرع الخير ثواباً البر، وإن أسرع الشر عقاباً البغْي» (البحار ٧٥، ص ٢٧٤).

ويدعـــو الله الـــناس إلى عدم السكوت عن البغي والرضوخ لـــه، بل يقتضـــي التمرد على البغاة ومقارعتهم والانتصار عليهم: «**والذين إذا مسهم البغي هم ينتصرون**» (الشورى، ٣٩). فقوله تعالى «هم ينتصرون» قصد بها المســـؤولية الشخصـــية يتحملها الإنسان عن محاربة البغي والبغاة، يقوم بها بنفسه. لأن الله عز وجل يقول: «**حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق**» (الأعراف، ٣٣).

حرّم الإسلام الإسراف والتبذير والبخل

يقول الله في القرآن الكريم: «**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين**» (الأعراف، ٣١). ويقول: «**وآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذِّر تبذيراً، إن المبذِّرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفوراً**» (الإسراء ٢٦ و٢٧). فالله عز وجل ينعت المبذرين بأقسى النعوت، حيث يجعلهم إخوان الشياطين، والشيطان كافر بربه، فالمبذر ـ وفق الآية ـ هو كافر بالله كالشيطان.

وكما يحرّم الإسلام الإسراف والتبذير يحرّم البخل والتباخل. جاء في آي القرآن: «**وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون**» (التغابن، ١٦). أي من يسيطر على داء البخل في نفسه، وينفق مما رزقه الله من المال على ذوي قرباه والفقراء والمساكين وسائر الفئات المحتاجة من أعضاء المجتمع يكون له الأجر والفلاح عند الله تعالى. لأنه: «**ها أنتم هؤلاء تُدعَون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء**» (محمد، ٣٨). فالله عز وجل يدعو الناس للإنفاق في سبيله، ليس لأن الله محتاج ليعطوا خلقه مساعدة له في ذلك، فالله هو الغني المستغني عن إنفاقكم، وكما رزقكم فهو قادر أن يرزق جميع عباده. «**ولكن ليبلوكم في ما آتاكم**» (المائدة، ٤٨). فيكون ذلك فرصة من الله لتكسبوا الأجر والثواب عنده تعالى، أو لتنالوا غضبه ببخلكم.

وجاء في الحديث النبوي: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق» (الترمذي، بر، ٤١).

وجاء أيضاً: «البخيل بعيد عن الله، بعيد عن الجنة، بعيد عن الناس» (الترمذي، بر، ٤٠).

وقال رسول الله منددا بالبخل والبخلاء: «وأي داء أدوأ من البخل» (بخاري، خمس، ١٥).

وقـال: «الجاهـل السـخي أحب إلى الله من عابد بخيل» (الترمذي، بر، ٤٠).

وقـال: «لا يدخل الجنة خَبّ (خدّاع) ولا بخيل ولا منان» (الترمذي، ٤١).

فالله تعالى يصف المؤمنين الصادقين بقوله أنهم إذا أنفقوا: «**لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**» (الفرقان، ٦٧).

وجاء في الحديث تشجيعاً للناس على الكرم والعطاء: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً، ومن يسـتعفف يعفّـه الله، ومـن يستغنِ يغنه الله» (البخاري ومسلم عن رياض الصالحين، ص ٢٤٠). وفي حديث آخر: «اليد العليا خير من السفلى، واليد المـنفقة هي العليا، واليد السفلى هي السائلة» (البخاري، رياض الصالحين، ص ٢٤٤).

وجاء في الحديث عن إكرام الضيف: «إذا أتاكم الزائر فأكرموه» (كنز العمال ٢٥٤٨٥).

وجاء أيضاً: «من أكرم أخاه فإنما يكرم الله» (كنز العمال ٢٥٤٨٨).

حرّم الإسلام الاحتكار

الاحـتكار هو تخبئة السلع حتى تُفقد من السوق ويغلو ثمنها. فالإسلام حـرّم الاحتكار بغرض رفع الأسعار وإرغام الناس على دفع ثمن حاجاتهم بأسـعار جائرة. قال رسول الله (ص): «لا يحتكر إلا خاطئ» (صحيح مسلم ١٦٠٥). وقـال: «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» (الدارمي، بيوع، ٢٤٩). وقال: «من احتكر حكرة يريد أن يغلي بها على المسلمين فهو خاطئ» (مسند أحمـد، ج ٢، ص ٣٥١). وقال: «المحتكرِ في سوقنا كالملحد في كتاب الله» (كنـز العمال ٩٧١٧). وقال: «يحشر الحكّارون وقتلة الأنفس إلى جهنم في

درجة» (كنز العمال ٩٧٣٩). وقال: «بئس المحتكر، إن أرخص الله الأسعار حزن، وإن أغلاها الله فرح» (كنز العمال ٩٧٢٥).

حرّم الإسلام النفاق

المـــنافق هو من كتم ما يؤمن به في قلبه، وأظهر عكسه بلسانه، إخفاء وتمـــويهاً لحقـــيقة أمـــره. فهو ذو وجهين ولسانين، مخادع، يظهر عكس ما يـــبطن، كـــذوب اللسان، يغش الناس في حديثه وتعامله، يظهر الودّ وهو ألدّ الخصـــام. بعـــيد عن الصدق بعده عن النية الحسنة. فالقرآن يهدد المنافقين ويتوعدهم بنار جهنم وسوء المصير: «**وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نـــار جهـــنم**» (التوبة، ٦٨). فعادل الله بين الكفر والنفاق، فالكافر والمنافق كلاهما في نار جهنم.

فـــالله يحـــب الصـــادقين ويعـــدهم بالجزاء الحسن. فيوم القيامة، عند الحســـاب، ينتفع الصادقون بصدقهم: «**يوم ينفع الصادقين صدقهم**» (المائدة، ١١٩). لـــذلك يدعو الله المؤمنين ليبتعدوا عن النفاق ويكونوا مع الصادقين: «**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**» (التوبة، ١١٩). وذلك: «**ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء**» (الأحزاب، ٢٤). ويهدد الله المنافقين، مخاطباً نبيه بقوله: «**بشّرِ المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً**» (النســـاء، ٣٨). ويشـــدد الله فـــي عذاب المنافقين فيجعلهم في أسفل درجات جهنم: «**إن المنافقين في الدّرْك الأسفل من النار**» (النساء، ١٤٥).

ويعـــرف محمد رسول الله (ص) المنافق بقولـــه: «آية المنافق ثلاث: إذا حـــدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» (الترغيب والترهيب، ج ٤، ص ٩). ويقـــول أيضاً في تعريف المنافق: «من خالفت سريرته علانيته فهـــو مـــنافق كائناً من كان» (البحار ٧٣، ص ٢٠٧). وقال: «خصلتان لا تكـــونان في منافق، حسن سمعة وفقه في الدين» (كنز العمال ٧٧٦). وقال

مخاطباً الناس: «أخاف عليكم منافقاً عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويعمل بما تنكرون» (كنز العمال ٢٩٠٤٦)، ويصف المنافق بأنه شر الناس بقوله: «شر الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» (مسلم ٢٥٢٦).

حرّم الإسلام الفتنة

الفتنة هي كل عمل أو قول يوقع الخصام بين الناس ويؤدّي إلى الشقاق أو البغضاء والتقاتل بين الناس. فيصور الله في القرآن فظاعة الفتنة بأنها أكبر وأشد من جريمة القتل بقوله: «**والفتنة أكبر من القتل**» (البقرة، ٢١٧). ويقول: «**الفتنة أشد من القتل**» (البقرة، ١٩١).

ويقول الرسول (ص) محذراً من الفتنة: «إياكم والفتن، فإن اللسان فيها مثل وقع السيوف» (ابن ماجه، فتن ١٢). ويقول: «لا تكن فتّاناً ولا مختالاً» (مسند أحمد ٨٧/١).

حرّم الإسلام وأد الأولاد

وأد الأولاد أي دفنهم أحياء. وكان من عادة العرب في الجاهلية قبل الإسلام دفن أولادهم أحياءً للتخلص من مؤونتهم، وخاصة منهم البنات للتخلص من عارهن. فجاء الإسلام يحرِّم عليهم هذا الجرم الفظيع. بذلك يقول الله في القرآن ناهياً محذراً: «**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** (فقر شديد) **نحن نرزقهم وإياكم. إن قتلهم كان خطئاً كبيراً**» (الإسراء، ٣١). ويقول: «**قد خسر الذين قتلوا أولادهم بغير علم**» (الأنعام، ١٤٠). ويقول مهدداً لهم بعذاب جهنم يوم القيامة: «**وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت**» (التكوير، ٨).

حرّم الإسلام الغدر

جاء في الحديث النبوي: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه

ولـــم يعطـــه أجـــره» (البخاري ومسلم عن رياض الصالحين، ص ٥٦٤). وجـــاء أيضاً: «إن لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال هذه غدرة فلان» (مسلم، بـــاب تحـــريم الغـــدر، ١٧٣٦). وجاء أيضاً: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصـــاً، ومـــن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» (البخاري ومسلم، رياض الصالحين، ص ٥٦٤). ويقول الإمام علي: «الوفاء لأهل الغدر غدر عـــند الله. والغـــدر بأهـــل الغـــدر وفـــاء عـــند الله» (شرح النهج، ج ١٩، ص ١٠٢).

حرّم الإسلام الحسد

يقـــول رب العالمـــين في القرآن: «**قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلـــق... ومـــن شر حاسد إذا حسد**» (الفلق). فالحاسد يضمر الأذى للناس، فيأمـــر الله الناس أن يستعيذوا بالله من شره. وجاء في الحديث النبوي: «لا تباغضـــوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» (مسلم ٢٥٥٩). وجـــاء أيضـــاً: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» (الـــبحار ٧٣، ص ٢٥٢). وجاء أيضاً: «إذا حسدت فلا تبغِ» (البحار ٧٧، ص ١٥٣).

حرّم الإسلام الغش

يقـــول الرسول محمد: «من باع عيباً لم يبيّنه لم يزل في مقت الله ولم تـــزل الملائكة تلعنه» (كنز العمّال ٩٥٠١). ويقول: «لا يحل لمسلم إذا باع أخاه بيعاً فيه عيب أن لا يبيّنه» (مسند أحمد وابن ماجه والطبراني والحاكم). وقـــال الإمـــام علـــي: «شر الناس من يغش الناس» (غرر الحكم، التفسير المعين).

حرّم الإسلام الفحش في الكلام

يقول رسول الله: «الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها» (كنز العمّال ٨٠٨٥). ويقـــول: «إن الله حرّم الجنة على كل فاحش بذيء قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل لـــه» (البحار ٧٩، ص ١١٢). ويقول: «إن من شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه» (كنز العمال ٨٠٨٢). ويقول: «إذا نسبك رجل بما يعلم منك فلا تنسبه بما تعلم منه، فيكون أجر ذلك لك ووباله عليه» (كنز العمال ٨٠٨٦). ويقول: «إن الله يحب الحيي المتعفف، ويبغض البذيء السائل الملحف» (البحار ٧٩، ص ١١).

حرّم الإسلام المداهنة

جـــاء فـــي الحديـــث القدسي: «أوصى الله إلى شعيب، أني معذب من قومـــك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم. فقال: يا رب هـــؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي فلم يغضبوا لغضبي. (مشكاة الأنوار، ص ٥١).

ويقـــول الإمـــام علـــي: «شـــر إخوانك من داهنك في نفسك وساترك عيـــبك». ويقـــول: «إنما سمي العدو عدواً لأنه يعدو عليك، فمن داهنك في معايبك فهو العدو» (غرر الحكم عن التفسير المعين، ص ٥٣٧).

حرّم الإسلام الطمع

جاء في الحديث النبوي: «تعوّذوا بالله من طمع يهدي إلى طمع، ومن طمـــع يهـــدي إلى غير مطمع» (كنز العمال ٨٥٨٤). وجاء أيضاً: «الطمع يذهـــب الحكمة من قلوب العلماء» (كنز العمال ٧٥٧٦). ويقول الإمام علي: عـــبد المطـــامع مســـترقّ لا يجد أبداً العتق» (غرر الحكم، التفسير المعين، ص ٥٧٥).

حرّم الإسلام سوء الظن

يقــول تعالى في القرآن: «**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم**» (الحجرات، ١٢). ويقول: «**إن الظنّ لا يغني من الحق شــيئاً**» (يونس، ٣٦). ويقول في الذين يتبعون الظن ويبنون أحكامهم عليه: «**إن يتّبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون**» (يونس، ٦٦). أي يبنون حكمهم كذباً على الظن والتخمين.

ويقــول رســول الله: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» (مسلم ٢٥٦٣).

حرّم الإسلام الخيانة

جاء في القرآن: «**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أمانــاتكم وأنــتم تعلمــون**» (الأنفال، ٢٧). وجاء: «**ولا تجادلوا في الذين يخــتانون أنفسهم**» (النساء، ١٠٧). وجاء: «**إن الله لا يهدي كيد الخائنين**» (يوسف، ٥٢). وجاء أيضاً: «**إن الله لا يحب كل خوان كفور**» (الحج، ٣٨). فقــرن الله الخــيانة بالكفر ووصم الخوّان بالكافر. «**إن الله لا يحب من كان خوّانــاً أثيماً**» (النساء، ١٠٧). ويصف هنا الخائن بالأثيم. فالخيانة هي وفق هذه الآيات إثم يعادل الكفر بالله.

وقال رسول الله: «إفشاء سر أخيك خيانة، فاجتنب ذلك» (البحار ٧٧، ص ٨٩). وقــال: «لا تخن من خانك تكن مثله» (البحار ١٠٣، ص ١٧٥). وقــال: «أربع لا تدخل بيتاً واحدة منهن إلا خرب ولا يعمر بالبركة: الخيانة والسرقة وشرب الخمر والزنى» (البحار ٢، ص ٥٠٥).

نهى الإسلام عن الغرور

جــاء فــي القرآن: «**إنِ الكافرون إلا في غرور**» (الملك، ٢٠). وجاء أيضاً: «**فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغَرور**» (الشيطان). وجاء: «**وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا**» (الأنعام، ٧٠).

وقـــال رسول الله: «يا ابن مسعود، لا تغترّنّ بالله ولا تغترّنّ بصلاتك وعملك وعبادتك» (البحار ٧٧، ص ١٠١). ويقول الإمام علي: «سكر الغفلة والغـــرور أبعـــد إفاقة من سكر الخمور» (غرر الحكم عن التفسير المعين، ص ٧٤).

نهى الإسلام عن سيطرة الغضب على المسلم

جـــاء فـــي الحـــديث النـــبوي الشريف: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع» (الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٤٥٠). ويخاطـــب النبـــي علياً بقوله: «يا علي لا تغضب، فإن غضبت فاقعد وتفكّر في قدرة الله على العباد وحلمه عنهم. وإذا قيل لك اتقِ الله فانبذ غضـــبك، وراجع حلمك» (تحف العقول، ص ١٨). وجاء في الحديث: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ» (الترغيب والترهيب ٣، ص ٤٥٢).

نهى الإسلام عن الضجر والكسل

جاء في الحديث الشريف: «إياك وخصلتين: الضجر والكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق، وإن كسلت لم تؤدِ حقاً» (البحار ٧٧، ص ٤٨).

نهى الإسلام عن الاستعطاء والشحاذة

قـــال رسول الله: «ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده» (الـــبخاري ٢٤٥). وقال: «لئن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة مـــن حطـــب على ظهره فيبيعها فيكفّ الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» (البخاري ٢٤٤). وقال: «أطيب الكسب عمل الرجل بيده» (كنز العمال ٩١٩٦).

نهى الإسلام عن القنوط (اليأس) وفتح باب التوبة

يقـــول تعالى في القرآن: «**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقـــنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم**»

(الزُمــر، ٥٣). يخاطــب الله الــذين أسرفوا على أنفسهم بارتكاب الخطايا والذنــوب، ويدعوهم ألا ييأسوا من رحمة الله وغفرانه، فالله الغفور الرحيم يغفــر لمــن تاب إليه جميع خطاياه وذنوبه. أما الذين يقنطون من رحمة الله وعفــوه فليسوا إلا الناس الضالين. «**ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون**» (الحجر، ٥٦).

بذلك قال رسول الله: «الفاجر الراجي لرحمة الله تعالى أقرب منها من العابــد القــانط» (كنز العمال ٥٨٦٩). وقال: «ليس أحب إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة» (البحار ٦، ص ٢١). وقال: «من تاب تاب الله عليه، وأمــرت جــوارحه أن تســتر عليه، وبقاع الأرض أن تلتئم عليه، وأنسيت الحفظة ما كانت تكتب عليه» (كنز العمال ١٠٧٩).

حرّم الإسلام العصبية

وهــي تعصّــب الإنســان لبنــي قومه أو دينه أو عرقه أو مذهبه أو عشيرته، بحيث يرى شرار جماعته خير من خيار القوم الآخرين. وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم. يقــول الرسول: «، كان في قلبة حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة في أعراب الجاهلية» (الكافي ٢، ص ٣٠٨). ويقول: «خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم» (أبو داوود ٥١٢٠). ويقول: «ليس منا من دعى إلى عصبيّة» (أبو داوود ١١٢).

نهى الإسلام المسلم عن تصويب السلاح إلى أخيه ممازحاً

قــال رسول الله: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشــيطان ينــزغ في يده فيقع في حفرة من النار» (رياض الصالحين، ص ٦٢٢ عــن الــبخاري ومســلم). قيل هذا القول قبل اختراع السلاح الناري بحوالى التسعة قرون، ليصدق على عصر البارود أيما صدق.

أمر الإسلام بالتراحم بين الناس

وسمى الله تعالى نفسه بالرحمن الرحيم. ويقول القرآن: «**كتب ربكم على نفسه الرحمة**» (الأنعام، ٥٤). ويقول: «**وربك الغني ذو الرحمة**» (الأنعام، ١٣٣). ويقول: «**ربكم ذو رحمة واسعة**» (الأنعام، ١٤٧). ويقول: «**رحمتي وسعت كل شيء**» (الأعراف، ١٥٦). ويقول: «**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**» (البقرة، ١٤٣). وقد ذكر فعل رحم ومشتقاته في القرآن ٣٤٦ مرة تأكيداً على رحمته بالناس. وهو يحض الناس على التراحم فيما بينهم لتكون العلاقات الإنسانية قائمة على التراحم.

ويقول رسول الله: «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» (بخاري ومسلم، رياض الصالحين، ص ٢٧). ويقول: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (ترمذي، ١٦ وأبو داوود، أدب، ٥٨).

نهى الإسلام عن الثرثرة والتقعير في الكلام

جاء في الحديث النبوي: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً. وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» [الثرثار: كثير الكلام تكلفاً وبلا لزوم. والمتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه. والمتفيهق: الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه ويعرب به تكبراً وتعالياً وإظهاراً لفضله على غيره] (رواه الترمذي، عن رياض الصالحين، ص ٦٠٩).

أمر الإسلام بعيادة المريض

دعا الإسلام الناس لعيادة المرضى، لما في ذلك من مواساة لهم وتخفيف من آلامهم. ووعد زائر المريض بالأجر والثواب عند الله كعمل

صالح يقوم به لتقريب القلوب بين الناس من أجل تلاحم المجتمع وتراحم الناس فيما بينهم.

جاء في الحديث الشريف: «إذا عاد الرجل المريض خاض الرحمة» (موطأ مالك، عين، ١٧).

وجاء أيضاً: «من عاد مريضاً مشى في خراف الجنة. فإذا جلس عنده استنقع في الرحمة، فإذا خرج من عنده وكِّل به سبعون ألف ملك يستغفرون له ذلك اليوم» (مسند أحمد ١٣٨/١).

وجاء أيضاً: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده. أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده» (مسلم ٢٥٦٩، دار التراث، بيروت).

أمر الإسلام بالبرِّ

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: «**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**» (المائدة، ٢). وقوله: «**وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون**» (المجادلة، ٩). وقوله: «**ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**» (البقرة، ١٧٧).

وجاء في الحديث النبوي: «إن أسرع الخير ثواباً البرّ، وأسرع الشر عقاباً البغي» (البحار ٧٥، ص ٢٧٣). وجاء: «فوق كل ذي برّ برّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله فليس فوقه برّ» (البحار ٧٤، ص ٦١). وجاء أيضاً: «تمام البر أن تعمل في السر عمل العلانية» (كنز العمال ٥٢٦٥).

أمر الإسلام بمداراة الناس

قال رسول الله: «أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض» (الوسائل ٨، ص ٥٤٠). وقال: «ثلاثة من لم تكن فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يرد به جهل الجاهل» (البحار ٧٥، ص ٤٣٧).

أمر الإسلام بالتقوى

جاء في القرآن الكريم: «**من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين**» (آل عمران، ٧٦). وجاء أيضاً: «**فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى**» (الليل، ٥-٧). وجاء: «**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**» (النحل، ١٢٨). وجاء: «**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد**» (الحشر، ١٨). وقد ذكر في القرآن فعل اتقى ومشتقاته ٢٤٢ مرة، من أجل حضّ الناس على تقوى الله.

ويقول محمد رسول الله (ص): «كن بالعمل بالتقوى أشد منك اهتماماً بالعمل بغيره، فإنه لا يقل عمل بالتقوى، وكيف يقل عمل بتقوى الله عز وجل. إنما يتقبّل الله من المتقين» (كنز العمال ٨٥٠١).

أمر الإسلام بالحياء

يقول الرسول: «إن الحياء من الإيمان» (البخاري ومسلم عن رياض الصالحين، ص ١٩٠). ويقول: «الحياء لا يأتي إلا بخير» و«الحياء خير كله». «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من شعب الإيمان» (البخاري ومسلم، رياض الصالحين، ص ٢٩٠). وقال: «لم يبق من أمثال الأنبياء إلا قول الناس: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت» (البحار ٧١، ص ٣٣٣). ويقول: «أما الحياء فيتشعب منه اللِّين، والرأفة، والمراقبة في السر والعلانية، والسلامة، واجتناب الشر، والبشاشة، والسماحة، والظفر، وحسن الثناء على المرء. فهذا ما أصاب العاقل بالحياء. فطوبى لمن قبل

نصيحة الله وخاف فضيحته» (تحف العقول، ص ٢٠). ويقول: «ليستحِ أحدكم من ملكيه اللذين معه كما يستحي من رجلين صالحين من جيرانه، وهما معه بالليل والنهار» (كنز العمال ٥٧٥١).

دعا الإسلام إلى الغيرة

قال رسول الله (ص): «إن الله يحب من عباده الغيور» (كنز العمال ٧٠٧٠). وقال: «كان إبراهيم أبي غيوراً وأنا أغْيَرُ منه، وأرغم الله أنف من لا يغار من المؤمنين» (البحار ١٠٣، ص ٢٤٨). وقال: «إن الله ليبغض الرجل يُدخل عليه في بيته فلا يقاتل» (كنز العمال ٧٠٧٤). وقال: «إن الجنة ليوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجدها عاق ولا ديّوث. قيل يا رسول الله: ما الديّوث؟ قال: الذي تزني امرأته وهو يعلم بها» (من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٢٨١). عن التفسير المعين، ص ٥٦٠).

أمر الإسلام بالاستقامة

جاء في آي القرآن: «**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**» (فصّلت، ٣٠). وجاء أيضاً مخاطباً رسول الله: «**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك، ولا تَطغوا، إنه بما تعملون بصير**» (هود، ١١٢).

ولمن سأل رسول الله محمد (ص): يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به. قال: «قل ربي الله ثم استقم» (كنز العمال ٣٦٥٢٤، والترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٥٢٧). وقال: «من لزم الاستقامة لزمته السلامة» (البحار ٧٨، ص ٩١).

أمر الإسلام بالمروءة

قال رسول الله (ص): «ليس من المروءة الربح على الأخوان» (كنز العمال ٧١٧٦). قال: «تجاوزوا لذوي المروءة عثراتهم. فوالذي نفسي بيده

إن أحدهم ليعثر وإن يده لفي يد الله» (كنز العمال ١٢٩٧٤). عن جابر قال: قال رسول الله لرجل من ثقيف: «يا أخا ثقيف ما المروءة فيكم؟ قال: يا رسول الله الإنصاف والإصلاح. قال: وهي كذلك فينا» (كنز العمال ٨٧٦٢). وقال الإمام علي: «على قدر شرف المرء تكون المروءة» (غرر الحكم). وقال عندما سأله أحدهم عن المروءة: «لا تفعل شيئاً في السر تستحي منه في العلن» (تحف العقول، ص ١٠٦).

أمر الإسلام بالعفة والتعفف

قال رسول الله: «أحب العفاف إلى الله تعالى البطن والفرج» (تنبيه الخواطر، ص ٢٨٢). وقال: «إن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أب العيال» (سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ٨٠٩). وقال: «إن الله يحبّ الحيي المتعفف ويبغض البذيء السائل الملحف» (البحار ٧١، ص ٢٧٠). وقال: «عفّوا عن نساء الناس تعف نساؤكم» (البحار ٧١، ص ٢٧٠).

* * *

إن هذه المواضيع التي مرّ ذكرها، وإن لم نجد لها نصاً في توراة موسى وأناجيل المسيح الأربعة، أي في أصول الوحي الإلهي، فقد تعرض لبعضها لاهوتيو المسيحية واليهودية. ولما كان بحثي في هذا الكتاب يقتصر على المقارنة بين النصوص الدينية الأصلية، بعيداً عن الدخول في خضم آراء علماء الكلام، وعلماء اللاهوت، والفقهاء، والفلاسفة، التي تراكمت في كل دين حتى كاد الأصل الإلهي أن يضيع بين ما أنتجته عقول أتباع كل دين من تفاسير واجتهادات، فقد تحاشيت الخوض في ما هو من نتاج العقل البشري ابتغاء البعد عن التعقيد وتضارب الآراء وإدخال القارئ في متاهات لا أريد زجّه فيها، واقتصر بحثي على النصوص المثبتة في الكتب السماوية لما تمتاز به من الوضوح وسلامة النص الإلهي.

الفصل الخامس

الفارق في أسلوب الدعوة بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة

دعوة النبي موسى عليه السلام

أمر موسى الناس بالقتال من أجل إقامة دين التوحيد. فلكي يقوم المجتمع الموحد لا بد من أرض يقوم عليها، ودولة تطبق الشريعة، وتحفظ النظام وترعى شؤون الناس. ولما لم يكن هنالك أرض بلا ناس، فقد حرّض موسى على قتال المشركين عبدة الأوثان، وتحطيم أوثانهم ومعابدهم. كما حرّض على سفك دمائهم، وشجّع شعبه على القتال من أجل احتلال أرضهم التي تدر «لبناً وعسلاً».

من أجل ذلك يشك الناس في عصرنا بنبوة موسى، ومن بعده تلميذه يشوع، إذ يلاحظون الفرق الكبير بين رسالة المسيح الذي جاء داعياً إلى المحبة والسلام ومنتهى التسامح والغفران «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم...» (متى ٥/٤٤). «كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (متى ٣٦/٥٢) وبين رسالة محمد الذي يقول القرآن فيه: «**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**» (سورة الأنبياء، ١٠٧). والذي يقول في تعاليمه النبوية: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (الترمذي، بر، ١٦. أبو داوود، أدب، ٨). وقد ذكر فعل رحم ومشتقاته في القرآن ثلاثمائة وتسعاً وثلاثين مرة. والمسلمون يستفتحون في بداية كل عمل باسم الله الرحمن الرحيم. وهذه الآية تُستفتح بها

ســور القرآن، وقد ذكرت فيه مائة وأربعة عشرة مرة. حتى لقب محمد بأنه رسول الرحمة. ولقب الإسلام بأنه دين الرحمة. ففي رسالة موسى ومن بعده مــن أنبياء بني إسرائيل، الذين قاموا بالحروب المدمرة ضد سكان فلسطين، وارتكبوا فيها من المجازر البشرية؛ من قتل وأسر وهدم وتهجير، ما تقشعر له أبدان قرّاء التوراة في عصرنا.

فعــند دخــولهم إلى أريحا، مثلاً، «حرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف. عدا الزانية التــي آوت الجاسوســين الإسرائيليين، وأباها وأمها، وكل مالها، بناء لأمر يشــوع، الذي أمرهم، بعد ذلك، بحرق المدينة مع كل ما فيها» (يشوع ٦: ٢١). وكــذلك فعــل يشوع في عاي، حيث أحرقها وجعلها تلاً أبدياً خراباً، بعد أن ذبــح اثنــي عشر الفاً، هم جميع سكان عاي» (يشوع ٨: ٢٥-٢٨). وكذلك فعلوا بحاصور، «وخربوا كل نفس فيها بحد السيف، حرّموها ولم تبقَ نسمة، وأحرق حاصور بالنار» (يشوع ١١: ١١-١٢). وهكذا في بقية حروبهم مع سكان فلسطين.

كــان بــنو إســرائيل، فــي تلك المرحلة البدائية، قبيلة واحدة، ينتمي جمــيع أفــرادها إلى جد واحد هو إسرائيل (يعقوب) بن إسحاق بن إبراهيم. وكــان عليهم، كما كلفهم أنبياؤهم، أن يحملوا رسالة التوحيد ليقيموا لها أول دولة في الأرض. فكان لا بد من تكاتفهم وتوادهم، وشد أواصر القربى بينهم. فلــم يكونوا إلا مجرد دعاة لدين التوحيد بين الشعوب التي كانت تعيش حياة وثنــية؛ تتعــبد لآلهــة من صنعها، وتقيم لها المعابد، وتنحت لها التماثيل. فالمطلــوب مــنهم هو دخول أرض مأهولة بشعوب. فكان عليهم محاربتها وتحطيم أوثانها، وهدم معابدها. تقول التوراة في الأمر الإلهي لبني إسرائيل: «لا تسـجد لآلهــتهم، ولا تعــبدها، ولا تعمل كأعمالهم، بل تبيدهم وتكسر أصنامهم» (خروج ٢٣: ٢٤).

وقد تهيبوا وأحجموا عن القتال، يوم قال لهم نبيهم موسى (كما جاء في القـــرآن): «**يـــا قوم، أدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبّارين، وإنّا لـــن نـــدخلها حتـــى يخرجوا منها، فإن خرجوا منها فإنا داخلون**» (سورة المائـــدة، ٢١ و٢٢). «**قالـــوا يـــا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنًّا ههنا قاعدون**» فجاءهم أمر الله تأديباً لهم: «**قال فإنهـــا محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأسَ على القوم الفاسقين**» (المائدة، ٢٤ و٢٦).

فيخاف بنو إسرائيل دخول الأرض لأن فيها قوماً جبارين. ويتذمرون مـــن موســـى وهـــارون قائلين: (كما جاء في التوراة) «ليتنا متنا في أرض مصر... ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف... أليس خيراً لـــنا أن نـــرجع إلى مصر؟» (عدد ١٤: ٢-٤). فيكلم الرب موسى غاضباً: «فـــي هذا القفر تسقط جثثكم، جميع المعدودين منكم حسب عدوكم، من ابن عشـــرين ســـنة فصاعداً، الذين تذمروا علي. لن تدخلوا الأرض التي رفعت يـــدي لأســـكنكم فيها... وأما أطفالكم، فإني سأدخلهم، فيعرفون الأرض التي احتقرتموها. فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر (صحراء سيناء) وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر... تحملون ذنوبكم أربعين سنة» (عدد ١٤: ٢٨-٣٥).

نجـــد أن الله أرادهـــم أن يقيموا دين التوحيد في الأرض التي اختارها لهم، لكنهم لم يكونوا مؤهلين لذلك، لأنهم جيل تربى على العبودية في مصر، فـــي ظل دولة الفراعنة «الآلهة» واعتادت نفوسهم على الذل والخنوع. فحكم علـــيهم الـــرب أن يتـــيهوا في الصحراء أربعين سنة، كي يموت ذاك الجيل الخانـــع وينشأ جيل جديد يتربى في الصحراء على الحرية، ويأنف العبودية، ويكون مؤهلاً للقتال وتنفيذ أمر الرب.

وهكـــذا كان. فبعد نهاية التيه، وموت موسى، قام تلميذه يشوع بقيادة جـــيوش بنـــي إسرائيل للدخول إلى أرض الكنعانيين ومحاربتهم بتلك القسوة التي ترويها لنا التوراة.

دعوة المسيح عليه السلام

ويتساءل إنسان هذا العصر، أليس هو الله نفسه الذي أرسل موسى هو الـــذي أرسل المسيح القائل: «لأني قد نزلت من السماء، ليس لأعمل مشيئتي بـــل مشيئة الذي أرسلني» (يوحنا ٦: ٣٨). فرسالته كانت نشر المحبة حتى للأعداء، والزهد في متاع الدنيا، والتسامح إلى أقصى حدود المسامحة: «من أراد أن يخاصـــمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً» (متى ٥/٤٠). أجل الله الذي أرسل موسى هو الذي أرسل المسيح وأرسل محمداً. لكنه أرسل كلاً منهم بظرف ومهمة وتكليف وزمن مختلف. فكانت مهمة موسى ومحمد إقامة دولـــة التوحـــيد لتطبيق الشريعة الإلهية، وحملها إلى باقي شعوب العالم. أما المســـيح فلم يكن مكلفاً إقامة الدولة في زمنه، لاستحالة ذلك. فبعد مرور ما يقـــرب مـــن ثلاثة عشر قرناً على زمن موسى، كانت الظروف قد تغيرت. فالدولة اليهودية الموحِدة كانت قد قامت وحكمت ردحاً من الزمن، ثم انقسمت علـــى نفسها وأصبحت دولتين، ثم دالت الدولتان. وهدم هيكل سليمان، ونفي شعب إسرائيل على يد نبوخذنصر الملك البابلي. ثم أعيد إلى أرضه بمساعدة الفرس، وأعاد بناء الهيكل. وكانت امبراطورية الرومان هي الحاكمة في تلك الحقبة، وكان بنو إسرائيل يخضعون لحكمها. فالزمن قد تغير، وتغير ناسه. ولم يعد كافياً حصر رسالة التوحيد بجماعة معينة. بل اقتضت المرحلة نشر دين التوحيد بين أبناء البشر جميعاً.

لكـــن نشـــر الدين في ذلك الزمن لم يعد يقتضي اجتياح دويلات، ولا سفك دماء، ولا استعمال القوة. فالناس أصبحوا أكثر استعداداً ونضوجاً لتفهم الحقيقة وتقبل دعوة التوحيد، رغم أن الوثنية كانت هي دين الدولة الرومانية

الحاكمـــة، وكـــان مـــن المحال التصادم مع جيوشها المسيطرة على الغرب والشرق. فكان لا بد من رفع سلاح هو أفعل من السيوف والرماح؛ هو سلاح الكلمـــة. فكان المسيح هو الكلمة. وكان لا بد لأسلوب نشر الدعوة الإلهية أن يتغيـــر. فكانـــت رسالته، في بدايتها، تصحيح دعوة التوحيد في مهدها وبين ناسها وحملتها. فبدأ دعوته بين اليهود أنفسهم قبل أن يطلقها إلى باقي الأمم. فكلمهم بلغة لم تألفها تعاليمهم؛ فعمل الخير لم يعد مقتصراً على القريب، بل أصـــبح يشمل جميع الناس. والمحبة لم تعد مقتصَرة على قومه؛ بل أصبحت تشمل حتى الأعداء: «سمعتم أنه قيل (في ناموس موسى) تحب قريبك كنفسك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبـــيكم الـــذي فـــي السموات. فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم» (متى ٥: ٣٨-٤٦).

نجـــد أن المســـيح هـــنا يصحح مفاهيم ونصوص وردت في الشريعة الموســـوية، حـــيث إن الـــزمن أصـــبح ملائماً لتطويرها، وانتقال الدين من الخاص، لبني إسرائيل، إلى العام الذي يشمل جميع البشر. فالمسيح لم ينقض في كلامه الشريعة وإنما وسع مفاهيمها لتشمل أكثر من نصوصها الواردة في التوراة. يقول: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم...

ومـــن قـــال يـــا أحمق يكون مستوجب نار جهنم... قد سمعتم أنَّه قيل للقـــدماء لا تـــزنِ. وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقـــد زنـــى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك. لأنـــه خيـــر لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم» (متى ٥: ٢١-٣٠).

ويجعـــل المسيح رقابة الله حتى على الكلمة. «وأقول لكم إن كل كلمة بطّالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين» (متى ١٢: ٣٦).

فالحساب لم يعد مقتصراً على عقاب الدنيا (كما في التوراة) بل أصبح هنالك حساب أخروي على الذنوب هو عقاب الله للخطاة بدخول جهنم. فالذي يفلت من عقاب الدنيا لا يفوته عقاب الآخرة يوم الدينونة.

ويقـــول: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاومـــوا الشـــر. بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصـــمك ويأخـــذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخرك ميلاً فاذهب معه ميلين» (متى ٥: ٣٨-٤١). نجد أنّ المسيح هنا يتجاوز القانون إلـــى التسامح والتسامي عن معاملة المسيء بمثل إساءته، بل الرد على الشر بالخيـــر. وعندما سأله بطرس: «كم مرة يخطى إلي أخي وأنا أغفر له، هل ســبع مـــرات؟ قال يسوع: «لا أقول لك سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مـــرات» (متى ١٨: ٢١-٢٢). «فهكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه ذلاته» (متى ١٨: ٣٥). وعندما سمّر جسده على الصليب بين مجرمين رفع رأسه إلى السماء قائلاً: «يا ابتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٣: ٢٤).

وهكـــذا نجد أن المسيح لم ينقض الناموس، وإنما أعطاه مفاهيم جديدة تجـــاوزت الكثيـــر من ظاهر نصوصه. لقد أعطاه البعد الماورائي. فإذا كان دور الناموس هو إقامة العدل بين الناس، وإعطاء كل ذي حق حقه، فالمسيح جعل التسامح والمحبة قيم يتسامى بها الإنسان إلى الله بتجاوز حقه الشخصي ليـــنال رضـــى الله ويحظـــى بالقرب منه. وبهذا منتهى كمال الشريعة. وهو القائل: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمّـــل» (متـــى ٥: ١٧) «ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (لوقا ١٦: ١٧).

هــذا الإنســان المسيحي المثالي الذي أراده المسيح في الإنجيل، كان صــورة لتلامــيذه الذين رباهم على هذه المبادئ والمثل، فكانت لهم الحصن الحصين مما ينتظرهم من المآسي والاضطهاد والعذاب، أثناء حمل رسالتهم إلــى الــيهود، ثم باقي الأمم. فكان عليهم الصبر وعدم المعاملة بالمثل؛ فلا يــردون إساءة من أساء إليهم بمثلها، بل يتسامحون إلى منتهى التسامح. ولا يحملــون سيفاً لقتال لأنه: «كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (متى ٢٦: ٥٢). فــلا يضــربون من ضربهم، ولا يقاومون من يسلبهم. حتى في قلــوبهم، لــم يكن مسموحاً لهم، في دينهم، أن يبغضوا من أبغضهم. وعليهم تحمــل الأذى والضــيم الــذي حل بهم على يد الرومان. ومثالهم في ذلك، وقدوتهم المسيح المعلم. الذي أعطاهم المثل الأعلى العملي في الصبر وتحمل الأذى، وشــظف العــيش، والتقشف، ومصاحبة الفقراء والمساكين. فتلامذته كانــوا صــيادي أسماك فحولهم إلى دعاة رسل «صيادي بشر» كما سماهم. عاش حياته، كما يصفها الإنجيل على لسانه، عندما تقدم منه أحد الكتبة وقال لــه: يا معلم، أتبعك أينما تمضي. فقال له يسوع: «للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار. أما ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه» (متى ٨: ٢٠).

إن للمؤمنين الذين يضحون في هذه الحياة أجرهم مضاعفاً مئة ضعف في الحياة الأخرى: «وكل من ترك بيوتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امــرأة أو أولاداً أو حقــولاً مــن أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبديــة» (متى ١٩: ٢٩). ولا تهتموا بما هو وضعكم في هذه الحياة، ففي الحياة الأخرى «كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين» (متى ١٩: ٣٠) فكل من يريد أن يسير على درب المسيح: «فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنــي. فــإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي يجــدها. لأنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ وماذا يعطي الإنســان فــداء عــن نفســه؟ فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله» (متى ١٦: ٢٤-٢٨).

وقـد عاش دعاة المسيحية ثلاثمائة سنة، يحملون دعوة المسيح، وهم قلة، في تلك البيئة الوثنية، صابرين على الأذى والاضطهاد، وشظف العيش، علـى الـدرب التـي سار عليها المعلم، حتى قيّض الله لهم النصر بدخول الامبـراطور قسطنطين في الدين المسيحي في أوائل القرن الرابع الميلادي. وعندئذ شاء الله لهذه الدعوة الإلهية أن تنتشر في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية، وتصبح دين الدولة.

لم يطبق المسيح الناموس (الشريعة الموسوية) على الناس، لأنه لم يكن حاكمـاً في الأرض. ولم يسعَ إلى ذلك. وعندما سئل إذا كان يطمح أن يكون ملـك اليهود، كان جوابه: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا ١٨-٣٦). لكـنه جاء بمفهوم جديد لمعاقبة المذنبين. جاء بما لم يكن معروفاً في شريعة موسـى؛ جـاء بمفهـوم خلود الروح وبقائها بعد الموت حيث يجري عليها الحساب. فكانت دعوته تبشيراً للأبرار بملكوت الله وبالنعيم، وإنذاراً للأشرار مـن عذاب النار: «حيث يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم، ويطرح الأشـرار وجمـيع المعاثر، وفاعلي الإثم في آتون النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ١٣-٤١-٤٣).

كـان المسيح القدوة في التواضع، يوم راح يغسل أرجل تلاميذه بيديه. وكانـت وصـيته لهم: «أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يتسـلطون علـيهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً فلـيكن لكم خادماً. ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً» (متى ٢٠: ٢٥-٢٧). «فمـن يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع» (متى ٢٣: ١٢). كذلك رسم المسيح للناس الميزان الذي يزينون به تعاملهم مع الآخرين بقوله: «فكـل مـا تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً، لأن هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ٧: ١٢).

من هذه المدرسة الإلهية نفسها يقول القرآن حاثاً الناس على التواضع: «**ولا تصعّر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كل مختال فخور**» (لقمان، ١٨).

ويقول محمد رسول الله: «ألا تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخواناً (مسلم، رياض الصالحين، ص ٥٦٦). ويقول: «من قال إني خير الناس فهو شر الناس» ويقول: «طوبى لمن تواضع لله في غير منقصة، وأذل نفسه في غير مسكنة» (البحار ح ٧٧، ص ٩٠). ويقول: «عليك بالتواضع فإنه من أعظم العبادة» (البحار ج ٧٥، ص ٩٠). ويقول: «لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر» (البخاري، التوحيد، ٣٦).

فكانت المسيحية فعل إيمان، ودعوة إلى ارتقاء الروح، والتعالي عن المادة، والتسامي إلى عالم الملكوت الإلهي.

مقارنة بين أسلوب التوراة وأسلوب الإنجيل والقرآن

الذي يحيِّر بعض المسلمين اليوم، اعتراف القرآن بالتوراة التي «فيها هدىً ونور» كما مرّ معنا، والاعتراف بنبوة موسى. مع أن مضمون تعاليم التوراة، في بعض جوانبه، يناقض تعاليم القرآن، فحيث يدعو الإسلام للتراحم، ووحدة الإنسانية، واعتبار «الإنسان أخو الإنسان لأن العباد كلهم أخوة» (أبو داوود والترمذي) ويشترط رسول الإسلام المحبة لصحة الإيمان: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه (الإنسان) ما يحب لنفسه» (مسلم، إيمان، ٦٧). ويحرم القتل وسفك الدماء «**من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**» (سورة المائدة، ٣٢). نجد التوراة تحض على القتل والتدمير، وسفك الدماء، وإبادة الشعوب الذين يتغلب عليهم بنو إسرائيل. وتؤمن بالتمايز العرقي؛ إذ تجعل بني إسرائيل شعب الله الخاص، دون باقي شعوب الأرض.

أقـول: لـيس هنالك من تناقض. فالقرآن جاء بعد التوراة بألف وتسع مائـة سـنة. فظروف الواقع الإنساني قد تغيرت. وإله القبيلة قد أصبح إله الـناس جمـيعاً، بعد ثلاثة عشر قرناً، على يد المسيح. والقرآن جاء مصدقاً للرسـالات السـابقة، بشـريعة جديدة، تكمل شريعة موسى، وبتعاليم خلقية، تتماهـى مـع تعالـيم المسيح، وتصلح للناس جميعاً، وتتناسب مع تطورهم الفكري والاجتماعي. وأعطى للإنسان حرية الاختيار بين الدين الجديد، بقيمه وشـريعته ونظمه، وقواعد سلوكه، وبين الأديان الأخرى، إذ: «لا إكراه في الدين» تكريماً للإنسان الذي جعله الله «خليفة في الأرض». واحتراماً للحرية التـي مـنحه إياها: «**ولقـد كرّمنا بني آدم**» (سورة الإسراء، ٧٠). فساوى بالإنسانية بين جميع البشر، بصرف النظر عن دينهم أو لونهم أو عرقهم.

فـإذا قارنا، اليوم، بين الإسلام وتعاليم قرآنه الذي سمّى الله بأنه «رب العالمـين» وما فيه من نفحات إنسانية تصلح لكل زمان، وبين اليهودية التي سبقته بتسعة عشر قرناً، وما فيها من خصوصية الإله، وخصوصية ظروف قبـيلة بنـي إسرائيل التي كُلِّفت بحمل رسالة التوحيد، في ذلك الزمن البعيد، وأخـذنا بالاعتبار بدائية العقل الإنساني في تلك الحقبة من التاريخ، نجد أن المقارنة غير متكافئة ــ ولولا ما جاء على لسان المسيح، القائل: «لا تظنوا أنـي جـئت لأنقض الناموس (شريعة موسى) والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمـل». ولولا ما جاء في القرآن من آيات بيّنات؛ تصدق بموسى رسولاً، وبتوراته كتاباً منزلاً «**فيه هدىً ونور**» لكان من العسير على عقل إنسان هذا العصر، من مسيحيين ومسلمين، أن يسلِّم بقدسية النصوص التوراتية.

لكـنّ هذه القسوة التي وجدناها عند بني إسرائيل قد قرأنا مثيلاً لها في روايات القرآن. فالله قد أغرق قوم نوح وأبادهم بالطوفان عندما امتنعوا عن الاستجابة لنبيهم بالتحول عن عبادة الأوثان إلى عبادة الإله الواحد. ودمّر الله سـدوم وعمورا، لإصرار أهلها على ارتكاب فاحشة اللواط وعدم استجابتهم لدعوة نبيهم لوط.

ويروي لنا القرآن كيف غضب الله على قوم عاد وثمود وأصحاب الرث، وأهل مدين، وقارون بقوله: **«فكلاً أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا. وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»** (سورة العنكبوت، ٤٠).

فالله تعالى – حسب القرآن – لا ينزل العقاب بالناس إلا بعد أن يرسل إليهم من يعلمهم ويرشدهم. فإذا اصروا على غيّهم وكفرهم، وأحبوا الضلالة على الهدى، والكفر على الإيمان، عند ذلك يحل عليهم غضب الله. والمسيح يقول: «لو لم أكن جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطيئة، وأما الآن فليس لهم عذر في خطيئتهم» (يوحنا ١٥: ٢٢) فالمسيح يحمّل الخطيئة للذين جاء وكلمهم وأرشدهم ولم يستمعوا لإرشاده، وأصروا على كفرهم بكلامه. والقرآن يقول: **«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً»** (الإسراء، ١٥). فالله، وفق الإنجيل والقرآن لا يعذب شعباً إلا بعد أن يبعث إليهم من يهديهم، لكنهم يصرّون على كفرهم ويرفضون هذه الهداية.

استناداً إلى ما تقدم، واستناداً إلى قوله تعالى في القرآن الكريم: **«وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** (نبي)» (فاطر، ٢٤). فلا بد أن يكون الله جل وعلا قد أرسل لهذه الشعوب التي كانت تسكن أرض فلسطين أنبياء، فلم يستجيبوا لهم، وأصروا على غيهم بعبادة ما دون الله من أوثان وآلهة ابتدعوها، «ما أنزل الله بها من سلطان». فغضب عليهم وأمر أنبياء بني إسرائيل بقتالهم بسبب إصرارهم على كفرهم وتعنتهم. فنالوا من القسوة ما نالوا. وقد حددت التوراة سبب تلك المعاملة القاسية لعبدة الأوثان: «لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم»[1]. «لا تسجد لآلهتهم ولا تعبدها ولا تعمل كأعمالهم، بل تبيدهم وتكسر أصنامهم» (خروج ٢٣: ٢٤).

---

(١) شرعية حمورابي – مجموعة من المؤلفين – ترجمة سامي سراس – دار علاء الدين – دمشق، ص ٦٢.

فـــالله، في المسيحية والإسلام، المحب الرحيم، غافر الذنب، يقسو على العاصـــين والخطاة أشد القسوة في الآخرة. «**إن المجرمين في عذاب جهنم خالـــدون**» (ســـورة الزخرف، ٧٤). «وحيث يطرح الأشرار في أتون النار وهناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ١٣/٥٠). أما في اليهودية حيث لم يكن بعد ثمة تبشير بالآخرة فكان التعبير التوراتي عن غضب الرب انتقاماً في هذه الدنيا.

دعوة محمد عليه الصلاة والسلام

أمـــا رســـول الله محمـــد الذي جاء بعد عيسى المسيح بستة قرون فقد اســـتمر ثلاثـــة عشر عاماً في مكة، يدعو المشركين عبدة الأوثان إلى ترك أوثانهم والانصراف عنها إلى عبادة الإله الواحد الأحد، على طريقة المسيح. فلـــم يؤمن معه إلا قلة من أهل مكة. وقد لاقوا من الاضطهاد والعذاب، من قِـبَل مشـــركي مكـــة مـــا لاقى المسيح وتلامذته من اليهود والرومان. كان الرســـول يمـــر بهـــم وهم يتعذبون حتى الموت، كما حدث للصحابي ياسر وزوجته سمية، فلم يكن يملك إلا أن يقول لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة». وينصرف عنهم، محتسباً أمرهم إلى الله الذي أرسله، ليرسل مشركو مكة، بعد قليل، جثثهم إليه أمواتاً.

ولمـــا لـــم تعـــد هذه الفئة القليلة، من المؤمنين برسالة محمد، تستطيع الاحتمال، ولما لم يكن بإمكان النبي أن يحميهم ويدرأ عنهم العذاب، وبالتالي المـــوت، أمـــرهم بالهرب إلى الحبشة ليحموا أنفسهم من الموت، ومن ظلم وتعـــنت مشـــركي مكة، محتمين بالنجاشي ملك الحبشة المسيحي، الذي أمَّن علـــى حـــياتهم، وأفســـح لهـــم العيش في مملكته، ومنعهم من كيد أعدائهم المشـــركين. وذلك بعد أن استمع إلى تعاليم قرآنهم التي رأى فيها مثيلاً لدين النصرانية الموحِّد. قائلاً: «إن هذا والذي جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة»[١].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول، صفحة ٣٦٠، مصر ١٩٣٦.

الــذي مــنع المشركين من قتل محمد عشيرته، بنو هاشم، حيث كانوا يخشون أن تأخذ بثأره، وفق عرف العشائر العربية، وتنتقم له من قاتليه.

لكــنهم، أخيــراً، وبعد اشتداد خوفهم من انتشار الإسلام، الذي سوف يقضي على آلهتهم، جمعهم هذا الخوف، ووحد كلمتهم على القضاء على عدو دينهم وآلهتهم محمد. فقرروا أن تشترك جميع عشائر قريش بدمه، بأن تقدم كــل مــنها شاباً، ويضربونه جميعاً بسيوفهم ضربة واحدة، فيضيع دمه بين جميع هذه العشائر، فيتعذر على بني هاشم معاقبة أي منها والأخذ بثأرهم.

عــندها جاءه أمر ربه بالهجرة ليلاً، متخفياً مع صاحبه أبي بكر، إلى يثــرب التي كان أهلها قد آمنوا بدعوته وبايعوه على الإسلام. وكانت مفاجأة المشركين كبيرة، عندما اقتحموا منزله في الصباح الباكر، ليباغتوه بسيوفهم المشرعة، وهو لا يزال نائماً في فراشه. لكنهم لم يجدوا في الفراش بغيتهم، بل وجدوا ابن عمه علي بن أبي طالب ينام قرير العين في فراش النبي.

استنفرت قريش فرسانها، فركبوا خيولهم، وتمنطقوا بسيوفهم ورماحهم ولحقــوا بــه. وهم يعلمون أن اتجاهه إلى يثرب التي آمن بدعوته أهلها من قبيلتــي الأوس والخزرج. فجاءه أمر ربه أن يلجأ إلى غار ثور. وهو كهف صغير على طريق يثرب. ووصلت فرسان قريش إلى أمام الغار. فأراهم الله نسيج العنكبوت يغطي باب الغار، فاستبعدوا دخول أي كائن إليه. وانصرفوا يجوبون القفار بحثاً عن محمد وصاحبه. ولكنهم لم يعثروا على شيء وعادوا إلى مكة خائبين.

وصــل الرســول إلى يثرب (التي سميت فيما بعد مدينة الرسول، أو المدينة المنوّرة). فاستقبله أهلها أحسن استقبال، وهم المؤمنون به نبياً مرسلاً مــن عند الله. فأكرموا وفادته أيما إكرام. وكان أول ما عمله أن بنى مسجداً لعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد. فكان أول مسجد بني في الإسلام.

أسس النبي في المدينة نواة الدولة الإسلامية، فكان القرآن دستورها، والشريعة الإلهية قانونها. وأقام عهداً مع اليهود الذين يقيمون في هذه الدولة. فكان لهم من الحقوق المدنية ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات تجاه الدولة ما عليهم، مع المحافظة على دينهم ومعتقدهم، وحرية عبادتهم وممارسة طقوسهم وتقاليدهم. يتساوى فيها جميع المواطنين من مسلمين ويهود.

لكن قريشاً التي عز عليها أن يفلت محمد من سلطانها، وتقوى شوكة الإسلام، عدو دينهم، جهزوا جيشاً من حوالى الألف مقاتل، بين فارس وراجل. وقصدوا المدينة للقضاء على محمد وأتباعه، واقتلاع دينه الذي يسفّه آلهتهم ويدعوهم إلى عبادة الإله الواحد، الذي يساوي بين الناس؛ لا فرق عنده بين غني وفقير، وصعلوك وأمير، وأبيض واسود، إلا بأعمالهم الصالحة، وتقوى الله عز وجل. فالناس في دين محمد: «سواسية كأسنان المشط». و«الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله». كما حرّم عليهم قتل النفس، والسرقة، وأكل مال اليتيم، وحرم شهادة الزور، وحرم الزنى والفواحش، وحرم الغزو والثأر، واغتصاب الحقوق، ووأد البنات، والأصعب من ذلك كله، بالنسبة لسادة قريش، أنه ساوى في الإنسانية بين السادة وعبيدهم.

وكانت معركة بدر، لم يكن مع النبي فيها إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً. انتصر فيها المسلمون، رغم عدم التكافؤ بالعتاد والعدد؛ إذ كان مقابل كل مقاتل من المسلمين ثلاثة من المشركين، ولم يكن مع المسلمين إلا ثلاثة أفراس، مقابل مئة مع القرشيين[1].

وتوالت ردات الفعل من قريش، ودارت معارك عدة بين المؤمنين بالإله الواحد وبين الذين يعبدون الأوثان والأصنام، آلهة متعددة، لكل قبيلة

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٢١.

وثـــنها تحـــت زعامـــة هبل الإله الأكبر. حتى قيّض الله لنبيه دخول مكة، عاصمة الشرك، فاتحاً، يحطّم أوثانهم، بل آلهتهم الزائفة المقامة حول الكعبة التـــي بـــناها نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل، لتكون مكاناً لعبادة الله الواحد الأحـــد. رافعـــاً صـــوته بقـــوله: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

بعـــد أن تمت السيطرة للرسول على مكة، التي سامته شر الاضطهاد، وقـــتلت من المؤمنين برسالته من قتلت، وشردت من شردت، حتى أرغمته علـــى الفـــرار منها ليلاً. ولم تكتف بذلك، بل تعقّبته إلى المدينة بالحملة تلو الحملـــة، بغية القضاء عليه وعلى دعوته وخاضت ضده معارك طاحنة، قتل فـــيها خيـــرة مـــن صحابته. وفي ساعة النشوة بالنصر، جمع أهل مكة عند الكعبة المشرفة مستسلمين مغلوبين، غير قادرين على قتال، منكسين رؤوسهم أمـــام عـــدوهم وعـــدو آلهتهم، الذي ما تركوا وسيلة من وسائل الانتقام إلا واســـتعملوها ضـــده، وقف فيهم خطيباً قائلاً: «ماذا ترون أني فاعل بكم؟» فارتفعـــت أصواتهم، محاولة أن تثير في نفسه الشفقة عليهم، والرحمة بهم، قائلـــين: «أخ كـــريم وابن أخ كريم». فأجابهم بلغة النبي الرحيم، وليس بلغة الفاتح المنتقم للمظالم التي لحقت به وبالمؤمنين بدينه: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ولم يجر الانتقام من أحد من المشركين على دم سفكه، أو جريمة ارتكبها. بل كان العفو والرحمة والسلام مأثرة من مآثر النبوة، ودرساً إلهياً لكل الفاتحين من بعده.

ولـــم تمض سنوات قليلة حتى عمّ الإسلام شبه الجزيرة العربية كلها. وأقيمت فيها دولة الإسلام، التي كانت النموذج لتطبيق حكم الله في الأرض.

لكـــن محمـــداً لم يكن ملكاً ولا حاكماً دنيوياً. بل كان نبياً يريد أن يقيم دولـــة العدل والرحمة التي أمره بها ربه. فطبّق فيها الشريعة الإسلامية التي أقام فيها العدل والتراحم بين الناس. فالناس جميعاً متساوون أمام القانون؛ فلا

تفاضـــل ولا تمايـــز. وهو القائل لمن جاءوا يتوسطون عنده للعفو عن امرأة ســرقت، إكـــراماً لأهلها الذين كان لهم فضل في نصرة الإسلام والجهاد في سبيل الله: «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

لـــم تكـــن إقامـــة الدولة هي هدف النبي محمد، بل كان نشر الإسلام وتطبيقه هو الغاية. فالدولة الإسلامية التي أنجز الرسول بناءها، والتي تحمل في داخلها دينامية الدين الجديد، كان يحد من توسعها قيام امبراطورية الفرس فـــي الشـــمال وامـــبراطورية الروم في الغرب. وكلتاهما تملكان الكثير من عناصر القوة والمنعة، وجحافل الجيوش، والعتاد، وخبرات مئات السنين من خوض الحروب. إضافة إلى الموارد المالية الضخمة التي يجنونها من البلاد الشاسعة التي يسيطرون عليها. وكانت كل من هاتين الدولتين العظميين، في ذلـــك الحين، لها دينها ومعتقداتها التي لا تسمح بدخول دين آخر ينافسها في أرض نفوذها.

لكـــن النبـــي محمـــداً، المؤيد من الله، كان يطمح أن يعم دينه كل بني البشـــر، مصداقاً لقول مرسله: «**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**» (ســبأ، ٢٨). فبدأ بنشر دعوته إلى خارج شبه الجزيرة العربية، فأرسل كتباً إلـــى الأباطـــرة والملـــوك والولاة ورؤساء العشائر وعلية القوم، في الشام والعراق، البلاد المحاذية للدولة الإسلامية يدعوهم فيها إلى الإسلام. ثم راح يرســـل الدعـــاة إلى تلك المناطق الواقعة تحت حكم الروم والفرس. فلم يكن نصـــيب أولئك الدعاة إلا القتل والتنكيل بهم وبمن آمن بدينهم من سكان تلك الـــبلاد. فكان لا بد من قوة تحمي انتشار الدعوة بين الناس خارج نطاق شبه الجزيـــرة العربية. كان النبي يعلم أن هاتين الامبراطوريتين على حدوده لن تســمحا بنشـــر دعـــوة الإسلام بين العرب الغساسنة عملاء الروم، والعرب المناذرة عملاء فارس، الذين بدأت عشائرهم تدخل في دين بني قومها أفراداً وجماعـــات. فـــراح يعد جيشاً للدفاع عن المؤمنين الجدد، ويمنع اضطهادهم

وقتلهم. فكانت كتيبة مؤته على إثر مقتل خمسة عشر رجلاً بعثهم النبي إلى «ذات الطلـــح» على حدود الشام، يدعون الناس إلى الإسلام، فكان جزاؤهم المـــوت. وبعد أن قتلوا رسول النبي إلى حاكم بصرى ــ من بلاد الشام ــ الحـــارث بـــن عُمـــير الأزدي، وكان يحمل رسالة من النبي يدعوه فيها إلى الإســـلام. فاغتاظ النبي لهذا العمل الذي يخالف الأعراف والقيم السائدة، التي كانت تقضي باحترام الرسل وتكريمهم، وعدم الاعتداء عليهم. وبعد أن بلغه أنهم يحشدون الجيوش للزحف على بلاد المسلمين وقتالهم للقضاء على الدين الجديـــد فـــي مهـــده. وأوصى قائد الحملة بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير الأزدي، وأن يدعـــو مـــن هناك إلى الإسلام، فإن استجابوا قبلوا منهم، وإلا فليســـتعينوا عليهم بالله، وليقاتلوهم ثأراً لمن قتلوه ظلماً. وكانت وصيته للجند الذاهبين إلى مؤتة[1]:

«أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله، وفـــي سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امـــرأة، ولا مكفوفـــاً ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناء»[2].

تلـــت كتيـــبة مؤته غزوة تبوك، التي قادها النبي بنفسه. فتهيب الروم الصـــدام معه، أو لعلهم أرادوا استدراجه إلى أن يتوغل إلى داخل بلاد الشام فيســـهل عليهم قتاله. بقي النبي مع جيشه في تبوك عشرين يوماً. عقد صلحاً مع عدد من البلدات التي وصل إليها، على أن يكونوا موالين لدولة المسلمين ويتركوا ولاءهم للروم. وقبيل وفاته، وهو على فراش المرض، أمر بتجهيز

---

(١) مؤتـــه: قـــرية تقـــع على بعد ١٢ كيلومتراً جنوب الكرك في الأردن. والمسافة بين المديـــنة التي انطلق منها الجيش الإسلامي، وبين مؤتة ١١٠٠كلم. قطعها المسلمون على ظهور الخيل والإبل.

(٢) خاتم النبيين ــ تاليف سميح عاطف الزين ــ دار الكتاب اللبناني ــ ص ٥٩٥.

حملة إلى بلاد الروم، بقيادة أسامة بن زيد، بعد أن بلغه إعدام الروم لفروة بن عمــرو، والــي معــان، لــدى الروم، بسبب اعتناقه الإسلام. ودعى الناس للانضـــمام إليها. لكن الوفاة أدركته قبل انطلاق الحملة. فنفذ الخليفة أبو بكر الصــديق وصـــية الرســول وأتــم بعث الحملة. وكانت وصيته للجند قبل انطلاقهــم: «لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيراً. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع (الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[1].

ثم تكررت الحملات في عهد الخلفاء الراشدين، حيث اضطر المسلمون إلــى قتال الروم والفرس معاً، وفي الفترة الزمنية نفسها، بعد أن شن الفرس حملـــة علـــى الذيـــن اعتنقوا الإسلام من عرب العراق، ونكّل الروم بالذين اعتنقوا الإسلام من عرب الشام. فاستنجد هؤلاء وأولئك بالخليفة الذي اضطر أن يقســم جيشـــه إلـــى قســمين؛ قســم يخوض معركة حاسمة ضد جيوش امـــبراطورية الفرس، ويهزمهم الهزيمة النهائية في معركة القادسية، بعد أن حشــدوا لـــــه كل قوتهم. وقسم يقابل جحافل الروم، وقد جمعوا كل قواهم الحربية من الغرب ومن الشرق. وكانت معركة اليرموك المعركة الحاسمة، التـــي هزم فيها جيش الروم الهزيمة القاضية سنة ١٣ هجرية ٦٣٦ ميلادية. وتمـــت ســيطرة الدولـــة الإســـلامية على بلاد فارس، والقسم الشرقي من امبراطورية الروم.

اختلفـــت غزوات المسلمين لبلاد الفرس والروم، بعد ما يقارب الألف والتسعمائة سنة عن غزو اليهود لفلسطين، كما جاء في التوراة على يد يشوع بـــن نون؛ لم يحدث قتال مع أهل البلاد، إنما كان القتال مع الجيوش المحتلة

---

(١) المصدر نفسه.

لـــتلك البلاد. وكانت جيوش المسلمين تحمل إلى الناس دعوة الإسلام لعبادة الإله الواحد، وإقامة العدل في الأرض، ومحاربة الظلم والطغيان، والمساواة بين الناس: «فالخلق كلهم عيال الله» (مسلم، عتق، ١٦). وعمل الخير للناس يكـــون قـــربى إلـــى الله. ولا فـــرق فـــيهم بالإنســـانية بيـــن غنـــي وفقـــير، وصعلوك وأمير، وأبيض وأسود، فلا ذبح للرجال والنساء والأولاد، ولا هدم للبيوت، ولا تدمير للقرى والمدن، ولا قطع أشجار ولا تلف زروع، كما في سفر يشوع. بل علاقة محبة وتراحم، وفق قول الرسول: «الراحمون يـــرحمهم الـــرحمان، ارحمـــوا مـــن في الأرض يرحمكم من في السماء» (الترمذي، بر، ١٦).

الفصل السادس

كيف حكم المسلمون البلاد التي استولوا عليها

كانت مهمة الجيوش الإسلامية التي فتحت بلاد الروم وبلاد فارس، نشر الإسلام كدين وعقيدة وشريعة ونظام مجتمع. أما سبب استعجالهم في بدء المعارك الحربية مع أعظم امبراطوريتين في ذلك الزمن، ودولتهم لا تزال ضعيفة، وحديثة العهد، فهو اضطرارهم للدفاع عمن كانوا يقتلون من قبل الروم والفرس ممن يعتنقون الإسلام ـ كما تقدم معنا مفصلاً في فصل الفرق في أسلوب الدعوة بين الأديان الثلاثة ـ حيث لم يكن، في ذلك الزمن، لأحد من رعايا الأباطرة حق اعتناق دين غير دين امبراطورهم. فكان نصيب الدعاة المسلمين، ومن يستجيب لدعوتهم، الموت المحتّم. فكان لزاماً على القيمين على الدين الجديد أن يكفوا عن نشر دينهم خارج شبه الجزيرة العربية، وهم مأمورون أن ينشروه بين أهل الأرض جميعاً. فمحمد أرسل «كافة للناس». ورسالته ليست للعرب وحدهم، بل هي للخلق جميعاً.

لكن الله أمره أن: «**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**» (النحل، ١٢٥). وليس بالسيف والقوة. بيد أنّ تصدي الفرس والروم لهذه الدعوة الجديدة بالعنف وإراقة الدماء ألزم أصحاب الدعوة، دفاعاً عن دينهم وعن دعاتهم، أن يجابهوا السيف بالسيف، والقوة بالقوة. فكان دور الجيوش الإسلامية هو حماية الدعاة، حملة رسالة الإسلام إلى البلاد المجاورة، وفتح الطريق أمام انتشار دعوة الإسلام بالكلمة الطيبة، وبالتي هي أحسن.

لكـــن المعجـــزة التــــي حيّرت علماء التاريخ والاجتماع، هي انتصار العـــرب علـــى أكـــبر امبراطوريتيــــن، في ذلك الزمن، امبراطورية الروم، وامـــبراطورية الفـــرس، في فترة قصيرة جداً، لا تعد شيئاً في عمر الزمن. حيـــث لـــم تمضِ بضع سنوات على وفاة الرسول (٦٣٢م) حتى كان العرب يســـيطرون على بلاد الشام والعراق ومصر وفارس (٦٤١م) يحملون دعوة الإسلام إلى شعوبها. ولم يمض القرن الأول من عمر الدولة الإسلامية، حتى كان الإسلام يمتد من الهند شرقاً إلى اسبانيا غرباً.

هـــؤلاء المسلمون العرب، الذين كانوا، قبل الإسلام، عبارة عن قبائل بدوية ديدنها الغزو، والحروب الثأرية التي تدوم بين قبائلها عشرات السنين، كحـــرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، فتتلف الزرع والضرع، وتترك وراءهـــا آلاف القـــتلى من الرجال وآلاف السبايا من النساء. هذه الفترة من الزمن التي سمِّيت بالعصر الجاهلي، لم يبنِ فيها العرب حضارة، ولا أشادوا عمراناً، ولا أنشأوا فيها علماً، ولا ابتدعوا فيها فكراً، ولا اجتمعوا على مبدأ حق.

جـــاء الإسلام فحرّم عليهم الغزو والثأر، وألّف بين قلوبهم «**فأصبحوا بنعمـــته إخواناً**» وأنشأ لهم مجتمع العدالة والمساواة، وأقام العلاقة بين الناس علـــى أســـاس الأخـــوة والمحـــبة والتراحم. وحمّلهم مسؤولية نشر الدعوة الإســـلامية بين شعوب الأرض: «**وإنـــه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون**» (الزخـــرف، ٤٤). فحملوها بصدق وإخلاص وإيمان، بأن «من قاتل لتكون كلمـــة الله هـــي العليا فهو في سبيل الله» ومن قتل في سبيل الله فهو شهيد، والشهداء مصيرهم إلى الجنة، حيث السعادة الدائمة ورضوان الله.

لـــم يشـــهد الـــتاريخ ظاهرة مثل هذه الظاهرة؛ جماعة من المحاربين الحفـــاة، ينتصرون على دولتين عظميين، وعلى شعوب متفوقة عليهم تفوقاً كبيراً؛ في الحضارة والثروة والخبرة، والتمرس بصناعة الحروب. فقد كانوا

فــي كل معاركهم أقل من عدوهم عدداً وأقل عُدداً. لكن سر النصر يكمن في الإيمـــان الجديد الذي أعطى لأتباعه تلك الحماسة الفائقة من أجل نشر دينهم، غير آبهين بالموت الذي هو في نظرهم الطريق الأقصر إلى جنة الخُلد، حيث النعيم الذي لا يزول.

وقد عزي هذا النصر السريع إلى:

أولاً: إيمـــان المســـلم الصادق أن قتاله من أجل نشر الإسلام، إنما هو بأمـــر من الله، وله عليه الأجر والثواب منه تعالى. وأن لـــه نتيجة المعركة مع عدوه، إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، وفي كليهما نفع وأجر.

ثانــياً: اقتـــناع الشـــعوب، التـــي ترضخ لحكم الروم والفرس، بعدالة المسلمين الذين سيرفعون عنها ما تعاني من ظلم واضطهاد، ودفع الضرائب الجائـــرة التـــي تـــرغمها على دفعه الجيوش الامبراطورية المسيطرة على بلادهـــا. فالمسلمون عاملوا الشعوب، التي حرروها من حكم الفرس والروم، بالـــرفق والرحمة، وفق تعاليم الإسلام. ولم يرغموها على اعتناق دينهم، بل تـــركوا لهـــا حـــرية دينها وعبادتها وكنائسها ومعابدها وممارسة طقوسها، وأديـــرتها، وأبـــاحوا لـــها ما أحل دينها؛ كشرب الخمر والاتجار به بالنسبة للمســـيحي والـــيهودي. وكـــأكل لحـــم الخنزير وتربيته والاتجار به بالنسبة للمســـيحي. مع أن الإسلام يحرّمه تحريماً قطعياً على المسلمين، حيث المبدأ الإلهي في نص القرآن: «**لا إكراه في الدين**» (البقرة، ٢٥٦).

جاء في كتاب «الدعوة إلى الإسلام» تأليف توماس و. أرنولد، ترجمة إبراهيم حسن وزميليه، يقول في صفحة ٥٣ وما بعدها:

«ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في فحل، كتـــب الأهالـــي المســـيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون: «يا معشر المســـلمين، أنـــتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا. أنتم أوفى لنا،

وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا».

وبعد أن سيطر المسلمون على مدينة حمص وجمعوا الجزية من أهلها، بلغهم أن الروم قد حشدوا لهم جيشاً، لا قبل لحامية حمص بملاقاته، قرروا الانسحاب من المدينة. فدعوا وجهاءها، وأعادوا إليهم ما قبضوه منهم من الجزية قائلين: «إنما أخذنا منكم هذا المال لقاء الدفاع عنكم، ولما لم نعد قادرين على ذلك فلا يحق لنا أخذه منكم». فأكبر أهل حمص هذا العمل من المسلمين وقالوا لهم: «لو أن هذا المال وصل إلى أيدي الروم، وحصل معهم ما حصل معكم، لما أعادوا لنا منه شيئاً».

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم البيزنطيين وتعسفهم».

يقول غستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: «كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم. ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم. ولكن الخلفاء الأولين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، أدركوا أن النظم والأديان مما لا يفرض قسراً. فعاملوا أهل الشام ومصر واسبانيا، وكل قطر، بلطف عظيم. تاركين لهم عاداتهم ونظمهم ومعتقداتهم. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب. وكانت هذه الرحمة سبباً في اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات عليها، وبقيت قائمة بعد أن توارى السلطان السياسي على مسرح العالم».

لعل لوبون لم يدرِ أن سرّ هذا السلوك المميز الذي سلكه العرب في فتوحاتهم، لا يعود لعبقرية حكام أو قادة جيوش، بل يعود بكليته إلى تعاليم الإسلام السمحاء التي تزودوا بها عقيدة وسلوكاً ومنهاج حياة. تحكم تصرف

الجـندي كما تحكم تصرف القائد. فلوبون، كعالم اجتماع علماني، تحدث في كتابه عن عبقرية العرب، مستنداً في ذلك إلى مميزاتهم الإثنية، وخصائصهم العرقية في إنشاء حضارتهم التي كتب عنها أروع ما كُتب. ولم يتطرق إلى مـنابع تلك الحضارة وجذورها الثقافية المتمثلة في العقيدة الدينية التي كانت الباعـث الأول والأهـم لتلك الحضارة. حيث لم يكن قبلها، لدى العرب، أية حضارة.

ويقول أرنولد في الصفحة ٤٨: «ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التـي قامـت بين المسيحيين والمسلمين من العرب، بأن القوة لم تكن عاملاً حاسـماً فـي تحويل الناس إلى الإسلام. فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القـبائل المسـيحية، وأخـذ علـى عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية. كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة».

ويقـول في صفحة ٥١: «ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسـامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هـذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار، وإرادة حـرة. وأن العـرب المسـيحيين الذيـن يعيشون في وقتنا هذا، بين جماعات مسلمة، لشاهد على هذا التسامح»[1].

ويقـول تومـاس أرنولد في صفحة ٣٠: «إن الكنيسة المسيحية قويت وتقدمـت في رعاية المسلمين وحكمهم. وأن جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين، على حد سواء، بل إن هؤلاء الحكـام مـن المسـلمين هم الذين منعوا اضطهاد بعض المسيحيين لبعض، وكفلوا الحرية الدينية للجميع».

---

(١) شبهات حول الإسلام ــ محمد قطب ــ صفحة ٢١١. دار الشروق، بيروت.

ويقول بيرو روندو[1] معلقاً على الفارق العميق بين موقف الغرب من الإسـلام، وموقـف الإسلام من الغرب: «كان في وسع الإسلام حل مشكلة النصارى في الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة، ولكنه لم يفعل، لأن دعوته لـم تقـم علـى الفتح في الأساس، ولم يكن ثمة «إكراه في الدين». لهذا لم يتعرض الإسلام للنصارى واليهود. ولم يخيرهم بين الموت أو اعتناق الدين الجديد، بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يخضعهم لشريعته».

كان الكاتب يلمح، في كلامه هذا، إلى ما فعله المسيحيون الإسبان بعد انتصـارهم علـى المسلمين وسقوط دولتهم في الأندلس، فكان مصير أربعة ملايـين مسلم؛ إما الموت أو الرحيل أو ترك دينهم، واعتناق المسيحية. كما يـروي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب. كما لاقى اليهود المصير نفسه. ولم يبق، حينذاك، في اسبانيا مسلم ولا يهودي.

الجزية

عاش المسلمون في البلاد التي بسطوا نفوذ دولتهم عليها مع المسيحيين واليهود والمجوس؛ كل لـه دينه، وحرية عبادته ومعبده، وعاداته، وطقوسه وتقالـيده. يتفاعلون مع بعضهم في المجتمع الواحد. تحت المبدأ الذي أطلقه رسـول الله محمد: «لنا ما لهم وعلينا ما عليهم». وكان على غير المسلم أن يدفـع ضريبة للدولة، سميت، في ذلك الحين، بالجزية. وهي ضريبة يدفعها الـرجال الـبالغون القـادرون على القتال كبدل جندية. ويعفى منها النساء والأولاد والشيوخ والرهبان، بل يعطى الشيوخ، الذين لا دخل لهم ولا معيل، معاشاً شهرياً من بيت المال، ضماناً لهم من الفاقة والعوز.

لقـد فرض الإسلام على المسلم دفع الزكاة، فريضة دينية ــ كالصلاة والصـوم والحـج ــ ولم يفرضها على غير المسلمين من رعايا الدولة. بل

---

(١) الإسلام والعالم المعاصر ــ تأليف أنور الجندي ــ دار الكتاب اللبناني، ص ١٢٧.

فــرض على هؤلاء دفع الجزية وقيمتها عشرة دراهم في العام. وهذا المبلغ تنفقه عائلة متوسطة، آنذاك، في عشرة أيام[1].

فالزكاة المفروضة على المسلم تساوي أضعاف قيمة الجزية. حتّى قيل إن قيمة الجزية المخفّضة على غير المسلمين شجعتهم على البقاء على دينهم، وعدم دخولهم الإسلام كي يتهربوا من دفع الزكاة.

لم يفرض الإسلام على غير المسلمين دفع الزكاة عن أموالهم، لأن في ذلك إرغاماً لهم على تنفيذ فريضة دينية غير مأمور بها في دينهم، وفي ذلك تــناقض مــع مــبدأ «لا إكراه في الدين» الذي التزم المسلمون به في نشر دعوتهم مع الأديان والناس كافة.

كــذلك لــم يلزم المسلمون من لم يعتنق دينهم على الجهاد، أي حمل السلاح بالانضمام إلى الجيش للدفاع عن البلاد ضد أي معتدٍ عليها. فالجهاد كالــزكاة، فريضــة دينية على المسلم. ولأن المسلمين ملزمون بالدفاع عن مواطنــيهم الذين هم في ذمّتهم وعهدهم، من غير المسلمين، فلم تكن فريضة الجهاد مفروضة على هؤلا ء. أما من تطوّع منهم للدفاع عن البلاد، وانضم إلــى الجــيش مختــاراً، فكان يرحب به في جيش المسلمين، ويعفى من دفع الجــزية. وقد رأى بعض المؤرخين أن تحول بعض المسلمين إلى المسيحية في العهد العثماني (كما نجد أن بعض العائلات اللبنانية بعضها مسلم وبعضها الآخــر مسيحي، كآل شهاب، والهاشم، والحسيني...) كان تهرباً من الجندية المفروضــة على المسلم وحده، تحت عنوان «الجهاد» تزويراً، حيث لم يعد، آنذاك، ثمة جهاد، بل قتال من أجل ديمومة عظمة السلاطين وتوسيع ملكهم.

ويــرى بعــض المغرضين أن فرض الجزية، كما ورد في القرآن فيه شــيء مــن الإجــبار والإذلال. لقولــه: «**حتى يعطوا الجزية عن يد وهم**

---

(١) انظر: الإسلام ــ تأليف محمد حميد الله ــ ص ٢٦٥.

صـــاغرون» (التوبة، ٢٩). و«صـاغرون»: المقصود بها، أن يعطوا الجزية بعـــد التســـليم للســـلطة الحاكمة، وعدم التمرد عليها، وعدم مقاتلتها، وإلقاء السلاح»[١]. وهذا يعني الإلزام بالدفع كما ألزم المسلمون بدفع الزكاة. فمن لم يدفع الزكاة للدولة بإرادته، والتزامه الديني، يلقى جزاءه من الحاكم. وقد شن الخلـــيفة الأول أبـــو بكر حرباً على الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، بعد وفاة رسول الله. وهو القائل: «لو منعوني عقالاً كانوا يدفعونه لرسول الله لقاتلتهم دونه». لذلك فعلى المسلم أن يدفع الزكاة عن يد، إن لم يدفعها عن طيب نفس مـــنه، فهـــو ملـــزم، قسراً أن يدفع نسباً من إنتاجه الزراعي ومن المواشي والمعادن والأموال التي يمتلكها.

«فالجزية، بلغة العصر، هي بدل جندية. وتسقط عمن يشارك في مهمة الجـــندية. وهي بدل ضريبة يساهم فيها المواطن في المالية العامة للدولة أو الخزينة، ليتحول ذلك إلى خدمات للمواطنين، ولحماية الوطن، من أجل توفير الأمن العسكري والاجتماعي والاقتصادي، وتوفير المرافق العامة في ميدان الخدمات»[٢].

مناخ الحرية بين الحكم البيزنطي والحكم الإسلامي

لاقـــى المسيحيون، في بداية الدعوة إلى المسيحية، أشد أنواع التعذيب والتنكيل، على يد دولة الرومان الوثنية. لكن، في بداية القرن الرابع الميلادي اعتـــنق الامبراطور قسطنطين المسيحية، فتحولت الدولة البيزنطية إلى الدين المســـيحي. وبـــين بداية القرن الرابع وأواسط القرن السابع الميلادي؛ تاريخ دخـــول الإسلام إلى ما يسمى اليوم بالبلاد العربية، لاقى المسيحيون، بشكل

---

(١) الإســـلام بـــين المـــذاهب والأديـــان. د. أسعد سحمراني ــ دار النفائس ــ بيروت، ص ٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨٨.

عـام، وسكان البلاد العربية، بشكل خاص، اضطهاداً شديداً، وقمعاً لحرية العقيدة، بسبب تفسير الإنجيل والاجتهاد في المسائل اللاهوتية.

مثال ذلك، ما أسفر عنه المجمع المسكوني برئاسة وإشراف الامبراطور قسطنطين شخصياً، الذي عقد في مدينة نيقيا، شمال غرب آسيا الصغرى، عام ٣٢٥م، من اضطهاد للاريوسية، وإزالتها من بين المسيحية في الشرق. وكذلك ما اسفر عنه المجمع المسكوني في افسس عام ٤٣١م، باعتبار مذهب نسطوريوس هو هرطقة وتقرر طرد نسطوريوس من كرسي بطريركية القسطنطينية، وحرمانه، وإرساله منفياً إلى البتراء، شمال الجزيرة العربية.

أما مجمع خلقدونيا، الذي عقد عام ٤٥١م، فقد كان فاتحة عهد الانشقاق بين الكنيسة الرسمية في القسطنطينية والكنيسة السريانية في سوريا، والكنيسة القبطية في مصر. وكان هذا المجمع منطلقاً لأنواع المحاربة والاضطهاد لكل من يخالف الكنيسة الملكانية البيزنطية، في طروحها واجتهاداتها. ترافق ذلك التسلط الديني مع تسلط سياسي لكل الخاضعين للحكم البيزنطي(١).

ويروي التاريخ من نماذج هذا الاضطهاد، ما لاقاه الموارنة من الامبراطور يوستينيان الثاني؛ فقد أزعجه عدم التزام الموارنة الاجتهاد الكنسي الذي التزمت به الكنيسة البيزنطية، فما كان منه إلا أن جرّد حملة عسكرية للقبض على بطريرك الموارنة الجديد «مار يوحنا مارون» وكان على رأس الحملة قائدان بيزنطيان هما: موريق وموريقان. وتقول الأخبار المارونية المتوارثة: «إنهما هاجما دير رهبان مار مارون (دير البلّور) في سورية، وقتلوا ٥٠٠ راهب من رهبانه، وهدموا بنيانه، ولكن البطريرك الماروني فر والتجأ إلى لبنان. ولحقت القوة البيزنطية بالبطريرك الماروني

---

(١) راجع: د. فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة الدكتور جورج حداد، بيروت، ص ٤١٠، وما بعدها. والأب جورج شحاته قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، بيروت، ص ٢٦ وما بعدها.

الهارب، واصطدمت في (أميون) بقوات من الموارنة، وكانت نتيجة المعركة مقتل القائدين البيزنطيين»[1].

«في ظل هذا الاضطهاد، لم تستطع الكنيسة المارونية أن تحقق استقلالها وكيانها المستقل، إلا في ظل الخلافة العربية الإسلامية.

إن هذا الاضطهاد الذي عانى منه المسيحيون، تحت الحكم البيزنطي، هيأ الأجواء لكي يهبّ كل مسيحيي المنطقة العربية، مرحبين بالفتح الإسلامي الذي قاده العرب. وهو تعاون مع أبناء الوطن ضد أبناء الدين. وما ذلك إلا لأنهم نشدوا الحرية والأمان في ظل الحكم العربي الإسلامي»[2].

من أمثلة ما رواه التاريخ عن تعاون مسيحيي بلاد الشام مع المسلمين الفاتحين، ما حدث في فتحِ مدينة دمشق بعد حصارها. يقول فيليب حتي عن هذا الموضوع: «ولقد سلّمت دمشق في أيلول سنة ٦٣٥م، بعد حصار دام ستة أشهر، وكان تسليمها إثر خيانة قام بها بعض أرباب السلطة المدنية والروحية، ومنهم الأسقف جد القديس يوحنا»[3]. ويعزو أسباب ذلك التعاون إلى «النزعة الدينية التي حسنت لهؤلاء التعلق بكنيسة سورية المستقلة، الشعور الوطني القائل بوجوب التميز عن البيزنطيين الأغراب»[4].

إن مناخ الحرية الذي توفر في ظل الدولة الإسلامية أتاح لجميع أبناء الأديان الأخرى المساهمة في بناء صرح الحضارة العربية. فقد شارك أهل الكتاب في كل علم وصنعة، وفي أعمال الترجمة، والفلسفة، والطب،

---

(١) راجع، د. محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٩ وما بعدها.

(٢) د. أسعد سحمراني، الإسلام بين المذاهب والأديان ــ بيروت، دار النفائس، ص ٧٠.

(٣) د. فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب، ج ١، بيروت، دار الكشاف، سنة ١٩٦٥، ص ٢٠٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

والشـــعر... الخ. «وأتاح لهم أن يخالطوا الفاتحين. ولا شك أن العلاقات لم تقــف عـــند المبادلات الاقتصادية والإدارية، بل جاوزتها إلى المجال الديني والفكري أيضاً[١].

يقــول فيلــيب حتي: «إن النصارى كثيراً ما تقلدوا مناصب هامة في دوائر المال والكتابة، والمهن الحرة، حسدهم عليها بعض المسلمين»[٢].

إن حـــرية العمل، وحرية الكسب، وتولي الوظائف، والعمل الفكري، رافقــتها مــناخات مـــن الحـــرية الدينية، لم تتوفر للنصارى في ظل الدولة البيــزنطية المسيحية سابقاً. فقد تمتع النصارى «في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية، ونالوا كثيراً من التساهل والعطف، كما تشهد بذلك عدة حوادث. فقد جرت مناقشات دينية في بلاط العباسيين، كتلك التي جرت في بلاط عبد الملك. وقد ألقى ثيموثاوس، بطريرك النساطرة، خطاباً في سنة ٧٨١م، دفاعاً عن النصرانية، أمام الخليفة المهدي»[٣].

ويضــيف فيلــيب حتـــي منبهـــراً: «ومـــن أعجب الظواهر في حياة النصـــرانية فـــي ظل الخلفاء، أنه كان لها من القوة والنشاط، ما دفع بها إلى التوســـع، فافتتحت لها مراكز تبشيرية في الهند والصين. وقد أنبأنا ابن النديم عـــن اجتماعه براهب في دار الروم ببغداد كان قد أنفذه الجاثليق مبشراً إلى الصين»[٤].

كـــان الحـــوار الحر هو الطريقة التي اتبعها المسلمون مع أبناء البلاد التـــي فتحوها. وكانت غالبيتها من المسيحيين، فنشأت معارضة دينية شديدة

---

(١) الأب الدكـــتور جـــورج شـــحاته قنواتـــي، المسيحية والحضارة العربية ــ بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ٩٦.

(٢) د. فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب، ج ٢، ص ٤٣٦.

(٣) د. فيليب حتي وآخرون، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٣٦.

داخل هذه البلدان. وكان رجال الدين على رأس طوائفهم يغذّون هذه المعارضة، عبر المناقشات اللامتناهية. وتوضيحاً لهذه الحرية الفكرية، نذكر بعض النماذج التي قامت في العصرين الأموي والعباسي.

«الكتب التي تركها يوحنا الدمشقي كانت صورة عن تلك المناقشات الحادة التي جرت بين السكان الأصليين من النصارى، من جهة، وبين المسلمين القادمين من خارج سوريا، من جهة ثانية. وفي بعض ما كتب يوحنا الدمشقي خطاب موجه إلى النصارى، يهاجم ويرفض التحول إلى الإسلام، مستعملاً بعض العبارات النابية والمهينة في وصفه للدين الإسلامي. كان كلام هذا الكاتب دليلاً على حرية التعبير في ذلك العصر. والجدير ذكره، أنه لم يتعرض من أجل ذلك لأي أذىً، رغم أنه لم يغادر سورية خلال حياته كلها. فقد نشأ في بلاط الأمويين كنديم ليزيد بن معاوية. وقد شغل المنصب الذي شغله أبوه من قبله؛ منصب وزير مالية معاوية بن أبي سفيان، لكنه استقال من الإدارة في عهد المروانيين، واختار الحياة الدينية، وصار راهباً.

«ويوحنا النيقي أو النيفي، قد لعب في مصر دوراً مشابهاً، نراه في ما كتب يصف الإسلام بأبشع الصفات. وكثيراً ما كان كلامه يحمل الإهانات في هذا السياق، مع أن هذا الرجل قد تولى رئاسة الإدارة الإسلامية في مصر عام ٦٩٦م. ويبدو أنه صدم بالتحول الكثيف إلى الإسلام في مصر، فظهر غضبه الجارف في كتابه التاريخي الذي ألفه باليونانية. وقد ترجم إلى الحبشية، وترجمت النسخة الحبشية، مؤخراً، إلى الانكليزية وتم طبعها. وقد ورد فيها ما نصه: «وفي أيامنا يتحول الكثير من المصريين إلى الإسلام، ولكن هؤلاء من النصارى المزيفين. لقد تركوا الديانة الحقيقية وتحولوا إلى دين البهائم، وقد ساعدوا عبدة الأوثان وحملوا معهم السلاح وحاربوا النصارى». وهذا الكلام على ما فيه من حقد وعنف وصلف، لم يعرض صاحبه للأذى في ظل الإدارة الإسلامية.

«أمـــا في العصر العباسي فيمكننا أن نتوقف ملياً عند كتابات أبو قرّه (٧٤٠-٨٢٠م) وفـــيها انـــتقادات عنـــيفة للإسلام فكراً وديناً، لأن المشادات الدينية، التي أصبحت شائعة في ذلك الزمن، كانت تدور فصولها في مساجد البصـــرة وبغـــداد وكـــل المدن الإسلامية الكبرى هي الشاهد على المظاهر اللبرالية التي حكمت الحركة الفكرية في ذلك العصر. ولا بد من الإشارة إلى رســـالة الجـــاحظ الشـــهيرة الموجهة إلى نصارى عصره حول مسألة ذبح الحـــيوانات. إن مـــناخ الحـــرية الفكرية التي سادت في البلاد الإسلامية في العصـــر الوســـيط (١٢٠٤م) مكـــنت المفكـــر اليهودي موسى بن ميمون، المعروف بالميموني في أوروبا، أن يؤكد بملء حريته، عبر كتاباته، أن دين إسرائيل أفضل من الإسلام، دون أن تعرضه هذه الكتابة لأي أذى.

«إن مـــناخ الحـــرية الفكـــرية الذي ساد في ذلك العصر شمل جميع الطوائـــف، حتـــى غير المعترف بها رسمياً. ويحدثنا التاريخ عن جمعية من المفكـــرين قامت في عام ٧٧٢م في مدينة البصرة. وكانت مؤلفة من عشرة مفكـــرين ذوي آراء مخـــتلفة ومتبايـــنة، بينهم المسلم السني والشيعي وأحد الزنادقة ويهودي ونصراني وصابئي.

«وقـــد صـــدرت، فـــي ظل ذلك المناخ من الحرية، كتب قانونية، من رجـــال ديـــن مســـيحيين ويهـــود، لمنع أتباع دينهم من الاحتكام إلى محاكم المسلمين في فض نزاعاتهم بحجة النقص في قوانينهم، فأخرج تيموثيوس في عـــام ٢٠٠هـــ كتاباً عن الأحكام القضائية للنصارى. وصدرت كتب مماثلة لليهود كما في بحوث موسى بن ميمون.

«يـــؤكد صـــلابة هذا الوضع الحضاري الناشئ بفضل المناخ الفكري الإسلامي الحر ما جاء على لسان الدكتور Isador Epistein من أن «مسلمي اسبانيا شجعوا بين اليهود إقامة حضارة يهوديةً تعادل في غناها وعمقها أغنى الحضـــارات». أما الدكتور أوروين رونزنتال وهو مؤرخ يهودي ومستشرق

يعمـل فـي جامعـة كمـبردج، فقد أكد في كتابه «اليهودية والإسلام» أنه «باسـتثناء العصر التلمودي لم يوجد في تاريخنا المضطرب الطويل عصر أكثر إبداعاً أو أكثر إيجابية من القرون التي بسط الإسلام فيها امبراطوريته، من شواطئ المتوسط حتى شواطئ المحيط الهندي»[1].

جاء في كتاب «الدعوة إلى الإسلام» تأليف توماس و. أرنولد، ترجمة إبراهـيم حسـن وزميليه، في صفحة ٥٣ وما بعدها: «وقد استطاع ميشال الأكبر، بطريرك أنطاكيا اليعقوبي أن يحبّذ ــ في ما كتبه في النصف الثاني مـن القرن الثاني عشر ــ ما كتبه أخوانه في الدين، وأن يرى اصبع الله في الفـتوح العربية، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامي طوال خمسة قرون. وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل:

«وهـذا هو السبب في أن إله الانتقام ــ الذي تفرد بالقوة والجبروت، والـذي يدير دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع ــ لمّا رأى شـرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا في كافـة ممـتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب، في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل (العرب) من بلاد الجنوب، لتخليصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفـي الحـق أنـنا إذا كنا قد حملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكـية مـنا، وإعطائها لأهل خلقدونيا[2] فقد استمرت هذه الكنائس في

---

(١) محمد العزب موسى، حرية الفكر، ص ٩٣. ط. بيروت ١٩٧٩، عن بحث في جريدة السفير للدكتور حسن الزين بعنوان: الإسلام والآخرون، تاريخ ١٩٨٩/٩/١٩.

(٢) أهـل خلقدونيا: يقصد بهم المسيحيون الذين اشتركوا في مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م وأخـذوا بالـرأي القـائل بـأن للمسـيح طبيعتين وإرادة واحدة، انسجاماً مع رأي الامبراطور. ولذلك سموا بالملكيين. وفيما بعد التحق هؤلاء بالكنيسة الكاثوليكية. وهم يسمون اليوم بالروم الملكيين الكاثوليك. أما اليعاقبة والأقباط الأرثوذكس، فقد اصروا علـى القـول بـأن للمسيح طبيعة واحدة، وتمردوا على رأي الامبراطور، لذلك فقد اضطهدوا ولاقوا العقوبة بنهب كنائسهم وسلب أديارهم، كما جاء في كلام البطريرك أعلاه.

حوزتهم (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى، وكنيسة حران). ومع ذلك لم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم، وحنقهم العظيم ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام».

إن التحول الكبير إلى الإسلام لم يحدث فجأة بعد دخول جيوش المسلمين. فالتحول الكبير إلى الإسلام تم عبر مئات السنين، وكان نتيجة اقتناع، وحوار طويل بعيداً عن كل ضغط أو إكراه، لأنه «لا إكراه في الدين» كما ينص كتاب الله. جرى ذلك في مناخ من التسامح والحرية الدينية والفكرية التي شهدتها العصور الإسلامية الأولى، استناداً إلى الأسلوب الذي شرّعه الله للتعامل مع معتنقي الأديان الأخرى من يهود ونصارى ومجوس: «**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**» (النحل، ١٢٥) وهؤلاء سمّوا بالمعاهدين أو أهل الذمة. وخاصة منهم اليهود والمسيحيين (أهل الكتاب): «**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**» (سورة العنكبوت، ٤٦).

أهل الذِمَّة

أهل الذِمّة هم الذين كانوا يعيشون في ظل الدولة الإسلامية من غير المسلمين، من يهود ومسيحيين ومجوس.

والذِمّة معناها العهد والأمان والكفالة، وجمعها ذِمام. وفلان له ذمة أي حق. ورجل ذِمّي: معناه رجل له عهد. وقوم ذِمَّة: أي معاهدون. وسمي أهل الذمّة ذمّة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم.

وأذمَّه: أي أجاره وتعهد بحمايته[1] وعقد الذمَّة، عقد بمقتضاه يصير غير المسلم في ذمة المسلمين؛ أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد[2].

(١) قاموس لسان العرب لابن منظور.

(٢) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، ط مصر ١٢٩٨هـ، ص ١٣٧.

والذمّـــي: هـــو مـــن له «الأمـــان علـــى نفسه وأهله وماله في المقام والسفر»[1]. وضمن الإسلام لهم «حق التنقل في دار الإسلام، والإقامة حيثما شـــاءوا، وارتياد الأماكن العامة، وحرية العمل، ومباشرة النشاط الاقتصادي الذي يرغبون فيه، ومزاولة العمل الذي يريدونه»[2].

يضـــاف إلى ذلك، للذمي، كما للمسلم، حرية التعلم والتجارة والزراعة والاجـــتماع، إلى غير ذلك من الحريات العامة التي ليس فيها تجاوز لحدود الله، والتي ليس فيها حرام أو معصية، ممنوعة على المسلم والمسيحي سواء بسواء[3].

ومن الحرمات المحفوظة للمسيحي كما للمسلم، حرمة المنزل الذي لا يجـــوز دخوله إلا بعد استئذان صاحبه، وهذا حكم جاء في قولـــه تعالى: «**يا أيهـــا الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلهـــا، ذلكـــم خير لكم لعلكم تذكّرون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حـــتى يـــؤذن لكـــم، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا، هو أزكى لكم، والله بما تعملون عليم**» (سورة النور، ٢٧-٢٨).

ويـــأخذ بعض المغرضين على المسلمين أنهم فرضوا على أهل الذمّة زيـــاً ولباســـاً خاصاً لإذلالهم. مع أن المتمحص في نصوص القرآن والسنّة النبوية، لا يجد أي ذكر أو إشارة إلى موضوع الزي هذا، ولم يصدر فيه أي تشـــريع، ولـــم نجد لـــه أثراً في زمن الرسول وخلافة أبي بكر، إلا أنه في زمـــن عمر بن الخطاب، حين بدأت حركة التوسع في الفتوحات إلى خارج

---

(١) ابن القيّم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ط دمشق ١٩٦م، ص ١٥٧.

(٢) د. عـــبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، بيروت ١٩٨٢، ص ١١٠.

(٣) د. أســـعد ســـحمراني ـــ الإســـلام بيـــن المذاهب والأديان ـــ دار النفائس، بيروت، ص ٩٣.

شبه الجزيرة العربية، ولأن الجند الفاتحين هم مجموع المسلمين المجاهدين من الجزيرة، ويرتدون زياً واحداً من اللباس، فقد طلب من أهل البلاد الأصليين، وهم من غير المسلمين، ألا يقلدوا الفاتحين العرب المسلمين في زيهم، لضرورات أمنية ما زال معمولاً بها، في يومنا، في جميع بلاد العالم؛ حيث تمنع كل الحكومات والدول على رعاياها تقليد لباس رجال الأمن والجيش في زيهم، للضرورات الأمنية والحربية. «فليس هنالك ما يدعو لقوانين تمايز في الزي بين اهل الكتاب وغيرهم من المسلمين. فالمواطنون المدنيون يخضعون في أزيائهم لما للمجتمع من أعراف وتقاليد، وهم جميعاً، على اختلاف المذاهب والشرائع والأديان، يتركون التزيي بزي الجند لاعتبارات تقتضيها مصلحة الأمة[1].

كذلك حفظ الإسلام للأقليات الدينية غير المسلمة حقها في ممارسة عباداتها، وإقامة شعائر دينها، وإقامة معابدها، والعناية بها، وممارسة الاحتفالات بالمناسبات الدينية، على طريقتهم الخاصة. فقد روي أنه في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، أنه كان يسمح للمسيحيين أن يسيروا في مواكب، حاملين الصليب، ويمرون في الشوارع العامة[2].

ونقرأ وصية رسول الله محمد (ص): «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة»[3].

---

(١) د. محمد عمارة، الإسلام والوحدة القومية، بيروت ١٩٧٩، ص ١١٠.

(٢) عادل تيودور خوري، المسلمون والنصارى أصدقاء، ص ١٠٥، (عن كتاب حوار المسيحية والإسلام، د. السيد محمد الشاهد، ص ١٨٨)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.

(٣) محمد حميد الله، الإسلام، ص ٢٦٥.

ونـــرى فـــي الـــتراث الإسلامي تشدد المسلمين بالبر بذمة رسول الله وعهـــده للنصـــارى والـــيهود والمجوس الذين قام بينهم وبين الرسول عهد، وأصـــبحوا فـــي ذمـــته، ما وجدناه في وصية الإمام علي بن أبي طالب قبل موته: «الله الله في ذمة نبيِّكم، فلا يظلمنَّ بين أظهركم». وما جاء في وصية عمـــر بن الخطاب: «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله، أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم». وما جاء في كتاب قاضـــي قضـــاة بغـــداد وفقيهها أبو يوسف الذي كتبه لهارون الرشيد حول الخـــراج، وتنظيم الأموال، حيث يقول: «وقد ينبغي يا أمير المؤمنين، أيدك الله، أن تـــتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد رسول الله، والتفقد لهم، حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهـــم إلا بحـــق يجب عليهم. فقد روي عن رسول الله أنه قال: من ظلم معاهداً، أو كلفه فوق طاقته، فأنا حجيجه إلى يوم القيامة»[١].

كذلـــك حـــافظ علمـــاء الأمـــة علـــى تذكير الحكام وإصدار الأحكام بخصـــوص أهـــل الذمـــة. فابـــن حزم في كتابه «المحلّى» يقول: «إن من كـــان فـــي الذمـــة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخـــرج بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك، صوناً لما هو في ذمة الله وذمة رسول الله».

ويقـــول الإمـــام علـــي بن الحسين زين العابدين، في كلامه المسمى «رسالة الحقوق» وأما حق أهل الذمة: فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله، وتفي بما جعل الله لهم من ذمته وعهده، وتكلهم إليه فيما طلبوا من أنفسهم... وليكـــن بيـــنك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله، والوفاء بعهده وعهد رسوله حائل، فإنما بلغنا أنه قال: «من ظلم معاهداً كنت خصمه، فاتقِ الله».

---

(١) د. حسن الزين، الإسلام والآخرون، سبق ذكره.

نجد أن الحفاظ على عهد رسول الله لأهل الكتاب، ظل الحامي لهم والمدافع عنهم طيلة العهود الإسلامية، حتى عندما كانوا يرتكبون من الأخطاء الجسيمة ما يعرضهم لأشد العقوبات؛ كما حدث مع موارنة جبل لبنان حوالي العام ٧٥٨-٧٥٩م حيث تمرّد بعضهم على الوالي العباسي في بعلبك. وقاموا بالسيطرة على بعض مناطق الساحل والجبل، وهاجموا قرى بقاعية وعاثوا فيها وسفكوا الدماء، ونهبوا الممتلكات، وأعلنوا ثورتهم على الدولة العباسية بالتعاون مع الروم، بقيادة «بندار». عند ذلك تحرك الوالي ضده، فغُلِب «بندار» على أمره، وهرب لاجئاً إلى بلاد الروم. فقرر الوالي صالح بن علي إخراج بعض الموارنة من قراهم القريبة من الساحل، وتوزيعهم في مختلف قرى ومدن بلاد الشام. وبذلك يختلطون مع مواطنيهم، ولا يبقون جماعة منغلقة على نفسها تتعاون مع الروم ضد الدولة. وتأمن الدولة العباسية شرها. وإذا بالإمام عبد الرحمن الأوزاعي، فقيه بلاد الشام، يهب مستنكراً هذا الإجراء، ويرسل إلى الوالي رسالة طويلة، رافضاً عمله هذا. ومما جاء في رسالته:

«كيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله «أن لا تزر وازرة وزر أخرى» وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به، وأحق الوصايا أن تُحفظ وتُرعى وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإنه قال: من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»[1].

وهذا ما حمل فيليب حتي على القول: «إن النظرة اللبنانية الشاملة، والروح اللبنانية السمحة تتجسدان في سماحة روح الأوزاعي وفي نبل أخلاقه. فإنه كان يشدد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الأمر يتعلق بالرعايا غير المسلمين[2].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، ص ١٦٧.

(٢) د. فيليب حتي، لبنان في التاريخ، سبق ذكره، ص ٣٢٩.

أقدم صورة عن العهد الذي قطعه رسول الله محمد إلى ملة النصارى، الذي تعامل بموجبه المسلمون مع المسيحيين خلال العهود الإسلامية.

كمـا أقـدم عهد الرسول لنصارى نجران، الذي قال فيه الأب لامنس اليسوعي من خلال دراسة مستفيضة وعميقة لهذا العهد: «إن معاهدة نجران، ليست مجرد عقد إذعان فرضه محمد على أهل نجران، ولكنه اتفاق متوازن، تمـت المفاوضـة بشأنه وأبرم برضى الفريقين، وعلى وجه المساواة، بين قوتين كانتا تتوسمان فيه خيراً ومصلحة لهما»[1].

عهد النبي محمد إلى ملّة النصارى

«هـذا كـتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين، بشيراً ونذيراً، ومؤتمناً على وديعة الله في خلقه، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسـل. وكـان الله عزيزاً حكيماً، كتبه لأهل ملته، ولجميع من ينتحل دين النصـرانية: مـن مشـارق الأرض ومغاربهـا، قريبها وبعيدها، فصيحها وعجمـيها، معروفها ومجهولها. كتاباً جعله لهم عهداً، ومن نكث العهد الذي فيه، وخالفه إلى غيره، وتعدى ما أمره، كان لعهد الله ناكثاً، ولميثاقه ناقضاً، وبديـنه مسـتهزئاً، وللعـنة مسـتوجباً، سلطاناً كان أم غيره من المسلمين المؤمنين. وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو وادٍ أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو ردنة أو بيعة، فأنا أكون من ورائهم ذاباً عنهم، من كل عدة لهـم؛ بنفسي وأعواني وأهل ملتي وأتباعي، كأنهم رعيتي وأهل ذمتي، وأن أعزل عنهم الأذى في المؤن التي تحمل أهل العهد؛ من القيام بالخراج، إلا ما طابت به نفوسهم، وليس عليهم جبر ولا إكراه على شيء من ذلك. ولا يغيّر أسـقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا حبيس من صومعته، ولا سائح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولا يدخل شيء

---

(١) دكتور حسن الزين ـ الإسلام وآخرون ـ سبق ذكره.

من مال كنائسهم في بناء مسجد، ولا في منازل المسلمين. فمن فعل شيئاً من ذلــك فقد نكث عهد الله، وخالف رسوله. ولا يحمل على الرهبان والأساقفة، ولا مــن يتعــبّد، جزية ولا غرامة. وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا؛ من بر أو بحــر، فــي المشرق والمغرب، والشمال والجنوب. وهم في ذمتي وميثاقي وأمانــي مــن كــل مكروه. وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المــباركة، لا يلزمهم ما يزرعوه؛ لا خراج ولا عشر، ولا يُشاطرونه لكونه برســم أفواههم، ويعانوا عند إدراك الغلة بإطلاق قدح واحد، من كل أردب برســم أفواههــم. ولا يلــزموا بخروج في حرب، ولا قيام بجزية، ولا من أصــحاب الخــراج وذوي الأموال والعقارات والتجارات مما أكثر من اثني عشر درهماً بالحجة في كل عام. ولا يكلف أحد منهم شططاً، ولا يجادلوا إلا بالتــي هــي أحسن. ويخفض لهم جناح الرحمة، ويُكفُّ عنهم أذى المكروه، حيــثما كــانوا، وحيثما حلّوا. وإن صارت النصرانية [زوجة] عند المسلمين فعلــيه برضـــاها، وتمكينها من الصلوات في بيعها [كنائسها] ولا يحيل بينها وبيــن هــوى دينها. ومن خالف عهد الله واعتمد الضد من ذلك، فقد عصى ميثاقه ورسوله. ويعانوا على مرمّة بيعهم ومواضعهم، [يساعدوا على ترميم وإصلاح كنائسهم وأماكن عبادتهم]. ويكون ذلك معونة لهم على دينهم، ووفاء لهــم بــالعهد، ولا يُلزم أحد منهم بنقل سلاح، بل المسلمون يذبّوا عنهم، ولا يخالفوا هذا العهد أبداً، إلى حين تقوم الساعة، وتنقضي الدنيا».

شــهد بهــذا العهــد الذي كتبه رسول الله، محمد بن عبد الله، لجميع النصارى للوفاء بجميع ما شرط لهم عليه، من أثبت اسمه وشهادته آخره:

علي بن أبي طالب، أبو بكر بن أبي قحافة، عمر بن الخطاب، عثمان ابــن عفــان، أبــو الدرداء، أبو هريرة، عبد الله بن مسعود، العباس بن عبد المطلــب، فضيل بن عباس، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله، سعد بن معــاذ، ســعد بن عبادة، ثابت بن نفيس، زيد بن ثابت، أبو حنيفة بن عبيه، هاشم بن عبيه، عبد الله بن عمرو بن العاص.

وكـــتب علـــي بن أبي طالب هذا العهد بخط يده في مسجد النبي، في المديـــنة المـــنورة، بتاريخ الثالث من محرم، ثاني سني الهجرة، وختم بخاتم النبي.

نســـخت هـــذه النســـخة، صورة العهدة النبوية، عن خطيّة دار الكتب المصـــرية رقـــم ٨١٤، نقلها أحمد زكي باشا، المجموعة ص ٣٧٣. ونحن أخـــذناها من كتاب (مكاتيب الرسول) تاليف علي بن حسين علي الأحمدي، ص ٦٣٥.

عهد الرسول لنصارى نجران

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب النبي رسول الله محمد لنجران؛ إذ كان له عليهم حكمة في كل ثمرة؛ وصفراء وبيضاء وسوداء ورقيق. فأفضل عليهم وترك ذلك لهم:

«ألفـــي حلة حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلـــة، كـــل حلـــة أوقـــية، ومـــا زادت حلل الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحســـاب، ومـــا نقصـــوا من درع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بالحســـاب. وعلى أهل نجران مثواة (إقامة) رسلي شهراً فدونه، ولا يحبس رســـلي فوق شهر. عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً، إذا كان كـــيد الـــيمن ذو مقدرة، وما هلك، مما أعاروا رسلي من خيل أو ركاب فهم ضـــمن، يـــردوه إليهم، ولنجران وحاشيتها (وتوابعها) جوار الله وذمة محمد النبـــي رســـول الله علـــى أنفسهم وملتهم (دينهم) وأرضهم وأموالهم وبيعهم (كنائسهم) ورهبانيتهم وأساقفتهم وغائبهم وشاهدهم، وكل ما تحت أيديهم، من قلـــيل أو كثيـــر، أو عِيرهم (قوافلهم) وبعثهم (جيشهم) وأمثلتهم (قوانينهم) لا يغير ما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم وأمثلتهم.

لا يفتن أسقف (لا يغيّر) ولا راهب من رهبانيته ولا واقف عن وقفانيته على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. وليس عليهم رهن ولا دم جاهلية. ولا يحشــرون ولا يعشّــرون (أي لا يجمعون ليخذ منهم الخراج ولا يؤخذ منهم العشــر)، ولا يطأ أرضهم جيش، من سأل منهم حقاً فبينهم النَصَف (العدل) [والمــراد أن يقــيموا العدل فيما بينهم دون تدخل من أحد] غير ظالمين ولا مظلومــين بنجران، على أن لا يأكلوا الربا، ومن أكل منهم رباً من ذي قبل، فذمتــي مــنه بريئة. (أي من أكله فيما بعد). وعليهم الجهد والنصح في ما اســتقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر. ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً حتى يأتي أمر الله، ما نصحوا وأصلحوا في ما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم»[1].

ورد نــص هذا الكتاب في فتوح البلدان ص ٧٦، واليعقوبي ج ٢ ص ٦٧، والطــبقات الكبــرى ج ١ ص ٢٨٧، وأخرجه الرازي في تفسير آية المــباهلة، وجمهــرة رسائل العرب ج ١ ص ٧٦، وفي تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٩٣، وفي الطبقات: شهد عليه أبو سفيان بن حرب وغيلان

(١) بعث النبي كتاباً إلى نصارى نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام. فجاءه وفد من وجهائهم وكهنــتهم يستطلعون حقيقة أمره. هل هو نبي حقاً أم يدعي النبوة. ولما أصروا على شــكهم بنــبوته وصدق دعوته وإذا كان مكلفاً بها من الله، عندئذ دعاهم للمباهلة وفق الآية التي نزلت عليه من ربه «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل تعالوا نــدع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبــين» (آل عمــران، ٦١). «فخــرج رسول الله، ومعه علي وفاطمة والحسن والحســين. فتهيبوا المباهلة ولم يباهلوا وعرضوا عليه صلحاً على أن يدفعوا كل عام ألفــي حلــة ثمــن كل حلة أربعون درهماً» (الكامل لابن الأثير). وأن يعيروا رسل رسول الله، إذا كان هنالك تمرد على المسلمين في اليمن أو وقوع فتنة، ثلاثين فرساً وثلاثــين بعيــراً وثلاثين درعاً، مساعدة لهم. وكل ما يتلف من هذه العارية يعوض عليهم ثمنه من المسلمين.

ابـــن عمـــرو ومالك بن عوف والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة، حققه صاحب «مكاتيب الرسول» علي بن حسين علي الأحمدي، ص ٣١٨.

أمـــا بالنسبة لرجال الدين المسيحي، فلم يكلفوا بشيء. وكتب بذلك لهم عهداً وجهه لأسقف نجران أبي الحارث بن طقمة هذا نصّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«مـــن محمـــد النبي إلى الأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ومـــن تـــبعهم ورهبانهم: إنَّ لهم ما تحت أيديهم من قليل أو كثير؛ من بيعهم (كنائســـهم) وصلواتهم (أماكن صلاتهم) ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله (أي منعته وأمانه). لا يغيّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن مـــن كهانـــته، ولا يغيّر حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا علـــيه. على ذلك جوار الله ورسوله أبداً، ما نصحوا وصلحوا في ما عليهم، غير متقلين بظلم، ولا ظالمين».

ورد هذا النص في الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٦٦. والبداية والنهاية ج ٥ ص ٥٥، وزاد المعاد لابن القيم ج ٢ ص ٤١.

حققه صاحب كتاب «مكاتيب الرسول» علي بن حسين علي الأحمدي، ص ٣٣٣.

عهد الانحطاط

بـــيد أنـــه، فـــي أواخـــر العهد العثماني، حيث تحول العثمانيون إلى العنصـــرية الطورانية، وبَعُد عهدهم بالإسلام ومفاهيمه التي ترى أن «الخلق كلهـــم عـــيال الله». لا عرقية ولا شوفينية. ويوم ران على أمة الإسلام عهد الانحطاط والتخلف ــ لا مجال لبحث أسبابه في هذا الكتاب ــ وعمت الأمّية شـــعوب الامبراطورية العثمانية، وخاصة الشعوب العربية منها، حيث صمم حكـــام اســـطنبول على تتريك العرب، وإلغاء اللغة العربية. وأصبح ما كان

يعــرف بالجهاد في سبيل الله، من أجل الدفاع عن بلاد المسلمين ونشر دين الإســلام، أصــبح حــرباً من أجل توسيع نفوذ السلاطين، وزيادة ثرواتهم، وتوسعة ملكهم، وجلب الذهب والفضة إلى خزائنهم. وبعُد الزمن عن الخلافة الراشدة. وتحولت الخلافة إلى «ملك عضوض»، والخليفة المؤمن المتواضع لله، تحول إلى امبراطور أو سلطان متكبر متجبر، يحكم شعبه بالحديد والنار، والمشانق، «والخازوق»، وتغييب المعترضين على حكمه في لجة البوسفور، وامتلأت القصور بالحريم والجواري والفحش. ولم يبق من محرمات الإسلام وأخلاقــياته وقــيمه إلا الشــيء القلــيل، وزال العدل، وحل الظلم، وتفشت الدســائس والرشاوى، وباعد الظلم بين الحاكم والمحكوم. وكبتت الحريات، وكمّــت الأفواه، وكسرت الأقلام، ولم يعد بين الجهل والظلم مجال لرأي أو لكلمة حرة.

عــند ذلــك قامت الفتن والثورات للتخلص من جور السلاطين، الذين أمعــنوا فــي تجهيل الشعوب ليسهل عليهم حكمها. فأصبح الجهل مطبقاً في طــول الــبلاد وعرضـــها. وأطلق على الدولة العثمانية اسم الامبراطورية، والدولـــة العلــيّة، تعظيماً للباب العالي (السلطان)، والصدر الأعظم (رئيس وزرائـــه). وتـــبع ولاة الأقالـــيم أســيادهم، في الآستانة، بالجور واستغلال الشعوب.

كانـــت «الدولة العلية» تسير نحو انهيارها، وأطلق عليها لقب «الرجل المــريض». وطمعــت فـــيها دول الغــرب التي كانت صاعدة في علومها وصـــناعاتها وتقــدمها، ونمو قوتها. بينما كانت دولة بني عثمان ترزح في جهلها وتقهقرها، وتتحدر نحو نهايتها المحتومة.

فـــي تلك الفترة من الأمية الكاملة، والجهالة المطبقة، وظلم السلاطين، لم يعد للإسلام دولة، حتى ولا وجود فكري، ورانت الأمية حتى على علماء الدين، وتحولوا مرغمين إلى جهاز إعلامي، يرأسه «شيخ الإسلام» أو المفتي الأكبر، المتلقي المباشر «لفرمانات» السلطان، وأوامر الدولة العلية، يوزعها

علـــى مفتي الديار، ليوزعها هؤلاء بدورهم على أئمة المساجد، لتلقى أوامر الـــباب العالي على العباد، من على منابر المساجد في صلوات الجُمَع. وندر وجـــود علمـــاء دين، بل أصبح هنالك مشايخ، أشباه علماء، يرتدون العمائم ويلبسون زياً مميزاً لجهاز رسمي يتقاضى معاشاته من خزانة الأوقاف التابعة لوزير في حكومة الآستانة، وينفذون أمر ذوي الأمر. ويؤمُّون المصلين في المســـاجد التـــي لم يبق منها سوى شكلها، يؤدي فيها الصلاة شعب محضنته الأمية، إذ لم يبق علم ولا معرفة، ركوعاً وسجوداً، بعيدة عن فحوى معانيها الإلهية السامية.

لقـــد غاب الإسلام عن الفعل؛ «فالعلماء» جهلة، والشعب المسلم يعيش فـــي انحـــدار معرفي وحضاري مميت، فلم يعد ثمة علم ولا معرفة. إذ ليس هـــنالك مدارس، ولا معلمون. ومن حسن رعاية الله، كان بعض من يستطيع تهجـــئة كلمـــات اللغة العربية، يجعل من نفسه معلماً للأولاد، تحت سنديانة عتـــيقة أو في بيت خرب. لكن «الدولة العلية» لم تترك، حتى لهؤلاء أشباه الأميين، ممارسة عملهم، فأمعنت في تحقيرهم، فأسقطتهم من الحقوق المدنية، بســـبب عملهـــم «الشائن» هذا، فمنعت قبول شهادة معلم الأولاد في المحاكم الشـــرعية الرسمية بأمر رسمي من أصحاب السلطان، إمعاناً في تحقير العلم والمتعلمـــين، وتصـــميماً على تعميق الأمية بين الشعوب العربية، من أجل ضـــمان الـــولاء الأبدي «للباب العالي» القابع سعيداً على رأس السلطة في اسطنبول.

فـــي تلـــك الحقـــبة السوداء من تاريخ الدولة العثمانية، وتدخّل الدول الغربية لتنال كل منها نصيبها من تركة «الرجل المريض» الذي أضحى على وشك الموت، بدأت الاتصالات الأوروبية بالأقليات الدينية، من أجل تجنيدها لصـــالح الـــورثة المفترضـــين. كما كان يجري الاتصال بالمسلمين أنفسهم لتحـــريض القوميات الأخرى ضد الحكم التركي الجائر، وإغداق الوعود لهم بالاستقلال. فكثرت الدسائس والفتن، وأثيرت النعرات الطائفية والقومية، من

أجل تفكيك عرى الدولة لقضم أطرافها. وأخذ المسيحيون من رعاياها موقفاً واضحاً ضدها. فكان لها، هي أيضاً، موقف منهم. فراحت تحرض عليهم بعض المسلمين باسم الطائفية الإسلامية التي أرادت أن تتحصن فيها ضد الدول الغربية المسيحية. فكان التقاتل الطائفي، والتحاقد بين المسلمين والمسيحيين (كما في فتنة ١٨٦٠م في لبنان).

ففي ظل التخلف الفكري والمعرفي، في هذا الشرق، لم يعد هنالك مسلمون يفهمون الإسلام ويسلكون مسلكه، ولم يعد هنالك مسيحيون يلتزمون منهج دينهم، ويتصرفون وفق تعاليمه.

رغم مرور الزمن، ورغم مرور عشرات العقود على انتهاء العهد العثماني، ورغم حصول الأقطار العربية على استقلالها، لم يتخلص بعض الناس من تلك اللّوثة الطائفية السوداء، بل لا زالوا يتوارثون هذا المرض العضال جيلاً بعد جيل، ولاحقاً عن سابق. وإنني لأعزو هذا إلى فترة الانحطاط الفكري والثقافي التي عشناها في ذلك العهد المشؤوم. ولا زال بعضنا يعيش تلك الحقبة من الجهل، ولا زالت الأمية الفكرية تسيطر على الكثير من مجتمعاتنا العربية. ولمّا نتخلّص بعد من آثار تلك الحقبة المظلمة من تاريخنا، وندخل إلى نور الحضارة والعلم والوعي الذي بعثه الله فينا عن طريق رسله، وكتب الوحي الإلهي التي بين أيدينا، حيث عميت بصائرنا، التي لا تزال مغشاة بغشاوة الجهل والتخلف، عن رؤية الحقيقة الساطعة كنور الشمس في آيات الإنجيل والقرآن. ولا زالت الإحصاءات تدلنا على أن ٣٥ بالمائة من الشعوب العربية لا زالوا يعيشون حالة الأمية رغم مضي قرابة القرن على نهاية العهد العثماني.

وما أولئك المتعصبين بعصابة الجهل، المغمضين عيونهم عن نور الحقيقة، من بعض الفرق الدينية المتشددة، من مختلف الطوائف، كل يتمنطق بمنطق الطائفية، والدين منه براء، ممتشقاً سيف الحقد والضغينة اللذين ليس

لهمـــا أساس في كتبنا السماوية، ويظن نفسه يناضل باسم الله، ولنصرة دينه، وهو لا يناضل إلا باسم الشيطان، وما غرس في نفسه من شر. فالله، في دين المؤمنـــين به، حق ومحبة ورحمة. فمن سار في طريق الله، ينير قلبه بنور الإيمان والرأفة، ويطهر نفسه بطهر الفضيلة والقداسة.

فـــلا يجوز، قياساً على تلك الحقبة السوداء من أواخر العهد العثماني، الحكـــم الـــيوم على ذلك التاريخ الطويل من التوادد والتراحم، بين المسلمين وبين أبناء الأديان الأخرى، حيث أمّنوا لهم حرية عباداتهم، وإنشاء معابدهم، وممارســـة طقوس دينهم، طوال اثني عشر قرناً، لم يسجل التاريخ فيها إلزام أحـــد على ترك دينه، ولم يدنس فيها معبد، ولا هتكت فيها حرمة دير. وهذه الأديرة والكنائس والبيع والمعابد المنتشرة في جميع أصقاع الدولة الإسلامية، مـــنذ مئات السنين، وحتى يومنا، وبعضها يعود تاريخه إلى ما قبل الإسلام، لخير دليل على سماحة الإسلام، واحترامه لجميع الأديان الأخرى، والمحافظة عليها وعلى معتنقيها.

الفصل السابع

نظام الحكم في الإسلام

هناك صيغة للحكم يعتدُّ بها المسلمون، وهي نظام الشورى. هذا النظام هو صيغة تلزم الحاكم بعدم التفرد برأيه واستشارة الناس في شؤون الإدارة والحكم، وما يطرأ من مستجدات على مصائر البلاد والعباد. ومشاركتهم في وضع الحلول لها بما يؤمن مصلحة الفرد والجماعة، ولا يتناقض مع أسس الشرع الحنيف. وتأكيداً لهذه الصيغة فقد خصها الله بسورة في القرآن سميت باسمها (سورة الشورى).

ذكرت هذه الشورى، بصيغة الأمر الإلهي، في القرآن، حيث يخاطب الله عز وجل رسوله بقوله: «**وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**» (آل عمران، ١٥٩). فكان الرسول هو القدوة الذي طبّق هذا الأمر الإلهي، في السلم والحرب؛ فيأخذ بمشورة أحد صحابته، سلمان الفارسي، ويحفر خندقاً حول المدينة من أجل الدفاع عنها في الغزوة التي عرفت بغزوة الخندق. وأخذ بمشورة صحابي آخر في غزوة بدر بخصوص تموضع جيشه ليكون أكثر ملاءمة لكسب المعركة. ويوم موقعة أُحُد نزل عند رأي الأكثرية من أصحابه، وخرج إلى أُحُد لملاقاة جيش المشركين، رغم أنه كان له رأي آخر في إدارة المعركة[١].

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، غزوة أحد، الجزء الثالث، ص ٦٧، مصر ١٩٣٦.

هذه الشورى طبقها الرسول في حياته لتكون النموذج في إدارة شؤون البلاد، وحكم العباد، ولتكون السنة التي تضمن عدم استبداد الحكّام، وإشراك الناس في الحكم، ووجوب نزول الحاكم عند رأي الأكثرية.

ولــم يكن الأمر الإلهي في الشورى مقتصراً على النبي، بل جعله الله صـــفة من صفات المؤمنين الصالحين المطيعين لأوامر الله تعالى: «**والذين يجتنـــبون كبائـــر الإثـــم والفـــواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين اســـتجابوا لربهم وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون**» (الشورى، ٣٧ و٣٨). فنظام الشورى هو فريضة إلهية، والتزام شرعي على المسلمين. وقد ورد بشأن الشورى أحاديث عديدة عن النبي والصحابة والأئمة.

هــذه الشـــورى التي طبقها الرسول وبعض أصحابه الذين ولّوا أمور المسلمين من بعده، كل حسب رأيه واجتهاده، لم يتوافق المسلمون على وضع صـــيغ وقـــواعد ثابـــتة لهـــا، ولم يبيّنوا ما هي المواصفات التي تحدد أهل الشـــورى، أو مـــا ســـموا فـــي صدر الإسلام بأهل الحل والعقد، وكيف يتم انـــتخابهم مـــن بـــين أفراد الأمة؟ وبالتالي، لم يضع، لا فقه القدماء ولا فقه المحدثـــين باباً فقهياً يعالج فيه قضية الشورى وأحكامها، كما عولجت سائر الأبـــواب الشرعية. كذلك، هل تقتصر الشورى على جماعة محددة من أهل الحل والعقد، أم يمكن توسعتها لتشمل جماهير الأمة؟

ودرج الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم على تطبيق نظام الشورى، فالخليفة الأول أبو بكر الصديق ألقى خطبته الأولى، بعدما أخذ البيعة، معلناً فـــيها التزامه برأي الناس في ما يتعلق بشؤون الحكم: «أيها الناس، فإني قد ولـــيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني». لقد أعطى الناس حق تقويمه إن أساء. وبهذا فقد أوضح وجهاً هاماً من وجوه الشـــورى، وهـــو حـــق الشعب في مراقبة الحاكم ومحاسبته. كذلك حقه في انـــتخابه وتعيينـــه. فالخليفة الراشد استلم الحكم بناء لمبايعة الناس لـــه، هذه

المبايعة هي التي أعطته شرعية حكمه. لكنها لم تطلق يده ـ وفق نظام الشورى ـ في الحكم على هواه ومزاجه، بل قيدته بأوامر الله ونواهيه، وهو يقر لها بذلك بقوله في الخطبة نفسها: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[1].

إذاً، فشرعية الحاكم، كما هو مبين، يأتي من مصدرين. أولهما: انتخابه من الشعب. وثانيهما: التزامه بأوامر الله ونواهيه. ومهمة الشعب هي اختيار الحاكم ومراقبة سلوكه في إدارة شؤون الحكم، فطاعته واجبة ما أطاع الله، ومعصيته لازمة إذا خالف أوامره. جاء في الحديث النبوي: «السمع والطاعة على المرء المسلم في ما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية. فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (البخاري ومسلم).

على هذا النهج سار الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، أي أنه استمد شرعية حكمه من التزامه بأوامر الله ونواهيه، وإن تكن خلافته لم تأتِ من انتخاب شعبي، بل من وصية الخليفة الأول. أما مبدأ رقابة الناس ومحاسبتهم للحاكم، وعدم السماح له بالتفرد برأيه، فقد طبقت في عهده خير تطبيق؛ تتجرأ عليه امرأة، يوماً، وهو على المنبر يخطب بالناس، فتخطّئ كلامه. فيقطع خطبته مصغياً إليها، معترفاً أمام جميع سامعيه بقوله: «أخطأ عمر وأصابت امرأة». أما في ما يتعلق بالأخذ بمشورة أهل الحل والعقد، فلم ينِ عمر عن الأخذ بها. وهو القائل، للناس: من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمه. فيجيبه أحدهم: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا. فيحمد الله على أن في أمة الإسلام من يقوّم الخليفة عمر بسيفه. وهو القائل دونما تعقيد قولته: «لولا عليّ لهلك عمر» وعلي كان من أقرب وأخلص مستشاريه.

(١) عظماؤنا في التاريخ، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، ص ١١٤.

أمـــا في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فقد خُرق مبدأ الشورى، واســـتأثرت فـــئة من أقرباء الخليفة بالسلطة والإدارة، وحكم وفق مصـالحها وأهـــوائها، وارتكبت أخطاء لم يستسغها، ولم يستطع السكوت عليها جيل من المسلمين تربّى على مبدأ الشورى والعدل ومحاسبة الحكام، على يد الرسول وأبـــو بكـــر وعمر. فلم يرضَ هذا الانحراف، ولم يستطع، بموجب عقيدته وتـــربيته الإسلامية، ومسؤوليته أمام الله، السكوت عن المنكر الذي هو من أكبر المحرمات على المسلم. فكانت الفتنة الكبرى التي أدت إلى مقتل الخليفة عـــثمان الـــذي أصر على الأخذ بنصيحة ذوي قرباه، وأعرض عن مشورة ذوي الحل والعقد من صحابة رسول الله[1].

وعـــندما بويع الخليفة الرابع علي بن أبي طالب أعاد للشورى حكمها، وأعطاهـــا بعدها العملي على المستوى السياسي. فسمح لمعارضيه الخوارج، الـــذين وصلت معاداتهم لـــه حتى تكفيره بسبب قبوله بالتحكيم، بإبداء رأيهم وانتقاده. وراح يقارعهم الحجة بالحجة، ويحاول، عن طريق الكلمة، تصحيح أفكـــارهم، ويرسل لهم من ينصحهم ويقنعهم ليعيدهم إلى جادة الصواب. ولم يـــرض أن يســـتعمل معهم القوة لردعهم عن غيهم، وتطرفهم، معتبراً ذلك حقـــاً شرعياً من حقوقهم. وبذلك فقد كرّس حق المعارضة السياسية للحاكم. ولـــم يبادر إلى قتالهم إلا بعد أن خرجوا على شرع الله بسفكهم دم الصحابي عبد الله بن خبّاب بتهمة موالاته لعلي، وبعد أن جيشوا الجيوش لقتاله، وبعد أن استباحوا دمه ودم من لا يشاركهم رأيهم من المسلمين.

كـــذلك لـــم يمنع طلحة والزبير عندما استأذناه للذهاب إلى مكة بحجة العمرة، وهو يعلم مقصدهما من تلك العمرة. قائلاً لهما قولته الشهيرة: «هل هي العمرة أم الإمرة». واعتبر أن منعه إياهما هو حدّ من حريتهما الشخصية التـــي ضـــمنها لهمـــا الشرع الإسلامي. ولم يرضَ أن يتخذ من منعهما سنّة

---

(١) طه حسين ـــ الفتنة الكبرى ـــ ص ١٣٤ وما بعدها.

يتخذها الحكام للحدّ من حرية الناس من بعده. وإن نتج عن تلك الحرية حرباً سميت بحرب الجمل، سفكت فيها دماء الآلاف من المسلمين. كما قبل بالتحكيم، نزولاً عند رأي الأغلبية من جماعته رغم عدم اقتناعه به. وقد كان يرى إرسال عبد الله بن عباس ممثلاً عنه في التحكيم، ولكنه نزل على رأي أصحابه وأرسل أبا موسى الأشعري رغم عدم اقتناعه بكفاءته لهذا الأمر.

وجعل جميع الناس متساوين أمام القضاء، معطياً القدوة بنفسه، يوم أقام دعوى على ذمّي لدى القاضي، بخصوص درع كان قد فقدها، وتعرّف عليها مع الذمي. ووقف أمام القاضي أثناء المحاكمة متساوياً مع خصمه. وقد قبل راضياً بحكم القضاء الذي صدر ضده لعدم كفاءة البيِّنة لديه.

وأعطى للناس حق خلع الخليفة المبايع إذا أحدث حدثاً (أي ارتكب عملاً مخالفاً فيه كتاب الله وسنة نبيه)، بقوله مخاطباً طلحة والزبير: «فليس لكما غير ما رضيتما به من بيعتي، إلا أن تخرجاني مما بويعت عليه بحدث. فإن كنت أحدثت حدثاً فسمّوه لي»[١].

وبعد أن تمت له البيعة بإجماع الناس بعد مقتل عثمان، صعد المنبر ثم قال: «قوموا فتخللوا الصفوف، ونادوا: هل من كاره؟ (أي هل يوجد أحد أكره على البيعة أو أجبر عليها)... فتصارخ الناس من كل جانب: اللهم قد رضينا وسلّمنا وأطعنا»[٢].

وكان عهد علي هو آخر عهد للشورى في الإسلام. إذ تحولت الخلافة إلى ملك عضوض، يتوارثه أبناء العائلة الحاكمة طوال العهود الأموية والعباسية والعثمانية. واستبد «الخليفة الملك» برأيه.

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٩٥.

(٢) المناقب، ج ٢، ص ٤٢٠.

فنظام الشورى يعني إشراك جميع الناس في إدارة شؤون الحكم. وكان الجامع هو المكان الذي يجتمع فيه المسلمون ليستمعوا إلى رأي الحاكم أو من ينوب عنه، في ما استجد من أمر الحكم، وإبداء رأيهم فيه، عملاً بسنة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين. لكن هذا الفرض الإلهي المقدس قد ألغي تماماً منذ تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة، وحتى عهد السلطان عبد الحميد آخر الخلفاء، مُروراً بالعهود الأموية والعباسية والعثمانية كافة.

وكان يوم الجمعة هو عبارة عن مؤتمر أسبوعي يجتمع فيه الناس للصلاة ولمناقشة أمر إدارة الدولة وشؤون معيشتهم مع من تولوا شؤون الحكم. لكن هذه المشاركة الجماعية للناس في أمور الحكم (الشورى) لم تدم إلا في عهد الرسول وخلفائه الراشدين الأربعة. ثم تحول الجامع إلى مسجد، وتحول يوم الجمعة إلى صلاة مقصورة، وخطبة يلقيها على مسامع المؤمنين موظف من قبل الحاكم، يدعو له بطول العمر ودوام المجد، ويدعو الناس للزهد في هذه الحياة الدنيا الفانية، وترك شؤونها للحاكم، والتطلع إلى الحياة الأخرى الخالدة، والعمل على الفوز بالجنة، حيث الحور العين، وحيث النعيم الدائم، وحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت. وأعفي المسلمون من المسؤولية التي فرضها الإسلام على كل مسلم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (البخاري ٢/٣١٧) وانتهى عهد المبايعة الحرة للخليفة، وأصبح منصب الخلافة ينال بالتوريث، وانتقلت الدولة من دولة الإسلام إلى الدولة البيزنطية أو الكسروية، من حيث تفرد الملِك بالحكم، وانتقال المُلْك إلى الأبناء بالوراثة. وانتهى عهد استفتاء المسلمين في القرارات الهامة، ولم يعد للناس حق الإشراف على الحكم. ولم تعد الأمة هي مصدر السلطات. واستغنى جهاز الحكم عن مراقبة الأمة. ولم تعد قرارات الحرب تؤخذ بعد استشارة المسلمين، بل غدت تؤخذ بأمر الخليفة الملك وعلى الناس الطاعة، ولا يحق لأحد مناقشة أولياء الأمر.

وألغيت فريضة الجهاد التي كان على المسلم أن يلبيها بموجب أمر إلهي، ليقاتل في سبيل الله والمستضعفين في الأرض، وألغي جيش المجاهدين، وحلّ محله الجيش المرتزق من أجل حماية قصور الخلفاء. وأصبح الجهاد هو نشر الإسلام دون نظامه الجماعي، أي فتوحات عسكرية لتوسعة ملك السلاطين، وأصبح الإسلام مجرد شعائر تعيش في لغة الناس ولا تلامس واقعهم. فكان من نتيجة عدم إشراك الناس في شؤون الحكم وتطبيق نظام الشورى عزل الدين عن الدنيا. وراح السياسيون يبررون هذه المخالفة تبريراً فقهياً، مؤداه أن الدنيا ليست نهاية المطاف. وإن من لم ينل حقه فيها فسوف يعوضه الله عنه في الحياة الأخرى. وما على الناس إلا الصبر «والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»، وتأدية الفرائض الدينية من صوم وصلاة وحج وزكاة، واعتزال الدنيا وطلابها. وهذا التوجه ليس من الإسلام في شيء. فالإسلام لا يعوض على الناس خسائرهم، بل يحاسبهم على ما قدمت أيديهم، والإسلام لا يضمن الجنة للقاعدين الخاملين، بل يضمن للناس أن يحصدوا أضعاف ما زرعوا من أعمال الخير. فالحياة بعد الموت ليست تعويضاً عما خسره الناس في هذه الحياة بسبب تقاعسهم عن القيام بواجبهم. فالجنة ليست للفقراء الخاملين والمستضعفين، بل للصالحين العاملين، وليست للمتخاذلين عن نيل حقهم والراضخين لتسلط ذوي السلطان، بل للذين: «**إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**» (الشورى، ٣٩) وليس للراكنين إلى الظلم، فهؤلاء مأواهم نار جهنم. فالله حذرهم من ذلك بقوله: «**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**» (هود، ١١٣). وليس ما يقوله الإنسان أو يقرأه يكفي وحده لتقرير مصيره، بل ما يعمله هو الذي يقرر هذا المصير في الدنيا والآخرة. فالإيمان كما عرفه رسول الله (ص) «هو ما وقر في القلب وصدقه العمل». والله قد أمر الناس بالعمل، وهو يجازيهم على أعمالهم: «**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**» (التوبة، ١٠٥).

لقد سقط أهم أركان بناء الدولة الإسلامية بسقوط نظام الشورى، وسقطت معه مسؤولية الناس عن مصيرهم في هذه الحياة الدنيا. ونبغ فقهاء يفسرون الإسلام على أنه تبشير بجنة في حياة أخرى. فتعمقوا بشرح كيفيات العبادة، من صوم وصلاة وحج وزكاة، وفصّلوا فقه المعاملات بقدر ما سمحت به مستجدات الحياة في عصرهم. وتركوا للأجيال اللاحقة تراثاً غنياً بالفتيا وتفسير آي القرآن وأحاديث الرسول. لكن أحداً منهم لم يجرؤ على التفقُّه أو مجرد البحث في نظام الشورى وكيفية الحكم في الإسلام. لأن الخلفاء تبنوا نظاماً يتلاءم مع مصالحهم. ولم يعد الدين الإسلامي إلا مطية يمتطونها لتطويع الشعوب التي حملت اسم الإسلام.

لم يعد المسلم عبداً لله وحده، محرراً من العبودية لأحد، كما رباه الإسلام، بل أصبح عبداً لذوي السلطان، غير مسؤول عن مصيره في الحياة الدنيا كما عن مصيره في الآخرة. أما من تجرأوا على النطق بكلمة الحق في وجه سلاطين الجور، فقد نُكِّل بهم ليكونوا عظة لكل من تسوّل له نفسه الخروج على سلطة «أمير المؤمنين» ووزرائه وقواد جيشه وحملة أختامه وحراس قصره.

ومن غريب الأمور أن بعض الدول الحديثة تسمي في دستورها أن دين الدولة هو الإسلام. وهذا يعني أن نظام الحكم فيها هو نظام الشورى، ومشاركة الشعب في حكم البلاد حكماً جماعياً. وهذا أمر مرّ على إلغائه في البلاد الإسلامية أربعة عشر قرناً، وهي ليست منه في شيء.

ومن المفارقات أيضاً، أن هنالك جمعيات إسلامية تنفق أموالاً طائلة لنشر الإسلام بين الشعوب الأخرى، مع أن الإسلام لم ينتشر بعد بين أبناء أمة الإسلام كنظام حكم جماعي منذ عهد الخلفاء الراشدين. فدعاة الإسلام في هذا العصر لا يستطيعون أن يقدموا نموذجاً حياً عن المجتمع الإسلامي، إذ ليس أمامهم إلا النموذج الأوحد الذي عاش قرابة ربع قرن. ودفنه «أمراء

المؤمنــين» منذ ألف وأربعمائة سنة. وليس أمامهم من نموذج للحاكم المسلم إلا الرســول وخلفــاؤه الراشــدون. أما ما تلاهم من عهود فقد انقلبت فيها المفاهــيم رأساً على عقب. لقد غاب أمير المؤمنين الزاهد العادل المتواضع، الذي يشرك الناس في أمور دينهم ودنياهم، ليحل محله الملك المتجبِّر المتفرِّد برأيه والمستبد بحكمه. وتغير الكثير من المفاهيم الإسلامية، وجرى الانفصال الكلي بين الأمة والدولة. أمة مسلمة، وملوك أكاسرة، يطبق في محاكم الدولة حكــم الشرع، فشارب الخمر من الرعية يقام عليه الحدّ ويجلد أربعين جلدة. والزاني العازب يجلد مائة، والثيب يرجم، وقاتل العمد يقتل بقطع رأسه على يد سيّاف الخليفة. أما سكان القصور فيقصر عنهم تطبيق شرع الله الحنيف، حــيث تعاقر الخمرة، وترتكب الفواحش، وتطيح المؤامرات برؤوس شتى، ولكن لا يقام حدّ، ولا يقطع رأس ولا يزعج مرتكب فاحشة.

«فلــم يعد فرعون هو الحاكم المتسلط الذي يعيش حياً بين الناس، بل أصبح هو ملك مصر الذي تسلط على اليهود خلال الألف الثاني قبل الميلاد.

ولم يعد الدين هو الطريق إلى العدل في واقع الناس على الأرض، بل أصبح هو الطريق لتعويضهم في حياة غائبة أخرى.

ولــم يعــد الصابرون هم الناس الذين يصبرون على الشدائد في سبيل تغييــر واقعهــم. بل أصبحوا هم الناس الساكتين، الذين ينتظرون أن يتغير واقعهم بطول السكوت ورحلة الموت.

ولــم يعد جنود هامان هم الحرس الملكي الذي يسد الطريق إلى قصر الخلــيفة، بــل أصــبحوا قصة تاريخية، يرويها القرآن لغرض التاريخ، عن حرس ميتين، كانوا في حراسة طاغية ميت»(١).

---

(١) محــنة ثقافة مزورة ــ الصادق النيهوم، ص ٩٤، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت.

وأُفْتـي بقبول حكم الظالم والفاسق بحجة اتقاء الفتنة لأن «**الفتنة أشد مـن القتل**» (البقرة، ١٩١). وعملت الأمة بمبدأ التقية، اتقاء لظلم الظالمين وجور الجائرين. وكم من إمام مسجد فُرض عليه الدعاء بعد كل خطبة جمعة بـدوام ملـك الخلـيفة وطول عمره، وهو في سره يلعنه ويدعو عليه بأسوأ العواقب وبقصر العمر وسوء المصير.

وامتنع الفقهاء عن التفقّه في نظام الشورى وإشراك الشعوب في تقرير مصـيرها، مرغمين، بل أصبح بعضهم يقدم بعض النصائح للحكام الخلفاء، أمـراء المؤمنيـن مع الكثير من توخي الحذر والخوف على المصير، دونما التعرض لنظام الشورى من قريب أو بعيد، أو ذكر شيء عن دور الناس في شـؤون الدولـة وأمـور الحكـم. كمـا فعل الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية».

أما لجهة تعيين الخليفة، فكان للفتاوى دورها. فمنهم من أفتى بوجوب تعييـن الخليفة الإمام بنص إلهي، كما عند الشيعة الإمامية، فقد اعتبروا أنها عقـدت بموجـب نص نطق به رسول الله. وإن الإمامة (الخلافة) هي لعلي وأبنائه الأحد عشر من آل بيت النبوة. وهي امتداد للنبوة، وإن الإمام معصوم عن الخطأ بتأييد من الله، ليحافظ على الدين ويجنّبه أي خطأ أو انحراف بعد غياب النبي وانقطاع الوحي الإلهي. وبعد مقتل علي وابنيه الحسن والحسين نحـا أئمـة الشـيعة التسـعة إلى الاكتفاء بالإمامة الدينية (الإفتاء والإرشاد وتصحيح ما انحرف عن شرع الله). وامتنعوا عن المطالبة بالخلافة الزمنية وممارسـة الحكـم، بانتظار ظهور المهدي الإمام المنتظر الذي نصت عليه الأحاديـث النبوية بأنه سوف يقيم دولة الإسلام «ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعـد أن ملئـت ظلما وجوراً» (أبو داوود، مهدي، مسند أحمد ٣/٣٦ وابن ماجـه، متن، ٣٤). وهم منذ منتصف القرن الثالث الهجري ـ تاريخ غياب الإمـام الثاني عشر ـ وحتى اليوم، لا يطالبون بالخلافة، بل يدعون الله أن

يعجّل فرج أمة الإسلام ويخلصها مما هي فيه من تردٍّ بظهور الإمام المهدي الــذي ســيأتي، مؤيداً من الله، لإقامة دولة الحق في الأرض، ويقضي على الفساد والمفسدين.

وعندما تولى الحكم في إيران ذات الأكثرية الشيعية روح الله الخميني، لم يعلن نفسه خليفة، بناء لطلب وإلحاح بعض الفرق الإسلامية. وإنما قال: أنا نائب الإمام المنتظر.

وأمــا فقهاء السنة فكان لهم فتاوى متعددة. فمنهم من أفتى بأن الخلافة تعقــد بإجماع أهل الحل والعقد، ومنهم من أفتى بجواز عقدها بمبايعة خمسة منهم[١]، وذهب بعضهم على أنها تعقد بيعة واحد[٢]. أو تعقد بعهد من السابق إلــى اللاحق[٣]. وذهب بعضهم إلى القول بشرعية خلافة من استولى عليها بالســيف والقوة، شرط أن يكون قرشياً، وأن يجتمع عليه الناس، سواء أكان ذلــك الاجــتماع قبل استيلائه على السلطة أو بعدها[٤]. ولم يجرؤ أحد على الاعــتراض علــى صحة انعقادها بالتوريث. كما في جميع العهود الأموية والعباســية والعثمانية وعُمل بقاعدة شرعية تقول «إمام ظالم غشوم خير من فتــنة تــدوم»، بل اجاز بعضهم حكم الفاسق ما دام لم يرتد عن الإسلام[٥]. وعُمل بمبدأ الضرورات تبيح المحظورات.

---

(١) الأحكام السلطانية، للماوردي، ص ٧.

(٢) الأربعين في أصل الدين، للرازي، ص ٢٨١.

(٣) الأحكام السلطانية، للماوردي، ص ٧.

(٤) محمد أبو زهرة (الشافعي حياته وعصره)، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ١٢١.

(٥) مجمع الأنهر وملتقى الأبحر، عبد الرحمن بن محمد المعروف بــ(داماد أفندي)، دار الطباعة العامر، مصر (١٣١٩هـ)، ٦٩٩/٢. وحاشية الباجوري على شرح الغزي، ١٥٩/٢، وشرح العقائد النسفية، ص ١٨٠-١٨١.

والإمــام الغزالي يقول في كتابه «فضائح الباطنية» نشرة بدوي، ص ٨٢: «إن خلــيفة رسول الله قد أصبح في حالة تبعية كاملة لقوى أرضية أو دنيوية أخرى. ولهذا يعلن أن افتقار الخليفة (أو الإمام) للشروط المطلوبة فيه يمكن أن يعوضه معاونون أكفاء، وإن حرمانه من الحميَّة والقدرة على القتال يعوضـــه قائد شجاع، وقلة خبرته بفن الحكم والسياسة يعوضه وزير محنّك، وجهلـــه بأمـــور الـــدين يعوضه من يقدم له الرأي والمشورة من أهل العلم والورع».

ويقـــول الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، الجزء الثاني، ص ١٤٠ وبعدها: «إن سلطة الحكم تعتمد الآن على القوة العسكرية وحدها. ومن يقف قائداً لقواته في جانبه فهو الخليفة. ومن يملك زمام القوات في يده ويعترف، فـــي صـــلاة الجمعـــة وفي صك النقود، بالخليفة اعترافاً مبدئياً فهو سلطان يمـــارس الحكـــم والقضاء حسب الشرع». ويستطرد الغزالي بعد ذلك قائلاً: «إن الســـلطان الظالم ينبغي قبوله: «إذا استطاع أن يستند إلى العسكر بحيث يصـــعب خلعـــه، وإذا أدى تغيير الحكم إلى الفتنة القطيعة، فيجب تركه في مكانه والإقرار له بالطاعة»[1].

لكنـــنا نجد، بعد سقوط آخر سلاطين الجور، السلطان عبد الحميد، من يجـــرؤ على التصدي لهذا الأمر، ويحرم حكم الجبارين، واغتصاب الخلافة وتوريـــثها. وهو الشيخ محمد رشيد رضا بقوله: «وما أفسد أمر هذه الأمة، وأضـــاع علـــيها ملكها إلا جعْل طاعة هؤلاء الجبّارين الباغين واجبة شرعاً علـــى الإطـــلاق، وجعْل التغلّب أمراً شرعياً كمبايعة أهل الاختيار من أولي الأمر، وأهل الحل والعقد للإمام الحق. وجعْل عهد كل متغلِّب باغ إلى ولده

(١) الإسلام شريكاً، تاليف: فريتس شتيبات، ترجمة د. عبد الغفار مكاوي، عالم المعرفة، ص ١٧٤.

أو غيره من عصبته، لأجل حصر السلطان والجبروت في أسرته حقاً شرعياً وأصلاً مرعياً لذاته»[١].

وفي صفحة أخرى من الكتاب نفسه، يضيف الشيخ محمد رشيد رضا: «سلطة التغلب كأكل الميتة ولحم الخنزير عند الضرورة، تنفّذ بالقهر، وتكون أدنـــى من الفوضى... ومقتضاه يجب السعي دائماً لإزالتها عند الإمكان. ولا يجـــوز أن تـــوطّن الأنفس على دوامها. ولا أن تجعل كالكرة بين المتغلبين، يـــتقاذفونها ويـــتلقونها، كما فعلت الأمم التي كانت مظلومة وراضية بالظلم لجهلهـــا بالقوة الكامنة فيها، وكون قوة ملوكها وأمرائها منها. ألم تر إلى من اســـتناروا بـــالعلم الاجتماعـــي مـــنها كيف هبوا لإسقاط حكوماتها الجائرة، وملـــوكها المســـتبدين. وكان آخر من فعل ذلك الشعب التركي. ولكنه أسقط نـــوعاً من التغلب بنوع آخر عسى أن يكون خيراً منه. وإنما فعل تقليداً لتلك الأمـــم الأبية، إذ كان جماهير علماء الترك والهند ومصر وغيرها من الأمم والأقطـــار، يوجـــبون عليه طاعة سلاطين بني عثمان ما داموا لا يظهرون الكفر والردة عن الإسلام، مهما يكن من طاعتهم من الظلم والفساد، وخراب البلاد، وإرهاق العباد، عملاً بالمعتمد عند الفقهاء بغير نظر ولا اجتهاد[٢].

هـــذه الفتاوى التي أصدرها بعض فقهاء المسلمين، في عصور «الملْك العضـــود»، تســـتند في بعضها إلى أحاديث وضعها الوضّاعون لدعم أنظمة الحكـــم الجائـــرة، المبتعدة عن حكم الشورى الذي نصَّ عليه القرآن وطبقه الرسول (ص). من مثل ما روي عن حذيفة بن اليمان. قال: «قلت يا رسول الله، إنا كنّا بشرّ فجاء الله بخير فنحن فيه. فهل من وراء هذا الخير شرّ؟ قال: نعـــم. قلت: وهل وراء هذا الشر خير؟ قال: نعم. قلت: فهل وراء ذلك الخير شـــر؟ قال: نعم. قلت: كيف يكون؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي،

---

(١) كتاب الخلافة، الشيخ محمد رشيد رضا، الزهراء للإعلام العربي، مصر، ص ٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥-٤٦.

ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان أنس. قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك. فاسمع وأطع»[١] (سيأتي التعليق على هذا الحديث).

ومن مثل ما روي عن أم سلمة عن النبي (ص) أنه قال: «سيكون أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رغب وتابع». قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلّوا»[٢].

نتيجة لهذه المفاهيم التي سادت في ذلك العصر، ونتيجة لتفرد الخليفة في رأيه بعيداً عن مشورة الناس ومشاركتهم في إدارة الدولة والحكم، حدث انفصال بين الأمة والدولة. وأصبحت شؤون الدولة هي من اختصاص العائلة الحاكمة. وأصبح ولاة الأقاليم أمراء يتوارثون العروش في نظام أسري كنظام وراثة الخلافة، ولم يعودوا مجرد موظفين في ديوان الخليفة. وفُتح أمامهم الباب للتمرد والعصيان. فكلما شعر أحدهم بقوة سلطانه أعلن انشقاقه عن الخلافة واستقل بمملكته، وفي أحسن الأحوال، تبقى دولة تابعة اسمياً للخلافة، لكنها، واقعاً، تصبح مملكة تنعم باستقلالها، ويتوارث حكمها بين أبناء العائلة. وغدت الدولة دويلات يناجز بعضها بعضاً العداء والحروب.

وأصبح نظام الخلافة معرضاً للضرب من داخله بسبب نزاع الأمراء على امتيازات السلطة، وعلى كراسي الحكم. فابنا هارون الرشيد خاضا حروباً ضروساً بينهما، استعان أحدهما بالفرس، واستعان أخاه بالعرب. وانغمسوا جميعاً في حرب أخذت المنحى العنصري، شملت معظم العراق وخراسان، وأدت بعد ثلاث سنوات من الحروب الطاحنة إلى حصار بغداد

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ٥٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) مسند أحمد ٦/٣٠٥، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ٦٢ و٦٣.

وتهديم بيوتها، وإلى أن احتزّ الجنود الفرس رأس الخليفة الأمين وبعثوه إلى أخيه المأمون في خراسان.

فكرسي الحكم الذي صعد إليه المأمون بقوة الجيوش، وسفك الدماء، بعيداً عن رأي الأمة ونظام الشورى، تحول إلى فخ مميت لكل من يعتليه. فهذا خليفة يقتل بسيف جنوده، وذاك يغتال بالسم أو بالخنق. وأصبحت قصور الخلافة وما يحيط بها من جيوش مرتزقة مكاناً للتآمر وإحاكة الفتن ودس الدسائس. وتعرّض مقام الخلافة للكثير من الهوان. فولي العهد يقتل أباه الخليفة مستعجلاً رحيله ليتنعم هو بمجد الملك. كما حدث للخليفة المتوكل مع ولده المنتصر. حيث تآمر المنتصر على قتل أبيه مع قائد جيشه التركي بغا[1] وأشاع بين الناس أن أمير المؤمنين شرق بقدح (خمر) شربه فمات. وأجبر أخاه ولي العهد على التنازل عن ولاية العهد لولد المنتصر، قاتل أبيه[2]. وعندما مات الخليفة المنتصر خاف القادة الأتراك بغا الكبير وبغا الصغير واتامش من تولي أحد من أبناء المتوكل خشية أن ينتقم منهم ويأخذهم بجريرة قتل المتوكل. فبايعوا أحمد بن محمد بن المعتصم. لكن جماعة أخرى عارضت هذه البيعة، وشهرت سيوفها. وحدث صدام بين الفريقين «ودخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة، فانتهبوا الخزانة التي فيها السلاح والدروع والجواشن والسيوف والتراس. فأتاهم بغا الكبير في جماعة فأجلوهم عن الخزانة، وقتلوا منهم عدة، وكثر القتل من الفريقين»[3].

وكان في تلك القصور للنساء دور في تعيين وموت الخلفاء وحبك المؤامرات، وتجميع الثروات. «فكانت الخيزران أم هارون الرشيد ذات نفوذ وقوة، يخافها أولادها، ومن خالفها منهم أو اعترضها قتلته. وكانت في أيام

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت، مجلد ٧، ص ٩٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٧.

زوجها المهدي صاحبة الأمر والنهي، وهو يطاوعها. فلما تولى ابنها الهادي، أرادت الاستبداد بالأمر من دونه، وأن تسلك به مسلك أبيه. ولما اعترض أمرها خرجت من عنده مغضبة، وحقدت عليه، حتى إذا علمت أنه يريد خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر، أمرت بعض جواريها بقتله بالغم والجلوس على وجهه حتى مات»[1].

أما «قبيحة» زوجة المتوكل أم المعتز (سماها زوجها المتوكل قبيحة لحسنها وجمالها) بعدما طوّق الجند الأتراك ابنها المعتزّ أمير المؤمنين وهددوه بدفع رواتبهم، استنجد بأمه لتعطيهم خمسين الف دينار، فأجابته: ليس عندي شيء. عندها دخل عليه جماعة منهم، فجروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس في الدار، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيديه. وأدخلوه حجرة، وأحضروا جماعة أشهدوهم على خلعه، وسلموا المعتز إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام. فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه، ثم أدخلوه سرداباً وجصّوا عليه فمات. فلما مات أشهدوا على موته بني هاشم والقواد، وأنه لا أثر فيه، ودفنوه مع المنتصر»[2].

أما أم المعتز، فعندما علمت بقتل ولدها هربت، ولجأت إلى القائد التركي صالح بن وصيف. «وكانت لها أموال ببغداد، فأحضرتها، وهي مقدار خمس مائة ألف دينار، وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة، ومن جملتها دار تحت الأرض، وجدوا فيها ألف ألف دينار وثلاث مائة ألف دينار. ووجدوا في سفط، مقدار مكوك[3] زمرد لم ير الناس مثله، وفي سفط آخر مقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار، وفي سفط مقدار كَيْلَجَة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر، بيروت، مجلد ٧، ص ١٩٦.

(٣) صاع أو مُدّ.

(مكـــيال) من الياقوت الأحمر الذي لم يوجد مثله. فحمل الجميع إلى صالح. فسبها، وقال: عرّضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار، وعندها هذه الأموال كلها[1]!

وكان للخدم في قصور الخلفاء دور في موقع السلطة. مثل سلطة حامل الأخـــتام، أو أمين السر، وسياف الخليفة. وقد عاش في بيت الخليفة المقتدر، مـــثلاً، أحـــد عشر ألف خادم. فالغلام بدر خادم المعتضد تولى قيادة الجند، ونقـــش اسمه على التروس والأعلام. والغلام بَجْكَم، خادم المكتفي ترقى في المناصــــب حـــتى صار أمير الأمراء، وهي أكبر وظيفة في الدولة. وجوهر الصـــقلي ـــ خـــادم المعتز ـــ تولى قيادة الجيش المتوجه إلى مصر، وودعه أولاد الخلـــيفة وأهله، ومشوا بين يديه حتى خرج موكبه من المدينة. وكافور النوبـــي. ـــ خادم الإخشيديين ـــ وضع يده على عرش مصر وتولى حكمها فعـــلاً. والخادم يونس الذي قال عنه المسعودي: «ثم كانت بينه وبين المقتدر وحشة، أودت إلى حروب، انتهت بقتل المقتدر. فحملوا رأسه إلى يونس. فلما رأى رأس مولاه، بكى ولطم وجهه»[2].

كـــان جـــيش المأمون معظمه من الفرس، فلما تولى المعتصم الخلافة جعل جيشه من الترك وبنى لهم مدينة سامراء. وهذا واقع إنسان لا يستطيع، بعـــد أن فصـــل نفسه عن الشعب، إلا أن يعيش بحراسة جيش وراء أسوار حصينة تمنعه من الشعب. فكان الخليفة رجلاً أسيراً بين يدي أمراء الأتراك، متى شاءوا عزلوه ومتى شاءوا قتلوه.

ولمـــا جاء الإعصار بالاجتياح المغولي، وأصبح هولاكو يدك أسوار بغـــداد، لم يكن أمام الخليفة العباسي المستعصم بالله إلا أن يحذّره من غضب

---

(١) الكامل في التاريخ، ص ٢٠٠، مجلد ٧.

(٢) محـــنة ثقافـــة مـــزورة ـــ الصادي التيهوم، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ص ٩٠ و١٠٣.

الله علـيه برسـالة ختمها بقوله: «إن كل من قصد أسرة بني العباس، كانت عاقبته وخيمة، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر»[1].

ولما زحفت جيوش الفرنجة الصليبيين للاستيلاء على البلاد الإسلامية، لـم تجـد أمامها سوى دويلات يرأس كل منها أمير أو ملك، يُناجز بعضها بعضاً العداء، تتبع اسمياً للخليفة في بغداد، ولكنها في واقع أمرها ملكاً مستقلاً لا علاقـة له بالخلافة. يتوارثه الأبناء عن الآباء. وعندما يشتد على إحداها الحصـار الصـليبي كانـت تستنجد مرغمة بالخليفة في بغداد، لكن رجاءها بالعون يظل وهماً وأملاً لم يتحقق أبداً. حيث كان الخليفة أسير قواد جنده من التـرك الـذين كانت تشغلهم الخلافات فيما بينهم، والمنافسة على المناصب والطمـع بتحقيق المكاسب، ولا يعنيهم سقوط أية منطقة من المناطق التابعة للخليفة.

ولمـا أطاحت عاصفة المغول بخلفاء بغداد وفروا إلى القاهرة ليعيشوا فـيها حـياة بائسـة، قام الفقيه ابن جماعة يقر بالخلافة بغير قيد ولا شرط لأصحاب القوة والجبروت: «عندما يطمع في الخلافة من لا يستحقها، ويقهر الـناس بقـوته وقـواته، وذلك بغير اعتراف شرعي ولا دليل على خلافته، فينبغـي الاعتراف بشرعيته ووجوب الطاعة لـه، وذلك للحفاظ على نظام الجماعـة الإسلامية ووحدتها. وعندما يأتي شخص آخر ويقهر الأول بقوته وقواته، فإن الأول يُخلع ويكون الثاني هو الخليفة. وذلك على أساس ما بيَّناهُ من مصلحة الجماعة[2].

والخلافة الضعيفة أضحت ثلاثة؛ عباسية وفاطمية في المشرق وأموية فـي الأندلس، كل منها لا تستمد شرعيتها من شعبها المسلم، بل من قرابتها

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٢) بـدر الـدين بـن جماعـة، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، المجلد السادس، ص ٣٦٣، والمجلد السابع، ص ٥٢.

برسول الله. فالعباس عمه وفاطمة ابنته. فكان على الفقهاء في القاهرة أن يطعنوا بشرعية العباسيين، وكان على الفقهاء في بغداد أن يطعنوا بشرعية الفاطميين والأمويين. ولم يجرؤ أحد من كلا الأطراف أن يدافع عن شرعية حكم الأمة لنفسها، الذي يلغي شرعية العباسيين والفاطميين والأندلسيين على حد سواء، ويثبت المنهج الإلهي في الحكم.

والخليفة العباسي الأول عندما استولى على الحكم، وقضى على الأمويين واستحق بجدارة لقب «سفاح» راح يلعن أعداءه الأمويين لأنهم يشربون الخمر، ويشترون الجواري، ويستمعون إلى غناء القيان، ويستمتعون برقصاتهم على وقع أنغام العازفين. لكنه لم يعترض على ما قاموا به من كمّ أفواه الناس والتنكيل بهم، ومصادرة حقهم بالمشاركة في الحكم. لكنه، وكل من جاء بعد ممن ينتسبون إلى عم النبي، لم يكونوا إلا صورة طبق الأصل عن الخليفة الأموي الذي عطّل مبدأ الشورى، والحكم الجماعي الذي سنّه الله ورسوله، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون. ناهيك عن عدم الالتزام بقيم الدين الإسلامي ومحرماته؛ من خمر ونساء ومجالس لهو ومجون.

فتاريخ دولة الإسلام هو تاريخ الخلفاء المتفردين في الحكم، شخصياً. ولم يكن بحال تاريخ أمة الإسلام. فالدولة الإسلامية قوية في يد خليفة قوي، وضعيفة في يد خليفة ضعيف. ولا علاقة لجماهير الأمة بتقرير مصيرها، فمصيرها تقرره الصدفة العمياء. ومفاهيم الإسلام بالنسبة لحقوق الإنسان، من مثل: العدالة، والمساواة، والإخاء، وحرية الرأي والمعتقد، والحرية الشخصية، وتحرير العبيد، وحقوق المرأة، والضمان الاجتماعي، وحق تقرير المصير، وحق محاسبة الحاكم، وحق المعارضة للحكم، وحق التعليم، وحق مشاركة الشعب في حكم نفسه، وحق الشيخوخة، وحق الطفولة، وحرية القول والعمل... دفنت جميعها في غياهب التاريخ، مع استئثار الخلفاء بالحكم، بأساليبهم الخاصة، وطرقهم المتحررة من أوامر الله ونواهيه. ومن مفارقات الزمن وغرائب الأمور أن أمة الإسلام لم تعد تسمع بتلك الحقوق التي قررها

الإسـلام في حياتها العملية، وواقع أمرها إلا في العصور الحديثة على لسان المسـتعمرين الغربيين. وكأني بالحضارة التي أشرقت أنوارها ربع قرن من الزمـن على هذا الشرق، ثم خبت ثلاثة عشر قرناً، عادت وأشرقت أنوارها عليه هذه المرة من الغرب. وفتحت عقول الناس على حقائق هي من صميم تـراثهم وتعالـيم ديـنهم، دفنت في غياهب تاريخهم المليء بجور الحاكمين وجهل الجاهلين.

وتراثـنا الأدبي، في عهود الخلفاء الملوك، رغم ما مرّ فيه من عباقرة الشعر والنثر، لم نرَ فيه موضوعاً واحداً له علاقة بواقع الناس وقضايا الأمة. فالشـعر هـو إما مدح للحاكم وتسبيح بحمده، وتمجيد لعظمته، أو هجاء بين الشـعراء وأخصـامهم، أو تغـزل بالحبيبة أو وصف للطبيعة. وكتّاب النثر شـغلوا أنفسهم بصناعة البيان والبديع والسجع والكناية والطباق، ولم يجرؤ أحـد علـى الدفـاع عـن حرية الرأي، وحقوق المواطن، وتحقيق العدالة، والضمان الاجتماعي.

فأدبـنا أدب ساكن، ملجوم الفم واللسان. وفقهنا فقه مدارٍ، عمل طوال ألف وأربع مائة سنة بمبدأ التقيّة، ودفع الضرر، ومداراة الحكام.

وأمتـنا أمة مطواعة راكنة، ركّنها فقهاء السلطان باسم الشرع وقهرها حكّامهـا بقوة الجند، وغدت مطية مطواعة لكل راكب، لا يهمها ظلم ظالم، ولا اسـتبداد مسـتبد. فالدنيا للحاكمين، وللناس ثواب الآخرة. «فالدنيا جيفة وطلابهـا كلاب». والعاقبة للمحتسبين الصابرين. ولما جاء الاستعمار، وجد أمـة جاهلـة ذلـولاً، سهُل عليه امتطاؤها والتحكم بمصيرها. فالكل يخشى الحاكم ويطأطئ رأسه للمستبد. فكانت على كثرة عددها «غثاء كغثاء السيل» كمـا تنـبأ لهـا رسول الله (ص). وهي اليوم ترضخ رضوخ الموتى لواقع مرير، سبّبه إرث ألف وثلاث مائة سنة من حكم «أمراء المؤمنين» الذين لم يكونوا من الإيمان في شيء.

وأغلب حكام البلاد الإسلامية في هذا العصر، بعد سقوط آخر سلاطين بني عثمان، وآخر الخلفاء «المسلمين»، ورثوا عن تلك العهود الخوالي أساليبها في الحكم ولم يدخلوا بعد عصر احترام الإنسان، وإشراكه في تقرير المصير. ولا زالت الحواجز قائمة بين الحاكم وشعبه. ولا زالت الأمة الإسلامية يقرر مصيرها حكام أفراد، يعتبرونها لم تبلغ بعد سن الرشد، قاصرة عن حكم نفسها بنفسها. فتنوب عنها في الحكم أجهزة المخابرات وضباط الأمن والجيش.

وإذا كنت قد أعطيت بعض نماذج الانحراف والفساد في العهد العباسي، فعهد العثمانيين كان أشد فساداً وأدهى ظلماً. وقد سُجل على صفحات التاريخ بمداد أسود قاتم صوراً بشعة عن ظلم السلاطين وما عجت به قصورهم من الجواري والخصيان، لا سيما الإعدامات على الخازوق والتغييب في لجة البوسفور لكل من حدثته نفسه يوماً أن ينطق بكلمة فيها تأفف من ظلم أو استنكار لفساد. وقول عمر بن عبد العزيز (رض) في الحجاج خير تعبير عن الفساد والظلم في العهد الأموي: «لو جاءت كل أمة بخبيثتها وجئنا بالحجاج لغلبناهم»[١]. وقد أحصى التاريخ من قتلهم الحجاج جهراً فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً[٢].

لكن هذه الحقبة من الحكم العضوض الذي تخلى كلياً عن نظام الشورى، ونحا منحى الاستبداد والتفرد بالحكم، لم تكن هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي كلها سوداء مظلمة، بل حدث في القرون الأربعة الأولى، عهد الفتوحات الواسعة، ازدهار اقتصادي ترافق مع وجود بعض خلفاء منفتحين فكرياً، أن ازدهرت علوم الفقه ــ عدا نظام الشورى ــ وبرز فقهاء أئمة مميزون، تركوا إرثاً فقهياً بلغوا فيه درجة لا زال فقهاء العصر يستنيرون

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٥٨٦/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٦٨٧/٤.

بهداهـــا حتى يومنا هذا. كما ترجمت كتب اليونان والرومان والفرس والهند، فكانت نهضة علمية في شتى العلوم: في الطب والفلك والجبر وهندسة البناء وعلــوم الأحياء، وعلم الاجتماع... وبرز علماء أفذاذ كالرازي والخوارزمي وابــن ســينا والبيروني وابن النفيس وابن خلدون. كما برز فلاسفة وشعراء وعلماء نحو وعلماء حديث كثيرون. لكن هذا الازدهار العلمي والثقافي الذي دام أربعة قرون لم يمنع فيما بعد من انهيار الدولة بسبب تفرّد الحكام الخلفاء بشــؤون الحكــم، بعيداً عن مشورة الأمة ومشاركتها. والفقهاء المشهود لهم بالــتقوى وســداد الرأي، وقول كلمة الحق، فقد لاقوا من الاضطهاد الكثير. فالإمــام مــالك ضرب ضرباً مبرحاً من قبل الجنود العباسيين حتى كسرت أضلاعه. والإمام ابن حنبل فقد جلد وعذّب وسجن لإجباره على القول بخلق القــرآن نــزولاً عند رأي الخليفة المعتصم الذي كان يؤمن برأي المعتزلة. والإمــام أبو حنيفة حبسه والي الكوفة الأموي وضربه وعذبه لعدم رضوخه لأمــره. وضـــرب بأمر من المنصور مائة وعشرة أسواط من أجل أن يقبل منصـــب القضاء ولما أصرّ على رفضه دسّوا إليه السمّ فقتلوه. أما أئمة أهل البيــت النــبوي فكان نصيبهم من الظلم والاضطهاد والتنكيل الكثير الكثير، حـــتى إن أحداً منهم لم ينج من موت في السجن أو موت في السّم أو الموت اغتيالاً.

الإسلام ونظام الخلافة

إن الكثير من الفرق الإسلامية تعتبر نظام الخلافة هو النظام الإسلامي الأمــثل، بل الأوحد. وهي تعمل جاهدة للعودة إليه من أجل إعادة إحياء دولة الإســلام التــي عــرفها العالم طوال ثلاثة عشر قرناً. وينظّر لهذه الخلافة مفكــرون ودعاة إسلاميون، ورؤساء حركات وأحزاب إسلامية من مثل أبو الأعلــى المــودودي وسيد قطب. فالدولة الإسلامية عندهم هي دولة دينية، ورئيس هذه الدولة لا يجوز أن يكون رجلاً مدنياً يختص بإدارة شؤون الدولة

الدنيوية وحسب، بل عليه أن يمسك بزمام الأمور الدنيوية والدينية معاً. فالإسلام دين ودولة. فصلاحيات الخليفة في تاريخ الدولة الإسلامية تشمل الاثنين معاً. فهو حاكم الأمة وإمامها في الوقت ذاته. وقدوة هؤلاء ومثالهم هم الخلفاء الراشدون. وأما ما تلاهم من خلفاء بعد ذلك، وما مرّ من عهود، فلم تكن سوى انحراف عن الحكم الإسلامي الصحيح. فطموحهم الفكري والسياسي يقوم على الرجوع إلى تجسيد المثال بحاكم مسلم أو خليفة ينهج في حكمه نهج الرسول وخلفائه الأربعة الراشدين. بذلك نراهم قد حذفوا من تاريخ الإسلام ثلاثة عشر قرناً من تجربة الحكم. حيث انفصل الواقع عن المثال، ولا زال مفصولاً. فهم يسعون جاهدين إلى إعادة تطبيق المثال الإسلامي على واقع العصر الحالي. فهل إلى ذلك من سبيل؟ وهل تلك الممارسات التي دامت بضعة عشر قرناً من حكم الخلفاء الملوك وانحرافاتهم لا زالت غير كافية لنستنتج منها صحة التجربة أو خطأها؟!

لقد تعرض لهذا الأمر عدد من المفكرين المسلمين، وأدلوا بأفكارهم حول قضية الخلافة، مستندين إلى التجربة الطويلة، والطويلة جداً، من تاريخ الإسلام السياسي والديني. فمنهم من أيد ومنهم من خالف عودة الخلافة كنظام حكم في العصر الحديث. فالذين أيدوا كانت الخلافة في نظرهم هي صورة لحكم الرسول وخلفائه الراشدين. فهم يجهدون أبداً لإعادة المثال إلى عالم الواقع والتطبيق، وتصحيح مسار الحكم عن انحرافه الذي دام ثلاثة عشر قرناً على يد الخلفاء الملوك، منذ عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان. ومن هؤلاء المؤيدين طائفة يحدوها الأمل إلى إعادة شوكة الإسلام إلى ما كانت عليه إبان ازدهار الدولة الإسلامية التي كانت فيها كرسي الخلافة يمتد حكمها من حدود الصين شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً. يوم كان الخليفة (هارون الرشيد) يخاطب الغمامة المارة في سماء بغداد، عاصمة الخلافة بقوله: «اذهبي وامطري حيث شئت، فإن خراجك سوف يعود إليّ».

أما الذين يعترضون على إعادة نظام الخلافة، فيحتجون على ذلك من تاريخ الخلافة ونماذج الخلفاء الذين تداولوا حكم الدولة الإسلامية عبر قرون عمرها المديد. في رأي هؤلاء أن خلع المثال الذي كان معصوماً من الله على إنسان هو بعد عن الواقع، وافتئات على الحقيقة، وإذا كان الواقع قارب المثال في عهدي أبي بكر وعمر، فقد بدأ هذا الواقع يجانب المثال مبكراً في عهد عثمان، حيث بدأ الاضطراب في الدولة، وبدأ الواقع يتزحزح عن المثال. يرى عباس محمود العقاد أن «الموقف بين الخلافة والملك كان ملتبساً متشابكاً في عهد عثمان، نصفه ملكاً ونصفه خلافة، أو كان نصفه إمارة دنيوية... وهكذا تقابل الضدان اللذان لا يتفقان وبلغ الخلاف مداه»[1]. وكانت الفتنة التي أدت إلى قتل الخليفة. وقد امتدت هذه الفتنة إلى عهد علي حيث كان من نتائجها ما سمي بحرب الجمل، وحرب صفين، ومعركة النهروان، وبالتالي اغتيال الإمام علي في المسجد عند قيامه بصلاة الصبح. أما ما سمي بالخليفة فيما بعد، فلم يكن سوى حاكم دكتاتور جائر متفرد في حكم المسلمين، ومتسلط عليهم بسلطان السيف، ومتجلبب بجلباب الدين بغياً وافتراءً.

ومن أبرز الذين وقفوا ضد نظام الخلافة واعتبروا أنه ليس من الإسلام في شيء وأن القرآن لم يأت على ذكره، وأن الرسول لم يوص به ولم يضع له آلية كنظام للحكم بعده، هو الشيخ الأزهري علي عبد الرازق الذي اعتبر أن الخلافة هي عمل ارتجله المسلمون بعد موت النبي، فنصّبوا حاكماً ليقوم مقامه في حكم المسلمين، سمي بخليفة رسول الله. ففي رأيه أن الإسلام لم يقرر نظاماً معيّناً للحكومة... ولم يفرض على المسلمين نظاماً خاصاً يجب عليهم أن يحكموا بمقتضاه... بل ترك لنا مطلق الحرية في أن ننظم الدولة طبقاً للأحوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي توجد فيها، مع مراعاة

---

(١) عباس محمود العقاد، عبقرية علي، ص ٥٦.

تطورنـــا الاجتماعي ومراعاة مقتضيات الزمن[1]. فالدين، بحسب رأيه، «لم يعـــرِّفها (الخلافـــة) ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنرجع إلى أحكام العقل وتجارب الأمم».

ويضـــيف قـــائلاً: «إنه لعجب عجيب أن تأخذ بيدك كتاب الله الكريم، وتـــراجع الـــنظر فيه بين فاتحته وسورة الناس، فترى فيه تعريف كل مثل، وتفصيل كل شيء من أمر هذا الدين، ثم لا تجد ذكراً لتلك الإمامة العامة أو الخلافة»[2].

ويـــرى أن الخلفـــاء حَرّموا على علماء المسلمين الخوض في العلوم السياســـية، فلم يكن لها حظ في أبحاثهم الفقهية الكثيرة. فلم يصل إلينا مؤلفاً واحـــداً على مرّ عصور الخلافة يبحث في أمور السياسة. ومرد ذلك ــ في رأيه ــ إلى «كره الخلفاء لعلم السياسة» لخطره على سلطتهم، من أجل ذلك «سدوا سبيله».

صـــدر كتاب الشيخ علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» الذي ربمـــا كانـــت الغاية منه منع تكرار تجربة الخلافة في الفترة التي كان فيها الملـــك فـــؤاد، ملك مصر يتنطح لمنصب الخلافة بتشجيع من الانكليز الذين كـــانوا يحكمون مصر، بعد أن تخلى عنها الأتراك. لكن علماء الأزهر الذين كانوا يؤيدون فكرة إعادة نظام الخلافة، شكلوا هيئة من كبار علماء الأزهر، كهيـــئة تأديبية، وحاكموا القاضي الشيخ علي عبد الرازق، وأصدروا حكمهم علـــيه: «بمحـــو اســـم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخـــرى، وطـــرده من كل وظيفة، وقطع مرتباته من أي جهة كانت، وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية، دينية كانت أو غير دينية»[3].

---

(١) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق، ص ٩٢.

(٢) الإسلام وأصول الحكم، المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٣) الإسلام وأصول الحكم، ذكر سابقاً، ص ٩٥.

لكـــن نخبة من أدباء مصر ومثقفيها، أمثال طه حسين، ومحمد حسين هـــيكل، ومنصـــور فهمي، وعبد القادر المازني، وقفت أقلامهم إلى جانبه، ودافعـــوا عـــن أفكـــاره في الصحف المصرية، كمجلة الهلال، والمقتطف، والسياسة.

ويحـــتج المعترضـــون على نظام الخلافة بأنها قد خرجت عن مشورة الأمة، وأخذت بالسيف والجبر. وحجتهم في ذلك ما روى التاريخ من مهازل الحكـــم والاستهانة برأي الأمة، وسلب إرادتها. نقل لنا ابن عبد ربه في العقد الفريد صورة عن جبرية البيعة، وإرغام الناس عليها، كما يلي: جمع معاوية الناس من أجل أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد. وأوعز لرجل من أتباعه، يزيد بن المقنّع، الصيغة المطلوبة. فقام هذا ولخص الموقف بالصيغة التالية:

«أمير المؤمنين هذا» وأشار بيده إلى معاوية.
«فإن هلك فهذا» وأشار بيده إلى يزيد.
«فمن أبى فهذا» وأشار إلى سيفه.
فبادر معاوية قائلاً: «اجلس فإنك سيد الخطباء»[1].

نجـــد أن هـــذه الصيغة لتداول الحكم بالبطش والقوة قد امتدت إلى هذا العصر. إلى ما بعد زمن الخلافة التي انتهت رسمياً سنة ١٩٢٤ ميلادية على يـــد أتاتورك. ولا زالت هي الطريقة المطبقة في أكثر المجتمعات الإسلامية، وإن اخـــتلفت بـــين بلـــد وآخر، شكلاً، وصيغة، وإخراجاً. ولا زالت الأمة الإسلامية، على وجه الإجمال، مسلوبة الإرادة، وتحكم حكماً جبرياً. وقد بعد الزمن كثيراً عن حكم المثال المتمثل بالرسول والخلفاء الراشدين، وألغي حكم الشرع المتمثل بالقرآن والسنة، وحكم الأمة نفسها بنظام الشورى الذي يحقق مصـــلحة الجماعـــة، ليحل محله حكم الفرد ومصالح العائلة. واختزلت الأمة بشخص الحاكم، وكمّت الأفواه، وساد مبدأ التقية.

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه، المجلد ٥، ص ١١٩.

إلا أننا أمام تجربة حديثة لنظام الشورى، بُدئ بتطبيقها في إيران، وهي لا زالت قيد التجربة. يتمنى لها أنصارها النجاح لتكون نموذجاً للحكم الإسلامي في العصور الحديثة، ويتربص بها أعداؤها خشية أن تكون البديل لنظام الديمقراطية العلمانية الغربية التي يعملون جاهدين كي تكون النظام العالمي الأوحد.

من هنا نقول للقائلين بإعادة نظام الخلافة على غرار الخلافة التي حكمتنا أربعة عشر قرناً، من أجل استرجاع شوكة الإسلام، وعز المسلمين: لا يوجد في نص القرآن ولا في سنة النبي محمد صيغة للحكم إلا نظام الشورى. وهو حكم الأمة لنفسها. سواء أسمي هذا الحاكم خليفة أو ملكاً أو سلطاناً أو أميراً. فسلطة الحاكم تستمد فقط بتفويض من الأمة. ولا يجوز لأحد أن ينصب نفسه باسم السلطة الإلهية، أعني سلطة الدين. فالدين لا يتمثل بشخص بشري مهما كان هذا الشخص. فهو بشر يخطئ ويصيب، وليس لإنسان عصمة من الخطأ. والخلفاء، في أسوأ عهود انحطاطهم الديني والأخلاقي، كانوا يحكمون بصفتهم خلفاء رسول الله، ليعطوا لأنفسهم شيئاً من القداسة. هذه الخلافة التي ادعت الحكم المطلق باسم الإسلام، لا يستطيع الإنسان غير المعصوم أن يقوم بأودها متفرداً في رأيه. ولئن صدف وقارب المثال في تاريخ الخلافة الطويل، عدا الخلفاء الراشدين، واحد هو عمر بن عبد العزيز، فقد جانبها وابتعد عنها الكثرة من الذين تولوا مسؤوليتها. وحدث التناقض الكبير بين شرع الله، النص المثال، وبين التطبيق الفعلي لهذا الشرع. يقول الدكتور حسن صعب: «إن الحكم كان لله بالاسم وللإنسان بالفعل، وإن السيادة كانت للشرع الإلهي بالاسم، ولأهواء الحكام بالفعل، وأن السلطة كانت للجماعة بالاسم وللأسرة المهيمنة بالفعل، وأن البيعة كانت للمؤمنين بالاسم ولحدّ السيف بالفعل»(١).

---

(١) الإسلام وتحديات العصر، الدكتور حسن صعب، ص ١٨٨.

وعندما يردد بعض المسلمين أن الحاكمية هي لله، فهم يعنون أن يحكم الحكام بشرع الله، وشرع الله هو ما تمثل بالشرائع الإلهية الواردة في القرآن والكتب السماوية الأخرى، وما جاءت به السنة النبوية. وهذه أحكام عامة، بل دستور إلهي يلزمه تفصيل من فقهاء الشرع والقانون ومجالس التشريع بحيث يستوعب كامل مستجدات الحياة، وطوارئ الزمن، وتطور الفكر ومفاهيم العصر، على أن يبقى الشرع الإلهي هو الأساس المعتمد، فلا يُحلِّل مُحرَّم ولا يُحرِّم مُحلَّل. والأمة بكافة شرائحها هي المسؤولة عن شؤون الحكم، وتعيين الحكام، ومراقبتهم ومحاسبتهم، وعزلهم إذا أساؤوا. وفق نظام الشورى. ولا ينبغي لحاكم أن يحكم بتفويض إلهي، بل بتفويض من الناس، ونيابة عنهم في إدارة شؤون الحكم.

في هذا الصدد يقول الشيخ محمد عبده:

«الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، ولا هو مهبط الوحي، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة، ولا يخصه الدين بمزية في فهم الكتاب والعلم بالأحكام، ولا يرتفع به إلى منزلة خاصة... ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوجَّ قوَّموه بالنصيحة والأعذار إليه «ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (حديث نبوي، رواه البخاري ومسلم). فإذا فارق الكتاب والسنة وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره. «وإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (البخاري ومسلم).

«فالأمة ــ أو نائب الأمة ــ هو الذي ينصبه، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه. وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها. فهو حاكم مدني من جميع الوجوه... ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيوكراتيك) أي سلطان إلهي، فإن ذلك عندهم هو الذي يتفرد بتلقي الشريعة عن الله، وله حق الأثرة بالتشريع، وله في

رقاب الناس حق الطاعة، لا بالبيعة، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة، بل بمقتضى الإيمان. وليس لمؤمن أن يخالفه ولو اعتقد أنه عدو لدين الله.

«ليس في الإسلام سلطة دينية، سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير عن الشر، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين، يقرع بها أنف أعلاهم، كما خوّلها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.

«يقولون: إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام؟[1].

«وأقول: «إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامي. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه في طريق نظره»[2].

فليس في الإسلام دولة دينية، أو كما سميت في الغرب، دولة «ثيوقراطية» أي دولة رجال الدين التي شهدتها القرون الوسطى، حيث أمسكت طبقة رجال الدين بأزمّة السلطة السياسية العليا. والسبب أن ليس في الإسلام وجود للكهانة، ولا لطبقة تدعى «طبقة رجال الدين». فلا وجود لمؤسسة تشبه الكنيسة المسيحية التي تختص بأسرار الدين وطقوسه، وليس فيه طبقة تدّعي لنفسها نوعاً من القداسة اكتسبتها عن طريق شعيرة دينية أو وظيفة كهنوتية اختصت بها من دون الناس. لذلك، فتعبير «الثيوقراطية» — كما يفهمه الغرب — لا معنى له على الإطلاق في البيئة الإسلامية.

---

(١) شيخ الإسلام هو لقب كان يطلق في الدولة العثمانية على المفتي الأكبر الذي يعين المفتين والقضاة في الدولة.

(٢) الإسلام والنصرانية، الإمام الشيخ محمد عبده، دار الحداثة، بيروت، ص ٧٨-٨٢.

إن قــيام نظـــام حكــم إسلامي يعني قيام حكم مدني سياسي، يختاره الشعب، ويحكم بإرادة الشعب، ويحاسب، ويستمر أو يعزل بناء لهذه الإرادة. لديــه مجـــالس تشـــريع منتخبة من الناس، لها صلاحيات صياغة الدستور، والتشـــريع لنظام الحكم والإدارة ــ وفق تطور الزمن والخبرات الإنسانية ــ وســـنّ القوانين الوضعية اللازمة لكافة مستجدات ومقتضيات حياة المجتمع. كل ذلك تحت سقف التشريعات والقيم الدينية المثبتة في النصوص الإلهية.

يـــرى بعض المسلمين أن مثال الدولة الإسلامية هي الدولة التي أقامها الخلفاء الراشدون في صدر الإسلام. وعلى المسلمين أن يحتذوا هذا النموذج خلال مراحل تطورهم السياسي في الحاضر والمستقبل، متجاهلين أو جاهلين ســـنة التطور الفكري والاجتماعي والسياسي والحياتي التي سنّها الله للأفراد والمجتمعات الإنسانية.

إن ما جاء في القرآن والسنة النبوية من أحكام تتعلق بالشؤون السياسية هي مبادئ عامة، لم تتعرض للفروع، بمعنى أن الشريعة لم تضع لنا نموذجاً محدداً يجب على الدولة أن تشكل على مثاله، في كل زمان ومكان. ولا هي تضـــع لـــنا خطـــة مفصلة لنظرية دستورية. لأن حاجات الإنسان السياسية مـــرتبطة بالـــزمن، متغيرة مع تغيره. وليس هناك أنظمة أو أحكام شرعية معيـــنة، مهما تكن صارمة، يمكن لها أن تحدّ من فعالية هذا القانون الطبيعي الغلاب، قانون التغيير والتطور.

ولهـــذا فـــإن الشـــريعة الإسلامية لم تحاول المستحيل. فهي لما كانت ناموســـاً إلهـــياً فقـــد كـــان طبيعـــياً أن تضع في اعتبارها سلفاً هذا التطور التاريخـــي. ولهذا فهي تقدم للمؤمنين عدداً محدداً جداً من المبادئ السياسية، وتتـــرك بعد ذلك المجال رحباً لصياغة الدساتير وتنظيم الحكومة وما يتصل بـــذلك من سنّ القوانين التي تتطلبها الظروف المتغيرة لاجتهاد المسلمين في كل العصور.

مـــن هنا، نرى أنه لا يوجد شكل واحد منزل للدولة الإسلامية، بل إن هناك أشكالاً كثيرة، وإن على المسلمين في كل زمان أن يكتشفوا الشكل الذي يلائـــم ويحقـــق حاجاتهم، شريطة أن يكون الشكل والنظام اللذان يقع عليهما الاختـــيار متفقين تماماً مع الأحكام الشرعية المتعلقة بحياة المجتمع. فاقتباس الخلـــيفة عمر بن الخطاب لنظام الديوان عن الفرس، وإصدار القانون الذي يمـــنع بموجـــبه المحاربين العرب من تملك الأراضي التي دانت للفتوحات الإســـلامية، لم يكن مأخوذاً من نصوص القرآن والسنة، وإنما هو أمر أملته ضرورات الكفاءة الإدارية والمصلحة العامة، وأوصى به المنطق السليم في ذلـــك الـــزمن. وهو لم يكن مخالفاً للشرع الإلهي. لكن ذلك لا يعني أن يبقى ساري المفعول إلى الأبد[1].

فالجهـــاز السياســـي الـــذي أقامه الرعيل الأول من الصحابة في عهد الخلفـــاء الراشـــدين كـــان مـــن ثمرة الاجتهاد، وفرضته على صورته تلك ضـــرورات زمـــانهم، ومقتضـــيات عصرهم، ولم يكن يقوم على نصوص الشريعة وحدها.

ومما لا شك فيه، أننا نحن، الذين نعيش وراء أربعة عشر قرناً تفصلنا عن عصر الصحابة، نملك من الخبرات التاريخية ما لم تكن متوفرة لهم، ولا فخـــر لنا في ذلك. وليس علينا إلا أن ننظر إلى هذا التطور العظيم الذي تم خـــلال القرون المتعاقبة، وكل الأفكار والنظريات والاكتشافات العلمية التي تغـــذى بها العقل، لكي ندرك أننا قد نكون، من بعض الوجوه، أقدر على فهم المعانـــي العمـــيقة للمبادئ الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام من الصحابة الكـــرام. ذلـــك بأنـــنا نمحص الحقائق وندرسها، لا على ضوء خبراتهم هم فحســـب، ولكـــن على ضوء الخبرات التاريخية والفكرية التي تجمعت لدى

---

(١) راجـــع منهاج الحكم في الإسلام لمحمد أسد، نقله إلى العربية منصور محمد ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٥٥.

الإنسانية خلال هذه القرون الطويلة، والتي كانت بالنسبة إليهم محجوبة وراء ستار الغيب.

إن علينا ألا ننسى أبداً أن رسالة الإسلام رسالة خالدة، وأنها لذلك يجب أن تظل مفتوحة أمام العقل الإنساني الذي لا يكل عن البحث والدراسة، كما أننا كلما ازدادت ثقافتنا أو انداحت دائرة علومنا استطعنا أن نفهم بصورة أوضح من ذي قبل كنوز الحكمة التي ينطوي عليها القرآن الكريم وسنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك فإن حقنا في الاجتهاد المستقل على ضوء القرآن والسنة ليس مسموحاً به وحسب، بل نحن منتدبون لأدائه في كل الأمور التي سكتت إزاءها الشريعة، فلم تسن لها أية أحكام، أو في الأمور التي اكتفت بوضع مبادئ عامة لها.

إنه من الواضح أن كل ما سوف نصل إليه من نتائج بصدد خير الوسائل لضمان الكفاءة الإدارية والعدالة الاجتماعية سيكون متأثراً بعوامل الزمن والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي نعيش في ظلها، وعلى هذا فمن البديهي أن يكون الكثير من الإجراءات القانونية في الدولة الإسلامية متبايناً من وقت لآخر، والواضح أن هذا لا يؤثر بطبيعة الحال على نصوص التشريع التي وردت ظاهرة في القرآن والسنة، من حيث أن هذه النصوص غير قابلة للتعديل، وواضح كذلك أن كل القوانين التي نضعها من غير نص عليها في الشريعة يجب ألا تتعارض بحال من الأحوال مع نصوصها الظاهرة.

وعلى هذا، فإن دستوراً للدولة الإسلامية يوضع بعد مرور أربعة عشر قرناً من الزمن على عصر الخلفاء الراشدين قمين بأن يختلف، من غير شك، مع الدستور الذي كان سائداً في عصرهم. إذ لو كان الأمر كذلك لكان الإسلام مجرد دعوة إلى التكرار السرمدي للون واحد من ألوان الحياة. ولكان رسالة لا تطلب منا شيئاً سوى تقليد ما فعله الأسلاف تقليداً أعمى»[١].

---

(١) المصدر نسه، ص ٦٠-٦٣، بتصرف.

إن تجميع السلطات الإدارية والتشريعية في يد رجل واحد ــ كما كان عليه الخلفاء ــ يحمل في طياته نذراً خطيرة لا تُؤمن عواقبها. فالفرد، مهما كان عليه من الذكاء والعلم والتقوى وحسن النية، من المحتمل أن يخطئ في حكمه على الأمور متأثراً في ذلك بميوله الخاصة. فضلاً عن أن تجميع السلطات كلها في يد رجل واحد قد يؤدي إلى إفساد صاحبها وإغرائه على تسخيرها لخدمة أغراضه الخاصة، أو أغراض الفئة التي تشايعه. لذلك فإن السلطة التشريعية في الدولة لا بد أن توضع في أيدي هيئة من أهل الاختصاص والأخلاق الحميدة لهذا الغرض. فحكم الفرد وما نتج عنه ــ في تجربة الخلافة ــ من مظالم، في بعض فترات التاريخ، كان مخالفاً للأمر الإلهي الذي كان بيِّناً وحاسماً بالآية اكريمة: «**وأمرهم شورى بينهم**» (الشورى، ٣٨).

فالشورى هي الأمر الإلهي لكيفية أسلوب الحكم في الإسلام. كما هي قاعدة أساس لكل مناحي الحياة السياسية. لذلك، فإن مهمة سن القوانين في الدولة لا ينبغي أن يكون في يد رجل واحد، بل لا بد وأن يسند إلى مجلس شورى تنتخبه الأمة يكون ممثلاً لجميع شرائح المجتمع، رجاله ونسائه، تتوفر في أعضائه الثقافة الدينية والدنيوية والعلم بأحوال العالم ــ على وجه العموم ــ ولحاجات الأمة الاجتماعية والحياتية، وينوب عن الأمة في مراقبة الحكام ومحاسبتهم، وردعهم عن كل انحراف.

ما الفارق بين الشورى والديمقراطية؟

إذا كانت الشورى هي نتاج الدين الإسلامي، فإن الديمقراطية هي نتاج التجربة الغربية ببعدها الإنساني. فكل نشاط إنساني له غاية. وغاية الأنظمة جميعها هي تحقيق مصلحة الناس انطلاقاً من مفاهيم ومنظومة قيم أنتجتها عقائدهم واستقرت عليها قناعاتهم. فالمجتمعات الإنسانية، في مطلع القرن الواحد والعشرين، أمام ايديولوجيتين:

١ــــ الايديولوجية التي تؤمن بحاكمية الله على الإنسان، وتلزم هذا الإنسان فرداً ومجتمعاً بسلوكية تخضع وتلتزم بأوامر الله ونواهيه كما هو مبين في الشرائع السماوية الموحاة من الله. وهذا ينطبق على الإسلام وسائر الأديان.

٢ــ الايديولوجية التي قطعت كل علاقة مع الله، وتحررت من الالتزام بالأمر الإلهي، وأنكرت أية سلطة لله على الإنسان. بل جعلت من هذا الإنسان سـيد مصـيره، و«إله» هذه الأرض. وهذا ينطبق بخاصة على النظام الليبرالي العلماني الأكثر فاعلية في هذا العصر.

نـتج عن كل من هاتين الايديولوجيتين مفهومين مختلفين لمعنى حرية الإنسان وقواعد سلوكه، ونظمه في الاجتماع والحكم. فالشورى هي الصيغة الإسـلامية لمفهوم الحرية في المجتمع الإسلامي. والديمقراطية هي التجسيد الاجتماعي والسياسي لمفهوم الحرية في المجتمعات الغربية.

فالحرية في المفهوم الديني، حدودها تنتهي عند أوامر الله ونواهيه؛ أي عند ما أحلّ الله أو حرّم. أما الحرية في المفهوم الليبرالي العلماني الذي أعلن موت الإله، وتحرر من سلطته على البشر، لم يبق لها حدود تقف عندها إلا حدود حرية الإنسان الآخر.

ففـي نظـام الشـورى، الله هو الحاكم المشرّع والإنسان هو الملتزم والمـنفذ لشـرع الله. وفي النظام الديمقراطي، حيث لا إله، ولا سلطة فوق سلطة الإنسان، فالإنسان هو المشرّع المطلق لنفسه.

فتجـربة الإنسـان المسلم عبر التاريخ كانت صراعاً مع الحكام الذين انحـرفوا عن شرع الله، وحكموا بغير ما أنزل. وكل الثورات التي شهدتها المجـتمعات الإسـلامية كانت ضد هؤلاء من أجل إعادتهم للالتزام بالشرع الحنيف. ولم يشهد التاريخ ثورة ضد الدين عينه، كما حدث في الغرب. ولئن

شهد التاريخ، ولا زلنا نشهد، حركات دينية انحرفت في فهمها للدين وأساءت إليه، لكنها، كانت تظن، مخطئة، أنها تنصر الدين. وتقوم بعملها، بنية صادقة، غيرة عليه، وتقرباً إلى الله. كأمثال الخوارج الذين خرجوا على الإمام عليّ وكفّروه وكفّروا كل من لا يتبع نهجهم من المسلمين. وبعد قتاله لهم وانتصاره عليهم، صلى على قتلاهم، وأطلق سراح أسراهم، ومنع سلب شيء من متاعهم، ولم يتّهمهم بالخروج على الدين، رغم خروجهم عليه، وهو خليفة المسلمين. وقد أوصى بهم خيراً بقوله: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فإنهم قوم طلبوا الحق فأخطأوه، وليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه».

لم تحدث قطيعة بين الله وخلقه في هذا الشرق وبقي الله، في عليائه وجلاله، مصدر عبادة وعون للناس. وبقي كلامه الشرع الذي يحكم، بقناعة تامة ويقين ثابت، تصرف الناس في شؤون حياتهم. فكان التعبد لله المتعالي هو تحرير الإنسان من كل عبوديات الأرض. والشورى في الإسلام هي تجسيد لذلك الربط العميق بين حرية الإنسان وعبودية الله. فالله، الحاكم المهيمن في هذا الوجود، له وحده حق التشريع للفرد وللمجتمع. فهو الأعلم والأدرى بمصالح عباده، وما فيه خير دينهم ودنياهم.

أما التجربة الغربية التي كانت صراعاً مريراً مع رجال الدين في ظل محاكم التفتيش ومظالم رجال الأقطاع والملَكية الجائرة، وما قامت به من كبت للحريات الإنسانية ولفكر المفكرين وعلم العلماء، في ظل مفاهيم خاطئة عزيت افتراء للمسيحية نفسها، فحمّل الدين أخطاء رجال الدين، وحُمّل الإله أخطاء الإنسان ــ كما سنبيّن ــ فكانت الديمقراطية ثمرة من ثمرات الانتصار على ذلك الزمن المشؤوم. وكانت الحصن المحصّن لحرية الإنسان الأوروبي التي انتزعها بالدم والتضحيات الكثيرة والغالية، عبر قرون طويلة صبغت حياته بالمرارة والآلام. فالإنسان الأوروبي، اعتبر خطأً، أن سبب عبوديته وآلامه يكمن في عبوديته لله. فأطلق شعارات التحرر من تلك العبودية. وأعلن حريته المطلقة في التشريع والحكم. وكان النظام الديمقراطي

هو المنهج الضامن والحارس لهذه الحرية. فعمل جاهداً لتثبيته وتنظيمه وتشريعه، وإعطائه طابع الثبات والقداسة. لا سيما بعد إلغائه مرجعية الله للإنسان رعايةً وتشريعاً. فكان لا بد من ضمان بشري، سياسي وقانوني، يحصِّن المجتمع من عودة أي طغيان من قبل السلطة السياسية وحدّها للحريات التي انتزعها الناس بالتضحيات الجسام. ولا زالت المجتمعات الغربية تعيش هاجس الحفاظ على الديمقراطية وديمومتها وتطويرها.

في الإسلام، الله هو المشرِّع، ولا سلطة تشريعية مطلقة للإنسان، إلا في ما لم تفصِّل أحكامه في أصول الشرع، وما استجد من أمور اقتضاها تطور الحياة، وتغيّر الظروف على أن تبقى أمينة على أصول الشرع الإلهي؛ فلا تحل ما حرّم ولا تحرم ما أحل. وكذلك في المجال الإجرائي والتنظيمي، أي في تشكيل السلطة وإدارتها ومؤسساتها، وقوانينها التنظيمية على ضوء التجربة الإنسانية وما اكتسبت من خبرات. فهذه من اختصاص الناس متروكة للاختيار البشري، من أجل بناء كيان الدولة وحفظ النظام العام، وتأمين مصالح الناس، في الأمن والتنمية، والتكافل الاجتماعي، وكل ما يستلزمه حفظ كيان الفرد والمجتمع. على أن لا يتعارض كل ذلك مع ثوابت الشريعة والعقيدة. الشريعة هي امر إلهي، أما تطبيقها بصيغتها الإجرائية فهو مسؤولية بشرية، يحددها اختيار الأمة من خلال مبدأ الشورى.

أما النظام الديمقراطي الذي تحرر بعض معتنقيه من رقابة الإله ومحرمات الشريعة، فقد أطلق للإنسان حرية التشريع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وحرر سلوكه الشخصي من لاءات الناموس الإلهي، «وحرر ضميره من عقدة الذنب التي تكبل ضمير الإنسان المتديِّن»، كما يرى الفيلسوف الألماني نتشه.

الغرب أخذ خياره النهائي في اعتناق النظام الديمقراطي كأسلوب حكم، واعتبره النظام الأفضل الذي وصلت إليه التجربة الإنسانية. وهو يسعى دائباً

لإغناء هذه التجربة وتطويرها. وسدّ ما فيها من ثغرات، حتى يصل بها إلى ذروة الكمال الأمثل، عبر الممارسة والتطبيق.

أما الشرق الإسلامي الذي يعيش، اليوم، حالة تشتت فكري وضياع ثقافي، فلم يحسم خياره بعد أي النظم يختار. تحكمه أنظمة غرس جذورها الاستعمار. لا هي بالديمقراطية، ولا هي بالشورى. لا هي بالمؤمنة ولا هي بالكافرة. أنظمة تفرض أحكامها وقوانينها وفقاً لمصالح الحكام ودوام ملكهم. بعضها لديه مجالس تشريعية، لكن تشريعها يبقى تحت سقف إرادة الحاكم. يطبق بعضها ديمقراطية خاصة، يُستفتى فيها الشعب. لكن تحت هيمنة أجهزة الحكم ووصاية الحاكم.

والطامحون إلى التغيير في هذا الشرق فئتان: فئة «سلفية» ترى الحل في تبني نظام الشورى كما طبق منذ ألف وأربع مائة سنة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين. وفئة «تقدمية» ترى الأخذ كلياً بالنظام الديمقراطي الغربي، والاستفادة من تجربة الغرب وتقدمه الحضاري.

وبين هذه وتلك يبقى الحكّام في البلاد الإسلامية، بشكل عام، ينعمون بخيرات البلاد والتحكم بالعباد. عدا بعض الدول التي استطاعت أن تكسر هذا الجمود وتشق لنفسها طريقاً خاصاً للإصلاح. ويبقى الناس في أكثر البلاد الإسلامية حيارى في أمرهم، ويبقى هذا الشرق في تخبطه وتخلفه.

الذين يخافون تطبيق الديمقراطية يتخوفون من نموذجها الغربي الذي حصر التشريع بالإنسان، واستبعد كل الشرائع السماوية، وأباح محرّمات الدين. فأجاز، مثلاً، الاتصال الجنسي خارج نطاق الزواج الشرعي. وتعدّى ذلك إلى تشريع الشذوذ الجنسي، بل قونن زواج الرجل بالرجل، وزواج المرأة بالمرأة. وهذه تشريعات انعكس أثرها على بنية المجتمعات الغربية، وهدد بتهديم الأسر، الخلايا الأولى في بناء المجتمع الإنساني. وهذه جرائم في نظر الدين، أوقعت غضب الله قديماً على قوم لوط فدمرهم شر تدمير، كما جاء في التوراة والقرآن.

فحيـــثما استبعدت رقابة الله على الإنسان وحلت المصلحة مكانها، ساد مـــبدأ: «كـــل ما يجلب لذة فهو خير، وكل ما يجلب ألماً فهو شر». وتغيرت منظومة القيم التي تربّت عليها البشرية منذ نزول رسالات السماء.

أما الأخذ بالشورى، كما طبقت في زمن الخلفاء الراشدين، ففيه الكثير مـــن الضبابية والالتباس. فهل نتبع في تعيين الحاكم أو الخليفة الطريقة التي جـــرت فـــي مبايعة الخليفة الأول أبي بكر؟ وقد قال فيها عمر بن الخطاب: «إنهـــا فلتة وقى الله المسلمين شرها» وحذر من العودة إليها. أم نتّبع طريقة تعيين الخليفة من سابقه، كما في خلافة عمر؟ أم نأخذ بتحكيم الستة نفر الذين عيـــنهم عمـــر لتسمية الخليفة، كما في خلافة عثمان؟ أم نكتفي بإجماع أهل مديـــنة الرسول على انتخاب الخليفة إثر الفتنة الكبرى، كما في مبايعة علي بالخلافة؟ وكيف نلزم البلاد الأخرى على المبايعة؟ وقد تمرد عليها معاوية، وكانت حرب صفين، شرخاً في الإسلام لمّا يلتئم بعد.

ولئن تجاوزنا كل الاعتبارات، وانتهينا إلى اعتبار أن نموذج الشورى فـــي الحكم الذي طبّق في مجتمع المدينة المنوّرة، في ذلك الزمن، هو الكمال والمثال الذي ينبغي أن يحتذى، فما أظن أحداً يختلف معي في استحالة ذلك، فـــي هـــذا العصـــر، بســـبب تغيُّر الأزمان والأماكن والظروف الاجتماعية والسياســـية والثقافـــية، وما وصلت إليه الحياة من تعقيدات، وما وصلت إليه التجربة الإنسانية من أبعاد.

وإنـــني لأرى أن الأخـــذ بالنظام الديمقراطي، والاستفادة من التجربة الغـــربية الغنـــية بالخبرات والممارسة والتطبيق، لا يبتعد عن مبدأ الشورى بصـــيغته المـــتطورة التـــي تـــتلاءم ومقتضيات العصر. وإن ركوب موجة الديمقراطية في هذه الفترة، والترويج لها من قبل القوى المسيطرة في العالم بحجـــة تخلـــيص شعوب العالم الثالث من تخلفها، سواء صدق مروجوها أو كذبـــوا، لإيصال الشعوب الإسلامية إلى استلام الحكم، والتصرف بمقدرات

البلاد، وتخليص الناس من الجور والظلم وتعسف الحكام، لهي قفزة نحو التقدم وكسر الجمود والتخلف الذي يلف أكثر دول هذا الشرق.

وإلى المتوجسين من الديمقراطية ونموذجها الغربي، أقول: إن الثغرة التي نخشاها في هذا النظام هي الجانب التشريعي منه. فما صدر في الغرب من تشريعات، تتنافى مع قيم الدين وشرائع السماء، هي نتيجة مفاهيم مادية غزت العقل الغربي. فالديمقراطية ليست ايديولوجية، بل هي أسلوب حكم حيادي، صب فيه إنسان الغرب العلماني، الذي تخلى عن الله وعن دينه، مفاهيمه المادية، وآراءه التشريعية الملحدة، ومفاهيمه للحرية التي تناقضت مع إنجيل المسيح وتوراة موسى وقرآن محمد.

فلو أن الديمقراطية أخذت كأسلوب حكم في بلادنا، وأصبح الشعب هو الذي يحكم نفسه بنفسه، وأصبح للناس الحرية في اختيار حكامهم ونوابهم الذين لهم حق التشريع، وأصبح الحكّام ملزمين برأي الشعب، فلن ينتخب شعبنا، المؤمن بأكثريته الساحقة، نواباً عنه في مجالس التشريع أناساً يكفرون بالله ويشرعون خلافاً لشرعه. وما دامت النظم الديمقراطية تخوله حق محاسبتهم وإسقاطهم وتغييرهم، فلن يكون في برلماناتنا المؤمنة تشريعات تتناقض مع معتقداتنا وشرائعنا المثبتة في كتب السماء. وسيبقى القرآن كتاب الله، بحماية المؤمنين، هو الدستور الذي لا يمس، والمصدر الأساس من مصادر التشريع. ولا يُنال من قدسيته إلى جانب الكتب المقدسة الأخرى. وسيكون لدينا ديمقراطية شرقية مؤمنة، لا تخرج بتشريعها عما أمر الله أو نهى. وبذلك نكون قد استفدنا من تجربة إنسانية رائدة، ضحّى إنسان الغرب الكثير الكثير من أجل الوصول إليها، وصغناها صياغة تتلاءم مع معتقدنا وإيماننا بالرقابة الإلهية على البشر. وتخلصنا من هذا الضياع الذي نتخبط فيه خلال تفتيشنا عن صيغة للحكم، لم يرد لنا أكثر الحاكمين الوصول إليها، كي نبقى على ما نحن فيه من تخلف وخضوع لأحكام ما أنزل الله بها من سلطان. فالله أنزل إلينا شريعة وألزمنا بتطبيقها، لكنه ترك لنا اختيار كيفية

تطبــيقها حسب تغير ظروف الحياة ومستجداتها. أما ما تضمنته الديمقراطية الحديــثة من مبادئ وقيم، من مثل: حرية القول والفكر والمعتقد، والمساواة، والمحافظة على كرامة الإنسان، وحق الإنسان في الدفاع عن نفسه، وحرمة المنــزل، واستقلال القضاء ونزاهته و... الخ فهذه جميعها متضمنة، وبشكل واضــح بيِّن في مبادئ الدين الإسلامي، قبل أن تتضمنها مبادئ الديمقراطية بمــئات السنين. وبهذا نكون قد طبقنا مبدأ الشورى، الذي عجزنا عن تطبيقه بســبب غلــبة شــعوبنا على أمرها منذ أربعة عشر قرناً، بأسلوب عصري حديث، يتلاءم مع مستجدات الحياة وتطور الزمان، وغنى التجربة الإنسانية. وذلــك بإشراك جميع أبناء الأمة باختيار حكامهم ومراقبة أعمالهم في إدارة شؤون الحكم، ومحاسبتهم إن أساؤوا أو انحرفوا عن جادة الحق وإرادة الأمة والقوانين التي أقرتها مجالس التشريع، بحيث لا تناقض المبادئ الإلهية العامة التي تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحق الحق وتبطل الباطل، وترفع الظلم وتقيم العدل، وتحقق المساواة بين الناس بصرف النظر عن عرقهم أو لــونهم أو ديــنهم، مصــداقاً لقــول الرسول محمد: «الخلق كلهم عيال الله» و«الناس كلهم بنو آدم» (الترمذي وأبو داوود).

مــن هــنا، فإذا كانت النظم الليبرالية تعتبر أن الحكومة الديمقراطية تســتمد شــرعيتها من الشعب، فالدولة الديمقراطية الإسلامية تستمد شرعية سلطتها من الله أولاً، أي عليها أن تلتزم بمبادئ شرع الله. أما سلطة الشعب فليســت سوى سلطة بالوكالة، حبلها بيد الله. فالإنسان ــ وفق القرآن ــ هو خليفة الله في الأرض، فالحكم لله بالأصالة وله بالوكالة، بمعنى أنه لا يحق له أن يحلــل ما حرّم الله ولا يحرم ما أحل. أما الحكومة الناتجة عن هذا النظام فهــي حكومة مدنية، وليست حكومة دينية (ثيوقراطية) مصيرها بيد الشعب، يمــنحها ثقته ما دامت على الصراط المستقيم، وله حق محاسبتها وإقالتها أن انحــرفت عن هذا الصراط. إذ لا أحد في الإسلام يحكم بتفويض إلهي، بل بثقة الشعب وبتفويض منه.

الفصل الثامن

واقــع الأديــان

اليهودية تعتبر نفسها أنها أول الديانات السماوية وآخرها، وأن دينها هو رسالة التوحيد التي خصّ الله بها شعبه المختار دون شعوب الأرض.

والمسيحية تعتبر نفسها آخر الديانات. وتعتبر أنه بعد نزول الإله الابن إلى الأرض، وتخليصه البشر من خطيئتهم الأصلية بموته على الصليب، وتقديم التعاليم الإلهية المتمثلة في أقواله وأفعاله لتكون المنهج والمثال لبني البشر، كما هي مثبتة في الإنجيل، فلم يعد ثمة داعٍ ولا حاجة لإرسال رسل لتقديم تعاليم جديدة بعد أن اكتملت رسالة السماء بتعاليم الإله المخلّص.

كذلك الإسلام، يعتبر أن دينه هو تكملة لما سبقه من رسالات السماء، وتوضيح لها. وإن نبيه هو آخر الأنبياء وخاتم الرسل. وإن قرآنه هو آخر التعاليم الإلهية، جاء «تبياناً لكل شيء» ولم ينتقص فيه الله شيئاً من أمور الدين، وانتظام الحياة الدنيا: **«ما فرّطنا في الكتاب من شيء»** وتوضيح المعاد في الحياة الأخرى، قد استوعب كل ما سبقه من رسالات، فكان لها الشارح والموضح والمكمل.

فالإسلام ــ كما مرّ معنا ــ قد اعترف، في نصوص القرآن وأحاديث الرسول، باليهودية والمسيحية كدينين سماويين. كذلك المسيحية اعترفت باليهودية وبتوراتها واعتبرت الكتاب المقدس مؤلفاً من قسمين: العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) وحول هذا الموضوع، صدر عن الكنيسة الكاثوليكية سنة ٢٠٠١ وثيقة عنوانها «الشعب اليهودي وأسفاره المقدسة في

الكتاب المقدس المسيحي». فكان أول ما أكدته هذه الوثيقة، رداً على المشككين بكون إله التوراة (رب إسرائيل ورب الجنود) هو عينه إله الإنجيل الذي حمل لواء المحبة والسلام إلى بني البشر. تقول الوثيقة: «الله الذي تكلم مع موسى، والذي تكلم على لسان الأنبياء، هو نفسه الذي أرسل يسوع، وكشف عن أقواله وأفعاله. الله الواحد الذي تكلم عنه موسى: «اسمع يا إسرائيل إن الرب إلهنا هو رب واحد» (تثنية ٦/٤) هو نفسه الذي تكلم عنه بولس: «لا إله إلا الله الواحد» (١ ــ كور ٨/٤).

وكتبت الوثيقة الحبرية: «من دون العهد القديم، لكان العهد الجديد كتاباً غامضاً، ونبتة حرمت من جذورها، ومصيرها اليباس (فقرة ٤٨). واعتبرت أن صلة العهد القديم بالعهد الجديد صلة استمرارية (continuité) وانقطاع (discontinuité) وتطور (progression) (الفقرات ٦٤-٦٥)»[1].

القرآن يعترف بإله التوراة وإله الإنجيل وإله القرآن بأنه واحد أحد فرد صمد. الذي ذكر «**في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى**» (سورة الأعلى). ويعتبر كما اعتبرت وثيقة الكنيسة الكاثوليكية المذكورة، أن صلة التوراة والإنجيل والقرآن هي صلة استمرارية وتطور في رسالة السماء التي بدأت بآدم واختتمت بمحمد، مروراً بالرسالات السماوية كافة.

لكل من الأديان خصوصيته في أسلوب العبادة وفي المناسك والطقوس وفهم الإله؛ لا من حيث الجوهر، بل من حيث الفهم الإنساني للذات الإلهية، بما يسمى بعلم اللاهوت، كما في الثقافة المسيحية، أو بعلم الكلام كما في الثقافة الإسلامية. ومن هذين العلمين ومن اجتهادات أخرى في فهم الدين، قُسم أتباع الدين الواحد إلى مذاهب وفرق. كل يدعي امتلاك زمام الحقيقة، ويحجبها جزئياً أو كلياً عن غيره من الأديان والمذاهب الأخرى. ويستأثر

---

(١) مجلة صدى الصداقة ــ بقلم الأب ميشال الجاويش (ص ٣٤-٣٥) العدد ١٨ ــ ٢٠٠٢.

بالخلاص الأبدي لأتباع دينه أو مذهبه. ولسان حال كل دين يقول: نحن من نملك الحقيقة الإلهية المطلقة. نحن أبناء الله وأحباؤه. لنا فتح ملكوته ونعيم جنته وحجبها عن الآخرين.

هذا واقع الكثرة الساحقة من المتدينين. والذين يشذُّون عن هذه القاعدة هم قلة من أصحاب العقول الراجحة والفهم الواسع الذين اقتربت مداركهم من الحقيقة الشاملة، وعرفوا أنهم لا يملكون إلا جزءاً من الحقيقة، لأن الحقيقة المطلقة لا يدركها إلا المطلق الذي هو الله عز وجل.

ورب يهودي يتساءل: أبعد أن أرسل الإله لنا نبيه موسى ومعه ألواح الشريعة التي لا زالت بين أيدينا في التوراة، وأنقذنا من ظلم فرعون، وأغرقه مع جيشه في اليم عندما لحق بنا، لأنه كان يريد أن يفتك بنا ويردنا إلى عبوديته. وبعد أن أنزل علينا طعام المن والسلوى وفجر لنا الينابيع، ليطعمنا ويسقينا في صحراء سيناء الجافة القاحلة. ألا يكفي هذا ليكون برهاناً على أن ديننا هو الدين الحق، وأننا نملك الحقيقة الإلهية، لا سيما وأن الله ظل يمدنا بالأنبياء عبر مئات السنين من تاريخنا؟

ورب مسيحي يتساءل: أبعد أن تجسد الإله بجسد إنسان، وعاش على هذه الأرض كبشر، ونقل إلينا تعاليم الأب السماوي الذي أرسله وعمل المعجزات الخارقة برهاناً على ألوهيته. وهذه تعاليمه السماوية وسيرة حياته قد أوضحها لنا تلاميذه في الأناجيل التي هي بين أيدينا منذ مئات السنين. وقد سبق وبشر بمجيئه الأنبياء في العهد القديم، ونوهوا بصفاته. وقد صلب وتعذب من أجل مغفرة خطايانا، ومات على الصليب ودفن، ثم قام من قبره في اليوم الثالث. ألا يكفي ذلك ليكون البرهان الحسي الدامغ على أن رسالته هي الحقيقة التي لا لبس فيها، وأننا نملك هذه الحقيقة المتمثلة في تعاليم يسوع المسيح المدونة في الأناجيل؟

وربَّ مسلم يتساءل: أبعد أن أرسل الله نبيه محمداً، خاتم الأنبياء، وأنزل عليه القرآن وحياً من عنده. هذا الكتاب المعجزة الذي لم يستطع أحد من الناس تقليد آية من آياته. والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه توراة موسى وإنجيل عيسى، والشريعة المحجة البيضاء التي فيها خلاص بني آدم في دنياهم وآخرتهم، وصلاح حال الإنسانية جمعاء. وبعد أن دلنا إلى طريق الحق والخير، وعلمنا مكارم الأخلاق، ونقل الناس من عهود الظلم والبغي إلى صراط العدالة والرحمة والمحبة. ويوم طُبِّق الإسلام بتعاليمه السمحاء في عهدي النبوة والخلافة الراشدة، أقام مجتمع العدالة الأمثل، الذي كان ولا يزال حلم الإنسانية. ألا نملك الحقيقة، وقد تمثلت أمامنا نظاماً اجتماعياً مثالياً، عاش وطبق كمثال حي ردحاً من الزمن؟

وجواباً على تساؤل المؤمنين، كل بمنطق دينه، أقول: ما دام دينك هو الحقيقة المطلقة فلماذا قسم دينك إلى مذاهب وفرق، وأحزاب، وشيع؟ وأي واحد من هذه المذاهب أو الفرق يملك الحقيقة؟

أعطي للقارئ مثالاً على إدراك الحقيقة.

أشبِّه الحقيقة بفيل، وضعه أحدهم في صندوق وأقفل عليه. وجعل في هذا الصندوق ثقوباً صغيرة. واستدعى مجموعة من الناس، وطلب إليهم أن يعرفوا ما في الصندوق، شرط ألا ينظر أحدهم إلى داخل الصندوق إلا من ثقب واحد. وبعد انتهاء فترة المشاهدة، طلب من كل منهم تدوين ما عرف. فكانت أجوبتهم كل حسبما شاهد من ثقبه: كرة ضخمة، لمن شاهد جزءاً من بطن الفيل. عاموداً لمن شاهد جزءاً من أحد أرجله. حبلاً غليظاً لمن شاهد جزءاً من ذيله... وهكذا جمع واضع الفيل في الصندوق المشاهدين يتحاجّون أمامه، ويتجادلون. فراح كل واحد منهم يصر على أنه قد أدرك حقيقة ما في الصندوق، ويخطّئ آراء الآخرين.

إن ما عرفه كل واحد من هؤلاء المشاهدين كان حقيقة رآها بعينه. لكنها، في الواقع، جزء من الحقيقة الموجودة في الصندوق. هو صادق في ما حكم عليه عقله نتيجة المشاهدة. لكن خطأه كان بإنكاره آراء الآخرين، واعتبار حكمه على ما في داخل الصندوق، من خلال مشاهدته الجزئية، هو الحقيقة الوحيدة.

أسحب هذا المثال على معتنقي المذاهب الدينية والفكرية، المغلقي أفكارهم على الحقيقة التي أدركتها عقولهم الفردية، أو عقول أندادهم أو شركائهم في المذهب والمعتقد. فنراهم يتشددون ويتعصبون لمذهبهم، وينكرون على أتباع الديانات والمذاهب الأخرى عقيدتهم، متوهمين أنهم يملكون الحقيقة المطلقة، دون سائر المذاهب. ويجتهدون في تقديم البراهين على صحة أفكارهم وصدق معتقدهم. مغمضين عيونهم وعقولهم عما يملك غيرهم من حقائق.

فمثل الفيل داخل الصندوق هو الحقيقة المطلقة التي لا يدركها إلا واضع الفيل في الصندوق. أما الأحكام العقلية التي أصدرتها عقول المشاهدين، من خلال الثقوب، فهي حقائق جزئية، لو جمعت جميعها، ومحّصت التمحيص الكافي لاقتربت من الحقيقة الكلية.

وهكذا شأن الأديان، فهي جميعاً في جزئياتها مشارف على الحقيقة. وهي في مجموعها وعمومها الباب الموصل إلى الحقيقة. لكن عقول البشر الساعين إليها عقول محدودة، يستعصي عليها إدراك المطلق، مهما بذلت من جهد، وتعمقت في فهم. فالحقيقة المطلقة لا يحيط بها إلا المطلق الذي هو الله عز وجل. والأقرب إلى إدراكها من لم يكتف بالنظر إلى داخل الصندوق من ثقب واحد؛ أي لم يكتف بدراسة وفهم دينه وحده، دون الاطلاع على الأديان والمذاهب الأخرى.

إنني لا أستطيع أن أتخيل أن البشرية، بمعطياتها العقلية والفكرية المحدودة، سوف تصل في يوم من الأيام إلى الإدراك الشامل الكامل، الذي لا يخفى عليه شيء من حقائق هذا الوجود. أو أنها سوف تلتقي على فهم واحد للإنسان والكون والحياة والمجتمع. أو أنها سوف تدين بدين واحد وفهم واحد لعلم اللاهوت أو علم الكلام. أو أنه سوف ينتهي الصراع الفكري والعقائدي عند عقيدة واحدة شاملة، تلتقي وتجمع عليها كل أفكار البشر، إلا بمعجزة إلهية. والقرآن يحسم هذا الأمر بقوله: «**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم**» (هود، ١١٨-١١٩). فاختلاف الآراء والمفاهيم والعقائد ــ وفق هذه الآية القرآنية ــ هو مشيئة إلهية «ولذلك خلقهم» أي ليظلوا متباينين في الآراء وفي المعتقدات، كل يدافع عن رأيه من أجل إغناء الفكر الإنساني، وارتقاء قوانا العقلية، في سعينا وراء الحقيقة. أما أولئك الذين يتجاوزون التقوقع المذهبي، والتعصب الديني، ويدركون أن ما عرفوه هو جزء من الحقيقة الكلية، وأن هنالك أجزاء أخرى عرفها غيرهم. هؤلاء المستثنون، قد عبر عنهم القرآن بقوله «**إلا من رحم ربك**». هذه الفئة، التي نالت رحمة الله، قد تجاوزت الخلافات الدينية واعتبرت وفق الحديث النبوي: «إن الناس كلهم عيال الله» (مسلم، عتق، ١٦). ولم تفرق بين رسول ورسول، بل آمنت برسل الله وكتبه جميعاً. يقول فيها القرآن: «**والذين آمنوا بالله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفوراً رحيماً**» (النساء، ١٥٢).

ويبيّن القرآن الغاية من هذا التعدد في الأديان بقوله: «**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً**» (الحج، ٤٠). فالله تعالى وفق نص هذه الآية، يريد من هذا التعدد أن يتنمّى الفكر الإنساني من جراء دفع أفكار الناس، بعضهم ببعض، كي تقام لله المعابد والصوامع والكنائس والمساجد والصلوات، كل متدين يدافع عن

دينه ومعتقده، كي تقوم المنافسة بين الأديان وتتكثف معرفة الله، ويقبل الناس غيرة على دينهم، ويتعرفوا أكثر على خالقهم.

ويخاطـــب الله في القرآن نبيه محمداً، وهو في ذلك يخاطب المسلمين جميعاً: «**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتـــى يكونوا مؤمنين**» (يونس، ٩٩). إذ «**لا إكراه في الدين**» (البقرة، ٢٥٦). ووضع للمسلمين قواعد الحوار الديني مع الآخر، بقوله: «**أدع إلى سبيل ربك بالحكمـــة والمـــوعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**» (النحل، ١٢٥). وانطلاق الحوار في الإسلام يقوم على قاعدة: «**وإنّا وإياكم لعلى هدى أو في ضـــلال مبـــين**» (سبأ، ٢٤). وليس على قاعدة نحن على الهدى وأنتم على الضلال. أي على المحاور المسلم أن ينطلق بحواره من فكرة أنه ربما يكون على ضلال ومحاوره على هدى، فيستفيد منه، أو ربما يكون هو على هدى ومحاوره على ضلال فيفيده بحواره له.

أن تـــؤمن بمـــا اطمأن إليه قلبك، ورجح فيه فكرك، واقتنع به عقلك، وتدافـــع عـــنه وتحملـــه، عقيدة آمنت بصدقها، إلى الآخرين، بكل إخلاص ومحبة، فهذا حقك إن لم أقل واجبك تجاه ضميرك، وتجاه ربك. وهذا أسلوب حملـــة الدعوة للآخرين في المسيحية والإسلام. لكن، أن تحتكر الحقيقة، كل الحقـــيقة، فـــي عقيدتك أو مذهبك، وتحجبها كلياً عن الآخرين، وتنكر عليهم امـــتلاك شـــيء منها، فهذا منتهى الجهل والتقوقع الفكري، والبعد عن الحق والحقيقة. وهذا ما اصطلح على تسميته في العصر الحديث بالأصولية.

الأصولية

الأصـــولية هـــي عـــبارة عـــن معتقد ديني أو سياسي متزمت، يؤمن معتـــنقوه، انطلاقاً من ثقافة، غالباً ما تكون تجاوزتها مفاهيم عصرهم، بأنهم يملكـــون الحقـــيقة المطلقة، مع أنهم، في الواقع، لا يزالون قابعين بأفكارهم

ومفاهـيمهم في حقبة زمنية غابرة، لا علاقة لها بمفاهيم الكثرة الساحقة من أبـناء مجـتمعهم. وهم يؤمنون بأن من واجبهم فرض معتقدهم على الناس. ويرفضون أي تكيف للعقيدة مع الظروف المستجدة.

فالأصولية ليست مذهباً فلسفياً أو كلامياً أو دينياً، بل هي نزعة فكرية مـنغلقة علـى أفكارهـا، وترفض أفكار الآخرين، وتتعصب ضد أي رأي مخـالف لرأيها. وتتميز الأصولية بالجمود وعدم مجاراة التطور، والانغلاق علـى افكارهـا ومفاهيمها الخاصة بها، رافضة أي حوار مع الآخر. وهذه الأصولية لم يخل منها دين من الأديان.

«فالأصولي إذ يعتبر نفسه مالك الحقيقة المطلقة، يعتبر أن من يرفضها يكـون إما مريضاً عقلياً ينبغي وضعه في مصحة عقلية، رأفة بالمجتمع من جـنونه، وإمـا مكابراً واعياً يستحق السجن أو الموت، نظراً لتعنته ورفضه الإرادي الواعي للحقيقة».

هـذا هـو المـنطق المتطرف لكل أصولية. فهي تدعي امتلاك حقيقة أخيرة كاملة، كأن ذلك اصطفاء إلهي. وبالتالي، تدعي أن رأي الآخرين لاغٍ، ولا قيمة له.

شـهد الـتاريخ الإسـلامي أصولية فرقة الخوارج، في القرن الأول للهجرة، الذين كفّروا كل من عداهم من المسلمين واستباحوا دماءهم ووصلوا بتطرفهم إلى تكفير وسفك دم الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب، رغم مـا سـجل التاريخ الإسلامي لعلي من مآثر سلوكية وأخلاقية، وما ترك من شـروح وفهـم معمّق للدين الإسلامي، لا زال فيه القدوة الفكرية والسلوكية للمسلمين في العصور الإسلامية كافة.

الأصولية الكاثوليكية

ظهـرت الأصولية المسيحية في الكنيسة الكاثوليكية في حقب تاريخية طويلة كتبت على صفحات التاريخ مآس جمة. كاضطهاد اليهود في أوروبا،

والتنكـيل بالعلمــاء الذين يطرحون أفكاراً لا يستوعبها فكر الكنيسة. وحرق محــاكم التفتيش كل من يبدي رأياً مغايراً لتعليمات الكنيسة بعد إلصاق تهمة الهــرطقة بــه. وذبح سبعين ألفاً من جميع سكان مدينة القدس، من مسلمين ويهود، عند دخول الجيش الصليبي إليها عام ١٠٩٩، وإبادة الهنود الحمر بعد سيطرة الجيوش الأوروبية على القارة الأمريكية، «كان إقدام المطران دييغو دلانــدا علــى حرق كل الآثار المكتوبة لثقافة مايا وكتبها المقدسة، وتحطيم أعمالهــا الفنــية بوصفها «أوثاناً»[١] مماثلاً لعمل طالبان في أفغانستان، يوم أصــروا على تحطيم تمثال بوذا، رغم النداءات التي وجهت إليهم من جميع أنحاء العالم للإقلاع عن ذلك.

وكان الاستعمار الحديث نفياً أصولياً للثقافات الوطنية المحلية، وانغلاقاً كلياً عنها، ونقيضاً لها.

وضعت هذه الكنيسة حداً لهذه الأصوليــة في المجمّع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) حيــث انفتحت على سائر الأديان الأخرى، واعترفت بما عند هذه الأديان من حقائق تلتقي مع مفاهيمها. «والجو العام الذي خرج من المجمع هو (على حد تعبير الإعلام يومذاك) أن الله لم يعد أوروبياً، ولم يعد مع الأغنياء والسلطات والدول والعسكر... ولا مع أصحاب الجاه والسلطة... وتم الاعتراف، وللمرة الأولى، بحق الاعتراض، وبحرية الضمير، والمعتقد، والإقــرار بوجــود ديانات أخرى، والانفتاح عليها واحترامها... فالله لم يعد كاثوليكياً، وتلطفت الأجواء بين روما والقسطنطينية (بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيســة الأرثوذكســية). وأنشــئت أمانة سر للحوار مع الأديان الأخرى، وخصوصاً الإسلام واليهودية، وحتى مع الملحدين والماركسيين...»[٢].

---

(١) الأصوليات المعاصرة ــ غارودي ــ تعريب د. خليل أحمد خليل ــ دار عام ألفين، باريس، ص ٥١.

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي ــ الدكتور سعود المولى، ص ٨٧، دار المنهل اللبناني.

وجـــاء فـــي الوثيقة الصادرة عن المجمع المذكور (Nastra Actate): «أن الكنيسة تنظر نظرة تقدير إلى المسلمين، الذين يعبدون الله الواحد الأحد القيوم، الرحمن الرحيم، القدير، فاطر السموات والأرض، وقد ألقى كلمته إلى البشـــر. وإنهـــم يجتهدون في الاستسلام والخضوع الكلي لأوامر الله، حتى الخفـــية مـــنها، كما خضع إبراهيم الذي يفخر الإسلام بالانتساب إليه. وإنهم يجلّـــون يسوع كنبي، وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرمون مريم أمه العذراء، كما أنهم يدعونها أحياناً بتقوى... وعلاوة على ذلك، فهم ينتظرون يوم الدين والبعـــث والحساب، ويلتزمون الحياة الأخلاقية، ويؤدون العبادة لله، لا سيما بالصلاة والزكاة والصوم».

وتضـــيف الوثـــيقة: «إذا كان حصل خلال القرون الماضية صراعات وعداوات بين المسلمين والمسيحيين، فإن المجمع يدعو إلى نسيان الماضي، وإلى الاجتهاد بصدق للفهم المتبادل، وأيضاً إلى القيام بجهد مشترك، ولصالح جمـــيع البشر، لحماية وتعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الروحية والأخلاقية، والسلم والحرية».

ســـبق هـــذا التصريح صدور إشارة خاصة في الفقرة ١٦ من الرسالة البابوية المعنونة (Lumen Gentium) وهي المتعلقة بالنظام العقدي للكنيسة، حيـــث نقرأ عن إدخال المسلمين في المخطط الإلهي للخلاص البشري. إذ إن «مخطـــط الخـــلاص يشمل أولئك الذين يعترفون بالخالق، وبالدرجة الأولى المســـلمين الذيـــن يقولون بالإيمان الإبراهيمي، ويعبدون معنا الإله الواحد، الرحمن الرحيم، الحاكم الأخير للبشر يوم القيامة»[١].

وطلب البابا يوحنا بولس الثاني يوم ١٩٩٩/٩/١ باسم الكنيسة الصفح عن الأخطاء التاريخية التي ارتكبها الكاثوليك. قائلاً أمام عشرة آلاف زائر:

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٧-١٣٨.

«إن الكنيسة لا تخاف الحقيقة، وتشعر بوجوب الاعتراف بخطيئة أبنائها، وطلب الصفح من الرب والأخوة». ومن بين الأخطاء التاريخية، أشار البابا إلى «حقيقة الانقسام المؤلم بين المسيحيين، والتعصب، وأشكال العنف، وانعدام البصيرة بين المسيحيين بمواجهة الأشكال الأساسية لحقوق الإنسان»[1].

لقد خطت الكنيسة الكاثوليكية، في النصف الثاني من القرن العشرين، خطوة جبّارة من الانفتاح على الأديان الأخرى، حيث محت تاريخاً من التقوقع والانغلاق، واحتكار الخلاص الإلهي، لتجاري في خطوتها تلك وتتماثل مع انفتاح القرآن على المسيحية التي اعتبرها ديناً سماوياً خلاصياً منذ أربعة عشر قرناً. وهي وإن لم تعترف بالقرآن كتاباً منزلاً، وبمحمد نبياً مرسلاً، فهي قد انفتحت على الإسلام، واعترفت بما فيه من قيم تلتقي مع قيم المسيحية، وتؤدي إلى الخلاص ونيل نعمة الله ورضوانه. وهذا تحول كبير، وكبير جداً بالنسبة للماضي الغابر. وهو قفزة حضارية، تحسب لها، بكل جدارة، في تاريخ العلاقات بين الأديان، وتعطي لأبناء هذا الكوكب أملاً بمستقبل مشرق في العلاقات الإنسانية والتقارب بين الشعوب والأديان.

وليس ذكرنا لبعض مسالب هذه الكنيسة، في التاريخ، إلا لتبيان هذه القفزة النوعية والتطور الكبير في فكر ونهج المذهب الكاثوليكي، فعسى أن تكون تلك الخطوة مثالاً يحتذى من أجل تطور المفاهيم الدينية لدى المذاهب الدينية والفكرية كافة.

أصوليات غربية أخرى

نقيضاً للكاثوليكية، خرج من الثقافة العلمانية الغربية أصوليتان: الأصولية الشيوعية، والأصولية الليبرالية أو الرأسمالية.

---

(١) جريدة السفير، تاريخ ١٩٩٩/٩/٢.

الأولى حاولت أن تفرض فكرها على الناس كحل نهائي لمشاكل العالم، تحطمت في أهم مرتكزاتها في انهيار الاتحاد السوفياتي. لكنها لا زالت عقيدة الملايين من المؤمنين بتعاليمها في الكثير من بقاع الأرض. أما الثانية فهي اليوم في أوج مجدها وجبروتها، واعتزازها بنفسها، تشن هجوماً على ثقافات العالم لإبادتها وإحلال مفاهيمها كحل نهائي للصراع الفكري والحضاري في العالم. يعبر عن هذا الاتجاه المفكر الأميركي (صموئيل هنتنجتون) الذي ألّف كتاب «صراع الحضارات». هذا الصراع الحتمي، كما يراه الكاتب، ينبغي أن يؤول إلى القضاء على الثقافات والحضارات النقيضة للنظام الرأسمالي الليبرالي. لا سيما الإسلام الذي ستظل علاقة الغرب به علاقة صراع، ولا يمكن التعايش معه.

ويطل على العالم مفكر أميركي آخر هو فوكوياما بكتابه «نهاية التاريخ» الذي اعتبر أن انتصار النظام الليبرالي على النظام الشيوعي هو آخر صراع في الأرض. وأن الزمن استقر، بعد الصراع المرير والتجارب الإنسانية القاسية، على هذا النظام الليبرالي الرأسمالي الذي سوف يسود إلى آخر الزمن كنظام نهائي يحل مشاكل البشر جميعاً. وحكم على كل الأنظمة الأخرى بالزوال المحتوم. فقد أسفرت التجربة الإنسانية ـ كما يرى الكاتب ـ عبر تاريخ الإنسانية المديد، عن بلورة الحقيقة النهائية بالوصول إلى هذا النظام الذي ينبغي أن يسود العالم.

كما أنتجت هذه الليبرالية العلمانية الغربية، بعد إقصاء المسيحية عن حياة المجتمع والدولة، أصوليات عنصرية خرجت من رحم هذه الحضارة، كالنازية التي اعتبرت العرق الألماني هو العرق المميز عن باقي شعوب الأرض، والمؤهل لحكم العالم. وكالفاشية الطليانية التي اعتبرت، انطلاقاً من نظرتها العنصرية، أن الشعب الطلياني يختزن مجد وعظمة الامبراطورية الرومانية. ودعت شعبها لإعادة ذلك المجد العريق. فكان التقاء هاتين

الأصوليتين العنصريتين، اللتين قررتا السيطرة على العالم بدافع عنصريتهما، حــرباً عالمـــية دمرت عشرات ملايين البشر. ولا زالت النازية رغم مرور عشرات السنين على اندحارها، تذر بقرنها بين الحين والآخر وتقوم بأعمال عنف ضد سكان ألمانيا من الأصول الآسيوية أو الأفريقية.

والـــيوم وفـــي بداية القرن الواحد والعشرين، تنمو في بلد عريق في علمانيـــته كفرنســـا، أصولية الجبهة الوطنية بقيادة جان ماري لبين Le Pen الـــذي يعمـــل جـــاهداً مع أعضاء جبهته لطرد كل العناصر غير ذات الدم الفرنسي الأصل من فرنسا، حتى ولو كانوا يحملون الجنسية الفرنسية وولدوا فـــي فرنســـا. فاختلاط الدم الفرنسي بهذه الأعراق ذات الأصل الآسيوي أو الأفريقي حسب رأيهم يحط من عراقة الشعب الفرنسي وأصالته المميزة.

الأصولية الإسلامية

يشـــهد العصر الحديث أصولية إسلامية أو إسلاموية ــ على رأي من يـــريد أن يمـــيزها ــ تـــتقوقع في مفاهيمها في بعض الأفكار التي تجاوزها الزمن، وتتناقض في بعض أفكارها المتطرفة مع الإسلام عينه. فترفض كل فكـــر ســـوى فكرها، وكل فهم سوى فهم مؤسسيها. وتتشبث بحقبة من حقب الـــتاريخ الإســـلامي، مضـــى عليها أكثر من ألف وأربعمائة سنة، يوم كان الإسلام في عزّ مجده وازدهاره، لتتخذ منها المثال الذي ينبغي أن يحتذى في عصرنا. فتعمل جاهدة من أجل استنهاض أمة الإسلام، بردِّها إلى ذلك المثال الخـــيِّر، كي تعاود مجدها وعزّها الذي انطوى تحت سيطرة غربية جائرة، وتحـــت اجتـــياح ثقافي وحضاري «كافر»، لتستقي من ينابيع الدين الحنيف ثقافـــتها الحقة، والترياق الذي يشفي جميع أمراضها، وينهض بها مما تعاني مـــن ضـــعف في دنياها وجهل في دينها. متجاهلة واقع العصر ومعطياته، وتطـــور الحـــياة والمجتمعات. وتكفِّر كل دين غير دينها، وكل مذهب سوى مذهـــبها. تحـــتكر الهدايـــة الربانية لأبناء مذهبها، فهم وحدهم دعاة الحق،

وأصحاب الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين. وهم الأتقى والأورع، وجماعة الله الثابتون على الحق والهدى، في عصر «الكفر والضلال». لا تفوتهم فريضة صلاة ولا نافلة، ولا صوم ولا حج أو زكاة. يعمرون مساجد الله، ولا تفوتهم صلاة جمعة أو جماعة. يحتذون سنة رسول الله حتى في لباسهم وإرخاء لحاهم، وغطاء رؤوسهم، وحتى تسوك أسنانهم، ولا يخافون في الله لومة لائم.

يصح فيهم قول رسول الله في الخوارج: «تحقر صلاة أحدكم عند صلاتهم، ويحقر صيام أحدكم عند صيامهم، ولكنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة».

ويصح فيهم وبمعاملتهم قول الإمام علي في الخوارج: «إنهم قوم طلبوا الحق فأخطأوه، وليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه».

ما يؤخذ عليهم

لا شك أن هذه الفئة من المسلمين، صادقة في إيمانها، مخلصة لدينها، تسعى بكل ما أوتيت من جهد لنيل رضوان ربها. تسلك بتقوى الله؛ تعمل بما أمر وتنهي عما نهى، وفق فهمها الخاص بها. «إنما الأعمال بالنيات». لكن ما يؤخذ عليها يتجلى في ما يلي:

١ــ التعصب الأعمى لمذهبهم، واعتباره الحقيقة الإلهية الوحيدة.

٢ــ رفضهم لكل فكر حديث، ولو كان صاحبه عالم دين، أو فقيهاً مشهوداً له في علمه.

٣ــ اعتبارهم أن عصور الإسلام الأولى هي كمال الدين والعلم، أما العصور التي تلتها فما هي إلا انحراف عن جادة الحقيقة الدينية. وتوقهم الدائب لنقلها بحرفيتها إلى هذا العصر. فهم بذلك يستعينون بالماضي لبناء الحاضر والمستقبل.

٤ـ تمسكهم بالتراث، وأعني به تفسير القرآن والسنة كما فهمه وفسره المجتهدون في قرون الإسلام الأولى.

٥ـــ رفضـــهم وتكفيـــرهم كل الأديان الأخرى، ورفضهم وتكفيرهم المذاهب الإسلامية الأخرى.

٦ـــ اعتـــبار أنفسهم حماة الدين وحملة الشريعة الحقة. وهم مكلفون بإقامة شرع الله في الأرض. ومن هذا المفهوم، تعتريهم، أحياناً وفي ظروف خاصـــة، الحميّة الدينية لحمل السلاح من أجل نصرة دين الله، والعمل بالقوة على إقامة الدولة الإسلامية التي ستقيم، على أيديهم، الحكم الإسلامي، وتطبق شـــرع الله فـــي الأرض، ولو لم يكونوا قد هيأوا لـــه مجتمعاً مناسباً، وبيئة صـــالحة لقبولـــه واحتضانه، غير عابئين بالظروف الموضوعية التي تحيط بـــواقعهم، تحفزهم رغبة جامحة لنصرة دينهم ـ كما فهموه ـ فينتقلون من فشـــل إلى فشل، موقعين أنفسهم بمهالك ينعكس تأثيرها على عامة المسلمين، وعلى سمعة الإسلام نفسه.

٧ـــ رفضهم المطلق لكل معطيات الحضارة الحديثة، ولم يقتصر هذا الرفض على الفكر والسلوك، وأسلوب الحياة، والنظم الاجتماعية، بل يتعداه، أحـــياناً، إلـــى التكنولوجـــيا والآلات. ومثالهم ما قام به حكم «طالبان» في أفغانستان من تحريم اقتناء الراديو والتلفاز كأدوات تنقل الرذيلة والفسق إلى البيوت.

٨ ـ تنصـــيبهم أنفسهم ديّانين على الناس، ووسطاء الله في الأرض، يدخلون من يشاؤون إلى الجنة، ويدفعون بمن أرادوا إلى نار جهنم. ويحددون علاقـــتهم بالـــناس علـــى أساس تصنيفهم بين مؤمن ومشرك وكافر ومرتد. متجاهلـــين قـــولـــه تعالـــى لنبيه في القرآن: «**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصـــابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة**» (الحج، ١٧).

فـــالله وحده في الإسلام ـــ وفق نص القرآن الكريم ـــ الحكم والفصل بين أتباع هذه الأديان، يوم القيامة. ولله وحده حق الدينونة على البشر. وليس أنت أيها الإنسان، كائناً من كنت، فإنك لم تعطَ من الله حق إدانة الناس. فبأي حـــق تنصـــب نفســك ديانـــاً على الناس، وتصنِّفهم في الدنيا، وتحكم على مصيرهم في الآخرة؟

والله يقـــول لرسوله: «**إنما أنت مذكِّر. لست عليهم بمصيطر، إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر. إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم**» (الغاشـــية، ٢١-٢٦). ولـــم يعط لرسوله، أقرب الخلق إليه، السيطرة على الـــناس ومحاسبتهم. ويوضـح له أن مرجع جميع البشر إليه وحده، وما دور الرســـول إلا كمذكِّـــر للـــناس، ومُوعٍ لهم من غفلتهم، ومنذر لهم من عذاب الآخـــرة: «**إن علينا حسابهم**» وليس عليك. بل «**ليس لك من الأمر شيء**» (آل عمـــران، ١٢٨). أما من يتولى منهم عن جادة الحق ويصر على كفره، فمرجعه إلى الله. فإن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه: «**وكان الله عفواً غفوراً**» (النســـاء، ٩٩). فالله وحده «**بيده ملكوت كل شيء**» (يس، ٨٣). «**وإلى الله ترجع الأمور**» (آل عمران، ١٠٩). ويأتي أمر الله إلى رسوله ليبلغه للناس: «**قل إن الأمر كله لله**» (آل عمران، ١٥٤). وليس منه شيء لأحد من البشر. ويعلمـــه كيف يخاطب الكافرين: «**قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين**» (الكافرون، ١-٦).

فجمـــيع الأديان الأخرى، غير الإسلام في رأيها كافرة أو مشركة. لا مكان لأتباعها إلا في نار جهنم. مغمضين عيونهم عن قوله تعالى في القرآن الكريم: «**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**» (البقرة، ٦٢).

فدخول جنة الله، التي يحتكرها هؤلاء المتطرفون، قد فتحها الله لجميع عباده الذين يؤمنون بالله ويؤمنون باليوم الآخر ويعملون الأعمال الصالحة، إلى أي دين سماوي انتموا. والله أمر «**ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم**» (يوسف، ٤٠).

هذه الفئة تأخذ بحرفية لفظ الآية القائلة: «**إن الدين عند الله الإسلام**» (آل عمران، ١٩) فلا دين عند الله غيره، كما يرون. ويأخذون بالآية المكملة لها: «**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**» (آل عمران، ٨٥). يأخذون هاتين الآيتين مفصولتين عن غيرهما من الآيات القرآنية الأخرى التي توضّح معنى الإسلام الذي تعنيه هاتان الآيتان. فالإسلام ـ كما مرّ معنا ومنعاً للتكرار ـ هو الرسالة السماوية التي بدأت بآدم واختتمت بمحمد، مروراً بكافة الأديان السماوية الأخرى. فوفق نص القرآن اليهودية إسلام، والمسيحية إسلام (راجع في هذا الكتاب، فصل رأي الإسلام في اليهودية والمسيحية، ص ٤٦). والقرآن الكريم يوضح للمؤمنين أنه: «**شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك** (القرآن) **وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**» (الشورى، ١٣). فالله عز وجل يعطي أمره ألا يتفرق الناس في الدين. فالله هو مصدر هذا الدين، وهو المنزل لوحيه على أنبيائه جميعاً: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام. فهذه الأديان جميعاً دعوات إلهية توصل إلى رضوان الله تعالى. وعلى المؤمنين أن يجعلوا منها أدوات تواصل وتقارب، لا وسائل تفرقة وتباعد، كما أكد القرآن: «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**» (الحجرات، ١٣) فدين الله واحد.

ولا يكتفي هؤلاء المتزمتون بتكفير الأديان الأخرى غير دينهم، بل يتعدون بتعصبهم وتزمتهم إلى المذاهب الإسلامية الأخرى غير مذهبهم، فينكرونها، ويخرجونها عن جادة الحق، ويصمونها بالانحراف والضلال. وقد

يوصـــلونها إلـــى الكفر والزندقة، ولا يرون لأتباعها مصيراً إلا نار جهنم. متجاهلين، أو لعلهم ــ على الأرجح ــ جاهلين قوله تعالى لنبيه محمد: «**إن الذين فرّقوا دينـهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء**» (الأنعام، ١٥٩). هذا خطـــاب مـــوجه من الله إلى رسوله يأمره أن يتبرأ من أولئك الذين يفرقون ديـــنهم إلى شيع ومذاهب وفرق تباعد بين المسلمين وتفرق صفوفهم وتشتت وحدتهم. فهؤلاء ليس الرسول منهم، وليسوا منه في شيء. والذي فُرض على الرســـول أن يتبرأ منه، فالله أولى أن يتبرأ منه. فالآية واضحة، تبيّن فداحة جرم أولئك الذين يفرقون بين أبناء دينهم بتعصبهم لمذهبهم بأنهم قد انحرفوا عن الصراط القويم، فليسوا من محمد ودينه في شيء. ولست أدري ما يبقى مـــن ديـــن لمـــن يتبـــرأ منه الله ورسوله الذي حرّم التعصب بقوله: «هلك المُتنطعون» (أي المغالون) (صحيح مسلم ٢٦٧).

ويخاطـــب الله تعالـــى هـــؤلاء المتعصبين الذين يفرقون بين المذاهب الإسلامية بقوله: «**ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينـهم وكانوا شـــيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون**» (الروم ٣١ و٣٢). فينعتهم بالمشركين، ويصف عملهم بالشرك. فالتمذهب الذي يؤدي إلى تفرقة المسلمين وتناحرهم، بـــتحويلهم إلـــى شيع وفرق وأحزاب، كل يفرح بانتمائه إلى حزبه أو فرقته، ويحقـــر الأحـــزاب والفـــرق الأخرى، هذا التمذهب هو شرك بالله. لا ينال مرتكبه رحمة الله وغفرانه. وفقاً لقوله تعالى: «**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفـــر ما دون ذلك لمن يشاء**» (النساء، ٤٨). فويل لأولئك الذين يتحزبون لمذاهبهم، ويحقِّرون المذاهب الأخرى، ويفرقون بين المسلمين، فهم قد ظلموا أنفســـهم، وغـــدا ذنبهم من الكبر بحيث لن ينال مغفرة الله: «**إن الشرك لظلم عظيم**» (لقمان، ١٣).

ويضـــيف القرآن بذلك أمراً باتاً: «**وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**» (الأنعام، ١٥٣). فالصراط المستقيم

(الطريق القويم) هو في القرآن. فهو منبع الشرائع، وكلام الله الذي «**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**» فالذي يسير على هدى القرآن ولا يتَّبع السبل (أي الطرق والمذاهب التي وضعها بشر) يصل إلى طريق الحق التي لا عوج فيها، ويلتقي مع جميع المؤمنين بدينه الذين يستقون من نفس هذا المنبع، ويلتقي مع الأديان الأخرى بكل انفتاح واحترام، كما بينا في فصل (رأي الإسلام في الأديان الأخرى). وأما من يترك القرآن ليأخذ بفقه إنسان وضع منذ مئات السنين، ويتشبث بحرفيته، منكراً كل حقيقة خارجه، فسيفترق عن باقي السبل أو المذاهب الأخرى، ويضل عن صراط الله المستقيم.

أشبه المذاهب الدينية بالسواقي المائية التي تنبع على تعددها من نبع واحد. وكلما بعدت المسافة بينها وبين النبع كلما أسن ماؤها، وعكِر صفاؤها، وتغير لونها وطعمها، حتى لا تعود شراباً زلالاً سائغاً للشاربين. فيهرع الشاربون إلى النبع لشرب الماء الصافي العذب الذي لا تشوبه شائبة.

كذلك، فالمنبع الأول لجميع المذاهب الإسلامية هو القرآن الكريم. والمذاهب هي السواقي، فكلما بعدت عن القرآن اعتراها على تعاقب الأجيال، وتناقض أفكار البشر، ما يعتري سواقي الماء من شوائب. ولكي نضمن صفاء العقيدة وصحة المذهب، لا بد من العودة إلى القرآن الذي هو المنبع الصافي للعقيدة، وما يتفرع عنها من مذاهب. نتلمس في آياته صحة أحكام المذهب على ضوء ما استجد من معطيات فكرية وعلمية توصّل إليها وعي العصر. وبهذا نضمن التقاء جميع المذاهب على حقيقة واحدة، لا مجال فيها لتناقض أو تنافر، ما دام منبعها واحد هو كلام الله، وغايتها واحدة هي نيل رضوانه تعالى. فالخلاف بين المذاهب الإسلامية (السواقي) ليس قائماً في الشريعة. فالشريعة هي التوجيه الإلهي المبين في القرآن، وجميع المذاهب تستقي منه. فخلافها واقع في الفقه، أي اجتهاد البشر وفهمهم.

عوامل تكوّن الأصولية الإسلامية المعاصرة

لا يخفى على دارس التاريخ الإسلامي الظروف القاهرة التي مرت على البلاد الإسلامية، وما انحدرت إليه من تخلف وانحطاط بعد عصر العلم والازدهار. لقد عمّت فيها حقبة من الأميّة الكاملة والجهل المطبق، نتيجة ظروف تاريخية قاهرة، لسنا هنا في معرض الخوض فيها، ولا مجال لها في هذا الكتاب. وعلى الخصوص البلاد العربية التي كانت قيد التتريك، في مشروع تقوم به الدولة العثمانية الحاكمة باسم الإسلام، لتديم هيمنتها على كافة أرجاء الامبراطورية المترامية الأطراف. وشهدت إطلالة القرن العشرين حرباً ضروساً بهجوم أوروبي لانتزاع أملاك السلطنة العثمانية، وتفتيتها، واقتسامها بين الدول الأوروبية المنتصرة.

وإذا استثنينا تجربة محمد علي لاستنهاض القطر المصري، فإن باقي البلاد العربية كانت تعيش أمية مطبقة، سهّلت السيطرة الكاملة عليها، واستغلال خيراتها من قبل المستعمرين. وإذا علمنا أن جامعة السوربون في فرنسا، مثلاً، أنشئت في القرن الثالث عشر الميلادي (بعد جامعة قرطبة بمئات السنين) ولا زال عطاؤها متواصلاً حتى يومنا هذا، وأن الجامعات الوطنية، في الدول العربية الحديثة، لم تخرج إلى الوجود إلا بعيد الاستقلال، والتحرر من الاستعمار، في أواسط القرن العشرين، عرفنا مدى الانحدار والتخلف الذي عاشته هذه البلاد. وهي اليوم تكافح بمرارة للخروج منه واللحاق بركب الدول المتقدمة علمياً وتقنياً.

أما بالنسبة للثقافة الدينية، فلم يبق منها، في عصر التخلف والانحطاط ذاك، إلا مشايخ أشباه أميين، توظفهم دوائر الأوقاف لرفع الأذان وإقامة الصلاة، لمن تبقى من المسلمين الذين لا زالوا يتوارثون تقاليد الصلاة، و«إيمان العجائز» عن الأهل والأجداد. وبقي الإسلام مجمداً في كتب فقه ذات أوراق صفراء، تقادم عليها الزمن وبعد عهدها بالفقهاء والمتفقهين، حتى

ومجـرد القارئـين، وفي مصاحف زينت بحمالات حريرية، يعلوها الغبار، علقت على جدران المنازل. وندر من ينزلها من علاّقاتها ليقرأ آياتها البينات. وإذا حـدث ذلـك فللتبرك وحسب. وندر من يتمكن من فهم معانيها والعمل بتعاليمها.

ولـم يـبق مـن المراكز العلمية في البلاد العربية إلا بعض المراكز الدينية؛ كجامع الأزهر في مصر، وجامع الزيتونة في تونس، وحوزة النجف الأشرف في العراق. هذه المراكز الدينية ران عليها ما ران على المجتمعات الإسلامية كافة من الجمود الفكري. فظلت تدرس فقه السلف، دونما تجديد أو تطوير.

لكن هذه المراكز الدينية، رغم جمودها واكتفائها بدراسة تراث علماء الـدين القدماء من فقهاء ومفسرين ورواة حديث، كان لها الفضل الكبير في المحافظة على التراث الديني وحمل جذوة الإسلام إلى أبناء العصر الحديث، لـيعاود مفكـرو هـذه الأمـة وعلماؤها ومثقفوها الجدد الغوص في العلوم الإسلامية، ونقل الإسلام إلى مستوى وعي العصر، فكراً وثقافة، ونظام حياة، لتـتكون النهضـة الفكرية التي لا زالت تنمو وتتعمق في فهم الإسلام كنظام اجتماعـي، وتـرياق نـاجح لحـل مشـكلات الإنسانية. وأصبحت المكتبة الإسـلامية، اليوم، تغنى كل سنة بالدراسات المستنيرة المتنوعة، التي خطت بالإسلام خطوات رائدة في الانفتاح على ثقافات العصر الحديث، الدينية منها والعلمية. لكن طريق التقدم والتجديد لا زالت في بداياتها.

هذه المجتمعات الإسلامية، بمستواها الثقافي الحالي، لم تتمكن جميعها بعـد من استيعاب فهم الإسلام الفهم الصحيح، بشموليته وسعة أبعاده الدنيوية والأخروية. من هذا الواقع تكونت فرقة السلفيين أو الأصوليين (كما يسميهم الغرب). هؤلاء يرون أن الخير كل الخير، والحق كل الحق، في فهم ما فهمه السـلف الصالح، في العصور الأولى للإسلام. ولكي تنهض أمة الإسلام من

تخلفهـــا وكبوتها ـــ وفق رأيهم ـــ لا بد من أن تنهج نهج المسلمين الأوائل، لكـــي تستـــعيد مجدها وكرامتها. غير مكترثين بما استجد من متغيرات على المجتمعات البشرية، وما بلغه الفكر الإنساني من علوم ومعارف، وما توصل إليه إنسان العصر من مفاهيم وعلوم ومخترعات، كان لها الأثر الفاعل على مســـار الحياة الإنسانية كافة. فكان فكرهم تكرراً لأفكار وصيغ تجريدية من القـــرآن والســـنة، ذات طموح أخلاقي وتهذيبي، كما فهمها الفقهاء منذ اثني عشر قرناً، منفصلة عن سياقها في القرآن وفي التاريخ.

فهـــم يكافحـــون لإرجاع الزمن ما ينيف على الألف سنة إلى الوراء، بالعـــودة إلـــى عصر الازدهار الإسلامي، مخالفين منطق التاريخ، ومنطق الواقـــع. فالـــزمن لا يـــرجع إلى الوراء. وعلى الناس أن يطوروا مفاهيمهم ومعـــارفهم لـــتجاري تطور الزمن، وإلا سيدفنون أنفسهم في مقبرة التخلف، وسوف يطويهم النسيان، وتدور عليهم دائرة الفناء.

بعد أن دخلنا القرن الواحد والعشرين، نجد أن الكثرة الساحقة من فقهاء المسلمين لم تؤمن بعد بوجوب فتح باب الاجتهاد الذي أقفل منذ القرن الرابع الهجـــري، فكـــان هـــذا الجمود الفقهي عاملاً مساعداً على ولادة هذه الفرق السلفية (الأصولية) التي ترفض ترك التاريخ والوصول إلى وعي العصر.

أمـــا أتباع المذهب الجعفري الذين رفضوا قفل باب الاجتهاد وحصر الشـــرع الإســـلامي بالمـــذاهب الأربعـــة المعروفة، واستبعاد باقي المذاهب الإســـلامية، مـــثل: مذهب الإمام جعفر الصادق، ومذهب الإمام الأوزاعي، ومـــذهب الطبـــري، ومذهب سفيان الثوري، وحوالى العشرين من المذاهب الأخـــرى، وما أكثرها في عهد الازدهار الفكري. أبقى أصحاب هذا المذهب باب الاجتهاد عندهم مفتوحاً. لكن الاجتهاد لم يفتح لإنشاء مذاهب جديدة. بل اجـــتهاد ضمن المذهب عينه. لأنهم يعتبرون أن مذهب الإمام جعفر الصادق هو مذهب آل البيت النبوي، وأن الإمام جعفر هو إمام معصوم، لأن الإمامة

عندهم هي امتداد للنبوة. وكما تجب عصمة النبي لنقل الوحي الإلهي إلى الناس خالياً من الشوائب، كذلك دور الإمام، يشرح ويفصّل ويوضح أحكام الدين، ويفسر ما التبس فهمه من الكتاب والسنة، بعد غياب النبي. فلا بد أن يكون معصوماً من أجل عصمة الدين عن الخطأ أو الانحراف في الفهم والتفسير. فالاجتهاد لديهم يعتمد على أصول التشريع التي هي: القرآن، والسنة النبوية، والعقل، والإجماع. وما يروى عن آل بيت النبوة هو أصح الروايات، عندهم، وأصدقها عن رسول الله. فأئمتهم الاثنا عشر — وفق رأيهم — هم سلالة النبوة، وهم معصومون. ورواياتهم لا يشوبها خطأ أو انحراف.

فالإمام جعفر الصادق عندهم ليس مجرد إمام مجتهد، بل هو إمام معصوم، واجتهاده لا يرقى إليه الشك. وما هو إلا شارح وموضح لحقيقة الإسلام. فالاجتهاد الذي ظل مفتوحاً بين أتباع هذا المذهب بعد عصر الأئمة الاثني عشر، فهو ليس اجتهاداً مطلقاً، بل هو اجتهاد في جزئيات الشريعة وفي ما استجد من أمور حياتية فرضها تطور الزمن ومعطيات الحياة العملية. ويبقى فقه الإمام جعفر، فقه آل البيت النبوي، هو المرجع الأساس، والمعين الذي يستقي منه الفقهاء المجتهدون في المذهب. ولا يجوز لمجتهد تجاوزه، والمجتهدون كما هو الواقع يتحرجون من إصدار فتاوى لا يستطيع استيعابها فهم العامة، حيث لا زالت الأمية تجتاح مجتمعاتنا الإسلامية بشكل عام.

لكن فتح باب الاجتهاد رسمياً في عصرنا ظل، بشكل عام، اسمياً. ولم يبلغ المستوى الذي يحتاجه العصر. وعندما تجاوز المجتهد المرجع السيد محمد حسين فضل الله بفتاويه بعض المفاهيم السائدة لدى عامة الفقهاء، لم ينج من نقد لاذع بلغ، لدى بعضهم، حد التكفير. لا سيما في فتواه التماس هلال شهر رمضان عن طريق علم الفلك ووسائل الاستبصار الفلكية، والتخلي عن التماسه بالوسائل البدائية بواسطة الرؤية بالعين المجردة.

فالأصوليون يتعاملون مع التراث بالقدسية نفسها التي يتعاملون بها مع القـرآن، الوحـي الإلهـي، والسنة النبوية المكملة لهذا الوحي. يعيشون في الماضـي منغلقين عن الحاضر، يهمهم النقل أكثر مما يهمهم العقل. يخلطون بين الشريعة، قانون الله الأخلاقي، وبين الفقه، تشريع الأحكام. فهم يخلطون بـين الكلام الإلهي والكلام البشري. فالله عز وجل عندما يدعو الناس للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبرِّ الوالدين، وعندما يعلمهم: لا تقفُ ما ليس لك به علم، ولا تصعِّر خدك للناس، ولا تجسّسوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً، وأوفوا الكيل والميزان ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين... هذه شريعة الله، وقانـون الأخلاق الإلهي الأساسي. تضبط سلوك الإنسان، وتربطه بالرقابة الإلهية التي لا يخفى عليها خافية.

فالشـريعة (الطـريق) هـي مصدر الأخلاق الذي ينظم سلوك الفرد والمجـتمع. لكـن تطبـيقها الحقوقـي (الفقه) يتعين عليه أن يحيط بالوضع التاريخـي لكي يظل وفياً بشكل صحيح. فقراءة حرفيّة لآية، وفهمها خارج سياقها التاريخي (أسباب النزول) وبمعزل عن باقي آيات القرآن لا يؤدي إلا إلـى فهم ناقص وأحكام بعيدة عن مقاصد الشريعة، وإلى تناقضات كثيرة في تفسـير القـرآن. فعلى سبيل المثال، في القرآن آية تقول: «**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين**» (البقرة، ٤١). وفـي آية أخرى يقول القرآن: «**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسـية**» (المائدة، ١٣). فلو فسِّرت الآيتان على عموم ألفاظهما، منفصلتين عن أسباب النزول، لكان معنى ذلك تناقض في القرآن، فبنو إسرائيل مفضلين وملعونين في الآن ذاته. أما تفسيرهما على خصوص أسباب التنزيل فيوضح أن الـذين فُضِّـلوا هـم يهود نبي الله موسى الذين خصهم الله بحمل رسالة التوحـيد. وإن الذين استحقوا اللعنة هم يهود المدينة الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله.

إن فعـل شـرع، لغة، هو جذر مصطلحي لشريعة أو شِرعة في كل صـيغهما وألـوانهما: التوجه نحو مورد الماء. فالشريعة هي الطريق الذي يوصـل إلى مورد ماء، إلى مصدر، وهي مجازاً الطريق الموصل إلى الله، إلـى الفضـائل والخصال التي تُرضي الله. وهذا مختلف تماماً عن وصايا وتعالـيم فقهية يضعها البشر، انطلاقاً من هذه المبادئ، في أي عصر، وعند أي شـعب، مـن أجـل تنظيم الحياة في المجتمع، ولتكوين ما يسميه علماء الإسلام الفقه أي الفهم، والمقصود به فهم الشريعة.

إن الـتوجه الخلقـي والدينـي «الطريق إلى الله» الشريعة الحق، هو الهـدف الأساسي للقرآن. فمن أصل ما يزيد على ٦٠٠٠ آية قرآنية، هناك ٨٠ آية فقط حول الأحكام الحقوقية.

فـي المـادة الجـزائية: ٥ عقـوبات تتعلق بالسرقة والزنى والفِرية واللصوصية وقتل الإنسان.

فـي المادة المدنية: هناك وصيتان تتعلقان بالتجارة: «**أحل الله البيع وحرّم الربا**» (سورة البقرة، ٢٧٥). وبالدَّين: «**يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بـدَين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأبَ كاتب أن يكـتب كمـا علّمه الله فليكتب، وليملل الذي عليه الحق وليتقِ الله ربه ولا يبخس منه شيئاً...**» (سورة البقرة، ٢٨٢). وتفصّل الآية باقي أحكام الدَّين.

فـي مادة الوضع الشخصي: تصوغ كل الآيات «التشريعية» الأخرى أحكاماً متعلقة بالزواج والطلاق والميراث.

وبالتالي، من الغلو حصر الشريعة، الطريق التي توصل بالمؤمن إلى نـيل رضى الله، في هذه الآيات المعدودات، بينما يوجد أكثر من ٩٥% من آيات القرآن تتناول الإيمان بالله، والأخلاق «الصراط المستقيم». بكلام آخر، تعالج الأهداف الواجب نشدانها لإتمام مشيئة الله.

إن القــرآن دعــوة دينية وأخلاقية، وليس قانوناً فقهياً. ولئن كان في بعضــه نصوصــاً حقوقية، فلأنه يشرع لمجمل الحياة الاجتماعية، بدءاً من البنــية التكوينــية للجماعة وصولاً إلى تنظيمها الاقتصادي. إنه يقدم الأسس الأخلاقية لوضع تشريع، في كل عصر، يلبي حاجات المجتمع. لكنه لا يضع قانوناً ثابتاً، لا يتغير، يصلح لكل زمان[١].

فالفقــه إذن، هــو فهم الفقيه لكيفية تطبيق حكم من أحكام الشرع، في العبادات والمعاملات والعقوبات. وعلى أحكام الفقهاء واستيعاب فهمهم وغلبة ظنهم، وإدراكهم في منهج القرآن والسنة النبوية، انقسمت الأمة الإسلامية إلى مــذاهب. وهــذه المذاهب الفقهية وضعها أئمة صادقون مخلصون، حاولوا جهدهم مقاربة الحقيقة في عصرهم، لكن عقولهم ومداركهم وما حصلوا عليه مــن فهم للقرآن والسنة، جعلهم يبنون عليه أحكاماً ليست واحدة. فقد اختلفوا فــي صــياغة الأحكام الشرعية وفقاً لمداركهم العقلية، لآيات القرآن الكريم والسنة المشرّفة.

كانت مهمة هؤلاء الأئمة الفقهاء في توضيح الأحكام الشرعية ضرورة من ضرورات المجتمع الإسلامي الذي خرج من شبه الجزيرة العربية ليحتكّ بشــعوب أخرى لها ثقافتها ولها قوانينها. فكان لا بد للإسلام أن يحل جميع المعضلات المستجدة على حياة المسلمين؛ من معاملات وعبادات ومشكلات اجتماعية اقتضاها قيام المجتمع الجديد، لم تكن معروفة في المجتمع المديني أو المكــي. فتصــدوا لها، ووضعوا لها الأحكام والحلول، فكانت دليلاً على حيوية الإسلام في تلك العصور. والرسول حضّهم وشجعهم على ذلك بقوله: «من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد».

---

(١) راجــع: غــارودي، الأصوليات المعاصرة، دار عام ألفين، باريس، تعريب د. خليل أحمد خليل، ص ٨٦-٨٧.

فالمسلم المجتهد سينال أجره من الله أخطأ أم أصاب. لكنه حذّر من الفتيا لمن لا يملك زمامها، ولم يتمكن من فهم القرآن والسنة الفهم الكافي للإفتاء، بقوله: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار» (الدارمي، مقدمة، ٢٠).

لكن هذه المذاهب وقد مرّ على أقربها من عصرنا ما يزيد على الألف سنة، لم تعد أحكامها الفقهية تسد كامل حاجة المجتمع المعاصر، لما استجد عليه من أمور كثيرة لم تكن معروفة في عصور الإسلام الأولى. وإذا كانت معروفة، فالأحكام التي صح تطبيقها منذ مئات السنين لم تعد تصح في هذا العصر. وبما أن الزمن غير متوقف وغير جامد ولم يعد هنالك قوانين إسلامية تلبي واقع العصر، فقد اعتمدت الدول في البلاد الإسلامية القوانين الوضعية كبديل جرياً مع مسار الزمن، وتوجيهاً من المستعمر الحاكم، من أجل حل بعض المشاكل المستجدة، ولئن تركت بعض الأنظمة في البلاد الإسلامية المعاصرة، للفقه الإسلامي الحكم في الأحوال الشخصية، من زواج وطلاق وميراث ووصية، فقد اضطر الكثير منها لتجاوز فقه القدماء وتشريع قوانين جديدة تحد من ظلم المرأة وتحقق العدالة كما يفهمها أبناء هذا العصر ــ كما حدث في تونس وفي مصر ــ لا كما فهمها المجتمع الذكوري منذ مئات السنين. فليس القصور هنا في شرع الله، بل القصور كل القصور في جمود العقل الإسلامي وقبوله التقوقع في غياهب التاريخ، يجترّ الماضي ويحصر حق تفسير القرآن والسنة في يد فقهاء عصور طواها الزمن منذ مئات السنين.

ففي زمن انحطاط الفكر الإسلامي في هذا العصر، وما سبقه من عهود انحطاط، قلب فقهاء السلاطين الشريعة الشمولية السمحاء إلى أحكام شكلية جافة، ينحصر دورها بما هو حلال أو حرام، والتخويف من عذاب القبر ونار جهنم، والتسبيح بحمد الحكام اتقاء لشرهم وطمعاً في عطائهم. مما ساهم في بقاء الإسلام في حالة جمود وركود، واستسلام لمشيئة الحاكم بجبرية

بعيدة عن روحية الإسلام وديناميته، من أجل شل فاعليته في المجتمع وفي الحياة، مما ساهم في تهيئة ونشوء الأصولية المتطرفة.

الشريعة السماوية واحدة، ولكن تطبيق أحكامها يتغيّر بتغيّر الظروف والأزمان. فالزمن متغير، وحاجات الناس في تطور دائم، فلا بد لأحكام الشرائع من أن تجاري المستجدات والتطور. فالرسل جميعاً يحملون شريعة واحدة، ثابتة في ما يتعلق بالعقيدة الأساسية، كالإيمان بالله واليوم الآخر، وتحريم القتل والسرقة والزنى... الخ. وهنا نفهم القول: «حلال محمد حلال إلى يوم الدين، وحرامه حرام إلى يوم الدين». كذلك الزواج حلال، والتجارة حلال، وزراعة الأرض والأكل من نتاجها حلال و... تلك المحرمات والمحللات أساس ثابت في الشريعة. أما تفصيل جزئيات أحكام هذه المحرمات وتلك المحللات التي لم توضّح في النصوص المنزلة فهو اجتهاد الفقهاء.

فالشريعة من حيث غاياتها فهي قائمة على إصلاح حياة الفرد، وانتظام حياة المجتمع. فأحكامها تبقى مرتبطة بغاياتها، مع مراعاة مصالح الناس وما استجد على حياتهم من أمور الدنيا العارضة، ومن مستجدات العلم ومكتشفاته، وسبل العيش المتجددة.

فالله عز وجل أنزل الشريعة لتحقيق مصالح العباد بتوجيههم إلى ما فيه سعادتهم. فكانت رسالات السماء شرائع تترى، تحمل مع العقيدة الأساسية تجارب البشرية في تعاقب أجيالها، لتنتظم حياة الإنسان المستخلف في الأرض. وكانت آخر هذه الرسالات شريعة الإسلام التي جعلها الله خاتمة الشرائع، لتكون كمال ما سبقها من التعاليم الإلهية، وقانون الإنسانية الدائم. لذلك وجب أن تكون وافية بجميع الأحكام التي تحتاج إليها جميع أمم الأرض في تدبير شؤونها وتنظيم مجتمعاتها، صالحة لمجاراة الحياة في جميع تطوراتها ومراحل تقدمها ورقيها. تزودها في كل عصر بما يكفل لها السعادة ويحقق لها المسار الصحيح نحو كمالها، ويجد فيها الإنسان مرونة لاستيعاب

كل ما يستجد على حياته. فالله أنزل القرآن «**تبياناً لكل شيء**» (النحل، ٨٩). ولا يعني هذا أن القرآن الكريم أحاط بكل جزئيات الوقائع والحوادث، وبكل مستجدات الحياة، وفصّل كل أحكامها. ذلك أن القرآن دستور يضع الخطوط الرئيسية للأحكام، أما الجزئيات فلا بد من وضع قوانين تحيط بتفاصيلها. وبما أن أحداث الحياة غير متناهية، وتتغير مع تطور الزمن، فلا بد للشرع (الفقه) أن يجاري كل ما استجد وما يستجد عليها. فأحكام القرآن قواعد عامة، ومبادئ كلية ثابتة، يمكن أن تتماشى مع اختلاف الأحوال والظروف.

فالقرآن الذي هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، أحاط بجميع الأصول والقواعد التي لا بد منها في كل قانون عام، كوجوب العدل، واحترام الإنسان، ودفع الضرر، ورعاية الحقوق، وأداء الأمانات، وحفظ النفس والدين والعقل والمال والنسل و... الخ من أجل انتظام المجتمعات الإنسانية.

وجاءت السنة النبوية تطبيقاً وتفصيلاً لتلك الأحكام العامة، بأقوال النبي وأفعاله وتقريره لما كان يعرض عليه من حوادث تستجد على حياة الناس، يستقي ذلك من الوحي الإلهي. «فسن في ذلك أحكاماً في المعاملات كانت تقتضيها الحاجات الدنيوية لمجتمع الأمة الإسلامية الناشئة، وأحكاماً أخرى ثابتة لا تتغير بتغير العصور والجماعات كالعقيدة والعبادات والحدود. فوضع الأسس الثابتة لأنواع العبادات والأخلاق، وقواعد صالحة لنظام الأسرة وتربية الناشئة، وأسساً متينة لأحكام روابط المجتمع، وشرّع من القواعد في المعاملات والجنايات، وعلاقات الدول بعضها ببعض، ما هو كفيل بإقرار السلام والأمن الدوليين. حتى شمل الآداب الخاصة وما ينبغي أن يكون في السفر والإقامة والصحة والمرض والغنى والفقر»[١].

---

(١) راجع كتاب: تغير الأحكام بتغير الأزمان، تأليف ميسر سهيل، دار الأحباب، بيروت، ص ١٤-٢٠.

وكان الرعيل الأول من أئمة وفقهاء المسلمين، وبعد وفاة النبي، يستنبطون الأحكام الشرعية من القرآن والسنة لما استجد على مجتمعهم. ولم يتوقفوا في استنباطهم عند ظاهر النصوص، بل تعمقوا في فهمها، وعلموا أن أحكام الشريعة لها أسبابها ولها غاياتها. وبمعرفتهم لأسرار التشريع وعلل الأحكام استطاعوا أن يشرعوا لزمانهم ما يتلاءم مع تطور حاجات مجتمعهم. وعرفوا أن الشريعة الثابتة في أصولها فهي قابلة للتطور في أحكام المعاملات بما يتلاءم مع مصالح الناس. ولم يقفوا عاجزين عن مواجهة ما استجد عليهم من معضلات اقتضاها تغير زمانهم، أي تغير العوامل المؤثّرة في الحكم الشرعي، لا سيما بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأمم، بعد الفتح الإسلامي. فاستنبطوا من أصول الشريعة أحكاماً وضعوا فيها حلولاً لمختلف الأمور الحياتية المستجدة، منطلقين من مبدأين أساسيين للشريعة: أولهما: مقصد الشارع، وثانيهما: تحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم، بما يتلاءم مع تطور الزمن وتبدل الأحوال، فملك اليمين أو التسري، لم يعد اليوم قائماً، فسقط من أبواب الفقه ما يتعلق به، وكذلك ملك الرقبة.

فالشريعة الإسلامية، وهي شريعة حية، تمتاز بالحركة والنماء والتطور، وتمتاز بالمرونة لتغطي أحكامها جميع ما تجيء به الحياة المتجددة المتغيرة من وقائع وأحداث. وليس يعني هذا أن أحكام الشريعة تتغير بحيث تساير الزمن الذي يفرض نفسه عليها، متخلية عن جوهرها وأصولها، وإنما المقصود هو أن هذه الأحكام المعللة ذات الأصول الثابتة، هي من المرونة بحيث تعطي الدواء المناسب بحسب العلة، مهما تغيرت الظروف والأحوال، بما يحقق مقصد الشارع. وليست هذه المرونة في الشريعة الإسلامية (الفقه) فكرة طوباوية، ولا ظناً أو تخميناً، وإنما هي حقيقة أثبتتها التجربة وأيدها الواقع بتطبيقها بضعة قرون من تاريخ صدر الإسلام، حيث كان الفكر الإسلامي يحمل حيوية الدين الجديد وانطلاقته الفريدة في بناء الإنسانية، فلم

تعجزه قضية من القضايا المستجدة، وما أكثرها وأعقدها، إلا ووجد لها حلاً من الشرع الإسلامي الحنيف.

خلاصة القول، إن الشريعة ثابتة في أصولها متطورة في فروعها، قادرة على استيعاب كل ما يستجد من أمور الحياة. وإذا كان البحث الفقهي قد تجمد عند حقبة من حقب التاريخ، فذلك لانقطاع حرية الفكر وحرية الاعتقاد، وارتباط التفكير بالتكفير، بسبب الانحطاط الفكري والثقافي الذي ران على أمة الإسلام منذ ما ينيف على الألف سنة. فهذا لا يعني إلغاء الفقه وموت الاجتهاد، وتحنيط الشريعة إلى ما لا نهاية. بل ذلك يكون حافزاً لأبناء هذا القرن لفتح باب الاجتهاد، وإعادة إدخال الشرع الإلهي ليكون فاعلاً في تطور حياة المجتمعات الإنسانية التي هي أحوج ما تكون اليوم إلى شريعة تحمل بعداً إنسانياً، فيها للدين موقع، وللإله رقابة وتوجيه. وفيها من التجربة التي بلغتها الإنسانية بجميع خبراتها الشيء الكثير. بذلك يقول الشيخ محمد الغزالي: «إننا أغلقنا باب الاجتهاد قرابة ألف عام، فإذا سبقنا غيرنا في شؤون إنسانية مطلقة فلا معنى لاستكبارنا عن الاستفادة منه، ولا معنى لابتداء السعي من حيث وقفنا متجاهلين كدح غيرنا نحو الكمال»[1].

في هذا الزمن الذي لم تستعد فيه الثقافة الإسلامية رشدها، ولم يتسنَّ لمثقفي الإسلام بعد أن ينتجوا ثقافة إسلامية واعية مستقرة تجاري مفاهيم العصر وعلومه، وترقى بالإسلام إلى مستوى من الوعي ينقله من عصوره الغابرة ليجعله فاعلاً ومؤثراً في فكر هذا العصر، كان من الطبيعي أن يتقوقع بعض المسلمين، غير مكتملي النضوج الفكري والثقافي بفكرهم في حقب التاريخ الغابرة، ويستمدوا منها المفاهيم التي يرون فيها خلاص شعبهم ودينهم. إنها مرحلة صدر الإسلام، فترة قيام الدولة التي صنعت تاريخ

---

(١) أزمة الشورى في المجتمعات العربية، الشيخ محمد الغزالي، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، ص ٦٩.

الإسلام، وأخرجت المسلمين من العمالة للروم والفرس إلى أن يصبحوا سادة الـــروم والفرس، بل سادة العالم. فهم يتشبثون، أبداً، بتلك الحقبة. ويستمدون منها الأحكام التي تشرّع تصرفهم وسلوكهم في السلم والحرب، ومع الصديق والعـــدو، ويصـــنفون الـــناس، قياساً عليها، بين مؤمن وكافر. ويريدون أن يخلعـــوها كاملـــة، دون تعـــديل أو تحريف، على هذا العصر، عصر العلم والتكنولوجـــيا، والمواصـــلات الســـريعة، وغـــزو الفضـــاء، والمعلوماتية، والإنتـــرنت، والفلســـفات الماديـــة، والأنظمـــة المســـتجدة، من ديمقراطية، وراســـمالية، واشـــتراكية. يظنون خطأ أن في العودة إلى تلك العصور هو خلاص لهم من ربقة الذل الذي يعانون، ومن التخلّف الذي تعيشه المجتمعات الإســـلامية بســـبب امتـــناعها عن تطبيق حرفية دينها، وإقامة شرع الله في الأرض كما كان في عصوره الأولى.

لكـــن هذه الفئة من المسلمين فات عن إدراكها أن الزمن لا يعود إلى الوراء. وأن الدهر كنهر جار، لا يستطيع المرء أن يغسل يديه في نفس الماء فيه مرتين. فليس المطلوب هو الهروب من قهر الواقع بالانكفاء، إلى العيش والـــتقوقع فـــي الـــزمن الغابـــر، بل باستحضار التاريخ لاستخلاص العِبر، والاســـتفادة مـــن التجربة الإسلامية والإنسانية والتمسك بقيم الدين الحنيف، وبالمفاهـــيم الإسلامية بجوهرها وليس بحرفيتها، بانفتاحها على ثقافة العصر وهضمها، وتصحيح ما انحرف منها عن استقامة «الدين القيِّم» وعن الأخلاق التي جاءت بها رسالات السماء. فالمجتمعات البشرية قد جرَّبت أنواعاً عديدة من الأنظمة ومارست صنوفاً شتى من أساليب السلوك. وهي تحاول، بعد أن بعد عهدها بالدين وتعاليمه، جاهدة للوصول إلى النظام الأمثل والسلوك الأقوم عبـــر التجربة الإنسانية البحتة التي يحاول إنسان الغرب المسيطر على اكثر إمكانات الكرة الأرضية، أن يتفرد بها، آملاً أن يوصل المجتمعات الإنسانية إلى الجنة الأرضية التي يمنّون النفس بها.

فـي هذا الخضمّ من التجارب الإنسانية، ينبغي أن يطرح الإسلام من أجـل تقديم الحلول لمشاكل إنسان هذا العصر الذي هو أحوج ما يكون إليها في هذه المرحلة من مراحل تاريخ البشرية، ليس بالقوالب القديمة، بل بقوالب تجـاري ثقافـة العصر، ومستوى وعيه، ونضج التجربة الإنسانية. فالشرع الإسـلامي شرع مرن يتماشى مع ظروف الواقع، ويراعي مفردات التجربة الإنسـانية. فرسول الله (ص) المعلم الأول للشريعة لم يطبِّق حد السرقة على إنسـان استولى على طعام ليس له ليسد جوعه. جاء في الحديث: «قال عبّاد بـن شرحبيل: قدمت مع أهلي إلى المدينة، فدخلت حقل قمح، واقتلعت عدة سـنابل، واسـتخرجت مـنها حـبها. وحـين وصل صاحبها أخذ ملابسي وضـربني، فمضيت إلى النبي شاكياً عليه. فأرسل النبي وراءه، وسأله: ما الـذي جعلك تفعل ما فعلت؟ قال: يا رسول الله، دخل هذا الرجل حقلي وأخذ مـنه سنابل واستخرج حبها. فقال النبي: كان جاهلاً ولم تؤدبه، وكان جائعاً ولـم تطعمه. ردّ إليه ثيابه. وأعطاني رسول الله مكيالاً من الحنطة» (رواه النسائي وأبو داود).

والخليفة عمر بن الخطاب يوم ألغى دفع مستحقات المؤلفة قلوبهم، بعد أن قـويت شوكة الإسلام، ولم يعد ثمة حاجة لدفع هذا البند من بنود توزيع الصـدقات من أجل تثبيت المؤمنين الجدد على الدين، ويوم علق تطبيق حد قطع يد السارق في عام المجاعة، قد خالف، في الظاهر، نص القرآن، وأبطل حكمـاً من أحكامه. لكنه في الواقع العملي، خرج عن حرفية الحكم الشرعي من أجل تطبيق روحية ومفهوم النص، ومقصد الشارع فيه.

«إن هـذا المجـتمع المتحجِّـر، المقـدس في التراث، أدى إلى خلط الشريعة، الطريق التي أوصى بها الله مع الفقه، وهو صياغة حقوقية، محض بشـرية، تاريخية (أي ضيعت في ظروفها الواقعة في زمانها الغابر) تجعل هـذه الآيـات «التشريعية» مقدسة، كما فسّرها الفقهـاء منذ ما يزيد على

العشرة قرون. إن هذه المسيرة التي تحصر الشريعة بفقه القدماء، معاكسة في آن لتعاليم القرآن والرسول والخلفاء الراشدين في المدينة، وكبار أئمة الفقه.

«فالقرآن، كما في التوراة والإنجيل، يكلم الإنسان في التاريخ. والمفسرون الأوائل للقرآن يعتمدون في تفسير الآيات الظرف التاريخي الذي نزلت فيه، وأسباب هذا النزول. فإن هذه «التاريخانية» لا تنقص شيئاً من قيمة الرسالة الشمولية والأبدية: فكل تنزيل من تنزيلات الأزلي في التاريخ، يتضمّن مبدأ عمل صالح لكل الشعوب وكل العصور، ولو ارتدى شكلاً خاصاً، مرتبطاً بظروف هذا العصر وهذا البلد.

«وواقعة النسخ تؤكد أن التنزيلات الإلهية، رسالات الله، لا تتجسد في شكل مجرد، بل تنطلق من أمثلة عينية تجعل مبادئ العمل الخالدة في متناول كل شعب. من هنا، يأتي دور الإنسان في الاجتهاد واستنباط الأحكام من خلال قراءة المبادئ الأخلاقية (الشريعة) واستلهامها لصوغ قرارات اليوم، ووضع القوانين التي تسمح بحل ما استجد من مشكلات في الزمن الحاضر. أي وضع فقه للقرن العشرين»[١].

لا شك أن العصر الحديث طرح مشكلات كثيرة اقتضتها الظروف المستجدة على الحياة. ولن نجد لها حلولاً جاهزة في فقه القدماء. ونحن محتاجون إلى فقه جديد يتصدى لكل هذه المعضلات التي يقف فقه القدماء أمامها حائراً عاجزاً، لأن الأحكام تتغير بتغير الظروف والأزمان.

فالإسلام أتى بالأسس لنظام الحكم، كالعدل والشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكن القوالب التي يلزم تطبيقها لإقامة الحكم

---

(١) غارودي، الأصوليات المعاصرة، دار عام ألفين، باريس، ترجمة د. خليل أحمد خليل، ص ٨٨-٩٠.

فهي مسؤولية بشرية. ولم ينزّل الإسلام قوالب نهائية للحكم، قابلة التطبيق في كل زمان ومكان، دونما تعديل أو تمحيص. بل ترك للإنسان المستخلف في الأرض دور في التحقيق والتطوير. (راجع نظام الحكم في الإسلام، ص ٢٢١).

وفي المعاملات المالية: هل نلغي البنوك من أجل تطبيق حرمة الربا؟ وهل البنوك التي أنشئت حديثاً باسم البنوك الإسلامية تعتبر في نظر الشرع الإسلامي بنوكاً لاربوية مع أنها تتاجر بالأسهم كالبنوك الربوية؟ وهل رضي عن تطبيقها الشرع الإسلامي؟ وهل ما كتبه العلامة السيد محمد باقر الصدر بكتابه «البنك اللاربوي» كان كافياً لإقامة البنك الإسلامي الحديث؟ أسئلة كثيرة، ومعضلات شتى طرأت على المجتمعات الحديثة تحتاج إلى حلول فقهية، تستنبط من أصول الشرع الإسلامي.

مفاهيم يجب تصحيحها

تغير في زماننا مدلول بعض الكلمات، وأصبحت تعني غير معناها في التنزيل الإلهي في القرآن والسنة. فلفظة الشريعة، كما جاء في القرآن، تعني النهج أو الطريق أو السبيل، (كما مرّ معنا). جاء في القرآن: «**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها**» (الجاثية، ١٨) و«**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**» (المائدة، ٤٨). أصبحت في عصرنا تفيد معنى الفقه. وتحور معناها الأصلي من أمر إلهي مقدس إلى أمر بشري ــ آراء الناس، الفقهاء ــ واعتبرت الشريعة (الفقه) ديناً، وأضفيت عليها القداسة والعصمة، فلا يجوز معارضتها أو مخالفتها أو الاعتراض على أحكامها وإلا كان في ذلك خروج على الدين، وشرك وتجديف.

كذلك لفظة حكم في القرآن الكريم، لا تعني نظام الحكم، أو إدارة وسياسة أمور الناس، بل عنت القضاء في الخصومات، كما جاء في بعض

الآيات: «**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**» (النساء، ٥٨). «**إن الله يحكـــم بينهم في ما هم فيه مختلفون**» «**أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فـــيه يخـــتلفون**» (الزمر، ٤٦). كما تعني الرشد والحكمة: «**ولما بلغ أشدَّه آتيـــناه حكمـــاً وعلمـــاً**» (يوســـف، ١٢). «**فـــوهب لي حكماً وجعلني من المرسلين**» (الشعراء، ١٢).

لكن بعض الجماعات الإسلامية تأخذ بقوله تعالى: «**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**» (المائدة، ٤٥) منفصلة عن سياقها في الآيات القرآنية، وعن سبب نزولها ليجعلوها حجة لتطبيق الحكم السياسي.

هـــذه الآية أخذت مفصولة عن مقدمتها التي جاءت كما يلي: «**وكتبنا عليهم فيها** (التوراة) **أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدّق به فهو كفّارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**» (المائدة، ٤٥) نرى أن الحكم هنا هو حكم في القضاء وليس في الإدارة. وهذه الآية أنزلت لتوضّح ما أنزل الله من أحكام في التوراة أو شريعة موسى عليه السلام لليهود.

وقد أخذ الخوارج بهذه الآية على ظاهر ألفاظها وليس على خصوصية أســـباب تنزيلها. فنتج عن فهمهم هذا أنهم كفّروا المجتمع الإسلامي، وأحلوا دمـــاء مســـلمي زمـــانهم. وفي ذلك قال عنهم عبد الله بن عمر أنهم أشرار الـــناس. وأنهـــم انطلقـــوا مـــن آيات نزلت في غير المسلمين فجعلوها في المسلمين.

كذلك نجد أن هنالك مشكلة النسخ في القرآن. لقد جاء في التنزيل: «**ما ننســـخ مـــن آية أو ننسها نأتِ بخير منها أو مثلها**» (البقرة، ١٠٦). لكن المسلمين لم يجمعوا على معيار واحد للتفريق بين ما هو منسوخ وبين ما هو غير منسوخ. ولم يتفقوا على نظرية محدّدة بيّنة أجمعوا عليها واتفقوا بشأنها. مـــن أجل ذلك غدا النسخ باباً مفتوحاً لكل من يريد أن يلغي حكماً من أحكام

القــرآن فيزعم أنه نسخ. فالقرآن أوضح في آيات بينات وضع أبناء الأديان الأخرى: «**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن الله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحــزنون**» (البقرة، ٦٢). وللتأكيد كرر الله هذه الآية في سورة المائدة، آية ٦٩. بــيد أن بعــض المتشددين يزعمون أن هاتين الآيتين قد نسختا بالآية: «**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين**» (آل عمران، ٨٥). (راجع معنى كلمة إسلام، ص ٤٦).

يؤكد القرآن على حرية المعتقد: «**لا إكراه في الدين**» (البقرة، ٢٥٦). و«**وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**» (الكهف، ٢٩). لكــن بعــض الجماعات تعتبر أن هاتين الآيتين قد نسختا بالآية: «**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**». (الأنفال، ٣٩). فالضمير في كلمة قاتلــوهم، هــنا، يعود على مشركي وكفار مكة الذين، كما توضح لنا الآيات الســابقة لهــذه الآية، كانوا: «**يصدّون عن المسجد الحرام**» (الأنفال، ٣٤). والذين: «**ما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية**» (تصفيقاً وتصغيراً) (الأنفــال، ٣٠). والــذين كانوا: «**يــنفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله**» (الأنفــال، ٣٦). والــذين حاربوا الرسول والمؤمنين بدعوته حرباً لا هوادة فيها، بغية القضاء على الإسلام. وبعد أن وعدهم الله بالمغفرة عما سلف من جرائمهم بحق المسلمين إن هم عادوا عن غيهم، ولكنهم استمروا في عنادهم وكفرهم، وحربهم على الإسلام. عندها أمر بقتالهم، وفق الآية. ولم يقصد بها غيــرهم مــن أهل الكتاب، أو أية فئة اخرى. فالآية نزلت في ظرف محدد، ودعا إلى قتال فئة محددة في بداية الدعوة الإسلامية وللدفاع عنها. ولا يجوز إعطاؤها مدلولاً عاماً على إطلاق لفظها.

أما إذا فهم منها وجوب قتال الناس من أجل الدخول في الدين غصباً، فهــذا يعني إلغاء حكم من أهم وأسمى أحكام الدين الإسلامي، ألا وهو حرية

المعتقد. وفهمهم هذا للآية يعتبر غريباً عما هو معروف ومتداول بين جمهور المسلمين في كافة عصورهم.

تعتبر بعض الجماعات الإسلامية أن المسيحي مشرك بالله لأنه قال بألوهية المسيح عليه السلام، فأشرك مع الله إلهاً آخر. مثله مثل مشركي الجزيرة العربية الذين أشركوا مع عبادة الله عبادة الأوثان. ومصيره هو نفس مصيرهم، لأن الله في القرآن يقول: «**إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة**» (المائدة، ٧٢). ولا تقبل له مغفرة، لقوله تعالى: «**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**» (النساء، ٤٨). ويعتبرونه نجساً ويحرّمون عليه دخول الكعبة المشرّفة. مصداقاً لقول القرآن الكريم: «**إنما المشركون نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**» (التوبة، ٢٨). أي بعد عام فتح مكة من قبل المسلمين وتحطيم جميع ما كان في الكعبة، المسجد الحرام، من أوثان، وجعل العبادة فيها خالصة لله الأحد. لذلك حرّم الله تعالى دخول المشركين عبدة الأوثان إليها، وليس المسيحيين الذين يعبدون الله.

واستناداً لفهمهم الخاطئ لهذه الآية، فهم يعتبرون جسد المسيحي نجس، وطعامه الذي لمسته يداه فهو نجس أيضاً. ويتحرجون من مواكلته ومشاربته.

لقد التبس على هذه الفئة من المسلمين معنى كلمة شرك كما وردت في القرآن، فسحبوها خطأ على المسيحيين. هذه الكلمة التي ترددت في آيات كثيرة في القرآن، ولكنها لم تعنِ، في أي موقع منها، المسيحيين. وخصصت لأبناء الجزيرة العربية الذين كانوا يشركون عبادة الأوثان مع عبادة الله الأحد. وفي عدة آيات يذكر فيها المشركون والنصارى في نفس الآية بلفظتين منفصلتين، يتميز فيها أولئك عن هؤلاء. من مثل قوله تعالى: «**إن الذين آمنوا (المسلمون) والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين**

أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة» (الحج، ١٧). نجد في هذه الآية أن النصارى واليهود قد ذكروا بلفظ مستقل عن الذين أشركوا. وفي قوله: «لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى...» (المائدة، ٨٢). ففي هذه الآية النصارى هم غير الذين أشركوا.

ويقول القرآن: «كذلك زيَّن للمشركين قتل أولادهم شركاؤهم» (الأنعام، ١٣٧) فالنصارى لم يكونوا يقتلون أولادهم، بل المشركون، عبدة الأوثان من عرب الجاهلية هم الذين كانوا يقتلون أولادهم «خشية إملاق». ويئدون بناتهم من أجل التخلص من عارهنّ.

ويقول: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ» (البقرة، ٢٢١). مع أن الإسلام أجاز للمسلم الزواج من الكتابية (المسيحية واليهودية) مع بقائها على دينها بقوله: «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب (التوراة والإنجيل) من قبلكم» (المائدة، ٥) يمكنكم الزواج منهنّ. فكيف يحل الله الزواج من امرأة نجسة، حسب هذا الفهم الخاطئ؟!!.

فالنجاسة التي وصم الله بها المشركين كانت تزول عند نطقهم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ودخولهم الإسلام. ولم يشترط عليهم غسل أجسادهم بأية مادة مطهّرة ليطّهروا من الشرك. لذلك لم تكن نجاستهم نجاسة عينية كالكلب والخنزير، وإنما كانت نجاسة معنوية وليست مادية. أما هؤلاء، فقد اعتبروها نجاسة مادية وخلعوها، جهلاً منهم، على الإنسان المسيحي. مع أن الله في القرآن يقول: «ولقد كرّمنا بني آدم» (الإسراء، ٧٠) ويعني هنا جميع الناس، بصرف النظر عن دينهم أو لونهم أو عرقهم.

أمـــا الأحاديـــث النبوية، فقد أدخل عليها أصحاب الأغراض الدنيوية الكثيـــر الكثيـــر من الأحاديث الموضوعة. إما لدعم مذهب، أو لشرعنة حكم حـــاكم، يحكـــم بغير ما أنزل الله، أو لترويج سلعة، أو لتحقيق غاية دنيوية تناقض شرع الله أو...

لقد اجتهد جامعو الحديث، في العصر العباسي، أمثال البخاري ومسلم وغيرهم. لكنهم فوجئوا بكثرة الأحاديث المفتراة على رسول الله. فالبخاري، وفـــق بعض الروايات، جمع مائتي ألف حديث لم يصح لديه منها إلا ٢٧٦٢ حديثاً. ونرى أن الكثير من الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري لم ترد في صحيح مسلم. وكذلك بعض ما ورد في صحيح مسلم لم يرد في أحاديث غيـــره من الرواة. مما يدلنا على أن كل راوية حديث اعتمد معياراً شخصياً فـــي تحقـــيق الأحاديـــث التي جمعها، وأنه لم يكن لدى الرواة جميعاً معيار موضوعي واحد.

لقـــد اعتمد جامعو الأحاديث النبوية على صدق الرواة من أجل تاكيد صـــحتها. والرواة سلسلة تبدأ بالصحابة ثم التابعين ثم تابعي التابعين. أي أن عـــدة أجـــيال مرت على صدور الحديث عن النبي. لذلك كان معيارهم هو الـــتأكد مـــن عدالة هؤلاء الرواة. وقد وُضع لذلك مصنفات متخصصة بعلم الرجال الرواة، من أجل التحقق من صحة الأحاديث.

لكـــن الوضّـــاعين المحتـــرفين كانوا يزورون أحاديثهم بنسبتها لرواة مشـــهود لهم بالعدالة، من أجل تمرير أحاديثهم المكذوبة وجعلها تنطلي على الناس.

لا شـــك أن أئمة جمع الحديث، رحمهم الله، بذلوا الكثير من الجهد من أجل استخلاص الأحاديث النبوية الصحيحة التي وصلتنا في مدوناتهم، فكان لهـــم فضـــل حفـــظ الســـنة النبوية، المصدر الثاني بعد القرآن الكريم لكل التشـــريعات التي اعتمدتها المذاهب الإسلامية. ولا شك أنهم كانوا أصحاب

عقـول راجحة، ومواهب فذة، ونوايا سليمة خالصة لله، حتى تمكنوا ـ قدر استطاعتهم ـ من أن يفرزوا تلك الأحاديث ويبينوا منها الصحيح من المكذوب.

لكننا اليوم، وبعد مرور مئات السنين على تدوين هذه الأحاديث، وبعد أن بعدنا كثيراً عن زمن الرواة، نلحظ أنه قد وصلنا، بين هذه الأحاديث المنتقاة، بعض الأحاديث الغريبة التي تثير نصوصها الشك بكونها صدرت عن النبي. مع أن جامعي الحديث تأكدوا في زمانهم من صحة رواتها. من مثل حديث الذبابة (بخاري، طب، ٥٨. ومسند أحمد ٢/٢٢٩). أو حديث التداوي بأبوال الإبل (مسند أحمد ١/٢٩٣). أو حديث: «إن البذاذة (رثاثة الهيئة) من الإيمان (أبو داوود وابن ماجه في الزهد). فهذا الحديث يناقض أحاديث كثيرة عن رسول الله. يناقض قوله: «أصلحوا رحالكم ولباسكم حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة» (بخاري، مغازي، ١٧. ومسند أحمد ٤/١٨٠). فالذي يريد من أمته أن يكونوا كالشامة في الوجه، لا يرضى لهم رثاثة الثياب وبشاعة المنظر لأن «الله جميل يحب الجمال». «قال رجل لرسول الله: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. فقال: إن الله جميل يحب الجمال» (مسلم، عن رياض الصالحين، ص ٥٦١). ويتناقض مع قول الرسول: «إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى عليه» (مسند أحمد ٣/ ٤٧٤). ومع قول القرآن الكريم: «**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**» (الأعراف، ٣٢). ومع قول الرسول: «إذا أتاك الله بخير فليرَ عليك» (مسند أحمد ٣/٤٧٣).

والمطلوب في هذا العصر، من أجل تحديث المفاهيم الإسلامية، إعادة النظر في تقدير صحة الحديث بوضع ميزان جديد يقوم على أساس معقولية المتن ذاته، وليس على أساس «العنعنة» أو سلسلة الرواة.

يــرى الشــيخ محمــد عبده أنه «إذا تعارض العقل والنقل أُخِذ بما دل عليه العقل»[1].

كما يقتضي التمييز بين نوعين من الأحاديث النبوية، أولها: الأحاديث التشريعية والتبليغية. وهذه تعتبر أحكامها ثابتة لا تتغير. من مثل: تحديد ما هو محلل وما هو محرَّم، بما لم يرد تفصيله في القرآن بل وردت فيه أحكام عامــة. وثانيهما: ما يتعلق بطرق العيش، وظروف الحياة، وتقاليد الناس في زمن الرسول. وهذه أحكامها قابلة للتغيير بتغير الظروف والأزمان، وتخضع لتقديــر الناس. مثل الحديث القائل: «وفروا اللحى واحفوا الشوارب». فلعل القصــد منها، في ذلك الزمن، مخالفة زي المشركين، أو لعل حفّ الشوارب مــن أجل النظافة بإبعادها عن ملامسة الطعام والشراب. واللحية كانت زي العرب قبل الإسلام. وكانت تقاليد المجتمع تعيب على الرجال حلقها. ولست أرى أن المســلمين الــذين يحلقون ذقونهم في هذا العصر يعتبرون خارجين علــى السنة النبوية الشريفة والدين الحنيف. وإذا كان من السنة النبوية الأكل بأصــابع الــيد اليمنــى دون اليسرى، فهل يعتبر استعمال الملعقة والشوكة والســكين فــي عصــرنا، خروجاً على هذه السنة المشرفة، ويرتكب فاعلها إثمــاً؟! أو هل يعتبر لبس البنطال خروجاً على الدين؟ وهل الاستمرار بلبس الجلــباب الأبــيض والطاقية البيضاء هو أقرب للتقوى وأحفظ للسنة النبوية وأكثر التصاقاً بالدين الحنيف؟!

وهــناك أحاديــث في الصحاح تناقض معاني القرآن. والرسول جعل مقياس صحة الأحاديث مطابقتها لمعاني آي القرآن. من مثل الحديث المروي عن أم سلمة: «سيكون أمراء تعرفون وتنكرون. فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم، ولكن من رغب وتابع. قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلّوا» (مسلم، باب الإمارة، ٦٢ و٦٣. ومسند أحمد ٦/٣٠٥).

---

(١) الإسلام والنصرانية، الشيخ محمد عبده، ص ٧٠، دار الحداثة، بيروت.

وعن حذيفة بن اليمان، قال: قلت: يا رسول الله، إنا كنا بشرّ. فجاء الله بخير، فنحن فيه. فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: نعم. قلت: كيف؟ قال: يكــون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي. وسيقوم فيهم رجال قلــوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركــت ذلــك؟ قال: تسمع وتطيع الأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك. فاســمع وأطــع» (مســلم، كــتاب الإمارة، ٥٢) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

هذه الأحاديث تتعارض مع قول القرآن الكريم: «**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**» (هود، ١١٣).

فالحــاكم الــذي لا يهتدي بهدي رسول الله ولا يستن بسنته، ويضرب ظهور الناس ويغتصب أموالهم هو حاكم ظالم. والله حرّم على المسلم الركون للظالمــين، والاستسلام لظلمهم. كما ورد في نص الآية. فالركون للظالمين، فــي نظــر القــرآن، يوجب عذاب النار في الآخرة، بالإضافة إلى كونه في الواقــع العملي يؤدي إلى حياة الذل في الدنيا. والله أراد للمؤمن العزّة: «**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**» (المنافقون، ٨). والمؤمنون الصادقون، في نظر القــرآن، هــم: «**الذين إذا مسهم البغي هم ينتصرون**» (الشورى، ٣٩) أي يقاومون الظلم والبغي بأنفسهم، ولا ينتظرون غيرهم أن يرفع الظلم عنهم، بل هي مسؤوليتهم الشخصية وواجبهم أن يقاوموا البغي وينتصروا عليه.

ويشــجع الله الــذين يقاومــون الظلم بقوله: «**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم**» (الشورى، ٤١ و٤٢).

وجــاء في الحديث النبوي: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يــده أوشــك أن يصيبهم الله بعقاب منه» (أبو داود والترمذي والنسائي، عن ريــاض الصــالحين للنووي، ص ١٠٥). فالله يغضب على الذين لم يأخذوا

علـــى يـــد الظالم، ويوقفوه عند حده، ويمنعوا ظلمه، فيعاقبهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ويشجع رسول الله (ص) على التجرؤ بقول الحق أمام السلطان الظالم، بقـــوله: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (مسند أحمد ١٩/٣ و٦١، والنســـائي، بـــيعة، الترمذي، فتن ١٣). هذا القول يتضمّن الوعد بالجنة لمن يقول كلمة الحق والعدل لسلطان جائر ليرده عن جوره فيقتله، فهو شهيد بل مـــن أفضـــل الشهداء لأن عمله الذي قتل من أجله هو أفضل الجهاد. بل هو سيد الشهداء، كما ورد في حديث نبوي آخر.

والقـــول، فـــي الحديث: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالـــك، يتـــناقض كـــذلك مع قول الرسول: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف» (مسلم، كتاب الإمارة، ٣٩).

وفي الحديث المروي عن الصحابي الثقة أبي ذر، عن رسول الله: قال: «مـــا من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق. قال: وإن زنـــى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق رغـــم أنـــف أبي ذر» (البخاري، كتاب اللباس، ج ٧، ص ١٩٢) دار إحياء التراث، بيروت.

هـــذا الحديث يدعو لتجاوز حدّين من حدود الله: الزنى والسرقة. وإذا كـــان مجـــرّد التلفظ بقول: لا إله إلا الله يدخل الجنة، رغم ارتكاب الكبائر، فلســـت أدري مـــا لزوم الصلاة والصوم والحج والزكاة وحرمان النفس من الكثيـــر من متع الحياة التي حرّمها الله. وما لزوم التعفف والتقوى التي دعا إليها الإسلام؟ وما شأن من أقيمت عليهم الحدود برجمهم أو بقطع أيديهم؟

فلـــو أخـــذنا بهذا الحديث لكان علينا أن نلغي جميع العبادات، وجميع أحكـــام شـــرع الله ونكتفي بالتلفظ بعبارة لا إله إلا الله لتفتح لنا أبواب الجنة مهما ارتكبنا من المحرمات، ومهما قصّرنا بالواجبات.

إنني على ثقة بأنني لست وحيد زمانه الذي يرى هذه النواقص في تراثنا الإسلامي. لكننا في عصر التخلف قد قدّسنا روايات الحديث كما قدسنا التراث (الفقه) كتقديسنا للتنزيل الإلهي. مع علمنا أن هذا كلام الله الذي لا شك في صحته، وأن ذاك له قدسية في نصّه وليس في روايته ورواته، فروايته هي رواية بشر. فالنص في أصله وحي إلهي: «**وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى**» (النجم ٣ و٤ و٥). أما نقله فهو فعل بشري، يخطئ ويصيب. والقرآن بين أيدينا هو ميزان الحقيقة، والعقل أداتنا للوصول إليها. لكن، أين المسؤولون؟ «**وقفوهم إنهم مسؤولون**» فإلى متى سيبقى عقلنا متجمداً عند قدسية ما ليس بمقدس؟! والنبي قد أمرنا أن نعرض ما ينقل إلينا من أحاديثه على القرآن فإن طابق معناه أي القرآن أخذنا به، وإلا فعلينا أن نرمي به عرض الحائط.

* * *

إن ادعاء الأصولية الإسلامية بأنها المالكة الحصرية للإسلام، بحرفيتها وشكليتها وجمودها الفكري، وحصر تفسير القرآن والسنة بعلماء الدين والفقهاء القدامى، إنما تنزع إلى نظام إكليريكي، لم يكن يوماً في الإسلام، مما يشكل أكبر عقبة في وجه تطور المفاهيم الإسلامية ويجعلها عاجزة عن مجاراة العصر.

إن بعد الإسلام الشمولي هو بعده القرآني. وإن أكبر افتئات عليه هو حصره في التراث وإغلاق فكر العصر عنه. واتهام هذا الفكر بالقصور عن الفهم الحقيقي له. إن إسلاماً يعيش خارج نطاق الزمن، متقوقعاً في التاريخ، «يقرأ فيه القرآن بعيون الموتى» على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي، منع عليه التطور ومجاراة سنن الحياة، تجمّد فيه الفكر، وتحنّط فيه الفقه، وجفت عقول فقهائه عن فهم متطور يجاري وعي العصر وما استجد عليه من مفاهيم وتعقيدات الحياة، وتنوع سبل العيش، ومعطيات الحضارة

الحديثة بتشعباتها. إن إسلاماً هذا وضعه لا يحتاج إلى غريب يطلق عليه رصاصة الرحمة ليميته، فأهله قد دفنوه حياً، وكفّنوه بأكفان الماضي، وزجوا به في مدافن الجهل والجهالة.

إن قيام نهضة دينية إسلامية تزيح عن أحكامها الاستغراق في الماضي، وتعبر إلى وعي العصر ومستجدات الزمن، تبقى مستحيلة ما دمنا نحدد فهمنا للشريعة بنفس الحدود التي رسمتها التصورات الفقهية التي خلّفتها لنا الأجيال الماضية. فلا بد من معالجة أمور الشريعة بعقول متحررة من قيود الماضي، تستطيع أن تفصل بين الشريعة وما أضيف إليها من الاستنباطات الفقهية المختلفة.

لكن عملاً نهضوياً يعيد إلى الفكر الإسلامي ما كان عليه من الانطلاق والمرونة «يتطلّب تغييراً جذرياً في كثير من أساليب التفكير التي تعوّد عليها المسلمون خلال عصور التاريخ، ويتطلب نبذ وتغيير الكثير من العادات والأعراف الاجتماعية التي اكتسبت طابع «القداسة» على مرّ السنين، ويتطلب أيضاً التخلي عن الاعتقاد الساذج بأن كل صغيرة أو كبيرة قد بتّ فيها نهائياً في هذا الكتاب أو ذاك من كتب الفقهاء المتقدمين»[١].

إن خطىً جريئة في هذا السبيل سوف تثير الهلع في نفوس الكثير من المحافظين الذين تعلقوا بالتراث، قابعين في مجاهل الماضي، يتهيبون الولوج إلى وعي العصر ومستجدات الزمن. وسوف تجابه بمقاومة عنيدة وصدّ شديد، لأن عقولهم تجمّدت عند فهم ما فهمه فقهاء السلف الكبار. فهو، في رأيهم، كمال المعرفة والحقيقة النهائية لفهم الشريعة. ويستحيل على عقول ناس هذا العصر أو أي عصر تجاوزها. وعندهم أن كل رأي مغاير لها فهو على ضلال وانحراف.

---

(١) منهاج الحكم في الإسلام، محمد أسد، عرّبه منصور محمد ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، ص ١٨٨.

إن واقع هذا الجمود في الفكر الإسلامي يوجب على مثقفي الإسلام المعاصرين خوض معركة تصحيح وتحديث المفاهيم من أجل العبور بالإسلام إلى مستوى وعي العصر، وإزالة ما تكدس فيه من مفاهيم جامدة، كي يعود إلى الحياة والفعل في ثقافة إنسان القرن الواحد والعشرين. ويجاري ما وصلت إليه المعارف الإنسانية من تقدم في شتى نواحي الحياة، وذلك بالعودة إلى استجلاء حقائق هذا الدين من منابعه الصافية في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرّفة، بعيداً عن التقوقع المذهبي والأفكار المحنّطة.

الفصل التاسع

الأديـــان الوضعيـــة

قسـم المسلمون الأديان إلى: أديان سماوية وأديان وضعية. فالسماوية هـي، في رأيهم، من نزلت وحياً من الله على أنبياء ورسل كموسى وعيسى ومحمد. وحصروها في ثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام. أما ما عدا هذه الأديـان الـثلاثة، فجميع الأديان الأخرى هي أديان وضعية؛ أي من تأليف ووضع بشر، كالهندوسية والبوذية والمجوسية، ولا علاقة للوحي الإلهي بها من قريب أو بعيد.

هذا رأي المسلمين. فما هو رأي الإسلام؟

يقول الله في القرآن الكريم مخاطباً رسوله محمداً: «**إنّا ارسلناك بالحق بشـيراً ونذيـراً وإن مـن أمة إلا خلا فيها نذير**» (فاطر، ٢٤). فمحمد هو الرسـول المـبلّغ رسالة الله، والمبشر برحمته تعالى ورضوانه، والمنذر من غضـبه وعذابه. وفي قوله: «**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**» جزم وتشديد وتأكـيد على أن الله لم يترك أمة أو شعباً من خلقه إلا وأرسل له نبياً منذراً هادياً، كما أرسل محمداً إلى الناس بشيراً ونذيراً. وفي آية أخرى يبين القرآن أن الله أرسـل لكـل قـوم نبياً يهديهم إلى صراط الرشاد: «**ولكل قوم هاد**» (سـورة الرعد، ٧). ويقول القرآن أيضاً: «**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**» (النحل، ٣٧).

لكن القرآن لم يأت على ذكر هذه الأديان التي تواضع المسلمون على تسميتها بالأديان الوضعية. ولا أتى على ذكر أنبيائها، إذا كان لها من أنبياء، لكـــنه نـــوّه وشـــرح وفصّل عن موسى وبعض أنبياء بني إسرائيل كداوود وســـليمان، وخصوصـــاً عيسى بن مريم الذي خصه بآيات كثيرة مفصَّلة، لا تـــدع للمســـلم مجـــالاً للشك بصدق وإلهية دعوته. كما نوّه القرآن واعترف بالـــتوراة والإنجـــيل أن «فيهما هدىً ونور»، وخصهما بالشرح والتفصيل، واعتبـــرهما كتابين سماويين كالقرآن، وسمى أتباعهما «بأهل الكتاب» . من أجل ذلك لم يعترف المسلمون بتلك الأديان الأخرى التي لم يأتِ القرآن على ذكـــرها. وقصَـــر اعترافهم على اليهودية والمسيحية من الأديان التي سبقت الإسلام تاريخاً.

لكـــن القرآن لم يذكر لنا سوى خمسة وعشرين نبياً من الأنبياء الذين أرســـلهم الله هـــداةً إلى الأمم، من مثل نوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب وداوود وســـليمان... وهـــذا العـــدد ما هو إلا جزء قليل مما يقتضي وجوده بالنســـبة لعدد الأقوام والأمم التي من المفترض ــ وفق الآيات السابقة ــ أن يكـــون الله قد أرسل لها الأنبياء كهداة ومنذرين. والروايات الإسلامية تقول بآلاف الأنبياء. لذلك فقد أوضح القرآن أن ما ذكر في سور القرآن إن هو إلا جـــزء من مجموع الأنبياء المرسلين، وأن هناك أنبياء غير الذين أتى القرآن على ذكرهم. فيخاطب نبيه محمداً بقوله: «**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم مـــن قصصـــنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**» (غافر، ٧٨). ويقول في ســـورة أخـــرى: «**ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك**» (النساء، ١٦٤).

فهاتـــان الآيـــتان تبينان أن ليس ما ذكر في القرآن من أنبياء هو كل الأنبياء والرسل، بل هنالك رسل آخرون، لم يذكروا في القرآن، حملوا رسالة الســـماء إلـــى أقـــوام لم نعرفهم ولم يأت القرآن على ذكرهم. وهذا يعني أن

الرســالات السماوية التي ورد ذكرها في القرآن (اليهودية والمسيحية) ليست كــل الرســالات الإلهية. بل هنالك رسالات أخرى أرسلت إلى أقوام آخرين غير الأديان الثلاثة.

وفي قوله تعالى: «**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**» (الإسراء، ١٥) توضــح لــنا هذه الآية أن الله لا يعذب شعباً في نار جهنم إلا إذا أرسل إليه رســولاً يهديه إلى طريق الله، ويدلّه على الصراط المستقيم التي توصل إلى الحق وتبعد عن الباطل لينال رضا الله وينعم برحمته في جنان النعيم، وينذره من غضب الله ونار جهنم إن هو أحجم عن صراط الله، وأعرض عن هداه. والمسيح عليه السلام يقول: «لو لم أكن جئت وكلّمتهم لم تكن لهم خطيئة. أما ألآن فلــيس لهــم عذر في خطيئتهم» (يوحنا ١٥/٢٢). فعدالة الله تعالى في خلقه تقتضي عدم محاسبة الناس على عدم الإيمان بالله، والتزام سبيله، إلا إذا بــيّن لهــم طريق الإيمان، وعرّفهم على وجوده، وهداهم إلى طريق الهدى والرشــاد، وبــين لهم الخير من الشر، والحق من الباطل، عن طريق هداة معلمين ومنذرين. فليس هنالك كافر قبل الهداية، لأن الكفر هو إنكار للحقيقة. وكــيف ينكر الحقيقة إنسان دون أن يعرفها! فالكافر يكفر بدين. فبماذا يكفر من لم يتعرف على دين؟!

وما لا يقبله عقل عاقل أن يكون الله قد حصر رسالات السماء باليهود والعــرب، وخصّهم بالأنبياء والرسل، وترك المليارات من البشر في الشرق الأقصى، مثلاً، تتخبط في جهلها، لا تعرف لله وجوداً، ولا للحق سبيلاً، ولا تــدين بدين الله كغيرها من البشر، بل تبتدع لنفسها آلهة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا تتعرف إلى خالقها، سادرة في غيها وضلالها، وكأنها ليست من خلق الله. فتضع لنفسها ديناً بشرياً موهوماً تتعبد به لغير الله الحق!

ولمــا كان الله جل وعلا أخذ على نفسه ألا يعذب أمة إلا إذا بعث لها رســولاً يهديها إلى سبيله ــ وفق نص الآية ــ إذا، فهذه الشعوب التي تدين

بأديـــان وضــعية (من صنع بشر) لن يجري عليها الحساب في الآخرة، كما يجــري علـــى أبــناء الأديــان السماوية التي أرسل الله لها الرسل معلمين ومـــنذرين؛ لأن الله لـــم يخصها بالهداية كما خص غيرها من أتباع موسى وعيســـى ومحمد عليهم السلام، ولن تطالها نار جهنم، ولن تقف للحساب يوم الدينونة. لأنه، كيف يحاسبها الله ولم يعطها شيئاً، والحساب لا يكون إلا على العطاء. من هذا المنطق، يكون تخلي الله عنها، بعدم إرسال الرسل، «نعمة». وتكــون الأديان السماوية على أصحابها «نقمة». لأن وراء عدم الالتزام بها حســـاب ودينونة، وعقاب شديد لمن حاد عن درب الهدى. حيث يكون البكاء وصرير الأسنان في نار جهنم، وفق الإنجيل. وحيث تحترق جلودهم في نار جهنم فيبدلهم الله جلوداً غيرها ليستمروا في العذاب، وفق القرآن.

ورب مـــتدين مسيحي يقول: بعد مجيء يسوع المسيح وانتشار تعاليم المسيحية في جميع أنحاء المعمور. والمسيح مرسل من الآب لخلاص جميع البشر. فمن يتخلف عن الإيمان به ويجحد رسالته، فلن ينال نعمة الله. وإذا لم يكن لتلك الشعوب دين سماوي، فبعد مجيء المسيح لم يعد لهم حجة. والدين السماوي (المسيحية) تعمّ تعاليمه كافة جنبات الأرض، وهو رسولهم ورسول الإنسانية جميعاً.

ورب مســلم مـــتدين يقول: إن رسالة الإسلام هي للإنسانية جميعها. والقـــرآن هـــو آخر رسالات السماء وأكملها، الذي يؤكد عالمية رسالة النبي محمـــد: «**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**» (سبأ، ٢٨). وهو نبينا ونبـــي جمـــيع البشر، ورسالته تعم جميع أصقاع الأرض. فلم يعد لمن أنكر دعــوة الإســـلام، وتشبث بدينه الوضعي، حجّة. وسينال جزاءه في الآخرة. وسيحاسب على تخلفه عن الإيمان بالإسلام طريقاً للخلاص.

وهنا أسأل المسيحي والمسلم: ما شأن من تدينوا بدينهم (الوضعي) قبل وصول بشارة المسيحية إليهم؟ وقبل وصول دعوة الإسلام؟ وما كان مصير

المليارات من الناس الذين ماتوا على دينهم، أو قل على غير دين؟ هل سيجري عليهم الحساب كما يجري على المسيحيين والمسلمين؟ أما الآخرون فلإحجامهم عن الدخول في المسيحية والإسلام أسبابه الموضوعية وحجّته البالغة؟

لقد دخل مبشرو المسيحية الهند والصين، مثلاً، برفقة الجيوش الغازية والدول المستعمرة. فكانت صورة المسيح تختلط مع صورة الجندي المستعمر الذي ارتكب المجازر الكثيرة، كما في حرب الأفيون الشهيرة في الصين، وكما في مجزرة نيودلهي في الهند، مثلاً، وغيرها... وقد عبر المهاتما غاندي للذين دعوه لاعتناق المسيحية بقوله: كيف تطلبون منا ترك ديننا الذي يأمر بالسلام وترك العنف، لنبدله بدين يسفك معتنقوه الدماء، ويقهرون الشعوب ويستبيحون أرضهم وأموالهم.

فكيف لهذه الشعوب المستعمَرَة أن تؤمن بدين مبشر مسيحي كتابه يحرم القتل والسرقة، وجيوشه لا تتوانى عن ارتكاب مجازر القتل الجماعي من أجل إحكام سيطرتها على بلاده، ونهب ثرواتها. إن صوت الإنجيل الذي دعا فيه المسيح للمحبة والسلام أخفاه، تماماً، هدير دبابات المستعمر، وأزيز طائراته، ودوي مدافعه.

والإسلام، أول ما دخل الهند عن طريق دعاة مخلصين، حملوا رسالة السماء بقلوب مفعمة بالإيمان. ثم تلاهم غزاة من الترك الأفغان المسلمين أمثال السلطان محمود الغزني وقطب الدين أيبك، وعلاء الدين، ومحمود بن طغلق، الذين ارتكبوا من أعمال القتل والنهب، واستعباد الناس وبيعهم، بعشرات الآلاف عبيداً في أسواق النخاسة، ونهب معابد الهندوس وحرقها. وقد ارتكبوا من الأعمال الإجرامية، ما يندى له جبين الإنسانية خجلاً[١]. ثم

---

(١) موسوعة قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ٣، الفصل السادس.

خلفهـم وانتـزع منهم الملك، بعد حروب ضروس أباطرة المغول المسلمون الذين حكموا الهند مئات السنين بالقهر والعنف والبطش.

فتيمورلـنك، المسلم، غزا دلهي عاصمة سلطنة السلطان محمود طغلق المسـلم. وذبح فيها مائة ألف من الأسرى المسلمين والهندوس، ونهب ثروة الأسـرة المالكـة الأفغانية المسلمة التي كانت قد كدستها من أموال الشعب الهندي. وجهان كير «الذي كان يمتِّعه أن يرى الناس يسلخون أحياء، أو تنفّذ فـيهم الخوازيـق (التي درج على تنفيذ الإعدام بها سلاطين بني عثمان) أو يقذفـون إلى الفيلة فتحطمهم تحطيماً. ولما تآمر عليه ابنه خسرو، جاء بسبع مائة من أنصار الثائر وأنفذ فيهم الخوازيق وصفهم صفاً على امتداد الشوارع فـي لاهـور. وكـان له ستة آلاف امرأة. وكان منغمساً في شرب الخمرة انغماساً شديداً»[1].

لعـل أكثر من دخل في الإسلام والمسيحية في زمن الاستعمار والقهر الغربي والبطش المغولي لم يدخل عن قناعة وإيمان، بل لعل الدافع إلى ذلك كان الخوف أو المصلحة.

لا أكتب ما أكتب استهانة بمسيحية هؤلاء، ولا بإسلام أولئك، ولكن ما أردت أن أبيّـنه هو أن دعوة المسيحية والإسلام، في تلك البلاد، لم تكن هي الطريقة المثلى لنشر الدين. ولم يكن الذين أحجموا عن اعتناق دين المستعمر القاهـر بملومين إذا هم تشبثوا بدينهم، وأشاحوا بوجوههم عن دين الجيوش القاهـرة والغاصـبة لأرضـهم وثروات بلادهم، والمستهينة بكراماتهم. ولا يتبـرعنّ أحـد بقوله إنهم سوف يتكدسون في نار جهنم لعدم تقبلهم الأديان الأحدث وإصرارهم على دينهم.

---

(١) موسوعة قصة الحضارة، ول ديورنت، ج ٣، الفصل السابع.

فالمسـيحيون في الهند، رغم أن عددهم بالملايين، لا زالوا، في رأي الهـندوس، يعتبـرون غرباء، ومن مخلفات الاستعمار وبقايا المستعمرين، يغردون في غير سربهم. أما المسلمون فهم أعداء الدين، ومشروع حرب لا يعلـم أحد متى يخبو أوارها. هذه الحرب الطائفية القذرة التي طحنت بنارها الآلاف مـن الهندوس والمسلمين، قسمت الهند إلى دولتين؛ أحدهما هندوسية وأخرى مسلمة. تصدى لها غاندي مصلح الهند الأكبر، ودفع من أجل إطفائها دمه. ورغم مرور عشرات السنين على موته، لا زالت الدماء تسفك مدراراً علـى أرض مقاطعة كشمير في حرب لا يعلم إلا الله متى تنتهي، ولا كيف تكـون صيرورتها في ظل الرعب النووي الذي يمتلك سلاحه كل من الهند وباكستان.

والمسـلمون الـذين دخلوا بلاد الإسبان فاتحين بقوة الجيوش، ورغم بقـائهم فـيها، وحكمهم لها سبع مائة سنة، فقد أخرجوا منها بقوة الجيوش، وأخرج معهم دينهم الذي لم يستطيعوا أن يدخلوه إلى قلوب وعقول أصحاب الـبلاد الخاضـعة لحكمهـم، لأنهم ظلوا بالنسبة لهم غرباء محتلين. وظلت صـورة الإسلام عندهم صورة الدين المغتصب القاهر. ولم يشفع للإسلام ما أشـاد العرب المسلمون من صروح علمية، وحضارة كانت المنارة التي شعّ نـورها على البلاد الأوروبية كافة، وكانت الشعلة التي نبت من جذوة نورها نهضـتها العلمـية، وحضـارتها الحديثة، لأن ما أخذ بالسيف بالسيف أخذ. وشتان بين فتوحات الخلفاء الراشدين التي كانت غايتها نشر الإسلام ــ وفق أمـر الله ــ بالحكمـة والمـوعظة الحسـنة، وبين فتوحات الخلفاء الملوك الأباطـرة؛ الذين كانت فتوحاتهم في سبيل توسعة الملك، وجلب الثروات إلى قصـور الخلافـة التي تحولت إلى ملك عضوض. ولم يعد الدافع إلى الفتح رسـالة إلهـية لنشر الدين الإسلامي بين الشعوب، بل أصبح الإسلام مطية يمتطـيها الملوك السلاطين لتعبئة النفوس باسم الدين من أجل حشد الجيوش تحـت شعار الجهاد المقدس، الذي لم يعد من القداسة في شيء. ومن يتصفح

تـــاريخ الخلفـــاء العباسيين في النصف الأخير من حكمهم، تظهر له الحقيقة واضـــحة جلـــية، ويرى كيف أن قادة الجيوش أصبحوا يتحكمون بالخلافة، وكـــيف أصبح الخلفاء ألعوبة في أيديهم وكيف أصبحت قصور الخلفاء تعجّ بالقـــيان والمغنّين، وتغوص بالفحش والرذيلة. وكيف طمع كل والٍ بولايته، وأصبحت الدولة دويلات يناصب بعضها بعضاً العداوة والبغضاء. وفُرِق بين الـــدين والدنيا، وطغت الدنيا على الدين، وران على الإسلام ومفاهيمه حقبة سوداء من الجهل والانحطاط الفكري.

ويـــروي لـــنا الشـــيخ محمـــد الغزالي نبذة صغيرة تبين واقع الخلافة العباسية والتردِّي الذي وصلت إليه في تلك الحقبة من التاريخ:

«هرب الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» بعدما سقطت بغداد في أيدي الفاطميـــين، واعـــتقله أحد البدو، ولكن الملك السلجوقي «طغرلبك» استنقذه وردّه إلـــى عاصـــمة ملكه، فكافأه الخليفة على حسن صنيعه بأن زوّجه من أخته. ولقّبه ملك المشرق والمغرب، وأطلق يده في إدارة الدولة!!

ومات الملك السلجوقي فورثه ابن أخيه «إلب أرسلان». ومات الخليفة العباسي، وورثه عباسي آخر لقب نفسه بـــ«المقتدي» وكان شاباً في التاسعة عشر من عمره. ولم يكن الشاب الشريف النسب! قديراً على الإدارة، فتولاها عنه سلجوقي آخر يدعى «ملكشاه» وهو ابن «إلب أرسلان» الذي توفي بعد حياة عامرة بالجهاد.

قـــال الـــتاريخ: واستبد «ملكشاه» بالسلطة، وازدرى الخليفة. وبلغ من احـــتقاره له أن أمره بترك بغداد، وتضرع الخليفة إليه أن يمهله شهراً، فأبى بعد إلحاح إلا أن يمهله عشرة ايام وحسب!!

وشاء الله أن يموت «ملكشاه» قبل انقضاء الأجل المضروب، وتكتمت زوجته بنبأ موته، وذهبت إلى الخليفة المهدَّد طالبة أن يولي ابنه مكانه، وكان

الولد لا يبلغ من العمر خمس سنوات، ولكن الخليفة العباسي ولاّه ومنحه لقب «ناصر الدين والدنيا»[1]!

أمـــا خلافة سلاطين بني عثمان وما روى المؤرخون عنها من الظلم، وقصور الحريم، والبذخ والتهتك، فحدِّث ولا حرج. ولئن حملت جيوشها راية «لا إله إلا الله» فحروبها وفتوحاتها لم تكن في سبيل الله، بل من أجل توسعة نفــوذ وأملاك السلاطين. لقد سيطرت جيوشهم على معظم البلقان، وحكموا بالقــوة والبطش. وهذه البلاد تعتبر اليوم، بعد خروج الأتراك الفاتحين منها، الأشد عداوة للإسلام. أما القلة منهم الذين اعتنقوا الإسلام فلا زالوا يُعتبرون أنهــم بقايــا الاجتــياح العثماني، خارجين على بني قومهم. وحرب البوسنة والهرســك، وكســوفو، في أواخر القرن العشرين وما جرى فيها من مذابح جماعــية وتطهير عرقي، أبين دليل على ذلك الحقد المتأجج في النفوس من جراء تلك الحروب.

أمـــا المسيحية الغربية التي عزلت كلياً عن الحياة بعد سيطرة العلمانية ولم يعد لها دور في سَنّ القوانين والنُظم، والرقابة على رجال الحكم، والحد من طموحاتهم الاستعمارية، وأطماعهم القومية والشخصية، فلم يعد مبشروها المــرافقون للجــيوش الغازية مؤهلين لإقناع الناس بتقبّل دعوة المسيح إلى المحــبة والســلام، المغايرة كلياً لسلوك الغزاة المستعمرين المدججين بسلاح القوة والبطش، وسفك الدماء والاستيلاء على أموال البلاد المستضعفة.

إذن، فالــذين تخلفــوا عــن اعتناق المسيحية أو الإسلام لهم أسبابهم الموضوعية التي لا تغرب عن علم الله عز وجل. وما أظن أن الله «المحبة» العالم بكل شيء، الرحمن الرحيم سوف يحاسبهم على تخلفهم عن اعتناق دين السماء.

---

(١) الشيخ محمد الغزالي، هموم داعية، ص ٣٨، دار البشير، القاهرة.

هل الأديان المسماة وضعية هي فعلاً وضعية أم إلهية؟

إن المتفحص للكتب المقدسة عند الهندوس والبوذيين والمجوس وديانة أخناتون المصرية يلمس آثار الوحي الإلهي واضحة بيّنة. ويستبعد كلياً كونها مــن وضع بشر. ولئن كانت لم تأت بنفس الوضوح التي جاءت بها الأديان الإبراهيمية الثلاثة، فلأن موقعها في التاريخ البعيد، ومستوى وعي الناس في زمــن نــزولها، وتــدخل طــبقات الكهنة ورجال الدين القيمين على فهمها وشــرحها، قد عدّل وموّه وغيَّر الكثير من نصوصها لكي تتلاءم مع مفاهيم نــاس تلــك العصــور الغابرة. هذا إذا استثنينا طبقة الحكام الذين كثيراً ما يــتدخلون لتطويع النصوص الدينية لتتلاءم مع طموحاتهم ومصالحهم. وهذا المــثال نشــاهده فــي الإسلام، رغم قربه الزمني من عصرنا بالنسبة لتلك الأديان، ألم توضع آلاف الأحاديث على لسان النبي محمد زوراً، خدمة لحاكم أو نصرة لمذهب أو تنفيذاً لغرض مغرض. ولولا أن الله حفظ القرآن بنصه، كمــا أنــزل علــى النبــي، لكــان الإســلام الــيوم غير إسلام محمد وآله وصــحابته.ومــع هذا النص القرآني الواضح البيّن فقد انقسم المسلمون إلى عشــرات الفــرق والشيع، يصعب على المتتبع إحصاءها، فيها من التناقض والشرود عن فهم النص ما يباعد بينها في بعض الأمور أكثر مما يباعد بين الإسلام والأديان الأخرى.

وإذا كان هذا شأن دين، وصل إلينا كتابه الإلهي بنصه الحرفي، وعمر دعــوته حوالى الألف والأربعمائة سنة، فكيف بدين وصلتنا كتبه بعد بضعة آلاف مــن السنين، ولا يجزم أحد ببقاء حرفية نصوصها كما كتبت منذ تلك الآلاف. والشعب العربي الذي أرسل الله له إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام نبيــين يعلمانــه رســالة التوحــيد التي دعى إليها جميع أنبياء الله، فتركوها وحــرفوها، وأدخلوا عليها عبادة الأوثان التي أشركوها بالعبادة مع الله. وما كانت دعوة محمد إلا لتصحيح هذا الشرك والعودة إلى عبادة الإله الواحد.

ســوف أحــاول، بعونه تعالى، من خلال دراسة هذه الأديان، استلماح الوحــي الإلهــي فــي نصوص كتبها المقدسة. وهذه الملامح يمكن إيجازها بثلاث:

١ ـ الإيمان بوجود إله.

٢ ـ الإيمان بجزاء الأعمال وبوجود حياة أخرى بعد الموت.

٣ ـ الدعوة إلى الخير ونبذ الشر.

الفصل العاشر

البـــوذيـــة

الــبوذية أخــذت اســمها من البوذا، أي المستنير، ذاك الشاب الأمير «سـيدهاتا» الــذي ولــد في قصر أبيه الملك «سودهوادّانا» عام ٥٦٣ق.م. وتربــى تــربية الأمراء أبناء الملوك، على المجد والشرف ورفاهية العيش. أقلق نفسه وجود الشيخوخة والمرض والموت. وراح يتساءل: لماذا ترك لنا الإلــه براهما هذه الآفات الثلاث التي تؤدّي بالإنسان إلى الألم؟ وهل هنالك طــريق لخلاص النفس الإنسانية والوصول إلى السعادة؟ وهاله أن يرى في بــلاده فقراء، يعانون شظف العيش، لا سيما منهم طبقة المنبوذين الذين هم أشد الناس فقراً، ويعتبرون غاية في الضعة إلى حدّ عدم السماح لهم بدخول المعبد أو قراءة كتب الفيداس المقدسة أو الاقتراب ممن ينتمون إلى الطوائف الأعلى أو لمسهم.

وراح يتســاءل: لمــاذا قسّــم الإلــه براهما الناس إلى هذا العدد من الطوائف؟ إن في هذا ظلم كبير. فراح يشك بما تعلمه من الكتب الدينية. وبدا لــه، أن يكــون رجل واحد يملك ثراءً كبيراً، والآلاف من الناس يكادون لا يملكون قوت يومهم، غاية في الظلم. وراح يسائل نفسه: ما السبيل إلى رفع الــبؤس والآلام عن هؤلاء الناس والوصول إلى الحقيقة، حيث السيادة لبني البشر جميعاً.

ذات يــوم، وبينما هو يتجول في سوق المدينة، شاهد راهباً يلبس ثياباً خشنة رثة يستجدي طعامه من الناس. ورغم كبر سنه ووضعه المذري كان وجهه هادئاً ينطق بالسعادة والطمأنينة.

كان هذا الراهب واحداً من آلاف الهنود الذين هجروا عائلاتهم وبيوتهم وخــرجوا إلـــى البراري يختلون بأنفسهم من أجل التفكير بعقيدتهم، دون أن يشغلهم عنها شاغل. وهم يأتون إلى المدن، من وقت لآخر، لاستجداء الطعام والعودة إلى مناسكهم وخلواتهم.

فقـــال في نفسه: لعل هؤلاء الفقراء المتنسّكين قد أدركوا الحقيقة التي فــيها السعادة والخلاص، وعرفوا مصدر هذه الآلام التي يعيشها الناس. فلو أنـــي أصير واحداً منهم فأصل إلى إدراك كيف يجب أن يعيش الناس لتكون حياتهم صالحة.

وهكذا، خرج الأمير «سيدهاثا» من قصره، وحلق شعر رأسه ولحيته، وتــبادل ثيابه مع شحّاذ. وخلع عن جسمه ثياب الإمارة ولبس ثياب الشحّاذ. وراح يعيش حياة الفقر والتسول يبحث عن الحكمة التي تفسر له سر الحياة.

راح «ســيدهاثا» يضــرب في الأرض باحثاً عن معلّم يعلّمه الحقيقة. فكان كبار النسّاك الذين التقاهم ينصحونه بدراسة «الفيداس» التي يرون فيها حكمة العالم. لكنه كان قد أمضى بضع سنين في دراسة هذه الكتب المقدسة، ولـــم يجد فيها ما يفسر السبب الذي جعل الخالق براهما يترك الناس يعانون المرض والشيخوخة والموت.

انضـــم ســـيدهاثا إلى خمسة من الكهنة الهندوس، وراح يمارس معهم رياضـــة الجـــوع وقهر الجسد، من أجل صفاء الروح وتطهيرها من الآثام، ووصولها إلى إدراك الحقيقة. ذات يوم، انهار جسمه، وخارت قواه، وتوقف عقلـــه عن التفكير، فأدرك خطأ هذه التعاليم التي تأمر الناس بتجويع أنفسهم

مــن أجــل صـــفاء ذهـــنهم واكتساب الحكمة. فأقلع عن هذا الصيام الشاق المضـــني. لكنه بقي يعيش حالة التقشف والزهد، يتنقّل بين الغابات والقرى، مكتفــياً بأكل التوت البري وما يستطيع الحصول عليه من نباتات الغابة، وما يتصدّق عليه الناس من الأرز. صارفاً كل جهده وتفكيره للبحث عن الحقيقة التي فيها خلاص الناس من بؤسهم وآلامهم.

بعـــد ســنوات أمضاها في ممارسة حياة التقشف والزهد وقهر الجسد، تبيّن له أنه لن يستطيع أن يدرك الحكمة بدراسة الفيداس، ولا بتجويع جسده، ولا بـــالجلوس علـــى المســـامير والحجـــارة الخشنة والزجاج المكسر، ولا بتعريض جسمه لآلام الشتاء وحر الصيف، كما يفعل الآخرون من «فقراء» الهندوسية ونسّاكها.

تجربة الشيطان

لكن الشيطان، الذي كان يراقب إصرار «سيدهاثا» على الوصول إلى إدراك الحقــيقة من أجل خلاص البشر، لم يلتزم طريق الحياد، بل أقبل على هذا المتنسّك يحاول إغواءه وإبعاده عن طريق الهداية، وتحويله عن محاولته الوصول إلى الحقيقة [أنظر تجربة المسيح مع الشيطان في الإنجيل]. فأحدث عاصــفة هوجـــاء أظلـــم لهـــا الجو، وطغت مياه البحار، وزمجرت أمواج المحــيطات». ولكن سيدهاثا ظل صامداً مطمئناً، لم يدخل إلى قلبه الخوف، مصراً على اجتياز التجربة. فاستعان الشيطان ببناته الثلاث من أجل إغوائه وإخراجه من تنسّكه. لكنه صمد ولم يلتفت إلى كل إغواءاتهنّ التي حاولنها.

واستعمل الشيطان كل أرواح الشر التي تأتمر بأمره من أجل استدراجه إلى عالم الشهوات. لكن «سيدهاثا» ظل صامداً. ولم يثنه عمل الشيطان عن الطــريق التـــي اختطها لنفسه. واستمر على طريقه في التأمل والبحث عن الحقيقة.

بدء الاستنارة

وفـــي أحد الأيام، وبينما هو جالس تحت شجرة التين، التي سميت فيما بعـــد بشـــجرة «البو» أي شجرة الحكمة، أحسَّ بانفتاح ذهنه، وراحة نفسه، وكأن وحياً إلهياً نزل عليه. وبدأت الحقيقة تتكشف أمام عقله.

يقول واصفاً هذه المرحلة:

«ســـمعت صوتاً من داخلي يقول بكل جلاء وقوة: نعم في الكون حق، أيها الناسك، هناك حق لا ر يب فيه، جاهد نفسك اليوم حتى تناله».

فجلست تحت تلك الشجرة في تلك الليلة من شهر الأزهار، وقلت لعقلي وجسدي: اسمعا، لا تبرحا هذا المكان حتى أجد الحق، لينشف الجلد، ولتتقطع العروق، ولتنفصل العظام، وليقف الدم عن الجريان. لن أقوم من مكاني حتى أعرف الحق الذي أنشده، فينجيني».

وتمّ له في هذه الجلسة الإشراقة التي يترقبها[١] ويراها بعض الباحثين الغربيين وحياً[٢].

ويصفها بوذا نفسه فيقول: «كلمني صوت من داخلي قائلاً: إنّ الهوى هو أصل الحزن. والنفس هي التي تجلب الشقاء، وذلك أن المرء يقول دائماً: أنـــا أنـــا، ويقول أيضاً: زوجتي وأولادي، فهو نوع من أنا. أما من سواهم فليســوا أنا. فيهوى ما فيه شهوة نفسه، وإذا خاب شقي، وبهذه الفكرة يذهب الـــناس فـــي الدنيا كالحريق العظيم المدمِّر، فيؤذون ويقتلون، ويكونون لعنة على الخلق».

قال بوذا للصوت: إن قبلت قولك فهل أنال الحرية؟

---

(١) Edward Thomas: The Life of Buddha, p. 80.

(٢) René Sedillot: The History of the World, p. 62.

فأجاب الصوت: نعم نعم، إنه يجلب لك الحرية أيها الناسك»[1].

فأدرك أول قانون للحياة: «من الخير يجب أن يأتي الخير، ومن الشر لا بد أن يأتي الشر» وهذا يتفق مع قول النبي محمد: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير» (مسلم ١٠٥٢).

بعد ذلك اليوم أصبح سيدهاتا «البوذا» أي المستنير. فخرج من عزلته ليبشر الناس بالأفكار الجديدة التي حلت عليه. وكان أول من صارحهم بأفكاره الجديدة خمسة رهبان هندوس، كان قد صاحبهم فترة من الزمن، لكنهم تركوه يوم رجع عن صيامه القاسي الذي كاد أن يودي بحياته، متهمينه بالخروج على نهج التنسك البرهمي.

قال بوذا للرهبان: لا سلطان للأصنام التي نعبدها على تغيير شيء من هذا العالم. لأن الوجود محكوم بقوانين؛ فالماء يتدفق دائماً من فوق التل، والنار من خاصيتها السخونة دائماً، فمهما قدمنا من الصلوات لهذه الأصنام الآلهة فهي لن تستطيع أن تجعل الماء يصعد التل من تلقاء ذاته، ولن تجعل النار ذات طبيعة باردة. فلماذا نصلي لها ونعبدها؟ وإذا كان العمل الصالح يأتي بنتائج طيبة، وإذا كان الشر يأتي بالشر دائماً، فهل تستطيع هذه الأصنام كلها أن تغير هذا الواقع؟

وتابع بوذا حديثه إلى الرهبان: إذا كان هذا صحيحاً فعبادة الأصنام خطأ وحمق. وإذا كانت كتب الفيداس تأمر الناس بعبادة هذه الأصنام وتقديم القرابين لها فهي ليست مقدسة، لأن الكتب المقدسة لا تعلم الناس الشر وتبعدهم عن الحق. إن الفيداس تعلمنا بأن براهما خلق الناس طبقات يعلو بعضها بعضاً. أعلاها طبقة البراهمة المقدسين المميزين، وأدناها طبقة

---

(١) مقارنة الأديان، الدكتور أحمد شلبي، ج ٤، ص ١٤٦ و١٦٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

المنبوذين الذين ينجسون الطبقات التي فوقهم إذا ما اختلطوا بها أو مسوها، لا سيما طبقة البراهمة المطهرين. لكن هذا ليس صحيحاً وفقاً لقوانين الحياة. فالناس لا ينقسمون إلا إلى **فريق صالح وفريق شرير**، نتيجة **أعمالهم، وليس للأسر التي ينحدرون منها**[1].

وتطلّع بوذا إلى الرهبان قائلاً: هناك طريقان يجب الابتعاد عنهما؛ أحدهما حياة المتعة والمجون والترف وهي حياة دنيئة، والأخرى حياة تعذيب النفس وقهر الجسد وهي الأخرى غير جديرة بأن يسلكها المرء[2]. فلا تسلكوا هذين الطريقين لأنهما لا يؤدّيان إلى الحياة الصالحة وطريق الحقيقة، بل أسلكوا الطريق الوسط ذي الثماني شعب التي تعلم السلوك القويم في الحياة:

١ ـ الإيمان بالحق: وهو الإيمان بأن الحقيقة هي الهادي للإنسان.

٢ ـ القرار الحق: أن يكون المرء هادئاً أبداً لا يفعل مكروهاً لأي إنسان.

٣ ـ الكلام الحق: بالبعد عن الكذب والنميمة وعدم استخدام اللفظ الخشن.

٤ ـ السلوك الحق: بعدم السرقة والقتل وفعل شيء يأسف له المرء، فيما بعد ويخجل منه.

٥ ـ العمل الحق: بالبعد عن العمل السيئ مثل التزييف وتناول السلع المسروقة وعدم اغتصاب المرء لما ليس له.

٦ ـ الجهد الحق: بالسعي دائماً إلى ما هو خير، والابتعاد عما هو شر.

٧ ـ التأمل الحق: بالهدوء دائماً وعدم الاستسلام للفرح أو للحزن.

---

(١) هذا يتطابق مع تعاليم الإسلام، فالتفاضل يكون بتقوى الله والعمل الصالح وليس بالأنساب والطبقات والأعراق والألوان.

(٢) نفس الشيء.

٨ ــ التركيــز الحق: وهذا لا يكون إلا باتباع القواعد السابقة، وبلوغ المرء مرحلة السلام الكامل[١].

وقــال البوذا: دعوني أعلمكم أيها الرهبان الطريق الوسطى التي تحل بشكل أفضل محل طريقة المتطرفين: الذي يميت أناه ويتحرر من كل شهوة رديــئة، ولا يعود يطمع بأية لذة أرضية أو سماوية ولا يشتهيها، فإن إشباعه لحاجاته الطبيعية لا يفسده. فليكن إذاً معتدلاً، وليأكل وليشرب حسبما تتطلب حاجات جسده.

إن ســد حاجات ضرورات الوجود ليس شراً. والمحافظة على جسدنا ليبقــى في حالة صحية جيدة هو واجب. وبدون هذا لا نستطيع صيانة قنديل الحكمــة، ونبقــي علــى فكرنا قوياً وصافياً. هذه هي الطريق الوسطى أيها الــرهبان التي تبعد جانباً الطريقين المتطرفين. [وهذا ينطبق مع قول القرآن باتــباع الطريق الوسط: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا». «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا»].

دين بوذا

ليس من الممكن تقديم عقيدة دينية وشرحها واستيفاء حقها في صفحات قلــيلة مهما حاولنا ضغط هذه الصفحات لنفيها حقها، ونوضح كافة أبعادها. لكن سنحاول أن نوضح بموجزنا هذا الخطوط الرئيسية، والأسس الهامة التي يقــوم عليها هذا الدين. فالبوذية ليست نسقاً ايديولوجياً أو فكرياً يقوم بمجمله على التقييم العقلي المحض. والبوذيون يصرون على أنك إذا أردت أن تفهم العقيدة البوذية، فلا بد لك أن تمارسها، لأنها نسَق روحي، أخلاقي، سلوكي. لا يستطيع الدارس من خارجه أن يلمّ بكل جوانب أبعاده دون أن يستغرق في ممارساته الروحية والعقلية والسلوكية. لكن ما يمكن للباحث نقله هو الوصف

(١) راجع: قصة الديانات، سليمان مظهر، الوطن العربي، القاهرة، بيروت، ص ١١٢.

العـــام لـــوجهة النظـــر الـــبوذية، من الناحية الإنسانية، والحاجات الروحية للإنســـان، ولقـــواعد السلوك التي استنها البوذا لبلوغ النفس الإنسانية الراحة الـــتامة والخـــلاص مـــن ضـــغوطات الحـــياة وتعقيداتها، ما يسميه مرحلة «النرفانا».

الحقائق الأربع

أولى هذه الحقائق: وجود الألم

الـــتأكد على أن الوجود الفاني كله يتسم «بالدوخا Dukha» وهي كلمة تشـــمل جمـــيع المعاني التي تحملها كلمات «المرض» و«الشر» و«الضيق» و«السخط» و«النقص» و«الداء». وهي أمور يشعر معها الإنسان عبر أوقات حياته، ويمر فيها بتجارب مرة، فيشعر أن الأشياء ليست على نحو ما ينبغي أن تكون عليه، ولا كما يتمناها المرء أن تكون، فيتألم.

فمصـــدر الألـــم: الظمأ، والشهوة، والهوى، والرغبة في التلذذ. ويقول الـــبوذا: إذا وُجـــدت الشـــهوة والهوى، وجد التحديد والتخصص. وإذا وجد الـــتحديد والتخصص، وجد الجهل، وإذا وجد الجهل، وجد الخطأ. وإذا وجد الخطأ وجد الحزن. فالحزن هو نتيجة الهوى والشهوات.

الحقيقة الثانية: الشعور بالألم (إدراك الألم)

هـــي مـــا يســـمى بـــــ«الساموادايا Samodaya» أي نشأة الإحساس بالضيق. وهو يأتي من الشهوة أو الرغبة؛ ويقصد بها عطش الروح البشري الـــدائم إلـــى استهلاك الأشياء، أو التجارب، أو الأفكار، وهو في الواقع ميل الفرد للتحكّم في البيئة من حوله واستغلالها في إشباع ملذاته. وفي هذا يقول الـــبوذا: «أيهـــا المريدون، إن الحقيقة المقدسة على أصل الألم هي التعطش للبقاء». ويقول: «أيها المريدون: اعلموا أن الحقيقة المقدسة العليا قائمة على الألم، إذ إن الولادة ألم، والشيخوخة ألم، والمرض ألم، والموت ألم، والتلاقي مع من لا يحب ألم، والفراق عمن يحب ألم، وعدم بلوغ الأرب هو ألم».

الحقيقة الثالثة: سبب الألم

هـــي «النيـــرودا Nirodha» أو كـــف الرغبة: أي وضع حد للرغبة الفردية. الأمر الذي يعني وقف تجربة «الدوخا». وهذا التوقف يعني النرفانا. وهـــي الحالـــة المثالـــية للوجود؛ أي تصل إلى حالة «البرودة»، التي تعني الصـــحة والعافـــية، والهـــدوء النفسي من الانفعالات الرئيسية الطاغية: من الكراهية والجشع والوهم؛ أي من ظلام الروح أو عمى الروح. يقول البوذا: ايها المريدون إن الحقيقة المقدسة لإزالة الألم هي: إطفاء هذا التعطش بخنق كل رغبة بإزالتها من الجذور.

الحقيقة الرابعة: توقيف الألم

هـــي أن هناك طرقاً يمكن أن يسلكها المرء لإيقاف الرغبة، والوصول إلـــى مثل هذه الحالة النقيّة من الوجود التي تحدثنا عنها فيما سبق. وهذا هو «الطريق Magga» الذي أراده بوذا، والذي يمكن الآخرين أن يتعلموا كيف يســـلكونه (الطـــريق ذي الثماني شعب). يقول البوذا: أيها المريدون، إن لم تتعـــروا من الأنانية، لن تتخلصوا من الألم. كذلك إن لم تبتعدوا عن النار لن تـــنجوا مـــن الاحتـــراق. لكـــي تخمدوا جذوات الألم في صدوركم وصدور الآخـــرين، هبوا للغير أنفسكم، وتبنّوهم كأنهم أنتم. ويقول: إن الذين يسلكون بالاســـتقامة فـــي جميع أعمالهم لا تستعبدهم الشهوة والثروة والقوة. والزاهد الذي يسلك طريق البطالة والكسل لا يربح شيئاً، لأن حياة البر تتطلب السعي والعمل. من يجاهد ويتغلب على ذاته في الحياة، لا يبغض ولا يحسد. الفرح والسلام والبركة تستقر في قلبه.

هـــذه الحقائـــق الأربعة هي لب السلوك البوذي. فمن آمن بها وطبقها حقـــق لنفســـه السعادة والنجاة، ودخل حياة النرفانا، ومن ظل جاهلاً بها ولم يروض نفسه على سلوكها ظل في شقائه وآلامه يعاني آلام الحياة ثم يموت،

ثم يولد من جديد، ولا تنقطع سلسلة الولادات والموت التي يتولد منها الألم. حتى يعرف هذه الحقائق ويطبقها[١].

يقول البوذا: هناك الأنا وهناك الحقيقة. حيث تكون الأنا لا تكون الحقيقة. حيث توجد الحقيقة لا توجد الأنا. الأنا هي الذاتية التي تعزل، والأنانية التي تولد الشهوة والكراهية. الأنا هي الوجه الأعمى للذة. الحقيقة هي الفهم الصحيح للأشياء، هي الدائم والخالد، هي الحقيقي والواقعي في كل الوجود، هي غبطة الصراط المستقيم.

لا نستطيع امتلاك الحقيقة إلا تحت شرط الاعتراف بأن الأنا هي وهم. لا تقدر على سلوك الصراط المستقيم إلا بعد تحرير فكرك من الشهوات والأنانية. لا يتوحد السلام الكامل إلا عند اختفاء كل باطل.

مغبوط من فهم الشريعة، مغبوط الذي لا يعمل أي شر، لأي كان من أخوته في الإنسانية، مغبوط من ينتصر على الخطيئة ويتحرر من الشهوات[٢].

الطريق البوذي

أ ـ **الأخلاق:** يعبّر عن القواعد الأخلاقية الخمس الأساسية بالنسبة للرهبان ولعامة الناس على حد سواء، في صيغة تستخدم بانتظام في العبادات اليومية: «أتعهد بالإحجام عن أي أذى بالكائنات الحية، وأن لا آخذ شيئاً لم يعط لي (أي أمتنع عن السرقة). وأن أمتنع عن الممارسات الجنسية اللاأخلاقية (الزنى) وعن الكذب، وتناول الخمر والمخدرات التي تذهب العقل». [وهذه تنطبق على محرمات الأديان الإبراهيمية، عدا تحريم الخمر

---

(١) مقارنة الأديان، د. أحمد شلبي، مجلد ٤، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص ١٧٠.

(٢) إنجيل بوذا، ترجمة سامي سليمان شيا، دار الحداثة، بيروت، ص ١٧٠.

الذي حُرِّم تحريماً باتاً في القرآن علماً أن بوذا سبق المسيح زمناً بخمسة قرون].

ب ـ **التأمل:** الجانب الرئيسي الثاني من الطريق الذي وضع بوذا معالمه هو التأمل. فالسلوك الحق ينبغي أن يصحبه الفكر الحق والمواقف الحقة. والفكر والعمل مرتبطان بالوجود الحق، لأن تنمية الفكر الحق أو المواقف الحقة، أو النصائح السديدة؛ أي السليمة من الناحية الأخلاقية هي من أول أهداف التأمل.

ج ـ **الحكمة:** فالحكمة التي أعلنها بوذا هي كالآتي: لقد لاحظنا سابقاً أن الحياة كلها «دوخا». ولا بد أن نضيف إليها خاصية عامة أخرى للحياة الفانية، وهي أن «الكل زائل» أو «أنيكا Anica» أي عدم الدوام؛ لا شيء يبقى نفس الشيء، أو أن يظل على حاله. فالكون كله الذي يمثل أمام الإدراك الحسي هو في حالة تدفق مستمر، والناس ينظرون إلى الأشياء على أنها دائمة على سبيل الخطأ.

إن الحقيقة حول طبيعة الأشياء التي أدركها بوذا وأعلنها لن تفرض على المتعلق بالدنيا أن يقبلها مباشرة، فالفهم الشخصي لهذه الحقيقة هو الحكمة، وهو صدق الطريق البوذي. وبلوغ هذه الحكمة يقتضي الارتحال عبر هذا الطريق(١).

إن مذهب بوذا لا يؤكد أنه لا شيء خالد، وإنما يذهب فحسب إلى أن هذا الشيء لا يمكن أن يوجد في الفرد البشري المنعزل.

لكن بوذا في رفضه ما اعتقد أنه وهم «الذاتية» الذي ينبغي أن يبدد بواسطة الأنظمة الأخلاقية والتأمليَّة للحياة البوذية، قد أكد حقيقة عالم أوسع

---

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تأليف جفري باردنر، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة، البوذية.

للوجود لا ينحصر داخل حدود «الأنا» أو ذاتي أو ملكي. كما ألح على الناس مبيناً أهمية تدمير هذه النظرة المتمركزة حول الذات. وذلك لكي يستطيع الناس أن يعيشوا حياة أوسع وأكثر حرية، وهي الحياة التي تجاوز الحدود الضيقة لرغبات الفرد وشهواته، الحياة المتعالية المتحررة من الرغبة التي هي «النرفانا» والسعي نحو هذه الحالة المتعالية هو الذي يزودنا بكل دافع ضروري للكفاح الأخلاقي، طبقاً لوجهة النظر البوذية، وهو الطريق الذي دعت الناس أن يسلكوه في نظام جماعة «السنغا Sangha» أو نظام «البهخوس Bhikkhus» أي نظام الرهبان والراهبات فحياة البهخو (الراهب) تستلزم نبذ جميع المقتنيات، والامتيازات الشخصية، والاستعداد للعيش في حياة مشتركة من الفقر والعفة. وداخل هذه الحياة المشتركة بأنظمتها المعترف بها، وممارساتها التأملية، تنحل «أنا» الفرد، ويزداد وضوح المنظور البوذي الحق.

وهنالك فارق بين نظام «السنغا» البوذية والرهبنة المسيحية، وهو أن العضوية في حالة البوذية يمكن أن تستمر أو لا تستمر طوال حياة الرجل أو المرأة. فإذا ما شعر العضو أو «البهيخو» في أي وقت أنه لم يعد قادراً على الاستمرار في النظام الرهبني، وأن عليه أن يعود إلى الحياة العادية فهو حر في أن يفعل ذلك، بعد إعلام رئيس الدير.

والجدير ذكره أن الرهبان البوذيين ليسوا ـــ في العادة ـــ رجالاً قطعوا صلتهم بالمجتمع كله، وليس الدير البوذي مكاناً منفصلاً عن المجتمع الأوسع، فهنالك علاقات متبادلة بين الرهبان وعامة الناس، فالناس يزودون الرهبان بالطعام والثياب، ويساندون الدير بطرق شتى، بينما يقدم الرهبان خدمات مختلفة إلى الناس المحليين.

ويعد التعليم من أوضح الخدمات التقليدية؛ فالدير مدرسة يذهب إليها البنون والبنات من أبناء القرى المجاورة لتعلم القراءة والكتابة. وهناك

خـــدمات أخرى يقدمها الرهبان وتختص بالاحتفالات ولا سيما في الأعياد أو المناســبات المختلفة مثل الجنازات. وهم يقدمون إرشادات منتظمة للجمهور حول تعاليم البوذية وطريقة الحياة فيها، ويعملون مرشدين روحيين وناصحين أخلاقيـــين يعلمـــون الناس واجبات الأبناء نحو أبنائهم، والآباء نحو أبنائهم، والـــزوجات نحو أزواجهم، والأزواج نحو زوجاتهم والتلاميذ نحو معلميهم، والمعلمين نحو تلاميذهم، والخدم نحو مستخدميهم، والمستخدمين نحو خدمهم، وأخيـــراً واجـــبات عامـــة الناس نحو معلميهم الدينيين (الرهبان) وواجبات الـــرهبان نحـــو عامـــة الشـــعب، وفق ما حددها بوذا في «سيغالوفادا سوتا Sigualoada Sutta»(١).

البوذية والمال والعمل

ـــــ وللغنـــي الذي جاء يسأله عن طريق الخلاص: «هل أترك ثروتي الطائلـــة ورفاهيتـــي وبيتي ومشاريعي التجارية لأصبح تائهاً مثلك، وبدون مأوى لأتوصل إلى السعادة من خلال حياة دينية؟ أجاب البوذا: سعادة الحياة الدينية يمكن الوصول إليها لكل إنسان يمشي من الطريق النبيلة ذات الشعب الثمانـــي. من يتعلق بالغنى من الأفضل أن يرفضه لئلا يسمح لقلبه بالتسمم. لكـــن الـــذي لا يتعلق قلبه بالثروة الطائلة مع أنه يملك هذه الثروة ويستعملها بحق وعدل يصبح بركة للكائنات إخوانه.

ـ ليست الحياة ولا القوة ولا الغنى هي التي تجعل الإنسان عبداً، لكن التعلق بالحياة وبالغنى وبالسلطة هو الذي يستعبد الإنسان. [ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، بل الزهد أن لا يملكك شيء ـ الإمام علي].

ـ الراهب الذي ينسحب من العالم بهدف سلوك حياة هنيئة ومريحة لا يجني منها أية فائدة. لأن حياة الكسل هي مستهجنة وقبيحة ومكروهة، وهي قلة النشاط الذي يجب أن يحتقر. [وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ـ قرآن].

---

(١) المرجع السابق نفسه.

قـانون «التاثاغاتا»[1] لا يطلب من الإنسان أن يهيم على وجهه بدون مـأوى، وأن يـرفض العـالم، إذا لم يكن يشعر بميل إلى هذا الأمر وبإلهام ربانـي. لكـن قانون «التاثاغاتا» يفرض على الإنسان التحرر من وهم الأنا وتطهير قلبه ورفض عطشه إلى اللذة، وسلوك حياة مستقيمة.

ومهمـا يكـن وضع الإنسان، إذا عاش في العالم كحرفي أو تاجر أو كضابط ملكي، أو إذا انسحب من العالم وكرس حياته للتأمل الديني، ووضع هـذا الإنسـان كـل قلبه في واجبه، وأصبح حاذقاً ونشيطاً. وإذا كان شبيهاً بزهـرة اللوتـس التي تنمو في الماء ولا يبللها الماء، وإذا عارك في الحياة متخلـياً عـن الحسد والغيرة والبغض، وإذا عاش في العالم بدون وجود أية أنانية في قلبه، وسلك مسلكاً مملوءاً بالحقيقة، عندئذ وبكل تاكيد يختار كل من الفلاح والسلام والسعادة مسكناً في قلبه.

يقول البوذا: «أفعالنا الصالحة والطالحة تتبعنا باستمرار كظلنا. اعمل الأعمال الصالحة، لأن الأعمال تدوم وبها تستمر وتخلد «الكارما»[2] أعطوا كل عناياتكم للأعمال. أعمالك الصالحة والطالحة لا يبقى سواها بعد الموت. هـي تتبعك كظل. [من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] (قرآن).

العطاء والمحبة

الإنسان القادر على العطاء يشبه المحارب القوي الشهم الحازم الذاهب إلـى المعركة، ويشبه كذلك بطلاً منازلاً مجاهداً قوياً وحكيماً في أداء مهنته، ويشبه أيضاً المحارب اللبق الحاذق الماهر المدرَّب.

---

(١) تاثاغاتا: الكامل. ويقصد به البوذا.

(٢) الكارما: نتيجة الأعمال.

يعطي الإنسان المحب الرحيم باحترام، طارداً من قلبه البغض والحسد والغيرة والغضب.

الإنســـان المحب يجد طريق الخلاص. هو يشبه من يزرع شجرة فتية متأكداً من الاستفادة من ظلها وأزهارها وأثمارها في السنين المقبلة. هكذا هي نتــيجة المحـــبة. هكذا هو الفرح الكبير لكل من يساعد الذين هم بحاجة إلى المساعدة. هكذا هي النرفانا. [قارن المحبة في المسيحية والإسلام].

بأعمال الطيبة والجودة واللطف والعطف والتساهل والتسامح المستمرة نتوصـــل إلى طريق الخلود. وبالمحبة والرحمة نصلح أنفسنا ونجعلها تصل إلى الكمال(١).

رسالة بوذا

سُمع يقول: إنني صاحب رسالة، علي أن أبلغها، كما علي إنقاذ جميع المخلوقـــات، ولن أتخلى عن أداء هذا الواجب، ولو سقطت علي أمطار من الصواعق»(٢)

إن رســـالته هـــي تصـــحيح لما انحرف في المجتمع الهندي عن جادة الحـــق، إنها دعوة عقلانية منفتحة جريئة في مجتمع كبلته الطقوس، وانغلقت أفكاره على مفاهيم دينية اختلطت فيها الألوهة مع الأسطورة، فجاءت رسالته دعـــوة للتحرر من الطقوس القديمة وتنظيم سلوك الناس، وإصلاح المجتمع، وإطلاق العقل من قيود الخرافة والصنمية.

روى تـــاريخ الحضـــارة أن أحـــد البرهمانيين جاء مرة (بوذا) يقول: سأذهب إلى مياه «الغانج» مغتسلاً لأمحو ذنوبي. فالتفت إليه البوذا برصانة

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) موسوعة الأديان، الدكتور سامي أبو شقرا، دار الاختصاص للنشر، ج ١، البوذية.

وقال: «يمكنك أن تغتسل هنا. كن خيِّراً مع جميع الناس، ولا تكذب ولا تقتل أي حيوان، ولا تتناول إلا ما يعطى لك. وبعد هذا اغتسل في أي ماء نظيف شئت، فتطهر حقاً».

ويقول: «إن الطيبة والمحبة عمودان يرتفع عليهما هيكل الهناء الداخلي الدائـم» ويذكـرنا فرط مناداته بالرأفة والحب بكلام يسوع المسيح «ملكوت السموات هنا في نفوسكم»[1].

ويقـول: «كل محرك سافل يجب أن نقهره، كل إرادة مهينة نضبطها، كـل ضعف معيب نتغلب عليه، ولكن ليس معنى هذا أن نغمض عيوننا عما يعانيه البشر من الفقر والشقاء زاعمين أنهم استحقوه بما جنته نفوسهم، إذ كل مـن يفكر هكذا ولا يتمسك بالأخوة العامة والمحبة الشاملة مع سائر الخلق، فـلا شـك أن ناموس الطبيعة يعاقبه أشد العقاب، لأنه خارج عليه بعدم بذل الجهد الذي يسبب العفو والرحمة».

قهر الشهوات

«إن الحياة كلها من الولادة إلى الموت لهيب وحريق. إنها نار الشهوة ونـار الـبغض والعـداء والهوى. ومن أهم أولئك الخدم الذين يشعلون هذه النـيران العواطـف السـتة والحواس الستة: إن العين ترى الأشياء الجميلة مزخرفة اللون، والأذن تسمع الأصوات الحلوة، والأنف يشم الروائح الطيبة، واليد تشعر بنعومة الريش أو الحرير، والفم يتلذذ بذوق الثمار، والقلب يتأثر بالأشياء المرغوبة، هؤلاء هم العبيد الستة الذين يسعون لتنفيذ أوامر سيدهم، فيجمعون الحطب، فتزداد النيران اشتعالاً.

«لكن هنالك طريقاً لإخماد هذه النار. اتبعوا الصراط السوي النيِّر. إن هذا الصراط مستقيم لا عوج فيه. أما بابه، فهو تطهير الذهن، ونهايته السلام

---

(١) المصدر نفسه.

والحنان لكل الخلق من الأحياء. إن الذي يسلك هذا الصراط، لا يقول، إنني أنا، وذلك الإنسان غيري، ولذلك ففي نفعه خسارتي! كلا، بل هو يقول: «يجب علي أنا الذي فزت بالبصيرة أن أشعر بالحب والحنان لكل الخلق الذين قيدوا بهذه الأغلال أغلال العلة وتعدد الحياة ولقد كسرت أنا هذه الأغلال بنفسي بقلع الشهوة من قلبي. فيجب علي الآن أن أسعى للكل وأجعلهم أحراراً»[١].

الله في التفكير البوذي

يقول بوذا: إن الحق لا يعرف بالنظريات، بل بالسير في طريقه. لذلك لم يعنَ بالحديث عن الإله، ولم يبذل جهده للحديث عنه إثباتاً أو إنكاراً، وتحاشى الخوض في البحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة. إذ كان يرى أن خلاص الإنسان يتوقف على أعماله. يقول بذلك: عملي هو الجنس الذي أنتمي إليه، وعملي هو الملجأ الذي ألتجئ إليه. ويرى أن الإنسان صانع مصيره. وكان ينهى أصحابه عن الخوض في الأحاديث الغيبية. وقد سأله أحد مريديه يوماً: هل الذات موجودة؟ فسكت. فسأله: هل الذات ليست موجودة؟ فظل ساكتاً. فسأله: هل هذا الكون دائم أم غير دائم؟ أخيراً قال البوذا لهذا المريد: هل قلت لك جئني أعلمك عن الذات وعن الكون؟ لا، لم أقل هذا. أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس. ولا تتكلموا عما بعد الموت، ووجهوا عنايتكم للعمل. لا تسألوا أسئلة كهذه، فإنها عارية من كل نفع، ولا يقدر أحد على جوابها، هل تكلم يوماً الذي مات؟ إن السؤال عن الغيب لا يجدي نفعاً، ولكنه يعذب وينهك القوى. عليكم بالسبيل النير الشريف، فإنه يوصلكم إلى السلام في هذه الحياة. واتركوا ما بعد هذه الحياة إلى اليد التي تولته من أول الكون[٢].

---

(١) مقارنة الأديان، ج ٤، الدكتور أحمد شلبي، القاهرة، (البوذية)، ص ١٦٢.

(٢) نقله نفس المصدر عن كتاب ثقافة الهند (مارس ١٩٥٠) لرادها كرشنن، ص١٧٠.

أخلاق الجماعة البوذية:

إن ضـــبط النفس وقهر الشهوات أول صفات البوذي. وعلى الراغب بالالـــتحاق في الجماعة البوذية أن يتنازل عن ماله وعقاره، ويحمل مخلاته للســـؤال، وينضـــم إلـــى الجماعـــة، ويتخلى عن فرديته، ويتخلق بأخلاقها. وهـــذا ما فعله المسيح بعد خمس مائة سنة، عندما جاءه شاب غني وأراد أن يكون من أتباعه، فقال له: بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعني. ولما صعب على الشاب أن يفعل، قال عيسى (ع): «يعسر أن يدخل غني ملكوت الله»[1].

واحتـــرام الحياة، إنسانية كانت أو حيوانية، من أهم الأخلاق البوذية. يحرم على البوذي أن يقتل حيواناً في صيد، أو ذبحه للأكل. فهو روح عليك الرفق بها. وحرم البوذا تقديم الذبائح للآلهة الهندوسية.

والمحبة أسمى وأفضل من الأعمال الحسنة عند الجماعة البوذية. وقد علمهـــم بوذا: أن الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحبة التـــي تحـــرر القلـــب من شوائب الشر. لأن مثل هذه المحبة يتضمن سائر الحســـنات. إن المحبة تشرق نوراً وبهاءً. ترون الأم تحيط بوليدها حتى في الأخطـــار التي تهدد حياتها، كذلك يجب على كل إنسان أن يغرس في نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق[2].

ويقـــول الـــبوذا: لم تصنع هذه الحقيقة للنساك فقط. فهي تتعلق بكل الكائـــنات الإنسانية، تتعلق بالكاهن والمدني على السواء. لا يوجد فرق بين الراهب الذي نذر النذور وبين الرجل الذي يعيش في العالم وفي قلب عائلته.

---

(١) لوقا، الاصحاح الثامن عشر.

(٢) عن، مقارنة الأديان، عن بحث للعلامة رادها كرشنن، ص ١٧٨.

هنالك نساك يقعون في الضياع، وهنالك آباء عائلات شرفاء يرتفعون إلى صف القديسين الكاملين.

من تعاليم البوذا

– «سعيد هو الصالح العطوف اللطيف الرفيق والممتلك نفسه إزاء الجميع!

– سعيد من يتحرر من أهواء نفسه الرديئة، ومن ميول قلبه الشرير والتارك كل الشهوات الباطلة.

– من يرفض كبرياء أناه يفرح فرحاً كبيراً وتغمره السعادة القصوى.

– اكتشفت الحقيقة الجليلة العميقة الصانعة السلام، لكنها صعبة الفهم، لأن أكثر الناس يتلهون بكرة المنافع الدنيوية، ويرضون ويتلذذون بشهوات العالم.

– من يعش في العالم لا يفهم العقيدة، ولا توجد سعادة بالنسبة إليه إلا في شخصه، والسعادة التي تنبثق من الخضوع الكامل للحقيقة لا يقدر على إدراكها.

– التعلق بالأشياء وبالحسد وبالغيرة وبحب الذات الجسدية، هي أسباب الشقاءات والأباطيل والزخارف الموجودة في العالم.

– ارفضوا جشع أنانيتكم تصلوا إلى حالة الفكر الهادئ الذي يصنع السلام الكامل، واللطف والوداعة والرفق والحلم والتساهل والإكرام والحكمة.

– لا تخادعوا، لا تحتقروا ولا تمقتوا بعضكم البعض، وفي أي مكان وجدتم لا تغضبوا.

– لا تشتموا ولا تهينوا ولا تحقدوا.

– كونوا كالأم التي تخاطر بحياتها من أجل ابنها وتسهر عليه.

ـــ حبنا للجميع يجب أن يكون بدون حدود، وملآناً بالرأفة واللطف والرقة والطيبة الجودة والوداعة والرفق والحلم والتساهل والإكرام والتسامح.

ـــ أقول لكم: ازرعوا اللطف والعطف والرفق يميناً وشمالاً وفي كل مكان، ومـــن الصـــباح حتـــى المساء، وبدون أية مقاومة، وبصلا بة وبدون أي تقصـــير، أحراراً من كل حسد أو غيرة أو بغض، وعندما تكونون واقفين أو قاعـــدين أو سائرين ومهما كان يدور في خَلَدكم. وأخيراً أقول لكم: إن قاعدة الحياة التي هي دائماً الأحسن والأفضل هي الامتلاء بالمحبة.

ـــ امتلاك القدرات والمواهب هو أمر جيد، تأسيس الأديرة يستحق الثواب، ممارســـة الرياضات الدينية والتأمل يجعلان القلب في سلام. فهم الحقيقة يقود إلى النرفانا، ولكن الأعظم من كل هذا هي الطيبة المملوءة بالمحبة. هي كنور القمر الذي يساوي ستين مرة نور كل النجوم. كذلك فإن الطيبة المملـــوءة بالمحـــبة هي أنجع بستين مرة من الممارسات الدينية الأخرى الممارسة بصورة جماعية.

ـ ليس بالبغض يهدأ ويستكين البغض، البغض يهدأ ويستكين بإزالة البغض نفسه. هذا هو القانون الخالد[١].

قواعد سلوك الرهبان تجاه النساء

جاء الرهبان البوذا وسألوه:

أيهـــا الـــتاثاغاتا ســـيدنا ومعلمـــنا، كيف يجب أن يكون سلوكنا تجاه الراهبات اللواتي رفضن العالم؟

قال المغبوط:

---

(١) إنجـــيل بـــوذا، تأليف بول كاروس، ترجمة سامي سليمان شيا، دار الحداثة، بيروت، ص ٤٥.

احترسوا من النظر إلى المرأة، إذا رأيتم امرأة تصرفوا كأنكم لا ترونها، ولا تتحادثوا معها. وإذا كنتم، على كل حال، مجبرين على التكلم معها، ليكن هذا الكلام بقلب طاهر. إذا كانت صغيرة انظروا إليها كابنة.

الراهب الذي ينظر على المرأة كمرأة ويمسها كمرأة يحطم نذره، ولا يكون أبداً تلميذ السكياموني.

قوة الفجور كبيرة على الرجال ويجب عليهم الخشية منها في كل وقت. تسلحوا إذاً بقوس الثبات الملتهب وبسهم الحكمة الحاد.

غطوا رؤوسكم بخوذة الفكر الحسن، وعاركوا بعزيمة صلبة ضد الشهوات الخمس.

أفضل لكم وأحسن قلع أعينكم بحديدة حمراء من تشجيع نفوسكم وحثها على التفكر باللذات الجسدية أو النظر إلى جسد امرأة برغبات شهوانية. (يذكرنا هذا القول بقول المسيح: «إن كانت عينك اليمنى تعثرك فأقلعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم) (متى ٢٩/٥). أفضل لكم وأحسن الوقوع في شدق نمر هائج، أو تحت سكين الجلاد الحادة القاطعة من الإقامة مع امرأة تثير في نفوسكم أفكار الفجور.

أقول لكم، سيطروا على قلوبكم ولا تعطوها الحرية الجامحة والمطلقة العنان.

الإنسان الذي يسير على الطريق المستقيمة يعيش في العالم، لكن شهوات العالم لا تدنس نفسه.

نظرة بوذا إلى الجسد

ورداً على النظرية الهندوسية التي تحقر الجسد وتعتبره ملآن بالنجاسات وإنه مقام الخطيئة والأمراض، ومصيره الموت والفناء، وتحقره وتلبسه الخرق المجموعة من المقابر أو المزابل. يقول البوذا:

حقـــاً إن الجسد ملآن بالنجاسات والأقذار والأدناس، وهو عديم النقاء والطهـــارة، والـــنهاية التـــي ينتظرها هي في كومة الجثث لأنه قابل للتفكك والتفتق في أعضائه. لكننا نستطيع أن نصنع منه إناء للحقيقة وليس للخطيئة. لـــيس صـــالحاً إهمال حاجاتنا الجسدية وتكريم الوسخ على الأقذار. القنديل المملوء زيتاً وغير المنظف ينطفئ. وجسد مهمل ووسخ وضعيف من جراء التقشـــفات القاسية لا يصبح مأوى لنور الحقيقة. اعتنوا بأجسامكم وأمنوا لها حاجاتها وعالجوها كما تعالجون جرحاً وكشيء تعتنون به ولكن لا تحبونه.

وصايا بوذا العشر(١)

١ ــ لا تقتلوا أبداً بل راعوا جانب الحياة.

٢ ــ لا تســرقوا أبـــداً، ولا تنشلوا، ولا تخفوا، لكن ساعدوا كل إنسان على امتلاك ثمار عمله.

٣ ــ تجنَّبوا كل نجاسة وعيشوا حياة طاهرة.

٤ ــ لا تكذبوا أبداً، ولكن كونوا صادقين في القول، وقولوا الحقيقة برصانة وبلا خوف، وبقلب مملوء بالمحبة.

٥ ــ لا تخـــتلقوا أبداً حكايات خبيثة ولا ترددوها. لا تتخاصموا ولا تتقاتلوا أبـــداً، لكن انظروا إلى الجوانب الصالحة عند إخوانكم بطريقة تمكنكم من الدفاع عنها بإخلاص ضد أعدائهم.

٦ ــ لا تحلفوا أبداً، لكن تكلموا بأدب وحشمة ولياقة وبعظمة وشرف ووقار.

٧ ــ لا تهدروا أوقاتكم بالكلمات الخالية من أي معنى، لكن تكلموا كلاماً في محلـــه، وفـــي وقته وبنية طيبة أو التزموا الصمت (إذا حضر أحدكم مجلساً فليقل خيراً أو ليصمت) (حديث نبوي).

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٤.

٨ ــ لا تطمعوا ولا تحسدوا ولا تغاروا، لكن افرحوا بسعادة الآخرين ويمنهم.

٩ ــ طهروا قلوبكم من الخبث، لا تزرعوا أبداً البغض والحقد حتى ضد أعدائكم. لكن أحيطوا بجودة وطيبة ورفق وتساهل وحلم كل الكائنات الحية.

١٠ ــ حرروا أذهانكم من الجهل، وكونوا حريصين ونهمين وجشعين على تعلم الحقيقة ولا سيما في الشيء الوحيد الذي هو ضروري مخافة أن تقعوا فريسة في يد الارتيابية والتشككية والسفسطائية والعنادية أو في الضلال. فالارتيابية والتشككية والعنادية والسفسطائية تجعلكم غير مبالين، أما الضلال فيجعلكم تائهين مشردين ضائعين، بطريقة لا تجدون معها أبداً الطريق القويم الذي يقود إلى حياة الخلود.

من مواعظ بوذا[1]

ــ نحن بأنفسنا نصنع الشر ونتعذب. ونحن بأنفسنا نزيل الشر ونتطهر. نحن بأنفسنا نملك الطهارة والنجاسة.

ــ الشخص الذي يضبط نفسه ويطلع على خفاياها ويقهرها يعتبر ساهراً بعناية على نفسه. والحقيقة تحفظ من يحفظ نفسه.

ــ إذا استطاع رجل يقاتل في معركة الانتصار على ألف رجل ألف مرة، وإذا رجل استطاع الانتصار على نفسه، فهذا المنتصر على نفسه يكون أكبر المنتصرين. (يسمي النبي محمد الانتصار على النفس الجهاد الأكبر).

ــ يهذب ويؤدب ويصنع الناس الحكماء أنفسهم بأنفسهم ولا يترددون أمام المدح أو الذم.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٨.

ــــ من الأفضل عدم القيام بعمل رديء، لأن الإنسان الذي يقوم به يندم فيما بعد، إن الخطيئة تسبب الألم، وعمل الخير ينتج السعاة.

ــــ الــرجل الذي لا يرى إلا ما يلذه دون أن يسيطر على حواسه... يقهره الشيطان المجرِّب بكل تأكيد كما تقتلع الريح شجرة صغيرة.

ــــ الإنســان ذو الأخلاق الفاسدة ينزل نفسه إلى حالة مزرية، يشتهي عدوه رؤيته فيها. فهو العدو الأكبر لنفسه.

ــــ نحــن ننظر بسهولة إلى أخطاء الآخرين، ولكن ليس سهلاً علينا رؤية أخطائــنا الخاصة. (الإنجيل/: يرى القشة في عين غيره ولا يرى الخشبة في عينه).

ـ اقهروا الغضب بالحب، انتصروا على الشر بالخير، اهزموا البخل بالكرم، اقهروا الكاذب بالحقيقة.

ــــ لــنعش سعداء دون أن نضمر أية كراهية للذين يكرهوننا، ولنسكن بين الناس الذين يكرهوننا دون أن نبغض.

وقد حدد قواعد السلوك الصحيحة بما يلي:

ــــ هاكم الإشارة التي بواسطتها نعرف بأن إنساناً ما يتبع الصراط المستقيم وهــي: عندما تكون الاستقامة عنده سعادة، وعندما يرى الخطر في أقل الأشــياء التــي يجــب عليه تجنبها، وعندما يسير حسب شرائع الأخلاق وعــندما يحيط نفسه بالقداسة في الأقوال والأعمال. وعندما يكسب قوت حــياته بوســائل تكون دائماً مملوءة بالطهارة، وعندما يكون سلوكه غير مســتحق للعتاب واللوم والتوبيخ، وعندما تكون أبواب حواسه محروسة، وعندما يفكر بعمق ويسود على نفسه، وعندما يكون كامل السعادة.

ــــ الكنز الحقيقي المجموع بمحبة الله ومحبة القريب (الإنجيل: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك وقريبك

مثل نفسك) (لوقا ١٠-٢٧) وبالتقوى وبالاعتدال وبالمقدرة الذاتية أو بأعمال مستحقة هو بكل تاكيد كنز لا يزول، ولا يقدر أي سارق على سرقته. عندما يموت الإنسان، يترك الغنى العابر والزائل في العالم، لكنه يحمل معه كنز أعماله الفاضلة.

ـــ عقيدتي طاهرة وهي لا تفرق بين الأشراف والعامة وبين الأغنياء والفقراء. (لا فرق بين غني وفقير وصعلوك وأمير) (حديث نبوي).

الجنة عند بوذا

سأل أحد التلاميذ معلمه البوذا: لكن يا معلم هل الوعد بالمنطقة السعيدة (الجنّة) قصة باطلة وخرافة؟

سأل البوذا: ما هو هذا الوعد؟ تابع التلميذ قائلاً:

يوجد في الجزء الغربي من العالم مقاطعة فردوسية تدعى الأرض الطاهرة. هي مزينة بشكل جميل بالفضة والذهب والأحجار الكريمة. هناك ترى المياه الصافية على أسرة من الرمال الذهبية، ومحاطة بمنتزهات لطيفة ومستحبة، ومغطاة بأزهار اللوتس الكبيرة، وتسمع فيها الموسيقى التي تولد الفرح. وتتساقط أمطار من الأزهار ثلاث مرات كل يوم. هناك تعلن عصافير مغنية في ألحانها المنسجمة والحسنة الإيقاع والرخيمة والمطربة، ترانيم مادحة الدين، توقظ في أرواح الذين يسمعون نغماتها العذبة ذكرى البوذا والشريعة والأخوية. هناك لا توجد أية ولادة تعيسة، وأن اسم جهنم غير معروف فيها.

أجاب البوذا: يوجد بالحقيقة منطقة سعيدة شبيهة بهذه المنطقة، لكنها منطقة روحية، يسهل دخولها فقط للكائنات الروحية. وصفك رائع لكنه غير كاف، جاعلاً الحقيقة تنتقص من مجد الأرض الطاهرة. لا يتمكن أشخاص هذا العالم من التعبير إلا بعبارات من هذا العالم، فيستعملوا عبارات وتشابيه من

هذا العالم. لكن الأرض الطاهرة التي يعيش فيها الطاهرون هي أجمل بألف مــرة مما لا تقوى على قوله أو على تصوره. فالشخص الذي ينصرف إلى أعمــال الحــق والعدل، وتغرق نفسه بنور الحقيقة اللانهائي هو وحده الذي يصــل إلــى الأرض الطاهرة. أما ترديد اسم البوذا فليس له أي ثواب إذا لم يكمَّــل بحالة من الورع الداخلي تساعد على تطهير قلب الإنسان. والشخص الــذي يحصل على النور هو وحده يستطيع العيش والتنفس في جو الفردوس الروحاني. عندما يموت الإنسان يتحلل جسمه إلى عناصره، ولكن الروح لا تحبس في قبر. يوجد نوع من الحياة أرقى من حياتنا هذه[1].

تحريم تقديم الذبائح للآلهة

يقول للبوذا أحد الهندوس: سمعتهم يقولون بأنك تعلِّم الشريعة ومع ذلك فإنك تخرِّب الدين وتدمره. يحتقر تلاميذك الطقوس، ويرفضون تقديم الذبائح، ومهمــا تكن التقوى تجاه الآلهة، لا تستطيع الظهور إلا بتقديم الذبائح. يتألف الجوهر الحقيقي للدين من العبادة وتقديم الذبائح.

أجــاب البوذا: التضحية بالأنا هي أكبر بكثير من ذبح الثيران. فالذي يضــحي للإلــه وتكون رغباته مجرمة سيفهم عدم جدوى العمل من إهلاك الحــيوانات أمــام مذبــح الآلهة. ليس لإراقة الدماء أي فضيلة مطهرة, لكن اقــتلاع الفجور من القلب يجعل القلب طاهراً. وطاعة قوانين العدالة أفضل بكثير من عبادة الآلهة.

رأي بوذا في الحرب

يســأل اللواء «سيما» البوذا قائلاً: أنا جندي يا بهاغافات, ومكلف من قــبل الملــك باحترام قوانينه والمحاربة في سبيله. و«التاثاغاتا» الذي يبشر

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

بـــالجودة والطبــيعة والرفق واللطف والدعة والحلم والتساهل, بصورة غير محــدودة, وبالـــرحمة لكل المعذبين, هل يسمح بعقاب المجرمين؟ وهل يعلن أيضـــاً أنـــه مـــن الشر الذهاب إلى الحرب للمحافظة بيوتنا ونسائنا وأولادنا وأملاكـــنا؟ وهل يبشر بعقيدة الترك المطلق بطريقة تلزمني على ترك فاعل الشـــر يعمل بما يحلو له؟ هل يؤكد «التاثاغاتا» بأن كل قتال يجب أن يكون محرماً بما في ذلك الحرب المدعومة بسبب محق وصريح؟

أجاب البوذا: من يستحق العقاب يجب أن يعاقب، ومن له فضل شريف يجب أن يكرّم. كما أنه يعلم، بالوقت نفسه، بأنه يجب على الإنسان عدم فعل أي شـــر لأي كائن حي، وأن يكون مملوءاً بالحب والطيبة والرحمة. عندما يعاقب القاضي يجب أن لا يترك ملجأ للبغض في قلبه.

إن كل حرب يحاول فيها الإنسان قتل أخيه هي مؤسفة، لكنه لا يعلّم أن الأشـــخاص الذيـــن يصنعون الحرب لسبب عادل بعد أن يكونوا قد استنزفوا طاقاتهم للمحافظة على السلام هم يستأهلون لا اللوم ولا العقاب ولا الذم. لكن الذي يستوجب اللوم والعقاب والذم هو الذي كان السبب في اندلاع الحرب.

يعلّم «التاثاغاتا» التخلي الكامل عن الأنا، لكنه لا يقول بترك أي شيء مهما يكن إلى القوى الشريرة. يجب أن يحصل الصراع لأن كل حياة هي في صـــراع بـــنوع مـــن الأنواع. لكن يجب على كل مصارع أن يحترس في صراعه من إفادة الأنا على حساب الحقيقة والعدالة. فالذي يحارب في سبيل العدالـــة والحقـــيقة يحصل على أكبر مكافأة، وإذا هزم يعتبر منتصراً. وإذا اعـــتدل وأطفـــأ كل بغض في قلبه ورفع من جديد عدوه المهزوم، وقال له: تعال الآن لنصنع السلام ونكون أخوين، فيجلب نصراً لا يكون نجاحاً عابراً، لأن ثماره تدوم إلى الأبد[1].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٣.

لـم يـدّعِ بـوذا أنه هو البوذا الوحيد في هذا الوجود. بل يعترف بأن بـوذوات (أنبـياء) عديـدون قد سبقوه فيما مضى، وأنه سيأتي بوذوات في المستقبل يهدون الناس إلى طريق الحق والعدل والسلوك القويم.

هل بوذا نبي أم مصلح اجتماعي؟

أحسست وأنا أقرأ «إنجيل بوذا» وكأنني أقرأ إنجيل المسيح، بما تضمن مـن قيم ومعان إنسانية ذات البعد الإلهي التي تضمنتها الكتب السماوية التي جـاءت بعده بمئات السنين (الإنجيل والقرآن). فالقيم السامية التي نادى بها بوذا قبل المسيح بخمسة قرون وقبل محمد بأحد عشر قرناً، إن هي إلاّ رسالة الأنبـياء والرسـل الذين تعرفنا على دعواتهم من نصوص الكتاب المقدس والقرآن الكريم.

فرسـالة بـوذا هـي تصحيح الدين الهندوسي لجهة مغالاته بالقضايا الـروحانية وتحقير الجسد الإنساني، والعمل على تحطيمه وإضعافه بالجوع والصيام القاسي، وتعريضه عارياً لأقسى الظروف الطبيعية من حر الصيف وقر الشتاء، والنوم على المسامير والشوك ولبس الثياب القذرة، والنوم على المـزابل... كل ذلك من أجل تطهير الروح ـ كما يرون ـ وتخليصها من نزوات الجسد الفاني التي تلطخها بالآثام والشرور.

بعد أن عاش بوذا تجربة النسك وقهر الجسد، خرج على الناس بمبادئ رسالته التي كان أولها: «إن جسداً مهملاً وضعيفاً من جراء التقشفات القاسية لا يصـبح مـأوى لنور الحقيقة». ودعا إلى حياة الاعتدال بين المغالاة في التقشـف والمغالاة في التهتك واتباع نزوات الجسد. وحث الناس على اتباع الطـريق الوسـط لضبط النفس والتغلب على الشهوات، وعدم التعلق بالمال والسلطة، وليأكل الإنسان ويشرب حسب حاجات نفسه. وكانت حياته المثال الـذي أعطـاه للناس؛ حياة زهد وتعفف وتبتل واعتدال وعدم التعلق بالدنيا

الفانـــية، لأن كل ما فيها زائل يوماً. تلك كانت حياة المسيح ومحمد زهد في الحياة الدنيا وحث الناس على التطلع إلى الحياة الأخرى الخالدة.

علَّم بوذا «أن المحبة والطيبة هما عامودان يرتفع عليهما هيكل الهناء الداخلـــي الدائم». وإن «الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحـــبة التي تحرر القلب من شوائب الشر». وبهذا يلتقي مع المسيح ومحمد في دعوتهما الناس إلى المحبة.

نـهى بوذا عن عبادة الأوثان «عبادة الأوثان خطأ وحمق» وحرم تقديم الذبائح قرابين لها. وتلكم كانت رسالة محمد والمسيح وموسى.

حـــارب بـــوذا الطبقية التي كانت النظام الذي يسود المجتمع الهندي. ونادى بإزالة الحرمان والبؤس عن طبقة المنبوذين، واستقبلهم في رهبانيته، وضـــمهم إلى دعوته. وهذه من أبرز عناصر دعوة محمد. «الناس سواسية كأسنان المشط» لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى.

دعـــا بوذا إلى التعفف: «أفضل لكم وأحسن قلع أعينكم بحديدة حمراء (محمَّـــاة) مـــن النظـــر إلى جسد امرأة برغبات شهوانية». وهذا القول يرد مثله على لسان المسيح: «إن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في نار جهنم» (متى ٥: ٢٩).

دعا بوذا إلى العفو عمن يسيئون ومسامحتهم وعدم مبادرة الشر بالشر. وتلـــك كانـــت رسالة المسيح «من ضربك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضـــاً» (متـــى ٥: ٢٨)، ورسالة محمد من بعده «**وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟**» (سورة التوبة، ٢٢).

ودعـــا إلى الرحمة بالمستضعفين وبذلك يلتقي مع محمد: «الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

حرّم بوذا الأذى، والسرقة، والزنا، والكذب، والحسد، والغيرة، والخداع، واحتقار الضعفاء، والشتم، والحقد، والبغض، وقتل النفس إنسانية كانت أم حيوانية (إلا الحيوان المؤذي) وهذه شريعة الأنبياء من قبله ومن بعده، موسى وعيسى ومحمد.

ودعا إلى الرأفة والرقة واللطف والطيبة والجودة والوداعة والرفق والحلم والتساهل والإكرام والتسامح. وهل هذه إلا دعوة الأنبياء والرسل إلى بني البشر؟

من أبرز تعاليم البوذا محاربة الأنانية وعمل الخير لجميع الناس. وتجاوز الحدود الضيقة لرغبات الفرد وشهواته. وأكد عالم أوسع للوجود لا ينحصر عند حدود «الأنا».

حقَّر بوذا حياة الكسل، ودعا الناس إلى العمل «لأن حياة الكسل هي مستهجنة وقبيحة ومكروهة، وهي قلة النشاط الذي يجب أن يحتقر» وامتلاك الثروة واستعمالها بحق وعدل يصبح بركة للكائنات إخوانه» لأنه «من يتعلق قلبه بالغنى يسمح لقلبه بالتسمم». فهو لم يحرم العمل من أجل الوصول إلى امتلاك المال. ولكنه حرم التعلق بهذا المال ليصبح عبداً له. من أجل هذا كانت تعاليم المسيح «يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات». «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (متى ١٩ : ٢٣-٢٤). ومحمد قبل يد أحد العمال التي كانت متورمة من قسوة العمل، قائلاً: «هذه اليد يحبها الله ورسوله» وذلك حضاً على العمل، وتشجيعاً للعمال. ولكن القرآن يحذر من التعلق بالثروة في آيات عديدة، ويحض على الإنفاق وينهى عن تجميع المال وكنزه «**الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**» (التوبة، ٣٤).

دعا بوذا إلى حياة الرهبنة وإشادة الأديرة قبل أن تبني المسيحية أول دير لها (٣٢٠م) بثمانية قرون. وهذه الرهبانية تقوم على الزهد والتبتل

والتقشف وعدم التملك الفردي والبعد عن بهارج الدنيا، والتطلع إلى الخلاص (النرفانا) عن طريق نبذ الأنانية والسلوك القويم وفق تعاليم البوذا، والالتزام بالطريق الوسط ذي الثماني شعب، السابق ذكره.

كان انصراف بوذا إلى التأمل والبحث عن الحقيقة في البراري والغابات، ثم نزول النور السماوي عليه تحت شجرة «البو» التي يسميها البوذيون بشجرة الحكمة، يشبه انصراف النبي محمد إلى التأمل والبحث عن الحقيقة والعزلة التي مارسها في غار حراء ونزول الوحي عليه في ذلك الغار المنعزل فوق قمة جبل النور.

كان من شدة التشابه بين تعاليم بوذا وتعاليم المسيح أن غالى بعض كتاب الغرب إلى اعتبار المسيحية هي بكليتها صورة منسوخة عن البوذية. وما دروا أن الرسالات السماوية جميعها ذات مصدر واحد هو الله، وذات غاية واحدة هي إقامة العدل والحق والرحمة والمحبة في الأرض، ووضع الشرائع وقواعد السلوك لتنظيم حياة المجتمعات البشرية، وإصلاح سلوك الأفراد. والتعرف على خالق هذا الوجود، والتبشير بحياة أخرى خالدة مقابل هذه الحياة الفانية.

ولئن كانت رسالة بوذا لم تتحدث عن الإله، فلقد كان في المجتمع الهندي آلهة كثيرة تعبد، وعلى رأسها الإله الخالق المطلق براهمان. فلم تكن مهمة بوذا توضيح صفات الله المتعارف عليها، والمغالى في التعبد لها، والاكتفاء بهذا التعبد، وتقديم القرابين من الحيوانات أمام تماثيلها، بل كانت رسالته إصلاح الكثير من المفاهيم التي تتعلق بحياة الفرد والمجتمع. فحرم تقديم تلك القرابين، ووضع قواعد السلوك القويم الموصل إلى خلاص البشر «النرفانا» أو ملكوت الله (كما في المسيحية) أو الجنة (كما في الإسلام». فالنرفانا هي مرحلة الخلاص النهائي لكل الآلام التي تعتري حياة الإنسان، مرض، شيخوخة، رغبات فموت. قال البوذا لتلاميذه لدى تعريفها: «هي

طور، لا أرض فيه ولا ماء، لا نور ولا هواء، ليس فيه خلاء ولا مكان ولا إدراك: لا موت ولا ولادة».

وصــرح العلامة البوذي (رادْها كرشْننْ): «إن البوذا رفض أن يشرح النيرفانا بل اكتفى بالقول: متى كف الإنسان عن العيش من أجل نفسه، تيسر لــه الصــفاء والسكينة». وطالما لا نهاية للشهوات، فتستمر عجلة التنقلات واللاسكينة.

فالنــرفانا هي: الوصول إلى أعلى درجات الصفاء الروحي، للخلاص من ربقة الكرما (نتيجة الأعمال) يتم ذلك بالبعد عن الأنانية ومحبة الأخرين، والعمل لما فيه خيرهم. وهي نهاية الآلام الناتجة عن تكرار التقمص وتحمل مشاق الحياة. ولم تكن تعاليمه في جوهرها تختلف عن تعاليم رسالات السماء كافة.

ولــئن كانــت رسالته لم تضع شريعة، كموسى ومحمد، فإنها وضعت روح الشــريعة وقــواعدها كالمســيح. ولــئن كانت رسالة نبي من الأنبياء أنقصت، في مجموعها، شيئاً من الناموس الإلهي الكلي، فليس عيباً فيها، ولا نقصاً من كمالها. بل لعل الظروف التاريخية وواقع المجتمع الذي خصه الله بها كان يقتضي ذلك. فعدم ذكر الحياة الأخرى في توراة موسى، لم يمنع من بعده من الأنبياء وأصحاب الرسالات السماوية كعيسى ومحمد من الاعتراف والإقــرار بألوهية رسالته، وإكمال ما نقص منها في رسالاتهم التي استقوها من المصدر الإلهي نفسه.

كانــت رســالة المســيح التخفيف من مادية المجتمع اليهودي، وتعلقه بالحــياة الدنيا، وإعطاء البعد الروحي الدور الأهم في حياة البشر. والتبشير بحياة أخرى خالدة تنعم فيها الأرواح الطاهرة في ملكوت السماء. كذلك كانت رسالة بوذا التخفيف من مغالاة الهندوس في الروحانية وإهمال الجسد وقهره وتعذيــبه من أجل تقوية الروح. فعلّمهم الطريق الوسط التي تعطي لكل من

الجسد والروح حقه دونما افتئات لحق أي منهما. علمهم سلوك طريق الاعتدال، وحثهم على اتباع سبل الحق والخير والبعد عن سبل الباطل والشر، من أجل استقامة حياتهم وانتظام مجتمعاتهم. ولم يدعهم للغوص في الماورائيات وإدراك ماهية الذات الإلهية التي لم يدرك كنهها أي دين من الأديان، ولم يبلغها عقل من العقول مهما تنامت طاقاته وعلت مداركه. لعل ذلك كان، في تلك الحقبة من التاريخ، رأفة من الله بالناس، للانصراف إلى إصلاح سلوك الفرد والمجتمع وعدم الضياع في أبحاث غيبية ظنية، قسمت الأديان التي تلتهم إلى فرق وشيع يناجز بعضها بعضاً العداء والتكفير (المسيحية والإسلام).

وختاماً، فإنني استناداً إلى آيات القرآن التي تقدم ذكرها فإنني لا أرى في بوذا إلا نبياً مرسلاً، ولا في البوذية كما وضعها (وليس كما يطبقها أتباعه بجعله إلهاً تجسد على الأرض ثم رجع إلى السماء) إلا ديناً سماوياً. ولئن راح البوذيون بعد بوذا يُقدِّسون التماثيل التي حرّمها بوذا، فالعرب بعد نبيهم إبراهيم وابنه اسماعيل اللذين أقاما الكعبة البيت الحرام ليعبد فيها الإله الواحد، أقاموا فيها التماثيل يشركون عبادتها مع عبادة الله الأحد، ولم يسلم دين من الأديان من تدخل البشر في التفسير والتأويل حتى يختلط كلام الله بكلام البشر، ويشوه الأصل، وتغدو الفروع هي المعتمد، وتصبح المذاهب هي الأصول التي يتعبد فيها إلى الله، كل على طريقة فهمه واستيعاب عقله، ومنهج فرقته أو حزبه.

ولعلنا نظلم رسالة بوذا إذا بيّنا فيها نقصاً بالمقارنة بينها وبين رسالة الإسلام التي جاءت على يد محمد بعدها بألف ومائة سنة، والتي كانت خاتمة الرسالات السماوية وكمالها. لكننا نرى موقع بوذا الإلهي المتقدم لدى مقارنته بأنبياء بني إسرائيل كداوود وسليمان وحزقيال وأشعيا وأرميا ودانيال وعاموس ويوئيل... وإذا ما قارناه بشعيب ولوط وهود وصالح.

مقارنة بين بوذا والمسيح

يروي لنا الدكتور أحمد شلبي في كتابه مقارنة الأديان مقارنة بين بوذا والمسيح[١] أخذها عن المراجع التالية:

١ – The Life of Buddha by Edward Thomas, pp. ٢٣٧-٢٤٨.

٢ – Bible Mythology by T.W. Doane, pp. ٢٨٧-٢٩٧.

٣ – The Sources of Christianity by Khwaja Kamal ud-din, pp. ٤٩.

وقد شملت هذه المقارنة اثنين وعشرين بنداً:

بـــوذا	المسيح
١ـــ عـند مولد بوذا ظهر نجم في السماء يبشر به، وقد رؤي هذا النجم يسير نحو مكان مولده، وتبعه من رآه ليسجدوا للوليد.	وعـند مولد المسيح ظهر هذا النجم أيضاً يبشر بمولد المخلِّص، وقاد جماعات المجوس نحو مكان ولادته فرأوا الطفل وسجدوا له.
٢ـــ ولـد بوذا في اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) كما تذكر المراجع الهندية.	ولـد عيسى في الخامس والعشرين من ديسمبر أيضاً.
٣ـ عند مولد بوذا احتفلت الملائكة بولادته وسبحت بحمده قائلة: إن المبارك قد ولد اليوم ليمنح السلام للناس والمسرة للأرض.	وعـند مولد يسوع ظهرت الملائكة في الجو مسبحة في الحقول بالقرب من بيت لحم، وكانت تسبح بحمد (المبارك) وتقول: للناس المسرة وعلى الأرض السلام.
٤ـ كان مولد بوذا خطراً على الملك	وكان عيسى خطراً على الملك

---

(١) مقارن الأديان، دكتور أحمد شلبي، جزء ٢، ص ١٨٣. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

فهدده ملك بنباسارا وأراد قتله، حتى لا يكون سبباً في القضاء على سلطانه.

هيـــرودوس، ولذلك أراد هيرودوس قتله لولا أنه فرّ إلى مصر مع أمه.

٥ ــ وعندما كان بوذا على وشك أن يــبدأ دعــوته ظهــر لــه الشيطان (Mara) ليحاول تضليله.

وعــند بــدء المسيح دعوته ظهر له الشيطان محاولاً تضليله.

٦ـــ قــال مــارا لبوذا: ابتعد عن الدعــوة الدينــية وتصبح امبراطور العالم.

وقــال الشيطان لعيسى: إذا عبدتني سأجعلك ملكاً على العالم كله.

٧ـــ ولم يهتم بوذا بالشيطان مارا وصاح به: ابتعد عني.

ولم يستجب عيسى لكلمات الشيطان وصاح به: اخسأ أيها الشيطان.

٨ ــ بعد أن انتصر بوذا على مارا أمطرت السماء زهوراً وعَبِقَ الهواء بعبير طيب.

وبعد أن انتصر عيسى على الشيطان هبطت الملائكة لعيسى وكرّمته.

٩ــ صام بوذا فترة طويلة.

وصام عيسى أربعين يوماً بلياليها.

١٠ـــ وتعمد بوذا بالماء المقدس، وفــي أثــناء تعميده كانت روح الله حاضرة وكذلك روح القدس.

وعمّد يحيى (يوحنا) عيسى في نهر الأردن، وكان ذلك في حضرة روح الله وروح القدس.

١١ــ تقبل صلاة البوذيين وتقودهم إلــى الفــردوس ما دامت تقدم باسم بوذا.

وتقــبل صـــلاة المسيحيين ما دامت باســم المسيح عيسى وينالون بسببها الفردوس.

١٢ـــ وعندما مات بوذا ودفن شُقّ قبــره بقوة من قوى ما فوق الطبيعة وعاد للحياة.

وعندما مات عيسى ودفن أزاحت قوة مــن قوى ما فوق الطبيعة الحجارة عن قبره، وعاد عيسى إلى الحياة.

١٣ــ وصعد بوذا إلى السماء بعد أن أتم دعوته على الأرض.	وصعد عيسى إلى السماء كذلك بعد انتهاء دعوته على الأرض.
١٤ــ سيعود بوذا إلى الأرض في آخر الزمان ليواصل دعوته ويستعيد مجده، ويملأ الأرض سعادة ونعيماً.	وسيعود عيسى كذلك ليحكم الأرض من جديد وينشر دعوته ويملأ الأرض بالخير والسلام.
١٥ــ سيوكل حساب الناس إلى بوذا بعد البعث.	وسيوكل لعيسى أيضاً أن يحاسب الناس في الدار الآخرة.
١٦ــ بوذا لا أول له ولا نهاية وهو خالد.	وعيسى لا أول له ولا نهاية وهو خالد كالآب.
١٧ــ ويروى عن بوذا أنه قال: إنني أحمل سيئات البشر عنهم ليصلوا إلى السلامة.	وعيسى هو مخلص البشر الذي قدم نفسه ليكفر عنهم خطيئة أبيهم آدم.
١٨ــ ويروى عن بوذا قوله: أخفِ أعمالك الطيبة وأعلن على الناس سيئاتك التي ترتكبها.	ومما علّمه عيسى لتلاميذه أن يخفوا أعمالهم الطيبة ويعلنوا مساوئهم وخطاياهم.
١٩ــ أوصى بوذا أتباعه بالشفقة والحب حتى مع أعدائهم.	وقال عيسى لأتباعه: أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا لمن يبغضكم.
٢٠ــ نصح بوذا حوارييه وأتباعه أن يطرحوا الدنيا جانباً ويتنازلوا عن غناهم ويؤثروا الفقر ليقبلوا في الدعوة.	واشترط عيسى على من يريد دخول دعوته أن يتصدق بماله ويؤثر الفقر ليدخل ملكوت الله.

٢١ـــ كــان هدف بوذا الأسمى أن يكوّن ما سمته الديانة البوذية ملكوت السماء.	وكانــت دعــوة عيسى، منذ مطلع رســالته، أتــباعه لــيدخلوا ملكوت السماء.
٢٢ـ عاش بوذا حياته دونما زواج.	وعــاش المســيح حــياته متبتلاً لم يتزوج.

حرص دين بوذا، كما حرص دين الإسلام، على تعليم أتباعه استعمال فكــرهم في كل ما يعرض عليهم من أفكار، ولا يأخذون شيئاً من المعارف دون أن يناقشــوها مناقشــة عقلية، ويرفضوا أية حقيقة لا تقتنع بها عقولهم. حتــى تعالــيم الــبوذا نفسه، كان يريد أن لا يأخذوها بطريقة تصديقية دون مناقشة واقتناع. وقد ورد في محاورة له مع أحد أتباعه:

«جاء ساريبوتا الوقور إلى حيث كان النبي المعظّم، وحيَّاه وجلس إلى جانبه في احترام وقال:

«مولاي إن إيماني بالنبي العظيم ليبلغ من القوة بحيث لا أظن أن أحداً فــيما مضــى أو فيما هو آت، أو أن أحداً فيمن يعاصروننا، سواء أكان من طائفــة المتجولــين أو طائفة البراهمة أعظم وأحكم من النبي العظيم... فيما يخص الحكمة العليا».

فأجابــه الــبوذا: «كلماتــك عظــيمة جريئة يا «ساريبوتا» الحق أنك بعــبارتك هــذه قد رحت تنشد أغنية كما ينشد النشوان أغانيه! وكأني بك قد عــرفت كل الأنبياء المعظمين فيما مضى... وفهمت آراءهم بعقلك. فعلمت كيف كانوا يسلكون وفيم كانوا يفكرون... وأي ضروب التحرر قد بلغوا؟».

ـ يجيب «ساريبوتا»: لا يا سيدي لم أبلغ من الأمر كل هذا».

ـــ وكأنــي بــك قــد أدركت كل الأنبياء المعظمين الذين سيأتي بهم الزمان»... وفهمت كل آرائهم بعقلك؟».

ـ «لا يا مولاي، لم أبلغ من الأمر هذا».

ـــ «إذاً فلا أقل يا «ساريبوتا» من أن تكون قد عرفتني... وأن تكون قد تغلغلت في ضمير عقلي؟»...

ـ «حتى ولا هذا يا مولاي».

ـــ «إذن فهاأنـــت ذا تـــرى يا «ساريبوتا» إنك لا تعلم أفئدة الأنبياء القـــادرين المتيقظـــين الذين ظهروا فيما مضى، والذين سوف يظهرون في المســتقبل، فلمـــاذا تقول مثل هذه الكلمات الجريئة؟»[1]. يدلنا هذا على شدة تواضــــع البوذا وترفع نفسه عن قبول المديح والإطراء، كما سائر أنبياء الله المرسلين.

---

(١) قصـــــة الحضــــارة، ول ديورنت، الجـــزء الثالث من المجلد الأول، الفصل الرابع، ص ٨٩.

الفصل الحادي عشر

الهندوسيـــة

إن دراسة الديانة الهندوسية تختلف عن دراسة جميع الديانات الأخرى. فالـبوذية تبدأ مع تعاليم بوذا. واليهودية مع موسى، والمسيحية مع المسيح، والإسلام مع محمد. هذه الأديان هي فواصل في تاريخ الفكر الديني؛ يتميز ما بعدها عما جاء قبلها. فهي تصحح ما انحرف مما سبقها من التعاليم السماوية عـن مساره الصحيح، وتقر ما استقام منها. وتضيف إليها تعاليم إلهيّة جديدة اقتضاها تطور الظروف الإنسانية، الفكرية منها والحياتية. ويكون لها طابعها الخاص بها من طرق العبادة والنسك، والتقاليد والمفاهيم وأساليب السلوك... الخ. فهذه الأديان ي رسالات جاءت من عند الله على يد أنبياء مرسلين.

أما الهندوسية، فنرانا في دراستها وكأنما ندرس مجموعة أديان، لا ديناً واحداً. امتزجت في مسمى واحد. نرى وحدانية الإله إلى جانب تعدد الآلهة، واخـتلاط الأسطورة مع الواقع، والإله المتعالي في ملكوته السامي مع الإله العـائش بغرائز البشر على الأرض. ولم تنفصل فيها، بعد، الميثولوجيا عن الـدين، كمـا فصـلت المسيحية عصر الميثولوجيا اليونانية عن زمن الدين المسـيحي. وكما فصل الإسلام عصر عبادة الأوثان وتعدد الآلهة عن عصر عـبادة الإلـه الواحد. فالديانة الهندوسية لم تفصل حقب التاريخ الديني عن بعضـها، رغـم كثـرة الفواصل التي مرت في تاريخ الفكر الديني الهندي، كعصـر الـفيدات، أقدم الكتب المقدسة (القرن الخامس عشر قبل الميلاد).

وعصر الأوبنشدات (القرن السادس قبل الميلاد). وتعاليم الرب المتجسد بشكل إنسان في «البهاجاڤادچيتا».

نرى الكتب المقدسة كتباً تباعد زمن وجودها، كما تباعد الكثير من معانيها. هذا بالإضافة إلى شروحها وفهمها وتطبيقها. فهي تنوع في وحدة، وتراكم تاريخي من المعارف الدينية، تمتد عبر زمن لم يحدد له بداية، فأوصلت إلى عصرنا تراثاً روحياً، من الغنى بمكان، يسمو بالنفس الإنسانية إلى التعالي، ويرقى بها عن غرائزية الجسد، ومادية العيش. يلتقي بها مع الرهبانية في المسيحية ومتصوفة المسلمين. التقت الهندوسية مع المسيحية في تجسد الإله كرشنا كما تجسد المسيح. والتقت معها بالثالوث الإلهي: براهما وفشنو وشيفا، كما الآب والابن والروح القُدس. كما التقت مع الإسلام ومع جميع الأديان الأخرى بالإقرار بالذات الإلهية السامية المتعالية فوق كل وجود مادي، والخالقة والضابطة لكل المخلوقات والعوالم. والإقرار بنظام أخلاقي يتضمّن أرقى ما جاءت به رسالات السماء من قِيَم وقواعد سلوك من أجل صلاح حياة الفرد والمجتمع.

فالهندوسية خليط يشمل الأمور المقدسة والأمور الدنيوية جميعاً. فلا يوجد في الفكر الهندوسي حد فاصل بين الديني والدنيوي. فدين الهند يشمل النواحي الروحية والخلقية والقانونية. وهو نمط تعبّد وسلوك يشمل كافة نواحي الحياة والسلوك الإنساني. وهي إطار عام لكل أبحاث فكرية وروحية غير متزمتة، قابلة للتطور. بإمكان أي فرد، مهما كان دينه، أن يستفيد من تعاليمها دون أن يترك معتقده. تختلط فيها حكمة الحكماء مع وحي السماء. تعطي لكل فرد حق البحث في الأمور الإلهية السامية دون أن تحد من حريته في الإيمان والشك وتحليل أمور الغيب. تعدد فيها الحكماء ودروب الحكمة. يلتقي فيها اللاهوت بالناسوت، والزمني بالديني. ولم يحدث أن تناقض فيها الدين مع العلم. وليس في الهندوسية مؤسس واحد يمكن الرجوع إليه كمصدر

لتعاليمها وأحكامها. فالهندوسية دين متطور ومجموعة من التقاليد والأوضاع تــولدت مــن تنظيم الآريين، لحياتهم جيلاً بعد جيل، ومن احتكاكهم بالسكان الأصــليين بعد أن وفدوا إلى الهند، وما نتج عن ذلك من أفكار وتقاليد غدت عبــر الــتاريخ ديــناً يدين به الهنود ويلتزمون بتعاليمه وآدابه. فهي نتيجة لفلســفات وأفكار نشأت في الهند في مراحل متباعدة من التاريخ، ورسالات ســماوية دعــت لعبادة الإله الواحد المتعالي بين ما هو شائع من عبادة تعدد الألهــة. فجــرت عــبادة الــذات الإلهية المتعالية براهمان إلى جانب عبادة «أنصــاف الآلهة» المتمثلة بالثالوث الإلهي: براهما وفشنو وشيفا، إلى جانب آلهة متعددة تهبط إلى عبادة الحيوان أو الشجر أو الحجر.

فكتاب الــڤيدا المقدس ليس له واضع معين كالقرآن والإنجيل. ويعتقد الهــندوس أنــه أزلــي ليس له بداية، لا بد له من ملهَم قديم قدم الله الملهِم، فمســاحة شبه القارة الهندية الشاسعة، وتعدد لغاتها التي تبلغ ٢٥٠ لغة (كما يقــول غيســتاف لوبون في كتابه حضارة الهند) كان العامل الهام في تعدد أديانهــا؛ فكأنــنا فــي الهندوســية أمام مجموعة أديان في إطار واحد اسمه الهندوسية.

الله في الدين الهندوسي

الآلهــة التي ورد ذكرها في كتب الفيدات عديدة، ولكنها اجتمعت في ثلاثــة آلهــة رئيسية هم: فارونا في السماء، واندرا في الهواء، واغني على الأرض[١].

وظهــر بعــدهم في القرن التاسع ق.م. ثلاثة آلهة، هم براهما وفيشنو وشيــڤا واعتبروهم إلهاً واحداً في ثلاثة أسماء. وقالوا إنه هو الذي أخرج العالم

---

(١) محمد فريد وجدي، دائرة المعارف، ج ٢، ص ١٥٥.

من ذاته، وهو الذي يحفظه، ثم يهلكه ويرده إليه. فهو براهما من حيث هو موجد، وهو فشنو من حيث هو حافظ وهو شيفا من حيث هو مهلك[1].

فبراهمان، الذي اشتق البراهمة (طبقة الكهنة) اسمهم من اسمه، هو اسم الله في اللغة السنسكريتية. وهو عند البراهمة الإله الموجود بذاته، لا تدركه الحواس. ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها، لا حد له، وهو الأصل الأزلي المستقل، الذي منه يستمد العالم وجوده، وجاء في كتاب «السبهاجافاتا بورانا» وهو من الكتب الهندية المقدسة، أن كاهناً توجه إلى الآلهة، برهما وفشنو وشيڤا، وسألهم: أيكم الإله بحق؟ فأجابوا جميعاً: اعلم أيها الكاهن أنه لا يوجد أدنى فارق بيننا نحن الثلاثة، فإن الإله الواحد يظهر بثلاثة اشكال بأعماله من خلق وحفظ وعدم، ولكنه في الحقيقة واحد. فمن يعبد أحد الثلاثة فكأنه عبدها جميعاً، أو عبد الواحد الأعلى[2] (يقارن بالثالوث الأقدس في المسيحية الذي يرمز إلى الإله الواحد).

وفي كتاب «البهاداڤادچيتا» ترقٍّ في فهم الإله، يتميز عمّا تقدم من فهم للألوهة. هذا الكتاب يعتمد للحلف في المحاكم كما يعتمد القرآن والإنجيل. ونستطيع أن نطلق عليه اسم إنجيل الهندوس المقدس. فكما أن إنجيل المسيح هو ما دوّنه تلاميذ المسيح من أقواله وأفعاله، كذلك فكتاب «البهاجاڤادچيتا» هو ما علّمه الإله المتجسد بشكل إنسان «كرشنا» لوليه «ارجونا». فكما أن المسيح (كما في المسيحية) إله تجسد بشكل إنسان، ونزل إلى الأرض ليكمل الرسالة الإلهية ويصحّح ما انحرف من المفاهيم، كذلك تجسد الإله كرشنا بجسد إنسان وعاش حياة عادية كأي كائن بشري. وقد وصفت لنا كتب الهندوس طفولته وشبابه وممارسة حياته كأي كائن بشري، يرعى الماشية،

---

(١) مقارنة الأديان، الدكتور أحمد شلبي، ج ٤، ص ٥٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(٢) محمد فريد وجدي، دائرة المعارف، ج ٢، ص ١٥٤-١٥٥.

ويغازل الفتيات، ويعزف الموسيقى لترقيص زوجات الرعاة وبناتهم. وتزوج الأميرة «روكميني» وبعض النساء الأخريات[1].

بعد هذه الحياة البشرية الزاخرة بالأحداث تجلى الرب لوليه «ارجونا» وأظهر لـه حقيقته بأنه الذات الإلهية المتعالية، تلك الذات التي لا تدرك بالأبصار والحواس القاصرة، وأن الكائن الحي هو واحد من قدرات كرشنا المتعددة، وهو البداية والنهاية لكل مادي وروحي (الفصل السابع، البيت ٦) إليه يسكن من في السموات والأرض فينتظم في عقده، إنه طعم الماء ونور الشمس والقمر، وهو الصوت في الأثير، والمقدرة في الإنسان (البيت ٨). وهو شذى تراب الأرض، والعليم بالماضي والحاضر والمستقبل (بيت ٢٦). وهو القديم والمهيمن والحافظ (بيت ١٠) والخالق والمتشخص والسامي والمنير (بيت ٩). وعندما ينخدع العالم بأشكال الطبيعة المادية الثلاثة: أي شكل الصلاح وشكل الهوى وشكل الجهل، فإن هذا العالم لا يعرفني ولا يدري أني فوقها جميعاً (بيت ١٣). لكن من استسلموا لي يتاح لهم فهم قدراتي المكنونة في هذه الأشكال الثلاثة، عكس من استسلموا لأنصاف الآلهة، إذ تتشوش أذهانهم من رغبات المادة (بيت ٢٠). وباعتباري الذات الإلهية العليا، فأنا في قلب كل فرد كروح عليا (بيت ٢١). ولا يعبد أنصاف الألهة إلا قليلو الذكاء (بيت ٢٣)[2]. وهو الذي خلق لوحده جميع سجايا الخير والشر. ومن قدرته ولد «براهما» ثم الحكماء الأربعة الكبار، والعظماء السبعة، ثم أسلاف الجنس البشري الذين انحدر عنهم هذا الجنس على سطح هذا الكوكب (الفصل ٨، البيت ٦ و٨). ويدخل «كرشنا» في كل الأشياء

---

(١) البهاجافادجيتا ــ ترجمها للانكليزية ــ ا.س. بهاكتي فيدانتاسوامي پرابهوپادا ــ نقلها إلى العربية: الدكتور علي حسون، ص ٤.

(٢) أنصاف الآلهة تلك الآلهة التي يعبدها الهندوس، والتي تتصرف وتدير جميع نواحي الحياة.

باعتباره الروح العليا، كرشنا الذي له شكل كوني. وعندما ألح عليه «ارجونا» أن يتجلى بهذا الشكل، خاطبه الرب المتعالي قائلاً: إنك لن تراني بعينيك الحاضرتين، وإني سأمنحك عينين إلهيتين فضلاً مني. ثم رأى ارجونا ذلك الشكل العجيب الرهيب بأفواهه وعيونه التي لا حصر لها، ورأى الزخرفات والحلل التي يكتسي بها والعطور التي يضمخ بها (البيات ١٠-١٢) وهو ساطع مثل مئات ألوف من الشموس، وقد بزغت دفعة واحدة. ومن شدة السطوع فقد توازنه وسيطر عليه الخوف من هول المنظر، وقال له: «يا رب الأرباب كن رؤوفاً بي». فقال الرب: «أنا الزمان مهلك العالمين، جئت لأشغل الناس جميعاً». فرد ارجونا: «أنت الذات الأصلية، وأنت الله. أنت الحرم الوحيد لهذا العالم الكوني المتجلي، أنت العليم بكل شيء، أنت كل المعلوم وأنت العلي على كل أشكال المادة» (الفصل ١١، البيت ٣٧-٣٨)[١] (قارن هذا مع تجلي الرب لموسى) في التوراة والقرآن.

«البهاجاڤادچيتا» تثبت لنا أن المتعالي «كرشنا» أو «براهمان» هو المسيطر على هذا الوجود ومهما كان الاسم الذي تحب، فهو الأعظم من الجميع. إن الكائنات الحية تجري السيطرة عليها فالرب هو المسيطر على الشؤون العالمية، والطبيعة المادية. فالطبيعة المادية غير مستقلة وتعمل تحت هيمنة الرب المتعالي. وعندما نشاهد حدوث الأشياء المدهشة، علينا أن نعرف أن هناك مسيطر خلف هذه التجليات[٢].

إلى جانب هذا التوحيد للإله، يتعبد الهندوس ويقدسون آلهة لا عدّ لها ولا حصر؛ فلكل مظهر من مظاهر الحياة آلهة. فللنار إلهها، وللأمطار إلهها، وللعواصف إلهها. هذه الآلهة المتعددة تنضوي جميعها تحت لواء الإله الأعظم «براهمان» الذي هو الوجود كله، وهو إله الآلهة جميعها. هذه

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩ و١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨.

الكائــنات التي تدير العالم، وتتصرف بشؤون الناس وجميع مظاهر الوجود deva ترجمها خطأ الدارسون الغربيون للدين الهندوسي بأنها آلهة، متأثرين بالتراث الإغريقي. فهذه «الكائنات النورانية» إن هي إلا «الملائكة» كما في الدينــين المســيحي والإســلامي[1]. فمهمــتها هو تنفيذ أوامر الإله الأعلى «بــراهمان». فالملائكة في الإنجيل يقومون بعملهم تنفيذاً لأمر الله: «يرسل ابــن الإنســان ملائكــته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم، ويطرحونهم في آتون النار» (متى ١٣: ٤١ و٤٢). ويبين القرآن كذلك، أن الملائكــة، هــذه الأرواح النورانــية، إن هي إلا كائنات يدبر الله تعالى هذا الوجود بواسطتها. «**المدبرات أمراً**» فهم «**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مــا يؤمرون**» (التحريم، ٦). فمنهم الحافظون: «**إن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون**» (الانفطار، ١٠) فهم موكلون من الله بحفظ هذه الأكــوان من أكبرها إلى أصغر ما فيها. وهم يحصون على كل إنسان عمله ليلقاه مكتوباً يوم الحساب، لم تترك فيه صغيرة أو كبيرة من أعماله إلا وهي محصــاة. فيقول: «**مــا لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**» (الكهــف، ٤٩). فكل نفس حية جعل الله لها ملائكة تحفظها ما كتب الله لها الحــياة. «**ولــــه معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**» (الــرعد، ١١). فإذا جاء أجلها: «**توفته رسلنا وهم لا يفرّطون**» (الأنعام، ٦١). والرسل هنا هم ملائكة الموت.

كــذلك في الدين الهندوسي، «فشنو» هو الملاك الحافظ. «وشيفا» هو الملاك المهلك والمميت. وتسميهم «البهاجاڤادچيتا» أنصاف آلهة[2]. لتمييزهم عن الذات الإلهية «براهمان» الواحد المتعالي. (الفصل ١٧، البيت الرابع).

---

(١) الحكمة الهندوسية، ريما صعب ورفاقها، ص ٧٠، دار نوفل ــ بيروت، طبعة ثانية.

(٢) تــرجمها إلــى الانكليزية البهاكتي فيدانتا سوامي برابهوبادا في شرح البهاجافادجيتا، أنصــاف آلهــة. وتــرجمتها ترجمة أخرى د. شاكونتالا راواشاستري، أشباه الآلهة. وتــرجمها مؤلفــو «الحكمة الهندوسية» ريما صعب وجورج حلو وروبير كفوري، أرواح نورانية أو ملائكة.

وحدة الوجود

في الهندوسية مدرستان لفهم الألوهة: الأولى هي مدرسة وحدة الوجود تقول بالإله اللاتشخصي الذي هو الوجود بكل ما فيه؛ «براهمان» هو المطلق المتواجد في كل شيء. من عرفه، عرف كل شيء. من اتحد به، قدر على كل شيء. فكتب «الأوپَنشيدات» تقول بأن «براهمان» أساس الكون، متواجد في كل شيء، فكل كائن، وكل شيء، وكل ذرة هي «براهمان». فكل شيء بمعزل عنه فهو وهم أي لا وجود له. فالكون كالحلم، سراب فارغ من كل حقيقة. والحقيقة الوحيدة هي براهمان المطلق اللامحدود.

من الكلمات العظمى التي وردت في تعاليم «الاوبنشيدات» ليرددها من يريد معرفة براهمان ويتخلص من وهم انعزاله عن جوهر الوجود: أنت هو ذاك، وأنا براهمان وكل شيء هو براهمان لا غير» هذه الكلمات التي توحد بين العارف والمعروف ووسيلة المعرفة. يقول كتاب «براهماسوترا»: البراهمان هو الأحد الواحد، المنبع والجوهر الأزلي لكل شيء في الخليقة. هو نور الوعي الصافي المحض. هو لا محدود وغبطة أبدية. «البراهمان» والكون واحد كما أن الموج والبحر واحد. يتموج ويتغير الكون النسبي، وهو مطلق لا يتغير ولا يتجزأ. للكون صفات وهو منزّه عن الصفات. كالطين في الخزف، والخيط في الثوب، والذهب في الخاتم. هو كلي الوجود ولا يوجد شيء خارجاً عنه. «البراهمان» هو ذات الإنسان وذات كل الكائنات. هو الأبدي الطاهر الحر العليم القدير... هو السبب الكلي. هو الذات، هو الوعي الصافي في كل المخلوقات. هو الجوهر الكلي الدائم الغبطة الذي يختلف كل الاختلاف عن الروح الحية الزائلة والمحدودة. البراهمان هو الفضاء والحياة والنور. هو المرشد الداخلي وضابط كل شيء، المميز عن الأنا الفردية المتجسدة. عارف البراهمان يصير البرهمان، أنا البراهمان، أنت ذاك (البراهمان).

يعبـــر الحكيم «شنكرا» عن هذه الأحدية بقوله: «البراهمان منزه عن الصـــفة والخاصية والشكل، لا يدركه الفكر والحواس. كل ما هو نسبي ليس البـــراهمان، وكـــل محاولـــة لـــتحديد هويته محاولة خاطئة. فلا يبقى أمام الأوبنشيدات غير الإشادة إليه بالنفي عبر الصيغة «ليس ذا، ليس ذاك» (ليس كمـــثله شـــيء ــ قـــرآن). واحد أحد منفرد لا يتجزأ... يظهر البرهمان ذو الصـــفات بالـــتحول ولـــيس بالتطور أو التغير، كما في الأساور الذهبية من تحولات الذهب. لأن لا إله ولا شيء إلا هو، وما تعددية الكون في النهاية إلا وهم وسراب ومظهر وجود. هذا الظاهر المتعدد الأشكال هو تمثيل وتصور ينبـــثق من جهل المدرِك. عند زوال الجهل تزول معه ظواهر الخليقة. سبب الجهـــل هو المحددات؛ الفكر والحواس والذاكرة والأنا التي تغطي، كالغيوم، شمس «البراهمان» الأزلي خلف مظاهرها العابرة، بسبب هذا الجهل والتماثل بالمحـــددات تنطـــبع الـــروح الفردية، بواسطة الجسد المرهف، بالاختبارات المخـــتلفة التي تشوّه نظرتها إلى الوجود. تلك هي الحال، مثلاً، عندما يُدرَك الصدف كأنه فضة، أو الحبل كأفعى...

العـــالم الخارجـــي وهـــم من حيث تعدديته وأشكاله. ولكنه حقيقة لأنه «البـــراهمان» مـــن حيث الجوهر... لا شيء يشبه «البرهمان»، ولا شيء يخـــتلف عنه، لأن البراهمان ليس عرضاً لاختيار نسبي، وهو خارج الفئات التجريبية. العالم التجريبي ليس قائماً بذاته، بل يعتمد كلياً على «البراهمان». مع أن التبدلات المادية النسبية لا تؤثر في «البراهمان» الباقي ولا تغيره»[١].

إن هـــذا التفكير القائم على وحدة الوجود، رأيناه لدى بعض المدارس الصوفية الإسلامية. ومثاله «الحلاّج» الذي اعتبر أن الله والوجود واحد، وإنه هـــو (أي الحلاج) هو الله. وبادر الناس بقوله: «ليس في جبتي سوى الله». مما سبب قتله بصفته نطق بالكفر. ويروى من شعره في ذلك مخاطباً الله عز وجل:

---

(١) الحكمة البوذية ــ بتصرف ــ ذكرت سابقاً ــ ص ١٥٩-١٦٤.

عجـــبت مـــنك ومنـــي	أفنيتنـــي بـــك عنـــي
أدنيتنـــي مـــنك حتـــى	ظنـــنت أنـــك أنـــي

الإله التشخصي

هـناك لدى الهندوس مدرسة أخرى، هي مدرسة الإله التشخصي (أي الذي له كيان ذاتي مستقل عن خلقه، كما في الأديان الإبراهيمية).

ورد في الفصل الثاني عشر من «الباهاجافادجيتا» البيت الأول: يسأل (ولي الله) أرجونا للرب المتجسد كرشنا: من يُعَدّ الأكثر كمالاً من بين أولئك المنشغلين بالقنوت لك كما ينبغي، وأولئك العابدون «لبراهمان» اللاتشخصي غيـر المتجلـي؟ قالـت الذات الإلهية المتعالية: من ركّز ذهنه على شكلي التشخصـي، وانشغل دوماً في عبادتي، في إيمان كبير ومتعالٍ فإني أعتبره الأكثر كمالاً. (البيت ٢)[١].

إن ترقّـي أولـئك الذين تعلقت أذهانهم بغير المتجلي وهيئة المتعالي اللاتشخصـية، لهو عسير للغاية. وتحقيق تقدم في مفهوم غير المتجلي، ذلك في غاية الصعوبة نسبة لما هو مجسّد. (البيت ٥). إلا أن أولئك الذين يعبدون غير المتجلي تماماً (غير المتشخص) من يقع وراء إدراك الحواس، الساري في الجميع، ومن لا تدركه الأبصار، الثابت الراسخ، وذلك بكبحهم إحساساتهم المتـنوعة. وبكونهم متخذين موقفاً ودياً في كل مكان، مثل هؤلاء الأشخاص منشغلون في سعادة الجميع، فهم في النهاية يبلغونني. (البيتين ٣ و ٤)[٢].

---

(١) نجد أن الرب كرشنا يخطئ اللاتشخيصيين، ولكنه لا يكفرهم. ويعدهم بالخلاص. من هنا نجد روح التسامح بين الطوائف الهندوسية وتعايش جميع مذاهبها الفكرية.

(٢) الـبهاجاڤادجيتا ـ ترجمته إلى الانكليزية د. شاكوانتالا لاراواشاستري ـ ترجمه إلى العربية: رعد عبد الجليل جواد، الفصل الخامس، البيت ١٨.

والآن، نقــرأ شرح أحد أكبر حكماء الهندوسية البهاكتي فيدانتا سوامي برابهوپادا الذي لـــه عشرات المؤلفات التي ترجمت إلى إحدى عشرة لغة من لغـــات العالم. والذي يُعدّ أكبر ناشر عالمي في مجال الديانة والفلسفة الهندية في القرن العشرين، والذي يعد شرحه «للبهاجاڤادچيتا» من أهمها، حيث نقله إلـــى الانكليـــزية التـــي تـــرجمها الدكتور علي حسون إلى العربية: «تُدعى مجمـــوعة رجال الغيب، المتتبعين طريق اللاتصوريين وأصحاب مبدأ الرب المتعالـــي اللاتشخصي (وحدة الوجود) بذوي «الجنانا ــ يوغا». كما يدعى المنشـــغلون فـــي القـــنوت للـــرب، ومن هم في وعيه (التشخصيون) بذوي «البهاكتي ــ يوغا...» ورغم أن عملية جنانا ــ يوغا، في عبادة الذات تأتي بالفرد إلى الهدف ذاته، إلا أنها عسيرة للغاية. بينما طريق عملية بهاكتي ــ يـــوغا فـــي عـــبادة الذات الإلهية المتعالية المباشر، طريقها سهل وطبيعي. فالـــروح الفـــردية (روح الإنســـان) متجسدة منذ زمن ممعن في القدم، ومن الصـــعب عليها، نظرياً وببساطة، أن تفهم أنها ليست هي الجسد. وعلى ذلك يقـــبل البهاكتـــي يوغـــي ألوهية «كرشنا» كمعبود لوجود شيء من المفهوم الجسدي العالق في الذهن، والذي يمكن لـــه بالتالي أن يطّبق. وليست عبادة الـــذات الإلهـــية في شكلها المتجسد داخل المعبد بعبادة صنم، فعبادة الله في المعـــبد حيث يتمثل الرب بصفات مادية، لكن جوهره في الواقع ليس مادياً، حتـــى لو مُثّل بصفات مادية كالحجر والخشب أو الدهان الزيتي، وتلك ليست طبيعـــته المطلقـــة... وبالتالـــي، فـــلا عائق أمام نصيره في سلوكه الحالي والمباشر لمنهجه. في حين تبدو وعورة في الطريق أمام من يتتبعون المسلك اللاتشخصي للتحقق الروحي. وعليهم إدراك ممثل المتعالي غير المتجلي من خـــلال «الأوبنشادات»، تلك الآداب الفيدية. كما ينبغي عليهم تعلم اللغة وفهم الشعور غير المدرك بالحس، وإدراك كافة العمليات. وليس هذا بالأمر السهل بالنســـبة للرجل العادي. لكن من هو في وعي كرشنا، المنشغل بخشوع في عبادته، تحت إرشاد معلم روحي ثقة، ومن يؤدي له الاحترام المنظم اللائق،

وأكله بقايا ما يقدم لـــه من أطعمة، فإنه يدرك الذات الإلهية المتعالية بمنتهى السـهولة. وممـــا لا شـــك فيه، فاللاتشخصيون سلكوا طريقاً شاقاً من غير ضرورة وسط مخاطر عدم إدراكهم الحق المطلق في النهاية القصوى. إلا أن التشخصي يسلك الطريق إلى الذات المتعالية (تدعى هذه العملية الاستسلامية، بهاكتي) بدلاً من تكبّده عناء محاولة فهم ماهية براهمان أو ما ليس ببراهمان. مـبدداً حياته بأكملها في هذا الطريق. فستكون نتيجة ذلك تكبداً للمشقة حقاً. وهنا فإنه ينصح، بناء على ذلك، أن لا يتخذ المرء طريق هذا الإدراك الوعر هذا لأنه طريق غير يقيني في نتيجته النهائية.

والكائن الحي من حيث الأبدية روح فردية. وعليه إذا ما أراد الاندماج فـــي الكل الروحي أن يحقق إدراك الأبدي، وجوانب طبيعته الأصلية الذكية الغيبية. إلا أن الجانب المؤدي إلى السعادة غير مدرك. وقد يريد رجل ببركة الأنصـــار إلـــى القنوت للرب «بهاكتي ــ يوغا» وهو عالي الثقافة ويمارس «الجـــنانا ــ يـــوغا». وعـــندها تصبح ممارسته اللاتشخصية الطويلة أيضاً مصدراً للإزعاج، لأن من يقوم بها لا يتمكن من أن يتخلى عن فكرته. وعلى ذلــك فالروح المتجسد دوماً في متاعب مع غير المتجلي في زمن الممارسة، وفي وقت الإدراك، وكل روح حية مستقلة جزئياً. وعلى المرء أن يعلم يقيناً أن إدراك غيـــر المتجلي معاكس لطبيعة نفسه المتنعمة روحياً. والأفضل هو انشغال كل كائن حي في وعي كرشنا تماماً أثناء قنوته. وإذا ما أراد تجاهل هـــذا القـــنوت فإن خطر تحوله إلى الإلحاد يكون ماثلاً. ونجد أن الناس في العصر الحديث، حيث مثل هذه الأهمية قد احتلتها الفلسفة المجردة، قد تحولوا إلـــى الإلحاد بأعداد غفيرة. وعليه فلن تكون عملية تركيز الانتباه على غير المتجلـــي الـــذي لا تدركه الأبصار، والذي يقع وراء نطاق الحس، لن تكون مشجعة في أي وقت كان، ولا ينصح بها الرب كرشنا. إن من يفكر دائماً في كرشـــنا في قرارة نفسه يعد الأكثر كمالاً من بين اليوغيين. لذا يتوجب على

المـــرء التعلق بشكل كرشنا التشخصي، لأن ذلك التعلق هو الإدراك الروحي الأرقى»[1].

هـــذه المدرســـة اللاتشخصـــية التـــي توحد بين الله والوجود المادي المتشـــخص والمـــتعدد المظاهر والأشكال في كل واحد غير متجزئ، رأينا شـــبيهاً لهـــا، كما مرّ معنا، في بعض فرق الصوفية الإسلامية. أما المدرسة الأخرى التشخصية التي تعبّر أنّ الله له كيان مستقل يسمو ويرتقي على جميع خلقه، فهذه تلتقي مع الإسلام بنظرتها للألوهة. لكنها تفترق عنه بإيمانها بأن هـــذا الإله المستقل عن خلقه، يتجسد بجسد إنسان، كما تجسد الإله «كرشنا» وينـــزل من ملكوته (السماء الروحية الأبدية التي تبلغ ثلاثة أضعاف سمائنا الماديـــة) الفانية[2]. رحمة بعباده ومحبة لهم، وتواضعاً من جلاله، ليعلمهم، وبشـــكل مباشـــر، التعالـــيم الإلهـــية التي ترشدهم إلى طريق الصلاح الذي يوصـــلهم إلى ملكوته الخالد، لينعموا بقربه، وينالوا السعادة الدائمة، ويرتعوا في نعيم الله الأبدي.

هـــذا المفهوم التجسدي للإله، ومبرراته، نجده لدى الكنائس المسيحية كافة. وهو جوهر وأساس العقيدة المسيحية. فلا مسيحية بدون الاعتقاد بتجسد المســـيح الإله الذي نزل من ملكوته إلى الأرض بجسد إنسان. وبرهن للناس عن ألوهيته بما قام به من طرد الشياطين، وشفاء المرضى، وإحياء الموتى. وأعطى لتلاميذه التعاليم الإلهية التي دونت في الأناجيل. وكان سلوكه القدوة والمثال الأعلى للصالحين والقديسين الذين جهدوا لسلوك الطريق المؤدي إلى الوصول لنيل رضى الرب ودخول ملكوته الأبدي.

---

(١) الـــبهاجاڤادچيـــتا ــــ ذكـــر ســـابقاً، ص ١٨٢-١٨٤، (شرح بهاكتي فيدانتاسوامي پرابهوپادا).

(٢) البهاجاڤادچيتا ــــ ترجمة د. علي حسون، ص ٢٥، سبق ذكره.

وليس «كرشنا» هو الإله الأوحد المتجسد في الهند. فهو التجسد الثامن للإلـــه «فشنو»، ففي الهند هنالك صور وتماثيل لتجسدات آلهة كثيرة كبرهما وفشـــنو وشـــيفا... «وليس ما يضير من أن يتمثل الرب بصفات مادية، من تماثيل حجرية أو خشبية أو صور زيتية (كما يرى شارح البهاجاڤادچيتا العالم الهندوسي الكبير سوامي پراپهوپادا) فهذا يقرب فهم الذات الإلهية من عقول العامة، ويبعدها عن التشتت الذهني، ويجنبها الوقوع في الإلحاد، بسبب عدم تمكن طاقاتها العقلية المحدودة من استيعاب فهم الذات الإلهية المطلقة».

وعلى هذا النحو نحت الكنيسة المسيحية الكاثوليكية، وسمحت بتصوير الله (لـــيس المسيح). ولا زلت أذكر من أيام طفولتي صورة الله التي وزعها علـــى أبناء صفنا (الأول الابتدائي) كاهن رعية بلدتي الكاثوليكي. فانتزعت مـــن ذهني، يومها، صورة مشوشة كنت قد ابتدعتها في مخيلتي الطفلة للإله الـــذي لـــم أره، لتحل محلها صورة ذلك الكهل ذي الجبين الوضاء والخدود المـــورّدة النضـــرة، والعينيـــن الصافيتين المشرقتين بالود والحنان، واللحية الســـوداء يشوبها قليل من الشيب، يزيد ذلك الوجه كمالاً ووقاراً. لا شك أن تلـــك الصورة كانت من ابتداع فنان ماهر، جعل لذلك الوجه التخيلي لله عز وجـــل جاذبية وسحراً استحوذا على عواطفي كل الاستحواذ، وبعد أن أمعنت الـــنظر فـــي تلك الصورة، بكل جوارحي، لم أتمالك عن تقبيلها وضمها إلى صدري، كما فعل جميع زملائي في الصف. ثم وضعتها بين صفحات كتابي، لأتبرك بها، وأسعد بالنظر إليها بين الفينة والفينة. وأحسست بسعادة غامرة. فالله الذي حدثني عنه أبي، وحدثتني عنه أمي، هو في حوزتي، وبين صفحات كتابـــي، وفـــي حمّال كتبي. وأنا أحبه، ولا شك عندي أنه سيحبني. وعندما رجعت إلى البيت، كانت أول مبادرة لي هي أن أخرجت الصورة من كتابي وناولتها لأمي لتسعد برؤيتها كما سعدت. ولتشاركني فرحتي بمشاهدة صورة الـــرب. بادرتهـــا بـــالقول، وأنا بغاية السرور: انظري. وناولتها الصورة. فابتســـمت لـــي ابتسامة مليئة بالحنان، ولم تقل شيئاً. لكنني تعجبت، لماذا لم

تبادر أمي إلى تقبيل صورة الرب وضمها إلى صدرها، كما فعلت أنا، وهي التي كانت تعلمني أن أحب الله، ولا أعمل ما لا يرضيه لأنه يحبني؟

لكـــن الـــذي نغّـــص غلي فرحتي هو أخي الأكبر، وقد كان يكبرني بسنوات عشر، عندما بادرني بقوله: هذه ليست صورة الله. فالله في السماء، ولا يمكن لأحد أن يصل إليه ويأخذ له صورة.

أثار هذا الكلام الشك في نفسي، لكنه لم يكن مقنعاً لي بحيث أبادر إلى رمـــي الصورة أو تمزيقها. بل حرصت على أن أبقيها بين صفحات كتابي، وأنا بين الشك واليقين. ولم أعد أذكر لا متى ولا كيف خرجت تلك الصورة من حمّال كتبي.

مثال ذلك الطفل هو مثال جميع الشعوب في طفولتها. فهي لا تستطيع عـــبادة إلـــه غير مرئي، وغير متجسد. فمن قراءة التوراة والقرآن نرى كم عـــانى رســـولا الله موسى ومحمد من المشقة والعذاب، جراء دعوة قوميهما للتحول عن عبادة الآلهة المتجسدة بأصنام وأوثان، إلى عبادة الله الخفي عن عالمنا المادي، الذي «**ليس كمثله شيء**» (قرآن). والذي لا يجوز تمثيله، في اليهودية والإسلام، بأية صورة مادية.

يقـــول غـــاندي: «الله شـــخص لمن يلزمهم حضوره الشخصي، وإله متجســـد لمن يلزمهم لمسه... يكفي المؤمن أن الله موجود. هو كل شيء لكل إنسان. هو فينا، لكنه أعلى منا، وأبعد...»[1].

وســـماح البابوية بتصوير الله تعالى في تلك الصورة البشرية المحببة، ما هو إلا اجتهاد لتقريب فهم الله إلى عقول الأطفال الذين لا تستطيع عقولهم، بحـــال، فهـــم الإله الغائب عن حسهم. ولم يكن هذا الاجتهاد مناقضاً لمفهوم التجسد في المسيحية.

---

(١) غاندي رسول اللاعنف ــ ليوحنا قمير، ص ٧٥، منشورات دار المشرق.

فـــالخلاف في فهم الإله بين الهندوس واليهود والمسيحيين والمسلمين ليس خلافاً في الفهم الموضوعي لله تعالى. فالجميع يؤمنون بوجود إله خالق ومدبّــر لهذا الوجود. لكن خلافهم يعود إلى الفهم الذاتي لله عز وجل الذي لا تــتطابق عليه المفاهيم الفردية ولا الجماعية. ويبقى لكل دين فهمه الخاص، ولكـــل عصـــر فهمه الخاص، بل يبقى لكل فرد في الجماعة الدينية الواحدة فهمـــه الخـــاص به، وفق مستوى ثقافته الخاصة، وإمكاناته العقلية، وطاقاته التخيلية (راجع فصل معرفة الله جل جلاله). ويقول الرب المتجلي «كرشنا»: «لا يعرفني أحد كما أنا»[1].

فكمـــا تعتبـــر المسيحية أن الآب والابن والروح القدس هم إله واحد، كـــذلك يعتبـــر الهـــندوس أن جميع الآلهة، ما هي إلا صور وتجليات للذات الإلهية الواحدة المتعالية «براهمان».

فلسفة الهندوسية

لا تختلف الهندوسية، في جوهرها، عن الأديان الإبراهيمية، من حيث تحديدها لدور الإنسان في هذه الحياة؛ فالله الواحد الأحد يدير هذا الوجود عبر الملائكـــة deva. وهـــذه كائـــنات نورانية لا تعمل إلا الخير لصالح الإنسان بتقريبه من الله خالقه. مقابل قوى الخير هذه هنالك قوى الشر والظلام asura أو الشياطين، الذين تتعارض مهماتهم مع مهمات الملائكة ويعملون ما وسعهم لإغواء البشر وإبعادهم عن مصدر وجودهم. والإنسان المبتلى في هذه الدنيا، مخيّر بين اتباع هؤلاء أو أولئك.

والـــنفس الإنسانية أو الروح أو الذات البشرية atman هي من جوهر «البراهمان» الذات العليا. وهي في انفصالها عن «البراهمان» تعيش في قلق دائـــم، وعذاب مستمر. ولن تبلغ سعادتها إلا بالعودة إلى مصدرها، واتحادها

---

(١) البهاجاڤادجيتا ــ ص ١٢٧ ــ سبق ذكره.

بالـذات المطلـق. كما تتحد قطرة الماء بمياه المحيط. وسبيلها إلى ذلك هو خضوعها للقانون الكوني العام «دهارما dharma» المكون من مجموعة من السنن والواجبات، أو التعاليم الإلهية. فالتماشي مع هذا القانون يوصل النفس الإنسـانية إلـى السعادة الدائمة والهناء الذي لا يزول. والخروج عنه شر لا يؤدي إلا إلى العذاب والآلام.

وهذا القانون الكوني (دهارما dharma) يفرض على الإنسان واجبات تحكم تصرفاته، وتحدد أخلاقه ومنهج سلوكه، منها: اللاعنف وحب الكائنات، وضـبط الفكـر، والتواضـع، والاستقامة والشفقة، والصدق، والامتناع عن السـرقة والقتل، والرضا، والتصدق، والعطاء، والنظافة، وممارسة الفرائض الـروحية، ونبذ الشهوات، وكبت الغرائز، وعدم ارتكاب الزنى، وعدم شرب الخمر وأي مسكر، وعمل كل ما يؤدي إلى تحسين سلوك الإنسان مع الناس الآخرين، ومع جميع المخلوقات، ومع الطبيعة.

قانون الكارما أو جزاء الأعمال Karma

جـاء في كتاب «يوجا واسستها»: ليس في الكون مَكان ـ لا الجبال، ولا الـبحار، ولا الجنات ـ يفرّ إليه المرء من جزاء أعماله، حسنة كانت أو سيئة[١] فلكل فعل جزاء، إن خيراً فخير أو شراً فشر. فالإنسان حر أن يفعل الخير أو يفعل الشر؛ أي ما هو موافق أو معارض لهذا القانون الكوني. كل فعـل يثيـر في الطبيعة ردّ فعل موازياً أو مطابقاً لنوع الفعل. فالإنسان سيد مصـيره، إلا أنـه يحصد ما يزرع. فإذا كان الفعل إيجابياً يكون رد الفعل إيجابـياً، والعكس صحيح. يرتد الفعل على فاعله، إما بطريقة فورية، أو بعد مـرور فترة من الزمن، تطول أو تقصر حسب نوعية الفعل وقوته. والموت لـيس فراراً من هذا القانون الأبدي، لأن الإنسان مرغم على ولادات جديدة

(١) مقارنة الأديانه، ج ٤، ص ٦٤، سبق ذكره.

بسبب أفعاله الماضية وما تبقى له من ديون كرميه. كل الصفات التي يتميز بهـا الفـاعل لدى ولادته، وخلال حياته، كل ما يرغب فيه أو يفر منه، هو نتـيجة أعماله السابقة وما تركته من انطباعات وميول. الغنى والفقر، العلم والجهـل، الصـحة والمرض، كلها نتيجة الأفعال الماضية. فالإنسان صورة طـبق الأصـل عن ماضيه. كما تزرع تحصد. هذا هو مبدأ الخالق العادل، وهـو مـن صميم العقيدة الهندوسية، يخطئ المجرم إذا ظن أنه يستطيع أن يـنجو مـن ردود فعـل أعماله من خلال الانتحار أو السفر بعيداً من مكان الجريمة[1].

فالهندوسـي الملتزم بدينه وبوجوب العمل الصالح والبعد عن الأعمال السّـيئة يـتقرب إلـى ربه بالصلاة ثلاث مرات في اليوم، في منزله أو في المعـبد. ويلـزم لكل صلاة أن يكون نظيف الثوب والبدن. ويتخذ أمام إلهه جلسة خاصة فيها الكثير من الخشوع. ولا يطول وقتها في العادة إلا لأولئك الذين لهم مطلب يرجون من الإله العون على تحقيقه فيرفعون صلاتهم بشيء من القربان مع الاستغراق في التوسل والخشوع.

تناسخ الأرواح

سـبب التناسخ أو تكرار المولد هو أولاً: أن الروح خرجت من الجسم ولا تـزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد. وثانياً: إنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة في علاقاتها بالآخرين، لا بد من أدائها. فلا مناص من أن تستوفي شهواتها في حياتات أخرى، وأن تنال ثمار أعمالها التي قامت بها في حياتها السابقة[2].

---

(١) الحكمة الهندوسية، ص ٩٩، ذكرت سابقاً.

(٢) ثقافة الهند ووجهاتها الروحية، بروفسور اتريا، ص ٤٢.

فالنفس تتقمص جسداً جديداً في عودتها إلى الحياة ثانية، بعد أن يكون الجسد الذي لبسته في حياتها الأولى قد مات. فترجع وتحصد ثمار أفعالها الماضية. فطالما لم يبلغ الإنسان الخلاص من الجهل ومن الأنا، تبقى نفسه تنتقل من جسد إلى جسد آخر حاملة أثقال ما قامت به من أعمال حسنة أو سيئة في ولاداتها السابقة. تعود إلى جسد وعائلة وبيئة وفرص أفضل أو أسوأ على قدر ما تستحق. يقول نشيد المولى (Bhagavad gita): «يعبر ساكن الجسد إلى آخر عبوره من الطفولة إلى الشباب فالهرم... وكما يخلع إنسان ثياباً بالية ويرتدي ثياباً جديدة، كذلك يخلع قاطن الجسد أجساداً بالية ويرتدي أجساداً أخرى جديدة».

قد تولد النفس ثانية فور موتها، أو بعد حقبة من الزمن تقيم خلالها في حالة من النعيم أو الجحيم حسب ما أتت في حياتها من خير أو شر، تستريح فيها راحة الإنسان خلال النوم... بعد هذه الحقبة تعود النفس إلى جسد جديد. أما الأرواح التي بلغت درجة عالية من الكمال والصلاح، وارتقت عن التعلق بهذه الحياة المادية، وتخلصت من أنانيتها وشوائبها وأخلصت عملها للذات الإلهية المتعالية، فهي لن تعود إلى تكرار الولادات والميتات بل تتحد نهائياً بالأحدية المطلقة.

والبهاجاڤادچيتا[1] توضح طريق الوصول إلى الله والتخلص من تكرار الولادات بسلوك طريق الخير والبعد عن الشر، يقول الرب كرشنا لوليه ارجونا:

العمل المنظّم المجري دون تعلق بحب أو كره، وبلا رغبة في الجزاء (الاستفادة من نتيجة العمل في هذه الحياة) فهو في شكل الصلاح (الفصل ١٨ -٢٣).

---

(١) البهاجاڤادچيتا ــ ترجمة علي حسون، ص ٢٣٠.

يســـتطيع الـــرجل بعبادته الرب، مصدر جميع الكائنات والساري فيها جميعاً، أن يصبح كاملاً عمله (١٨-٤٦).

يمكـــن للمـــرء حقاً أن يحصل على نتيجة إنكار الذات بضبط النفس، وعـــدم الارتـــباط بالأشياء المادية، ونبذه متعها، وتلك هي المرحلة الأرقى لنكران الذات (١٨-٤٩).

يكون المرء طاهراً في ذكائه، وبسيطرته بعزم على ذهنه، وبتخليه عن مـــدركات إرضاء الحس، ويكون طليقاً من التعلّق بهذه الدنيا، ومتحرراً من الكـــراهية، ومســـيطراً علـــى جسده وغرائزه، وطليقاً حراً من الأنا والقوة والعجـــب، الـــزائفة جمـــيعها، ومن الشهوة الجنسية والغضب، والرغبة في الأشياء المادية، يكون بالتأكيد قد ارتقى إلى مقام إدراك النفس (١٨-٥٣).

فمـــن أقـــام في السمو، يدرك «براهمان» المتعالي في الحال، ويصبح مفعمـــاً بالـــبهجة. ومن لم يرغب في تملك أي شيء، ويفعل الخير لكل كائن حـــي، فإنـــه فـــي هذه الحالة يحقق عبادة طاهرة ورعة إزائي (١٨-٥٤). يستطيع المرء فهم الذات الإلهية كما هي عن طريق العبادة الخاشعة. وعندما يكون في الوعي التام للرب المتعالي في مثل هذا الخشوع، يتمكن من الولوج إلـــى مملكـــة الله. (١٨-٥٥). وتوكل دائماً عليّ من أجل نتائج كل أفعالك، واعمـــل دائمـــاً تحت حمايتي، تكن واعياً لي تماماً بمثل هذه العبادة الخاشعة (١٨-٥٧).

فـــلا تعجب إذا رأيت إنساناً يعيش حالة بؤس وألم، أو يعاني من فقر مدقع أو مرض مقعِد، أو تشوهاً في الخَلق، أو كساحاً، أو عمىً أو صمماً أو أي عاهة من العاهات. لأن ذلك هو جزاء استحقه من جراء سلوكه السيئ في حـــياة ســـابقة. ولـــئن شاهدت إنساناً ينعم برفاه العيش وكمال الجسد وجمال الخلقـــة، وسعة العلم، ووفرة الرزق، وسعادة الحياة، فاعلم أنه قد نال ثواب عملـــه الخيّـــر في حياة سبقت هذه الحياة. والثواب والعقاب يكونان في هذه

الدنــيا. والثواب الكامل الذي يوصل إلى السعادة التامة يكون بالوصول إلى ملكوت الرب. وقد يشتد العقاب حتى يجازى الإنسان السيئ بحرمانه من أن يــولد ثانية بجسد بشري، فيتقمص جسد كلب أو قرد أو أفعى أو نبات. لذلك يحــرِّم الهندوســي قتل الحيوانات أو أكل لحومها، لأنها ربما تكون أرواحاً بشــرية قد مسخت في أجساد حيوانية نتيجة لسوء أعمالها في حياتات سابقة. مــن هذا القبيل، ومن مفهوم تناسخ الأرواح وإمكان تقمص أرواح البشر في جسد حيوانات يخص الهندوس البقرة بالتقديس والإجلال. ونقل الدكتور شلبي فــي كتابه، مقارنة الأديان، ج ٤، ص ٣٤، عن مجلة Bhavan's Journal سنة ١٩٦٣ التي تصدر في بومباي بالهند وفيه صلاة إلى البقرة:

أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء،
في كل مظهر تظهرين به، أنثى تدرّين اللّبن في الفجر
وعند الغسق، أو عجلاً صغيراً، أو ثوراً كبيراً،
فلنعدّ لك مكاناً واسعاً نظيفاً يليق بك، وماء
نقياً تشربينه، لعلك تنعمين بيننا بالسعادة.

وعن المجلة نفسها ينقل رأياً في البقرة للمهاتما غاندي:

«وأمــي البقــرة تَفْضُــل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضــعنا مــدة عام أو عامين، وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكــن أمــنا البقرة تمنحنا اللبن دائماً، ولا تتطلب منا شيئاً مقابل ذلك سوى الطعــام العادي. وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة. ولكن أمنا البقرة فلا نخسر عليها شيئاً ذا بال. وعندما تموت الأم الحقيقية تكلفنا جنازتها مبالغ طائلة. وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حية، لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها، حتى العظم والجلد والقرون».

وقد تأثرت بعض الفرق الإسلامية بهذه المفاهيم، فمنها من قال بتقمص الأرواح أجســاداً بشرية من أجل أن يتكمل ابتلاؤها من الله عز وجل ليتقرر

مصيرها في الآخرة، فتبتلى بعدّة تقمصات، أو دورات حياة، بحيث يتم امتحانها بجميع أنواع العيش: من غنى وفقر وصحة ومرض ورفعة وهوان... وما التقمص إلا فرصة تعطاها النفس الإنسانية لتحقيق ذاتها، والفوز برضى الله، ولا يكون لها على الله حجّة يوم القيامة. «**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها**» (الإسراء، ٧). «**وما الله بغافل عما تعملون**» (البقرة، ٧٤).

جاء في كتاب الملل والأهواء والنحل[١]: «افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين، فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت. وهذا قول أحمد بن حافظ وأحمد بن ناموس تلميذه، وأبي مسلم الخراساني، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب الذي صرح بذلك في كتابه المرسوم «العلم الإلهي» وهو قول القرامطة. وقال الرازي في بعض كتبه: لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمة إلى الأجساد المتصورة بصورة الإنسان إلا بالقتل والذبح لما جاز قتل شيء من الحيوانات أو ذبحه».

الطبقية في الهندوسية

يتكون المجتمع الهندي من طبقات أربع، لكل منها مهمة خاصة بها. هذه الطبقات ليست عنصرية، كما نجد في بعض المجتمعات الأخرى. فالطبقية في الهند تقوم على أساس توزيع العمل وأدوار وخدمة المجتمع. هذه الطبقات الأربع هي:

---

(١) الفصل الأول في الملل والأهواء والنحل، ج ١، ص ٩٠ (عن مقارنة الأديان، ص ٦٩).

١ ــ أهــل الحكمــة «الــبراهمة» Brahmana وهــم طــبقة رجال الدين والمرشــدون الروحــيون. مهمــتهم درس أســفار «الفيدا» المقدسة، وتعلــيمها، ومــباركة تقديــم القرابين التي لا تقبل من الناس إلا عن طــريقهم. يقومون بتأدية المراسيم الفيدية. يدرسون نصوص الحكمة، ويمارســون التقشــفات والــتأملات. على البرهمي أن يتسم بالرضى والاستقامة والزهد في الممتلكات وقلة الطعام والكلام.

٢ ــ أهــل السلطة الكشترية Kshatriya. وهم الملوك والأمراء والمحاربون والموظفــون الإداريون. مهمتهم المحافظة على النظام وإقامة العدل، وتكــريم أهــل الحكمــة وطاعتهم. وتطبيق القوانين، ومنع الفوضى والفساد. وعلى الأمير أن يتسم بكرم الأخلاق والشرف والنبل والجود والشجاعة. وعلى الجند احترام الملك وإطاعة أوامره. وعلى الملك أن يحكم بالعدل ويكون صديقاً للضعيف.

٣ ــ أهل المال، الويشية Vaishya. وهم التجار والصناعيون وأرباب العمل والعمــال والفلاحون والحرفيون... «على التجار منهم معرفة قوانين الــتجارة ونظــم الــربا ومعــرفة المصالح الشخصية والعامة وعلى المزارعين معرفة كيف يبذرون الحبوب ويفرقون بين الأرض الجيدة والأرض الرديــئة». هذه الطبقة هي المسؤولة عن النظام الاقتصادي في البلاد.

٤ ــ أهــل الخدمــة: الشودرا Shudra وهم طبقة الخدم. المكرّسون لخدمة الطــبقات العليا. ينبغي على هذه الطبقة الإخلاص في خدمتها. «يجب علــى الشودري أن يمتثل امتثالاً مطلقاً أمر البراهمة. ولا يجوز لــه جمــع ثروات زائدة. ولا يجاز له التطاول على أبناء الطبقات الأعلى منه. بل عليه أن يظل على تواضعه وبساطة تفكيره، وطاعة أسياده.

هــذه الطبقات الأربع ليست مغايرة لتكوين المجتمعات البشرية في أي زمن، يفرضها واقع الحياة. لكنها في الهند مفروضة بموجب نصوص دينية. وهي مقفلة.

اليوغا

اليوغا هي طريقة تعبدية يتبعها المتدينون الهندوس للسيطرة على الفكر ولــبلوغ الإشــراق بــتجاوز وهم العالم maya للوصول إلى أحدية الوجود، بواســطة مجموعة متسلسلة من التمارين الروحية والجسدية، بهدف الخروج مــن عــالم الظواهر والتعددية إلى الأحدية المطلقة. وهذا هو الخلاص من تكرر الولادات والوصول إلى السعادة المطلقة أو النرفانا.

ظهــر الــيوغا لأول مــرة في نصوص الأوبنشادات القديمة كطريقة لتخلــيص الروح من عذاب الارتحال samsara، ثم تكرر الأمر بها في نشيد المولــى gita: «يظهر الفرد وكأنه مركّب من اربعة عناصر مقارنة بعربة الــنقل: العربة (الجسد) تقودها الأحصنة (أعضاء الحواس والعمل) يرشدها الحــوذي (الفكر). والروح المحمولة بهذه العربة تتعذب، في رحلة لم ترغب فــيها، ولــيس لها أية سلطة على العربة. اليوغا هو الطريقة المعتمدة التي تســمح للفكــر بفهــم بؤس المسافر، وبالتالي وقف رحلة العربة لكي تتمكن الــروح مــن المغــادرة... يحاول الإنسان المستنير الذي وعى حالة روحه البائسة، ضبط الأحصنة المربوطة إلى العربة حتى يتمكن أخيراً من توقيفها نهائياً. وهذه حالة فريدة لأن الجري هو بلا توقف، وإن كانت العربة تختلف مــن حياة إلى أخرى، فيستغل «ألاتمان»[١] هذه الفرصة الفريدة للتخلص من حالــة المســافر غير الاختياري. هذا هو كل برنامج اليوغا، ونرى المكانة العالــية للفكر البشري في هذا العالم. من هنا تكون التمارين الجسدية، التي تمــارس فــي بعــض بلاد الغرب، عديمة القيمة إلا بمقدار ما تساهم به في إعطــاء الفكر كامل طاقته. بهذا تكون الروح قد وصلت إلى الانعتاق، لأنها تخلصــت من التعددية الوجودية. بلغة اليوغا، تكون الروح قد حققت تماثلها بالأصل الكوني».

---

(١) النفس.

عـندما يصـل اليوغـي إلـى منبع أفكاره تنفتح أمامه أبواب العوالم المرهفة والماورائيات بفضل نور عينه الباطنية. هذا النوع من «السمادهي» (الاستغراق المحـرر) يعطـي لليوغي ـ كما يروي الهندوس ـ قدرات خارقة، كالطيران، والاختفاء عن الأنظار، والمشي على الماء والنار، وقدرة الظهـور في أماكن عديدة في آن واحد. إلا أن هذه الحالة لا توصل بالمريد إلـى حالـة التوحد. ويحذِّر معلمو اليوغا من الاعتزاز لمن وصل إلى هذه الحالة، لأن ذلك من أصعب العوائق أمام بلوغ التوحيد.

وإذا توصـل اليوغـي إلـى السمادهي المنزه عن الرؤيا (الاستغراق الداخلـي) asamprajnata samadhi تختفي كل آثار الثنائية، ويبقى الروح المطلق، وهو وعي صاف أبدي دائم الغبطة منزّه عن الأنا الفردية. هذا هو التوحيد والخلاص من الزمان والمكان، وهو الهدف الأسمى لليوغا.

يقـول الحكيم «رامانُجا»: «الروح المنعتقة لها مشاهدة دائمة لله، ولا تصبح واحدة مع الله أبداً عند الخلاص، لا تنحل الروح في الله، مهما تسامى الإنسـان، فـإن الله يبقى أسمى منه، وعلى الإنسان أن يعبده دائماً. التوكل الكامل على رحمة الله ومساعدة الغير، والمودة حتى تجاه الأعداء هي طريق التحرر. (يتفق مع الإسلام والمسيحية).

ويقـول الحكـيم «مَدْهْفا»: «الله حقيقة متجسدة بصفات وجسد متسام والأرواح والعـالم حقيقة أدنى، تعتمد على الله في وجودها، ولكنها منفصلة عـنه انفصالاً تاماً. هذا العالم مختلف كل الاختلاف عن الله، لأن الله أسمى من كل شيء. فلا النفس ولا العالم يمكنها التشبه به... الخلاص هو الانعتاق الـدائم من العالم والابتهاج بالله وليس الاتحاد به. يتم هذا الخلاص من خلال التجرد والتعبد ودراسة كتب الحكمة، وممارسة التأمل في الله.

وهنا نجد مدرستين لفهم الخلاص، الأولى ترى ان الروح التي تصفَّت من ذنوبها واستحقت التخلص من تكرار الولادات تعود إلى مصدر وجودها،

وتتحد «بالبراهمان» وبذلك تتم سعادتها. أما المدرسة الثانية فترى أن السعادة الأخـــروية هي في الوصول إلى الله والتنعم بمشاهدته. ولن تبلغ في حال من الأحـــوال الاتحـــاد بالله لأن الله عز وجل متسام عن كل وجود، بما في ذلك النفس الإنسانية[1]. وهذا يتفق مع مفاهيم المسيحية والإسلام الأخروية.

لا بد للمريد الذي يسعى لممارسة اليوغا من الوفاء بالنذور الخمسة:

١ ــ اللاعنف ahimsa أي الامتناع عن قتل أو إيذاء أي كائن حي.

٢ ــ الصـــدق فـــي الكلام والتفكير على حد سواء. الحقيقة الجارحة ليست صدقاً، لأنها تؤذي شعور الآخرين.

٣ ــ الامتـــناع عن السرقة. عدم امتنان المرء بما حصل عليه هو نوع من السرقة أيضاً.

٤ ــ الـــتعفف، الـــذي يعني التعفف بالأفكار والجسد على السواء... التعفف الحقيقـــي هو عفة الوعي، وصفاء الفكر، وعدم الشهوة، والتكرّس لله عز وجل.

٥ ــ عدم التمسك بما نملك، وعدم اشتهاء مقتنى الغير.

وهناك **التزامات خمسة** على المريد أن يلتزم بها:

١ ــ النظافة، تعني نظافة الجسد وطهارة الشعور والفكر. (شدد الإسلام على هذه النظافة).

٢ ــ الرضا والقناعة والطمأنينة وهدوء الفكر.

٣ ــ ممارســـة التقشـــفات التي تزيل الرواسب والشوائب المعوقة للاختبار الروحي.

---

(١) الحكمة البوذية، ص ١٦٥.

٤ ــ دراسة تعاليم الحكماء وتلاوة النصوص المقدسة.

٥ ــ التوكل على الله، على الإنسان أن يوجه ويقدم أعماله وثمارها إلى الله تعالى، متساوياً في الاضداد، راضياً بكل ما يصيبه شراً كان أم خيراً[1]. [التسليم لقدر الله في الإسلام].

وقد حددت البهاجاڤادچيتا، على لسان الرب كرشنا كيفية ممارسة اليوغا وشروطها:

«يقال إن المرء قد بلغ اليوغا عندما يتخلى عن كل رغباته المادية. فهو لا يتصرف من أجل إرضاء الحس، ولا ينشغل في قطف ثمار أفعاله. (الفصل السادس، بيت ٤).

«على المرء أن يرقي نفسه بفكره الخاص، ولا يحط من قدرها، فالفكر هو صديق الروح المقيدة النسبية وعدوها أيضاً (٦-٥).

«نسبة لمن قد تحكّم بفكره، فإنه أفضل الصحاب. لكن من قد فشل بفعل ذلك يكون فكره بالذات هو العدو الأكبر (٦-٦).

نسبة لمن تحكّم بالفكر، فقد وصل الآن إلى الروح العليا، لأنه بلغ السكينة. ونسبة لهذا الإنسان، فالسعادة والشقاء، والحر والبرد، والشرف والإهانة جميعها سواء (٦-٧).

يقال إن المرء راسخ في إدراك النفس ويدعى يوغيّاً أو صوفياً، عندما يكون راضياً تماماً، استناداً إلى المعرفة المكتسبة والإدراك. فمثل هذا الفرد واقع في السمو. وهو منضبط النفس ويرى كل الأشياء، أكانت الحصى والحجارة أو الذهب، كأنها سواء. (٦-٨).

ويصف كتاب الچيتا ما يتوجب على ممارس اليوغا أن يفعل:

---

(١) الحكمة الهندوسية، ص ١٤٣-١٥٢، سبق ذكره.

«يقال إن المرء لا يزال في ترقّ لما هو أبعد عندما يقيم متمنياً الخير الصـــادق للأصدقاء والأعداء والحساد، والأقارب، والتقي والمذنب، ومن هم غير متحيزين، والنزيهين، على قدم المساواة (٦-٩).

«يتعين على رجل الغيب أن يركز ذهنه على النفس المتعالية. عليه أن يعيش وحيداً في مكان منعزل. وعليه أن يضبط فكره بعناية دائماً. عليه أن يكون حراً من الرغبات والمتاع. (٦-١٠).

«على المرء، كي يمارس اليوغا، أن يذهب إلى مكان منعزل. ويضع عشب الكوشا على الأرض، ثم يغطيه بجلد غزال وقماش ناعم. ويجب أن لا يكـــون عالـــياً كثيراً ولا جدّ منخفض. وأن يوضع في مكان مقدس. ثم على اليوغي أن يجلس عليه بثبات للغاية. وعليه أن يمارس اليوغا بالسيطرة على الذهن والحواس، وتطهير القلب، وتركيز الذهن على نقطة واحدة (٦-١١ و ١٢).

«على المرء الاحتفاظ بجسده ورقبته ورأسه منتصبة على خط مستقيم، وهـــو يحدق بثبات على رأس أنفه. وهكذا، وبذهن خاضع غير مثار، وخال مـــن الخوف، ومتحرر تماماً من حياة الجنس، فإنه سوف يتأملني من صميم القلب، ويجعل مني الهدف النهائي للحياة (٦-١٣ و ١٤).

وبالـــتأمل حسب هذه الطريقة المتحكمة في الجسد والذهن والانفعالات دائمـــاً، يـــبلغ الصـــوفي رجل الغيب مملكة الله خلال إيقاف وجوده المادي (٦- ١٥).

عـــندما يضبط اليوغي، في ممارسته اليوغا، فعالياته الفكرية، ويصبح مقيماً في السمو، متجنباً كل الرغائب المادية، يقال إنه بلغ اليوغا (٦-١٨٠).

«اليوغـــي الـــذي ركّز ذهنه علي، يبلغ، في الواقع، السعادة الأرقى. وبمقتضى تطابقه مع «براهمان» يكون منعتقاً، وذهنه بسلام، وانفعالاته هادئة وخلو من الآثام. (٦-٢٧).

«اليوغـــي الراسخ في نفسه، والمتحرر من كافة التلوثات المادية، يبلغ مـــرحلة الكمـــال الأرقـــى في السعادة وهو في تماس مع الوعي المتعالي. (٦-٢٨).

يراقبني اليوغي الحقيقي في كل الكائنات، وأيضاً يشاهد كل كائن فيَّ. وحقاً الرجل مدرك النفس يراني في كل مكان. (٦-٢٩).

ولمن يراني في كل مكان، ويرى كل شيء فيّ، أنا لا أضيع قط عنه، ولا يضيع عني في كل وقت. (٦-٣٠).

الزهد لدى الهندوس

إن الطـــابع المميـــز للديانـــة الهندوسية هو طابع الزهد في هذه الحياة المليئة بالآلام والشقاء، والخلاص منها هو مبتغى كل نفس عاقلة. نقتطف من كـــتاب «يوغـــا واسســـتها» yoga wasistha الذي يعتبره القديس الهندوسي المعاصر «سوامي رام ترنها» أنه أعظم كتاب ألّف تحت الشمس وهذه بعض الفقرات التي تبين هذا المنحى الزهدي.

«الســـعادة لا سبيل لها في هذا العالم الذي خلقت كل نفس فيه لتموت، كـــل شيء في هذا العالم سائر إلى الزوال والفناء. مسرات هذه الحياة ليست إلا خداعـــاً وأوهاماً، وقد سقطت الأفراح على الأحزان. أجل لم يشترنا أحد كما تشترى العبيد، ولكننا نعمل كأننا عبيد مسخرون.

«لا خير في الجسد، إنه محل للعاهات، ووعاء لسائر الآلام، وهو سائر إلـــى الانحلال. اتصفت الطفولة بالضعف والعجز، وعدم القدرة على الكلام، والـــتجرد من العلم، ويا ترى ماذا يجود علينا به زمن الشباب؟ وهل الشباب إلا كومضـــة بـــرق تخطف أبصارنا ثم لا تلبث أن تختفي، فاسحة الطريق للشيخوخة بآلامها الثلجية القاسية.

«ومـــا الحياة إلا كنور السراج الموضوع في الخلاء، تلعب به الرياح من كل جهة. وليس بهاءِ الأشياء إلا كومضة برق تنير لحظة ثم تختفي إلى الأبد.

«وما قيمة الجسد والأفراح والثروة والجاه والملك إن كان محتماً علينا أن نموت عاجلاً أو آجلاً، وأن الموت سيقضي على كل شيء؟»[1].

هـــذه النصـــوص الـــزهدية لـــدى الهندوس نجد لها مثيلاً واضحاً في المسيحية والإسلام. يقول الإنجيل: «لا تحبوا العالم وما في العالم. من أحب العـــالم لـــم تكن محبة الله فيه، لأن كل ما في العالم من شهوة الجسد وشهوة العـــين وكبـــرياء الغنـــى، لـــيس مـــن الآب بل من العالم والعالم يزول هو وشهواته» (يوحنا الرسول ٢: ٥-١٧).

كذلك الإسلام يحض المسلمين على عدم التعلق بالدنيا، والسعي الدائب لنـــيل رضى الله والفوز بالحياة الآخرة: «**بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خيـــر وأبقـــى**» (الأعلى، ١٦). ويقول: «**إنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وأن تؤمـــنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم**» (محمد، ٣٦). «**فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغـــرنكم بـــالله الغرور**» (لقمان، ٣٣). «**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وأن الدار الآخرة لهي الحيوان** (الحياة)» (العنكبوت، ٦٤). فالمؤمن الصادق لا يـــتعلق قلبه في هذه الحياة، بل يبقى يجاهد بعمله المخلص لوجه الله لينال ثواب الآخرة. أما الكافر بالله فقد اغترَّ بالحياة الدنيا ولم يسع لنيل الآخرة لأنه غير مؤمن بها: «**زين للذين كفروا الحياة الدنيا**» (البقرة، ٢١٢).

وأولئك المتعبدون القانتون لله الذين تخلّوا عن الدنيا وشهواتها، وتعلقت قلـــوبهم بـــالله تعالـــى، مصـــدر هذا الوجود. وتساوى عندهم ذهب الأرض وتـــرابها. واشتاقت نفوسهم إلى مغادرة هذه الحياة، بعد أن تطهرت بالعبادة والتقـــى، وأخلصـــت كل عملها لوجه الله. ولم تعد تميز بين إنسان وإنسان،

---

(١) عن كتاب مقارنة الأديان، ج ٤، ص ٧٦.

ودين ودين. وامتلأت قلوبها بالمحبة الإلهية، ومحبة جميع خلق الله، وسمت إلــى مقــام القداسة. هذه النماذج التي ذابت وجداً في الله فأكرمها الله ببعض الكــرامات، والتــي رأيــنا مثالها في الهندوسية، فهي موجودة في الإسلام والمسيحية. ولا يفترق متصوفو الهندوس عن متصوفي المسيحية والإسلام.

وكمــا تخــرق أحــياناً، القدرة الإلهية القوانين الطبيعية تكريماً لمتعبّد هندوســي، فتجري على يده شفاء مرض مستعص، فهي القدرة الإلهية عينها تجــري العجيبة على يد قديس مسيحي، وتجري الكرامة على يد ولي مسلم. ولا يدعــي دين من الأديان احتكار رحمة الله، وتقديره لأوليائه، فأولياء الله موجــودون فــي كل دين. وإن لم يعترف بعض المنتسبين إلى أحد الأديان بتكــريم الله لغيــر أبناء دينهم. فيكونوا قد احتكروا رحمة الله ومنعوها عن غيرهم، والله لا يمنع رحمته عن عباده المخلصين، لأي دين انتموا، «فالخلق كلهــم عــيال الله» (حديث نبوي)، شرط أن تكون عبادتهم وأعمالهم خالصة لــوجهه تعالــى. لأن «**الــدين كله لله**» (الأنفال، ٣٩). «**والله واسع عليم**» (البقرة، ٢٤٧).

فــلا يضيقنّ أحد من خلق الله رحمة الله الواسعة سعة هذا الوجود، ما عــرفت عقولــنا المحــدودة منها وما لم تعرف. فرحمته تعالى «**وسعت كل شيء**» (الأعراف، ١٥٦). وما تلك المزارات المنتشرة في البلاد الإسلامية، وفي البلاد المسيحية، للأولياء والقديسين إلا كمثيلاتها المنتشرة في أنحاء شبه القارة الهندية، لنساك هندوس أخلصوا عملهم وعبادتهم لله تعالى، وبلغوا عنده أعلــى منازل التقى والصلاح، تتقاطر إليهم جموع المؤمنين من أجل التبرك والتوســل بهــم إلى الله تعالى لقضاء حوائجهم. كأمثال «شردي ساي بابا» (١٨٥٦-١٩١٨) أي الأب الأقدس.

هــذا القديس الذي نادى بالحب بين الأديان، وقد بلغ درجة من الإيمان والســمو فــي حــياته الروحية أن تجاوز الديانات، ولم ير فرقاً بينها، فكان

يستشـــهد في حديثه بآيات قرآنية وبحكم من الكتب الهندوسية على حد سواء. وكـــان يدعو كل شخص مهما كان دينه إلى محبة الديانات الأخرى. وعاش حـــياة الـــزهد والتصوف ومساعدة المحتاجين والحيوانات، والاستغراق في التعـــبد حتـــى كشـــف الله عـــن بصيرته فغدا يعرف «الماضي والمستقبل، والقاصـــي والدانـــي، والأفكار والمشاعر الخفية. ببركته حصل الشاك على الإيمـــان، وأبصـــر العمـــيان، وحملـــت العاقرات، وشفي المرضى، ومشى المقعـــدون... شفيت أمراض كثيرة مستعصية وخبيثة، وأعاد الله الصحة إلى أنـــاس معذبين بلا أمل... ولا يزال الله يستجيب ببركة هذا القديس لصلوات وتضرعات المؤمنين في الهند وفي العالم حتى يومنا هذا».

وأمـــثال «راماكرشـــنا» (١٨٣٤-١٨٨٦) الحكيم الذي درس الإسلام والمســـيحية ومارسهما لفترة من حياته. والذي قال: «كل الطرق تؤدي إلى الله. لكن هذه الطرق ليست هي الله». رأى النور الإلهي في كل المخلوقات، وعاش بوعي الكلي المطلق. ولم يميز بين إنسان وإنسان من زواره إلى أي عقيدة أو جنسية أو طبقة انتموا، ويطلب لهم البركة من الله، وفي الهند أعداد من هؤلاء ارتقوا في تعبدهم حتى حصلوا على أن يجري الله الكرامات على ايـــديهم. نذكـــر منهم سْوامي ڤيـــڤيكننَدا، ورَمَنا مَهَرْشي، وسْوامي رامْداسْ، وسْوامي نِتْيانَنْدا، وسْوامي شيـــڤانَنْدا، وآننْدا مَيِي ما...»[1].

هؤلاء النساك العابدون، الذين تجاوزت نفوسهم التعلق بهذه الحياة الدنيا وشهواتها وسمت عن كل أدران المادة وغواياتها، وغدت في توق دائم للقرب مـــن الله مصـــدر وجـــودها، يعطينا كتاب يوغا واسِشتها وصفاً لأحوالهم: «يعـــرف الشـــخص الذي تجمعت فيه هذه الصفات بأن يصبح في حال، لا الســـرور يسره، ولا الألم يحزنه، ولا يتأثر قلبه بالرغبة أو الكره. وأنه على رغم انهماكه الظاهر في الأعمال الدنيوية لا يتعلق عقله بشيء من الدنيا. لا

---

(١) الحكمة الهندوسية، ص ٦٩-١٧٩.

يؤذي سلوكه أحداً. ويكون صديقاً للجميع. نرى ظاهره مشغولاً، ولكن باطنه في الحقيقة يطمئن تمام الاطمئنان. تحرر من جميع قيود الطوائف والمعتقدات والطبقات والتقاليد والعادات والكتب. استراح في «المسرّة العليا»، لا يعمل عملاً للنفع الذاتي، صدره منشرح والبشاشة لا تفارق وجهه. يعامل سائر الناس بالحسنى، لا يشعر باليأس، ولا بالكبر، ولا بالاضطراب الفكري، ولا بالسرور المفرط، كله عطف وحنان وحب، لا يحتقر السرور، ولا يجري للحصول عليه، ويشعر بالابتهاج في جميع أحواله، حتى في شيخوخته وعجزه وموته. فحياة الشخص المتحرر من غواية هذه الدنيا أنبل حياة وأشرفها، والناس يفرحون برؤيته وسماع صوته»[١].

غاندي

من هؤلاء الهندوس المؤمنين «موهَنْ داسْ غاندي» (١٨٦٩-١٩٤٨). هو زعيم سياسي وزعيم روحي، عرف بـ«المهاتما» (أي ذو الروح السامية). وهو أحد كبار معلمي وقديسي الهندوسية. لم ينحُ غاندي منحى النساك الذين زهدوا بالحياة، وانقطعوا في صوامعهم للعبادة وتعليم الدين، بل رغم أنه كان مثال "المتعبد الزاهد في حياته الشخصية، فقد أخذ بتعاليم الكتاب المقدس (نشيد المولى) «Bhagavad Gita» «بهاجاڤادچيتا». إنجيل الهندوس، الذي علّم به الإله المتجسد كرشنا أن المتعبد الحقيقي الأقرب إلى الله، ليس الذي يعزل نفسه عن الحياة، مكرساً كل وقته للصوم والصلاة. بل العابد الحقيقي، الأقرب إلى الله، هو ذلك الذي يؤدي واجبه تجاه شعبه مع التزامه بالتقوى وممارسة الواجبات الدينية.

رأى غاندي ما يعانيه شعب الهند من جراء سيطرة الاستعمار الانكليزي. فرأى أن واجبه الديني يوجب عليه العمل على تحرير بلاده

---

(١) See: Atreya: Yogawasistha and its Philosophy, pp. ١٠٠.

وخلاص شعبه. فأعلن ثورته السلمية ضد الانكليز. وجعل لها شعاراً ومنهجاً اللاعـــنف ahimsa الـــذي هـــو مبدأ أول في الديانة الهندوسية، مع وجوب التمســـك بالصـــدق والحقيقة satyagraha ساتياغراها. فكانت تعاليمه لشعبه الثائـــر، عدم الرد على العنف بالعنف، والالتزام بمبدأ المحبة، حتى للأعداء. فـــلا يجـــوز للثائر الهندي أن يرد على عنف جنود المحتل الانكليزي بعنف مماثـــل. ولا يجوز له حتى بغضهم في قلبه. أما السلاح الوحيد الذي شهره قـــديس الهند في وجه المستعمر فهو المقاطعة لبضائعهم، والاكتفاء بما تنتجه الهـــند من طعام، وما تنسجه أيادي شعبها من ألبسة، تحت اسم «حركة عدم التعاون». فكان مصيره في سجن المستعمر. لكن هذا السجن كان وبالاً على سجّانيه. إذ عندما أصبح غاندي قائد ثورة اللاعنف سجيناً، أفلت زمام الأمور مـــن يـــد الانكليز، وراح شعب الهند الثائر يرد على عنف جنود المستعمر بعـــنف مماثل. فكان لزاماً على المستعمرين أن يُخرجوا قائد ثورة اللاعنف مـــن سجنه ليعيد لهم الأمن بالسيطرة على شعبه وإعادة تطبيق مبدأ اللاعنف معهم. وهكذا أصبح غاندي الثائر على الانكليز حاجة ضرورية لهم من أجل وقـــف سفك دمائهم على أيدي الثوار. فاختاروا أهون الشرين عليهم. وهكذا بـــثورة اللاعنف استطاع المهاتما انتزاع الاستقلال من المستعمرين وتحرير الهند.

لكـــن الضربة القاسمة التي أصابوا بها غاندي في الصميم كانت تقسيم الهـــند طائفياً بين الهندوس والمسلمين، وإقامة دولة باكستان المسلمة مستقلة عـــن الهـــند. ودارت على إثر هذا التقسيم المذابح بين الطائفتين، مما جعل غاندي يحزن أشد الحزن، ويغضب على الهندوس الذين يشاركون في مذابح المســـلمين متخلـــين عـــن مبدأ اللاعنف، مبدأهم الديني، فقرر الصيام حتى المـــوت. ولما شاع خبر صيام غاندي توقف القتال، وراحت الوفود تأتيه من جمـــيع أنحاء البلاد، من مسلمين وهندوس معلنة له توبتها، وترجوه الرجوع عـــن صـــيامه. وهكذا استطاع قديس الهند وقف تلك المجازر الطائفية بين

الهندوس والمسلمين، التي تعجز ـ كما قيل ـ الجيوش الجرارة عن القيام بها.

ولما أيقن بوقف العنف وسفك الدماء في كل أنحاء الهند، عاد عن صيامه الذي أنهك جسده، وتوكأ على كتفي رجلين، حملاه لمقابلة الجماهير المحتشدة خارج منزله متوسلة إليه الرجوع عن صومه المميت، هاتفة بحياته. تقدم منه أحد المتعصبين القوميين الهندوس وأفرغ رصاصات مسدسه في جسد رسول اللاعنف. وتوقف القلب الكبير، المليء بالمحبة لكل الناس والمفعم بالإيمان والتقوى، عن الخفقان. واندلعت من جديد، شرارة العنف، ولمّا يخب أوارها حتى اليوم في مقاطعة كشمير. ولم تعد سيرة حياة المهاتما غاندي، الذي لم يفرق يوماً في حياته بين هندوسي ومسلم ومسيحي وزرادشتي، ملك شعب الهند وحده، بل غدت المثال الإنساني السامي، والنبراس الذي يستضيء بنوره كل مؤمن ثائر على الظلم، لأي دين أو لأي شعب انتمى.

من أقوال المهاتما غاندي:

ـ لا يحق العقاب والتدمير إلا لمن خَلَق، وأنت لم تَخْلُقْ، فكيف تعاقب وتدمِّر؟

ـ لا يسع الإنسان الوصول إلى الحقيقة المطلقة التامة، فما هو حقيقة بالنسبة إليك هو ضلال بالنسبة إلي. ولكل إنسان حقيقته. فبأي حق تدعي لنفسك الحقيقة، وترغم الآخر على هجر حقيقته لاعتناق حقيقتك؟!

ـ كل عنف يقابل بمثله، فالعنف يؤدي إلى تفاقم العنف، وإلى استمراره، وكل خير حاصل عن طريق العنف عابر لا يدوم.

ـ الحقيقة، أو الله، هي الغاية، والوسيلة إليها هي اللاعنف أو الحب. وكيف لهذا الإنسان الترابي أن يعرف الحقيقة معرفة تامة، أو أن يجسد الله في سلوكه تجسيداً تاماً؟

ـ الوسيلة السيئة تؤدي إلى غاية سيئة، والغاية الحسنة لا تؤدي إليها وسائل سيئة.

ـ إن التقدم العلمي الذي تباهي به أوروبا، لم يزد مستواها الخلقي قيد أنملة.

ــــ قلت إن سياستي خاضعة لديني. من يقول أنْ لا صلة للدين بالسياسة لا يعلم ما الدين.

ــــ ليس لنا جميعاً سوى إله واحد، أنى بحثنا عنه: في القرآن، أو الأبستاق (كتاب الزرادشتية) أو الكتاب المقدس، أو غيتا.

ـ قانون إيماني خدمة الله، وبالتالي خدمة البشرية.

ـ الحقيقة تهزم الضلال، والحب يهزم البغض، والله يهزم الشيطان.

ــــ لا يصبح البُطْل حقاً إذا ما انتشر واشتهر. ولا يصبح الحق بُطْلاً، إذا لم يره أحد.

ـ لن أضحي بالحقيقة ولو من أجل خلاص بلادي أو ديني.

ــــ ليس الابتهال خرافة، ولا العبادة، ولا الصلاة، بل هي أعمال أقرب إلى الواقع من الطعام والشراب، ومن الجلوس والمشي. ولا نبالغ إن نَقُلْ إنها وحدها الواقع، وإن كل ما عداها أوهام.

ــــ لــم أفهــم يوماً كيف يسعُ الناس أن يحسوا بالرفعة، إذا ما رأوا أخاهم الإنسان ذليلاً أمامهم!

ـ الخدمة دِين، وكنت أعتنق هذا الإيمان شعوراً مني بأنه لا يمكن الوصول إلى الله إلا عن طريق الخدمة. وكانت الخدمة عندي خدمة الهند.

ــــ رغــبة قلبي عون الفقراء، وبحكم تلك الرغبة وجدتني دائماً معنياً بهم، قادراً على أن أكون واحداً منهم.

من أهم تطلعات غاندي لإصلاح المجتمع الهندي هي دعوته لإلغاء طبقة المنبوذين ومعاملتهم كبشر مثلهم مثل سائر شعب الهند. من أقواله فيهم:

ـــ علينا معاملة المنبوذين كإخوة لنا... والإبقاء على المنبوذية باسم الدين، يفسد الدين. البشر شرارات نار واحدة. فكيف يولد بعضهم منبوذاً؟! المنبوذية آفة، وخطيئة، وعلى كل هندوسي أن يعمل على التخلص من تلك الآفة والخطيئة(١).

من تعاليم الإله «كرشنا»
كما وردت في «إنجيل الهندوس» «البهاجافادغيتا»:

«العمل الحقيقي هو التحرر من سلطة النفس، فمن تحرر منها، فقد فاز بالطمأنينة الحقيقية واهتدى إلى الله وفاز بالنجاة. (إن النفس لأمّارة بالسوء ــ قرآن كريم).

«إن الذي يتجرد من الدنيا بترك واجبه، لا يصل إلى الكمال أبداً. فالأعمال التي تأسر الإنسان هي التي يقوم بها لإرضاء نفسه، لا لأجل المصلحة العامة. فعلى المرء أن يجعل سائر أعماله خالية، منزهة من أهواء النفس. وما عاشت هذه الدنيا إلا بمثل هذه الأعمال النبيلة النزيهة. والذي يطبخ الطعام ليأكله وحده، لآثم، وإذا أكل فلا يأكل إلا إثمه. والذي لا يهتم بمصلحة غيره فهو سارق. والذي يحيا لإرضاء حواسه، فحياته كلها إثم. والطريق إلى الله أن تكون الأعمال خالصة له ولنفع خلقه.

«إعلم أن أشد أعداء الإنسان، اثنان: الشهوة والغضب. وهما اللذان يدفعانه إلى الذنوب. وكما يغطي الدخان النار، ويكدِّر الغبار صفاء المرآة؛ كذلك الشهوة والغضب يغطيان عقل الإنسان. فعلى الإنسان أن يقتل هذين العدوين.

---

(١) منتقيات من كتاب غاندي رسول اللاعنف ــ ليوحنا قمير ــ دار الشروق.

«لا شـــيء يطهـــر الإنســـان أكثر من هذا العرفان، والعارف يدرك بالتدريج أن الله معه وفيه. أكبر ما يحتاج إليه الإنسان في سلوكه إلى الكمال، هو الإيمان وقهر النفس.

«والناســـك الحق هو الذي لا يبغض أحداً، ولا يشتهي شيئاً، ولا يرى غـــير الله شـــيئاً. إنـــه يجري وراء واجبه دوماً، قد طهّر قلبه وتغلب على حواسه. فنفسه في قبضة يده، لا تنازعه ولا تحيد به عن الصواب. وهو يرى جمـــيع الأرواح كـــروحه، ولا يفرّق بينها، ولا يقصد بعمله إلا وجهه تعالى وحده.

«والذي يقوم بواجبه كما قلت، يبزغ نور العرفان في داخله كما تبزغ الشمس في السماء، فيرى ربه بعين قلبه، ويسعد بالنجاة بعد أن تذهب ذنوبه وتحل محلها الحسنات.

«واللذائـــذ الحســـية عاقبتها الألم والحزن، فلا يجري العاقل وراءها. والـــذي ملـــك حواسه ونفسه في هذه الحياة، فهو الناسك حقاً، وهو الذي فاز بنعمة راحة البال. إنه يجد الطمأنينة والراحة والنور في روحه، ويصل إلى الـــنجاة بفـــنائه في الخالق، ولا يسعد بهذا إلا من نسي نفسه وقهر هواه، ولا يزال في عمل مستمر لمصلحة الناس عامة.

«ولـــيس الناســـك من يتشبث بظواهر النسك وحدها، فلا يمس النار، ويفعـــل هـــذا ولا يفعـــل ذلـــك كالمتنطعين. إنما النسك كيفية قلبية، لا هيئة خارجـــية. فـــالذي لا يبالـــي بالعواقب في أداء واجبه، فهو الناسك الصادق. والذي يتخلى عن واجباته في الدنيا فهو ليس من النسك في شيء.

«لـــيس للإنسان صديق إلا نفسه، وليس له عدو إلا نفسه. ومن تغلّب علـــى نفسه فهو صديق نفسه، ومن قهرته نفسه، فهو عدو نفسه، ومن غلب نفســـه فأصبح لا يبالي بالحر والبرد، بالراحة والألم، بالسراء والضراء فهو

صاحب الروح الأكبر. ومن يرى الصديق، والعدو، والقريب، والبعيد، والسعيد، والشقي، بعين واحدة فهو المهتدي.

«ليست النجاة للذين افتتنوا بالدنيا، ولا للذين هجروا الدنيا فارين من واجباتهم، بل هي للذين يلزمون الطريقة الوسطى؛ فلا يفرِّطون ولا يُفْرِطون، في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، ومسكنهم، إنهم وسط في كل شيء، فيستريحون كما ينبغي، ويَنصَبون كما ينبغي.

«والناسك الحق هو الذي يرى وجوده في وجود الآخرين، ووجودهم في وجوده، وهو الذي لا يفرق بينه وبينهم، بل يدرك الله في الجميع، ويدرك الجميع في الله. فمن كان هكذا، فعلاقته بالله وثيقة لا انقطاع لها. والذي يحمد الله في خلقه وينسى نفسه، فهو مع الله أينما كان وحيثما كان. من يرى سعادة الآخرين سعادة له، ويرى شقاءهم شقاء له فهو حبيب الله حقاً»[١].

خاتمة

إذا كان القاسم المشترك بين الأديان هو الإيمان بوجود إله خالق ومدبّر لهذا الوجود، والإيمان بحياة أخرى بعد الموت، والإيمان بوجوب العمل الصالح والسلوك القويم لنيل رضى الله، ودخول جنته، فكل هذه نجدها متوفرة وبشكل واضح بيّن في الديانة الهندوسية.

فالإله الهندوسي هو مصدر الوجود، وهو واحد يظهر لخلقه بصور ثلاث: براهما الخالق وفشنو الحافظ وشيفا المهلك. وهؤلاء الثلاثة هم واحد في جوهره وإن هذه الصور إلا تجل للإله الواحد «براهمان» ولا يوجد أي فارق بينهم. فالإله الواحد يظهر بثلاثة أشكال. فمن يعبد أياً منهم فكأنما عبدهم جميعاً أو عبد الواحد الأعلى. وهذا لا يختلف عن المفهوم المسيحي للثالوث الأقدس، وخاصة المفهوم الكاثوليكي. والله الأحد في الإسلام له تسعة

---

(١) مقارنة الأديان، ج ٤، ص ٩٠-٩٢، سبق ذكره.

وتسعون اسماً أو صفة. فعندما يدعو المؤمن باسم من هذه الأسماء فإنما يدعو الـذات العلية نفسها، فلا فارق بين الله وبين أسمائه. يقول القرآن بذلك: «**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى**» (الإسراء، ١١٠).

والله ـ كمـا يصـفه كتاب «الچيتا» (إنجيل الهندوس) ـ هو البداية والـنهاية لكـل مادي وروحي. إليه يسكن من في السموات والأرض، وهو العليم بالماضي والحاضر والمستقبل، وهو القديم والمهيمن والحافظ، والخالق والسـامي والمنيـر. وهـذه صـفات تـتطابق مـع صفات الله في الأديان الإبـراهيمية. هذه الصفات، في تلك الأديان، تقال على سبيل التقريب وليس علـى سبيلِ التحديد. فقد قال في ذلك «الچيتا»: «البراهمان منزّه عن الصفة والشكل والخاصية، لا يدركه الفكر والحواس».

وإذا كـان هـنالك من تعدد قوى تدير هذا الكون، فهؤلاء هم الملائكة الـذين عبّر عنهم الإنجيل والقرآن. يدبرون شؤون هذا الوجود بأمر من الله. «**لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون**» (سورة التحريم، ٦).

هذا التجسد للإله في شخص «كرشنا» قد ظهر في التوراة بشكل غير بشـري؛ بشـكل عامـود من نور، يسير أمام بني إسرائيل ليستهدوا به في مـتاهات صحراء سيناء. وقد تجسد ـ في المسيحية ـ بشخص المسيح. ولم يحـدث هـذا التجسد في الإسلام على الإطلاق. لكن تجلي الإله على حقيقته «لأرغـونا» بعـد إلحاحه، يشبه تجليه في القرآن والتوراة لموسى. فموسى صعق من هول المنظر كما صعق أرجونا.

يُعلمـنا كـتاب «الچيتا» أن الله المتعالي الذي يتجسد بجسد مادي، في جوهـره لـيس ماديـاً ولكنه يتجسد بشكل إنسان رحمة بعباده، ومحبة لهم، وتواضـعاً من جلاله، ليعلمهم، وبشكل مباشر، التعاليم الإلهية التي ترشدهم إلـى طريق الصلاح الذي يوصلهم إلى ملكوته الخالد، لينعموا بقربه، وينالوا

السعادة الدائمة في نعيم الله الأبدي». هذا المفهوم ينطبق على مفهوم التجسد المسيحي، الذي يضيف إلى تلك الأسباب سبب تخليص الناس من خطيئة أبيهم آدم، فيتحمل العذاب، ويفديهم بدمه، حباً بهم.

«التجسد يقرِّب فهم الذات الإلهية من عقول العامة ويجنبها الوقوع في الإلحاد، بسبب عدم تمكن طاقاتها العقلية، المحدودة الاستيعاب، من فهم الذات الإلهية المطلقة» (كما يرى سوافي پرابهوپادا).

والهندوسي يؤمن بأن الطريق الموصل إلى ملكوت الله والفوز برضاه هو السلوك الحميد والعمل الصالح: فالتواضع والاستقامة والصدق والتصدّق والعطاء والشفقة وضبط الفكر واللاعنف وحب الكائنات، والامتناع عن السرقة والزنى وشرب الخمر، وعدم الانغماس في الشهوات وكبت الغرائز، والتخلص من الأنا والعجب، والعبادة الخاشعة، هذه الطريق التي دعت إليها الكتب الهندوسية المقدسة هي عينها ما تضمَّنتها كتب الديانات الإبراهيمية الثلاثة.

من هنا، نلمس أصابع الوحي الإلهي في تعاليم الكتب المقدسة الهندوسية. ونتأكد من قوله تعالى عز من قائل، في القرآن الكريم: «**وما من أمة إلا خلا فيها نذير**» (فاطر، ٢٤). وإذا لمسنا تباعداً في طرق العبادة، وفي أشكال النُسُك، فعلينا ألا ننسى تدخل الكهنة، وتفاسير البشر، والبعد الزمني بين هذه الرسالات السماوية. وإذ يعزو بعض الدارسين للهندوسية أنها أخذت التصوف من الإسلام، ويعزو البعض الآخر أن التصوف الإسلامي يعود إلى احتكاك المسلمين بالهندوس، فالواقع أن في جذور الهندوسية والمسيحية والإسلام دعوة إلى الزهد في متاع الدنيا، والتوق إلى نيل رحمة الله في الآخرة، ودخول جنات النعيم في رحمة الله وملكوته. والتصوف ـ كما يرى ممارسوه ـ هو الطريق الموصل بالمؤمن لبلوغ تلك الدرجة.

إن الدعوة إلى عمل الخير، كما تجسدت في الأديان الإبراهيمية، كذلك كانت أساساً من أسس الدين الهندوسي. فعمل الخير في هذه الأديان هو عمل يتقرب به الإنسان إلى الله. فمن يتصدق على الناس بمساعدتهم بماله أو بعمل المعروف معهم، أو مسامحتهم على إساءتهم إليه، فسوف يلقى أجره من الله. فعلـــى الإنسان أن يعمل الخير دون أن يرتقب الأجر على عمله من الناس. فالله لا يضيع عمل الإنسان إذا كان خالصاً لوجهه تعالى. بذلك يقول القرآن: «**إن الله لا يضيع أجر المحسنين**» (هود، ١١٥). ويقول الإنجيل: «وأقرضوا وأنـــتم لا تـــرجون شيئاً فيكون أجركم عظيماً» (لوقا ٣٥/٦). ويشدد كتاب «الچيتا» على وجوب التخلي عن التعلق بنتيجة العمل (الفصل ٨، البيت ٩).

وتبقـــى القاعدة الذهبية بين جميع الأديان: «عامل الناس بما تحب أن يعاملـــوك بـــه». بذلك يقول كتاب «البهابهاراتا» «لا تصنع مع غيرك ما لو صـــنع معـــك ألحق بك الألم». ويضيف: «حتى العدو إذا طلب النجدة، فإن الرجل الخيّر يكون على استعداد لنجدته. إقهر الغضب بالتذلل، واغلب الشر بالرحمة، وأعطِ البخلاء تنتصر عليهم، وقابل الأكاذيب بالحق تمحها»[1].

المخلِّص

كذلك تلتقي الهندوسية مع الأديان الإبراهيمية من حيث إيمانها بمجيء مخلِّـــص لهذا العالم. فاليهود يرتقبون مجيء المسيح ــ الذي لم يأت بعد ــ الذي سوف يقيم دولة السلام «حيث لا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب في ما بعد» (اشعيا ٤/٢) (فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي) (اشعيا ٦/١١). كذلك يرتقب المسيحيون رجوع المسيح عيسى بن مـــريم إلى الأرض ثانية، وذلك حين يكون في الأرض «ضيق عظيم لم يكن مـــثله منذ ابتداء العالم إلى الآن، ولن يكون» (متى ٢/٢٤). «متى جاء ابن

---

(١) البهابهاراتا. عن قصة الحضارة لول ديورانت، مجلد ٣، الكتاب ٢، ص ٢٩٨.

الإنســـان فـــي مجده، وجميع القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده، ويجـــتمع أمامـــه جميع الشعوب» (متى ٢٥/٣١). وكذلك المسلمون يؤمنون بـــرجوع المسيح، ويؤمنون بمجيء المهدي الذي «سوف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلما وجوراً» كما جاء في الحديث النبوي.

فالهـــندوس ينتظرون تجسد الإله «كرشنا» تجسده العاشر (كالكي **kalki**) للقضـــاء على الشر، وإعادة توطين النظام الكوني، وتوسيع طريق الخلاص. ســـيأتي فـــي نهايـــة «عصر الدمار» الحالي، كفارس يمتطي حصاناً ليحاكم الأشرار، ويكافئ الصالحين، ويحضّر لانحلال العالم وعودة العصر الذهبي.

الفصل الثاني عشر

الزرادشتية (المجوسية)

تنسب الزرادشتية إلى زرادشت الذي عاش، حسب بعض الروايات، في شمال شرق إيران سنة ٦٢٨-٥٥١ق.م.

الكتاب المقدس عند الزرادشتيين هو «الأفستا Avesta» أو «الابستاق» كما لفظه العرب. ولسوء الحظ، لم ينج من الابستاق إلا ترنيمات زرادشت أو «الأناشيد Gathas» ونصوص الطقوس الدينية الرئيسية «اليسنا Yasna» ومعناها العبادة والتسبيح، يشمل أدعية وصلوات كان يتجه بها إلى الله. و«الونديداد Vindidad» وهي تعني القانون المضاد للشياطين، ويوضح التعاليم التي يخضع لها رجال الكهنوت. كما يتضمن وجهة نظر الزرادشتية في الموت والزواج وغيرها من المشكلات الاجتماعية. وترنيمات أخرى هي «اليشتا Yashta» وصلوات.

لكن ذلك ليس كل ما تبقى لعصرنا من هذه الديانة، فالفلكلور، والنقوش، والعملات، وتقارير الملاحظين الأجانب، وإيمان وطقوس الزرادشتيين المحدثين، كل ذلك يساعد على الوقوف على حقيقة تلك الديانات الفارسية القديمة[1].

---

(١) راجع كتاب عالم المعرفة (المعتقدات الدينية لدى الشعوب) رقم ١٧٣، جيفري بارندر ـ ترجمة إمام عبد الفتام إمام، ص ١١٨، الكويت.

زرادشت النبي

أحيطت ولادة وحياة زرادشت بالخوارق والقداسة كما أحيطت طفولة وحياة سائر الأنبياء. وقد رويت خوارق كثيرة حول ولادته وطفولته، مما بشر بمستقبل غير عادي، وبكائن متميز عن سائر ناس عصره.

ما إن بلغ سن الرشد حتى بدأ يتساءل: من أين تأتي كل هذه الشرور إلى الناس؟ وراح يعمل عقله في التفتيش عن الطريق التي تؤدي إلى تحقيق السعادة لجميع الناس، وتزيل عن كواهلهم الشقاء والمعاناة.

ولكي يتوفر له الصفاء الذهني والتفكير السليم في بحثه عن الحقيقة والوصول إلى هدفه المنشود، غادر بيته وصعد إلى جبل سابلان، وراح يفكر في عالم الخير والشر.

«وقيل إنه حدث ذات يوم، وبينما هو غارق في تفكره، أحس مفاجأة بنشوة روحانية تغمره، وتنتشر في جميع جنبات نفسه وتملأها نوراً وهاجاً. ثم رأى كائناً نورانياً يدنو منه، وكأنه عامود من نور، حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان، يحمل في يده عصاً من لهب. ولم يلبث ذلك الكائن أن حلّق فوق رأس زرادشت في صورة عامود آخر من النور، ثم أنبأه أنه «فاهومانا» كبير الملائكة، وأنه جاء يقوده إلى السماء ليحظى بشرف المثول بين يدي رب السماء نفسه. وصدع زرادشت بالأمر. ولم يلبث أن وجد نفسه أمام إله النور الأكبر، الذي يحيط به ضياء عظيم. وهناك تلقى كلمات الحق والحقيقة، وتعلم أسرار الوحي المقدسة واستمع إلى أمر النبوة (قارن خلوة النبي محمد (ص) في غار حراء ونزول الوحي والإسراء والمعراج).

وقيل إنه أفاق من نشوته وعاد إلى إنسانيته بعد أن تكررت التجربة الروحانية ثلاث مرات. وعندما انتبه إلى نفسه قال: الآن سأنزل إلى الناس

وأقود شعبي باسم أهورامزدا من الظلام إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة ومن الشر إلى الخير»[١].

ديانة الفرس قبل زرادشت

كـــان الفـــرس، أبناء وطنه، يعبدون الحيوانات، كما يعبدون أسلافهم، ويعبدون الأرض والشمس.

وكـــان أكـــبر الآلهة في الدين السابق للزرادشتية «مثرا» إله الشمس و«أنيتا» إلهة الخصب والأرض، و«هوما» الثور المقدس الذي مات ثم بعث حـــياً، ووهـــب الجـــنس البشري دمه شراباً ليسبغ عليه نعمة الخلود. وكانوا يتعـــبدون إليه بشرب «الهوما» المسكر وهو عشب ينمو على سفوح جبالهم. وهال زرادشت ما رأى من هذه الآلهة البدائية، التي لا تنفع ولا تضر، وهذه الطقوس الخمرية، فثار على الكهنة الذين كانوا يصلون لتلك الآلهة، ويقربون لهـــا القرابيـــن. وأعلـــن بشـــجاعة الأنبـــياء أن ليس في العالم إلا إله واحد أهورامـــزدا إلـــه النور والسماء[٢]. وأعلن ثورته على عبادة الأوثان وسحر الكهنة. كما فعل أنبياء الله إبراهيم وموسى ومحمد.

زرادشت ودعوة التوحيد

لم تلق دعوته بالإله الواحد، غير المنظور، قبولاً لدى قومه، فأعرضوا عـــنه ونبذوه، بل واضطهدوه، وطردوه. وتنكر له أهله وعشيرته، فلاقى من العذاب والشقاء ما لقيه أصحاب الرسالات السماوية من قبله ومن بعده. فترك مســقط رأسه وراح يجوب في البلاد، داعياً الناس لدينه الجديد، فلم يلق آذاناً صـــاغية. فخشيه الناس وأبوا أن يستضيفوه، وأغلقت في وجهه الأبواب، فلم يجد مكاناً يبيت فيه سوى حظائر المواشي والدواب.

---

(١) قصة الديانات ــ سليمان مظهر ــ الوطن العربي ــ بيروت، ص ٢٦٩.

(٢) قصة الحضارة ــ ول ديورانت، ج ٢، ص ٤٢٥.

استمر في دعوته عشر سنوات يجوب البلاد طولاً وعرضاً، يدعو الناس ويجادلهم ويحاورهم، ولكن أحداً لم يرضَ الدخول في دينه، أو تقبّل دعوته.

لكنّ ربه «اهورامزدا» لم يتخل عنه. فيقال إن الوحي نزل عليه، في هذه الفترة، سبع مرات. ظهر له في إحداها اهورامزدا، كما ظهر له بعد ذلك الملائكة الستة الكبار، فلقنوه أصول الحكمة. ومبدأ الصراع القائم بين الخير والشر.

وأخيراً قيض الله لدعوته أن آمن بها ملك بلخ «كشتاسب» بعد حوار طويل، أشرف عليه الملك، بين زرادشت وكهنة الملك. انتصر فيها زرادشت على الكهنة واقتنع الملك باتباع طريق الإله الحكيم الواحد المتألق بالنور. وقال: «إن هذا الرجل الذي يستطيع أن يتكلم بمثل هذه الحكمة ويهزمكم جميعاً... إنما هو نبي من عند إله حكيم»[1].

أعمال الإنسان تقرر مصيره

علّم زرادشت: «إن الإنسان خلق حر الإرادة، يختار بها بين الخير والشر. لكن كل الأفكار التي يفكر فيها الإنسان، وكل الكلمات التي يقولها، وكل الأفعال التي يأتيها كل يوم من ايام حياته، تكتب كلها في كتاب الحياة. فالأفكار والكلمات والأفعال الصالحة تكتب في جانب، والأفكار والكلمات والأفعال الخبيثة تكتب في الجانب الآخر. وعندما يموت الإنسان تذهب روحه إلى الحفيظ على كتاب الحياة. فإذا كانت أفكاره وكلماته وأفعاله الخيِّرة أعظم من أفكاره وكلماته وأعماله الخبيثة ذهبت إلى الجنة، وإلا ذهبت إلى عذاب الجحيم.

قارن هذا مع مع ورد في القرآن الكريم: «**وأما من ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه، فأمه هاوية، وما أدراك ما هيه، نار حامية**» (سورة القارعة ٥-١١).

---

(١) قصة الديانات ــ سليمان مظهر، ص ٢٧٢ و٢٨٣.

وعلى المؤمن اتباع ست خصال حميدة هي:

١ ــ طهارة الفكر والكلمة والعمل.

٢ ــ النظافة والبعد عن كل دنس.

٣ ــ الإحسان بالفعل والقلب.

٤ ــ الرفق بالحيوانات النافعة.

٥ ــ القيام بالأعمال النافعة.

٦ ــ مساعدة الذين لا يتيسر لهم تحصيل العلم بتعليمهم.

يوم الحساب

في ذلك اليوم ينتصر الإله الواحد الخيّر على الشر، وعندئذ يُبعث الموتى ويقع النجم المذنّب على الأرض، فتشتعل وتذوب جميع المعادن، فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب. [صورة حسية لتقرب من مفاهيم الناس. ومثلها في القرآن في وصف يوم القيامة: «**إذا زلزلت الأرض زلزالها... يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش... إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فجّرت وإذا القبور بعثرت... إذا الشمس كوّرت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيّرت... وإذا البحار سجرت** (أي التهبت)]. على الناس الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا مجرى السيل الذي يبدو للأرواح الخيرة وكأنه لبن دافئ، فيطهرهم المرور به، ويمضون منه إلى الجنة. أما الأرواح الشريرة فتظل تحترق إلى الأبد خالدة في المعدن الملتهب. وعندئذ يطرد الإله الخيِّر اهورامزدا روح الشر «اهريمان» وكل من يتبعه من الأرواح الخبيثة إلى وسط الأرض ويدعهم فيها إلى الأبد. وفي ذلك اليوم يبدأ العالم السعيد الخيِّر الذي لا شر فيه، ويدوم أبدياً. [قارن مع الصراط والجنة والنار].

ماذا يجب على المرء أن يفعل ليتبع سبيل الإله الواحد ويفوز برضاه؟

الأفكــار الطيــبة، والأعمال الطيبة، والأقوال الطيبة، هي السبيل إلى مرضـــاة الإلـــه الواحد. فالصدق صالح.. والكذب باطل. والصدق هو أول درجات التقرب من الإله الواحد، وعلى المتقرب من الله أن يكون طاهراً في أفكـــاره وأعماله، محسناً، يساعد المحتاجين، يفلح الأرض، وينبت الأشجار، ويربي الماشية، ويؤدي الأعمال النافعة، ويكون رحيماً بالناس والحيوانات.

من هنا كان أول عهد يأخذه الزرادشتي على نفسه، كما جاء في الافستا المقدسة:

«لـــن أقدم على سلب أو نهب أو تخريب أو تدمير، ولن آخذ بالثأر.. وأقر أني أعبد الإله الواحد أهورامزدا وإني أعتنق دين زرادشت. وأقر أنني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح»[1].

من هو أهورامزدا؟

هو الإله الذي دعى زرادشت لعبادته في الأفستا، الكتاب المقدس. هو الإله الأعظم.. وهو قديم وأزلي. مجرد من جميع الشوائب.. يَرى ولا يُرى، ولا تدركـــه عين أو بصر، وهو موجود في كل مكان، لكنه لا يُرى في أي مكـــان. وهـــو يعلم الحاضر والمستقبل ويعلم الغيب، ويدرك دخائل النفوس. وهـــو قدير على كل شيء، لا يسمو عليه شيء قط. وهو معين من لا معين له، وراعي الفقراء والأغنياء على حد سواء... ومفرج الهموم، ومانع الضر عـــن الـــناس... وأن أقوى الناس ليشعرون بضعفهم أمامه. وهو القوة غير

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

المنظورة التي يتطلع إليها الناس لتشد من أزرهم، وتقوي من نفوسهم.. لهذا لا يقدر على إدراك حقيقته عقل بشري، ولا يقوى على تصوره خيال إنسان.

فأهورامـزدا (أي أنـا خالق الكون)، في دين زرادشت، هو واحد لا يشركه أحد. وهو خير محض لا شر فيه، وكل ما في العالم من خير منبعث منه. وهو مصدر كل مجد ونور وسعادة. يريد الخير دائماً ولا يفكر في الشر أبداً. «وهو المشرّع القدسي، والقاضي الأسمى العادل الرحيم، وهو الموجود الأعظم، والأفضل والأسمى»[١] [تتطابق هذه الصفات مع صفات إله القرآن والإنجيل].

النار المقدسة

يـتهم الناس أتباع زرادشت بأنهم يعبدون النار.. بينما هم يؤكدون أن تلـك الفكـرة خطأ كبير. فهم لا يعبدون النار ولا يتخذون منها إلهاً. ولكنهم يرونها إلى جانب الشمس رمزاً لقوة الإله الذي لا يمكن أن يراه أحد. [موسى رأى الـنار وكلمته باسم الإله] «التوراة والقرآن». ويعدون الوثنية والشرك بالإلـه الواحـد، الخير الحق، جريمة كبرى لأنها تتضمن إنكار مبدأ وحدة الواحد أهورامزدا. [كما في الأديان الإبراهيمية].

ويقـول الزرادشـتيون إنهـم يقدسون النار ولا يعبدونها لأنها مصدر الـنور، رمز الإله أهورامزدا، المناقض للظلام رمز أهريمان الشيطان [الله نور السموات والأرض ـ قرآن. أنا نور هذا العالم ـ إنجيل]. من أجل ذلك يحـافظون على شعلة النار ليظل نورها يبدد ظلمات الشياطين. فهم يوقدونها أبداً دونما انطفاء في معابدهم. ومن أهم الواجبات وأقدسها، عند رجال الدين، أن يعملوا دائبين على إبقاء النار مشتعلة ليظل نورها يبدد ظلام الشر. فيأتون إلى الهيكل خمس مرات في اليوم ليقدموا إلى النار وقوداً من خشب الصندل

---

(١) ج.ج. مودي J.J.Modi التعاليم الشفهية للديانة الزرادشتية، بومباي ١٩٦٢، ص ٦.

وغيره من المواد العطرية.. فتنتشر في الهيكل رائحتها الزكية. وفي كل مرة يتلو الكاهن عبارات دينية يدعو فيها الناس إلى التأمل في الخير والكلام الطيب، والعمل الصالح. وهي جواهر الزرادشتية الثلاثة، التي تتضمن كثيراً من الفضائل والأدب، كالأمانة وحسن المعاملة، والعفة، والطهر، والإحسان إلى الفقراء، والعطف على الأغراب[1] [قارن مع المسيحية والإسلام].

الملائكة والشياطين

لكل من أهورامزدا الإله الواحد، وأهرمان (الشيطان) قوى خاصة يستخدمها في مهام عمله. فلأهورامزدا الخالدون الستة (الملائكة المقربون). (اماهراسباند Amahraspands) وهم يجلسون أمام عرش الإله. ولهم مكانة خاصة في طقوس الزرادشتيين، لأنهم يحرسون العناصر التي يتألف منها العالم. ومع ذلك فليس هم الكائنات السماوية الوحيدة، فهناك عدد كبير من الملائكة أو (اليازاتا Yazata) وهي تمثل النية الطيبة، والحقيقة، والسلام... الخ. وقد اختص كل رجل وكل امرأة وكل طفل ـ حسب أصول اللاهوت الفارسي ـ بواحد منها. ومهمة هؤلاء الملائكة إعانة الناس على التحلي بالفضيلة. [إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون ـ قرآن].

إلى جانب هؤلاء الملائكة، الأرواح الخيّرة، سبعة شياطين «ديو» أو أرواح خبيثة تحوم في الهواء، وتغوي الناس على الدوام بارتكاب الجرائم والخطايا، وتشتبك أبد الدهر في حرب أمير الظلمة وحاكم العالم السفلي، الذي لا ينقطع عن فعل الشر وكافة مصائب الحياة. وهذه الآثام التي أوجدها خربت الجنة حيث وضع أهورامزدا الجدين الأولين للجنس البشري[2]. [فوصف أهريمان في الزرادشتية، أشبه بوصف إبليس في القرآن. والجدين الأولين هم آدم وحواء حسب التوراة والقرآن].

---

(١) قصة الديانات ـ سليمان مظهر ـ ص ٢٩٢، سبق ذكره.

(٢) قصة الحضارة ـ ول ديورنت ـ مجلد ٢، صفحة ٤٢٨.

مصائر الناس في الحياة الأخرى

من تعاليم زرادشت أن هناك قيامة فورية وقيامة أخيرة. القيامة الأولى تحصـــل بعد الموت مباشرة، إذ يخضع الفرد لمحاكمة فورية. وتبقى الروح حسب هذه المحاكمة حتى اليوم الآخر [حساب القبر في الإسلام]. أما القيامة الثانــية فهي قيامة عامة تحصل عند نهاية النظام الحالي الذي يعيشه الإنسان في الأرض. هنا يخضع كل فرد لمحاكمة أخيرة، توزن فيها أعماله الصالحة وأعمالـــه الشريرة. فمن طغت لديه الأعمال الشريرة ذهب إلى الجحيم، حيث الـــنار الحارقة والعذاب الأبدي. ومن غلبت لديه الأعمال الخيرة، انضم إلى زمـــرة الصـــالحين الـــذين يقودهم زرادشت إلى الجنة حيث يرتعون بالنعيم الأبدي[1]. [نفس الفكرة الإسلامية وحساب يوم القيامة].

توسع الزرادشتيون بعد زرادشت في كلامهم عن الحياة الثانية، فجعلوا الضـــمير الخلقـــي مقياس الثواب والعقاب. فقيل إن روح الميت تجلس فوق رأســـه ثلاثة أيام، وهي تفكر في أفعالها السابقة وتزن خيرها وشرها. وفي هـــذه الأثـــناء، تحضر ملائكة الخير عند الروح، إذا كانت صالحة، لتؤنس وحشـــتها. أمـــا إذا كانت شريرة فتأتيها الأرواح الشريرة لتعذبها. وفي اليوم الـــرابع تشـــق الروح طريقها إلى جسر «تشيفات Chinvat»، حيث يترتب عليها عبوره. فإذا كانت خيرة امتد الجسر فوق النهر لتعبر عليه بسلام. وإذا كانت شريرة، خطت خطواتها الثلاث الأخيرة؛ خطوة الفكر، وخطوة القول، وخطـــوة الفعـــل، قـــبل سقوطها في هوة الجحيم[2]. [قارن مع الصراط في الإسلام].

---

(١) الأديان الحية ــ تأليف أديب صعب ــ دار النهار، بيروت، ص ١١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٢.

ويستفيض النص فيقول: إن ضمير الإنسان الصالح يتخذ هيئة حورية تقـوده إلى النعيم، حيث يهب نسيم عليل حاملاً رائحة المسك والعنبر. وعند منتصف الجسر ترى الروح جمالاً لم تعرف له مثيلاً في الحياة. وتسأل ذلك الجمـال عمّـن يكـون، فيجيب: «أنا أعمالك الصالحة. قد كنت صالحاً منذ البداية، لكـن أفعالـك جعلتني أكثر صلاحاً». وتعانق الروح ذلك الجمال، ويذهـبان معـاً، بشعور من الغبطة، إلى الجنة. [صورة متضمة في التراث الإسلامي].

أمـا ضمير الإنسان الشرير فيتخذ هيئة جنية تقوده إلى الجحيم، وهي تقول له: «أنا أفعالك الرديئة. لقد كنت قبيحة منذ البداية، لكن أفعالك جعلتني أشد قبحاً يوماً بعد يوم، وسوف يعذبنا العقاب إلى يوم القيامة». وبعد العناق تقع الروح الشريرة والجنّية عن الجسر وتهويان إلى لجة الجحيم».

أما الذين تتعادل أفعالهم الشريرة مع أفعالهم الخيرة فيذهبون إلى مكان اسمه «همستكان Hamestakan» وهو نوع من «المنزلة بين المنزلتين» أو «المطْهَـر» يقـوم فـي مكان بين الأرض والنجوم. ويخبرنا ذلك النص أن للجحيم دركات، أعمقها في قاع الأرض، حيث يمكن القبض على الظلام باليد لفرط كثافته، وحيث اللظى لا يمكن احتماله. كذلك للجنة درجات تتناسب مع ما يفعله الإنسان من الفكر الصالح والقول الصالح والفعل الصالح.

ونتيجة الدينونة سوف تلقى الأرواح الخبيثة في اللهب لتنحل إلى عدم. أمـا الأرواح الخيرة، فسوف تحيى معاً في أرض جديدة، وسماء جديدة. في حال من الغبطة لا تشوبها شائبة. هنالك يبقى البالغون في الأربعين، والأولاد في الخامسة عشر. ويتحد الأقرباء والأولاد الصالحون من جديد إلى الأبد(١). [قارن مع الجنة والنار في الإسلام].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٣.

الأخلاق وقواعد السلوك

رسمت «الأفستا» طريق الصلاح للزرادشتي: «أن يجعل من العدو صديقاً، ومن الشرير خيِّراً، ومن الجاهل متفقاً. وعلى رأس الفضائل عندها: التقوى، وهي: العبادة والطهارة والشرف والأمانة، ورفضت كل إيمان بتمثال أو وثن أو هيكل. ومعابدهم صغيرة ومتواضعة[1].

فالخير هو كل ما يخدم قضية أهورامزدا، والشر هو كل ما يتعارض مع انتصارها، أو يؤخره أو يعرقله. وإذا كان أول واجب هو التقوى، فالواجب الثاني هو النزاهة.

فمملكة أهورامزدا هي مملكة النور. أما مملكة أهريمان فهي مملكة الظلام. فلنستبعد كل الأعمال التي لا تتم إلا في الظلام، كالسرقة والزنا. ولنزحها عن طريق الحياة. وما من شعب كره الكذب كما كرهه الزرادشتيون[2].

أما بالنسبة للشرائع الزرادشتية فقد كانت صارمة في عقاب خطايا الجسد صرامة الشرائع اليهودية. فكان الاستمناء باليد يعاقب عليه بالجلد. وكان عقاب من يرتكب جريمة الزنى واللواط والسحاق من الرجال والنساء «أن يُقتلوا لأنهم أحق بالقتل من الأفاعي الزاحفة والذئاب العاوية».

وكان القانون يشجع الشباب والفتيات على الزواج. لكنه يبيح التسري وتعدد الزوجات، لأن تلك المجتمعات الزراعية كانت بحاجة إلى كثرة الأبناء. وفي ذلك يقول الابستاق: «إن الرجل الذي له زوجة يفضل كثيراً من

---

(١) موسوعة الأديان، د. سامي أبو شقرا، ج ١، دار الاختصاص للنشر، بيروت، ص ١٢٣.

(٢) ترجمة حافظ الجمالي Petite Histoire des grandes religions, Félicien Chollay، تحت اسم موجز تاريخ الأديان، دار طلاس، دمشق، ص ١٣٣.

لا زوجة له، والرجل الذي يعول أسرة يفضل كثيراً من لا أسرة له، والذي له أبناء يفضل كثيراً من لا أبناء له، والرجل ذو الثراء يفضل كثيراً من لا ثروة لــه». وهــذه جمــيعها معايير للمجتمعات القديمة بين مختلف الأمم. وكانت الأسرة لديهم أقدس النظم الاجتماعية، كما في سائر الأديان الحية[1].

فكـان مـن الأسئلة التي ألقاها زرادشت على أهورامزدا: «أي إلهي خالـق العـالم المادي، ـ إلهي القدوس ـ ما هو المكان الثاني الذي تحس الأرض فـيه أنها أسعد ما تكون؟» ويجيبه أهورامزدا عن سؤاله هذا بقوله: «إنــه المكان الذي يشيد فيه أحد المؤمنين بيتاً في داخله كاهن، وفيه ماشية، وفيه زوجة، وفيه أطفال، وفيه أنعام طيبة، والذي تُكثر فيه الماشية بعدئذ من النـتاج، وتكثر فيه الزوجة من الأبناء، وينمو فيه الطفل، وتشتعل فيه النار، وتزداد فيه جميع نعم الحياة»[2].

وكان للمرأة في بلاد الفرس مقام سام في أيام زرادشت كما هي عادة القدماء. فقد كانت تسير بين الناس بكامل حريتها سافرة الوجه، وكانت تملك العقـار وتصرف شؤونه، وكان في وسعها أن تدير شؤون زوجها باسمه أو بتوكيل منه. ثم انحطت منزلتها بعد دارا، وخاصة بين الأغنياء، وأما المرأة الفقيـرة فقـد احتفظت بحريتها في التنقل لاضطرارها إلى العمل. أما نساء الطـبقات العليا فلم يكن بإمكانهن الخروج من بيوتهن إلا في هوادج مسجفة، ولم يكن يسمح لهن بالاختلاط بالرجال علناً[3].

أدانـت الزرادشتية النميمة، وكذلك أدانت الكلام بالسوء، الذي يستخدم الأساليب المشبوهة، وأدانت الاتفاق سراً على القرضة الحسنة، إذ يحدث أن

---

(١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت، الباب ٧، فصل ٧، مجلد ١، ص ٤٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٢.

يكذب المقترض حتى يتجنب دفع ما عليه من حقوق[1]. ويجب أن نفي دائماً بوعـودنا، حتـى لـو وعدنا الخبثاء. ويجب الوفاء بالدين واجباً يكاد يكون مقدساً.

يدافـع زرادشت بحماسة عن ضرورة التربية الذكية للماشية، ويطالب بالعـناية التـي ينبغـي أن تحاط بها المراعي، وبحياة الاستقرار، وبالسكن الملائم، وبالسلام. وأن نحسن معاملة الأبقار، ونلغي الأضاحي الدموية.

وعـندما انتشرت الزرادشتية أصبحت الزراعة (وليس مجرد الاعتناء بالمراعـي فقط) الشاغل الأساسي للزرادشتيين. وظل المزارع النشيط دوماً ذلـك الـنموذج للخادم الوفي لأهورامزدا. وحتى يستطيع الإنسان أن يقوم بعمله المرهق، فإن عليه أن يتغذى جيداً، ويعنى بتنمية جسمه، وذلك، مثلاً، بأن يأكل اللحم. وكي يزيد من عدد أتباع أهورامزدا، عليه أن يتزوج بامرأة مـن عـرق نظيف، مخلصة للدين، وأن تنجب أطفالاً عليه أن يربيهم بنفسه على الإيمان والعقيدة. فالمثل الأعلى ليس الزهد والتقشف، بل هو حياة عمل زراعي ووحدة عائلة. [هذا ما يتلاءم مع تعاليم السنة النبوية الشريفة].

كـان زرادشت مدفوعاً بحماسة أخلاقية ودينية، إنه كان داعية إصلاح اجتماعي واقتصادي أيضاً.

«ومـا من شيء يسعد أهورامزدا، مثل أن يتأمل أولاً مكان عبادة، ثم مكانـاً يكـون فـيه الرجل العادل قد أقام لنفسه بيتاً مزوداً بالنار، والماشية، والزوجة، والأبناء، تكثر فيه الماشية والبركة، والمراعي»[2].

---

(١) انظر ما ورد في الآية ٢٨٢ من سورة البقرة في القرآن: «وإذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل».

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣ و١٣٤.

فلسفة الزرادشتية

اعتبرت الزرادشتية العالم ساحة صراع بين الخير والشر، بين أهورامزدا رمز الخير وبين أهرمان رمز الشر. ومع الأول ملائكته، ومع الثاني شياطينه. الأول يعمل على أن يعم النور جميع أرجاء هذا الوجود، بما يرمز إليه هذا النور من حق وخير، وسلام، والثاني يعمل دائباً على إطفاء هذا النور ليعم الظلام بما يرمز إليه من شر وباطل وخراب. والناس أو الصور البشرية لذات الله السماوية [خلق الإنسان على صورة الله ـ التوراة] (أي الفرافاشي Fravashi) هي ذوات حرة في استطاعتهم أن يختاروا اتباع الله أو اتباع الشيطان. فإذا اختاروا الحق فإنهم يساعدون الله على نصره النهائي على الباطل. واختيارهم الحق يعني انحيازهم الوجود ضد العدم، والنور ضد الظلام. فمن واجب كل إنسان أن يعمل الخير جاهداً قدر طاقته، فيكون بذلك قد ساهم بإضاءة شمعة في نصرة إله النور، وبدد زاوية من زوايا ظلمة الشيطان. وبالقدر الذي يساهم فيه الناس بعمل الخير ونبذ الشر، بالقدر ذاته يعجلون نصر أهورامزدا الإله على الشيطان. ونصر الله هو نصر للبشرية كلها، حيث تنتظرها في عالم الله الحياة الأبدية السعيدة في جنات النعيم. أما طريق الشيطان فإنها لا توصل إلا إلى ظلمة الجحيم وبئس المصير.

هذه النظرة، لصراع الخير والشر وإعطاء الإنسان دوره، بل تحميله مسؤولية نصرة الخير والحق، ومساهمته في تقرير مصيره ومصير الكون، تعطي للإنسان قيمة وكرامة سامية، وتجعل منه كائناً فاعلاً في هذا الوجود، وليس مجرد كائن سلبي يتلقى ما قدرته الأقدار كريشة في مهب الريح (كما يراه الجبريون) أو مجرد حيوان ناطق (كما رأته الفلسفة اليونانية) أو حشرة دنيئة لا حول لها ولا طول (كما كان يقول أهل العصور الوسطى). أو آلة تتحرك بنفسها (كما يراه عصر الصناعة).

ولئن التقت الأديان الإبراهيمية مع الزرادشتية في قولها بقانون صراع الخير والشر، وأن الإنسان مخيَّر في الانحياز إلى أي منهما، فإنها (الأديان الإبراهيمية) لم تعط الإنسان أكثر من دور في خلاص نفسه بطاعة الله والخضوع لأمره، لأنها اعتبرت الأمر كله بيد الله الذي لا يفلت من سلطانه شيء حتى الشياطين، فما هي إلا من خلق الله، خولها مهمة إغواء البشر من أجل امتحان إيمانهم وصدق عقيدتهم وليَميِّز منهم الخبيث من الطيب. فالله ــ وفق هذه الأديان ــ أعطى الإنسان حرية معتقده، وحرية عمله، وحرية اختياره، ولم يجبره على شيء (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر... لا إكراه في الدين ــ قرآن).

لكن الزرادشتية أعطت الشيطان دوراً منافساً لله، يعمل عكس مشيئة الله وخارج سلطانه وكأنه ندّ له. واعتبرته أنه يخلق ما هو ضار ومؤذ وأنه موجود أزلي كالله، لكنه غير أبدي وحتّمت نهايته وزوال نفوذه، في نهاية الأمر، وانتصار الإله أهورامزدا عليه. وإن لم تعترف بألوهته، فإنها جعلت منه منافساً شرساً لله تعالى، وهذا يعتبر ثغرة في دين توحيدي كدين نبي واضح الرسالة كزرادشت. وما أظن، مصدر هذه الثغرة، التي نقلتها إلينا مراجع الباحثين، أن تكون من تعاليم النبي نفسه. وأرجّح أن تكون من فهم من جاء بعده من كهنة وأتباع. فأصاب دينه ما اصاب أكثر الأديان بعد موت أنبيائها.

ومهما يكن، فالزرادشتية تلتقي مع المسيحية والإسلام في أكثر مفاهيمها. تلتقي معهما بوحدانية الله الخالق، الكائن الأكمل والأسمى، الذي يستحق العبادة والإجلال. والإيمان بالحياة الأخرى بعد الموت، والإيمان بيوم الحساب، وبالثواب والعقاب في يوم القيامة. والإيمان بوجود الخير والشر، ووجود قوى خيِّرة هم الملائكة، ووجود قوى شريرة هم الشياطين. والإيمان بحتمية غلبة الخير على الشر، وغلبة الحق على الباطل. ولله الواحد القيوم سيخضع كل من في السموات والأرض طوعاً أو كرهاً.

وإذا كـان زرادشـت قـد جعل للنور، ممثلاً بالشمس والنار، قدسية واعتـبره رمـزاً للإله الواحد أهورامزدا، فقد رأينا أخناتون يجعل الشمس، كونهـا مصدراً للنور، رمزاً للإله الواحد أتون. وجاء تعبير النور على لسان المسيح، حيث يقول: «أنا نور العالم» (يوحنا ٩/٥). ويقول: «جئت إلى العالم نـوراً» (يوحنا ١٢/٤٦). والقرآن يرمز إلى الله الأحد بأنه نور: **«الله نـور السـموات والأرض»** (سورة النور، ٣٥). ففي المسيحية والإسلام يرمز إلى الإيمـان بالله والسير على هداه بالنور. ويرمز إلى طريق الشيطان والضلال بـالظلام. فالمؤمـنون بالله يدخلون في نور الهداية، أما الكافرون فهم أبناء الظـلام، رمز الضلال والسير في طريق الشيطان. فالله هو النور الذي ينير قلوب المؤمنين بالهداية، والشيطان هو الذي يملأها بالضلال وبظلام شروره. تلك فلسفة جميع الأديان، إلا منها من تعبَّد للشيطان واتّبع سبيله، وأنكر وجود الله تعـالى. وفـي هـذا يقول القرآن: **«الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمـات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات»** (البقرة، ٢٥٧).

وتلتقـي الزرادشتية مع الأديان الإبراهيمية بالقول بمجيء المخلِّص أو المـنقذ [كما في المسيحية والإسلام رجوع المسيح. وكما في الإسلام مجيء المهدي]. قالوا بظهور ولد من نسل زرادشت ينقذ العالم، وحددوا ظهور هذا المخلص بعد ثلاثة آلاف سنة من موت نبيهم(١).

لا شـك عـندي أن زرادشت هو نبي مرسل حمل رسالة التوحيد إلى البشر. وحرّم عبادة الأوثان، وتقدمة القرابين لها. ورسم للناس طريق الهداية والخير التي توصل إلى صلاح الفرد والمجتمع، وبالتالي إلى نيل رضاء الله وإلـى دخول جنات النعيم. وحذرهم من السير على طريق الشر والضلال، وارتكاب الآثام التي هي طريق الشيطان المؤدية إلى العذاب وسوء المصير.

---

(١) موسوعة الأديان، د. سامي أبو شقرا، ج ١، ص ١٢٤، دار الإخلاص، بيروت.

وهي تلتقي في جوهرها، وفي الكثير من تفاصيلها التقاءً واسعاً مع تعاليم المسيحية والإسلام، وتزيد عن الموسوية بقولها بحياة أخرى بعد الموت.

* * *

مناجاة زرادشت للإله الواحد أهورامزدا

هذا ما أسألك عنه، فأصدقني الخبر يا أهورامزدا
من ذا الذي رسم مسار الشموس والنجوم؟
ومن ذا الذي يجعل القمر يتزايد ويتضاءل؟
ومن ذا الذي رفع الأرض والسماء، وأمسك السماء أن تقع؟
ومن ذا الذي حفظ المياه والنباتات؟
ومن ذا الذي سخر للرياح والسحب سرعتها؟
ومن ذا الذي أخرج العقل الخيِّر؟
إنه أنت يا واحد، يا أهورامزدا.
من يستطيع أن يحمي شخصاً ضعيفاً مثلي؟
أي كائن غيرك يقوى نشاطه على تنفيذ مبدأ الاستقامة والتقوى؟
اكشف لي أسرار المعرفة كي تساعدني على نشر دينك.
أيها الإله الواحد الحكيم.. يا أهورامزدا[١].

يستطيع أي متعبِّد مسلم أو مسيحي أن يردد تلاوة هذه المناجاة للإله الواحد خالق السموات والأرض القادر على كل شيء دونما أي انحراف أو خروج على مفاهيم دينه ومعتقده. فحياة زرادشت حياة نبي، وقوله قول نبي، ورسالته رسالة نبي، وأعماله أعمال نبي، ودينه دين سماوي يتناسب مع مستوى وعي شعبه، وثقافة زمانه. فكان دينه مقدمة لعبادة الإله الواحد، وممهداً لاعتناق أمة الفرس الإسلام، آخر رسالات السماء، وكمال التوحيد الإلهي، وهدي السماء.

---

(١) قصة الديانات، سليمان مظهر، الوطن العربي، بيروت، ص ٢٥٩.

الفصل الثالث عشر

ديانـة التوحيـد المصريـة

استقر في ذهن المؤمنين من اليهود والمسيحيين والمسلمين أن أول دين توحيدي هو الدين اليهودي أو الرسالة التي أنزلت على نبي الله موسى. لكن الله أرسل أنبياء كثر قبل موسى. يسمي لنا القرآن بعضاً منهم. والنبي المرسل من الله لا بد وأن يكون يحمل رسالة الله الواحد إلى الناس، ويدعوهم إلى عبادته تعالى وحده. فالتوحيد هو دين الله في الأرض منذ آدم. لكن العقل البشري في طفولته لم يكن قادراً على استيعاب فكرة الإله الواحد الذي بيده مقاليد هذا الوجود كله. فالوجود متعدد الأشكال ومتعدد الطاقات والأنواع ومصادر الحياة. فهناك الأمطار التي تسقي الأرض لا بد من منزل لها، ولا بد من قادر على إنبات الزرع بعد ري التربة بالماء، ولا بد من قوة خارقة لإحداث صوت الرعد القاصف ولمع البرق الخاطف. ولا بد للرياح العاتية والعواصف الهوجاء والزلازل المدمرة من آلهة تحدث كلاً منها. ولا بد لنضرة الربيع من إله، ولحر الصيف من إله، ولقرّ الشتاء من إله، وللمطر المحيي من إله، ولا بد للحياة من إله، وللموت من إله... الخ. فما كان لتلك العقول البدائية أن تستوعب أن قوة واحدة قادرة على أن تحدث كل تلك الخوارق في الوجود، فاعتبرت أن وراء كل حادث مُحدِث. وهؤلاء المُحْدِثون القادرون هم فوق البشر، وهم كائنات جبارة، تتحكم بمصائر الناس؛ تستطيع إذا ما غضبت إطفاء نور الشمس التي تمدهم بالدفء والنور، وتستطيع حبس المطر الذي يروي حقولهم التي تمدهم بالغذاء، وتجفف ينابيعهم التي تروي

ظمأهم، وهي، باختصار، تملك مصير البشر وأقدارهم؛ بيدها حياتهم وموتهم. لذلك لا بد لهم من استرضائها، بتقديم الذبائح والقرابين لها، ولا بد من إقامة التماثيل والمعابد التي تتلى فيها الصلوات، تقرباً واستجداء لعطفها.

وعندما جاء أنبياء الله لهداية الناس والتبشير بالإله الواحد القادر على كل شيء، لم تكن دعواتهم تلقى العقول القادرة على استيعاب تلك الدعوات. والكف عن عبادة الآلهة المتعددة من أجل حصر العبادة بإله فرد. فكان مصيرهم الصد والاضطهاد والتعذيب وأخيراً القتل. وقد أوردت لنا الكتب السماوية صوراً بينة عن حياة أولئك الأنبياء، ولم تكن حياة إبراهيم الذي هرب من أور لينجو من غضب الملك والكهنة الذين حكموا عليه بالموت، وموسى الذي لاقى ما لاقى من المشاق والعذاب من قومه الذين دعاهم لعبادة الإله الواحد، ومحمد الذي رذل آلهة قومه وحمل إليهم رسالة التوحيد، ولاقى ما لاقى من الاضطهاد وتحمل الآلام، إلا النموذج لحياة وسيرة جميع الأنبياء والرسل.

ليس لدينا تفاصيل عن تلك الرسالات التوحيدية أكثر مما ورد في التوراة والقرآن من سيرة بعض الأنبياء كإبراهيم ونوح ولوط ويعقوب ويوسف، وما ألمح إليه القرآن من ذكر بعض الأنبياء كصالح وشعيب وهود... لكن التاريخ والمكتشفات الأثرية حفظت لنا معلومات وافية عن دعوة توحيدية عاشت ردحاً من الزمن فوق أرض مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ولعل حفظ تاريخ وآثار هذه الدعوة سببه أن داعيتها كان ملكاً، تسنم عرش مصر تحت اسم أمنحوتب الرابع. لكنه بدل اسمه بـ«أخناتون» أي «أتون راضٍ»، أو «خادم أتون». وأتون هو الإله الواحد الذي آمن به ودعى شعبه لترك عبادة الأوثان المنصوبة للآلهة في المعابد المصرية والتعبد لها.

ما إن تولى الملْك حتى ثار على دين «أمون» إله طيبة وعلى الأساليب التي يتبعها كهنته الذين يتحكمون بثروة البلاد وسياستها. فقد كان في الهيكل العظيم بالكرنك طائفة كبيرة من النساء يُتخذن سراري لأمون في الظاهر، وليستمتع بهنّ الكهنة في الحقيقة.

وكان الملك الشاب في حياته الخاصة مثالاً للطهر والأمانة، فلم يرضه هذا العهر المقدس. وكانت رائحة دم الكباش التي تقدم قرباناً لأمون كريهة نتنة في خياشيمه. كما كان اتجار الكهنة في السحر والرقي، واستخدامهم نبوءات أمون للضغط على الأفكار باسم الدين، ولنشر الفساد السياسي، مما تعافه نفسه. فثار على ذلك ثورة عنيفة، وقال في هذا: «إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من كل ما سمعت». وثارت نفسه على الفساد الذي تدهور إليه دين شعبه. وكره المال الحرام والمراسم المترفة التي كانت تملأ الهياكل. واحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة. ثار الملك الشاعر على هذا كله؛ فلم يقبل تراضياً ولم يقنع بأنصاف حلول، وأعلن بشجاعة أن هاتيك الآلهة وجميع ما في الدين من احتفالات وطقوس وتقديم قرابين كلها وثنية منحطة، وأن ليس للعالم إلا إله واحد هو أتون»[١].

«اعتبر أتون الإله الأحد، ورمز إليه بقرص الشمس، مصدر الحياة لكل الكائنات الحية على وجه الأرض، وأنه الإله المحيي لكل الكائنات. وأنه القوة القادرة الخفية التي خلقت الكون، ونظّمت مسيرته، وأنه أزلي أبدي، خيّر ورحيم وأنيس. وقد عرّفه العلامة لافون بأنه: «خالق نفسه بنفسه، وأنه ليس الشمس نفسها، إنما هو الحرارة المحيية فيها، وهو ينبوع كل حياة بواسطة حرارة هذه الشمس. وهو الإله الأحد، ولا إله سواه، ولا سلطان إزاء سلطانه»[٢].

---

(١) راجع قصة الحضارة ـ ول ديورانت، المجلد ١، الفصل الرابع، ص ١٦٨-١٦٩.

(٢) موسوعة الأديان، تأليف الدكتور سامي أبو شقرا، دار الاختصاص للنشر، ص ١٩٨.

ويرى أخناتون أن إلهه رب الأمم كلها، بل إنه في مديحه لأتون يذكر، قبل مصر، غيرها من البلاد التي يوليها الإله عنايته. فإلهه عالمي وليس إله قبيلة كيهوه إله إسرائيل وحدها. وفي شعره يصف أتون بأنه يوجد في الأزهار والأشجار وفي جميع صور الحياة والنماء، وهو الفرحة التي تجعل الخراف الصغرى «ترقص فوق أرجلها» والطير «ترفرف بأجنحتها». ولم يره قط موجوداً بين الجيوش وساحات القتال والانتصارات الحربية كيهوه. بل إن هذا الإله الحق هو رب الرحمة والسلام، وهو رمز للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب[1].

ورغم أنه شجع الفنون، وترك للفنانين في عصره حرية الرسم والتصوير والنحت، إلا أنه حرم عليهم تصوير أو نحت تمثال للإله أتون كسائر الآلهة المصرية التي حطّم تماثيلها وحرّم عبادتها. كما فعل أنبياء التوحيد من بعده كموسى ومحمد.

رفع المسلات المشيرة إلى وحدانية الله. وبنى مدينة في جوار «طيبة» أسماها «أخناتون» وهي اليوم تل العمارنة. وجعلها مدينة مطهَّرة من التماثيل، خالصة لعبادة الإله الواحد. وحرم على الكهنة، الذين يؤمنون بعبادة الآلهة المتعددة المتمثلة بالتماثيل، دخولها. فالصلاة في عهده أصبحت توجه إلى الله مباشرة، وليس بواسطة التماثيل[2]. فالله الواحد الخالق هو الجدير بالعبادة.

عاش الشاعر الملك عيشة البساطة والاطمئنان. وبعد عن حياة الترف والأبهة الملكية. لم يتزوج إلا امرأة واحدة، ورغم أنها أنجبت له سبع بنات، ولم تنجب له ذكراً، مع أن القانون يبيح له أن يطلب وارثاً ذكراً من امرأة

---

(١) قصة الحضارة ــ ول ديورانت ــ مجلد ١، الفصل الرابع، ص ١٧٧.

(٢) من كهان مصر القديمة ــ سبيرج سونيرون، ص ٢٠٠.

ثانية، فإنه لم يقدم على هذا الحل، وآثر أن يظل وفياً لزوجه. وكان في قسمه يقسم بهذه الصيغة: «بقدر ما تُسعد الملكة قلبي وأطفالها».

لقد كان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان في تاريخ ملوك مصر[1]. وعرفت حياته بالصدق والتقشف والتواضع ونبذ سفك الدماء والحروب والفتوح.

وما إن توفي ذلك المصلح الموحد حتى هبّ أعداء حركته التوحيدية وعلى رأسهم كهنة أمون إلى إعادة المعابد التعددية وممارسة كهانتهم على العامة، وإعادة الطقوس الوثنية التي حرمها أخناتون. وعملوا على محو كل أثر لعبادة الإله الواحد. كما فعل العرب بعد نبيهم إسماعيل.

من شعر وتسابيح أخناتون التي عثر عليها في مقابر عدة:

أنت أفضت على القطرين حبك وبرك، يا صاحب الأمر، يا فاطر كل أرض بما عليها؛ بشراً وأنعاماً. أنت جمعت الدنيا ووحدتها، فلا ميزة لمصري على سوري أو سواه. الحمد لك لأنك أدخلتني في عداد المقربين إليك.

وله صلاة موجزة تقول: اجعلني أستقر في مقام الأبد، وأبلغني كهف البقاء، ووفقني إلى مفارقة مسكني ودخول مثواي، دون أن تعيق نفسي شهواتها[2].

من مناجاته لله يقول:

إلهي.. الناس عنك غافلون.

وأنا مالئ جوارحي.

حسب أخناتون منك.. إن لم يكن ابنك

---

(١) قصة الحضارة، مجلد ١، الفصل الرابع، ص ١٧٨.

(٢) موسوعة الأديان، الدكتور سامي أبو شقرا، جزء أول، ص ٢٠٣.

إنك أنت الذي عرّفته طبيعتك وقدرتك
خلقت العالم فغدت مخلوقاتك بين يديك
إذا انكشفت لهم عاشوا.. وإن تحجبت ماتوا
أنت سر وجودهم.. ومنك استمدوا البقاء.

* * *

أنت أيها الإله الواحد الفرد
لا وجود لإله سواك
بمشيئتك خلقت الأرض ومن عليها
خلقت الإنسان والحيوان وضواري الصحراء
أنت السيد المفضل، والمبدع الأول

* * *

أنت يا من يجعل من البذرة إنساناً
أنت الذي يُعْنَى بالطفل في رحم أمه
وحين يولد ويرى النور، يفتح فمه أولاً
فتمده بكل ما يحتاج إليه
أيها الإله الذي لا شبيه له
خلقت الدنيا كما شئت
أنت أتون شمس النهار، عظيم البهاء
أنت تعطي الحياة لكل البلدان القاصية
أنت في قلبي وليس هناك من يعرفك غير ابنك
أنت خالقه[1].

* * *

---

(١) موسوعة الأديان، الدكتور سامي أبو شقرا، جزء أول، ص ٢٠٣.

أنت تملأ الأرض بحبك أيها الإله المعبود
الذي صنع نفسه بنفسه
الذي صنع كل أرض وخلق كل ما عليها
ما أكثر مخلوقاتك التي نجهلها
أنت الإله الأحد لا شريك لك
خلقت الأرض بإرادتك
ولما كنت وحيداً في هذا الكون
خلقت الإنسان والحيوان.. الكبير والصغير
والمخلوقات التي تدب في الأرض أو تطير بأجنحتها
أنت الذي أحللت كل إنسان في موضع
وأنعمت عليه بحاجاته
فصار كل منهم يأخذ نصيبه
ويعيش أيامه المعدودة
لقد خلقت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم
فسبحانك من مميز لخلقك[1].

أخناتون النبي

إن الدارس لسيرة أخناتون وتعاليمه التي عرّفت بالإله الواحد رب جميع الناس وخالق جميع ما في هذا الكون، وحرّمت عبادة الأوثان وتقديم الأضاحي لها، ودعوته وممارسته لحياة الاستقامة والتواضع، والبعد عن حياة الترف والأبهة التي درجت عليها حياة الملوك الفراعنة من قبله ومن بعده، لأكبر دليل على نبوته. ولدى مقارنته مع داوود وسليمان الملكين النبيين، نلمح في أخناتون حقيقة النبي الشاعر الملك، الصادق مع الله في دعوته، الصادق في سلوكه، شأن سائر الأنبياء والمرسلين.

---

(١) قصة الديانات، تأليف سليمان مظهر، دار الوطن العربي القاهر، بيروت، ص ١٩.

هل كان أخناتون هو النبي الوحيد الذي أرسل إلى مصر؟

مـــن دراســـتنا لما تبقى من آثار الديانات المصرية قبل أخناتون النبي الموحِّد نجد أن آثار الوحي الإلهي بادية في الكثير من مفاهيمها. وأبرز هذه المفاهـــيم هـــو مفهوم العدل الإلهي وخضوع النفوس البشرية للمحاكمة يوم الحساب (بعد الموت) على أعمالهم. والاعتراف بأن مكانة الإنسان في عالم مـــا بعـــد الموت تكون نتيجة أعماله في هذه الدنيا، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فقيامة الأموات، وخضوع النفوس للمحاسبة عند تلك القيامة، وحكم الله العادل بين العباد، ودخول النفس إلى النعيم أو إلى الجحيم وفق أعمالها، هذا المفهـــوم هـــو لـــب ديانتي المسيحية والإسلام، الديانتين الأحدث في سلسلة الرسالات السماوية.

نـــورد فـــيما يلي بعض النصوص المكتشفة في الآثار المصرية الدالة علـــى صفات الله، المقتبسة من كتاب «الديانة الفرعونية» تأليف السير ولِس بَـــدْج. تـــرجمة: يوســـف ســـامي اليوسف، دار المجد: دمشق. Egyptian Religion by E.A. Wallis Budge.

يقتـــبس الكاتب من كتاب «تراتيل إلى النيل» لمسبير وبنشر ـــ باريس ١٨٦٨ فـــي صـــفحة ٦٠: «إنه لا يمكن تمثيله في الحجر، وإنه لا يمكن أن يرى في الصخور المنحوتة. وما من عمل أو من قربان يمكن أن يقرب إليه. وليس من الميسور أن نجعله يأتي من مكانه السري. مجهول هو المحل الذي يحل فيه، ويتعذر أن نلقاه في المزارات المنقَّشة، فلا وجود لمسكن يمكنه أن يحتويه، وليس يسعك أن تدرك صورته في قلبك».

وفي الصفحة ٦١ يقتبس المؤلف من كتاب الدين والمثولوجيا للدكتور بـــروخ H. Brugsch ص ٩٦-٩٩، عـــدداً من الصفات المنسوبة إلى الإله، وذلـــك من نصوص تنتمي إلى الأحقاب كلها. من هذه الصفات ـــ كما يقول

المؤلــف ـ نملك أن ندرك أن الأفكار والمعتقدات المصرية فيما يتعلق بالله إنما كانت في الغالب هي عين الأفكار والمعتقدات عند العبرانيين والمسلمين في عصور لاحقة. ولدى تصنيف هذه الصفات فإنها تقرأ على هذا النحو:

ـ إن الله واحد ووحيد، وما من إله آخر معه، إن الله واحد وهو الواحد الذي خلق الأشياء طراً.

ـ إن الله روح، روح مخــبوء، روح الأرواح، الــروح العظمـــى، الروح المقدس.

ـ إن الله هو البداية، ولقد كان منذ البداية، لقد وجد منذ القِدم.

ـ لقــد كان عندما لم يكن بشيء كينونة، لقد وجد عندما لم يوجد شيء آخر، وما وجد فقد خلقه هو بعدما جاء إلى الكينونة. إنه والد البدايات.

ـ إن الله هــو الواحــد الأبــدي، إنه أبدي وغير محدود. وهو يدوم إلى أبد الدهر.

ـ إن الله هو الكائن المخبوء، وما من أحد قد عرف صورته. وما من أحد قد استطاع أن يجد له مثيلاً. وهو خفي عن الآلهة والبشر، وهو مستور عن مخلوقاته.

ـ مــا من أحد يعرف كيف يمكن له أن يعرفه. ويبقى اسمه مخبوءاً، أسماؤه لا تحصى، وهي كثيرة الأوجه، وما من أحد يعرف لها عدداً.

ـ الله هو الحقيقة وهو يعيش بالحقيقة، وبها يغتذي، إلا انه ملك الحقيقة، وهو ينفذ الحقيقة في العالم أجمع.

ـ الله هو الحياة، ومن خلاله وحده يحيا الإنسان. فهو واهب الحياة للبشر.

ـ إن الله هو الوالد والوالدة، والد الآباء، وأم الأمهات. ولكنه لم يولد قط. إنه ينــتِج ولكنه لم ينتَج قط. لقد أنجب نفسه وأنتج نفسه. إنه يخلق ولكنه لم يخلق قط.

- إنه صانع صورته الخاصة، وصانع جسده الخاص.
- إن الله نفسه هو الوجود، إنه يحيا في الأشياء طراً، ويعيش فوق الأشياء كلها. وهو يدوم بغير زيادة أو نقصان.
- لقد خلق الله الكون، وخلق كل ما يكون. إنه خالق جميع ما في هذا العالم؛ جميع ما قد كان وجميع ما يكون، إنه خالق العالم... إنه خالق السموات والأرض والأعماق والمياه والجبال. لقد بسط الله السموات وأسس الأرض. فما يتخيله فؤاده يصير على النور، وحين يكون قد تكلم فإن كلمته تتحقق، وإنها تدوم إلى الأبد.
- إن الله هو والد الآلهة[1] لقد صاغ الإنسانية وشكّل الآلهة، إنه المعلم العظيم الخزّاف الذي أخرج الآلهة والبشر من بين يديه.
- إن الله رحيم بالنسبة إلى من يحمدونه. وهو يسمع دعوة من يدعوه، وإنه يحمي الضعيف من القوي، ويسمع صرخة المغلول بالأغلال. وهو يقضي بين القوي والضعيف. إن الله ليعرف من عرفه، ويكافئ من خدمه، ويحمي من اتبعه.

«واضح تماماً من هذه المقبوسات أن صفات إله الأديان السماوية قد تأسس في مصر. لم يبق على التوحيدين والتنزيهيين إلا أن يحذفوا القليل من صفات الإله الفرعوني الواحد لكي تبقى سمات إله الأديان السماوية كلها» (تعليق المترجم، ص ٦٣).

وبالنسبة لخلق الأرض والسماء، وفق كتابات المصريين، يذكر المؤلف في الصفحة ٦٣:

---

(١) مفهوم الآلهة المخلوقة من الله في الديانات القديمة هو كمفهوم الملائكة المخلوقين من الله. والذين ينفذون إرادة الله في إدارة هذا الكون وفق المفهوم المسيحي والإسلامي.

«كـــان ثمة زمن لم يكن فيه للسماء والأرض من وجود، ولم يكن فيه شـــيء من كينونة عدا الماء البدئي، اللامتناهي، وهو، على أية حال، ما كان مغطـــى بـــأغلظ الظلمات. ولقد ظل الماء البدئي على هذا الشأن طوال حقبة عظـــيمة، بالـــرغم مـــن أنه كان يحتوي في داخله على جراثيم الأشياء التي جـــاءت إلـــى هذا العالم فيما بعد، وكذلك على العالم نفسه. ومع طول المدة، شـــعر روح الماء البدئي بالرغبة في الفاعلية الخلاقة، ونطق بالكلمة، فقفزت الكلمة إلى الكينوة على الهيئة التي سبق لها أن تشكلت في عقل الروح قبل أن ينطق بالكلمة التي أثمرت المخلوقات[١].

ومـــن الوصايا المسداة إلى المؤمن لنيل رضى الله، مأخوذة من مبادئ خنســـو ـــ حتـــب. وهو عمل ربما وضع في عصر السلالة الثامنة عشرة، اختار المؤف في الصفحة ٥٥ الفقرات التالية:

١ ـــ إن الله يعظم نفسه.

٢ ـــ مـــا يكرهه بيت الله هو الكلام. أطلب بفؤاد ولهان جميع المطالب التي فـــي الســـر. إنـــه سوف ينجز لك عملك. وإنه سوف يسمع ما تقول، وسوف يقبل ما تقدم إليه.

٣ ـــ إن الله يأمر بالحق.

٤ ـــ حيـــن تقرب قرباناً إلى الله احترس من الأشياء المكروهة عنده، شاهد خططه بأم عينك، وكرس نفسك لتمجيد اسمه. إنه يهب النفوس لملايين الصور. فذاك الذي يمجد الله يمجده الله.

٥ ـــ لئن رفعت أمك يديها إلى الله فسوف يسمع صلواتها ويوبخك.

٦ ـــ افتح نفسك لله، وخصص نفسك لله يومياً.

---

(١) لاحـــظ التشـــابه بيـــن هذه الصورة وبين عملية الخلق في الأسطر الأولى من سفر التكويـــن. وفي قول القرآن: وكان عرشه على الماء. وفي قوله: «**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**».

ومن مبادئ بتاع ــ حتب وهي أعمال وضعت حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (صفحة ٥٣-٥٤) اقتبس المؤلف الفقرات التالية:

١ ــ إنــك لــن تجعل أياً من الرجل أو المرأة خائفين لأن هذا اعتداء على حدود الله.

٢ ــ لأن أهــنت نفسك خدمة لإنسان كامل، فإن سلوكك سوف يكون كاملاً أمام الله.

٣ ــ إذا شئت أن تكون إنساناً عاقلاً فاحرص أن يكون ابنك مرضياً عند الله.

٤ ــ ارضِ أولئك الذين يعتمدون عليك بأقصى ما لديك من قدرة، إن ذلك ما ينبغي أن يفعله أولئك الذين يحبهم الله.

٥ ــ لئن أصبحت عظيماً بعد أن كنت بغير قيمة، ولئن أصبحت غنياً بعد أن كنت فقيراً، ولئن صرت حاكماً للمدينة، فلا تكونن غليظ القلب بفعل ما أحــرزته من تقدم، لأنك ما صرت إلا حارساً للأشياء التي قدمها الله لك.

٦ ــ ما يحبه الله هو الطاعة، والله يكره العصيان.

٧ ــ حقاً إن الولد الطيب هو من هبات الله.

نلمس في هذه النصوص أثر النبوة والتعاليم الربانية واضحة جلية في صــفات الله وفــي أوامــره. إذ لا نــرى أي تناقض بين هذه التعاليم وبين الرســالات السماوية التي جاءت بعدها بآلاف السنين. فالله واحد، ورسالاته واحدة. وإن اختلفت في مستوى تعاليمها من أجل أن تتلاءم مع مستوى وعي ناس العصر الذي نزلت عليهم، فهي في جوهرها واحدة. والله لم يترك شعباً مــن الشــعوب إلا وأرسل لــه من يهديه إلى الصراط المستقيم. بذلك يقول القــرآن: «**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**» (فاطر، ٢٤). لكن تدخل الكهنة ورجــال الدين، كان يحوّر تلك الرسالات الإلهية بحيث تتلاءم مع مصالحهم

واســتيعاب عقولهم، ومع مصلحة الطبقة الحاكمة ليتسنى لها الاستمرار في إخضـــاع شعوبها، واستغلالها، والتحكُّم بمصائرها. لكن رسالات السماء لا زالت تترى، حتى تم كمالها بالقرآن الكريم الذي كان الرسالة الصالحة لجميع العصور التي أتت والتي سوف تأتي بعدها. والتي استوعبت واحتوت كل ما سبقها من رسالات السماء.

ابــتدع المصريون آلهة متعددة. تصوروها على شاكلتهم، عاشوا على الأرض، وتعرضــوا لمــا تتعــرض لـــه الحياة الإنسانية من أفراح وآلام. واعتورهم ما يعتور الإنسان من ضعف أو موت. كان لهم ما له من غرائز وشـــهوات. إلا أنهم «تمثلوا فوق هذه الآلهة المتعددة إلهاً أكبر وأعظم.. هو القوي.. الطيب.. العادل.. الرحيم»[1].

مــن أبــرز آثــار الوحي الإلهي في ديانة المصريين، بعد الاعتراف بوحدانــية الإله الخالق القادر على كل شيء، الإيمان بالحياة الأخرى وبيوم الديــنونة الذي تخضع له كل نفس إنسانية. ويكون مصيرها في الآخرة وفق عملها في هذه الحياة.

نــورد بعض صور محاكمة النفوس بعد الموت، وحكم العدالة الإلهية التــي توفي كل إنسان نتيجة عمله؛ إن خيراً ففي حياة النعيم، وإن شراً ففي دركات الجحيم.

تشــكل المحكمـــة الإلهـــية مـــن اثنين وأربعين قاضياً. ويوضع قلب المُقاضـــى فـــي كفـــة الميـــزان، والريشة التي ترمز إلى ماعت، ربة الحق والصدق والناموس، في الكفة الأخرى.

فـــإذا تعادلـــت كفتا الميزان وتساوى قلب المتوفي المقاضى مع رمز القانـــون، أي تـــوازنت فضائله مع كفة الحقيقة فسوف يصدر الحكم لصالحه

---

(١) قصة الديانات، سليمان مظهر، دار الوطن العربي، بيروت، ص ٢٩.

بالســعادة الأبديــة، وإلا فهــناك وحش يسمى «ملتهم الموتى» يقف منتظراً القضاء ليلتهم قلبه.

ففــي حالــة تعادل كفة قلبه مع الريشة الرامزة إلى ماعت أو «الحق والصــدق والناموس» فيعلن ماتحوت كاتب المحكمة النتيجة مخاطباً القضاة على النحو التالي:

أصــيخي السمع، أنت أيتها المحكمة. لقد وزن قلب أوزريس بالصدق كله؛ ولقد وقفت نفسه كشاهد من أجله، لقد وجد صادقاً بالاختبار في الميزان العظيم. لم يوجد فيه أي لؤم؛ إنه لم يتلف القرابين في المعابد، إنه لم يرتكب الأذى بأعمالــه، وإنه لم ينشر الشائعات الشريرة عندما كان على الأرض... فلســوف يمنح حق الدخول إلى حضرة أوزريس، وكذلك سوف يوهب منزلاً في حقل السلام».

أما المتوفى الذي حكم له بالبراءة، فلا بد أن يكون قد صدق بالتصريح التالي أمام المحكمة:

«ما شتم الله، ولا وبَّخ إله المدينة، ولا لعن الملك، ولا ارتكب السرقة أيــاً كان نوعها، ولا القتل ولا الزنا، ولا اللواط، ولا الجرائم ضد الخلق. لم يكن متعجرفاً ولا متغطرساً، ولا كان عنيفاً أو غاضباً، أو متسرعاً في العمل أو مــنافقاً، أو محابياً للأشخاص، أو ملحداً، أو مختالاً، أو جشعاً، أو محتالاً، أو صــاماً أذنــيه عــن كلمات التقوى، أو حليفاً لأفعال الشر، أو متكبراً، أو منــتفخاً، أو أرعب أحداً، ولا غش في ساحة السوق، ولا لوث مجاري المياه العامــة، ولا خرّب الأرض المفلوحة المشتركة... لم اذنب، ولم أفعل الشر، ولــم أشــهد شهادة الزور، لهذا لا تدعوا أيما شر يصيبني، إنني أعيش على الحــق والصــدق، وإننــي أغتذي بالحق والصدق، لقد نفذت وصايا البشر وعملــت الأشــياء التي تعظم الله. لقد صنعت الأشياء التي هي إرادته. لقد أعطــيت الخبز للإنسان الجائع، والماء للعطشان، والكساء للعريان... كونوا

منقذين لي، وكونوا حماتي، ولا تتهموني في حضرة أوزريس. أنا نظيف الفم واليدين، لذا، فليقل لي الذين يشاهدونني: تعال بسلام، تعال بسلام»[١].

وينقل لنا فلسيان شالي في كتابه موجز تاريخ الأديان من كتاب الموتى[٢]، الفصل ١٢٥، ما ينبغي أن يقوله الميت أمام محكمة أوزريس إذا كان صاحب مسؤولية:

«إنني لم أؤذِ أحداً قط بالخداع، ولم أجعل أقربائي بؤساء. ولم آتِ بأية دناءة في بيت الحقيقة. ولم أتواطأ مع الشر، ولم أفعل الشر، ولم أطلب، كرئيس للناس، أن يقوموا بأعمال إضافة إلى المهمة التي اتفق عليها، ولم يوجد بسببي لا خائف، ولا فقير، ولا مريض، ولا بائس. ولم أعمل قط ما تكرهه الآلهة، ولم أكذب على أي إنسان، ولم أدع السيد يسيء معاملة عبده، ولم أسبب الجوع لأحد، ولم أحمل أحداً على البكاء. ولم أقتل قط، ولم آمر مطلقاً بالقتل، بصورة غير مشروعة. ولم أكذب على أحد. ولم أنهب مطلقاً مخزونات المعابد... ولم أزنِ قط. ولم أرتكب أعمالاً مخزية مع كاهن منطقتي الدينية، ولم أغلِ أسعار المواد التموينية، ولا قللتها... ولم أضغط قط على الميزان، ولم أتلاعب أو أغش في الوزن الذي أشار إليه الميزان. ولم أبعد الحليب قط عن فم الرضيع، ولم أنهب مطلقاً من الماشية في مراعيها شيئاً، ولم آخذ طيور الآلهة بالشبكة، ولم أصطد سمكاً ميتاً. ولم أدفع قط الماء أيام الفيضان، ولم أحرف الماء عن قناته... إني بريء بريء بريء»[٣].

---

(١) الديانة الفرعونية ـ تأليف السر ولِس بدْج، ترجمة يوسف سامي اليوسف، ص ١٦٥ و١٧٣ و١٨٧.

(٢) Pierret, Le Livre des Morts des Anciens Egyptiens, Paris, Bib. oriantale, ١٩٠٧.

(٣) موجز تاريخ الأديان، فلسيان شالي، ترجمة حافظ الجمالي، دمشق، ص ٥٥.

إن هــذه النصوص النماذج التي ينبغي أن يتفوه بها الميت أمام العدالة الإلهية وهذا السلوك الإيجابي منه والسلبي (عملت كذا... ولم أعمل كذا) إنما هــو السلوك المتوجب على الإنسان في نصوص القرآن والسنة النبوية، من التــزم به نجح في الامتحان ونال رضى الله ودخل الجنة، ومن غلبت سيئاته علــى حسناته دخل النار ولم يكلمه الله ولم ينظر إليه يوم القيامة. بهذا يقول القــرآن الكــريم: «**فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه، فأمه هاوية، وما أدراك ماهيه، نار حامية**» (سورة القارعة، ٦-١١). فالميــزان في محاكمة «أوزريس» الإله كما سماه المصريون، هو نفس ميزان العدالة الذي توزن به أعمال الإنسان أمام الله يوم القيامة، كما في نص القرآن، ولئن اختلف الشكل فالمضمون واحد.

الفصل الرابع عشر

الديـن والثقافـة الحديثـة

الثقافة هي مجموعة العلوم والمعارف والفنون لدى شعب من الشعوب التـــي ينتج عنها منظومة أفكاره ومفاهيمه وأخلاقه، وقواعد سلوكه، وطريقة عيشـــه، ولباسه وعلاقاته مع الناس والطبيعة، والعلاقة بين الجنسين، وكيفية التعبير عنها.

مـــن هنا، نجد أن لكل شعب من الشعوب ثقافته الخاصة التي حصّلها عبر ما تكون لديه من معارف، وما تراكم في وجدانه من خبرات، نتيجة ما اكتســبه مـــن تجاربـــه التاريخية، وما رسخ في أذهان أفراده من قيم دينية ودنـــيوية تنعكس على سلوك الإنسان فرداً ومجتمعاً. فكل ثقافة تنبع من فهم معـــين للحـــياة وللإنسان. وعندما نتحدث عن الثقافة، لا بد من التمييز بين ثقافتين: الثقافة الغربية، والثقافة الشرقية.

أ ـ الثقافة الغربية

قـــبل الخوض في بحث الثقافة الغربية، لا بد من توضيح معنى كلمتي علمانـــية Secularism وعلمـــيّة Scientism. فالمنتسب للأولى هو علماني Secular والمنتسب للثانية هو عِلمِي Scientific.

فالعلمانية تعني عدم المبالاة بالدين أو الاعتبارات الدينية. والعلمية، هي مشـــتقة مـــن العلـــم، وهي تعني منهج البحث العلمي، على أساس الملاحظة

والتجربة. والفارق كبير بين اللفظتين في اللغات الأوروبية. لكنهما تتقاربان، ويخلط بينهما في اللغة العربية.

فالعلم، ومنهج البحث فيه (العِلْميّة)، عالميان. لا يختلف فيهما اثنان من علماء الأرض. مهما اختلفت مفاهيمهم العقائدية، وانتماءاتهم الدينية والقومية.

أمـــا الخلاف، فيقع عندما يتخذ هذا المنهج كفلسفة (كما في العلمانية) لتطبـــيقه علـــى العلوم الإنسانية كافة، كما طبق في العلوم المادية الصرفة، واعتـــبار أن كل ما في هذا الوجود، مادي، يخضع لقوانين حتمية، وعلاقات ثابتة، كما في قوانين الفيزياء، والتنكّر للبعد الروحي للإنسان، واعتباره كياناً ماديـــاً صـــرفاً، ينطبق عليه ما ينطبق على المادة الجامدة، كما في المذهب الوضـــعي. وطـــبقوه علـــى المجتمع والإنسان والحياة، وكل جوانب النفس الإنسانية.

فالعلمانـــية تعني اللاديني، والفصل الكلي بين الله والإنسان؛ أي فصل الدين عن الحياة بمساراتها كافة، بما فيها فصل الدين عن الدولة؛ أي التخلي عـــن الدين كمصدر من مصادر التشريع، أو كناظم لسلوك الفرد والمجتمع. وبالتالـــي التخلـــي عن القيم والأخلاق الدينية، والإيمان بسيادة الإنسان على نفســـه، وعلـــى رسم قيمه ومسارات سلوكه وتنظيم حياته ذاتياً، مستغنياً عن الناموس الديني، والرقابة الإلهية. فالعلمانية هي مخطط كامل يستهدف إقصاء الديـــن عـــن كـــل مياديـــن الفكر والحياة؛ عن القوانين والتعليم والاقتصاد والسياسة، والعلاقات الإنسانية كافة. هذا المصطلح فرضته أحداث وظروف تاريخـــية فـــي الغرب، نتيجة صراع مرير بين رجال الكنيسة وبين العلماء. فكـــان مـــردود هذا الصراع انتصار العلم، والتنكّر لكل ما هو ديني، وسيادة مبدأ العلمانية (كما سيأتي شرحه).

لـــيس بين الدين والعلم خلاف، لكن الخلاف واقع بين الدين والفلسفة. وبالتالـــي، لا خـــلاف بيـــن الديـــن والعلمية كطريقة لمعرفة أسرار المادة

وقوانيـــنها، وإنما الخلاف واقع بين الدين والعلمانية كفلسفة مادية، تنكر أي وجود أو معرفة خارج نطاق المادة.

إن مفهوم كلمة علم Science، في المفهوم الغربي المعاصر، تعني فقط العلـــم التجريبـــي القـــائم على المحسوس، كعلم الطبيعة، وكل ما يقع تحت المشاهدة والتجربة والاختبار. والوسيلة الوحيدة لإدراكه هي الطريقة العلميّة. فحصروا المعرفة الإنسانية في عالم المادة، وأنكروا ما عداها.

فـــالعلم، مـــن حيث كونه يبحث في المادة والطبيعة لاكتشاف قوانينها، والـــتعامل معها، فلا مجال فيه للدين، ولا شأن له فيه. وإنما يأتي دور الدين فـــي اســـتعمال نتائج هذا العلم: هل يجوز إنتاج أسلحة الدمار الشامل أم لا يجـــوز؟ هل يجوز استنساخ الإنسان أم لا يجوز؟ هل يجوز شن حرب على شـــعب مـــن الشعوب، وسفك الدماء، وتدمير الحياة، من أجل تأمين مصلحة مادية للشعب المحارب، أم لا يجوز؟...

كيف طغت العلمانية على المسيحية في الغرب

جـــاء في تعاليم المسيح: «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (مرقس ١٧/١٢). و«مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا ٣٦/١٨). فالمسيح، وفق هاتيـــن الآيتين، لم يأتِ لإقامة الدولة المسيحية على الأرض، بل جاء ليثبت قواعد السلوك الإنساني، ويضع المعايير الثابتة للأخلاق والقيم، وينظم العلاقة مـــع الله عـــن طـــريق الصلاة والصوم، وتطهير النفس الإنسانية من أدران المـــادة، ليسمو بها إلى علياء الروح والقرب من الله. والزهد في الحياة الدنيا الفانـــية، والتطلع إلى الحياة الأخرى الخالدة، حيث تنعم فيها الروح بملكوت الله. فالمســـيح لم يأت بشريعة من أجل انتظام الحياة الدنيوية، وإقامة الدولة المدنية. وعلى هذا نهج المسيحيون الأول. لكن أباطرة الرومان لم يفهموهم، حيـــث لم يكن التمييز بين الديني والدنيوي قائماً في مفاهيم الشعوب القديمة. فكان ما كان من الاضطهاد والتعذيب لمعتنقي الدين المسيحي.

لكـــن، بعـــد اعتناق أباطرة الرومان الدين المسيحي، أصبحت الكنيسة المسيحية تتقاسم النفوذ مع الأباطرة. فقد أعلن البابا في نهاية القرن الخامس الميلادي أن العالم تحكمه قوتان: سياسية وروحية. فالبابا هو صاحب السلطة الروحية، والامبراطور هو صاحب السلطة الزمنية السياسية الذي ادعى أنه ظل الله على الأرض، وسلطته مستمدة منه عبر الكنيسة.

لكن، في ما يسمى القرون الوسطى، وحّد البابا السلطتين في يده: «هذه السلطة هي حق مطلق للكرسي الرسولي. يتمتع البابا بها لأنه نائب المسيح، وليس فقط نائب بطرس. وله تلك القدرة التي لم يمارسها المسيح فعلياً، على الصـــعيد الزمنـــي. ولكنه كان مستطيعاً ممارستها لأن ابن الله هو فعلاً سيد العـــالم. ويؤكد البابا اينوشنسيوس الرابع على تلك السلطة: «إن ملك الملوك نصّـــبنا علـــى الأرض كوكلاء عالميين، ومنحنا كامل السلطة، أمير الرسل ونحـــن، ســـلطة الربط والحل على الأرض... إن سلطة الحكومة الزمنية لا يمكـــن أن تمـــارس خارج الكنيسة، لأنه ليس من سلطة من الله خارجها. إن ســـيدنا يسوع المسيح، ابن الله، الإنسان الحق، والإله الحق، الملك الحقيقي، والكاهـــن الحقيقي، أسس لمصلحة الكرسي الرسولي مملكة ليست فقط حبرية بـــل ملكية. وكون البابا نائباً للمسيح، فقد تلقى سلطة ممارسة قضائه بواسطة أحـــد «مفاتيح المملكة» على الأرض، بخصوص الأشياء الزمنية، وبالمفتاح الآخـــر الأشـــياء الروحـــية. إلـــه واحد، إيمان واحد، كنيسة واحدة، سيادة وحيدة»[١].

في هذا العصر، الذي أُطلق عليه عصر الإيمان، حدث في أوروبا خلط بيـــن الزمنـــي والروحي، وبين الديني والدنيوي. بيد أن هذا لم يبرز بشكل واضح في الثقافة البيزنطية أو اللاهوت المسيحي الشرقي.

---

(١) موســـوعة تـــاريخ أوروبا العام، بيار غريمال ورفاقه، ج ١، ص ٥٥٩، منشورات عويدات، بيروت، باريس.

«إن قـيام الدولـة الثيوقراطـية برئاسة البابا، خلقت حالة من البلبلة والعـنف التاريخييـن، حيال علاقة الكنيسة بالسياسة، وحيال علاقة الكنيسة الكاثوليكـية بالذات بالكنائس الأخرى، وبالأديان والثقافات الأخرى. فأفرزت حالة من أشد المراحل قلقاً في تاريخ المسيحية الغربية. فعدا عن كونها خلقت مشاحنات بين سلطة الكنيسة البابوية وسلطة الملوك والأمراء، فإنها ساهمت فـي خلـق حـال من الجمود المذهبي، وإقفال مجال الاجتهاد في الكثير من المسائل اللاهوتية» (سهيل خوري ــ السفير).

وتقوقعـت الكنيسـة على نفسها، وانقطعت عن التزود بالثقافة العلمية والفلسـفية الجديدة، التي لم يكن بد للعقل الأوروبي من أن يخوض فيها، لا سيما وأنه قد وعى فلسفة اليونان، وعلوم العرب التي أشعت عليه من جامعة قرطبة التي كانت مكتبتها تحوي ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف كتاب. وكان ابن رشـد يعلّم فيها، وينقل فيها العلم اليوناني والهندي والفارسي. وكان طلاب العلـم يذهـبون إليها من مختلف البلدان الأوروبية. حيث ينقلون العلوم التي كانـت مزدهرة في البلاد الإسلامية؛ كالجبر والفلك والطبيعيات (البصريات) وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وعلم النبات والطب... الخ[(١)].

كانـت نتيجة لذلك التقوقع من قبل الكنيسة الكاثوليكية ارتكابها أخطاء تاريخـية بحق كبار العلماء. فأصدرت إدانات وأحكاماً لم تدرك فداحتها إلا بعد مرور قرون عدة، وقيام الثورة العلمية.

كان أنصار النزعة الدوغمائية المسيحوية يعتقدون، انطلاقاً من رؤيتهم المغلوطـة للدين والدنيا، أن كل سلطة منبثقة من الله. إلا أن حدوث الثورات المتوالـية، وبـروز المذاهـب الفلسفية المتجددة جعل هؤلاء يتقوقعون على أنفسـهم أكـثر، ويتصلبون في الدفاع المستميت عن تصوراتهم. الأمر الذي زود غلاة العلمانيين بحجج ضدهم. فكانت فترة التعارض بين الفكر الكنسي

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بيكاي، دار الكندي، بيروت، ص ١١١.

اللاهوتـــي والفكـــر العلماني على أشدها. وبموجب القانون الطبيعي، أن لكل فعـــل ردة فعـــل، فكـــان لردة فعل العلمانيين على رجال اللاهوت المسيحي (الإكليروس) حرباً ضروساً. حيث ثأروا لأنفسهم من أخصام الأمس، بالفصل كلـــياً بين المادي والروحي، أو بين العلمي والديني. فشهدت عصور النهضة العلمـــية الحديـــثة عزل رجال الدين كلياً عما هو دنيوي. وحُصر البابا في منطقة الفاتيكان، وصودرت جميع أملاك البابوية. وحدث الانقلاب التاريخي الـــذي فصل الدين عن الدنيا. وأصبح الدين علاقة شخصية، جد خاصة، بين الله والإنسان، ولم يعد له نفوذ على عالم الاجتماع، وعلاقات البشر، وحركة الحياة والعمل. وحُمّل الدين المسيحي أخطاء رجال الدين. وحمّل الإله أخطاء الإنسان. وعزل الإله عن المجتمع، وحصر مجال وجوده، في أحسن حالات التســامح العلمانـــي، بين جدران الكنيسة الأربع. ومنع من التدخل في حياة الـــناس. وتحولـــت لاءات الوصـــايا العشر إلى رحاب الحريات الأربع التي رفعـــت شعارها الثورة الفرنسية الكبرى. ولم يعد الإله خالقاً، كما في الكتب السماوية، بل أصبحت المادة، وفق العلمانية، أزلية الوجود. أما المادة الحية، فهـــي التـــي خلقت نفسها صدفة من بعض المركبات البدائية. وتشكلت تحت تاثـــير ظـــروف مختلفة معقّدة فأصبحت كائناً حياً ذا أعضاء، ثم انتهت إلى المركّـــب الأكـــبر الـــذي هو الإنسان. وغدا الإنسان ينتفخ كبرياءً وغروراً، ويخيل إليه أن من حقه الاستهزاء بكل فكرة عن الله، وتصور نفسه أنه الإله الحي على الأرض. ويتنطّح بعض العلماء، كداروين، بالتفسير المادي للحياة، واكتناه أسرارها، وتطويرها، وسبر أغوارها. منطلقاً في بحثه من مفهوم أن الإنســـان هو مجرد كائن حيواني. ويتطاول بعض فلاسفة العلمانية، كنتشيه، لـــيجاهر بمـــوت الإله، ويدعو الناس للتخلّص من كل معتقد ديني ليمارسوا حريـــتهم بأمان، بعيداً عن كل تعقيد من محرمات الدين، والخوف من عذاب الآخرة الموهومة. وأوغست كونت، وليفي بريل اعتبرا أن الدين لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية.

وأصبح من حق كل إنسان يعيش في المجتمع العلماني أن يمارس حريته بالاستهزاء بكل فكرة عن الله، بل والسخرية من كل ما يصادفه من محرمات الدين، إذا كان حائلاً دون تحقيق متعه وشهواته. والغيت الأخلاق المنبثقة من التعاليم الدينية، وتبدلت مفاهيمها ومقاييسها، وأعلنت المصلحة الشخصية كهدف أعلى للحياة، وأعلنت الحريات جميعاً لتحقيق تلك المصلحة.

لقد تفرعن إنسان هذه الحضارة، وادعى اغتصاب قدرة الله المطلقة. «نجد هذا التعبير الملفت في كتاب «فاوست» لمارلوي، المسرحي الانكليزي: «أيها الإنسان، بعقلك القادر، صرت إلهاً، والسيد والمالك لكل العناصر...». ويضع ديكارت الهدف نفسه للإنسان: «أن يصبح سيداً ومالكاً للطبيعة»[1].

هذا النقض الجذري للأنظومة الدينية، في مقوماتها ومرتكزاتها، هو موقف العلمانية (Secularism) والفلسفات المادية، والفلسفات الوضعية الإلحادية. الذي تمثل على وجه أخص في الماركسية، حيث الدين أفيون الشعوب. وفي أفكار فرويد، حيث الله إسقاط الموقف تجاه الأب في السماء، بطريقة لاواعية. وحيث العقائد الدينية ذهان هذياني، وحيث التدين عُصاب استحواذي جماعي. وعلى العموم، نعت الفكر العلماني الدين بالبدائية، وأفكاره وتصوراته بالأسطورية.

فمن أهم منطلقات الفكر العلماني أن العقل البشري سيد نفسه، وأن الخبرة الحسية أساس المعرفة. فكانت الذهنية النقدية بديلاً عن الذهنية العقيدية أو التصديقية (Dogmatisme). ومن أخطر منطلقات هذا الفكر مبدأ نسبية القيم، ووضعية المعايير الأخلاقية، ورفض المسبقات، ورفض الماورائيات والغيبيات. ومن أهم هذه الغيبيات، الله والروح.

---

(١) راجع الإسلام الحي، روجيه غارودي، ترجمة د. محمد ضاهر، ص ١٠٥، دار البيروني، بيروت.

فالعلمانية، ترى أن ما لا يمكن للعلم أن يقيسه أو يختبره بطريقة الملاحظة والتجربة الحسية هو شيء غير موجود. وهي بذلك تستبعد أعلى قيم الحياة: كالحب، والإيمان، والإبداع الفني... وتستبعد أي وجود خارج عالمنا المادي. فالتوسع في سلطة الإنسان المادية، وقدراته التقنية، دونما النظر إلى الغايات الإنسانية، يقود البشرية إلى مخاطر تهدد وجود الإنسان نفسه على هذا الكوكب.

فالدين هو بحث في غاية الوجود، ومعنى الحياة والموت، وعلاقة الإنسان بغيره من البشر. وإعمال العقل في البحث عن غاية الغايات التي هي الله. أما العلم فهو بحث عن قوانين المادة للاستفادة منها، وتسخيرها لخير الإنسان، دونما النظر إلى غايات أبعد من مصالح الناس الدنيوية، ودون التقيد بحلال أو حرام، أو أمر إلهي يدعو إلى الخير أو ينهى عن الشر. لقد تم الفصل بين الدين والأخلاق، فكانت العلمانية انكفاء عن المسيحية، كنظام عبادة وأخلاق وسلوك، والعودة إلى نمط حضارة الرومان التي تمجد حياة المجون، والخمر، والنساء، وممارسة متع الحياة، دونما وازع من دين أو رقابة من إله. وجُلّ العلماء، ككبرنيكوس، وكبلر، وغاليليو، وديكارت، ونيوتن، كأنبياء الكتاب المقدس. نجد ذلك على لسان المفكر الفرنسي الشهير سان سيمون، الذي مجّد العالم نيوتن بقوله: «إن الله وضع نيوتن بجانبه، وعهد إليه بمهمة تنظيم البشر»[1].

وعلى العموم، لقد شدد فلاسفة عصر التنوير على قيمة العلم، وفضيلة الحرية، ورفضوا الميتافيزيقا كفكر. وأخذوا بالفكر الواقعي الذي يدحض مثالية الفكر اللاهوتي، ويمجد الحياة والحرية، والطبيعة، والإنسان. فلا إله، ولا وجود لحياة أخرى تحاسب فيها النفس الإنسانية بعد موتها. وبالتالي، ليس

---

(١) د. محمد ضاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني ـ دار البيروني، بيروت، ص ٢٥.

هنالك من نعيم ولا جحيم أخروي. إنما هي هذه الحياة الدنيا ينعم فيها الناس أو يشقون. وتكون نهاية الحياة الإنسانية عند موت هذا الجسد الحي وفنائه.

هــذه هي ظاهرة المجتمع الغربي المادي، في كامل منطلقاته الفكرية والوجدانية والفلسفية، ومنظومة قيمه وسلوكه، ظاهرة الانقلاب على المفاهيم المســيحية، والعودة إلى ثقافة المجتمع الروماني ومخزون الفلسفة الإغريقية. «فالإغــريق كانــوا يعتبرون أنهم وحدهم يمتلكون «المدنيّة» وأن ما عداهم برابــرة مهيــئون للعبودية، كما قال «أوربيد». وأن العبد لا يعدو كونه آلة مكــتملة، كمــا قال أرسطو. والرومان يشاركونهم النظرة نفسها، ويؤسسون عليها سيطرتهم. كان هناك روما ومواطنوها، والامبراطورية بحدودها، أما في الخارج، فيعيش البرابرة[1].

اتخــذت العلمانية معنىً شاملاً يدل على تحرر جميع الناس، في معظم مــيادين الحياة والنشاط العام (المدرسة والتشريع والثقافة والعلم) من القيود الروحية، وخضوعهم مباشرة لسلطة أخرى جديدة، هي سلطة الفكر البشري الحــر، والعقل العلمي الرياضي. كما أصبحت ترمز إلى غياب المثل الدينية والروحية في كل شكل من أشكال الثقافة الإنسانية (الفنون والآداب والفلسفة وســائر العلــوم) ممــا يجعلها من أهم أركان المعاصرة والحداثة في الفكر الغربي الحديث[2].

لقــد تمــت علمنة الدولة والمجتمع في الغرب، وتم الفصل بين الدولة والكنيسة، وكرس ذلك في الدساتير الغربية الحديثة. وكان البرلمان الفرنسي ســباقاً في هذا المجال، عندما صدّق في عام ١٩٠٥ على قانون يفصل بين الدولــة والكنيسة نهائياً، ويكرس حرية المعتقدات جميعها، بما فيها الإلحادية

---

(٢) روجيه غارودي، الإسلام الحي، ترجمة د. محمد ضاهر، سبق ذكره.

(١) راجــع كــتــاب: P. Berger, La Religion dans la Concience Moderne, Paris ١٩٧١, p. ١٧٤.

تحت رعاية القانون وحمايته. وقد أخذت معظم الدساتير الغربية بهذا المبدأ، وأصبح من مرتكزاتها الأساسية[1].

فالعلمانية تدعو لتحقيق الغايات التالية:

١ ــ عزل الدين عزلاً تاماً عن المجتمع، وقيام نظام سياسي لا يخضع لأية مقولة من مقولات الدين.

٢ ــ عــزل كل ما يتصل بالدين من أخلاق وعقائد وإيمان بالله، عزلاً تاماً عن الفكر والحياة. وإنكار الجانب الروحي للإنسان.

٣ ــ الإيمان بالعقل، واعتماد المنهج العلمي (العلمية) الذي يقوم على الحس والعقــل والــتجربة، وتطبيقه على الإنسان، بكافة أبعاده المادية منها والروحية.

فإنســان الحضارة الغربية المعاصرة، قسم حياته إلى دوائر، كل دائرة منفصلة عن الأخرى، لا ترابط بينها. فالعائلة، والأخلاق الشخصية، والدين، والاقتصــاد، والاجتماع، والسياسة، كل واحد منها مستقلة عن الأخرى، ولا تؤثــر فــيها. فلــيس في العلمانية مبدأ عام يشمل كل جوانب حياة الإنسان وينــتظمها جمــيعاً، كما هو الحال في العقيدة الدينية. ولم يعد هنالك ضمير دينــي شــامل يحكم سلوك الناس. فقد يذهب فرد مؤمن إلى الكنيسة، مثلاً، لــيرفع صــلاته إلــى الله، ثم يخرج منها مباشرة ليخالف وصية من وصايا الــرب، بالقيام بممارسة الجنس المحرّم خارج نطاق الزواج الشرعي، دونما تأنيب من ضمير ديني، أو خوف من عصيان أوامر الله.

فالعلمانية، إذ أنكرت على الدين تدخله في حياة الناس، قد حررت هذا الإنسان (وفق مفهومها) من الأغلال التي فرضها الدين. فــ«كانت» يعتبر أن

---

(١) د. محمــــد ضاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني، دار البيروني، بيروت، ص ٣٦.

حملة التنوير التي ركزت على فصل الدين عن الدولة، هي الإفراج عن الإنسان من الوصايا الإلهية، وأن هذه الوصايا، في نظره، هي أرذل الوصايا وأشدها ضرراً.

إن الثورة الفرنسية الكبرى وما تلاها من ثورات في القارة الأوروبية ضد رجال الدين أو الملوك أو رجال الأقطاع، كان لها مفكروها وفلاسفتها الذين أسسوا لثورة فكرية لها فلسفتها ومفاهيمها التي تناقضت مع الفكر الكنسي الذي ساد في القرون الوسطى. حيث بدأت هذه الفلسفة الوضعية بمذهب سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) الذي أعطى قيمة مطلقة للعلم، وبلغت الوضعية أوجها بفلسفة أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) هذه الفلسفة لا تعتبر شيئاً حقيقياً واقعياً إلا ذلك الشيء الوضعي الذي خضع للاختبار الحسي. وهكذا استبعدت ـ نتيجة للمذهب الوضعي ـ الحقائق الروحية والغيبية، واهتز شأن العقل كمصدر للمعرفة اليقينية. فكانت الوضعية حلقة هامة في تطور الفلسفة نحو النظرة المادية الخالصة إلى الإنسان والعالم.

لكن هذه الفلسفة الوضعية، أصبحت على يد لودفيج فيرباخ أكثر نضجاً ورسوخاً في ماديتها. ولم يقتصر تأثيرها على الكنيسة كممثل للسلطة الدينية في المجتمع، بل انعكس على المسيحية نفسها كدين يقدم تصوراً معيّناً للإنسان والكون والحياة، ويعبر عن نفسه في ممارسات وعلاقات معيّنة في داخل المجتمع. معتبرة أن الدين شر لا فائدة فيه. وأن المسيحية كدين، تشلّ فاعلية الإنسان السياسية، وأن الإلحاد العملي هو الرباط بين الدول[1].

وكان ذلك نتيجة لأفكار فلاسفة عصر النهضة، أمثال توماس هوبز، وجون لوك وديفد هيوم، ولورد سفتسبري، وجوفترلبنتز، وفولتير، وجان جاك روسو، الذين مهدوا للثورة الفرنسية الكبرى، التي امتد تأثيرها إلى كافة

---

(١) راجع، العلمانية، تأليف محمد مهدي شمس الدين، دار التوحيد الإسلامي، بيروت، ص ١٥٢.

الدساتير الأوروبية، والمفاهيم الفلسفية والسياسية. حيث كانت تواجه المسيحية كشأن ثقافي، وتحارب الكنيسة ككيان سياسي وإدارة حكم.

وقد تفاعل هذا التيار الفلسفي مع الفلسفة العقلية التي شيد أركانها ديكارت. ومع المذهب التجريبي الذي وضع أسسه فرنسيس بيكون. فأصبح موضع التساؤل، ليس سلطات الكنيسة وحسب، بل معتقداتها أيضاً، حتى بدا في بعض الحالات أن المسيحية كدين مهددة بالزوال. وقد بدت الثورة الفرنسية، ذات البعد الشعبي، في بعض مراحلها، في أشد حالات العداء والرفض للمسيحية ولكل ما يمثلها من رموز ومظاهر. رداً على تشبث الإكليروس بامتيازاتهم وتحالفاتهم مع طبقة النبلاء ضد مصلحة الشعب. «حيث ساد في فرنسا المذهب اللاديني، وغايته محاربة رجال الدين وإقصاؤهم عن الحياة العامة، والحد من تأثيرهم بإقفال الرهبانيات والمعاهد الدينية، ومنع التعليم الديني في المدارس، ومصادرة أملاك الكنيسة، وسيطرة غير المؤمنين على المدارس والحكم»(١).

لكن نهضة علمية كبرى شهدها الغرب، قدمت للإنسانية خدمات جلّى على الصعيد الصناعي والزراعي، والمكتشفات العلمية، والتقنية، وبما توصلت إليه من المعارف في حقول المواصلات، والمعلوماتية، والطبية، وعلوم الفضاء، والتكنولوجيا، والمخترعات في شتى نواحي الخدمات الإنسانية، كان لها الفضل الكبير في إغناء حياة الناس المادية، وتحقيق رفاهيتهم، وإطالة أعمارهم بوقايتهم من أمراض شتى، كانت تفتك في جسم المجتمعات الغابرة.

هذه النهضة هي من إنتاج العلم التجريبي، وليس من إنتاج العلمانية كفلسفة مادية، تختصر الإنسان وتقزّمه، وتعتبره مجرد كتلة من المادة الحية

---

(١) جوزيف مغيزل، راجع بحثه في مجلة العلوم ١٩٥٩.

المـــتطورة، ذات عملـــيات بيولوجـــية معقدة. فلم يعد، في منظورها، روحاً وعقـــلاً، وإرادة وطموحـــاً. ولم يعد كائناً أخلاقياً، وإنما أصبح مجموعة من الغرائز الحيوانية، مكّنته سنة التطور أن يحقق قفزة نوعية، جعلته يخرج من حياته الحيوانية البدائية إلى حياة المدنية والحضارة. واستبعدت القيم الأخلاقية التي تلقاها عن طريق الرسالات السماوية.

نتيجة هذا الصراع الطويل بين الديني والدنيوي، وبعد أن هدأت حمّى الـــثورة، وأخذ العقل دوره في فهم الواقع، حلّت مشكلة الصراع بالفصل بين الدولـــة والكنيســـة. وجعلت سلطة الكنيسة في دائرة الشؤون الدينية. وشملت سلطة الدولة كل ما يتعلق بشؤون المجتمع الإنساني. وهكذا استقرت العلمانية في الغرب متفردة بالحكم، وأصبحت سمة الدولة الأوروبية. وفصل نهائياً بين الله وقيصـــر، وبيـــن الديني والدنيوي، وارتضت الكنيسة، بعد ذلك الصراع التاريخـــي الطويل، أن تترك للدولة ما لقيصر، وأن تلتزم طريق الله، بالكلمة الطيبة، وتعاليم المسيح وتلامذته ورسله إلى الأمم.

نقد المذهب الوضعي

هـــذه النهضـــة العلمية، لم تبلغ بالمجتمعات البشرية السعادة والسلام الداخلـــي للـــنفس الإنســـانية. حيـــث حصرت منافعها في النواحي المادية، وانســـلخت بكليـــتها عن القيم الروحية التي أقرها الدين. ولم تعترف بالبعد الروحـــي للإنســـان. بـــل اعتبرته مجرد كائن مادي، يخضع لقوانين المادة وحتمـــياتها. وحاولـــت، انطلاقاً من مفهومها هذا للحياة، البحث عن القوانين التـــي تحكم حياة الإنسان كما تحكم القوانين الطبيعية عناصر المادة. فظلت عاجزة عن اكتناه أسرار الحياة الإنسانية، وأبعادها الروحية.

نقـــرأ لعـــالم فرنســـي، اشتغل في معهد روكفلر للأبحاث العلمية في نـــيويورك قـــرابة الثلاثين سنة. ونال جائزة نوبل لأبحاثه الطبية، في كتابه

«الإنسان ذلك المجهول». هو العالم الكبير الكسي كاريل. حيث يقول: «هنالك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة... فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة، باللغة الحسابية. وقد أنشأت هذه العلوم عالماً متناسقاً كتناسق آثار اليونان القديمة. إنها تنسج حول هذا العالم نسيجاً رائعاً من الإحصاءات والنظريات.

«بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف، حتى ليبدو كأن الذين يدرسون الحياة قد ضلّوا في غاب متشابك الأشجار، أو أنهم في دغل سحري، لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها! فهم يرزحون تحت عبء أكداس من الحقائق التي يستطيعون أن يصفوها، ولكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها في معادلات جبرية. فمن الأشياء التي تراها العين في عالم الماديات، سواء كانت ذرات أم نجوماً، صخوراً أم سحباً، صلباً أم ماءً... أمكن استخلاص خواص معيّنة كالثقل والأبعاد الاتساعية. وهذه المستخلصات ــ وليست الحقائق العليّة ــ هي مادة التفكير العلمي. وملاحظة الأشياء تمدنا فقط بأقل صور العلم شأناً، ونعني بها الصورة الوضعية. فالعلم الوصفي يرتب الظواهر. بيد أن العلاقات التي لا تتغير، بين الكميات غير القابلة للتغيير ــ أي القوانين الطبيعية ــ تظهر فقط عندما يصبح العلم أكثر معنوية. وما ذلك النجاح العظيم السريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء إلا لأنهما علمان معنويان كميّان. فعلى الرغم من أنهما لا يدعيان أنهما يكشفان القناع عن الطبيعة النهائية للأشياء، فإنهما يمدانا بقوة التنبؤ بحوادث المستقبل، وتقرير كيفية وقوعها طبقاً لإرادتنا. وبتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة، تقريباً، على كل شيء موجوداً على ظهر البسيطة.. فيما عدا أنفسنا.

«ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة ــ والإنسان بصفة خاصة ــ لم يصب مثل هذا التقدم. إنه لا يزال في المرحلة الوضعية.. فالإنسان كل لا يتجزأ، وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له.

وليست هنالك طريقة لفهمه في مجموعه أو في أجزائه، في وقت واحد. كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي.

ولكـــي نحلـــل أنفســـنا فإننا مضطرون للاستعانة بفنون مختلفة، وإلى استخدام علوم عديدة. ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم إلى رأي مختلف في غايتها المشتركة، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة مـــن بلوغه فقط. وبعد أن تضاف هذه المستخلصات بعضها إلى بعض، فإنها تبقى أقل غنىً من الحقيقة الصلبة.

«إن التشـــريح والكيمياء والفسيولوجيا، وعلم النفس، والبيداجوجيا (فن التعلـــيم) والـــتاريخ وعلـــم الاجتماع والاقتصاد السياسي... لا تلم بجوانب موضوعها كلها. و«الإنسان» ــ كما هو معروف للأخصائيين ــ أبعد من أن يكون «الإنسان الجامد». فـــ«الإنسان الحقيقي» لا يزيد أن يكون رسماً بيانياً، يتكون من رسوم بيانية أخرى أنشأتها فنون كل علم. وهو ــ في الوقت نفسه ــ «الجثة» التي شرحها البيولوجيون (علماء الحياة) و«الشعور» الذي لاحظه علماء النفس وكبار معلمي الحياة الروحية، و«الشخصية» التي أظهر التأمل الباطني لكل إنسان أنها كامنة في أعماق ذاته... إنه ــ أي الإنسان ــ عبارة عـــن «المـــواد الكـــيماوية» التي تؤلف الأنسجة وأخلاط أجسامنا.. إنه تلك الجمهـــرة المدهشـــة مـــن «الخلايـــا والعصـــارات المغذيـــة» التي درس الفيزيولوجـــيون (علمـــاء وظـــائف الأعضاء) قوانينها العضوية.. إنه ذلك «المركـــب من الأنسجة والشعور» الذي يحاول علماء الصحة والمعلمون أن يقـــودوه إلـــى الدرجات العليا أثناء نموه مع الزمن.. إنه ذلك «الكامن الحي العالمي» الذي يجب أن يستهلك بلا انقطاع السلع التي تنتجها المصانع، حتى يمكـــن أن تظل الآلات ــ التي جعل لها عبداً ــ دائرة بلا توقف... ولكنه قد يكـــون أيضـــاً شاعراً، أو بطلاً أو قديساً.. إنه ليس فقط ذلك المخلوق شديد التعقيد الذي تحلله فنوننا العلمية، ولكنه أيضاً تلك «الميول والتكهنات وكل ما تنشده الإنسانية من طموح.

«وكـــل آرائنا عنه مشربة بالفلسفة العقلية.. وهذه الآراء جميعاً تنهض على فيض من «المعلومات غير الدقيقة» بحيث يراودنا إغراء عظيم لنختار من بينها ما يرضينا ويسرنا فقط. ومن ثم فإن فكرتنا عن «الإنسان» تختلف تبعاً لإحساساتنا ومعتقداتنا.. فالشخص المادي والشخص الروحي يقبلان نفس الـــتعريف الذي يطلق على بلورة من «الكلوريد». ولكنهما لا يتفقان أحدهما مع الآخر في تعريف «الكائن الحي»...

«وفي الحق، لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكن، بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.. إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء فقد ابتدعتها وسائلنا. فكل واحد منا مكوّن من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة!!

«وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب. لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية. ما زالت غير معروفة. فنحن حتى الآن لا نعرف الإجابة عن أسئلة كثيرة مثل:

«كـــيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟

«كـــيف تقرر المورثات (الجينات) في نواة البويضة الملقحة، صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟

«كـــيف تُـــنتظم الخلايـــا في جماعات من تلقاء نفسها، مثل الأنسجة والأعضاء؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حـــياة المجمـــوع، وتساعد العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته.

«ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور. ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً. إننا ما زلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا العصبية. إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء؟ على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية العقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة طريق الحياة، والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ، والنظم النفسية والأدبية؟

«إننا ما زلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات والأعضاء، ووجود النشاط العقلي والروحي...

«إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبي، وقوة الحكم، والجرأة ــ ولا ما هي الأهمية النسبية للنشاط العقلي والأدبي.. كذلك النشاط الديني.

«أي شكل من أشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور والخواطر؟

«لا شك مطلقاً أن عوامل فسيولوجية وعقلية معيّنة هي التي تقرر السعادة أو التعاسة، النجاح أو الفشل... ولكننا لا نعرف ما هي هذه العوامل.. إننا لا نستطيع أن نهب أي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية.

«كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه في المدنية العصرية؟ وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها، يمكن أن تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لنا.. ولكنها ستظل جميعها بلا جواب.. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم في ما يتعلق بدراسة الإنسان، غير كافٍ، وإن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب...»[١].

---

(١) الكسي كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ص ١٣-١٨.

هـذه التساؤلات التي ساقها إلينا هذا العالِم الكبير، الذي أمضى جل حياته يبحث عن بعد غامض في الإنسان، استعصى عليه اكتشافه، رغم ما توفر لديه من وسائل البحث والمختبرات، ورغم سعة خبراته العلمية. هذا البعد، هو البعد الروحي في الإنسان الذي سيبقى مستعصياً على مراكز الأبحاث العلمية، المادية، سبر أغواره، والإحاطة بمعرفته، لأنه مختلف عن المادة ووسائل أبحاثها. وما أتت رسالات السماء إلا لتوضيح بُعده الروحي، وإشباع حاجاته الإنسانية.

يدلنا ما كتبه هذا العالِم على تخبّط العقل العلماني في بحثه عن حقيقة الإنسان. فهو يفتش عليها في الجوانب المادية للجسد، فاستعصى عليه إدراكها. وهذا يؤكد لنا البعد الروحي للإنسان الذي يتسامى عن المادة وقوانينها، وأبعادها الفيزيقية والبيولوجية، كما أسلفنا. «فحاول العلماء، انطلاقاً من مفاهيمهم العلمانية المادية، منبهرين بتقدم التكنولوجيا، تطبيق الطريقة العلمية الناجحة، في شتى مجالات الفكر الإنساني؛ فقالوا، مثلاً، بعلم النفس، وعلم التربية، وعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، ظناً منهم أن جميع ما في هذا الوجود، خاضع لحتمية، ومحكوم بقوانين طبيعية، لا يفلت من مداها. فهم، أبداً، يفتشون عن تلك القوانين وعلاقاتها الثابتة للوقوف على حقائق هذا الوجود.

«لكنهم، بعملهم هذا، جعلوا الإنسان مجرد تركيبات مادية، خاضعة لهذه الحتمية أو تلك القوانين الثابتة، كما في عالم المادة. وأنكروا البعد الروحي للإنسان، وبالتالي أنكروا الحرية الإنسانية، أو على الأقل، حرية الفكر التي لا تخضع لأية حتمية. فالإنسان هو اختيار حر، من حيث هو كائن مفكر، لذلك فهو غير خاضع للتجربة المخبرية كالمادة. وبالتالي، هو غير خاضع لقانون وعلاقات ثابتة كباقي عناصر الطبيعة»[1].

---

(١) د. محمد أبو حمدان، طرق الفكر، الاستقراء، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، ص ١٨ وما بعدها.

هل نتائج العلم يقينية؟

إن المذهب الوضعي (Positivisme) يجزم بأن عملية الإدراك البشري لا تتم إلا عن طريق الحواس. وكل ما يقع خارج نطاق الحس، لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئاً. فالعلم، وفق رأي فلاسفة هذا المذهب (واغيست كونت، سبنسر، ستيوارت مل، رينان...) يبحث في الظواهر الطبيعية، والتفتيش عن علاقات ثابتة بينها، وترجمتها إلى علاقات كمية، تحددها الأرقام والمقادير، بحثاً عن القوانين التي تنتظمها.

لكن هذه العلاقات شائكة ومتعددة تعدداً يتجاوز قدرات الإنسان لحصرها وإجراء الاختبار عليها. فالعالِم، عندما يخضع ظاهرة ما للاختبار، يجعل من المعمل أو المختبر طبيعة مصغرة، يجمع فيها كل ما أمكنه من العناصر المؤثرة في المادة المراد اختبارها، من حرارة، ورطوبة، وضغط جوي... الخ. ويعزل هذه العناصر أو بعضها، ليشاهد تأثيرها في المواد المراد اختبارها.

لكن العوامل المؤثرة في المادة هي من الكثرة بحيث لا يمكن لأي مختبِر أن يدعي أنه عرفها واستطاع عزلها أو التحكم بها جميعاً. ففي اختبار التفاعل الكيميائي بين مادتين، أو مراقبة نمو نبتة، لا يمكن حصر العوامل المؤثرة، جميعها، في هذه الظاهرة، ومعرفة أية أشعة كونية دخلت في هذا التفاعل، أو أثرت في مجرى عملية النمو أو التحول.

لكن العلماء يعملون ويختبرون ضمن ما هو معروف لديهم، أي ضمن ما هو متوفر لهم من إمكانات مخبرية. لذلك فإن الاختبارات العلمية تبقى ضمن الممكن؛ إذ لو أمكن اكتشاف عناصر أخرى، وعرف لها تأثير على هذه الظاهرة المختبرَة، لكان لدينا نتائج مغايرة، والتالي قوانين أخرى.

فعليه، يبقى القانون العلمي ضمن مبدأ الاحتمال؛ أي في حال توفر كذا عناصر، يحتمل الحصول على كذا نتائج. وفي حال الحصول على عناصر أخرى، يحتمل الحصول على نتائج أخرى. وهكذا فإننا لا نستطيع الجزم والتسليم بصدق القانون العلمي، وإنما فقط باحتمال صدقه، في نفس الظروف، وعلى نفس العناصر. ويبقى «مسلماً بصحته ما لم تثبت التجربة خطأه»، كما يرى أساطين العلم. يقول برتراند راسل: «إن العلم يقرر أحكاماً على سبيل التقريب، لا على سبيل اليقين». ويقول مارتين ستانلي كونجرن: «إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات، وتنتهي بالاحتمالات، وليس باليقين».

فلا يستطيع أحد أن يجزم بثبات قانون علمي عبر العصور، دون أن يأتي يوم يقال عنه إنه خطأ.

هذه الطريقة العلمية هي نتاج المذهب الوضعي. نحن لا ندعي إيجاد بديل عنها. لكن نحن لا نعترف لها بأنها الطريقة المثلى في كافة مجالات المعارف الإنسانية. بل ينبغي حصرها في دنيا العلم المادي، والتعامل مع عناصر المادة وحسب. لا أن نتخذ منها طريقة فكرية وحيدة، تستخدم في جميع نشاطات فكرنا، أو نتخذ منها منهجاً ننتهجه في بحثنا عن حقائق الوجود كافة. إذ نكون بذلك قد حمّلناها ما ليست مؤهلة لحمله. وهذا ما يحاول علماء العصر تحميلها إياه.

علم النفس

«ففي علم النفس، مثلاً، حاول العلماء إخضاع الإنسان للتجارب بغية التوصل إلى معارف ثابتة يخضع لها الإنسان في تصرفاته. محاولين إرجاع كل عمل يقوم به الفرد إلى سبب أو علة ثابتة، مفتشين عن تلك العلل في جوانب النفس، وخصوصاً ما خفي منها، مفترضين الفروض الكثيرة، ومجربين التجارب المنوعة عليه. لكنهم لم يتوصلوا إلا لمعرفة بعض تصرفات الإنسان الناتجة عن غرائزه وحاجاته العضوية. فعرفوا، مثلاً،

استجابة الغدد اللعابية للطعام لدى إنسان جائع، أو ردة فعل الخوف لديه عند مشاهدة ما يثير هذا الخوف، وتأثير الغريزة الجنسية على بعض جوانب سلوكه. وعرفوا ميكانيكية الجسم البشري وحددوا بعض مهاراته. إذ في جسم الإنسان خضوع لقوانين الكائنات الحية كما في سائر الكائنات الطبيعية. فقاسوا مهارات أصابعه، وشدة حواسه، ومدى تحكمه بأعصابه. فأفادوا عالم الصناعة من المهارات البشرية. وعالجوا بعض النواحي المرضية في نفس الإنسان بأن أرجعوها إلى كبت في الغرائز والرغبات أو لعمليات إحباط جرت لهذا الكائن الحي.

«لكنهم عندما أرجعوا كل تصرفات الإنسان إلى هذه الغرائز والحاجات العضوية، مفترضين فيه الخضوع التام لحتمية طبيعية كالمادة أو النبات، ضلوا طريقهم في متاهات لا نهاية لها. فوقعوا في ميتافيزيقا إنسانية من حيث أنكروا الميتافيزيقا كمعرفة. فقد اضطروا أمام هذا الكائن الغامض إلى تصور لوقائع ليست موجودة أصلاً. وأرجعوا بعض تصرفات الكائن البشري إليها، مثل إرجاع الاكتشاف العلمي، والإبداع الفكري والفني، عند فرويد، إلى عملية التصعيد. وهي عملية لا واعية يقوم بها الإنسان في اللاشعور بتحويل طاقة مكبوتة فيه، من مجال الجنس إلى مجال إبداعي. أو إرجاعه الإيمان بالله، أو الكفر به، إلى عملية إسقاط الموقف تجاه الوالد في السماء بطريقة لا واعية. حيث يخلع الإنسان الصفات المتمثلة في الأب على الله؛ مثل القوة والعدل والمحبة والعطف. فيثبتها فيه ويؤمن به إذ كان في لا شعوره راضياً عن والده. وإلا فهو يكفر به ويخلع عنه تلك الصفات إذا كان عكس ذلك. أو رده ميل الصبي إلى أمه وميل الفتاة إلى أبيها إلى غريزة الجنس وعقدة أوديب.

«كل ذلك، عبارة عن محاولات افتراضية لم يستطع العلماء تقديم البرهان القطعي على صحتها، كما في البراهين العلمية في عالم المادة. ولعلهم لن يستطيعوا ذلك، لأنهم انطلقوا، كفلاسفة الميتافيزيقا، من مقولات

غيبــية لتفســير بعض ظواهر النفس الإنسانية. كما قال أولئك بتفسير أصل الوجود برده إلى افكار ميتافيزيقية، سقطت مع الزمن. إذ نرانا في اللاشعور، عــند فــرويد، الــذي يحكــم تصرفات الإنسان، وكأننا في العقول المفارقة والصور الجوهرية عند فلاسفة الميتافيزيقا.

«ومقايــيس الــذكاء عند بينيه وأمثاله، التي حاولت وضع قياس ثابت لذكاء الإنسان، لم تستطع تحديد الطاقة العقلية للإنسان كما تحدد طاقة المادة. وإنما أعطت مقياساً تقريبياً لبعض جوانب النشاط الذهني، مثل: سرعة الفهم، أو مقدرة حل المسائل الحسابية. فقد يكون من نال درجة غبي في قياس بينيه واحداً من كبار عباقرة الموسيقى أو الشعر، مثلاً. ومن نال درجة جيد الذكاء لا يستطيع أن ينال، بين مجموعته المختبرة، إلا درجة دون المتوسط في مادة الإنشــاء. إذ إن الكثير من العباقرة كانت تبدو عليهم سمات التخلف العقلي، كما نقرأ في ترجمة حياة العبقري الكبير، صاحب مئات المخترعات العلمية، أديسون، حيث حكم عليه بعض أساتذته بالتخلف العقلي والبلادة الذهنية، وهو في صفوف الدراسة الابتدائية. ونصحوا أمه أن تخرجه من المدرسة وتلحقه بعمــل يدوي، لأن ذهنه لا يؤهله لمتابعة دراسته. وربما يكون إنسان ضعيفاً في ناحية من نواحي النشاط العقلي، وقوياً في ناحية أخرى.

«مــن هنا، فنحن نرى أن الإنسان لا يخضع لقوانين ثابتة في سلوكه، كمــا تخضــع باقي عناصر المادة أو الكائنات الحية. بل من حيث هو كائن روحانــي واختــيار حــر، لا نستطيع إخضاعه للتجربة المخبرية ولا لأية علاقات ثابتة. ومن ثَم، فلا يمكن للعلم الذي يدعي محاولة المعرفة بالإنسان أن يصبح علماً بالمعنى المتعارف عليه للعلم؛ أي ينتج قوانين وعلاقات ثابتة يخضــع لهــا الإنسان كما تخضع لها المادة، ويمكن التنبؤ بتصرفاته وأفعاله سلفاً، كما في علم الفيزياء والكيمياء. فلا يمكن لعالم أن يدعي أنه يحصل من الإنسان على نفس الاستجابات كلما أعطى نفس المثير. فالحديد كلما عرضته للحــرارة يتمدد، وكلما عرضته للبرودة يتقلص، في أية تجربة أخرى. لكن

الإنسان الذي تصفعه، لا تنتظر منه دائماً أن سيصفعك. إذ هو حر في انتقاء الاستجابة مهما تكررت التجربة. فقد يصفعك، وقد يسامحك، وقد يشتمك، وقد يهرب منك، إلى آخر الاحتمالات الممكنة للإنسان. كما أن الإنسان الجائع لا يرضى بإشباع حاجته إلى الطعام كيفما اتفق، بأن يستولي على أول طعام يشاهده ليقوم بازدراده، كما تفعل الحيوانات. لكنه يكبت هذه الحاجة، ويتخير إشباعها وفق إرادته ومقتضيات حاجاته النفسية الأخرى.

«كذلك في الاستفتاءات التي يقوم بها علماء النفس للحصول على إجابات من الفرد المراد إجراء الدراسة عليه. فالإنسان يعجز عن استبطان أحواله النفسية بدقة، خصوصاً إزاء الأسئلة المعقدة. كما أنه لا يُركن إلى أمانته في الإجابة عن الأسئلة الشخصية التي تضايقه. كذلك يختلف فهم الأسئلة المعطاة بين إنسان وآخر. والحالة النفسية التي يعيشها الإنسان في لحظة طرح الأسئلة، تختلف بين فترة وأخرى. إذ لا ثبات مطلقاً في حياتنا النفسية. وهي «كنهر جار لا تستطيع غسل يديك في نفس المياه فيه مرتين». فالإجابة التي يجيبها شخص عن حالته النفسية اليوم قد تكون غيرها غداً.

«وهنا تبرز أهم مميزات الإنسان، وهي الحرية والإرادة. ولولا هذه الحرية التي يتميز بها الإنسان، وإرادته في الاختيار، لما وجب عليه عقاب القوانين الإلهية منها والوضعية. فلو كان الإنسان خاضعاً لحتمية، كما تخضع عناصر المادة، لما جاز عليه العقاب عندما يقوم بإشباع إحدى غرائزه بطريقة غير مشروعة. فالذي يسرق إنما يشبع غريزة التملك لديه بالاستيلاء على مال الغير، وهو حر في إشباعها بطرق أخرى مشروعة لا تعرضه للوم أو عقاب.

«وخلاصة القول، إن تطبيق الطريقة العلمية على كل جوانب النفس الإنسانية محاولة فاشلة، وتحميل للعلم فوق ما يحتمل. إذ لو اقتصر ذلك على آلية الجسد، والاستجابات العضوية، ومهارات الأعضاء، وأمراض الإحباط وغيرها، مما لا تعلق له بعقل وإرادة الإنسان، كما في علم النفس الصناعي،

وعلم النفس المرضي، لنجحت المحاولة. لأن عالم الروح المشتمل على العقل والإرادة، عـالم مـن التعقيد واللامحدودية بحيث لا يمكن أن تنتظمه قوانين علمية أو معايير ثابتة»[1].

علم الاجتماع

«كـذلك في علم الاجتماع. فقد افترض العلماء أن المجتمعات البشرية محكومة بحتمية ثابتة كسائر الظواهر الطبيعية. فراحوا يفتشون عن علاقات ثابـتة لتكوُّن وتطور المجتمعات الإنسانية. فأخضعوها لتجاربهم عن طريق القـيام بعملـيات الإحصاء والمسح الاجتماعي، للوقوف على تلك العلاقات، ومحاولـة الوصـول إلـى القوانين لكي يتحكموا بتطور المجتمع بعد كشف ظواهره. فأوغست كونت مؤسس علم الاجتماع الوضعي، هو عالم رياضيات وطبيعـيات، حـاول أن يـدرس الظواهر الاجتماعية على نفس النحو الذي يـدرس به ظواهر الطبيعة. فراح يفتش عن القوانين الاجتماعية، معتبراً أن المجمـتع مـا هو إلا جزء من الطبيعة، يماثلها تماماً. فاستخدم لذلك المناهج العلمـية عينها، معتبراً أن ظواهر المجتمع البشري هي ظواهر صادرة عن الطبيعة.

«وهكـذا فقد طغت هذه النظرة المتعالمة (أي التي ترد كل معرفة إلى الطـريقة العلمية) على الدراسات الاجتماعية. ومردها يعود إلى الروح الذي سـاد ما بعد الثورة الفرنسية، حيث اعتبر أنصارها أن الثورة، كما كان لها بعد سياسي، فإن لها أولاً بعدها الفكري. فكما جرى تحطيم الأقطاع والملكية، كـذلك يقتضي تحطيم المفاهيم والطرق الفكرية السائدة وخلق آفاق متحررة جديـدة. وهذه الآفاق التي ولدتها الثورة الفرنسية، لم تكن إلا سيطرة الروح العلمي واتباع الأساليب العلمية في كافة نواحي المعرفة. فاقترح سان سيمون

---

(١) د. محمد أبو حمدان ــ طرق الفكر ــ ج ٢. نشر دار الكتاب اللبناني، ص ٢٧.

علماً منظماً للظروف والحالات الاجتماعية، بغية الوقوف على ظواهر المجتمع، بقصد إعادة تنظيم المجتمع الفرنسي، وبالتالي الأوروبي، على أسس حديثة. لكن سان سيمون لم يحدد منهجاً لهذا العلم المقترح. فجاء تلميذه كونت ووضع الأسس والمنهج على غرار العلوم الطبيعية التي كانت هي المسيطرة على الفكر الأوروبي المبهور بالإنجازات العلمية.

«لا شك بأن علم الاجتماع خطا خطوة جبارة يوم انفصل عن الفلسفة، ولم يبق مجرد علم نظري ينحو المنحى الميتافيزيقي الصرف. ولا شك أن علم الاجتماع الحديث فسر الكثير من العلاقات الاجتماعية عن طريق الإحصاء والمقارنة. ولكن يستحيل عليه ان يصبح علماً بمعنى كلمة علم Science لأن العلم هو علم بالظواهر الطبيعية الصادرة عن عالم الجمادات والموجودات المادية. أما الظواهر الاجتماعية الصادرة عن عالم البشر فهي ظواهر معقدة متحركة لا ثبات لها، حيث لا يمكن عزلها أو ضبطها أو قياسها وإجراء التجارب العملية عليها. وبالتالي لا يمكن استخلاص القوانين الثابتة منها كما في العلوم الطبيعية. ففي العلم السوسيولوجي يستبعد القياس الكمي المحدد الذي هو معيار الحقيقة وثباتها في العلم الطبيعي. بل يستعمل علم الاجتماع القياس الكيفي. إذ يمكن أن نقيس طول الإنسان ووزنه ودرجة حرارة جسمه وضغط دمه بأرقام ثابتة. لكن لا يمكننا بحال أن نقيس قيمته أو درجة ثقافته أم مستواه الخلقي قياساً محدداً رقمياً. وإنما تواضع علماء الاجتماع على كيفيات مجردة، مثل: اسلوب الحياة، وسمات الثقافة، وتحديد الطبقة الاجتماعية. وتلك مفاهيم يستحيل معها استعمال لغة الكم والمقاييس، والمعادلات العلمية الدقيقة.

«فعلماء الطبيعة توصلوا بفضل القوانين الثابتة التي امتلكوا ناصيتها إلى التنبؤ بنفس النتائج في قياس ظاهرة من ظواهر الطبيعة مهما تكررت التجارب. فعلماء الفلك يتنبأون بظاهرة كسوف الشمس لدى توسط القمر بينها

وبين الأرض، بتاريخ محدد باليوم والساعة والدقيقة. وعلماء الطبيعيات يتنبأون بهطول الأمطار في الطبيعة لدى حصول درجات ضغط ورطوبة محددة، تلتقي معاً في زمن معين. ويتنبأ الكيميائيون، مثلاً، بحصولهم على الماء في كل مرة يتفاعل فيها الهيدروجين مع الأوكسجين ضمن عوامل طبيعية محددة.

«لكن علماء الاجتماع لا يستطيعون من دراستهم لظاهرة اجتماعية ما، مهما تكررت، التنبؤ سلفاً بنفس النتائج. فلا يستطيعون التأكيد، مثلاً، أن عمَّال مصنع سوف يضربون عن العمل، حتماً، إذا توفرت شروط معينة لذلك. ولا الإجماع على التنبؤ سلفاً بأن ثورة سوف تحدث في بلد ما. ولا التنبؤ بمداها وأبعادها وزمانها. وإنما تبقى أبحاثهم في ذلك مجرد وجهات نظر متضاربة، تتحكم فيها العوامل الذاتية والشخصية، ويكون البت فيها لحرية الجماعة موضوع البحث.

«ففي الميدان الاجتماعي، عموماً، نحا العقل الغربي المنحى النظري، وليس المنهج العلمي. ففي مناداته بحقوق الإنسان، مثلاً، استعمل تعابير ومقاييس غير مادية، ففكرة الحق نفسها ليست شيئاً مادياً يمكن إخضاعه للتجربة والقياس لظواهر المادة. وكذلك مبدأ المساواة، الذي نادت به المجتمعات الحديثة. فهو ليس مبدأً علمياً استنتج من التجربة والملاحظة العلمية، إذ الناس في المقاييس العلمية ليسوا متساوين في قدراتهم ومستوى طموحهم وفي مستوى ذكائهم ومزاياهم الفسيولوجية والنفسية والعقلية. فمبدأ المساواة هو عبارة عن قيمة خلقية، هي من مدلولات العقل، وليس من نتائج الاختبار والتجربة المخبرية.

«وهكذا نجد أن الأنظمة الاجتماعية التي تسود في المجتمعات الغربية ليست وليدة المنهج العلمي، ولم تبلغ مستوى القوانين العلمية الثابتة.

«ورغم قيام بعض علماء الاجتماع الديناميكي بوضع أسس لتطور المجتمعات، فإن أسسهم هذه بقيت مجرد اجتهادات، لم يتمكنوا من إقناع جميع العلماء بها. بل بقيت مجرد نظرية فردية عارضها البعض وأيدها البعض الآخر.

«فنظرية هربرت سبنسر الانكليزي في التطور البشري، بأنه دائماً يسير من حالة التجانس إلى حالة اللاتجانس، لم تأخذ صفة الضرورة والعموم، رغم إعطائها صفة القانون. ورغم إسنادها إلى قوانين ثابتة، مثل: قانون ثبات القوة. وقانون عدم فناء المادة (ثبت بطلانه حديثاً)، وقانون اضطراد الحركة. وبقيت مجرد فرض لم يستطع إخضاعه للاختبار العلمي. ذلك أنه انطلق من مسلمة خاطئة، وهي اعتباره أن المجتمع كجسم الكائن الحي، ينمو ويتطور ضمن حتمية ثابتة لا محيد له عنها. ولم يفرق بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة البيولوجية.

«ونظرية ماركس، حول الصراع الطبقي وحتمية تطور المجتمع نحو الشيوعية، لم تصل إلى مستوى الحقائق الثابتة التي يجمع العلماء عليها، وتصبح إحدى مسلمات الفكر البشري. بل قامت ضدها آراء متناقضة بين مؤيد ورافض.

«ومرد ذلك، كما بيّنا، إلى أن المجتمعات البشرية ليست مجرد كتلة جامدة لا حياة فيها، بل «هي مجتمعات حية لا تخضع لنفس القوانين الفيزيقية التي تحكم الظاهرات الطبيعية الجامدة الخرساء» على حد تعبير عالم الاجتماع الفرنسي هاليفاكس.

«ولقد بلغ حماس بعض علماء الاجتماع، أمثال لابلانش وراتزل، إلى إيجاد علم ثابت للمجتمعات، إلى أن ربطوا ظواهر المجتمع ربطاً حاسماً بالظواهر الطبيعية البيئية، وأخضعوا أشكال المجتمعات لعلاقاتها بالبيئة الفيزيقية، وتأثيرها الأرضي أو الطبيعي. بمعنى أنهم، أخضعوا المجتمعات

لحتمية البيئة، متناسين دور الإنسان وحريته في الاختيار. جاعلين منه عنصراً من عناصر الطبيعة، وعبداً خاضعاً لها كالشجر أو الحيوان. فشجر الصُبير هو من نتاج الصحاري الحارة. والدب القطبي هو ابن البيئة القطبية الشديدة البرودة. وكذلك الإنسان، وفق رأيهم، فهو ابن بيئته الطبيعية يخضع لتأثير عواملها فيه.

«فلا ينبغي إذاً، كما في رأيهم، أن ننظر إلى المجتمعات البشرية وكأنها مجموعة من الأشجار انتظمت في غابة، أو مجموعة من قطعان الماشية جمعها المعاش والمرعى. أو كأنها سرب من أسراب الطير أو السمك. ولا أن نحكم عليها حكماً عددياً أو رقمياً. فما هذه إلا مجموعة من أفراد ذوي إرادات حرة، تختار وتؤكد طريقة وجودها وتناميها الثقافي والاجتماعي عبر الزمان والمكان.

«فلا أحد، إذاً، يستطيع أن يحكم على تطور المجتمعات ويتنبأ بمصيرها سلفاً. إذ نجد أن مجتمعاً رأسمالياً صناعياً، كالمجتمع الألماني، ينحو بعد الحرب العالمية الأولى منحى الدكتاتورية. بينما يختار شعب آخر، كالشعب البريطاني الرأسمالي والصناعي أيضاً، النظام الديمقراطي منهجاً لحياته.

«ولرب محلل يقول: إن انتصار الشعب الانكليزي في الحرب العالمية الأولى هو الذي جعله يرضى عن نظامه ويحافظ عليه. بينما ولدت الحرب ظروفاً أخرى للشعب الألماني الذي قهر في هذه الحرب فاختار تغيير ظروفه إلى نظام عنصري مبني على القوة لإعادة كرامته المهدورة، وتحصيل ما فقده في الحرب.

«أجل تلك الظروف إياها أعني. إذ إن نفس الظروف مرت على الشعب التركي، وهُزم مع ألمانيا في نفس تلك الحرب. لكنه اختار عوضاً عن الانتقام والحرب لاسترجاع ما أفقدته إياه تلك، وقد أفقدته كل ممتلكات امبراطوريته التي كانت تمتد بين الشرق والغرب، اختار الحياد الحذر بين

الأطراف المتحاربة في الحرب العالمية الثانية، والابتعاد ما أمكنه عن ويلات الحروب التي عانى منها الكثير.

«وخلاصة القول، إن الإنسان، ذا البعد الروحي، كفرد أو كجماعة، هو اختيار حر، لا يخضع، في تفكيره وفي أعماله، لآية حتمية. بل هو صانع فكره، ومقرر أعماله. بالإضافة إلى كونه عالماً شاسعاً لامتناهياً، ولا تحده أية قوانين ثابتة. لذلك فعلم الاجتماع هو علم إنساني، لم يبلغ درجة العلم التجريبية والعلاقات الثابتة للظواهر، ولا يعبر عنه بقوانين كسائر العلوم الطبيعية[١].

يقول العالم الأميركي «أ. كريسي موريسون» في كتابه «Man does not stand alone» الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكي بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان»:

«إن ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي، ودون قصد ابتداعي.

«وإذا قبلت واقعية القصد فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً. ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار، لا فائدة منه. والعلم لا يعلل من يتولى إدارته.

«لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نؤمن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نور، ولا يزال الإنسان في طور طفولته من وجهة الخلق، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه بـ«الروح» وهو يرقى ببطء ليدرك هذه الهبة، ويشعر بغريزته أنها خالدة.

«وإذا صح التعليل ـ ويبدو أن المنطق الذي يسنده لا يمكن دحضه ـ فإن هذه الكرة الأرضية الصغيرة التي لنا، وربما غيرها كذلك، تكسب أهمية

---

(١) طرق الفكر، ج ٢، تأليف د. محمد أبو حمدان، دار الكتاب اللبناني، ص ٣٠-٣٤.

لـــم يحلم بها أحد من قبل. فعلى قدر ما نعلم قد تولّد عن عالمنا الصغير هذا، أول جهاز مادي أضيف إليه قبس من نور الله. وهذا يرفع الإنسان من مرتبة الغريـــزة الحيوانـــية إلى درجة القدرة على التفكير، التي يمكن بها الآن أن يدرك عظمة الكون في اشتباكاته، ويشعر شعوراً غامضاً بعظمة الله ماثلة في خلقه» (ص ١٨٧-١٨٨).

«إن أيـــة ذرة أو جـــزيئة لم يكن لها فكر قط، وأي اتحاد للعناصر لم يـــتولد عـــنه رأي أبـــداً، وأي قانون طبيعي لم يستطع بناء كاتدرائية. ولكن كائـــنات حية معينة قد خلقت تبعاً لحوافز معينة للحياة، وهذه الكائنات تنتظم شيئاً تطبقه جزيئات المادة بدورها. ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العـــالم. فما هو هذا الكائن الحي؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات؟ أجل. ومـــاذا أيضاً؟ شيء غير ملموس، أعلى كثيراً من المادة، لدرجة أنه يسيطر علـــى كـــل شـــيء. ومختلف جداً عن كل ما هو مادي مما صنع من العالم، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه. وهو ــ فيما نعلم ــ ليست له قوانـــين تحكمه. إن «روح الإنسان هي سيدة مصيره» ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها. وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أي حـــيوان آخر، ولا يحتاج إليه. فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة، لا شيء سوى انه لا يعرف كنهه في أنبوبة الاختبار، فهو إنما يزعم زعمـــاً لا يقـــوم علـــيه بـــرهان... إنه شيء موجود، يظهر نفسه بأعماله، وبتضـــحياته، وبســـيطرته على المادة، وبالأخص بقدرته على رفع الإنسان المـــادي مـــن ضـــعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله. هذه هي خلاصـــة القصـــد الرباني، وفيها تفسير للاشتياق الكامن في النفس الإنسانية للاتصـــال بأشياء أعلى منها. وفيها كشف عن أساس حافزه الديني.. هذا هو الدين» (ص ٢٠١-٢٠٢)[١].

---

(١) عن الإسلام ومشكلات الحضارة، ص ٤٨. سيد قطب، دار الشروق، بيروت.

أمـــام هذا التيار الفكري المادي الإلحادي، المتمثل بالمذهب الوضعي، الذي أنكر البعد الروحي للإنسان، ماذا كان موقف الكنائس المسيحية منه في هذا العصر؟

بعـــد أن تقـــرر، بصورة نهائية، فصل الدين عن الدولة، ومنع رجال الدين من التدخل في أمور الحياة، التي هي من اختصاص الدولة حصراً. لم يكن بد من تقبل الأمر الواقع، وإيجاد المبرر الشرعي من تعاليم الإنجيل الذي يقـــول: «أعـــط ما لقيصر لقيصر وما لله لله». أي أعط للحاكم ما عليك من ضـــرائب ومكـــوس، والتزم بأمر السلطة الزمنية الحاكمة. وإطاعة القوانين المعمول بها. ونفذ ما أمرك الله من صلاة وصيام وسلوك الطريق القويم الذي أمـــر الله بـــه؛ فلا تقتل ولا تسرق ولا تزنِ ولا تشهد بالزور... شرط عدم مخالفـــة سلوكك لأوامر القيصر حاكم زمانك. أي عليك أن تميز بين سلوكك الشخصـــي، وســـلوكك كعضو في المجتمع الملتزم بالقوانين الوضعية التي شرعتها السلطة الزمنية، من حيث إنك عضو في هذا المجتمع. فتقسم سلوكك بـــين طاعة أوامر الله وطاعة أوامر الحاكم. فالمسيحي لا يجد غضاضة في تطبـــيق القوانين الوضعية التي يشرعها الحكام، لأن المسيحية التي انفصلت عـــن الـــناموس الإلهي الذي جاء في التوراة، العهد القديم، ما دام ليس لديها شـــريعة ســـماوية تلتـــزم بتطبيقها في حياة المجتمع، فلا تعارض أن يكون الإنســـان هو الذي يشرع لنفسه، ويضع القوانين التي تفي بحاجات المجتمع، وتحـــافظ عليه وتؤمن مصالحه. وتضمن للفرد حرية العبادة وحرية السلوك. هـــذه الحرية التي حددتها فلسفة التشريع الحديث بأنها تقف عند حدود حرية الآخر.

كانت الكنيسة البروتستنتية أكثر تساهلاً وانسجاماً مع التجربة الليبرالية الغـــربية، وفـــي تمـــثل قـــيم الديمقراطية على المستويين الديني والسياسي. والتركيـــز علـــى القـــول بأن حرارة الإيمان بالله يتوجب أن يقابلها حرارة

الالتــزام بالحرية والمساواة والعدالة بين البشر. مما جعل العلاقة قريبة جداً بين البروتستنت وأفكار العلمانيين.

لم يكن من السهل على الكنيسة الكاثوليكية التسليم للعلمانيين كلياً بإدارة كــل شــؤون المجتمع، وحاولت أن تبقي الأحوال الشخصية في يدها، دون جــدوى. وأخيــراً كان لا بد من التسليم بالأمر الواقع. فأصدر البابا لاوون الــثالث عشر في أواخر القرن التاسع عشر بياناً عرف ببيان «الإله الأزلي» ميّــز فــيه بين السلطتين: الدينية والمدنية. فالأولى ينبغي أن يتركز نشاطها على الروحانيات، والثانية على القضايا الدهرية ـ الزمنية. وتتالت البيانات الصــادرة عــن المراجع الكاثوليكية تؤيد الفصل بين السلطتين خلال القرن العشــرين، لا ســيما في وثيقة المجمع الفاتيكاني الثاني في الستينات من هذا القرن. مع التشدد في الوقوف الحازم ضد أية علمنة إلحادية. والإصرار على ضــرورة خضوع الدولة لمنظومة من القيم أو المعايير الأخلاقية النابعة من روحية تعاليم الدين المسيحي.

هذه السلطة الروحية، التي لم يبق لها سلاح إلا الكلمة، ظلت تعبر عن الضــمير المســيحي في هذا الغرب المتعالم، الذي ابتعد بكليته عن المسيح. وبقــي صوتها مجرد صرخة ضمير تطلق في الأزمات. لكنها ما استطاعت مــنع حــرب من الحروب لا سيما في القرن العشرين، حيث كانت الحربان العالميــتان اللتان ذهب ضحيتهما عشرات الملايين من البشر. ولا استطاعت منع سحق ضعيف بسلاح قوي. لأنها كانت تتكلم بلغة الدين والأخلاق، وكان مديرو الحروب يتكلمون بلغة المصالح والمنافع. كانت تتكلم بلغة الله، وكان أولئك يتكلمون بلغة المال. إله ومعبود هذا العالم المادي، الذي رذله المسيح. لكن ويا للأسف، لم يبق من إله في هذه الحضارة المادية يعبد إلا المال.

وإذا كانــت خيــرية أي عمــل، في نظر الأديان، تقاس بقدر مطابقته لأوامــر الله، وتقاس شرّيته بقدر مخالفته لهذه الأوامر، فإن خيرية كل عمل

في نظر هذه الحضارة هو ما يؤمن مصلحة أو يجلب منفعة. وإذا كان عمل الإنسان المؤمن وسعيه ينصب في كليته على نيل رضوان الله، فإن إنسان هذا العصر الذي تجرد من الإيمان الصادق بالله وتحرر من أوامره، جعل غاية غاياته تحصيل المنافع المادية بأي سبيل ممكن، دونما اعتبار لحرام أو حلال.

حسنات ومساوئ الحضارة الغربية الحديثة

من حسنات هذه الحضارة أخذها بالعلميّة Scientisme كمنهج لاكتشاف قوانين الطبيعة، وتسخيرها لمصلحة الإنسان. فالقرون الحديثة شهدت، منذ عصر النهضة حتى يومنا هذا، تحولاً عن الميتافيزيقا إلى العلم، بواقعيته وطرقه التجريبية. وهي خيراً فعلت، فذاقت ثمار هذا التحول، بما انعكس على حياتها من تقدم واسع في شتى مجالات الحياة. فكشفت لإنسان العصر، عن كنوز الطبيعة، وعلمته أساليب الانتفاع بها، وقدّمت له أفضل الوسائل لاستغلالها. فوسائل المواصلات والاتصالات الحديثة قصّرت للإنسان المسافات بين أبعاد الكرة الأرضية، حتى جعلت العالم ـ كما قيل ـ قرية صغيرة. وسهلت له الاستفادة من الزمن، مئات المرات عما كان يستفيده إنسان القرون الغابرة، بما يسرت من استعمال الحواسب، وآلات النقل السريعة، ويسرت التخاطب عبر القارات، وسهولة وسرعة إنجاز التعامل في شتى المجالات. وهي لا زالت تقدم للإنسانية فتوحاً جديدة في المكتشفات العلمية من أجل تأمين الرفاهية والرخاء.

كما كان من مميزات هذه الحضارة الحديثة، التنظيم في جميع حقول النشاطات الإنسانية: الأمن، العمل، الزمن، الإنتاج، حركة المواصلات، توزيع الكهرباء والماء... هذا التنظيم الضروري لصيرورة الحياة الحديثة، اقتضى قيام السلطة المركزية، والدولة التي اقتضى دورها، بالإضافة إلى أمن المجتمع، السهر على ضبط وتنظيم حركة الحياة والعمل في المجتمعات الصناعية الحديثة، الكثيرة التعقيد.

لكـــن إنسان هذه الحضارة، عندما أخذ بمبدأ «العلمانية»، وانفصل كلياً عن الدين واستبعد رقابة الله على أعماله، وأصبح هو المشرّع الطليق من كل قـــيد، وتجاوز الشرع الإلهي، ونفى من حياته كل محرمات الدين، فقد شرّع، مـــثلاً، حـــرية الاتصال الجنسي خارج رباط الزواج الشرعي؛ أي ألغى من الناموس الإلهي كلمة زنى، المحرمة في جميع أديان العالم، من أجل ممارسة حـــريته الشخصية، وإشباع رغباته الجنسية. فكانت نتيجة ذلك القضاء على ســـنّة الزواج، وتحطيم الأسرة، وحرمان النساء من ممارسة غريزة الأمومة فـــي دفء الحـــياة الـــزوجية، وحرمان الأولاد، الذين يولد الكثير منهم من علاقـــات غيـــر شـــرعية، من أن يعيشوا في كنف أبوين في أسرة سعيدة. وحرمان الرجال من ممارسة وظائفهم الفطرية بإشباع غريزة الأبوة.

وهـــذا مـــا نشاهده في ظل بعض القوانين الحديثة التي شرَّعت الزنى نـــزولاً عند مبدأ حرية الفرد L'individu الذي له الاعتبار الأول في فلسفة الـــنظام الليبرالـــي. بهذا قد خسر المجتمع الخلية الأولى في بنيته الأساسية، وهـــي الأسرة، المؤلفة من زوجين وأولاد، ينشأون في كنف وحنان والديهم ليتربوا التربية السليمة، ويصبحوا أعضاء أصحاء نفسياً، يتواءمون مع أبناء مجـــتمعهم دونمـــا تعقيد أو انحراف. وقد غالت بعض المجتمعات الليبرالية العلمانية بأن شرّعت الشذوذ الجنسي، بل شرعت الزواج المثلي، بين الرجل والرجل، وبين المرأة والمرأة.

هـــذه الإباحـــة الجنسية جعلت الكثير من الرجال يعزفون عن الزواج والارتـــباط بامرأة واحدة ــ وفق تعاليم الدين المسيحي ــ مما جر على تلك المجـــتمعات مآسي جمة. فاستباحة محرمة من محرمات الدين، وتجاوز حد مـــن حـــدوده، كحـــد الزنى المحرم قطعاً في كل ديانات العالم، قد أدّى إلى زعزعة بنية المجتمع العلماني، وأدّى إلى عواقب بدأت مساوئها تظهر بشكل خطير في المجتمعات الغربية.

وقد نقلت لنا وكالة رويتر تقريراً صادراً عن جامعة روتجرز في أمريكا، أن معدلات الزواج في الولايات المتحدة انخفض إلى أدنى حد في الآونة الأخيرة (سنة ١٩٩٨) وارتفعت إلى ارقام قياسية نسبة الأمهات اللاتي ينجبن أطفالاً من دون زواج إرضاء لغريزة الأمومة الفطرية لديهن.

في الستينات ولد ٥,٣ في المائة من إجمالي المواليد في الولايات المتحدة من أمهات غير متزوجات، كما جاء في الإحصائيات الحكومية. في سنة ١٩٩٧ ارتفعت النسبة إلى ٣٢ في المائة. وشكل الأطفال السود الذين ولدوا من أمهات غير متزوجات ٦٩ في المائة.

وارتفعت إلى أرقام قياسية نسبة الأطفال الذين يعيشون مع أم أو أب فقط. في الستينات كانت النسبة تسعة في المائة وقفزت إلى ٢٨ في المائة في عام ١٩٩٧. وشكل السود ٥٥ في المائة من هذا المتوسط.

وانتهت الدراسة إلى أن الأطفال الذين يكبرون بعيداً عن الآباء أكثر عرضة للانحراف نحو الجريمة أو إدمان المخدرات أو الكحول أو ترك الدراسة أو الانتحار أو الحمل في سن المراهقة، من الأطفال الذين يعيشون في كنف آباء وأمهات.

وأشار التقرير إلى ارتفاع معدل الطلاق في الولايات المتحدة بمقدار الضعف بالمقارنة مع عام ١٩٦٠. حيث كانت نسبة المطلقات ٩,٢ في المائة لكل ألف امرأة، قفزت في عام ١٩٩٨ إلى ١٩,٥ في المائة».

وتشير الإحصاءات إلى أن نسبة المتزوجين الذين لهم أولاد يعيشون في كنف أبويهم في أسرة واحدة، تبلغ ٢٦ في المائة فقط من مجموع العائلات الأميركية. فهناك ٨ ملايين عائلة تعيش بأحد الوالدين فقط. وتعترف الإحصاءات الرسمية الأميركية أن ٧٠ في المائة من جرائم الأحداث مصدرها عائلات بأحد الوالدين. وتشير الإحصاءات إلى أن ٢٦ في المائة من البنات القاصرات تعرضن للاغتصاب. (١٩٩١).

وهــذه الحالــة تنســحب علـــى مجمل الدول الصناعية ذات الأنظمة الليبرالـــية. ففي بريطانيا مثلاً ازدادت نسبة الطلاق (١٩٩٣) ٥٠ في المائة وتراجعــت نســبة الزواج ١٦ في المائة. وتشكل العائلات المكونة من أحد الوالديـــن خمـــس العائلات في بريطانيا. أما الأولاد الذين يولدون من زواج رسمي فيشكلون ثلث أطفال بريطانيا[١].

«وكذلــك تــتزايد الــولادات خـــارج إطار الزوجية في كل أوروبا، وخصوصاً في بلدان الشمال، حيث تصل إلى نسبة الثلثين من الولادات عامة فـــي ايســـلندا، و٥٠ فـــي المائة في الدانمارك والنروج، و٤٠ في المائة في فرنسا. وتتدنى هذه النسبة في جنوب أوروبا. وبلغت واحد من ١١ في إيطاليا وسويسرا وواحد من ثلاثين في اليونان. أما معدل الخصوبة في أنحاء أوروبا كلهـــا فـــيقع دون خط الاستمرار (٢,١ طفل للمرأة) في جميع بلدان أوروبا باستثناء ألبانيا (٢,٧ في ١٩٩٦).

وســـجل الـــتقرير أدنى معدلات الخصوبة في أوروبا: لاتفيا (١,٢٤) واســـبانيا (١,١٤) وإيطاليا (١,١٩)[٢]. مما يجعل القارة الأوروبية تتعرض لتناقص سكاني حوالي المليون إنسان سنوياً وفق بعض الدراسات.

وهكذا، نجد أن إباحة الاتصال الجنسي، بغير زواج شرعي، لم يخفف من جرائم الاغتصاب، بل جعل هذه الجريمة، كما غيرها من الجرائم، تتفاقم وتتضـــاعف: لأن الإنســـان الذي لا ينمو في حنان أب وأم في مناخ أُسَرِي ســـليم، لا يكـــون إنساناً متوائماً صالحاً للمجتمع. وعلماء الاجتماع يتوقعون ارتفاعـــاً في نسبة الجريمة في تلك المجتمعات التي لم تجعل للدين موقعاً في حياة الناس ونظم المجتمع.

---

(١) جريدة السفير، تاريخ ٢٧ ايلول ١٩٩٤.
(٢) جريدة السفير، تاريخ ٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٩.

وفـــي مؤتمر «الاحتراز من الانتحار» الذي عقد في فرنسا في فبراير (شـــباط) ١٩٩٨. أفـــاد تقريـــر لأحد المعاهد المختصة أن ١١٢٨٠ شخصاً انتحروا في فرنسا العام ١٩٩٦. و١٥٠ ألفاً حاولوا الانتحار. علماً أن فرنسا تحـــتل المرتبة الرابعة بعد فنلندا والدانمارك والنمسا. وقد بينت استطلاعات الرأي أن ١١ في المائة من الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و١٩ عاماً فكروا بالانتحار خلال الأحد عشر شهراً التي سبقت الاستطلاع، وأن ٤٧ في المائة تحدثـــوا إلى أحد المقربين منهم عن محاولتهم هذه. وقد بلغت نسبة الانتحار فـــي فرنسا ٢٠ شخصاً من أصل ألف شخص، ينتحرون سنوياً. بينما تصل النسبة إلى ١٥ في اليابان وألمانيا. و١٣ في النروج وكندا، و١٢ في الولايات المتحدة[١].

لا شـــك أن من أهم أسباب هذه النسب العالية في الانتحار هو الفراغ العائلي، وفقدان دفـء الأسرة، والشعور بالوحدة، وعدم مشاركة الآخرين من أقـــرباء المنتحر همومه الشخصية. وإذا كانت الأسرة الحاضنة الأولى للولد غـــير مكتملة، بل قل غير موجودة، فنتيجة لذلك، لم يعدِ ما يتفرع عنها من بيـــئة صـــالحة لنمو الطفل، وتواؤمه، واكتمال شخصيته، موجوداً؛ كالأعمام والأخوال والعمات والخالات وأبنائهم وبناتهم. الذين يسميهم الدين الإسلامي بـــذوي الأرحام، ويشدد القرآن والسنة النبوية على التواصل والتوادد معهم. وينذر نبي الإسلام محمد بحرمان من يقطعِ رحمه بحرمانه من دخول الجنة. حيـــث يقول الله في الحديث القدسي مشدداً على تواصل ذوي الأرحام (ذوي القـــربى) بقوله: «أنا الرحمن خلقت الرحِم واشتققت لها من اسمي اسماً فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» (بخاري، أدب، ١٣).

ومن نتائج تلك الإباحية الجنسية الانحلال المعنوي والخلقي «وتصاعد الجرمية؛ وفق إحصاءات ١٩٨٩، يموت شخص في نيويورك اغتيالاً كل ٥

---

(١) جريدة السفير، تاريخ ١٩٩٨/٢/٥.

ســاعات، وتنــتهك حرمة امرأة كل ٣ ساعات، ويعتدى على شخص كل ٣ دقائق. وهذا يعني سنوياً، بالنسبة إلى هذه المدينة وحدها، ارتكاب ٧١٢٤١٩ جريمة ــ علماً أن الشرطة لا تحصي سوى الجرائم التي قدمت شكاوى بها ــ منها ١٩٠٥ جرائم اغتيال، ٣٢٥٤ جريمة انتهاك، ٩٣٣٧٧ عملية سطو فــي الشــارع. وهناك ١٤ مليوناً من المدمنين على المخدرات من مجموع ســكان الولايات المتحدة. زد على ذلك أن «أسلوب الحياة» هذا ينعكس في الأفلام الأميركية المبثوثة يومياً على أقنية العالم الحر»[١].

وتضــيف الإحصـــاءات أن «عدد الأميركيين الذين يسقطون ضحايا الأســلحة ٣٧ ألف شخص سنوياً. ويتعرض ٥٧ طفلاً في اليوم إلى حوادث اعــتداء بالسلاح الناري، ويقتل منهم يومياً اثنا عشر طفلاً. وفق إحصاءات وزارة العدل»[٢].

ويذكــر الشــاعر سعيد عقل في جريدة السفير عن إحصائية أميركية، استناداً إلى إحصاءات أجريت في ١٢٠٠ مدرسة من مدارسهم، أنه في سنة واحــدة وقع عندهم في المدارس ١١٠٠٠ اعتداء بالسلاح و٧٠٠٠ سرقة و ٤٠٠٠ اغتصاب أو اعتداء عاهر[٣].

ويعلق غارودي على تدهور المجتمع الغربي بقوله: «إن مشهد انحطاط عــالم كهذا، بلا معنى، بلا بعد روحي، بلا بعد حقيقي، عالم مستسلم لقوانين اقتصـــاد السوق وحدها، حيث لم يعد في إمكان الحياة الروحية أن تعاش إلا فــي سر النفوس، دون أن تلعب أي دور في نَظْم الأواصر الاجتماعية، ولا في توجيه العلوم والتقنيات، لكي تساعد على تفتّح الإنسان، لا إلى تحطيمه، أدى في مرحلة أولى، إلى قرارات فردية: دروب كاتمندو، الغيبية، الباطنية،

(١) الأصوليات المعاصرة، روجيه غارودي، باريس، ص ٦٤.

(٢) جريدة السفير، تاريخ ١٥/٥/٢٠٠٠.

(٣) جريدة السفير، تاريخ ١٥/٥/١٩٩٣.

البحث عن معلمين مرشدين ومنقذين، جماعة بوابة السماء، جماعة عباد الشيطان... ثم بالتالي أدى إلى ردات فعل سياسية قوامها الرفض الشامل لحضارة غربية فاسدة». كما أدى إلى إفرازات من شأنها تفكك المجتمع؛ مثلما يرفع البونكز بالكتابة على قمصانهم شعار «لا مستقبل». كل هذا يذكر بتشنجات وانحلالات الانحطاط الروماني في أسوأ ساعاته»[١].

كذلك تجاوز إنسان الحضارة الغربية حرمة القتل والاستيلاء على مال الغير بالقوة (لا تقتل لا تسرق، قالها المسيح). والحق، أننا لا نجد تشريعاً واحداً في الأنظمة الليبرالية يبيح ذلك. لكن، في الواقع العملي، قد حدثت الحروب في العصور الحديثة، طحنت ملايين البشر، وسفكت دماءهم، إما من أجل نهب ثروات الشعوب الضعيفة، أو حروب تنافس، بين الأقوياء على نهب تلك الثروات. وكان الاستعمار لطخة عار في جبين تلك الحضارة، لن تمحوها عاديات الزمن.

فالمجتمعات الغربية التي تخلصت من الضمير الديني، والقيم المطلقة، وأبعدت المسيح وتعاليمه عن مسار حياتها وسلوكها، وجعلت المصلحة هي الإله الحق الذي يُسعى إليه، ويضحى من أجله، دفعت الدماء الغزيرة والدمار المريع، وذاقت ويلات حروب شعواء طاحنة، وحروب موعودة، تعيش الإنسانية أقصى درجات التوجس والرعب والجزع من وقوعها. ولا غرو فالدول الصناعية العلمانية تملك من أدوات الدمار ما يكفي لتدمير كرتنا الأرضية، ومحو الحياة فيها بضع مرات. «فالقوتان العظميان يخزنان ما يفوق المليون من القنابل المعادلة لقنبلة هيروشيما. هذه القنبلة قتلت ٧٠٠٠٠ سبعين ألف شخص في لحظة. مما يعني أنه بالإمكان اليوم، من الناحية التقنية القضاء على ٧٠ مليار كائن بشري، أي ١٢ ضعف مجموع البشرية»[٢].

---

(١) روجيه غارودي، الأصوليات المعاصرة، باريس، ص ٦٤.

(٢) روجيه غارودي، الإسلام الحي، ترجمة د. محمد ضاهر، دار البيروني، ص ٣٠.

وتــدل إحصاءات ١٩٩٢ أنه قد أهدر على التسلح في ذلك العام ٨١٥ ثمانمائـــة وخمسة عشر مليار دولار[١]. «في حين تبين الإحصاءات، أن ٨٠ مليون إنسان يموتون كل عام من الجوع أو من سوء التغذية. وفي حين تحدد الــولايات المــتحدة الأميــركية إنتاجها من القمح، وثلاجات أوروبا لم تعد تســتوعب فائض اللحوم والزبدة، وبلدان العالم الثالث تتضاعف ديونها عاماً بعــد عام. والمسافات ما زالت تتسع: الشمال يزداد غنى والجنوب فقراً. كل هذا يحدث بعد الهيمنة المطلقة للغرب على العالم بضعة قرون.

«فمجرد ما تتخلى أمة عن الإيمان بالقيم المطلقة في توجيه أعمالها لا يبقــى إلا الصراع من أجل السلطة والرفاهية والنمو. إنها حرب الجميع ضد الجميع. الغرب العلماني هو في هذا الوضع. ديانته الحقيقية هي إيمان أعمى بإلــه خفــي اســمه النمو، أي الرغبة في زيادة مضطردة للإنتاج، وبسرعة متــزايدة: إنتاج أي شيء نافع أو غير نافع، ضار أو حتى مميت، كالأسلحة، أكثــر الصــناعات مردوداً. هذا الإله الحي هو إله تعاسة: إنه يفرض ذبائح بشرية»[٢].

ففــي غياب الضمير الديني وأوامر الله ونواهيه، فلا يعود ثمة محرّم. فكل ما يؤمّن مصلحة فهو حلال، ولو كان استيلاء على ممتلكات الغير بالقوة والغصــب، ولو كان فيه سفك دماء وتدمير بنيان. «فكل ما يحدث لذة فهو خيــر، وكــل ما يحدث ألماً فهو شر»، وفق تعريف هذه الحضارة المادية. فالمصــلحة الشخصية هي الهدف، والحرية هي الوسيلة لتحقيق هذا الهدف. والعلاقات الإنسانية تحددها المنفعة التي غدت هي المقياس الخلقي، والرابط الاجتماعــي. وما دامت المصلحة هي التي تحدد علاقات الأفراد والجماعات والــدول، والمصــالح متناقضــة، فالعلاقات الإنسانية تصبح، في العلمانية،

---

(١) جريدة السفير، تاريخ ١٩٩٨/١/٧.

(٢) روجيه غارودي، الإسلام الحي، سبق ذكره، ص ٣٠ وما بعدها.

علاقـات تضـاد وتنافر وتنافس وصراع من أجل السلطة والرفاهية والنمو؛ فهـذا المورد هو لي أو لك، وهذا المنصب هو لي وليس لك. مصلحتي هي أسـاس علاقتـي بالآخر، «فالآخر هو العدو». يقول العالم الانكلزي هوبز: «الإنسان هو ذئب لأخيه الإنسان».

هـذه العلاقة القائمة على الصراع وإرادة الربح، وتضارب المصالح، ومـبدأ القـوة، والتي جعلت من المجتمعات الإنسانية ودولها مشروع حرب دائـم، وتـوجس مستمر، من منافس متهور، أو قوي طاغٍ. هذه العلاقة هي عكـس مـا رسمته الأديان من علاقات تقوم على المحبة والتراحم والأخوة الإنسانية، وإشاعة السلام بين بني البشر (كما مرّ معنا في الكتب السماوية). «فالفكر الوضعي» لا يطرح مسألة الغايات، بل مسألة الوسائل، ولم يعد يسأل عن الـ«لماذا» وانحصر سؤاله عن «الكيف».

وغـدا التطور يعرف بمعايير اقتصادية، أحادية الجانب؛ نمو كمّي في الإنتاج والاستهلاك، بدون الاستناد إلى مشروع إنساني، أو إلى كيفيّة للحياة. فالناتج القومي هو المعيار الذي تعطى بموجبه الشعوب والمجتمعات درجتها، والنمو الاقتصادي هو المعيار الوحيد لتقدير جميع أشكال الحياة الاجتماعية. وهذا النمو ليس محدداً إلا كمّياً.

إن المشروع الذي جاءت به الأديان، الذي يجعل من الحياة توقاً دائماً إلى المثل الأعلى الذي هو الله، والذي يربط عمل الإنسان بغايته المثلى، التي هـي نـيل رضـى الله، والتقرب منه، بخدمة الإنسان، وإرقاء حياته، كفرد وجماعة، بصفته البعد الإلهي في الأرض. هذا المشروع ذو الغايات السامية، تقلص إلى مفهوم العلم من أجل العلم، والتقنية من أجل التقنية، والفن من أجل الفـن، كمـا لـو أن تشغيل الآلة المنتجة للسلع هو الهدف. فالنمو هو غاية الغايات، والمال هو الإله الذي يجعل الحضارة الغربية الحديثة في توق دائم إليه. هذا الإله الذي حذرت جميع الأديان من غوايته.

لقـد تحـالف العلم مع المصالح الصناعية والاقتصادية. فأعطى عالم الأعمـال والمال الدعم الكبير للعلم والبحث العلمي، كما أعطاه أهدافاً محددة بدقة. وتعرض تصور العصور الوسطى المسيحية عن الحقيقة الإلهية، لهجوم نفعـية العلـم، ومـنذ ذلك الحين حل التسابق في زيادة السلطة محل الانقياد الورع لسبل الرب، وابتغاء مرضاته. وتخلى العلماء عن البحث في موضوع الغايات وقيم الحياة، لأن العلم لا يستطيع أن يمدنا بالغايات، ما دام يتكون من تجارب مدركة، أو من نظريات وقوانين، وعلاقات ثابتة بين عناصر المادة. هـذا العلم، ذي البعد المادي الصرف، يبعدنا عن الحياة، والابتعاد عن الحياة هـو تحجـير للفكر. وعليه، يفقد التعليم الغربي، الموجه بكليته نحو التقنية الصرفة ومداولة الطبيعة، الشعور بما يكون الآخر، لا كإدراك ولا كمفهوم.

«أن نضـع موضـع التساؤل قيمة نموذج من النمو الأعمى، لا غاية إنسـانية لـه، نمـو معياره الوحيد هو زيادة في الكم مستمدة من الإنتاج والاسـتهلاك. وأن نتطلب سياسة لم تعد من مستوى الوسائل وحسب، وإنما مـن مستوى الغايات. سياسة يكون موضوعها، معيارها، أسبابها، تفكيراً في غايـات المجـتمع الإجمالي، ومشاركة كل امرئ، دون استلاب السلطة، في بحـث هـذه الغايات وفي تحقيقها. وأن نكشف هذا البعد الجديد للإيمان في السياسة وفي الثقافة، هذا الاختيار بحرية تكون في مشاركة كل فرد في الفعل الخـلاّق ـ هذا التساؤل حول الغايات، عن قيمة ومعنى جيراننا ومجتمعاتنا علـى نحو يتيح تغييراً في الناس وفي البنى في آن واحد ـ إنه تقليدياً مناط بدور الأديان ووظيفتها.

«فهـل تكون الكنائس، في الغرب، قادرة على الاضطلاع بهذا الدور وهذه الوظيفة في حال اتجاهاتها وبناها الراهنة؟

«فـالقول بأنهـا هـي كذلك بحاجة إلى تجديد نفسها، وإلى مزيد من الانفتاح على العالم بـ«حوار الحضارات» هو معالجة المشكلة القصوى في

هذا الحوار. إنه باستجواب المسيحية استجواب أهم حصن للاستثنائية الغربية.

«كيف عيشت، في الغرب، هذه الصلة للإيمان مع العالم، وبادئ ذي بدء، صلة هذا الإيمان بالسياسة؟

«في الغرب لم يُعبّر عن وحدة السياسة والإيمان إلا بتبعية أحدهما للاخر في شكل الحكومة الدينية، بالنظر إلى اعتبار السلطة «من الحق الإلهي» كان العامل وحده المؤهل لتحديد الغايات.

«وعليه كان نقد مكيافلي، في عصر النهضة، العامل في فصل السياسة عن الدين، والمنادي بالاستقلال الذاتي للقيم الدنيوية، نقداً تحررياً، لكنه وضع في خدمة إرادة السيطرة الرأسمالية الناشئة وأفضى به الأمر إلى فصل جذري بين السياسة وبين التفكير في الغايات. كل شيء جرى منذئذٍ كما لو كانت الغايات معطاة ضمنياً من قبل إرادة القوة هذه، إرادة الربح وخلق الأسواق القومية التي عملت بها«الأمم» على تفجير مسيحية القرون الوسطى»[1].

من سوء طالع هذه المجتمعات الغربية الحديثة، أنه لم يبق لله من وجود فيها سوى الحياة الداخلية لأقلية مؤمنة، تحيا حياتها الخاصة وفق القانون السامي للحب المسيحي. لكن هذه الأقلية، ليس لها حول في تغيير واقع العالم المادي، متعدد الآلهة. كل فرد وكل جماعة تتخذ من رغباتها الخاصة إلهاً؛ كالمال، والسلطة، والجنس، والتكنولوجيا، والأمة... إلهاً مزيفاً، يسحق كل القيم الإنسانية المطلقة، ويسلب لبّ عباده ويفترسهم.

---

(١) من أجل حوار بين الحضارات ــ روجيه غارودي ــ ترجمة الدكتور ذوقان قرقوط ــ دار النفائس، بيروت، ص ٢١٥.

فالتعليم بهذه الطريقة الوضعية التي تكون فيها الحوادث مجردة من مضمونها، مجردة من الكل، لا يمكن أن يقدم لنا سوى تقنية بلا غاية.

لكن هذه الصورة السوداء القاتمة في هذه الحضارة الغربية العلمانية، يقابلها صورة فيها بقية من أمل في صحوة إنسانية، نأمل أن يعم نورها روح هذه الحضارة، وتنقلب على دياجي الظلمة فيها. هذه المؤسسات والجمعيات الإنسانية المتعددة التي يرتفع صوتها، بين الحين والاخر، لتصحيح مسار خاطئ، أو إيقاظ ضمير غافل، أو مساعدة جماعة منكوبة، أياً كان مصدرها، فهي تمثل، في نظرنا، بقية من ضمير ديني وثقافة مسيحية، لمّا تنطفئ جذوتها بعد.

فلا بد، إذن، لهذه الحضارة المتعالمة، من أجل استقامة مسيرة الحياة، من مراعاة البعد الروحي للإنسان، وتنمية ضميره على التواصل مع الله خالق هذا الوجود، والشعور برقابته الدائمة على أعمال الإنسان، واعتبار أن الإنسان ببعده الروحي، كيان خالد، لا بد أن يسأل عن عمله يوم الحساب، وينال جزاءه إن خيراً فخير أو شراً فشرّ.

ولا بد من إقامة علاقة بين الدين والسياسة، علاقة جدلية، يتماهى فيها السياسي مع غائية الدين وقيمه وأخلاقه، ومثله التي لا تنحط، بوجه من الوجوه إلى مستوى الغرائزية البشرية، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

فمن أجل استقامة سمفونية الحياة، واكتمال الفكر، وتحقيق أنسنة الإنسان، فلا بد من ثقافة شاملة تشبع توقه الفطري إلى التدين، وإعطاء غاية لوجوده ولعمله تتسامى عن علاقات المادة وقوانينها المحددة، وتصله مع مصدر هذا الوجود. وتجعله معه على علاقة دائمة، كي يطمئن لمصيره، ويظل في صيرورة دائمة لتحسين هذا المصير، بإطاعة أوامر الله والبعد عن نواهيه، والسعي الدائب لعمل الخير للآخر، أياً من كان هذا الآخر. فهو، في عرف رسالات السماء، الأخ في الإنسانية. وخدمته وسيلتنا إلى نيل رضوان

الله «ونبل ملكوته» وإقامة السلام في الأرض، وإشاعة التراحم بين البشر. وحينئذ تردد الإنسانية جميعاً، مع المسيح: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون» ومع محمد: «أفشوا السلام بينكم» و«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

ب . الثقافة الشرقية

الإسلام لا يفرق بين ما لقيصر وما لله. بل يعتبر أن كل شيء هو لله، وما دور قيصر إلا المنفذ لشريعة الله. فالقوانين الوضعية لا يجوز لها أن تحلل ما حرم الله. بل يجب أن يكون الدين، أو الشرع الإلهي الضابط الأساس لكل تشريع؛ فالدين يحرِّم السرقة والقتل والزنى وشهادة الزور، مثلاً، فلا يجوز لمشرِّع أن يبيح هذه المحرمات الإلهية تحت أية غاية. فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة. فلا يجوز إباحة قتل شعب من الشعوب من أجل الاستيلاء على أرضه وثرواته، عملاً بمبدأ تأمين مصلحة. ولا يجوز إباحة الزنى تحت عنوان الحرية الشخصية.

فالله في الإسلام هو المشرِّع، وما شرّعه الله هو لخير الإنسان واستقامة حياته فرداً ومجتمعاً. وما المذاهب الفقهية في الإسلام، على تعددها، إلا توضيحاً لجزئيات الشريعة والاجتهاد في تطبيقها. والاجتهاد ينحصر في الأحكام الشرعية التي ليس فيها نص بيِّن. فتتفاوت فيه آراء الفقهاء. والاجتهاد هو بذل الوسع في الفهم، وما ينتج عنه هو غلبة ظن الفقيه، لذلك فهو تشريع غير قطعي، يخضع لتغير ظروف الحياة وحاجات المجتمع، وتطور المفاهيم والثقافات. والنصوص القرآنية، ترفدها أحاديث الرسول، هي الشرع الثابت الذي لا خلاف، ولا اجتهاد فيه، إذ، «لا اجتهاد في معرض النص»، اللهم، إلا في فهم وتفسير النص. فالفقه الإسلامي هو فهم وتبيان للشريعة الإسلامية. وهذه متممة للعقيدة. والفقه والشريعة والعقيدة كل لا يتجزأ، من أجل إتمام مسيرة الحياة وتكامل المجتمع. فالشرع الإسلامي يتضمن نظماً اجتماعية وسياسية واقتصادية وعبادية.

وحيث أصبحت المسيحية في الغرب، في ظل العلمانية، مجرد ارتباط شخصي بين الإنسان وربه، فالإسلام، على مرّ العصور، كان بالإضافة إلى علاقــة مخلــوق بخالقــه، المنظّم لعلاقة الإنسان بالإنسان، كفرد، والمنظم للعلاقات الاجتماعية.

إن مــبدأ فصــل الدين عن الدولة، في الغرب، له مبرراته التاريخية، بعــدما شــهد التاريخ الغربي مآس جمّة، من جراء تسلط رجال الدين على الدولة، وتنكيلهم بالعلماء، وتحالفهم مع الملوك، ومع رجال الأقطاع، كما مرّ معــنا، وبعــدما ارتُكب من أخطاء باسم الدين. حمّل عواقبها الدين المسيحي نفســه. فكــان تزامن النهضة العلمية والصناعية مع فصل الدين عن الدولة، حجــة بالغة للعلمانيين لكي يلصقوا بالدين تهمة التخلف، ويبالغوا في إقصائه عن المجتمع.

أمــا في الشرق، فقد كان الأمر عكس ذلك؛ فالنهضة الإسلامية كانت ولــيدة الــدين الإسلامي. وكان الازدهار الفكري والعلمي الذي اشتهرت به الــبلاد الإسلامية في عصورها الأولى، يوم كان الإسلام ينتظم جميع شؤون الحــياة والمجــتمع، ويــوجه ســلوك الناس. ولم يذكر تاريخ الإسلام، على المستوى التطبيقي، منذ عهد الرسول وإلى نهاية العهد العثماني، أن سيطرت طبقة باسم «رجال الدين» على الحكم. يقول الشيخ محمد عبده: «يقولون: إن لــم يكــن للخليفة ذلك السلطان الديني، أفلا يكون للقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام؟

«وأقــول: إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الإســلامي. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه في طريق نظره»[١].

---

(١) د. محمد ضاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني ـ سبق ذكره، ص ٤٣٧.

فالشـــرع الإســـلامي ذو شـــقين، عـــبادي ومدني، فالعبادي، لا يلزم بأحكامـــه، ضـــمن نطـــاق الدولة، إلا المسلمين وحدهم، ولا يطبّق إلا على المؤمنـــين بـــه، ولا يُلـــزم أبناء الديانات الأخرى بتطبيقه. إذ «لا إكراه في الـــدين». أمـــا التشريع المدني الذي ينظم الحقوق والواجبات فهو من حيث المبدأ والأساس، يعطي مركزاً حقوقياً متساوياً لجميع المواطنين دون استثناء، ودون تمييـــز بـــين ديـــن وديـــن، أو طبقة وطبقة. إذ لا طبقية في المجتمع الإســـلامي كما كان في المجتمع الأوروبي (طبقة النبلاء وطبقة الإكليروس وطبقة الشعب).

فالعلمانـــية ظاهـــرة أوروبية محضة، من حيث موطنها، أو من حيث وســـطها البشري والحضاري، أو من حيث المعطيات السياسية والاجتماعية والفكـــرية والدينية التي أدت إليها. من هنا يتضح أنها ليست مشكلة إسلامية، لا علـــى مستوى الدين ولا على مستوى السياسة ولا على مستوى المجتمع، ولا على مستوى الحضارة.

لم يشهد تاريخ هذا الشرق الإسلامي أية مشكلة بين الدين والدنيا، ولا بـــين السياســـي والديني، ولا بين علماء الدين وعلماء الدنيا، ولا بين الدين والعلـــم. فالحضارة الإسلامية هي وليدة الفكر الديني الذي يشتمل على نظام المجتمع، ونظام الحياة، ومفاهيم الغيب، في كلٍّ شامل موحَّد.

لا يـــوجد فـــي الإســـلام مـــا يسمى بـــ«رجال دين» بالمعنى الطبقي الاجتماعـــي الموجود في المجتمعات غير الإسلامية، وذلك لأنه لا يوجد في الإســـلام أي معـــتقد أو تشـــريع يمكـــن أن يـــتكون بسببه أو لأجله جماعة «كهـــنوت» كالتـــي وجدت في سائر الأديان الأخرى. وذلك لأن العبادة في الإسلام لا تحتاج إلى وسيط، بل لا يمكن أن تتم عن طريق وسيط، وإنما هي تعامـــل مـــع الله تعالـــى ومع الشريعة بشكل مباشر. ولأنه ليس في الإسلام جماعـــة طبقية تستمد شرعية وجودها الطبقي من الإسلام، وتتمتع ـ نتيجة

لذلك ـــ بامتيازات على مجموع الشعب، تخولها سلطة استثنائية وحقوقاً استثنائية، كتلك التي ناضلت الثورة الفرنسية، مثلاً، ضدها، وناضل الإكليروس الفرنسي في سبيل الاحتفاظ بها.

لقد وجد في الإسلام، دائماً، رجال يعملون في حقل الدراسات الإسلامية، ويتخصصون في الفقه الإسلامي، باعتباره علماً. ومن هنا يكون مرجعاً لغير المختصين في هذا الحقل العلمي، كما هو الشأن بالنسبة إلى علماء الطب والهندسة أو غيرهما. وهؤلاء أطلق عليهم تسمية فقهاء أو علماء دين.

فعقيدة التوحيد الإسلامية كانت تعطي العالم الطبيعي كله (المادي والإنساني) انسجاماً وتكاملاً رائعين. والنظام التشريعي المنبثق عن المعتقد التوحيدي الإسلامي ومتفرعاته في العقيدة، كان يُبَلْوَر، في صيغ تشريعية، تمثل المبادئ الكبرى في الشريعة الإسلامية، تأخذ صفة التكامل بين المادي والروحي في الطبيعية والمجتمع والإنسان، وتجعل كل واحد منها ضرورياً للآخر[1].

الإسلام والعلم

فالعلمية، أي طريقة البحث القائم على الملاحظة والتجربة أو الاختبار جاءت إلى القارة الأوروبية من الحضارة العربية التي كان لها سبق اكتشاف هذا المنهج العلمي، لأول مرة في التاريخ. أخذت أوروبا هذا المنهج (العلمية) عن طريق جامعة قرطبة في الأندلس. فتخلت عن المنهج الفكري اليوناني القائم على التأمل، ونحت نحو العلم بواقعيته، واعتمدت نتائج التجربة

---

(١) راجع: محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، دار التوحيد الإسلامي، بيروت، الكويت، ص ١٥٩.

المخبرية عوضاً عن التأمل الفكري الصرف. فكانت النهضة الأوروبية هي نتيجة من نتائج هذا المنهج العلمي التجريبي.

فمنهج البحث العلمي، في أساسه، هو منهج إسلامي. لكن الإسلام الذي جمع بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة، لم يقصر المعرفة الإنسانية على العلم المادي؛ بل جعل للعقل دوره في فهم الأمور غير المادية، وأمـــر بمعرفة عالم الغيب عن طريق الرسالات السماوية. ووفّق بين العقل والوحي.

فـــالعلم، الذي نما وازدهر في البلاد التي كانت تدين بالإسلام، لم يلق مـــن علمـــاء الدين أية معارضة، ولم يحدث قط تعارض بينه وبين المفاهيم الدينية. حيث يحض الدين الإسلامي على العلم، ويرفع من شأن العلماء. كما جاء في نصوص آيات القرآن الكريم: «**وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمـــون**» (الزمر، ٩). فلا يستوي عند الله العالم والجاهل، بل: «**يرفع الله الذين آمنوا وأوتوا العلم درجات**» (المجادلة، ١١). والقرآن يعلم المؤمن به أهم كيفيات الدعاء: «**وقل رب زدني علماً**» (الكهف، ١١٤). فالعلماء ــ وفق الإســـلام ــ هم أقرب الناس إلى إدراك عظمة الله، من بديع خلقه، لذلك فهم أكـــثر الـــناس خشـــية من الله وخضوعاً لأمره، لأنهم أكثر الناس معرفة به تعالى، «**إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ**» (فاطر، ٢٨). ويرفع الإسلام من شـــأن العلماء حتى يجعلهم في مصاف الأنبياء، كما جاء على لسان الرسول الكـــريم: «العلمـــاء ورثة الأنبياء» (بخاري، باب العلم، ٢٦. مجمع الزوائد ومنـــبع الفوائد لنور الدين الهيثمي، ج ١، ص ١٣١). ويقول منوهاً في قيمة العلماء: «موت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسدّ، وهو نجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم» (التفسير المعين، ٤٣٧) داعياً المسلمين إلى الأخذ بمعـــارف الأمم والشعوب غير المسلمة: «الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الناس بها» (رواه الترمذي في العلم، وابن ماجه في الزهد).

يقول العالم (هورتن): «نجد في الإسلام اتحاد الدين والعلم، وهو الدين الوحيد الذي يوحّد بينهما. ونجد فيه كيف أن الدين موضوع بدائرة العلم، ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه سائرتين معاً باتحاد، ومتجاورتين كتفاً على كتف»(١).

ويقول العالم (الزي لستنشتاتر): «الإسلام ليس ديناً فحسب، بل هو أسلوب في الحياة، وجد دون غيره، طريقه إلى نفوس الأميين والفقراء، وإلى نفوس المثقفين، وإلى نفوس القادة والساسة. وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضيات، رغم بلوغهم هذه الدرجة، ظلوا مخلصين لدينهم الإسلامي»(٢).

المسيحية الشرقية

فالكنائس الشرقية التي عاشت في كنف الدولة الإسلامية، لم يعترِ تاريخها أي تصادم أو تضاد مع علماء عصرها، مسلميهم ومسيحييهم. فهي تلتقي مع الإسلام والمسيحية الغربية في تناقضها مع العلمانية. وهي لم تلق سلاحها أمام سيطرة العلمانية، كالكنيسة الغربية، لأنها لم تدخل أصلاً في صراع معها. فالعلمانية التي دخلت إلى هذا الشرق في القرن العشرين عبر بعض الذين تثقفوا بالثقافة الغربية، لم تسيطر بعد، ولم تدخل في صميم حياة المجتمع، ولم يعمل بها كنظام يلغي الدين إلغاءً كلياً، ويبعد الرقابة الإلهية عن حياة الناس. فالشرق، بمسلميه ومسيحييه، لم يبلغ درجة الكفر أو الإلحاد بالدين. ولكن، بسبب تخلف المجتمعات الشرقية، وسيطرة الاستعمار الغربي عليها، كان من الطبيعي أن تعمل دولها، حتى بعد الاستقلال، بالقوانين الغربية الحديثة. فاستعيرت قوانين المستعمر الغربي العلماني في المحاكم المدنية. فهذه القوانين الغربية المطبقة في الشرق، لم تبلغ في علمانيتها

(١) أنور الجندي ـ سقوط العلمانية ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، ص ١٩٧ و١٩٨.
(٢) المصدر نفسه.

التناقض الكلي مع الدين. فقسمت المحاكم إلى مدنية تحكم بالقوانين الوضعية، وإلى محاكم شرعية تحكم بموجب الشرائع الدينية. فكان للدين نصيبه في الأحوال الشخصية؛ من زواج وطلاق وإرث ومتفرعاتها، ولم تُلغَ جميع محرماته كما في الغرب. ولا زالت الأسرة الشرقية تعيش في كنف الإيمان الديني الذي يحصّنها من الانفلات والتفكك، ويحفظ كينونتها، ويشد أواصر القربى بينها. ولا زال الأولاد يعيشون في كنف وحنان والديهم يتربون التربية الدينية التي تشد عرى أعضاء الأسرة. ولا زال الآباء والأمهات، في شيخوختهم، يعيشون في بر وإكرام أولادهم، حيث يتقربون بخدمتهم إلى الله الذي أمر، في جميع الأديان، ببرّهم والإحسان إليهم. ولم تصبح، في مجتمعاتنا الشرقية المؤمنة، دور العجزة، بعد، هي القاعدة لاحتضان العجائز، كما في الغرب. ولا زال في أوساطنا المؤمنة من يعيب على الأبناء ترك آبائهم وأمهاتهم بعيداً عن حنانهم ورعايتهم. ولا زال الإيمان الديني هو الذي يمتّن علاقة الأهل والأولاد، ويشد أواصر الأسر بالودّ والمحبة، التي حرم منها أكثر أبناء المجتمع الغربي.

كان لمسيحيي الشرق دور كبير ومساهمة فاعلة في قيام النهضة العلمية والثقافية في الدولة الإسلامية. فترجموا الكثير من كتب اليونان إلى اللغة العربية، وبرعوا في العلوم الطبية. وساهموا في تقديم الخبْرات في النظم الإدارية والمالية التي كانت الدولة الحديثة بحاجة إليها. ولم تعترِ حياتهم مشكلات كالتي عانتها الكنائس في الغرب للأسباب التي تقدم ذكرها. فالإسلام يتضمّن، إلى جانب الناحية التعبّدية، نظماً اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية، مصدرها الإيمان بالله والالتزام بالشريعة الإلهية التي لا تختلف في بعدها الأخلاقي والعقائدي عما جاء في تعاليم المسيحية. فضلاً عن الاعتراف الكامل من الإسلام بالدين المسيحي. لذلك لم يعش أبناء هذا الدين في غربة عن مجتمعهم الجديد في ظل الحكم الإسلامي.

أما الشخصية المسيحية المعاصرة في هذا الشرق، فقد اصابها التشتت الفكري كما أصاب الشخصية الإسلامية. فالمثقفون المسيحيون، وبشكل عام، يؤمنون بعلمنة المجتمع كحل لمشكلة التخلف، كجمهور المثقفين المسلمين. لكنهم، من حيث يعملون على تقليد المجتمع الغربي كمثال حضاري، فهم لم يتجردوا من معتقدهم الديني كما فعل إنسان الغرب العلماني. ولم يخرجوا عن تقاليد مجتمعهم ذي البعد الديني. فلم ينتهكوا الأعراف الدينية (المسيحية والإسلامية) فظلوا في مسلكهم شرقيين، ولم ينسلخوا عن قيمهم. فلم يُبحْ عندهم الجنس، مثلاً، ولا استهين العرض ولا انتهكت القيم. ولم نسمع أصواتاً تنادي بتحطيم تلك القيم، كما شاهدنا في التراث الغربي. ولا زال الضمير الديني بمحللاته ومحرماته يحكم السلوك الفردي والجمعي. ولم تحدث القطيعة التامة بين الناس والكنيسة، كما عند الكثرة الساحقة من الغربيين. ولئن ذهب البعض هذا المذهب، فهم أفراد قلائل، لا يجرؤون على الإباحة بأفكارهم الملحدة أمام الجمهور المسيحي المؤمن. ولئن آمن بعضهم بفصل الدين عن الدولة، وعدم تدخل رجال الدين في السياسة، فإيمانهم هذا ينطلق من رفضهم لنموذج الدولة المسيحية في القرون الوسطى الأوروبية التي كانت تجربة تاريخية سوداء، انعكست مساوئها على المسيحية نفسها. ويقض مضجعهم قيام دولة إسلامية في هذا الشرق على غرار دولة «طالبان» كما يطرحها غلاة التطرف من المتعصبين المسلمين الذين يستحيل التعايش معهم. وفي خلفية عقلهم الجمعي الخلافة الإسلامية العثمانية التي تحولت إلى دولة عنصرية طورانية تركية، وتخلت عن الإسلام وقيمه، ونكّلت بالمسلمين والمسيحيين معاً.

فالكنائس المسيحية الشرقية، على اختلاف مذاهبها، لا زالت تعيش أصالتها المسيحية، وتمارس دورها التعبّدي، وتكافح من أجل تثبيت أتباعها على الإيمان، وعدم الانجرار وراء علمانية الغرب الملحدة. وهي بهذا تلتقي مع المؤسسات الدينية الإسلامية في تخوفها مما يهب على هذا الشرق من

أساليب الإباحية والاستهتار بالقيم الدينية والأخلاقية. وتنقل لنا أجهزة التلفزة صور وأصوات رجال دين مسيحيين ترتفع فوق صوت السياسيين، تدافع عن القضايا القومية والوطنية بصدق وإخلاص.

الدين والسياسة

ليست السياسة، في رأي الدين، فن تأمين المناصب والمصالح المادية للفرد أو للحزب، بل هي فنّ إدارة شؤون الدولة، وعمل يتقرب فيه السياسي إلى الله، بخدمة الناس، وتأمين مصالحهم العامة وقضاء حوائجهم. وليست السياسة فن الممكن، كما يعرفها ساسة هذا العصر، بل هي فن الواجب، وإقامة العدل، والثبات على الحق. لأن الحقّ في نظر الدين، هو الغاية، بل هو الله: «**الله هو الحق**» (سورة الحج، ٦) وليست السياسة طريقاً بالغ التعرج، لا يستطيع سلوكه إلا المتفزلكون والمتذاكون الذين يتقنون فنّ التمويه وقلب الحقائق، والظهور بوجوه مقنّعة، تلبس لكل حالة لبوسها. بل السياسة، في عرف الدين، هي خط مستقيم يصل بين نقطتين: المبدأ، الذي هو العقيدة الدينية وتعاليم السماء، والغاية، التي هي نيل رضوان الله تعالى. فالسياسي المؤمن برقابة إلهية، والملتزم بمبدأ ديني، يكون صفحة بيضاء ناصعة، يسهل على كل إنسان اكتناه مضمونها وإدراك أغوارها.

فالعمل السياسي الذي يسود فيه عامل المصلحة وحده، وتستبعد منه قيم الأخلاق الدينية النبيلة، والمثل العليا، يصح فيه المثال الشائع (السياسة ليس لها قلب ولا ضمير، لها عقل فقط).

وقد عبّر عن السياسة بمفهومها العلماني، تشرشل الزعيم الانكليزي الشهير بقوله: «ليس لانكلترا أصدقاء دائمين، وليس لها أعداء دائمين، وإنما لها مصالح دائمة». ومن هذا المنطلق عبر أحد رؤساء الجمهورية اللبنانية، سليمان فرنجية، بقوله: «وطني دائماً على حق». أي أنا مع مصلحة وطني، مهما كانت هذه المصلحة حقاً أم باطلاً. وكان جديراً به، لو انطلق من مبدئه

الديني، أن يقول: أنا مع وطني ما دام وطني على حق. فالوقوف مع مصلحة الوطن، حقاً كانت أم باطلاً، هو مبدأ علماني. أما الوقوف مع الحق فهو مبدأ تتمثل فيه أعلى قيم الأخلاق الدينية. فالحق، في المفهوم الديني، أسمى من الأوطان.

وهكذا، فقد فرّقت الحضارة المتعالمة الحديثة بين السياسة والأخلاق، وبين السياسة والعدالة. فالسياسة الدولية القائمة على القوة، وتناقض مصالح الدول والشعوب، تجردت من كل القيم؛ فالدول الكبرى تأكل مصالح الصغرى. حتى انكفأ المجتمع الإنساني إلى عهد الغابة حيث تنهش الوحوش القوية لحم الوحوش الأضعف.

أما على صعيد السياسات الشرقية المعاصرة التي تخلى فيها أكثر السياسيين عن الالتزام بأخلاق الدين وقيمه، فنجد الأساليب الملتوية جرياً وراء تأمين مصلحة أو تحصيل منصب.

لقد كان في المجتمع الإسلامي في عهد ازدهاره الحضاري ثمة فقهاء، وكان ثمة سياسيون، بلا شك. ولكن لم يقم بينهما تناقض. لأنهم جميعاً يصدرون عن رؤية واحدة للكون والحياة والإنسان والمجتمع. السياسة متكاملة، ولا تعاني من أي تعارض في داخلها، بين الروحي والمادي، على الإطلاق. ومن ثَمّ، فقد كانت الرؤية السياسية للفقيه متفقة مع الرؤية السياسية للسياسي وللإنسان المسلم. وكانت الرؤية الفقهية للسياسي وللإنسان المسلم متفقة مع الرؤية الفقهية للفقيه. والاختلاف بينهما في الدور كان ناشئاً عن الاختلاف في المجال الوظيفي لكل منهما. وهذا يعني تكاملهما، وليس ناشئاً عن الاختلاف المبدئي الذي يعني تناقضهما.

لقد كان السياسي ـــ إذا لم يكن فقيهاً ـــ يمارس السياسة والإدارة على ضوء النظرية التي يبلورها الفقيه، ويعتنقها الإنسان المسلم. ومن هنا كان السياسي يستمد شرعيته. وكان الفقيه ـــ إذا لم يكن سياسياً ـــ يمارس نشاطه

الفكـــري في حقل الشريعة، لا على أنها عقيدة نجاة في الآخرة فحسب، وإنما علـــى أنهـــا شـــريعة عمل للدنيا أيضاً يستهدي بها الحاكم والسياسي ورجل الإدارة والقائـــد العسكري. لقد كان الفقيه والسياسي، كما قلنا، متكاملين، ولم يكـــونا متناقضـــين كما هو الحال في المجتمعات الأوروبية التي عانت من المخاض الأليم الذي ولدت منه العلمانية[1].

فالإسلام لا يؤمن بالفصل بين القيم، وتجزئة الأخلاق، بل يؤكد وحدتها فـــي نظـــرة مـــتكاملة شـــاملة، تجمع بين الدين والدنيا. الدين كمبدأ منظم، والإنســـان كمسؤول عن تطبيق إرادة الله المتمثلة في التوجيهات الواردة في تعاليم الأديان.

الإسلام يحل مشكلات الفرد والمجتمع

بعد أن تخلى الغرب عن المسيحية، كناظم لسلوك الإنسان، ونحا نحو التفسير المادي للحياة، وتخلى عن الأخلاق ذات البعد الديني، وصرف النظر عن الرقابة الإلهية على سلوك الإنسان، تخلى عن الناموس الإلهي، واستبعد القيم الدينية. ولاءم ما بين ما في كيانه من غريزة حب الذات، وبين معطيات الحـــياة المادية الصرفة. واعتبر أن مقياس سعادته هو ما يحصله من نعماء هـــذه المادة. وأن مقياس شقائه هو ما يحرمه منها. فغريزة حب الذات يعبر عـــنها بالـــتوق إلى اللذة ورفض الألم. فوضع لها قيمة خلقية تختلف عن قيم الدين: «فالخير هو ما يحدث لذة والشر هو ما يحدث ألماً».

هـــذه النظـــرة للإنســـان ذات البعد الأحادي الذي اعتبرته كياناً مادياً وحســـب، وحصـــرت الوجود كله في نطاق المادة. وحددت الحياة بأنها هذه الفترة بين الولادة والموت. فلا بد للإنسان أن ينال منها أكبر قدر من لذاتها،

---

(١) راجـــع: محمـــد مهدي شمس الدين ــ العلمانية ــ دار التوجيه الإسلامي ــ بيروت، ص ١٦١ وما بعدها.

مـا دامـت الحـياة قصيرة وفانية. ولكي يحقق الإنسان لنفسه أكبر قدر من مـتعها، لا بـد له من أن يعيش حياته بحرية تامة ليحقق ذاته وينال مبتغاه، دونما قيد من حرمْ ديني. فكان الفرد L'individu عندها هو الكيان الأول في هـذا الوجود، وهو سيد نفسه وسيد مصيره. لا حدود لحريته إلا عند حدود حرية الآخرين.

لكـن هذه الحرية التي يمارسها الناس في المجتمع الليبرالي الرأسمالي لـم تستطع تأمين العدالة بين أفراد المجتمع. فقسمت المجتمعات إلى طبقات تـتفاوت فـي امـتلاك ثروات البلاد. فكان هناك طبقة الرأسماليين الأغنياء وطـبقة الكادحين، طبقة مستغِلين وطبقة مستغَلين. طبقة أصحاب المصانع، وطـبقة العامليـن فـيها. فعاد المجتمع الصناعي إلى عهد ما قبل الثورات الاجتماعـية. فقامـت الماركسية الشيوعية تتصدى لهذه المشكلة وتضع لها الحلـول. فاعتبرت أن أساس المشكلة يكمن في الملكية الفردية. هذه الملكية التـي نمّـت فـي نفوس الناس ظاهرة حب الذات، التي «ليست ميلاً طبيعياً وغريـزة راسخة في كيان الإنسان، وإنما هي نتيجة للنظام الاجتماعي القائم علـى أسـاس الملكـية الفردية، الذي خلق في الفرد حبه لمصالحه الخاصة ومنافعه الفردية. فإذا حدثت ثورة الأسس التي يقوم عليها الكيان الاجتماعي، وحلـت الملكية الجماعية والاشتراكية محل الملكية الخاصة، فسوف تنعكس الـثورة فـي كـل أرجاء المجتمع، وفي المحتوى الداخلي للإنسان، فتنقلب مشاعره الفردية إلى مشاعر جماعية، ويتحول حبه لمصالحه ومنافعه الخاصة إلى حب لمنافع الجماعة ومصالحها»[١].

هذه النظرية الماركسية أنكرت الفطرة البشرية القائمة على غريزة حب الـذات التـي نـتج عـنها، بشكل غرائزي، الملكية الفردية. فحب التملّك، والاسـتئثار الفـردي همـا نتـيجة من نتائج هذه الغريزة. فلم تستطع، بعد

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة الإسلامية، دار الزهراء، بيروت، ص ٨٣ وما بعدها.

الممارســة العملية التي حاولت تطبيقها على ثلاثة أجيال من الحكم الشيوعي الصــارم في الاتحاد السوفياتي، تبديل هذه الفطرة الإنسانية القائمة على هذه الغريزة. ولست أظن أن الشيوعية، بصرف النظر عن الارتكاسة الكبيرة التي شهدها الاتحاد السوفييتي، قد استطاعت بتجربتها التي دامت سبعين سنة، أن تبنــي جيلاً من الناس محيت من نفوسهم غريزة حب الذات التي أنتجت حب الملكية الفردية، وأصبحوا شيوعيين كاملين، تعرض نفوسهم عن هذه الملكية إلى مثالية ملكية الجماعة. ولعل هذه الغريزة كانت من العمق بحيث استحال علــى التجربة الشيوعية اقتلاعها من نفوس الناس. فكانت أحد أهم العوامل التي سببت انهيار التجربة الشيوعية السوفياتية.

فالإنسان، هذا الكيان المكون من مادة وروح، كما يطيب له تملّك المادة المتمــثلة فــي المال، لتأمين أغلب نواحي رفاه حياته ولذاتها، يمتعه، أحياناً، إنفاق هذا المال على محتاج، أو يؤثر ولده أو صديقه على نفسه. وقد يضحي في سبيل بعض القيم والمثل. وهذا الإنفاق وتلك التضحية لا يقوم بهما إلا إذا أحــدثا لـــه لذة خاصة، أو منفعة تفوق الخسارة التي خسرها من جراء ما ضحّى به أو أنفق.

وهكــذا نجد أن الإنسان، كما يتلذذ بالأشياء المادية عندما يشبع غريزة الــتملك أو غريزة الجنس، كذلك يشعر بلذة معنوية حين يمارس عملاً خلقياً، أو عــند قــيامه بعمــل يخدم الإنسانية، أو يخدم عقيدة راسخة في نفسه، أو يمارس قيماً تشكل جزءاً من كيانه الخاص.

لكــن غرائــز الإنسان تنشأ فطرياً في كيانه؛ كغريزة التملك وغريزة الجــنس. أما الميول المعنوية، والقيم الخُلقية، فلا تظهر في حياة الإنسان إلا بالتــربية والتلقــين، وتنمــية الضــمير. يمارسها الإنسان بعد اقتناعه بها، ورسوخها في نفسه، وربطها بالغريزة الفطرية الرئيسة التي هي حب الذات. مــن هنا نجد في المجتمعات الإنسانية من يضحي ببعض حاجاته المادية في سبيل إشباع قيمه الخلقية والعاطفية.

تلــك هـــي رســالة الدين الذي يعطي للحياة المعاشة بعدها الماورائي الخالـد. ويعطي للإنسان بعده الروحي الذي يربطه بخالقه، ويريه أن الحياة الدنــيا الفانية ليست إلا مقدمة لحياة أخرى أبدية خالدة. وإن ما يملك في هذه الحــياة لا بد مفارقه يوماً. وأن ما يعمله من عمل صالح، وما ينفق من ماله علـــى الفقــراء والمحتاجين «عيال الله»، وفي سبيل البر والإحسان، إنما هو مال باق، سوف يتلقاه أضعافاً مضاعفة في حياته الأخرى، كما يصور القرآن للمؤمنين، ويحثهم على الإنفاق في سبيل الله: «**مَثَل الذين ينفقون أموالهم في ســبيل الله كمــثل حــبة أنبــتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم**» (البقرة، ٢٦١). وهكذا، نجد أن الدين يقــرّ المقياس الفطري للعمل والحياة الذي هو حب الذات، ويسمو به ليشمل حــياة أخرى خالدة ينعم الإنسان فيها برضى الله، حيث تتوازن في مفاهيمه القيم الفردية والاجتماعية.

فالمقياس الخلقي القائم على رضى الله تعالى يضمن للإنسان مصلحته الشخصية الدنيوية في الوقت نفسه يحقق له أهدافه الاجتماعية. فالإنسان الذي يعمل لإقامة المجتمع الصالح، مضحياً بعض مصالحه الآنية، إنما يعمل على تأمــين هــذه المصالح بمصالح أخرى تكتب في حسناته، ليعوِّض لــه عنها بــأعظم وأجــل العوض. وهكذا نجد أن الدين يُدخل أعمال الفرد، التي تفيد المجــتمع، فـــي حساب ربحه الشخصي. ولا يقيم أي تعارض بين المصلحة الشخصية والمصلحة الاجتماعية. فمسألة الفرد هي مسألة المجتمع أيضاً. ولا يمكــن لفهم مادي للحياة، الذي يجعل الإنسان بطبيعته لا ينظر إلا إلى حياته الحاضــرة المحــدودة، حــل هذه المعضلة. على عكس التفسير الديني الذي يعطي الإنسان بعده الماورائي الخالد، ويوسع من ميدان الحياة، ويعطيه نظرة أعمق وأشمل إلى مصالحه ومنافعه، ويجعل من الخسارة العاجلة ربحاً حقيقياً آجلاً، ويربط بين الدوافع الذاتية وسبل الخير. والقرآن يوضح ذلك في آيات كثيرة تدعو الإنسان لعمل الخير في هذه الدنيا لينال الجزاء الأوفى في حياته

الأخـــرى: «**ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجـــنة يرزقون فيها بغير حساب**» (غافر، ٤٠). وقوله: «**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**» (الزلزلة ٧ و٨). وقوله: «**إن الله يـــدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار**» (الحـــج، ٢٣). وقـــوله: «**وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنت لا تظلمون**» (البقـــرة، ٢٧٢). وقوله: «**ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نَصَب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلاّ كتب لهـــم بـــه عمـــل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صـــغيرة ولا كبيـــرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون**» (التوبة، ١٢٠-١٢١).

ويقول الإنجيل: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقـــراء فيكون لك كنز في السماء» (متى ٢١/١٩). وقوله: «وأما من يفعل الحـــق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة» (يوحنا ٢١/٣). وقوله: «أن ليس أحد ترك بيتاً أو والدين أو أخوة أو امرأة أو أولاداً من أجل ملكـــوت الله إلا ويأخذ في هذا الزمان أضعافاً كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (لوقا ٢٩/١٨). وقوله: «بيعوا أملاككم وأعطوا صدقة. اعملوا لكم أكياساً لا تفنى وكنزاً لا ينفذ في السموات» (لوقا ٣٣/١٢).

هـــذه الآيـــات فـــي الإنجيل والقرآن تربط بين الدوافع الذاتية وأعمال الخيـــر، وبـــين مصالح الإنسان الخاصة والمصالح الإنسانية العامة. فمهمة الـــدين هـــي تربية الإنسان روحياً، وتنمية المشاعر الإنسانية، والقيم الخلقية النبـــيلة فيه. فيغدو العمل في سبيل تلك القيم تنفيذاً كاملاً لإرادة حب الذات. ويغـــدو تحقـــيقها محبباً إلى نفسه، ومعبراً عن لذة شخصية خاصة تتولد في نفـــس الإنسان من الإحساس بأن عمله الخير للآخرين إنما هو قربى من الله ومكسب لا يعادله أي مكسب مادي في هذه الحياة.

فـــالفهم الديني للحياة بكونها تمهيداً لحياة أخرى أبدية خالدة، والطريق السوي إليها هو السلوك الحسن والأخلاق الحميدة، يمهّد لإدراك الغاية المثلى للإنســـان المؤمـــن، ألا وهـــي نـــيل رضوان الله تعالى. تلك الغاية التي لا يضارعها مكسب مادي مهما جلب من لذائذ الحياة.

فالـــنظام الإســـلامي، الـــذي يقوم على الفهم المعنوي للحياة وربطها بالـــرقابة الإلهـــية على عمل الإنسان، قد وازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجـــتمع. فلـــم يضحِ بالفرد من أجل الجماعة ولم يضح بالمجتمع من أجل الفـــرد. فلـــيس الفـــرد هـــو القاعدة المركزية في التشريع والحكم، كما في الرأسمالية. وليس الكائن الاجتماعي الكبير هو الشيء الوحيد الذي تنظر إليه الدولـــة وتشرِّع لحسابه، كما في الشيوعية. فلا يجري مع الفرد في نوازعه الذاتـــية، ولا يكبـــت فيه طبيعته الفطرية من أجل وقاية المجتمع ومصالحه. فجعل الطريق إلى غاية غايات المؤمن، التي هي نيل رضى الله، عمل الخير للناس. فالفرد يشعر أنه مسؤول عن بقية أعضاء الجماعة. فالإسلام وحّد بين مصـــلحة المجـــتمع ومصلحة الفرد. كما فرض على المجتمع كفالة أفراده، ورعايـــة مصـــالحهم، وحمايتهم من العوز والفقر والمرض، والتعدي على حقوقهـــم، وحقن دمائهم، والمحافظة على كراماتهم، كما كرّمهم الله: «**ولقـــد كرمنا بني آدم**» (الإسراء، ٧٠).

فالديـــن جعل للفرد مثلاً أعلى يسعى إليه، وطريقه في ذلك الأخلاق، والقـــيم العلـــيا، والسلوك المستقيم، وجميعها تمثلت في الناموس الإلهي الذي ورد فـــي توراة موسى وإنجيل المسيح وقرآن محمد، في نظرة شاملة للحياة والكون والمجتمع والسياسة والاقتصاد.

والاخـــتلاف الأهـــم بيـــن الدين والنظم المادية الليبرالية والماركسية الشـــيوعية، هو خلاف في الغايات. فالدين يجعل رضى الله هو غاية الغايات التـــي لا يخـــتلف فيها مؤمن مع مؤمن آخر، أياً كان دينه أو مذهبه. والنظم

المادية جعلت الاقتصاد هو الغاية. هذه الغاية التي تتمثل فيها المصلحة المادية للأفراد والدول. وهذه المصالح تتناقض بين الأفراد وبين الدول، وتحول المجتمعات البشرية إلى حالة صراع دائم، وحروب لا تنتهي ما دامت هذه الغايات المادية هي المحدد الأوحد للعلاقات الإنسانية. فهي تقود المجتمع الإنساني، كما يقول هوبس: «إلى حرب الكل ضد الكل». فغياب أي مبدأ إلهي، يتسامى على شهوات الأفراد والجماعات، يقود إلى التسلط من أجل التسلط، وتغدو فيه الغاية من المواجهات بين الأفراد والأحزاب قهر العدو للحلول محله.

ليس الإسلام نظاماً خلقياً وعقيدياً وحسب، بل هو نظام كامل للحياة الإنسانية، فهو يرشّد سلوك الإنسان مع نفسه ومع غيره ومع ربه. فالذي يقتل نفسه (ينتحر) يرتكب بهذا العمل معصية كبرى ومحرماً لا يرضى به الله. أما علاقة الفرد بربه فهي علاقة طاعة تامة، والتزام بما امر وانتهاء عما نهى. من هنا، يصبح الإنسان محرراً من عبوديته لأي مخلوق مهما علا شأنه: «فلا إله إلا الله». أما علاقة الإنسان بغيره؛ بأفراد أسرته، بأقربائه، بجيرانه، بجميع أفراد مجتمعه، فهي علاقة فصّلها القرآن وأوضحتها الأحاديث النبوية، تقوم على المحبة والأخوة والعدل والتراحم.

هذا التنظيم للعلاقات الفردية والاجتماعية التي تتمثل في ثلاثة محاور؛ علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته بربه، وعلاقته بمجتمعه، يشكل البنية الأساسية للإسلام. فالإسلام، إذن، ليس عقيدة تحفظ في القلب فقط، بل إيمان وعمل، دين ودنيا.

فنظرية الإسلام لإصلاح المجتمع تقوم على مفهوم أن الإنسان يتكون من روح وجسد، ولا بد من التوازن بينهما. فلا يهتم بجانب على حساب الجانب الآخر. فإذا أراد الإنسان أن يزكّي روحه ويهمل جسده تماماً، كما يعمل بعض غلاة تقديس الروح واحتقار الجسد، فقد أخلّ بالتوازن الطبيعي لوجوده، وحط من طاقات شخصه، ولم يبلغ ــ بحال من الأحوال ــ الرتبة

الملائكـــية على الأرض. وكذلك من أهمل روحه وحصر اهتماماته بحاجاته الجسدية فإنه يضعف من إنسانيته، وينحط إلى ما يشبه الحياة الحيوانية. الذي يقـــول فـــيهم القـــرآن: «**أولـــئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**» (الأعـــراف، ١٧٩). ويقـــول: «**إن هـــم إلا كالأنعـــام بل هم أضل سبيلاً**» (الفرقان، ٤٤).

لقد وازن الإسلام بين الدين والدنيا، أي بين الحياة المعاشة وبين حياة الآخـــرة. ولم يهمل إحداهما على حساب الأخرى. ولم يدع إلى زهادة كاملة بالحـــياة والعـــيش: «**قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**» (الأعراف، ٣٢) لكنه نوّه بتفضيل الحياة الأخرى مرغباً الناس بعمل الصـــالحات وعدم التكالب على الدنيا: «**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**» (الحديد، ٢٠). لقد أمر بالعمل الجاد للحياة الأخرى دونما إهمال لهذه الحياة، يقول القرآن: «**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**» (القصص، ٧٠). ويقول رسول الله: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه» (مسند أحمد رقم ١٨٨٥). ويقـــول الإمـــام علي: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» (نهج البلاغة).

«فالإســـلام فـــي جوهره أكثر من مجرد إيمان ديني تعبدي، إنه نظام حـــياة، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية، الدينية منها والزمنية. فكما يجد الإنسان في الإسلام ما يشبع شوقه الروحي عن طريق الإيمان بالله، والتعبد لـــه بالصوم والصلاة والحج والزكاة، كذلك يجد فيه نظاماً من القيم الأخلاقية والشـــرائع المدنية، التي تعطيه أجوبة مفصّلة لما يعترضه من مشكلات في المعـــاملات اليومية. إن الإسلام نظام كامل تلتقي فيه الحياة الروحية بالحياة الدنيوية. وبهذا المعنى فالإسلام نظام روحي ونظام زمني. كل منهما متصل بالآخر، مكمل له، ولا مجال للفصل بينهما»[1].

---

(١) راجع: أنور الجندي، سقوط العلمانية، دار الكتاب اللبناني، ص ٣٥، بيروت.

يقـول العـالم (جورج روبير): إن الإسلام ليس ديناً فحسب، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ، وإنه أيضاً، وبصفة خاصة، مجتمع روحي واجتماعي، ونظام سياسي، وأسلوب للعيش. ولقد أعطى الإسلام للدنيا حقها، وللآخـرة حقها، فلا تزهق الروح على حساب البدن، ولا يزهق البدن على حساب الروح، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم[1].

ويقـول (امـيل دورمنجهام): «الإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية، لا صلة لها بالمادة، ولا بالحياة، وإنما الإسـلام عقـيدة ترتكز على المادة والروح، والدنيا والآخرة، جسم، روح، ودولـة، وديـن، وحـياة، وغـيب. والإسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيداً لنظريات الاجتماع الحديثة، بل لأنه يدفع الإنسان دوماً إلى الأمام[2].

واقع الثقافة في الشرق الإسلامي

دخلـت الثقافة الغربية إلى هذا الشرق قبل دخول الجيوش المستعمرة، فـي القـرن التاسـع عشر، وهو في أميّة كاملة، تحت حكم الامبراطورية العثمانـية، فكـان مـن السهل عليها أن تملأ هذا الفراغ بفتح مدارس مدنية تـدرّس علوم العصر منفصلة عن الدين الإسلامي. وقد سبقت هذه المدارس والجامعـات الإرسالية دخول الجيوش الأوروبية بعشرات السنين في بعض الدول العربية، كما في لبنان. حيث كانت الدول الاستعمارية تتنافس فيما بينها للسيطرة على هذا الشرق، وانتزاعه من أيدي الأتراك. فراحت ترسل البعثات والإرسـاليات، تهيئ المناخ لها لحكم البلاد. فافتتحت المدارس الأجنبية لتعلم الـناس لغـة الحكّام القادمين، وتخرّج المساعدين. وما انتصف القرن التاسع عشـر حتـى كـان هـناك جامعتان في بيروت؛ الجامعة اليسوعية الناطقة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

بالفرنسية، والجامعة الأميركية الناطقة بالانكليزية. من هاتين الجامعتين تخرج الرعيل الأول من رجال الحكم والإدارة الذين استلموا حكم البلاد وإدارتها خلال وجود المستعمر، واستمروا بحكمها وإدارتها بعد رحيله.

لا يستطيع أحد أن ينكر دور تلك المدارس والجامعات الإرسالية في استنهاض الوعي في هذا الشرق الإسلامي الذي قُضي فيه على كل معالم العلم والثقافة الدينية منها وغير الدينية، في ظل الحكم العثماني. لكن ما علّمته هذه المدارس والجامعات الغربية كان ثقافتها العلمانية، اللهم إلا بعض المدارس الإرسالية المسيحية التي أحدثت معالم نهضة بين المسيحيين والوطنيين.

هؤلاء المتعلمون الأولون، الذين تسلموا إدارة شؤون البلاد الإسلامية، كانوا قد تثقفوا بالثقافة الغربية، واقتنعوا بصلاحها من أجل قيام نهضة في هذا الشرق على غرار ما قام في الغرب. فوضعت البرامج التعليمية بعيداً عن تدخّل التعليم الديني، واستعيرت القوانين الغربية بحرفيتها لتطبق في القضاء، وتدرّس في الجامعات الوطنية. ولم يبق في جميع البلاد الإسلامية للفقه الإسلامي من دور إلا في بعض الأحوال الشخصية؛ من زواج وطلاق وإرث...

كان من الطبيعي أن تخرِّج تلك المدارس والجامعات، ذات المناهج الغربية، جيلاً علمانياً لا علاقة له بالدين. وإذا كان للدين من دور في تلك المدارس الرسمية، نزولاً عند إلحاحٍ بعض المطالبين، فدور جد هامشي، سويعات قليلة في الأسبوع، تدخل تطفلاً على البرامج الدراسية لتعلم المبادئ العبادية بطريقة نظرية. وغالباً ما لم يكن لها علامات ينالها التلامذة في امتحاناتهم المدرسية، ولا تدخل ضمن برامج الامتحانات الرسمية.

في مقابل هذه المدارس والجامعات العلمانية التي انتشرت ــ في القرن العشرين ــ في جميع البلاد الإسلامية، تكافح ظلام الأمية الكاملة المسيطرة

علـــى هذا الشرق، كان هنالك مدارس دينية قليلة، تكافح لكي تثبت وجودها ووجــود الديــن الإســلامي في وجه المنحى العلماني الذي راح يكتسح كل الأجــيال الجديدة المتعلمة، والذي راح يتنامى عاماً بعد عام، وخصوصاً بعد ذهــاب الاستعمار واستلام السلطات الوطنية شؤون التعليم، وبعد أن أصبح التعليم في أكثر البلاد العربية مجانياً، متيسراً لجميع فئات الشعب.

لكن هذه الدارس الدينية التي تخرج المشايخ وأئمة المساجد، ظلت تعلِّم في كتب فقهية صفراء، زاد عمرها على الألف سنة، بعيدة عن مجاراة وعي العصر، وسنة تطور الفكر، وتطور القوانين. فظل هنالك فارق كبير وفجوة شاســعة بيــن تفكير خرّيجي المعاهد الدينية وخريجي الجامعات المدنية؛ فلا أولئك (بشكل عام) تقدموا ودخلوا ثقافة العصر، وتعمقوا في فهم الواقع على ضــوء مســتجدات الفكر وتطور مجريات الزمن، ولا هؤلاء تعمقوا في فهم التراث وتثقفوا بثقافة الدين لكي يستطيعوا الربط بين جذورهم الثقافية ومفاهيم ثقافــة العصــر التي تلقوها في برامج مدارسهم وجامعاتهم العصرية. فظل دارس العلــم الدينــي في وادٍ، ودارس العلم العصري في وادٍ آخر، يفصل بيــنهما، فـــي المفاهيم، مسافة ألف سنة. فلا هذا يسمع صوت ذاك، ولا ذاك يسمع صوت هذا.

لكـــن، أمـــام هـــذه الصورة السوداوية، بدأنا نرى، في العقود القريبة الماضية، نفراً من كبار علماء الدين الإسلامي، معممين أو غير معممين، قد تعمّقــوا، إلى جانب ثقافتهم الدينية، في وعي الثقافة الحديثة، واستطاعوا أن يشرحوا الإسلام بمستوى فكر العصر ووعيه. واستطاعوا أن ينفذوا إلى فكر الكثــير مـــن متعلمـــي العلوم العصرية، وينقلوا إليهم الإسلام بالصورة التي تـــتلاءم مـــع عقولهـــم، ولا تتـــناقض مع الطرق العقلية التي درجت عليها أفكارهم، وتصحح الكثير من المفاهيم الخاطئة التي رسخت في أذهانهم، كأمر واقعـــي وحتمي. كما أصبحنا نجد، في الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية، من

رجع إلى جذور الدين، وراح يدرسه على ضوء معطيات العلم ومستجدات المعرفة الحديثة، ويستنبط ما في أغواره من قيم وحقائق، قصّرت ثقافة العصر وعلومه عن استجلائها واكتشاف ما فيها من كنوز إنسانية وروحية. فيشرحها بأسلوب عصري يتلاءم مع عقول الجيل الجديد من المتعلمين، ومستوى ثقافتهم.

هذه الثقافة الشمولية، التي تجمع بين الدين والدنيا، بين ثقافة الماضي وثقافة العصر، بمبادرة عالم دين أو عالم دنيا ــ وإن كانت لا تزال في بدايتها ــ هي المنتج الثقافي الذي يرسي ثقافة عصرية مستقبلية، ذات بعد إنساني وعالمي، تصحح فترة من ثقافة غربية شردت عن جادة الصواب، باستبعادها للدين وقيمه عن حياة المجتمع البشري، وترسي ثقافة مؤمنة تجمع بين الدين والدنيا في سياق تاريخي واحد يصحح الكثير الكثير من مسار الإنسانية وانحراف الثقافات، وتحمي ثقافة دينية شرقية، ران عليها زمن من الجمود والخمول، وكفّت عن الفعل والعطاء، بسبب عوامل خارجة عن طبيعتها وجوهرها، جعلتها تتقوقع في جهل أهلها ومجاهل التاريخ.

هنالك مفهوم شائع بين مثقفي الغرب العلماني ــ استناداً إلى التجربة الأوروبية ــ وهو، أن الدين هو سبب تخلف الشعوب والأمم. وإن أوروبا لم تدخل عصر العلم والتقدم إلا بعد أن تخلصت كلياً من الدين المسيحي، واتخذت العلمانية لها نظام مجتمع ونظام حياة. واستناداً إلى هذا الرأي فهم يعزون تأخر الشرق إلى كونه لا يزال متمسكاً بالدين، ولم ينح المنحى العلماني الكامل. واشترطوا لتقدم هذا الشرق أن يخرج الدين من حياة المجتمع والدولة كي تزول عقبة كأداء في سبيل تقدمه. ولأصحاب هذا الرأي نقول:

١ ــ أن تقدم أوروبا لم يأتِ عن طريق إزاحة المسيحية عن الحياة، بل أتى عن انتزاع السلطة من رجال الدين المسيحي الذين أساؤوا استعمالها،

اعتماداً على أفكار خاطئة، ليست من المسيحية في شيء، واعتماد العلم في الصناعة والزراعة والطب والفلك وسائر حاجات الناس المادية. والعلم حيادي يمكن لأي شعب أن يعتمده مهما كان دينه ومعتقده. وقد استخدمه المسلمون وبرعوا فيه في أوج ازدهار المجتمع الإسلامي.

٢ ــ إن هذا الشرق العربي الذي كان يعيش جاهلية مظلمة، لم يبنِ فيها حضارة أو مدنية أو علماً قبل اعتناقه الدين الإسلامي. فالإسلام هو الدافع والحافز والحاضن لما أُنشئ من حضارة وعلوم. وعندما تخلى حكّام المسلمين عن تطبيق مبادئ الإسلام وقيمه في الحكم والسياسة والقانون، وكافة شؤون الحياة، انهارت تلك الحضارة. وعاد العرب إلى ما يشبه «جاهلية» ما قبل الإسلام.

٣ ــ إن أصحاب هذا الرأي يقيسون تاريخ البشرية، بكليته، على تاريخ أوروبا، ويجعلون منه المقياس العالمي الأوحد لحركة التاريخ. علماً أن لكل شعب من الشعوب بناءه الحضاري الذي يتفرد به مستقلاً عن أي نموذج آخر. فلم تكن نهضة اليابان العلمية بسبب تخلي شعبها عن دينه، ولا كان تخلي الأنظمة العربية عن الشرع الإسلامي وأخذها بالقوانين الوضعية العلمانية سبباً في تقدمها وخروجها من مستوى ما يعرف بدول العالم الثالث.

فالعالم اليوم أمام ثقافتين: ثقافة تنطلق من الإيمان بالله كأساس لها ومنطلقاً لسلوكها، ونظرتها إلى الإنسان والمجتمع. وأخرى تستبعد هذا الإيمان كأساس في تكوين مفاهيم الإنسان والمجتمع، وتنظر إلى الإنسان ككائن مادي صرف، لا يملك أي بعد ما ورائي، أو أي امتداد لحياته خارج هذه الحياة المادية المعاشة.

الأولـــى: ذات طابـــع أخلاقـــي، تعطي الأولوية للقيم وللإنسان، البعد الإلهي في الأرض. من هنا، فهي ثقافة إنسانية في جميع منطلقاتها، لا تحمل الشعب الذي يعتنق مفاهيمها على معاداة أي شعب من الشعوب الأخرى على أساس مصلحي.

والثانـــية: فهـــي ذات طابع نفعي، تعطي الأولوية للربح والاستحواذ، لـــذلك، وفـــي غـــياب الوازع الديني، أباحت لنفسها استعمار الشعوب ونهب خيـــرات بلادها، دونما خوف من إله أو تأنيب من ضمير ديني. وهي تفتح الباب دائماً لحروب من أجل المصالح، بصرف النظر عن العواقب التي تجر البؤس والدمار وسفك الدماء.

فالثقافة الإسلامية، لكونها أخلاقية وإنسانية، لا يمكنها تطوير العلم إلا لمصـــلحة الجـــنس البشري، لأن عقيدتها تحرّم ما يؤدي إلى ضرر البشر، وتلـــويث البيئة الطبيعية التي وهبها الله لهم، وتدميرها. بينما نرى ما أنتجته علـــوم الـــثقافة المادية الحديثة من وسائل وأساليب الحرب والدمار في البر والبحـــر والجو، ما يهدد الجنس البشري بالفناء، فيما لو استعمل ما لديها من قـــنابل ذريـــة وهيدروجينـــية، ومخزون أسلحة الدمار الشامل من كيميائية وبيولوجية.

فهـــل يعني هذا التمايز الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب صداماً حتمـــياً لا بـــد منه من أجل استقرار البشرية على طريق واحدة، ومن أجل وحدة الإنسانية ونهاية الصراع بين الشعوب والأمم؟

هذا ما يراه بعض مفكري الغرب الأميركي أمثال صموئيل هنتنجتون. لكـــن الإســـلام لـــم يأمر بإلغاء التمايز الثقافي بين الناس. من هنا كان تقبله الأديان الأخرى، وتعايشه معها طوال الحكم الإسلامي الذي امتد ثلاثة عشر قـــرناً، مـــن يهـــودية ومسيحية ومجوسية وصابئة. ولم يشهد تاريخ الإسلام حروباً دينية مع اية ديانة أخرى، بل اتسمت جميع العهود الإسلامية بالتسامح

والتواصل وإشاعة مناخ الحرية مع جميع أبناء المجتمع الذي حكمته الدولة الإسلامية، على تعدد الأعراق والقوميات وامتداد ساحة الحكم من المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

فالإسلام أمر بالتسامح مع معتنقي الأديان والأفكار الأخرى، وعدم مجادلتهم «إلا بالتي هي أحسن»، كما يقول القرآن الكريم الذي حدّد اسلوب الحوار بالانطلاق من فكرة المساواة بين الناس، وبالتالي المساواة بين المتحاورين، لعلي على ضلال وأنت على هدى، فأستفيد من آرائك. أو لعلي على هدى وأنت على ضلال فتستفيد من رأيي. كما عبّر القرآن عن ذلك بقوله: «**وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**» (سورة سبأ، ٢٤). ولم يعطِ الإسلام لأتباعه الحق بفرض أفكارهم ومعتقدهم على الشعوب التي خضعت لنفوذ دولتهم، بل وضع القرآن لهم القاعدة التي عليهم اتباعها في تعاملهم مع شعوب الأرض بقول القرآن: «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**» (سورة الحجرات ـــ ١٢). وليس لتتقاتلوا، ولا لتتحاربوا. والتعارف الذي دعى إليه القرآن لا يتم إلا عن طريق الحوار بين الثقافات من أجل التفاهم والتقارب والتفاعل الفكري والحضاري. وهذه الآية نزلت في المدينة بعد قيام الدولة وتحول المجتمع إلى مجتمع سياسي.

في العصر الحديث، يوم حصل التواصل، لم تقم العلاقة الثقافية بين الشرق الإسلامي والغرب العلماني على أساس الحوار والتفاعل. وإنما قامت على أساس الإملاء والتقبّل، قوي يملي وضعيف يتقبل.

يوم جاء الغرب المستعمر كان الشرق في حالة أمية شاملة، وركود ثقافي، وضعف سياسي وعلمي وعسكري. وكان الغرب، إلى جانب امتلاكه للقوة العسكرية والمالية والسياسية، يحوز على نهضة علمية وثقافية. فكان الخلل خطيراً بين الاثنين. فكان ثمة عملية تواصل أحادية الجانب: فالغرب

هو القوي الذي يعطي، والشرق الإسلامي الضعيف هو الذي يأخذ. ولم تحدث عملية تبادل وتفاعل بين الثقافتين. ولم يكن العالم الإسلامي في حالة جهله وضعفه، المادي والعلمي، قادراً على الانتقاء. بل كان منفعلاً وحسب، لا قدرة له على الفعل والتأثير. فنتج عن ذلك طبقات من المتعلمين في حالة ضياع ثقافي، اتّبع بعضها نمطاً معيشياً وحياتياً غربياً، واقتنع بفكر الغرب وصواب ثقافته العلمانية، وأخرج الدين ومحرماته من حياته ومعتقده. وهو لا زال يعمل جاهداً لتسود ثقافة العلمانية في البلاد الإسلامية لتحقق هذه نهضتها، كما حقق الغرب نهضته.

مقابل هذه الفئة، تكونت طبقة من الذين يرفضون الثقافة الغربية رفضاً مطلقاً، كثقافة كافرة ملحدة، تناقض الإسلام كدين يؤمن بالله وينفذ تعاليمه. وترى هذه الفئة أن لا نهوض لهذا الشرق إلا بالعودة إلى الدين من مصادره الصافية، والالتزام بتعاليمه من أجل بناء المجتمع السليم والقوي على غرار المجتمع الإسلامي الأول.

بالإضافة إلى هاتين الفئتين يوجد فئة ثالثة، لا زالت تؤمن بالدين الإسلامي كناظم لقيم المجتمع وأخلاقه، والضابط لسلوك أفراده. لكنها تدعو للانفتاح على الثقافة الغربية، والانتقاء منها ما يفيد في خلق نهضة في هذا الشرق، وعدم الانغلاق على أي من ثقافات العالم. وتؤمن بحوار الثقافات، وتلاقح الحضارات، مع المحافظة على الهوية الثقافية وإغنائها بالانفتاح على كل معارف وعلوم جميع الأمم، والانتقاء منها ما لا يتعارض مع الأخلاق والقيم والمقولات الثقافية الإسلامية، من أجل صياغة وتكوين نوعية خاصة من الشخصية الإسلامية في نسيجها الإنساني.

نجد أنه لا يوجد شخصية ثقافية واحدة في عالمنا الإسلامي، بل هنالك ضياع فكري وتشتت ثقافي «فيه من الإسلام شيء، ومن اليهودية شيء، ومن

المسيحية شيء. من الروحية شيء، ومن المادية شيء، وفيه شيء من كل شيء» (على حد تعبير الإمام محمد مهدي شمس الدين).

وهكذا، نجد، في هذا الشرق، صراعاً مستمراً بين الدين والعلمانية. ولم تحسم المعركة، بعد، كلياً لأحدهما، إلا في الثورة الإسلامية الإيرانية، وفي دولة عربية واحدة هي السعودية التي لم تدخلها العلمانية، لا من قريب ولا من بعيد، تحصّن نفسها بالفقه الحنبلي وبفكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وتطبق الشرع الإسلامي بحرفيته، حول الحرمين الشريفين، كما كان يطبق في العهود الإسلامية الأولى. والعلمانية انتصرت في تركيا منذ عهد أتاتورك. ولا يزال الصراع قائماً على أشده بين التيارين، على المستوى الشعبي في جميع اصقاع هذا الشرق.

أما باقي أنظمة الدول العربية فهي تحكم بالقوانين الوضعية، لكنها تجاري شعوبها باحترام شعائر ومقولات الدين، في الحياة العامة والخاصة. فيها من الأنظمة الاستعمارية بقية، ومن الإسلام بقية، وفيها لون، وإن بهت، من مستجدات الديمقراطية، ومن عهد سلاطين بني عثمان فيها لون، ولتفرد بعض حكامها واجتهاداتهم الخاصة، لون من كل لون.

مراجع الكتاب

المراجع العربية:

١ ــ القرآن الكريم.

٢ ــ الكتاب المقدس (الأناجيل الربعة وتوراة موسى الأصحاح الخمسة) دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

٣ ــ كتب الأحاديث النبوية.

٤ ــ الأديان الحية، أديب صعب، دار النهار للنشر، ١٩٩٣، بيروت.

٥ ــ مقدمة في فلسفة الدين، أديب صعب، دار النهار للنشر، ١٩٩٤، بيروت.

٦ ــ الحوار الإسلامي المسيحي، الدكتور سعود المولى، دار المنهل اللبناني، بيروت.

٧ ــ موسوعة الأديان، الدكتور سامي أبو شقرا، ٣ أجزاء، دار الاختصاص للنشر، بيروت، ١٩٨٩.

٨ ــ مقارنة الأديان، الدكتور أحمد شلبي، ٤ أجزاء، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثامنة، ١٩٨٨.

٩ ــ موسوعة الأديان في العالم، دار كريبس، ٢٠٠٠، بيروت.

١٠ ــ موسوعة قصة الحضارة، ول ديورنت، ترجمة د. زكي نجيب محمود، بدون تاريخ.

١١ ــ البهاجافادجيتا، د. شاكوانتالا راواشاستري، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، اللاذقية، ١٩٩٣.

١٢ ــ الإسلام في عصر العلم، محمد أحمد غمراوي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٧٣.

١٣ ــ شريعة موسى من شريعة حمورابي، الأب سهيل قاشا، دار بيسان، بيروت، ٢٠٠٣.

١٤ ــ جغرافية الأديان، دافيد سوفير، ترجمة غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٩٠.

١٥ ــ صورة الهند، مختارات، ترجمة عدنان بغجاتي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩١.

١٦ ــ الحكمة البوذية، جورج حلو، ريما صعب، روبير كفوري، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٧.

١٧ ــ الحكمة الهندوسية، جورج حلو، ريما صعب، روبير كفوري، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨.

١٨ ــ المعتقدات الدينية لدى الشعوب، عالم المعرفة، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، الكويت، ١٩٩٣.

١٩ ــ المعتقدات الدينية لدى الشعوب، جفري بارندر، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦.

٢٠ ــ معرفة الذات، للحكيم شنكَرَ، جورج حلو، ريما صعب، روبير كفوري، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٧.

٢١ ــ غاندي رسول اللاعنف، يوحنا قمير، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.

٢٢ ــ التوراة والإنجيل والقرآن، موريس بوكاي، ترجمة نخبة من الدعاة، دار الكندي، بيروت، ١٩٧٨.

٢٣ ــ إنجيل بوذا، ترجمة سليم شيًّا، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٠.

٢٤ ــ قصة الديانات، سليمان مظهر، الوطن العربي، بيروت، ١٩٦٥.

٢٥ ــ موجز تاريخ الأديان، فيلسيان شالي، ترجمة حافظ الجمالي، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، ١٩٩٤.

٢٦ ــ حوار المسيحية والإسلام، هانس كونج، جوزيف فان إس، ترجمة وإعداد الدكتور السيد محمد الشاهد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٤.

٢٧ ــ سقوط العلمانية، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون تاريخ.

٢٨ ــ الإسلام بين المذاهب والأديان، الدكتور أسعد سحمراني، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٢.

٢٩ ــ زرادشت نيتشه، بيار هيبر، سوفرين، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٤.

٣٠ ــ الإرهاب بين السلام والإسلام، عصام محفوظ، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٣.

٣١ ــ الصراع بين التيارين الديني والعلماني، الدكتور محمد ضاهر، دار البيروني، بيروت، ١٩٩٤.

٣٢ ــ موسوعة تاريخ أوروبا العام، تاليف بيار غريمال ورفقاؤه، ترجمة أنطوان الهاشم، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ثلاث مجلدات، ١٩٩٥.

٣٣ ــ الدين والدنيا في المسيحية والإسلام، جامعة البلمند، لبنان، ١٩٩٦.

٣٤ ـ موجز تاريخ الشرق الأدنى، الدكتور فيليب حتي، ترجمة الدكتور أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٥.

٣٥ ـ محنة ثقافة مزورة، الصادق النيهوم، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٠.

٣٦ ـ إسلام ضد الإسلام، الصادق النيهوم، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ١٩٩٤.

٣٧ ـ الديانة الفرعونية، السير ولِس بَدْج، ترجمة يوسف سامي اليوسف، دار المجد، دمشق، بدون تاريخ.

٣٨ ـ الإسلام في عظمته الأولى، موريس لومبار، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.

٣٩ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣.

٤٠ ـ السيرة النبوية لابن هشام، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦.

٤١ ـ خاتم النبيين، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون تاريخ.

٤٢ ـ تفسير الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣.

٤٣ ـ الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٣، ١٩٧٣.

٤٤ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

٤٥ ـ محمد والمسيح معاً على الطريق، خالد محمد خالد، دار العلم للملايين، ط ٧، ١٩٨١.

٤٦ ـ نظرة إيمان بالقرآن الكريم، الدكتور مرسال حداد، بيروت، ١٩٨٤.

٤٧ ـ الله جل جلاله، سعيد حوى، دار الدعوة، بيروت، ١٩٦٩.

٤٨ ـ الإمام المهدي في كتب الأمم السابقة والمسلمين، الدار الإسلامية، محمد رضا حليم، بيروت، ٢٠٠٣.

٤٩ ـ منهاج الإسلام في الحكم، تأليف محمد أسد، نقله إلى العربية منصور محمد ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٧٥.

٥٠ ـ شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، بدون تاريخ.

٥١ ـ في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ١٩٩٤.

٥٢ ـ العلمانية، محمد مهدي شمس الدين، دار التوجيه الإسلامي، بيروت، الكويت، ١٩٨٠.

٥٣ ـ الإسلام عقيدة راسخة ومنهج حياة، موسى الصدر، دار التعارف، بيروت، ١٩٧٩.

٥٤ ـ علم الفلك، لين نيكلسون، ترجمة علي مصطفى بن الأشهر، مكتبة الثقافة العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

٥٥ ـ الذرة والكون، بيار روسو، ترجمة عصام ميّاس، دار الكتاب اللبناني.

٥٦ ـ الكون، سمير عازار، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩١.

٥٧ ـ تغير الأحكام بتغير الأزمان، ميسّر سهيل، دار الأحباب، بيروت، ١٩٩٣.

٥٨ ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن، لابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٥٩ ـ حوار الحضارات، محمد خاتمي، دار الروضة، بيروت، بدون تاريخ.

٦٠ ـ يوم الخلاص، كامل سليمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩.

٦١ ـ هكذا علّم الحكيم رَمَنَ مَهَرْش، ريما صعب، جورج حلو، روبير كفوري، دار نوفل، بيروت، بدون تاريخ.

٦٢ ـ الإسلام والنصرانية، الشيخ محمد عبده، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٨ .

٦٣ ـ الإسلام شريكاً، فرتس شتيبات، ترجمة عبد الغفار مكاري، عالم المعرفة، أبريل ٢٠٠٤.

٦٤ ـ البهاجافادجيتا، س. بهكتي فيدانتاسوامي برابهو بادا، عرّبه الدكتور علي حسو، دمشق، بدون تاريخ.

٦٥ ـ الحكومة الديمقراطية، فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٧.

٦٦ ـ إنجيل برنابا، ترجمة الدكتور خليل سعادة، مطبعة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا، بدون تاريخ.

٦٧ ـ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، أبو الأعلى المودودي، دار القلم، تعريب خليل أحمد خليل، ١٩٧١.

٦٨ ـ تأملات، مالك بن نبي، ندوة مالك بن نبي، توزيع دار الفكر، دمشق، ط ٣، ١٩٧٧.

٦٩ ـ إسلام الحرية لا إسلام العبودية، الدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤.

٧٠ ـ دراسات في التاريخ، أنيس فريحة، دار النهار للنشر، بيروت، ٩٨٠.

٧١ ـ الفلاسفة والفكر الإسلامي، الدكتور محمد أبو حمدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٨.

٧٢ ـ طرق الفكر ـ الاستقراء، الدكتور محمد أبو حمدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٨.

٧٣ ـ طرق الفكر ـ الاستنباط، الدكتور محمد أبو حمدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٨.

٧٤ ـ من أجل حوار بين الحضارات، روجيه غارودي، ترجمة زوقان قرقوط، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٠.

٧٥ ـ الإسلام دين المستقبل، روجيه غارودي، ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإيمان، دمشق، بدون تاريخ.

٧٦ ـ الأصوليات المعاصرة، روجيه غارودي، تعريب الدكتور خليل أحمد خليل، دار عام ألفين، باريس، ١٩٩٢.

٧٧ ـ الإسلام الحي، روجيه غارودي، ترجمة الدكتور محمد ضاهر ودلال بواب ضاهر، دار البيروني، بيروت، ١٩٩٥.

٧٨ ـ محاضرات في قضايا الإسلام والعالم المعاصر، روجيه غارودي، ترجمة الدكتور محمد ضاهر، دار البيروني، بيروت، ٢٠٠٤.

٧٩ ـ العروبة والإسلام، الدكتور عصمت سيف الدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦.

٨٠ ـ عظماؤنا في التاريخ، الدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي.

٨١ ـ الأصولية المسيحية، جورجي كنعان، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥.

٨٢ ـ الإسلام العروبة العلمانية، الدكتور محمد عمارة، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٤.

٨٣ ـ الملل والنحل، الإمام البغدادي، تحقيق الدكتور ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، بدون تاريخ.

٨٤ ــ الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥.

٨٥ ــ الإنسان ذلك المجهول، الكسي كاريل، تعريب شفيق أسعد فريد، مؤسسة المعارف، بيروت.

٨٦ ــ الإسلام والعالم المعاصر، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٠.

٨٧ ــ الألوهة وفكر العصر، حامد عوض الله، المركز الثقافي الجامعي، القاهرة، بدون تاريخ.

٨٨ ــ الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٢٥، القاهرة.

٨٩ ــ الملل والنحل، للشهرستاني، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٢٨.

٩٠ ــ الإسلام في نظره إلى الله والإنسان والمجتمع والتاريخ، الدكتور عمر فروخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣.

٩١ ــ عبقرية العرب في العلم والفلسفة، دكتور عمر فروخ، المكتبة العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٥٢.

٩٢ ــ نظام الحكم والإدارة في الإسلام، محمد علي شمس الدين، دار المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٧، ٢٠٠٠.

٩٣ ــ أزمة الشورى في المجتمعات العربية، الشيخ محمد الغزالي، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

٩٤ ــ العروبة والعلمانية، جوزيف مغيزل، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٩٥ ــ الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٩٨٧.

٩٦ ـ المال والحكم في الإسلام، عبد القادر عودة، المختار الإسلامي، القاهرة، ط ٥، ١٩٧٧.

٩٧ ـ اغتيال العقل، برهان غليون، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧.

٩٨ ـ الله والعلم، جان غيتون، تعريب الدكتور خليل أحمد خليل، دار عويدات، بيروت، باريس، ٢٠٠٠.

٩٩ ـ شريعة حمورابي، مجموعة من المؤلفين، ترجمة اسامة سراس، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٣.

١٠٠ ـ قلق في الحضارة، سيغمون فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩.

١٠١ ـ الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، محمد عمارة، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٨.

١٠٢ ـ علوم الحديث ومصطلحاته، صبحي الصالح، دمشق، ١٩٧٣.

١٠٣ ـ نقد الحديث، الدكتور حسين الحاج حسن، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٥، مجلدين.

١٠٤ ـ في معركة الحضارة، قسطنطين زريق، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٧٣.

١٠٥ ـ العلمانية والإسلام، محمد البهي، مطبعة الأزهر، القاهرة، ١٩٧٦.

١٠٦ ـ عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد حميد، دار حطين، دمشق، ١٩٩٣.

١٠٧ ـ هموم داعية، محمد الغزالي، دار البشير، القاهرة، بدون تاريخ.

١٠٨ ـ الإسلام منهج الحياة، تأليف فيليب حتي، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢.

١٠٩ ـــ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

١١٠ ـــ تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري، دار القاموس الحديث، بيروت، بدون تاريخ.

المراجع الأجنبية:

1 – Denis Gira, Comprendre le Bouddhisme, Paris, Centurion, 1989.

2 – André Migot, Le Bouddha, Paris, Complexe, 1990.

3 – André Bareau< En suivant Bouddha, Paris, Philippe Lebard, 1985.

4 – Le Bahagavade Gîtâ (traduit du sanskrite) Paris, Seuil, 1976.

5 – Le Veda (textes reunis, traduits et presentés sous la direction de Jean Varenne), Paris: Denoël – Planète, 1967.

6 – Alain Danniélou, Histoire de l'Inde, Paris, Fayard, 1983.

7 – Paul du Breuil, Zarathoustra et la transfiguration du monde, Paris, Payot, 1979.

8 – Jean Varenne, Zarathoustra et la tradition mazdéenne, Paris, 1966, Seuil.

9 – Mircea Eliade, et Jean Couliano, Dictionnaire des Religions, Paris: Plon, 1990.

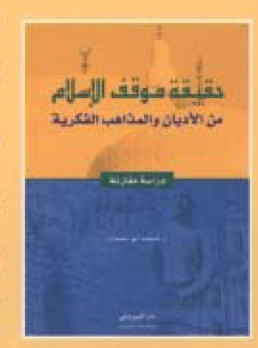
10 – Hans Küng, Le Cristianisme et les Religions du Monde, Paris, Seuil, 1986.

11 – The Song of the Lord: Bahagavad Gita (translated by S. Prabhavananda and C. Isherwood) New York; Mentor Books, 1954.

12 – H. D. Griswold. The Religion of the Rig Veda. Oxford University Press, 1923.

13 – J. G. Jennings. The Vedanti: Buddhism of the Buddha, Oxford: Oxford University Press, 1948.

فهرس الكتاب



مقارنة جريئة وجديدة بين نصوص التوراة والإنجيل والقرآن وكتاب «الباجاڤادجيتا» الهندوسي و«إنجيل بوذا» وكتاب «الأڤستا» لزرادشت، وتعاليم اخناتون المصري. وفيه تحليل لواقع هذه الأديان الأربعة الأخيرة بكونها جميعاً أديان سماوية، لا تنطبق عليها صفة الأديان الوضعية. وفيه مقارنة بين الإسلام والمذاهب الفكرية الحية كالعلمانية والشيوعية والرأسمالية وفيه أيضاً توضيح لرأي الاسلام في نظام الحكم، ومقارنة موضوعية بين الشورى والديمقراطية ونظام الخلافة الإسلامية. كما يحتوي على توضيح لموقف الاسلام من الاصولية بكل أبعادها الدينية والعلمانية. كما تجد فيه نظرية جديدة تتفق مع طريقة المذهب الوضعي في إدراك وجود الله عن طريق الحس والواقع المحسوس، كل ذلك بطريقة المقارنات العلمية التي تخرج في أكثرها عمّا هو مألوف ومتعارف عليه في المفاهيم الدينية السائدة، ودعوة لتجديد طرق الفكر وأساليب البحث، وقفزة نوعية في الخروج على التقليد وجمود الفكر الديني والخوض في «التابو» المقدس.

دار البيروني للطباعة والنشر
هاتف : ٩٦١ ١ ٧٥٣٩٥٨
فاكس : ٩٦١ ١ ٣٥٢٩٩٨
ص.ب. : ١١٣/٦١٩٩ بيروت ـ لبنان
بريد الكتروني : albiruni@inco.com.lb

